# تفسير القرآن العظيم

المسمّى

# أولى ما قيل في آيات التنزيل

□ تفسير القرآن العظيم المسمى أولى ما قيل في آيات التنزيل
تأليف : رشيد الخطيب الموصلي
اعتنى به : مجد أحمد مكي
الطبعة الأولى : ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©
قياس القطع : ١٧ × ٢٤
الرقم المعياري الدولي : ISBN : ٩٧٨٩٩٥٧٥٦٦٤٥٦
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢١٩/ ١/ ٢٠١٤)

أروقة للدراسات والنشر
هاتف وفاكس : ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمّان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني : www.arwiqa.net

**الدّراسات المنشورة لا تعبّر بالضرُورة عن وجهة نظر الناشر**

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال أو رفعه على شبكة الإنترنت دون إذن خطي سابق من الناشر. حقوق الملكية الفكرية هي حقوق خاصّة شرعًا وقانونًا، وطبقًا لقرار تجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة فإنّ حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مَصُونة شرعًا، ولأصحابها حقّ التصرُّف فيها، فلا يجوز الاعتداء عليها.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means without written permission from the publisher.

# تفسير القرآن العظيم

المسمّى

# أولى ما قيل في آيات التنزيل


تأليف العلّامة الشّيخ

رشيد الخطيب الموصلي

١٣٠٣ - ١٤٠٠هـ


المجلّد الثّاني

تفسير سورة الفاتحة إلى نهاية سورة آل عمران

اعتنى به وقدّم له

محمد أحمد مكّي


أروقة

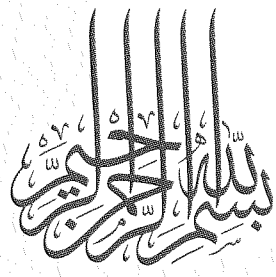
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدِّمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلامُ علىٰ محمدٍ وآله أجمعين.

وبعد،

فإني أتكلَّم مجمِلاً عن الديانات السماويَّة وتدرُّجها حتىٰ انتهت إلىٰ أوجها العالي بالديانة الإسلامية، ونزول القرآن العظيم، وشأنه الجليل، ومنَّة الله سبحانه به علىٰ البشر أجمعين.

ابتدأتِ الدياناتُ السماويَّة منذ هبوط آدم إلىٰ الأرض، قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ – ٣٩].

وقد تدرَّجت هذه الشرائع بتدرُّج رُقيِّ الإنسان في الوعي والعلم والمعرفة، وكانت الشريعةُ اللاحقةُ ناسخةً للشريعة السابقة، فإذا ظهرت الثانية بطل حكم الأولىٰ؛ لاندماجها فيها والزيادة عليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

ولا زالت هذه الشرائع تتدرَّج علىٰ هذا الأساس وينسخ بعضها بعضاً، حتىٰ انتهىٰ الإنسان إلىٰ أوَّل درجة الكمال في العلم والمعرفة، فأنزل الله القرآن ختاماً للشرائع كلها، واندماجها كلها فيه والزيادة عليها زيادةً تكفي لصالح البشر ما دام في الوجود، وضمَّنه كل ما يحتاجه البشر من الشرائع، وجعله عالمياً ناسخاً لما قبله لاندراجها فيه، ولم يبق شريعة سماويَّة سواه، ولكن نؤمن بكلِّ الشرائع السماويَّة السابقة وإن نُسخت، كما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ * وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٤ – ٨٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]، إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالة علىٰ أنه دينٌ عالميٌّ عظيم.

لذلك كان ابتداءُ نزول هذا القرآن حَدَثاً عظيماً في تاريخ البشر، اهتمَّت به السماوات والأرض، واحتفلت بليلة نزوله الملائكةُ حتىٰ مطلع الفجر، وسُمِّيت بليلة القدر، ونزلت فيها سورة القدر من القرآن إيذاناً بعَظَمة هذا الفرقان، ولا شك أنه أعظم من كلِّ الأكوان، لأنها مخلوقات لله، وهذا كلامُ الله الأزليُّ الأبديُّ وتعاليمُه العظيمة للناس، وتوجيهاتُه لهم في نَيْل سعادة الدارين، كيف لا وهو يحوي أكمل الشرائع التي أنزلها الله علىٰ البشر.

وقد تكفَّل الله بحفظها لأنها خاتمة الشرائع تصلح لكلِّ ما يحتاجه الإنسان من هذا العلم الضروري إلىٰ يوم القيامة، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وهو يدعو إلىٰ أعلىٰ الكمال الخُلُقي، وأصحِّ الكمال الاجتماعي، وأرفقِ الكمال السياسي، يجعل الإنسان سيِّداً لنفسه، عبداً لله وحده لا يملكه سواه، كما يجعله نافعاً لنفسه ولأهله ولقومه وللناس أجمعين.

فيه آدابٌ عالية وشرائعُ راقية، شرعها العليم الخبير لتقوم بها معاني الإنسانية والعدالة الاجتماعية، وتُنالُ بها السعادةُ في الدارين، ويحافظ بها الإنسان علىٰ بُرجه العالي، ولا ينحدر إلىٰ حضيض البهيمية السافل.

فهذا القرآن يغرس في الطِّباع ثقافة روحيةً سامية، ويُصوِّر للإنسان آفاقَ كمال الإنسانية، ويهديه لمناها، ويُدرِّبُ روحَه لتكون في الآخرة سعيدة، وتعيشَ في الدنيا عيشة رغيدة. كما نجد ذلك في تاريخ صدر الإسلام الذي يشهد له الخاص والعام.

وهذا القرآن يقنعك طابَعُه بأنه تنزيلٌ من حكيم حميد؛ فهو مُعجِزٌ بمعانيه وعلومه وتراكيبه وأساليبه واختيار مفرداته وجزالة ألفاظه وعذوبة أسلوبه وسلاسته، علىٰ ما فيه من حلاوة، وما عليه من طَلاوة، يُحدِّد الغرضَ تحديداً جامعاً مانعاً، ويتَّسع للمفاهيم اتِّساعاً واسعاً، ويَسْلك في طرق الإيجاز مَسَالك عجيبة، فيحذف من أركان الكلام ما لا يستقيم كلام البشر بدونه، ولكنه في القرآن واضح فصيح، سديدٌ صحيح، يؤدِّي المعنىٰ بوضوح وجلاء، وقوَّة وبهاء، وسَعَة وسخاء.

وإذا نظرتَ إلىٰ ما فيه من التَّعاليم والإرشادات، وجدتَها لا يحيد عنها إلا مَنْ حاد عن الصواب، ولا يمكن للإنسان بصفته إنساناً أن يُهمِلَ إرشادَ هذا الكتاب؛ لأنه

كتاب الإنسانية، ولا إنسانية بدون تعاليمه. وطريقتُه في الدعوة إلىٰ ذلك تستقرُّ في النفوس، وتستمرئُها العقول، وتَنْفُذُ إلىٰ أعماق القلوب، لا تراه يأمر بشيءٍ والعقل لا يُسلِّم فيه، ولا ينهىٰ عن شيء يَسْتَسيغه الخُلُق النزيه.

علىٰ نفسِهِ فليَبْكِ مَنْ ضاعَ عُمرُهُ ... وليسَ له فيهِ نَصيبٌ ولا سَهْمُ[1]

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

❊ ❊ ❊

(١) البيت لابن الفارض، أبي القاسم عمر بن علي بن مرشد، الحمويِّ ثم المصريِّ، (٥٧٦ - ٦٣٢هـ)، وهو شاعر الوقت، قال الذهبي في «تاريخ الإسلام»: وديوان شعره مشهور، وهو في غاية الحسن واللطافة والبراعة والبلاغة، لولا ما شانَهُ بالتصريح بالاتحاد الملعون في ألذِّ عبارة وأرقِّ استعارة، كالفالوذج سَمْنُهُ سُمُّ الأفاعي. «تاريخ الإسلام» (١٤: ٧٦)، و«سير أعلام النبلاء» (١٦: ٢٦٥)، والبيت في «ديوانه» (ص ٩).

## أثر هذا القرآن في المجتمع الذي يسود فيه

في أوَّل عهد أبي بكر عُيِّن عمرُ رضي الله عنهما قاضياً علىٰ المدينة، فمكث سنةً لم يراجعه أحد، فطلب من أبي بكر أن يقيله، وقال: «ليس لي حاجة بين قوم عرف كلُّ واحد ما له وعليه، وأحبَّ كلٌّ منهم لأخيه ما يحب لنفسه، إذا غاب أحدهم تفقَّدوه، وإذا مرض عادوه، وإذا افتقر أعانوه، وإذا احتاج إلىٰ أمر ساعدوه، وإذا أُصيب واسَوْهُ وضَمَّدُوه، دينُهم النصيحة، وخُلُقهم الأمر بالمعروف والنَّهيُ عن المنكر، فَفيمَ يختصمون؟».

هذا هو المجتمعُ الذي يُكوِّنه هذا القرآن، إذا تمسَّك أهله به وانطبعوا عليه، فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال؟! وهل يُريد الإنسان من هذه الحياة إلا أن تسود في مجتمعه هذه الخصالُ؟! وهل الإنسانيَّة والثقافة الصحيحة إلا هذه الأعمال؟! ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فلْينظر أربابُ العقول والألباب، هذه هي المدينة الفاضلة التي كان يتخيَّلها الرومان واليونان، قد أصبحتْ أمراً واقعياً عند المسلمين في صدر الإسلام، فضيَّعناها وأضعنا أنفسنا، وأصبحنا في حالة ذِلَّةٍ وهوان[1].

---

(١) تنبيه:

يجوز لهذا التفسير أن يترجم لأيِّ لغة كان بشرط أن ينفرد بالترجمة دون آيات القرآن؛ وذلك لأمرين: =

= **الأول**: أن القرآن معجز بألفاظه وتراكيبه، وحذفه وإيجازه، وتقديمه وتأخيره، وإطلاقه وتقييده، وحَصْره وإرساله، بحيث لا يمكن للعربي أن يأتي بسورة صغيرة من مثله، كسورة ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾، أو سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، علىٰ صغرهما.

وقد تحدَّىٰ القرآن العرب علىٰ فصاحتها أن تأتي بأقصر سورة من مثله، فعجزوا ولم يحاول أحد منهم أن يفعل ذلك لخوف الفضيحة.

فكيف يُترجَم إلىٰ لغة أخرىٰ؟! ذلك أمر محال، ومن تصدَّىٰ له وترجمه لا يعرف أنه أصبح مهزلة عند من يعرف، يُضرب به المثل في الاستهزاء والسخرية. فترجمة القرآن إلىٰ لغة أخرىٰ هي من الألاعيب والسخريات.

ولكن يجوز أن يفسَّر تفسيراً بأيِّ لغة كان، فلا يُسمَّىٰ قرآناً، ولكن تفسيراً، ولا يقدر علىٰ ذلك إلا عالم بالقرآن علماً صحيحاً، وعالم باللغة الثانية [أي: الـمُتَرجَم إليها]، هذا هو الأمر الأول.

**والأمر الثاني**: هو أن تفسيري هذا إذا تُرجم مع بقاء الآية علىٰ حالها يُغْني القارئ والسامع، ويستقل بالفهم منه كل من يعرف اللغة المترجمة إليها بسهولة، ويفهم عن القرآن فهماً جيداً إن شاء الله. (المؤلف).

# مقدمة تفسير سورة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلامُ علىٰ محمَّد وآله أجمعين.

وبعد،

فهذا تفسيرُ القرآن المُسمَّىٰ: «أَوْلىٰ ما قيل في آيات التَّنزيل» لرشيد الخطيب الموصلي، وقد قُسِّم إلىٰ تسعة أجزاء والمقدِّمة.

وهذا هو الجزء الأول يبتدئ بسورة الفاتحة، وهي مكيَّة، وآيُها سبع. جاء فيها الإلماع إلىٰ تحديد الأهداف التي ستأتي في القرآن الذي نزَّله سبحانه علىٰ البشر بعد أن بلغ رُشْدَه، وقد جاء للناس بدينٍ جديد ناسخٍ لجميع ما تقدَّمه من الأديان ومكمِّلٍ لها.

وهذه الأهداف هي: بيانُ التوحيد الخالص لله تعالىٰ، وبيانُ الحشر والحساب، والهداية إلىٰ ما يؤدِّي للسعادة في الدارين من العقيدة الصحيحة والأعمال الصالحة لنيل تلك السعادة، والإخلاص لله وحده في العبادة، ليحظىٰ عند مالك يوم الدين بالحُسْنىٰ والزيادة، والإلماع إلىٰ أن إنزال هذا القرآن علىٰ البشر هو من رحمة الله الرحمن الرحيم، يُومئ بذلك كلِّه إلىٰ أنَّ هذه هي الأهداف للكتاب الذي جُعِلَت هذه فاتحته، فهو يدورُ حول هذه الأهداف بأنواع العبارات والتراكيب والأساليب، ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، ويُثبِتُ بالبراهين العقليَّة والحُجج القطعيَّة أنَّ هذه الأمور حقٌّ واقع، وأنَّ هذا القرآن كلام صادق، كلام الله سبحانه وتعالىٰ.




﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾.

يبتدئ القرآن سُورَهُ بالبسملة للإشارة إلىٰ أنَّ ما يُقرأ من آي القرآن ويُتكلَّم به إنما يقال: باسم الله، لا باسم مَنْ يقرؤه، لأنَّ الله سبحانه وتعالىٰ هو الذي يتكلم به، ولذلك نزلت في ابتداء كلِّ سورة من سور القرآن، وكان متىٰ نطق بها جبريل عليه السلام عَلِمَ رسولُ الله ﷺ أنَّ ما يتلوه بعدها إنما هو ابتداءُ سورةٍ مستقلة تنفصل عمَّا نزل قبلها، ولذلك قدَّم البسملة ثم شرع بالفاتحة، فقال:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾ أي: إنما هو وحده أهلُ الثناء والحمد، والمستحقُّ لأن يُحْمَدَ ويُثْنىٰ عليه، لأنه مصدر كلِّ خير في الحياتين، ومن أعظمها هذا القرآن المنزَّل منه سبحانه وتعالىٰ لتربية البشر والأخذِ بهم نحو السعادة والكمال، فالحمدُ له سبحانه لا لغيره في كلِّ خير وإنعام، وفي كل أمن وسلام، وإنْ كان المصدرُ الظاهر لذلك الخير أمراً طبيعياً أو صناعياً؛ لأنه سبحانه هو خالق تلك النُّظُم الطبيعية والاستعدادِ البشريِّ للأمور الصناعية، كما يُشْعِرُ بذلك وصفُ الربوبيَّة الذي فيه معنىٰ التربية والتخليق.

فالله سبحانه مُربٍّ للبشر ومُهذِّبٌ لهم بهدايتين: بإنزال شرائعه عليهم، وبطبيعتهم التي طبعهم عليها مُلْهَمَةً بالتفريق بين الفجور والتقوىٰ.

اللهمَّ لك الحمد حمداً كثيراً خالداً مع خلودك[1]، ولك الحمد حمداً لا منتهىٰ له دون علمك، ولك الحمد حمداً لا منتهىٰ له دون مشيئتك، ولك الحمد حمداً لا آخر لقائله إلا رضاك.

والعالَم: اسمٌ لما يُعْلَم به، كالخاتَم لما يُخْتَم به، فهو ما يُعلَمُ به البارئُ تعالىٰ، وهو كلُّ ما سواه، فإنَّ الأكوان بجملتها وتفصيلها دالَّةٌ علىٰ وجوده وعظمته وألوهيته. وإنما جمعه ليشمل ما تحته من الأجناس، وغلَّب العقلاءَ فجمعه بالياء والنون، وقيل: هو اسمٌ لذوي العقل والعلم من الملائكة والإنس والجن، وتَـنَاوُلُه لغيرهم: علىٰ سبيل الاستتباع والتوسُّع في الألفاظ، وذلك من خصائص اللغة.

ثم تابعَ الوصفَ بقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾، فالأُولىٰ من صفات الذات، والثانية من صفات الأفعال، وقد أشار بهذه الصفة إلىٰ أنَّ إنزال القرآن هو من أعظم رحمته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

ثم تابعَ الوصفَ بقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ أي: يوم يُـدانُ فيه الناس للحساب، فيُجازَوْن علىٰ أعمالهم؛ إنْ خيراً فخير وإنْ شراً فشر، ولا يملك ذلك اليوم إلا الله، وفي هذا الوصف ترغيبٌ وترهيبٌ، وإيماءٌ إلىٰ وجوب العمل بهذا القرآن تقديماً لهذا اليوم وتحضيراً له.

---

(١) التعبير بالخلود في حق الله تعالىٰ فيه نظر، والذي ورد في النصوص الشرعية هو التعبير بـ«البقاء»، كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وهو المستعملُ في كلام الفقهاء والمفسِّرين والمتكلمين وغيرهم. والخلود قد يردُ بمعنىٰ طول المدة، فلا يؤدي معنىٰ البقاء.

ومضمونُ هذه الصفات الأربع تعليلٌ لاختصاصه سبحانه باستحقاق إنشاء الحمد له تعالىٰ والثناء عليه، وتمهيدٌ لما سيأتي بعده من قَصْر العبادة والاستعانة عليه تعالىٰ.

ثم إنَّ هذا القارئ الحامد لَـمَّا وصفَ اللهَ سبحانه بتلك الصفات التي أبانت أنَّ أمرَ الدارين كلَّه بيده وتحت سلطانه وإرادته، التفت مخاطباً إياه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[1]، وفيه إرشادٌ للمتكلِّم به المتحدِّث عن نفسه وعن جميع المؤمنين إلىٰ اجتثاث سائر جذور الشرك والوثنية من أنفسهم، وإلىٰ إخلاص التوحيد لله تعالىٰ.

ومن هذه الاستعانة به سبحانه الاستعانةُ علىٰ الهداية الصحيحة المبنيَّة بقوله تعالىٰ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ أي: الـمُوصِلَ لسعادة الدارين؛ لانطباقِهِ علىٰ

---

(١) للعبادة صور كثيرة في كل دين سماوي، شرعت لتذكير الإنسان بالسلطان الإلهي والشعور به والخشية منه؛ ليكون له أثره في تهذيب النفوس وتقويم الأخلاق، أما الاستعانة بالله سبحانه فتفصيلها أن كل عمل يعمله الإنسان تتوقف ثمرته ونجاحه علىٰ حصول الأسباب التي اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤديةً إليه، وعلىٰ انتفاء الموانع عنه. وقد مكَّن الله سبحانه الإنسان من دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب، وحجب عنه البعض الآخر بحكم أنَّ علمه لا يتناوله أو يخفىٰ عليه، فيجب علينا أن نقوم بما في استطاعتنا وفي دائرة علمنا من ذلك، ونبذلَ في إتقان أعمالنا كل ما نستطيع من حَوْل وقوة، ويساعد بعضنا بعضاً في ذلك، ونفوِّض الأمر فيما وراء كسبنا وعلمنا إلىٰ القادر العليم، ونلجأ إليه وحده، ونطلب منه المعونة والتوفيق لإيصالنا إلىٰ النجاح دون سواه، إذ لا يقدر علىٰ ذلك إلا الله، فهو علىٰ كلِّ شيء قدير، وطلبُ المعونة لا يكون إلا علىٰ عمل بذل فيه المرءُ طاقته فلم يوفِّه حقَّه أو يخشىٰ أن لا ينجح فيه، فيطلب المعونة علىٰ إتمامه وإكماله، ومَنْ تعاطَىٰ الأسبابَ حسب السنن الكونية وطلب التوفيق من الله، فهو المستعين بالله. (المؤلف).

السُّنن الكونية فيهما، مَنْ سَلَكَه فاز، ومن تنكَّب[١] عنه هلك وخاب. والهداية الشرعية تستلزم الطلب للحصول عليها؛ لأنها كسبية، ولذلك قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلىٰ: ٦]، بخلاف الهداية الطبيعيَّة التي طَبَع الله عليها الإنسان وألهمه إياها، ولذلك قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ٢ – ٣]، وهذه الهداية تكون وتَتِمُّ بواسطة العقل السليم الذي لم يُفسِدْه صاحبُه بالتربية السيِّئة والانطباع علىٰ الضلال، فهي كحبة البُرِّ الصالحة للإنبات ما لم يَنخَرها مرضُ السُّوس، وبالدين[٢] الصحيح الذي جاءت به الرسل من الله سبحانه ما لم يعبث به العابثون، وما لم يُنسَخ ذلك الدين بدين آخر.

وفي الكلام إشارةٌ إلىٰ أنَّ الله سبحانه جعل القرآن كفيلاً بتلك الهداية وبذلك البيان.

ثم تابع الكلام بقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: من النبيِّين والصِّدِّيقين، كما قال تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ثم أكَّد الوصف بنفي ضدِّه علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، وهم الذين خرجوا عن الحقِّ بعد علمهم به، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، وهم الذين لم يعرفوا الحقَّ ولم يطلبوه، أو لم يعرفوه علىٰ الوجه الصحيح، وإنما قلَّدوا فيه آباءهم الضَّالين، ورؤساءَهم المُضلِّين، وخلطاءَهم الجاهلين.

فقرَّرتِ الآياتُ أن الناس بالنسبة للحق ثلاثة أقسام:

قسمٌ عرفوا الحق وآمنوا به، وهم الذين طلبوا الهداية إلىٰ الصِّراط المستقيم.

---

(١) تَنكَّبَ عنه: مال عنه واعتزله وتجنَّبه. «لسان العرب» (نكب).

(٢) معطوف علىٰ قوله: «بواسطة العقل السليم».

وقسمٌ عرفوا الحق وأعرضوا عنه كفراً وجحوداً، وهم المغضوب عليهم.

وقسمٌ لم يحاولوا معرفة الحق فلم يهتدوا، وهم الضَّالُّون.

وقد خصَّ اللهُ الفريقَ الأول برضاه ورحمته، والآخَرَيْن بغضبه ولعنته. اللهمَّ اجعلنا من الأوَّلين ولا تجعلنا من الآخرين.

ويجوز أن يُرادَ بالمغضوب عليهم: كلُّ من لم يؤمن بمحمد ﷺ، وبالضَّالِّين: مَنْ آمن ثم شوّه العقيدة وأفسد العبادة، كالباطنية والفاطمية والدُّروز وأشباههم.

ويجوز أن يتناول اللفظُ مَنْ ترك الأوامر وارتكب النواهي من المسلمين، والله أعلم؛ لقوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»[1].

وقد ألمعَتْ سورةُ الفاتحة إلىٰ تحديد الأهداف التي ستأتي في هذا الكتاب الذي أنزله الله للناس ديناً جديداً، أصلح به ما أفسدوه من الأديان، وانحرفوا بها عن الصِّراط المستقيم.

وهذه الأهداف والمواضيع هي: توحيدُ الله سبحانه، وتنزيهُه عن الولد والشَّريك، وبيانُ الحشر والحساب، والهدايةُ إلىٰ ما يؤدي للسعادة في الدنيا والأخرىٰ من العقيدة الصحيحة والأعمال الصالحة لِنَيْل تلك السعادة، والإخلاصُ لله وحدَه في العبادة، والاستعانةُ به والاعتماد عليه.

ثم سار القرآن في هذه الأهداف التي أجملتها فاتحتُه وفصَّلتها سُوَرُه تفصيلاً، ولذلك تَوَحَّدت في الأغراض والمقاصد، فكانت متشابهاتٍ ومثانيَ تُعاد وتُثَنَّىٰ فيها

---

(١) رواه النسائي (١٥٧٨)، وابن خزيمة (١٧٨٥)، عن جابر بن عبد الله، وروىٰ مسلم (٨٦٧) الجزء الأول منه: «كل بدعة ضلالة».

هذه المعاني، بأنواع من التراكيب والأساليب، والحُجَج والبراهين، والأوامر والنواهي، والوعد والوعيد، والقصص والمواعظ. تدور كلُّها حَوْل هذه الأغراض، لا تخرج عنه ولا تحيد، حتىٰ يظن الجاهل أنها مكررة وهي مليئة بالمعاني، كل حرف يزيد عن الأخرىٰ له معنىٰ جديد، وكل تقديم وتأخير في كلمة له معانٍ لا تُحصىٰ، ولكنْ لا يُدركُها إلا العلماء العظام، وهي زائدةٌ عن حاجة الأوساط، كالنهر تشبع منه البلدة، وينصرف لفوائد أخرىٰ أو يتصل بالبحار. جلّ مَنْ هذا كلامه.

وقد تخلَّل ذلك بيانُ ما يحتاجه الإنسان من الأحكام في حلِّ مشاكله الاجتماعية والشخصيَّة والسياسيَّة، هدايةً للصراط المستقيم في الحياتين؛ الدنيا والأخرىٰ، فهو دينٌ وتقويمٌ لا يَستغني عنه البشر، ولا تستغني عنه الإنسانية، بل هو معنىٰ الإنسانية ولا معنىٰ لها سواه.

* * *




مدنية إلا آية ٢٨١، وآياتها: مئتان وست وثمانون

وهي أول سورة نزلت في المدينة.

والغرض منها:

هو أنه لما هاجر النبي ﷺ إلىٰ المدينة نصبت أحبارُ يهودِها له العداءَ بغياً وحسداً، ومال إليهم المنافقون من الأوس والخزرج، وكان أولئك الأحبار يسألونه تعنُّتاً ويأتون باللَّبْس ليَلْبِسوا الحقَّ بالباطل، فنَزَل قسمٌ من السورة في تأنيب هؤلاء والرد عليهم، ونزل أكثرُ السورة في أحكام العبادات والمعاملات؛ لأنَّ الإسلام قد استقرَّ في المدينة وكثُر أهله، فاشتدَّ الاحتياج لذلك، ولا سيما حيث أصبح الإسلام دولة مستقلة، يرجع إليه كلُّ مَنْ تحتَ حكمه وسلطانه.

وكانت آية: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ...﴾ [البقرة: ١٧٧] حَلْقةَ وَصْل بين القسمين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾.

﴿الٓمٓ ۝١﴾ جاء في «تفسير الرازي» في مفتتح سورة «العنكبوت» ما مُلخَّصه: إذا أراد المتكلمُ أن يلفت المخاطَب إليه إلفاتاً تاماً، يقدِّم علىٰ المقصود كلاماً ما، أو إشارةً تَلفِتُه نحوَه وتجمعُ له انتباهَه، كقوله: اسمع ما أقول، أو اجعل بالك عندي، أو أن يصفِّق له، أو نحو ذلك. وكلما أتىٰ بكلمات غريبة ليست بذات معنىٰ مفهوم كان بها الجذب والتنبيه أقوىٰ؛ لأن السامع لا يصدُّ عن المتكلم حتىٰ يعلم ما وراء ذلك، لجزمه أنَّ ما سمعه ليس هو المقصود[1].

وعلىٰ هذا جاءت هذه الحروف في أوائل بعض السور للمبالغة في الحثِّ علىٰ التنبُّه لما جاء في السورة من المواضيع والبيانات والتعاليم، ورعايتها بالفهم والإدراك والتصديق، مثل قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾، وإنما أتىٰ باللام الدالة علىٰ البُعد للمبالغة

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٥: ٢٣- ٢٤). وجاء في كتاب «الأصول»: أن هذه الحروف من المتشابه الذي لا تدلُّ صيغته علىٰ المراد منه، ولا تُوجد قرينة تُبيِّنه، واستأثر الله سبحانه بعلمه ولم يفسِّره للناس. وقال بعضهم: إنها ذُكِرت للتحدِّي، أي: إن هذا القرآن المعجِز مُركَّب من الحروف التي تتكلَّمون بها: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، ولذلك يعقبها بذكره غالباً، كما قال: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾ [البقرة: ١-٢]. (المؤلف).

في تعظيمه، أي: ذلك الكتاب الذي سبقت فاتحته لا ريْبَ فيما فيه من الدساتير الخُلُقية والاجتماعية والسياسية، والبراهين العقلية والدلائل الكونية، ولا فيما يغرس في الطباع من آداب عالية، وثقافة سامية، ومعالم إنسانية هي في أوْج الكمال، فهو معنىٰ الإنسانية ولا معنىٰ لها سواه، وهو يغرس ذلك في الطباع بطريقة تَسْتمرئها العقول، وتَنفُذُ إلىٰ أعماق القلوب، ولذلك لا يشك عقل مستقيم في أنه من عند الله العليم الحكيم، ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ يهتدون به إلىٰ أسباب السعادة في الدارين، ويتَّقون أسباب الشقاء فيهما.

فبعد أن أشار في فاتحة الكتاب إلىٰ شدَّة حاجة الإنسان للهداية إلىٰ الصِّراط المستقيم الذي يُوصل صاحبه لسعادة الدارين، بيَّن هنا أنَّ هذا الكتاب المنزَّل من عند الله هو الذي يهدي مَنْ آمن به وعمل بمقتضاه إلىٰ ذلك الصراط.

والاتِّقاء: هو فَرْط الصيانة والتحفُّظ، أي: إنَّ هذا القرآن يهدي مَنْ يحاول ويحرص علىٰ النَّجاة والوقاية من السُّوء، ويُرشده إلىٰ سبيل ذلك.

وإن العقاب الإلهيَّ الذي يجب علىٰ الناس اتقاؤه قسمان: دنيوي وأخروي، وكلٌّ منهما يُتَّقَىٰ باتِّقاء أسبابه الطبيعية، وهي نوعان: مخالفةُ دين الله وشرعه، ومخالفةُ سننه في نظام خَلْقِهِ ونواميس كونه. وتعاليمُ هذا القرآن العظيم كفيلةٌ بالوقايتين معاً إنْ عُلِمَت علىٰ وجهها الصحيح، وفُهِمَ روحُ المرادِ منها، ثم طُبِّقت وعُمِلَ بها علىٰ هذه الصورة[1].

---

(١) إنَّ كلَّ شرٍّ يحدث للإنسان في الدنيا والأخرىٰ إنما يتأتَّىٰ من مخالفة سنن الله الكونيَّة وتعاليمه الدينيَّة، لأنهما هما اللذان يلائمان ويسايران فطرة الله التي فطر الناس عليها وما أراد بها من الخير والكمال والسعادة والهناء، فلا محيدَ عن نظام الله وتكوينه، ولن تجدَ لسنَّة الله تبديلاً إلىٰ أبد الآبدين، فالواجب علىٰ الإنسان والمقتضي لسعادته وهنائه في الدارين: أن يتَّقي الله سبحانه وتعالىٰ في هذين الأمرين، فلا يخالف سننه الكونية، ولا يهمل تعاليمه الشرعية فيقع في المهالك والشقاء في الدنيا والأخرىٰ. (المؤلف).

وقد بيَّن أهمَّ ذلك الاتِّقاء بشرح أهمِّ صفات أولئك المتقين وأحوالهم، مُبيِّناً أولاً موجب الاتِّـقاء ثم وسائله، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[1]، أي: بيوم البعث والحساب والجنة والنار، الذي أشار إليه سبحانه في الفاتحة بقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، أو كل ما غاب عن العباد علمه مما بيَّنه الله سبحانه لهم في هذا الكتاب المبين. والحقُّ أنَّ كل ما جاء في هذا القرآن كان غيباً علىٰ الإنسان، حتىٰ ما كان من فقه وأحكام وثقافة وآداب، فضلاً عما أظهره من عوالم ما وراء الطبيعة مما لا تتناوله المعارف والعلوم. فالإيمان بهذا الغيب يوقف صاحبه علىٰ ما يجب أن يُتَّقىٰ.

وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله أمران عظيمان من الأمور التي بها الوقايةُ والاستعداد والثقافة العالية، لذلك أردفهما به، فقال: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: بأدائها مع حضور القلب في مناجاة الله فيها، ومَنْ لم يكن كذلك في صلاته فهو كالأعمىٰ أمام

---

(١) الإيمان بالغيب شأن واقعيٌّ من شؤون الحياة، تمرض فتراجع الطبيب وتقبل منه ما يصفُه لك وتأتمر بما يأمرك وتنتهي عما ينهاك، وتؤمن بالمحامي وتطيعه في أمر القانون لحلِّ المشاكل التي تعرض لك. وإذا أردت أمراً تسترشد بمن يعرف عنه جيداً وتعمل بإرشاده، وتريد التوجُّه إلىٰ مكان لا تعرفه فتؤمن بمن يُعرِّفك عنه وتَتوجَّه بتوجيهه. وهكذا شأنك في كل أمر من أمور الدنيا.

فالإيمان بالغيب معناه: أن ترجع في معرفة ما لا تعرفه إلىٰ مَنْ يعرفه وتُصدِّق بقوله فيما يُرشدك فيه ويهديك، وأنت لا تعرف كلَّ ما تحتاجه في الحياة الدنيا علىٰ الوجه الصحيح، ولا تعرف شيئاً عن الحياة الثانية ولا ما يوصل إلىٰ سعادتها أو شقائها، فلتعتمد علىٰ هذا القرآن، فقد أنزله الذي يعلم السِّـر في السماوات والأرض، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، فهو الذي يرشدك لسعادة الحياتين وأسبابها وعواملها الصحيحة لتكون علىٰ هُدىً من ربك، وتكون من المفلحين الذين هم من فَزَع يومئذ آمنون، وفي سعادة النعيم خالدون، وعلىٰ الأرائك متكئون، اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين. (المؤلف).

المرآة. وحضور القلب هو: أن تنطق الألسنة بما تعيه العقول، وبعبارة أخرىٰ: أن تعي العقول بما تنطق به الألسنة. فإنَّ هذا الحضور هو روحُ الصلاة وقوامُها ولبُّها والمرادُ منها، وهو لا يكون إلا بالمران والتدريب.

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾. وقد مهَّد للإنفاق بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾؛ استمراءً للنفوس، واستدراراً لها، وتهويناً عليها في هذا الصَّرف والإنفاق، إذ يُؤْذِنُها بأنَّ ما تُنفِقُه هذا، إنما هو من فَضْل الله الذي طلب منها الإنفاق. فهذا من بلاغة القرآن، ولاسيما التبعيض بـ«مِنْ» الدالِّ علىٰ أن ما ينفقونه إنما هو شيء طفيف ممَّا منَّ الله به عليهم من الرزق ومما يملكون.

وهذه الصفات الثلاث ـ التي جاءت في الآية ـ هي مصدر سائر الأمور والأحوال التي تُصلح الروحَ وتدفعها نحو الكمال، وتجعل النُّظُم الاجتماعية علىٰ أتمِّ وجه من الصحة والاعتدال، وأيُّ مجتمع أعلىٰ من هذا المجتمع الذي يتكوَّن من هؤلاء الرجال والنساء؟ ولذلك اقتصر عليها في هذا المقال.

وقال بعض المفسِّرين: إنَّ هذه الآية في المؤمنين من غير أهل الكتاب، والتي بعدها في مؤمني أهل الكتاب، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، أي: من الكتب السماويَّة، وأعاد لفظ «الذين» لتحقُّق التمايُز بين الفريقين. وعلىٰ القول بأنها للمسلمين أيضاً، أو لهما معاً، تكون الإعادة لِتَحقُّق التَّمايُز بين الوصفين.

ثم قال: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾[1]، والإيقان: هو الاعتقاد الجازم الذي لا يقبل

---

(١) يدل علىٰ وجود اليوم الآخر أدلة نقلية ووجدانية وعقلية.

أما النقلية: فقد اتفقت الأديان السماوية كلها علىٰ وجوده وعلىٰ العناية به تبشيراً وإنذاراً. =

الشك؛ لانبعاثه عن المنطق البرهاني أو الوُجْداني أو كليهما، فيملك النفس، وتظهر فيها آثاره، وتعمل بمقتضاه، لأن الإيمان الصحيح يكون له سلطان علىٰ النفوس وتصريف إرادتها.

والقرآن العظيم عند تدبُّره يبعث في النفس هذا اليقين في أمر الآخرة، حتىٰ لو كُشف لها الغطاء ما ازدادت يقيناً، وإنما خصَّ الإيقان بهؤلاء المؤمنين، وبهذا الفريق الذي آمن بالقرآن من أهل الكتاب؛ لأن غير المؤمنين به من أهل الكتاب وغيرهم ـ وإن ادَّعَوُا الإيمان بالآخرة ـ لا يكونون موقنين بها علىٰ وجهها الصحيح، لما قد أدخلوه علىٰ عقائدهم فيها من الظنون والمختلَقات فيها وفي أسبابها، كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، فالآخرة التي يتصوَّرونها وما يعتقدونه لها من الأسباب ليست هي الآخرة الحقيقية التي ذكرها سبحانه في كتابه المنزل، وبيَّن لها من الوسائل والأسباب، لتحريفهم ذلك تحريفاً كبيراً، وتصويرهم الآخرة بشكل وَهْمي رَسَمَه لها خيالُ رؤسائهم، واختلق لنيلها أسباباً خرافية كاذبة؛ لذلك قال تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى

---

= وأما الوجدانية: ففي الإنسان شعورٌ خفيٌّ باليوم الآخر والاهتمامُ به يشبه الإلهام، فهو يشعر بأن وراء هذه الحياة الدنيا حياةً أخرىٰ تتحقَّق ففيها العدالة إذا أهملت في الدنيا، وينال فيها الإنسان جزاء أعماله، إنْ خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وأما الدليل العقلي: فإن الله سبحانه خلق الإنسان في أحسن تقويم مُستعداً لما لا يتناهىٰ من الكمال، بما وهبه من العقل الذي لا يقف عند حد في العلم والمعرفة وكشف أسرار الكائنات، فلا يقبل العقل أن يكون مصيرُ الإنسان مصيرَ سائر الحيوان، فَضْلاً عن أن ذلك بعيد عن العدل والإنصاف. (المؤلف).

﴿يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

لذلك بالغ سبحانه في التنويه عن المؤمنين المهتدين بهذا الكتاب، والمتَّصفين بهذه الصفات بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾، فسجَّل ـ بتكرير اسم الإشارة وبذكر ضمير الفَصْل ـ الهدايةَ والفلاحَ لهم دون غيرهم. وقالوا أيضاً: إنَّما كرر اسم الإشارة لإظهار مزيد العناية بشأن المشار إليهم، وللتنبيه إلىٰ أنَّ اتِّصافهم بتلك الصفات هو الذي أدىٰ لنَيْل كل واحدة من تَـيْنِكَ المكرمتين: الهُدىٰ والفلاحِ، وأتىٰ بضمير الفصل لتأكيد النسبة وتخصيص الـمُسنَد بالـمُسنَد إليه.

ويجوز أن تكون الآيات بياناً لأنواع الهدايات التي يهدي إليها هذا الكتاب، ويكون محصَّل المعنىٰ: إنَّ هذا القرآن لا شك في كونه وحياً من عند الله، وهو هُدىٰ للمستعدّين لتقوىٰ الله، وهم الذي لم يفسدوا فطرتهم بمفاسد التربية وسوء القدوة، فيهديهم هذا القرآن إلىٰ الحالات التي ذُكرت في الصِّلَتَين، وإنما آثر صيغةَ الموصولِ وصِلَتِه علىٰ مثل قوله: «إن هذا القرآن يهدي الناس لهذه الهدايات»، ليتمثَّل المعنىٰ في الأشخاص المهتدين، فيكون الغرض أتمَّ، ويتبيَّن فيها صفة الهداية والمهتدين معاً، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وإنما اقتصر علىٰ هذه الحالات بالذِّكر لأنها أساسُ الأمور التي تُهذِّب الروح وتُصلح نظام الاجتماع، فهي مَلاكُ ما يؤدي إلىٰ سعادة الدنيا والآخرة ويدفع شقاءهما ويُجنِّب عنه.

ومن مباحث اللفظ: أنه شبَّه الـهُدىٰ بالموضع المرتفع الـمُشرِفِ علىٰ الشيء، بجامع أن كلاًّ منهما يعين علىٰ سداد النظر وقوة الكشف، والقرينة: كلمة ﴿عَلَىٰ﴾ المفيدةُ للاستعلاء، ومثل هذا من أساليب القرآن.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾.

وبعد أن بيَّن حالة المؤمنين المستعذبين للإيمان، أردفها بحالة الكافرين الراسخين في الكفر، علىٰ نهج القرآن في المقابلة (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: من أهل الكتاب والمشركين ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾، إذ قد أفسد الرسوخُ في الكفر طبيعَتهم، فأصبحوا لا يُدركون نور الحق، ولا ينكرون ظلمة الباطل؛ لشدِّة تألفهم لها وانطباعهم عليها.

و﴿سَوَآءٌ﴾: اسم بمعنىٰ الاستواء، نَعَتَ بها كما يُنعَتُ بالمصادر وأسمائها مبالغةً في الوصف. وهمزة الاستفهام بعدها تُسبَكُ مع ما يليها بمصدر يكون مبتدأ مؤخَّراً، و﴿سَوَآءٌ﴾ خبر مُقدَّم.

وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملةٌ مستقلة مؤكِّدة لما قبلها تُبيِّنُ وجْهَ الاستواء، شبيهةٌ بوجه الشبه في التشبيه.

ثم وصف سبحانه فَقْدَهم لهذا الاستعداد ورسوخَهم في الكفر علىٰ طريقة تشبيه المعاني ونحوها بالأجرام والأجسام (كما جاء في النوع العاشر من المقدمة السادسة في مجازات القرآن)، وعلىٰ وَجْه الاستئناف التَّعليلي لما سبق من الحكم عليهم بعدم الإيمان، فقال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾، هذا تصويرٌ لانسداد مَسالك الفهم والإدراك عليهم، وذلك بحسب سُنَّة الله العامّة في خَلْق الإنسان؛ لأنَّ الله سبحانه قد خَلَقَ البشر بمقتضىٰ الحكمة، بحيث إذا تشبَّع بشيء وانطبع عليه لا يَتحوَّل إلىٰ ضدِّه ولا يهتدي إليه، فلمَّا تَمادىٰ هؤلاء المشركون في الغيّ، وكذلك أهل الكتاب، وانهمكوا

في تقليد آبائهم، وإعراضهم عن النظر الصحيح، أصبحوا بحالةٍ لا يؤثِّر معها الإنذار والإرشاد، ولا يَنفُذُ فيها الحق أصلاً، فشبَّه قلوبهم بشيءٍ مختوم لا يدخل عليه شيء أبداً، فلا تفقه الدعوة إلىٰ الرَّشَاد.

وفي الكلام إسنادُ الفعل إلىٰ الله مُجَرَّداً عن السبب (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية في خصائص أساليب القرآن)، ومثل هذا إنما هو من مَجَازات اللغة وخصائص القرآن، فتراه في كثير من آياته، فلا تغفل عنه فتفهمَ منه غير المراد، وتظنَّ أنَّ الله سبحانه فعل ذلك بهم قَصْداً[١]، وخلقهم كذلك طبعاً، فتضل عن سواء السبيل[٢].

---

(١) لا شك أن الله تعالىٰ فعل ذلك بهم قَصْداً، فأفعالُ الله تبارك وتعالىٰ كلها واقعةٌ بإرادته ومشيئته، والذي يظهر أنّ مراد المؤلف رحمه الله: أن الله لم يفعل ذلك بهم ابتداءً دون مباشرتهم سبباً يستحقون به ذلك، وهذا مُسلَّم.

(٢) تسند مثل هذه الأفعال في قوله تعالىٰ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] إلىٰ الله سبحانه، وتسند إلىٰ العبد نفسه المباشِر للفعل، تقول: أيبس البستاني الشجرة، إذا لم يتعهَّدها بالسقي، وتقول: أيبس الله الشجرة؛ لأنه سبحانه قد جعل في السنن الكونية أن الأشجار تيبس إذا عطشت ولم تُتعهد بالسقي. وهكذا تقول: ضل فلان عن سواء السبيل؛ لأنه لم ينظر إلىٰ الحق نظرةً صحيحة، وذلك لفساد طبيعته بالتربية السيئة وسوء القدوة والتقليد الأعمىٰ، فإذا فسدت طبيعته بذلك ضل وأساء. وتقول: أضله الله؛ لأن من سنن الله الكونية أن يتأثر الإنسان بالتربية، فإذا تربىٰ تربية خاطئة ضلَّ عن سواء السبيل، كما تقول: أنبت الله الشجرة أو أحسن نموها، وهي لا تنبت ولا تجود إلا إذا أحيطت بكل أسباب الإنبات والجودة بمقتضىٰ السنن الكونية من غرس في جيد التراب، وسقي معتدل بالماء إلىٰ غير ذلك، وإن ساء ساءت.

مضمون قوله تعالىٰ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يبيِّن طبيعة الإنسان وفطرتَه، فقد خلق الله سبحانه الإنسان مستعداً للخير والكمال في المعرفة والفضائل، ولكنه استعداد «خام» كاستعداد الحبة للنبات، يحتاج إلىٰ تنشئة وتربية، فينطبع علىٰ عناصر هذه التنشئة هدىً أو ضلالاً، نقصاناً أو كمالاً. وأول ما يؤثر عليه في ذلك، الإيوان والبيت، ثم المحيط والخلطاء، ثم وثم، إلىٰ أمثال =

= ذلك من عوامل التربية والتثقيف، فإن نُشِّئَ علىٰ الهدىٰ أخذت بصيرته تـتفتَّح وتتَّسع لقبول كل ما أُلقِيَ عليه منه، وإدراك ما لم يُلْقَ عليه، وإن نُشِّئَ علىٰ الضلال، تمادىٰ فيه وأصبح لا يبصر الهدىٰ ولا يميل إليه، وذلك هو الخَتْم والغشاوة.

ويُؤيِّد ما ذكر قولُه ﷺ: «كل مولود يولد علىٰ الفطرة ولكن أبويه يُـهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه، ألا ترىٰ الشاة تنتج جمعاء، هل ترىٰ فيها من جدعاء». أي: إن الشاة تلد مولودها سالم الأذنين، إلا أنَّ الراعي يجدعه ويشق أذنه. وهكذا حال المولود من البشر يولد مُستعداً للهدىٰ والكمال، ولكنه مرتهن بتربيته، فإن ساءت ساء ذلك الاستعداد وانقلب للشر والضلال، إذ قد شاء سبحانه للإنسان أن يخلقه مختاراً يأخذ الهدىٰ أو الضلال بنفسه، ويتصرف خيراً أو شراً باختياره، ويكون ذلك بحُسن تنشئته أو سوئها.

ولو شاء سبحانه لخلق الإنسان مقسوراً علىٰ الهدىٰ وحده لا يطيق سواه، وهذا معنىٰ قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩]، ولكنه سبحانه شاءت حكمته أن يخلق الإنسان مختاراً في تصرُّفاته يتناول شؤونه بإرادته، ليكون خليفة في الأرض يتصرَّف في مواهبها، ويستفيد من سُنن الله الكونية وخيراته الصحيحة، ولو كان مقسوراً في تصـرُّفاته علىٰ نوع مخصوص من التصرُّفات لم يتمكَّن من إحراز تلك الخيرات، فلذلك خلقه سبحانه مختاراً في تصرُّفاته، مُطلَقَ الإرادة في ذلك.

فأعمال الله سبحانه في هذا الكون وفي فطرة الإنسان كلها خير وصلاح، ولكن هذا الإنسان يفسد فطرته بمفاسد التربية وسوء القدوة، فيعاكس تلك السنن بسوء تصرُّفه، فيناله الشر والضلال؛ إذ لا شر في هذه الحياة إلا من مخالفة سنن الله الكونية فيها.

ولما كان استعداد الإنسان للهدىٰ استعداداً يحتاج إلىٰ تنشئة صحيحة، علىٰ تعاليم سديدة في المعرفة والفضيلة، أرسل الله سبحانه الرسل بتلك التعاليم، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]. فالله سبحانه قد هَدَىٰ كل مخلوقاته إلىٰ ما أراده منها، كما قال: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ٣]، وهدىٰ الناس بهدايتين: هدايةٍ طبيعية أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ – ٨]، وهدايةٍ شرعية بإنزال الشـرائع، وقد أشار إلىٰ ذلك بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ – ١٠]. (المؤلف). =

فهذا الخَتْم إنما جاء بحَسَب سُنَّة الله العامَّة في طبيعة الإنسان، وهي الانطباع علىٰ ما يرسخ فيه بصُنعه وكَسْبه، فلا يعودُ يسمع ما يُخالف ما انطبع عليه، ولا سيما إذا كان هذا الانطباع ناتجاً عن القدوة السيئة والتقليد الأعمىٰ؛ لأنَّ صاحبه يفقد الاستعداد الطبيعي للنظر الصحيح، والبحث الموصل إلىٰ الحق، ويرىٰ كل ما يخالف ما انطبع عليه باطلاً وضلالاً.

وعلىٰ هذا المعنىٰ يأتي مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٨٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٨ – ٢٩]، إلىٰ أمثال ذلك من الآيات (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية). فهذا الخَتْم ليس من أصل الخِلْقة، ولكن من سُوء سلوك الإنسان، لسُوء تربيته ونشأته، فهو مرض عارض.

ومن مباحث اللفظ في الآية: ما قاله صاحب «الكشاف» من أنه يحتمل أن تكون الأسماع داخلة في حكم الختم أو في حكم التَّغشية، إلا أنَّ الأوْلىٰ دخولها في حكم الختم لقوله تعالىٰ: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]، ولوَقْفِهم في القراءة علىٰ ﴿سَمْعِهِمْ﴾ دون ﴿قُلُوبِهِمْ﴾، وكرَّر الجارَّ لأنه أدلُّ علىٰ شدة الختم، وأفرد السمع دون القلوب والأبصار، قيل: لأنه في الأصل مصدر، والمصادر لا تُجمع، فرُوعِيَ فيه الأصل[1]، وقيل: لأنه ذُكِرَ مع الجمع فيُراد به الجمع، وذلك من خصائص اللغة

= وحديث «كل مولود...» لم أقف عليه بهذا اللفظ، والحديث رواه البخاري (٤٧٧٥)، ومسلم (٢٦٥٨) واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «ما من مولود إلا يولد علىٰ الفطرة فأبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه كما تُنتج البهيمة بهيمة جمعاءَ، هل تحسون فيها من جداءَ».

(١) «الكشاف» (١: ٥٢– ٥٣).

وأساليب القرآن، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل: ٤٨].

ثم تابع البيان عن الجمود علىٰ الضلال، فقال: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ والغشاوة: هي ما يُغشّىٰ ويُغطَّىٰ به الشيء، فهي أنسب في المجاز عن عدم الاستفادة من البصر، كما أنَّ الختم أنسب لمثل ذلك في القلوب، والسمعُ بين الاثنين، والذي أراه: أن السمع والبصر ظاهران، والقلب خفي، فالأنسب أن يشتركا بالغشاوة. جلَّ من هذا كلامه. وفيه إلماع إلىٰ أن الختم والغشاوة مرضان عارضان لا طبيعيان.

ثم سجَّل عليهم بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾، وهذا وعيدٌ وبيانٌ لما يستحقونه في الآخرة، وتنكيرُ العذاب للتعظيم والتهويل، ووَصْفُه بالعِظَم للدلالة علىٰ أنه بالغٌ أقصىٰ حدِّ العظمة، ويجوز أن يكون التنكير للإشارة إلىٰ أنه نوعٌ من العذاب مجهولٌ لهم كماً وكيفاً، لا يعلم وَصْفَه أهلُ الدنيا، ومن ذلك شدَّتُه وخلوده واطِّلاعه علىٰ الأفئدة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾.

ثمَّ شَرَع في بيان أحوال فرقة ثالثة، وهم المنافقون من العرب واليهود، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾[1]؛ إما لأنَّ إيمانهم

(١) هذه الطائفة ظهرت في المدينة، حيث قويت شوكة المسلمين، فضعفت هذه عن المجاهرة بالكفر، فكتموه في نفوسهم وتظاهروا بالإسلام، فقالوا كلمة التوحيد وصَلَّوا مع المسلمين، يخادعون الله ورسوله، فما ابتلي المسلمون بشرٍّ من هذه الطائفة، تُدبِّر لهم المكايد، وتروِّج الأكاذيب، وتُزعزع المؤمنين، وتفسد روابط المحبين، وتَنفُثُ سموم الشر والفتن، وقد اهتمَّ =

لفظي صُوريّ فقط لا جَزْم به ولا عقيدة فيه، فيكون من نفي الشيء لانتفاء الجزم به وثمرته وما يترتَّب عليه (كما جاء في النوع السادس من المقدمة السادسة في مجازات القرآن)، وإما لأنهم يُظهِرون الإيمان ويُخْفون الكفر، فيكون النَّفيُ علىٰ حقيقته، وهذا المعنىٰ أنسب بالنسبة لما يأتي عنهم من الوصف.

وهذه الآيات ـ وإن كانت في حقِّ المنافقين في عصر التنزيل ـ فهي غير خاصَّة بهم، بل تشملهم وتشمل مَنْ كان كذلك في كلِّ عصر وزمان، علىٰ نهج القرآن في كون مقرَّراتِهِ قواعدَ مستمرةَ المدىٰ، وإن كان سبب النزول خاصاً، وللإشارة إلىٰ العموم أتىٰ بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، ولا شك أنَّ النوع الأول منهم يكثر في كل زمان، لاسيما في زماننا هذا حيث أصبح الإيمان لفظياً فقط، أي: اسمياً لا حقيقياً، بل كثير منهم لا يزيدون عن أنهم مسجَّلون في سِجِلِّ النفوس بهذا الوصف، أي: الإسلام. وهكذا تتناول هذه الآية من كان إيمانهم ضعيفاً لا أثر له في أخلاقهم وأعمالهم علىٰ الإطلاق، والله أعلم.

ثم زاد في التشنيع عليهم بقوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، الخداع: العمل الظاهر الذي لا يُصدِّقه الباطن أو لا يوافقه، وهؤلاء يُظْهِرُون الإيمان ويُخْفُون الكفر، وأتىٰ بصيغة الـمُفاعَلة لإفادة المبالغة ولإفادة تكرُّر الفعل، وذلك من خصائص اللغة.

ثم علَّق علىٰ مخادعتهم بقوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾، فبيَّن طبيعة من طبائع البشر، وهي أنَّ كلَّ من يقاوم الحقَّ ويُعارضه تنحرف فطرته وتسوء بمعالجة طرق الضلال، فينطبع علىٰ الباطل، ويعود عليه الأمر بالوبال. وتؤذن الآية

= القرآن بالحديث عنهم والتحذير منهم حتىٰ لا تكاد سورة من سُور القرآن المدنية تَخْلو من ذكرهم، ولفت النظر إلىٰ أوصافهم. وقد نزلت فيهم سورة كاملة سُميت باسمهم: سورة المنافقين. (المؤلف).

أيضاً بأنَّ وُجْدانهم يحسُّ بالحقيقة، فيَجمعون له الشُّبَهَ علىٰ خلافها، ويُلبِّسون الأمر علىٰ أنفسهم.

ونفيُ الشعور دون العلم[1]، للإيذان بأنَّ ذلك من الأمور المحسوسة، ولكن لا حسَّ لهم.

ثم بيَّن تعالىٰ أنه ما حملهم علىٰ فعلهم هذا إلا ما فيهم من مرض القلب، فقال: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، يريد ما فيها من سوء العقيدة وعداوة النبيِّ ﷺ وحزنهم منه ومما جاء به، ويجوز أن يشمل ما دَخَل في قلوبهم من الضعف والجبن والخَور عند مشاهدتهم لعزَّة المسلمين، ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾، وذلك بما ذكرنا أنَّ من طبيعة الإنسان إذا تَمادىٰ في الباطل أن يزداد ضلالاً، ويجوز أن يشمل أيضاً شدَّة الهَمِّ مما سيفوتهم من مراكز الرياسة باستقرار أمر الرسول ﷺ، وفيه التجوُّز بإسناد الفعل إلىٰ الله دون السبب؛ لأنه سبحانه هو خالقُ هذه السُّنن العامَّة في الإنسان (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية)، ولا يَبعُدُ أن تدلَّ الآية علىٰ الدعاء عليهم أيضاً، جمعاً بين المعنيين، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧]، ومثل ذلك هو من أساليب القرآن، كالجمع بين الحقيقة والمجاز، والله أعلم.

وقد سجَّل عليهم بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾، أي: في دَعْواهم الإيمان ونفاقهم في ذلك.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟

(١) أي: في قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، ولم يقل: وما يعلمون.

٣٤ ـــــــ

كان يزيد في لهيب حقدهم، فردَّ الله سبحانه عليهم الوصف رداً عنيفاً بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾، أي: لفَرْط جهلهم عن مَدَارك الحق والصواب، فلم يُدركوا أنَّ الحق مع محمد ﷺ، ولا بدَّ للحق أن ينتصر، وأنَّ دينه هذا هو دين السعادة في الدارين.

وفي كلمة ﴿ٱلنَّاسُ﴾ ذِكْرُ العامِّ وإرادةُ الخاصّ، وهو من المجاز المُرسَل، وللإشارة إلىٰ أن المؤمنين هم الناس لا غيرهم، و«أل» في قولهم: ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ للعهد الذهني، يشيرون به إلىٰ الناس المؤمنين. ويجوز أن يكون الكلامُ حكايةً لقولهم، أو حكايةً لضمائرهم. ومَنْ حَسِبَ الضَّلالَ هُدىٰ رأىٰ الهدىٰ ضلالاً.

والسَّفَهُ: خفَّة العقل وضَعْفُ الرأي، والسفيه: هو الجاهل بمواضع المنافع والمضار، والذي يُضيِّع من حيث يرىٰ أنَّهُ يحفظ، ويعصي من حيث يرىٰ أنه يُطيع.

ثمَّ تابع البيان وشرح نفاقهم الذي يعدُّونه صواباً وغيره سفهاً لما يَرَوْن فيهم من الاحتياط، فقال: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾، والمراد من الشياطين: رؤساؤهم وكُهّانُهم دعاةُ الفتنة وعمَّال الفساد.

وقال بعض المفسِّرين: إنَّ شياطينهم هم اليهود؛ إذ هم الذين أغْرَوا المنافقين العرب بالنفاق والخداع.

وهذه الآية بمضمونها تتناول المُذَبذَبين في الانقلابات الإصلاحية لا يجهرون بالجديد خشية أن ينخذل حِزبُه، ولا بالقديم حذراً من أن يتقلص ظلُّه، فيكونون بين بين، ويُماشون الطرفين، حتىٰ يتبيَّن الفوز لأحد الفريقين، وهو نفاقٌ وجُبْن مَشين[1].

(١) لكنْ ينبغي التحرُّز والتيقُّظ في كون هذه الانقلاباتِ والدعواتِ إصلاحيةً فعلاً، فلا يخفىٰ أن كثيراً مما أُشيع عنه ذلك ما كان في حقيقته وواقعه إلا إفساداً.

ثم عقَّب علىٰ قولهم وعملهم هذا مُشاكلاً له بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾، وفي هذه الجملة ما ذكرناه في قوله: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] من المعنيين معاً: الخير والدعاء، وما ذكرناه في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] من أنَّ هذا المدَّ إنما يكون بسنَّة الله العامَّة في طباع الإنسان وأخلاقه.

وسمَّىٰ إمهاله إيَّاهم في طغيانهم استهزاءً بهم، علىٰ طريقة المشاكلة، والعرب تُسمي الجزاء علىٰ الفعل باسم الفعل نفسه.

وفي قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ إسنادُ الفعل إلىٰ الله مع التلميح إلىٰ السبب، وهو انطباعهم علىٰ الطغيان والعَمَه عن الحق، فإنه هو المدّ والتمادي، (كما جاء بيان ذلك في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية). والعَمَه في البصيرة كالعَمَىٰ في البصر.

ثم نعىٰ عليهم بقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾، وهذه الجملة مَسُوقةٌ لتقرير ما قبلها وتعليله، ولبيان كمال[1] جهالتهم فيما حُكي عنهم من الأقوال والأفعال، بإظهار غاية سَماجتهم[2] وغباوتهم، وتصويرِها بصورةِ ما لا يكاد يَتعاطاه من له أدنىٰ تـمييز.

وصورةُ هذا التعبير استعارةٌ بليغةٌ في تشبيه الضلالة بسَقَطِ المتاع[3] والهُدىٰ بالثمن الغالي.

ثم قرَّر ما فاتهم من فوائد الهدىٰ بقوله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾، فقد صوَّر ذلك بصُورة خسارة التجارة، علىٰ طريقة الاستعارة التهكُّمية، وهي من البلاغة بمكان، والجملةُ ترشيحٌ للشراء في الجملة التي قبلها.

---

(١) في «تفسير» أبي السعود ـ والنقل منه ـ (١: ٤٨): وبيانٌ لكمال.

(٢) في «تفسير» أبي السعود (١: ٤٨): سماجتها.

(٣) سَقَطُ المتاعِ: رديئُه وحقيره. «لسان العرب» (سقط).

ثم مكَّن المعنىٰ وجرَّد الاستعارة بقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾، أي: في تعاطي العمل المُشين. وفي هذا الكلام زيادةٌ في التهكُّم والتقريع، حيث جاءتهم الهداية وتمكَّنوا من أخذها، فلم يُعيروا لها أذناً صاغيةً ولا قلباً واعياً. ومن أساليب القرآن تعقيبُ المجاز بالحقيقة، والإيجابُ بسَلْب ضِدِّه.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾.

ثمَّ ضرب الأمثال لهم ولشياطينهم من أحبار اليهود، لزيادة الكشف عن حالتهم في تصويرها من ناحية أخرىٰ، فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾[1]، أي: مثلهم كَمَثل رجل كان في ظلمة فأُوقد له نارٌ أضاءت ما حَوْله حتىٰ عرف ما يتَّقي، ثم أُطفئت فعاد في ظلماته.

ضرب الله سبحانه هذا المثل لمنافقي أهل الكتاب ولأحبار اليهود في عصر الدعوة الذين حَمَلوا بعضَ الأوس والخزرج علىٰ النفاق بإغوائهم وتضليلهم، فقد آتاهم الله ديناً وهداية عمل بها سَلَفُهم، ثم انحرف عنها خلفُهم فضَلُّوا، وكانوا ينتظرون دين محمد، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فغضب الله عليهم.

---

(١) لا يختص قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ...﴾ [البقرة: ١٧] هذا بمن خُوطبوا به فحسب، بل ينطبق علىٰ كلِّ من جاءهم دين وهداية إلهية عمل بها سلفهم فجنوا ثمرها وصلح بها حالهم، ولكنهم انحرفوا عن سَنَن سلفهم في الأخذ بمفاهيم تلك الهداية والعمل بحقيقتها، وظنوا أن ما كان عند سلفهم من نعمة وسعادة وأخلاق إنما كان أمراً خُصّوا به بمعجزة إلهية، ولم يفكروا بأنه كان من نتيجة الأخذ بتلك الهداية علىٰ وجهها الصحيح، لذلك لم يطمعوا بما كان عند سلفهم ولم يجهدوا أنفسهم في الحصول عليه، وحرَّفوا مفاهيم تلك الهداية ومقاييسها. (المؤلف).

فالآيةُ مَثَلٌ لمن آتاه الله ضَرْباً من الهدىٰ فأضاعه واستبدله بالضلال[١]، والتعبيرُ عن المعاني وإفادةُ المقاصد بطريقة ضرب الأمثال، أسلوبٌ من أساليب القرآن، وطريقٌ من طرقه المنوعة في البيان؛ لأن المثل يرفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفيَّة ويُبرزها للعيان ظاهرة جلية.

والعرب تستعمل لفظ «الذي» في الجمع، كلفظي «ما» و«مَنْ»، فتراعي في ضمائره اللفظ والمعنىٰ، فتعيد إليه ضميرَ الفرد نظراً للَّفظ، وضميرَ الجمع نظراً للمعنىٰ. وعلىٰ هذا الاستعمال جاء هنا ضميرا كلمتي ﴿حَوْلَهُۥ﴾ و﴿بِنُورِهِمْ﴾.

ويجوز أن يكون في أسلوب الآية لمحة أخرىٰ، وهي أنَّ العربي إذا أراد تقرير معنىٰ في النفس يجمع عليه التعبير بالتشبيه والحقيقة أو المجاز والحقيقة معاً، فيقول: خالد أسدٌ لا يُجارىٰ في الحرب، وصادفت بحراً أدهشني بيانُه، ولما كان من أساليب القرآن العظيم أن يَسبُكَ المعنيين أو المعاني تحت صيغة واحدة وتركيب واحد، جرىٰ علىٰ هذه القاعدة في هذا الأسلوب؛ فبعد أن تكلَّم عن حال المنافقين وشياطينهم بطريقة التشبيه والتمثيل، وعبَّر عن المشبَّه به بلفظ المفرد، وهو: «الذي»، فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾، غيَّر الأسلوب في جواب الشرط وعبَّر بالحقيقة فقال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ علىٰ طريقة الجمع بين الحقيقة والمجاز في أسلوب القرآن، فكانت هذه الجملة مُتضمِّنةً لتكميل معنىٰ التشبيه ومُصَرِّحة بحال المُشبَّهين المتحدَّث عنهم، جمعاً بين المعنيين.

وفي قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ما في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] من

---

(١) كذا، والأصل أن يُقال: واستبدل الضلالَ به، فالباء داخلة علىٰ المتروك، كقوله تعالىٰ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١].

إسناد الفعل إلىٰ الله باعتبار سُننه العامة في طبيعة الإنسان، فإنه إذا انطبع علىٰ الضلال لا يميل إلىٰ الهدىٰ.

ثم نعىٰ عليهم ضلالَهم هذا وأنّبهم عليه، فقال: ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ أي: صمٌّ عن سماع الحق والصواب، بُكمٌ عن التكلم بهما، عُمْيٌ عن رؤيتهما، وهذا إشباعٌ للمعنىٰ السابق وتصويرٌ لإصرارهم علىٰ الضلال، وإنما سجَّل عليهم الصَّمَم والبكمَ والعَمَىٰ؛ لأنهم لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وعقولهم، فكأنها لم تكن.

ومن أساليب اللغة: نفيُ الشيء لعدم نفعه، فتقول: هذه ليست بشجرة؛ إذا لم تثمر. وذكْرُ الألسن بدل العقول لأنها أدوات التعبير عنها.

وقوله: ﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾، أي: فهم لذلك لا يرجعون عن الضلال إلىٰ الهدىٰ، وعقّب المجاز بالحقيقة علىٰ أسلوب القرآن.

﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ ﴾.

ثم ضرب لهم مثلاً عن حالتهم النفسية تجاه القرآن، فقال: ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ ﴾، أي: كدويِّ مطر غزير، هذه صفتُه وهذه حالهم فيه. وذلك لأنهم قد تمكَّن فيهم تقليدُهم لسَلَفِهم بضلالات دينهم الموروث، فهي تَحُولُ دون الاقتباس الصحيح من نور الهداية، فإذا قرعتْ خُرافاتِهم قوارعُ هذا النور الساطع تَغَاضَوْا عنه وسَفَّهوه، حماقةً وبَلَهاً، رُغماً عن أنه قويٌّ جليٌّ نقيٌّ.

فقوله: ﴿ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ تصويرٌ لذلك البَلَه،

واستعارةٌ تخيليَّة مبنيَّة علىٰ تشبيههم في تغاضيهم عن قوارع هذا النور الساطع، بمن يَسُدُّون آذانهم من الصَّواعق حَذَرَ الموت، حماقةً وبلهاً، فقد سِيقَت هذه الاستعارةُ لتصوير ناحيتين من نواحي نفوسهم، وبيان أمرين من أمورهم، فهي تُصوِّر شدَّة بلههم وحماقتهم البالغة الحد، وتُشنِّع عليهم في ذلك، لأنَّ سدَّ الآذان ليس من أسباب الوقاية من الصواعق، ولكنه شأن الصبيان. وكذلك تُقرِّر إعراضَهم عن الحقِّ الجليِّ القويِّ، وصَمَمَهم وتعاميَهم عنه.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ تهديدٌ لهم وتوعُّد، في طيَّاته تسخيفٌ عن صُورة حَذَرهم السخيف، وهو تمثيلٌ لعدم الإفلات منه تعالىٰ، وكنايةٌ عن ذلك؛ لأنَّ المحاط به لا يمكنه أن ينفلت.

وتعقيبُ الإجرام بالوعيد من أساليب القرآن فلا تغفل عنه. وقد وضع الظاهر موضع الـمُضمَر فقال: ﴿مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ولم يقل: محيط بهم؛ للإيذان بأنهم إنما كانوا كذلك بكفرهم، وليكون الكلام تهديداً عاماً يشملهم وغيرَهم من الكَفَرة، وذلك من أساليب القرآن وخصائصه (كما جاء في المادة الحادية عشرة من المقدمة الثانية).

ثم عاد إلىٰ تكميل المَثَل وتحرير حالتهم من ناحية أخرىٰ، ناظراً إلىٰ حالتهم مع البرق بعد بيان حالتهم مع الرعد، فقال: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾، وهذا تصويرٌ لشدَّة تلك القوارع من ذلك النور الساطع.

ثم صوَّر مجال أفكارهم في نوره حيناً، واصطدامهم بضلالات التقليد حيناً آخر، فقال: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾، أي: وقفوا، يعني: كلما نوَّر لهم البرق مَسْلَكاً مشوا في مَطْرح نوره خطوات يسيرة، وإذا خفي البرق وقفوا في أماكنهم علىٰ ما كانوا عليه وهم مُتحيِّرون. والمراد: أنهم يظهر لهم الحق فيعزمون علىٰ اتِّباعه، وتسير أفكارهم في نوره، ولكنهم لا يلبثون أن يصطدموا بضلالاتِ التقليد

لآبائهم، وظلماتِ ما انطبعوا عليه، فيقفون عند ذلك ويعارضون، أو يحتارون ويرتبكون، فهدَّدهم بسَلْب تلك المواهب التي لم ينتفعوا بها، مبيِّناً ضعفهم تجاه قوَّة الله القوية وقهره الغالب، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾، وفيه إيذانٌ لقدرة الله العلية المرهوبة الجانب، ملائمٌ لقوله: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ ومكملٌ له.

هذا وكما يجوز أن يكون المثلان معاً لصِنفَي المنافقين وشياطينهم على ما تقدَّم، يجوز أن يكونا للكافرين والمنافقين على حدٍّ سواء؛ لانطباقهما عليهما معاً، لأن من الكافرين من كان يتطلَّب الإصلاح في الدين، كابن أبي الصَّلت[1] وأبي عامر الراهب[2] وأمثالهما كأبي جهل، فلما جاءهم محمد ﷺ بالحقِّ أعرضوا عنه حسداً ولؤماً، وكذلك بعض رؤساء قريش يعلمون أنَّ محمداً ﷺ على الحق، ولكنه الحسد والخوف على المراكز، كما جاء عنهم في سورة فاطر: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢]، من ذلك قولةُ أبي طالب لما طلب منه النبي ﷺ أن يؤمن، قال: والله إني أعلم أنك على حق، ولكن لا يسعني أن تُعَيِّرَني عجائز قريش.

ويجوز أن يفترق الـمَثَلان، فيكون المثل الأول لعموم أهل الكتاب بما فيهم

---

(١) هو أبو الحكم أمية بن أبي الصَّلْت الثقفيُّ شاعر جاهلي معروف، والد سيدنا حنظلة الغسيل رضي الله عنه، قدم دمشق، وقيل: هو الذي أراده الله تعالى بقوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا... ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٥] «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٩: ٢٥٥).

(٢) هو أبو عامر عبد عمرو بن صيفي، كان يُعرف بالراهب في الجاهلية، نَفَس على رسول الله ﷺ [أي: حسده] وأظهر كفره، مات كافراً عند هرقل بعد الفتح. «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» (١: ٣٨٠).

منافقوهم، والمثل الثاني لعموم المشركين بما فيهم منافقوهم، دون أن نخصَّهما بالمنافقين منهما؛ لأن الكلام السابق عن الكفار والمنافقين يلائمهما ويشملهما، فكل ذلك مُحتَمَل.

وعلىٰ كلٍّ، فهؤلاء كلهم ظهر لهم الحق فالْتَوَتْ عنه قلوبُهم، وبَزَغ عليهم نور الهداية فغَشِيَتْهم الشهوات والأهواء.

هذه هي صنوف الناس بالنسبة للانتفاع بهذا القرآن، بيَّنها الله لنبيِّه؛ إذ لا بدَّ له من معرفتها ليعامل كل طائفة بما يناسب نَـزْعتها، فيَطْمَئِنَّ للمتَّقين ويُجابه الكافرين ويَحذر المنافقين.

ثم قال في «المنار»: عقَّب الأستاذُ الإمام[1] تفسيرَ هذه الآيات بتنبيهٍ ارتاع له الخامل والنبيه، فبيَّن أن القرآن هادٍ ومرشدٌ إلىٰ يوم القيامة، وأنَّ معانيه عامة شاملة، فلا يَعِدُ ويُوعِد ويعظُ ويُرشِدُ أشخاصاً مخصوصين، وإنما نِيطَ وعدُه ووعيدُه وتبشيرُه وإنذارُه بالعقائد والأخلاق والعادات والأعمال التي تُوجَد في الأمم والشعوب أياً كانت، فلا يَغْتَرَّنَّ أحدٌ بقول بعض المفسرين: إن هذه الآيات نزلت في المنافقين الذين كانوا في عصر التنزيل، فيتوهَّم أنها لا تتناوله وإن كانت منطبقةً عليه؛ وذلك لأنه لم يتَّخذ القرآن إماماً وهادياً، ولم يستعمل عقله ومشاعره فيما خُلقت له، بل اكتفىٰ عن ذلك بتقليد آبائه ومعاصريه[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) تفسير «المنار» لمحمد رشيد رضا (١: ١٥٠).

عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وبعد أن ندَّد بالمشركين وأهل الكتاب والمنافقين وشنَّع عليهم بضرب الأمثال، خاطب الناس وقد تهيَّأت عقولهم بتلك المواعظ أن يعبدوا ربَّهم الذي تقتصر أفعالُ الألوهية وصفاتُها عليه تعالىٰ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، فضمَّن الآيةَ البرهان القاطع في استحقاقه وحده لأنْ يُعبَدَ؛ لِـمَا له من الأعمال العظيمة والمنن الجليلة علىٰ الناس أجمعين.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ جملةٌ حاليةٌ بمعنىٰ: راجين أن تنخرطوا في سلْكِ المتقينَ سَخَطَ الله وعذابَه، فهو تكميل للتعليل، ومفادُه أن الغاية راجعة إليكم.

ثم تابع البرهان مُعدِّداً عليهم نِعَمَه في غضون بيان أعماله الجليلة من أفعال الربوبية؛ حثاً لهم علىٰ المسارعة إلىٰ العبادة، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾، أي: جعل لكم الأرض صالحةً لحياة الإنسان وسُكْنَاه، وبنىٰ السماء بنظام عجيب؛ من بعض مقتضياته هبوب الرياح وإنشاء السحاب الذي هو أحد العوامل في بقاء النوع الإنساني، ناهيك بما في الشمس وحركةِ الأرض حولها من الأثر العظيم في تلك الحياة، وهذا قليل من كثير.

وفي كُـلِّ شيءٍ لـه آيـةٌ ... تَدُلُّ علىٰ أنه واحـدُ[1]

---

(١) اختُلف في نسبة هذا البيت، فنسبه الجاحظ في «المحاسن والأضداد» (١: ١٦٨) لأبي نُواس، ونسبه الثعالبي في «أحسن ما سمعت» (١: ٩)، و«التمثيل والمحاضرة» (١: ١١)، والقيرواني في «زهر الآداب وثمر الألباب» (٢: ٣٨٧) لأبي العتاهية، ونسبه الراغب الأصفهاني في «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» (٢: ٤١٠) للبيد.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾، أي: وأنتم من أهل العقل والمعرفة، وتعلمون أنه لا نِدَّ له في تلك الأعمال العظيمة.

ويجوز أن تكون هذه الجملة الحالية، للمبالغة في تقبيح شأنهم وسُوء طَوِيَّتِهم[1] في جريانهم علىٰ خلاف البديهي الظاهر، لأنَّ علم هذه الأمور طبيعيٌّ في البشر.

ثمَّ احتجَّ سبحانه لنبيِّه ﷺ علىٰ مُشركي قومه وكفار أهل الكتاب في أن الكتاب الكريم ـ الذي من جملته ما تُلِيَ من الآيَتَينِ الناطقتَينِ بوجوب العبادة والتوحيد لله تعالىٰ وحده ـ مُنزَّلٌ من عند الله علىٰ رسوله حقاً، وجعل ذلك كالتقرير لقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾[2] في دعواكم أنَّ القرآن من كلام محمد، أي: فإن كنتم تَدَّعون ذلك فأتوا بسورةٍ من مثله، وادْعُوا مَنْ يحضُر معكم ويُعاونكم علىٰ ذلك ممَّن شئتُم ما عدا الله سبحانه، فإنه لا يقدِرُ علىٰ مثله إلا الله وحده، أو ادْعُوا الذين يشهدون لكم بأنَّ ما قلتموه يشبه القرآن، يريد: لا أحد يُقرُّكم علىٰ ذلك.

وهذا الكلام من باب التعجيز وإلقام الحجر، وقد أحالهم في الحكم إلىٰ أنفسهم فلم يجرؤوا أن يحكموا لأنفسهم، لأن الأمر واضح. وقد قالوا: لو نشاء لقلنا مثل هذا، ولكنهم لم يقولوا، وإنما هو جَدَلٌ مجرَّد وسفاهة؛ لأنَّ القول يفضحهم ويقيمُ الحُجَّة عليهم بجلاء.

وكل بليغ متذوِّق للبلاغة والبيان لا يملك إلا الإقرار بأنَّ القرآن من غير جنس

---

(١) الطَّوِيَّة: الضمير. «لسان العرب» (طوي).

(٢) السخافة كل السخافة: مَنْ يسمع هذا ثم يقول: إن القرآن يجوز أن يترجم بلغات أخرىٰ!. (المؤلف).

ما يعهدُه سَمْعُه وذوقُه، وأنَّ مُبَلِّغه محمداً ﷺ لا يخرج عن طَوْق البشر في الكلام، فلا يقدِرُ أن يختلقه أو يفتري به، وكلامه ﷺ ـ رغماً عن بلاغته ـ كالخرز واللآلئ بالنسبة للقرآن.

وقد تحدَّاهم أولاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ثم بعَشْر سور، ثم بسورة من مثله، فسكتوا وذلوا واستكانوا.

والمراد من السورة: الكلام في موضوع واحد. أما كلمة ﴿دُونِ﴾ فقد توسَّعت فيها اللغةُ حتىٰ أخرَجَتْها مَخْرج أداة الاستثناء في مثل هذا التركيب.

وإنما قال: ﴿نَزَّلْنَا﴾ ولم يقل: أنزلنا؛ لأن التنزيل يدلُّ علىٰ التدريج الذي نَزل عليه القرآن، وإنما قال: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: «من دوننا»، لإدخال الروعة وتربية المهابة باسم الجلالة، وهذا أسلوب القرآن، فلا تجهل.

ثم فرَّع علىٰ ذلك منتقلاً من التحدِّي إلىٰ التَّحذير بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾، وهذه الجملة تهديدٌ عام يشملهم وغيرَهم. والجملة الاعتراضية: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾، تُسجِّل عليهم العَجْز المستمر في ذلك، وأنَّىٰ لهم أن يأتوا بأقصر سورة من مثل هذا القرآن الـمُعجِزِ بتراكيبه وأساليبه وأنواع صُوَرِ تعابيره وبياناته، ورِفْعةِ علومه وآدابه، وجلال حِكَمِه وأحكامه، وسَعَةِ معانيه ومدلولاته، ودقَّة إشاراته وتلميحاته، وسَدَاد تربيته وتوجيهاته، وصحَّة سياساته واجتماعياته. تلك التي لو اجتمعت الإنسُ والجنُّ علىٰ أن يأتوا بمثلها لا يقدرون، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وقد أجهز عليهم بالحكم المؤبَّد بقوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾، وكان قد تحدَّاهم بأن يأتوا بمثله، ثم بأن يأتوا بعَشْر سور من مثله، ثم قلَّل الطلب فقال: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، فعجزوا وانخذلوا.

والوَقود ـ بفتح الواو ـ: كلُّ ما يُوقد به النار من المواد المشتعلة، كالوَضوء ـ بفتح الواو ـ للماء الذي يُتَوضَّأ به. وما أرهَبَ التهديدَ بقوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ فإنه تهديدٌ وبيانٌ للناس عن هَوْل تلك النار التي وَقُودُها الحجارة لشدَّتها، رغماً عن أنَّ الحجارة ليست مادةً مشتعلة.

ففي الكلام ترهيبٌ رهيبٌ مكّنه بقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾، فإنَّ هذه الجملة تدلُّ علىٰ شدَّة الاعتناء بتحضيرها، وذلك يستلزم كَثْرَة ما بها من هَوْل وعذاب. أعاذنا الله من شرِّها وعذابها، إيَّاه نعبد وبه نستعين، وهو أرحم الراحمين.

وقد أقام لازمَ جواب الشرط مقامَه علىٰ نهج القرآن؛ لأن الجواب: فاعلموا أنه من عند الله.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

وبعد أن أشبع الكلام في المشركين والمنافقين وأحوالِهم ومصيرِهم، ذكر المؤمنين ومصيرَهم، زيادةَ تحسيسٍ في الترغيب والترهيب، فالضدُّ يُظْهِرُ حُسْنَه الضِّدُّ. وذلك من خصائص القرآن في بلاغته (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، وإنما غيَّر الأسلوبَ ليَظهَرَ كمالُ التباين بين الفريقين، ولذلك صدَّر الجملة بالتبشير.

والأعمال الصَّالحة: هي ما أُشيرَ إلىٰ أمهاتها في الفاتحة، وجاءت تفاصيلها في تضاعيف القرآن.

والاقتصار في وصف الجنان علىٰ جريان الأنهار، جاء علىٰ نهج القرآن في مواقف الوصف، فإنه يقتصر علىٰ بعض الصفات الرائعة بطريقة اللَّمْحة الدالة، ولا يتعمَّق ولا يَسْتقصي الوصف إلا إذا اقتضىٰ البيانُ ذلك، واسْتَدْعاه الغرض.

ثم ذكر ما تمتاز به ثمرات هذه الجنات، فقال: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾.

قال أبو مسلم[1]: المراد: شدَّة التشابه بين ثمار الجنة في جميع الصفات.

وعن ابن عباس ومجاهد: هي متشابهةٌ في الشكل متفاوتةٌ في الجودة[2]. وعن عكرمة: أن المراد مشابهة ثمرة الجنة لثمرة الدنيا إلا أنَّ ثمرة الجنة أطيب[3]. وعلىٰ هذا المعنىٰ يكون قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: في الدنيا، ولما استَحْكَمَ الشَّبَهُ جَعَل ذاتَه ذاتَه.

ثم تابع الكلام عمَّا لهم من النعيم في تلك الجنان، فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: من كل ما يُنغِّص الحياةَ الزوجيةَ من النقائص البدنية التي تُشين الجسم، والنقائص الخُلُقية التي تُشين الروح، أي: مُبالَغٌ في تطهيرهنَّ وتزكيتهنَّ، فليس فيهنَّ ما يُعاب من خُبْث جسديّ حتىٰ ما هو في الدنيا طبيعي، كالحيض والنفاس، ولا نفسيّ، كالمكر والكيد وسائر مساوئ الأخلاق؛ لأنهنَّ طُهِّرنَ كلَّ أنواع التطهير.

ونساء الجنات من المؤمنات الصَّالحات، وهنَّ المعروفات في القرآن بالحُور العين، أو الحور العين صنفٌ آخر مُضاف إليهنَّ وهو الأصح، والله أعلم.

---

(١) يعني: الأصفهاني.

(٢) روىٰ الطبري في «تفسيره» (١: ٣٩٠). عن مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ لونُه مختلفاً طعمُه، مثل الخيار والقثاء.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١: ٣٩١).

وقال ابن القيم: لم يثبت في نساء الجنة حديثٌ صحيحٌ بأكثرَ من زوجتين لكلِّ رجل[١]. وقال في «المنار»: وفي «الصحيح»: «إنَّ لكلِّ رجل في الجنة زوجين اثنتين». قال العلماء: إحداهُنَّ من نساء الدنيا، والأخرىٰ من نساء الجنة، وما وَرَد من كثرتهنَّ لا يصحُّ منه شيء[٢].

أقول: ولكن جاء في الحديث: «إنَّ للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدة مجوَّفة، طولُها ستون ميلاً، فيها أهلون، يطوف عليهم المؤمن، فلا يرىٰ بعضهم بعضاً» رواه الشيخان[٣]. إلا أنه يحتمل مع الزوجات غيرهنَّ من الأهل، والطوافُ لا يُلازم المسيس.

وصُحبة الأزواج في الآخرة كسائر شؤون الآخرة الغيبيَّة، نؤمن بما أخبر به الله تعالىٰ، لا نزيد عليه ولا ننقص، ولا نبحث في كيفيَّته، وإنما نعرف بالإجمال أنَّ أطوار الحياة الآخرة أعلىٰ وأكمل من أطوار الحياة الدنيا بما لا يُقَدَّر، ونحن نعلم أنَّ الحكمة في لذة وَطْء الأزواج في الدنيا هي التناسل وإنماء النوع، ولم يرد أنَّ في الآخرة تناسلاً، فلا بدَّ أن تكون لذَّة المُصَاحَبة هناك نوعاً آخر أسمىٰ وأعلىٰ، والله أعلم. وإننا نؤمن بذلك ولا نبحث عن حقيقته؛ إذ ليس ذلك في الإمكان.

---

(١) «حادي الأرواح»، ص١٠٩.

وقد روىٰ أحمد (١٧١٨٢)، والترمذي (١٦٦٣) عن المقدام بن معدي كَرِب قال: قال رسول الله ﷺ «للشهيد عند الله ست خصال: ... ويزوّج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين...»، وقال الترمذي: حديث صحيح غريب.

(٢) «المنار» (١: ١٩٦)، والحديث رواه البخاري (٣٢٥٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «أول زمرة تدخل الجنة علىٰ صورة القمر»، وفيه: «لكل امرئ زوجتان من الحور العين».

(٣) رواه البخاري (٤٨٧٩)، ومسلم (٢٨٣٨) واللفظ له، عن أبي موسىٰ الأشعري.

هذا مُلخَّصُ ما قاله الأستاذُ الإمام، وهذه هي طريقته المثلىٰ في الإيمان بالغيب، من غير قياسٍ لعالَـمِه علىٰ عالَـمِ الشهادة.

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ما معناه: إنَّ كل ما جاء عن الآخرة مما في الدنيا ليس بينهما مشابهةٌ إلا بالاسم(١).

أقول: ولا يبعد أن يكون هناك وطءٌ دون تناسل أو شبيه به، والله أعلم.

وجاء عن أمِّ سلمة رضي الله عنها قالت: «قلت: يا رسول الله، أنِساءُ الدنيا أفضلُ، أمِ الحورُ العين؟ قال: «نساء الدنيا أفضلُ من الحور العين كفضل الظِّهارة علىٰ البِطانة». قلت: يا رسول الله، وبمَ ذلك؟ قال: «بصلاتهنَّ وعبادتهنَّ اللهَ عـزَّ وجَلّ، ألْبَسَ اللهُ عز وجل وجوهَهنَّ النور وأجسادَهنَّ الحرير، بيضُ الألوان، خُضْرُ الثياب، صُفْرُ الـحَلْي، مجامرهُنَّ الـدُّرّ، وأمشاطُهنَّ الذهب، يقلن: ألا نحنُ الخالدات فلا نموت أبداً، ألا نحن الناعمات فلا نَبْؤُس أبداً، ألا ونحن المقيمات فلا نَظْعن أبداً، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً، طُوبىٰ لمن كنّا له وكان لنا»، قلت: يا رسول الله، المرأة منا تتزوَّج الزوجين والثلاثةَ والأربعةَ في الدنيا، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها، مَنْ يكون زوجُها منهم؟ قال: «يا أمَّ سلمة، إنها تُخيَّر فتختار أحسنَهم خُلقاً. فتقول: أيْ ربِّ، إنَّ هذا كان أحسَنَهم معي خُلقاً فزوِّجْنيه»(٢).

ثم أكمَلَ البيان عن النَّعيم الذي تضمَّنه هذا الوعد الكريم بقوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾، لأنَّ النعيم مهما كان عظيماً إذا لم يكن خالداً يكون مُنغَّصاً، ففي هذا البيان تكميلٌ للبهجة والسرور.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١: ٣٩٢).

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٣: ٣٦٧)، و«الأوسط» (٣١٤١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧: ٢٥٥): رواه الطبراني وفيه سليمان بن أبي كريمةَ، ضعَّفه أبو حاتم وابن عدي.

والخلودُ في اللغة: طول المُكْث، ومن كلامهم: خلد في السِّجن. وفي الشرع: هو الدوام الأبديُّ، أي: لا يخرجون منها ولا هي تفنىٰ بهم فيزولوا بزوالها.

وفَّقنا الله لما يجعلنا من خيار أهلها من المعرفة الصحيحة والأعمال الصالحة التي ترتقي بها الأرواحُ، وتسعد[1] لذلك الفلاح.

وقد ذُكر في وصف الجنة ودرجاتها أحاديثُ، بعضها موضوع، وبعضها منكر[2]، ومن ذلك ما روي عن أبي هريرة وعمران بن حصين أنهما قالا لمن سألهما: علىٰ الخبير سَقَطْت، وأنهما سألا رسول الله ﷺ وذكرا وصفاً طويلاً، فيه: «أنَّ في الجنة للرجل الصالح ألوفاً من البيوت، في كلٍّ منها ألوف من الحور العين»، وهو حديث منكر من دسائس الوضَّاعين[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

وبعد أن أثبتَ سبحانه أنَّ هذا الكتاب مُنزَّل من عند الله بما تَحدَّاهم به بقوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، أجاب عن شُبهة لهم، وهي وجود مَثَلِ البعوضة والعنكبوت

---

(١) في تفسير «المنار» (١: ١٩٦) والكلام منه: وتستعدُّ.

(٢) ولكن هناك أحاديث صحيحة ثابتة، ليت المؤلف أشار إليها.

(٣) ذكره ملا علي القاري في كتاب «الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة» (١: ٢٤٨) فقال: حديثُ علىٰ الخبير سقطت. جاء عن جماعة من أهل العلم ومنهم ابن عباس رضي الله عنهما.

فيه، مما لا يليق أن يكون كلاماً لله بزعمهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾[1]، فالآية تتميمٌ للردِّ علىٰ من يرتاب في أنَّ القرآن مُنَزَّل من عند الله، أي: إنَّ الله سبحانه لا يرىٰ من النقص ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أوضح به مَهَانة شركهم وشركائهم بأجْلىٰ بيان، وأثبتِ برهان.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ يَشْتَبهون بكَوْن هذا القرآن من عند الله، لأنه يحوي مثل هذه الكلمات، فبيَّن سبحانه أن مِثْلَ هذا المَثَلِ يكون هدايةً للمؤمنين وضلالاً للكافرين، فقال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: الحائدين في فهم الحقِّ عن سواء السبيل.

---

(١) ويجوز أن يضاف إلىٰ هذا الوجه وجه آخر، وهو أن ما ألمع به سبحانه إلىٰ وصف الجنة والنار إنما هو لمحة دالة وتمثيل ضئيل، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾ ـ أي: لا يرىٰ من النقص ـ ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾. واستعمال كلمة المثل للبيان قد جاء في القرآن كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣]، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ [الزخرف: ٥٧] فقد قال المفسرون: المراد منه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. وكلمة: ما، صفة للمثل تفيد التقليل، أي: مهما كانت درجته من الضؤولة ما دام يجلي المعنىٰ، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ إذ أنَّ كل ما جاء عن الآخرة مما في الدنيا ليس بينهما مشابهة إلا بالاسم، كما جاء ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ إن للمتموِّلين جناناً في الدنيا تجري من تحتها الأنهار، فيها من أنواع الفواكه والثمار، ينكرون بذلك اليوم الآخر، ويرتابون في كون هذا البيان من عند الله العلِّي القادر، ويظنّونه خيالاً من عالم الحياة الدنيا يُصوِّره شاعر ماهر، فألمع سبحانه في الردِّ عليهم إلىٰ أنَّ الكلام عن عالم الغيب لا يكون إلا باللمحة الدالة والتمثيل؛ لأن اللغة لا تفي علىٰ الوجه الكامل بذلك الحال الجليل. (المؤلف).

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ وهو المحافظةُ على سلامة الفطرة والغريزة الدينية، والسَّيْرُ بها نحو الكمال، تلك الفطرة التي ألمع سبحانه إليها بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، إلىٰ غير ذلك من الآيات.

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أي: من ذلك العهد والسَّيْر إلىٰ الهدف الأسمىٰ والكمال المنشود، يقطعونه بالضلال والإضلال، ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ذلك الفسادَ الكبيرَ الذي حَادَ بالإنسان عمَّا خُلق ودُعيَ إليه. لذلك نَعَىٰ عليهم بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾، وأيُّ خسارة أعظم من خسران الدنيا والآخرة! أعاذنا الله.

ويجوز أن يُراد بالعهد أيضاً: ما أخذه سبحانه علىٰ أهل الكتاب في التوراة من اتِّباع محمد ﷺ والتَّصديق بما جاء به، وأن يُراد بقطع ما أمر الله به أن يُوصَل: معارضتُهم له بَدلَ تأييدهم إيَّاه. وكذلك معارضة المشركين ومحاربتهم محمداً ﷺ وأَتباعَه، وهم من ذوي رَحِمِهم وقُرباهم، فقد قطعوا الرَّحِمَ التي أمر الله سبحانه أن تُوصَل، فهم يفسدون في الأرض بمقاومة الحق وقطع الأرحام، فخسروا الدنيا والآخرة.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

وبعد أن عدَّد لهم تلك القبائح، وذلك الضلال الفاضح، الذي يُوجبُ سخطه عليهم، ويقتضي مشافهتهم بالتوبيخ والتقريع، التفتَ إلىٰ خطابهم وتوبيخهم علىٰ شركهم

وإنكارهم الحشْرَ وإمكانَه، ومَزَج ذلك بالاستدلال عليه بدليل القدرة في الإحياء والإماتة، فقال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾[1]، أي: كيف تشركون به وتنكرون قدرتَه علىٰ الإعادة وقد أوجدكم بعد أن لم تكونوا، أمَا كان عليكم أن تفقهوا أنَّ مَنْ فعل بكم ذلك هو القادرُ علىٰ إعادتكم وعلىٰ كلِّ شيء، وهو المستحق وحده لأن يُعْبَد.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ معطوفٌ علىٰ قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ عطفَ الدعوىٰ علىٰ الدليل؛ لأنَّ من قَدَر علىٰ ذلك يقدر علىٰ هذه الإعادة، إذ الإماتة من أعجب أحوال الطبيعة لو كانوا يفقهون.

ومن بلاغة القرآن وطرق إعجازه: عرضُه قصَّةَ الحياة كلها من قبل ظهورها بمرحلة إلىٰ ما بعد انـتهائها بمرحلة، في هذه المقاطع الأربعة القصيرة، جلَّ مَنْ هذا كلامه.

ثم تابع الاستدلال جامعاً بين دليل القدرة ودليل المنَّـة، تقريراً لاختصاصه بالألوهية، ولقدرته علىٰ الحشـر، وتوبيخاً لـهم علىٰ مقابلة الإحسان بالإساءة، فوق عَمَههِم عن الحق في الإيمان بالله وحده واتِّباع هُداه، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾،

---

(١) يُعجِّب سبحانه وتعالىٰ من أمر هؤلاء الذين ينكرون قدرة ربهم علىٰ إعادتهم وحشـرهم، وهم يدركون أنهم كانوا في العدم، ثم تفضَّل عليهم بالوجود، وأغدق عليهم النعم من السماء والأرض. ويذكرهم بالإماتة التي لا ينكرونها، ويلمع إلىٰ أن إعادة الحياة عليهم بعد الموت أمر هيِّن علىٰ من هذا شأنه تعالىٰ؛ لأن الإماتة أمر عجيب ليس الإحياء بأعجب منها. (المؤلف).

فما أبدعَ هذا التركيب! صورتُه استدلالٌ ومادتُه تأنيب، وذلك من إعجاز هذا القرآن العظيم، فإنه لما استعظم المشركون أمر الحشر والإعادة دلَّهم بخلق السماوات والأرض وما فيهما، علىٰ قدرته علىٰ الإعادة وهَوْنها عليه، مؤنِّباً إياهم علىٰ الكفر والإنكار.

وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، إنما هي لتفاوت ما بين خِلقة الأرض والسماء في العظمة، لا للتراخي في الزمن، وهذا كثير في القرآن، ومن خصائص تراكيبه.

ويجوز أن يكون الإتيان بـ﴿ثُمَّ﴾ لإفادة أنه خبرٌ جديدٌ جيءَ به بعد الخبر الأول، وهو من أساليب اللغة وخصائص القرآن.

والاستواء: الاستقامة في البدن اهتماماً وقصداً للعمل، وهو هنا مُستَعارٌ من حال المخاطبين من البشر، حيث إنَّ المهتم بالعمل يتوجَّه إليه مستوياً معتدلاً، واستعارةُ صفات المخلوقين للخالق سبحانه وتعالىٰ؛ تقريباً للأفهام، هي من خصائص القرآن ونوعٌ من مجازاته (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدِّمة السادسة).

وحاصل المعنىٰ من قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أنه قَصَد إليها بعناية، وجَعَلها خلقاً عظيماً[1].

ويجوز أن يكون المرادُ من جمع السماوات طبقاتِ النجوم[2]، فإنَّ طبقاتها

---

(١) قال ابن كثير في «تفسيره» (١: ٢١٣): ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قصد إلىٰ السماء، والاستواءُ هاهنا تضمَّن معنىٰ القصد والإقبال؛ لأنه عُدِّيَ بـ«إلىٰ». اهـ.

(٢) هذا تأويل باطل، وطبقات النجوم: زحل، والمشتري، والمريخ، والزُّهرة... وكل هذه الكواكب في السماء الدنيا التي تعلونا، ولا نرى فيها إلا اللون الأزرق، ولا نعرف ماذا وراءها، وكل ما نرى من النجوم التي يصل إلينا ضوؤها بعد ملايين السنين الضوئية ـ كما يقول علماء الفلك ـ كلها في السماء الدنيا، لقوله عزَّ وجل: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥] أي: =

متفاوتةٌ في البُعْد تفاوتاً كبيراً، هذا ما أراه. والله أعلم[1]. ويجوز أن يكون للتكثير لا

---

= بالنجوم، ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]. ولكن ماذا بعد السماء الدنيا؟ لا نعرف عنها شيئاً لأنه ملكٌ واسع عظيم، الله أعلم به. وينظر ما كتبته حول السماوات السبع والرد على من أوّلها بالكواكب السيّارات السبع في شرحي لِـ«العقيدة الإسلامية» للمكي بن عزوز ص١٥٩-١٦١.

(١) تكرر في القرآن الكريم ذكر (السماوات السبع) بصيغ مختلفة، فذكرها في هذه السورة، وفي سورة النبأ ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢]، وفي سورة تبارك: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]، وكذلك في سورة نوح على لسانه لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، وفي سورة المؤمنين سماها (طرائق): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧].

وقد اختلف المفسرون، وخصوصاً المعاصرين منهم، في تحديد مدلول السماوات. وذهب بعضهم مثل الإمام محمد عبده في تفسير (جزء عمّ) إلى أن (السبع الشداد) هي: ما فيه الكواكب السبع السيارة المشهورة، وخصَّها بالذكر؛ لظهورها ومعرفة العامة لها، وإلا فقد بنى ما هو أعظم منها، وهو ما وراءها من عوالم السماوات.

وكذلك فسرها بالسيارات السبع: الشيخ عبد القادر المغربي في «تفسيره» لجزء تبارك، في تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣].

وكذلك العلامة الطاهر بن عاشور، الذي قال في «التحرير والتنوير» (٣٠: ٢٣): «يجوز أن يراد بالسبع: الكواكب السبعة المشهورة بين الناس يومئذ، وهي: زُحَل والمشتري والمرِّيخ والشمس والزُّهرة وعُطارد والقمر».

وقال: «وهذا المحمل هو الأظهر، لأن العبرة بها أظهر؛ لأن المخاطبين لا يرون السماوات السبع، ويرون هذه السيارات، ويعهدونها دون غيرها من السيارات التي اكتشفها علماء الفلك من بعد».

والحقيقة: أن هذه ليست تسمية لغوية، ولا اصطلاحية أهل الفلك، وكلمة (السماوات) لغةً وعرفاً أوسع وأشمل من (السيارات السبع)، كما أن عامة الناس لا يعرفون من هذه السيارات السبع إلا الشمس والقمر، والأخريات لا يعرفها إلا أهل العلم بها. وكل ما نراه من النجوم =

للتحديد، وذلك من خصائص القرآن واللغة معاً[١].

---

= إنما يظهر في مواقعه من السماء الدنيا. أما حقيقة السماوات السبع وما يجري فيها، وما فوقها من الكرسي الذي قال الله فيه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ومن العرش الذي هو أعظم المخلوقات عامة، ولذا قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧]؛ فذلك كله مما لا دراية للناس به.

(١) تكرار الآية يدل علىٰ أن المراد بالسبع التحديد لا للتكثير، ويدل علىٰ ذلك حديث الإسراء المشهور في «الصحيحين» واجتماعه ﷺ بالأنبياء، ففيه: «ثم انطلقنا حتىٰ أتينا السماء الدنيا، فاستفتح جبريل ﷺ ...» الحديث. وفيه: أنه لقي في السماء الدنيا آدم ﷺ، وفي الثانية: عيسىٰ ويحيىٰ عليهما السلام، وفي الثالثة: يوسف، وفي الرابعة: إدريس، وفي الخامسة: هارون، وفي السادسة: موسىٰ، وفي السابعة: إبراهيم. انظر البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).

وما ورد من هذه الأعداد يحمل علىٰ الحقيقة لا علىٰ التكثير، فقد ذكر أهل العلم أن اللفظ يجب حملُه علىٰ الحقيقة، لأنها الأصل، ما لم يترجح غيرها بشهرة أو غيرها، قال السبكي في «الأشباه والنظائر»: حملُ اللفظ علىٰ ما يتبادر إلىٰ الذهن أولىٰ، ومن ثَمَّ يُحمَلُ علىٰ الحقيقة ما لم يترجح المجاز بشهرة أو غيرها. وقال الزركشي في «البحر المحيط»: إذا كان الاسم له حقيقة ومجاز وورد الخطاب به، فإنه يحمل علىٰ الحقيقة.

ولمزيد الفائدة وإزالة الشبهة نذكر أن مفهوم العدد هو أحد أنواع مفهوم المخالفة الذي يُبحَثُ في علم أصول الفقه، ومن المعلوم أن علم أصول الفقه فيه مباحث لغوية كالأمر والنهي، والخاص والعام، والمطلق والمقيد، والظاهر والمؤول، وفيه مباحث اختلف أهل العلم في إفادتها للدلالة، هل هي لغوية لفظية أم هي عقلية؟ ومن هذه المباحث: مبحث المفهوم، قال الزركشي في «البحر المحيط»: هل المفهوم مستفاد من دلالة العقل من جهة التخصيص بالذكر، أو مستفاد من اللفظ؟ قولان، وبالثاني قطع الإمام في «البرهان»، وردّه الكرخي في «نكته» بأن اللفظ لا يُشعِرُ بذاته، وإنما دلالته بالوضع، ولا شك أن العرب لم تضع اللفظ دالاً علىٰ شيء مسكوت عنه، فإن اللفظ إما أن يشعر بطريق الحقيقة أو المجاز، وليس المفهوم واحداً منهما، وبنىٰ علىٰ =

= هذا أنه لا يصح الاستدلال بكون أهل العربية صاروا إلىٰ المفهوم، فإنهم إنما أخذوه بطريق الاستدلال بالعقل، وقد يخطئون، فيكون إذن نسبتهم كنسبة غيرهم من المخالفين. اهـ.

وعلىٰ أية حال، فدلالة مفهوم المخالفة من القواعد الأصولية، ولها علاقة بوضع اللغة عند بعض أهل العلم. ومفهوم العدد أحد أنواع مفهوم المخالفة، وهو حجّةٌ عند جمهور أهل العلم.

قال الشوكاني في «إرشاد الفحول»: الحق ما ذهب إليه الأولون ـ يعني: القائلين بحُجِّية مفهوم العدد ـ، والعملُ به معلوم من لغة العرب ومن الشرع، فإن من أمر بأمر وقيّده بعدد مخصوص، فزاد المأمور علىٰ ذلك العدد أو نقص عنه، فأنكر عليه الآمرُ الزيادة أو النقص، كان هذا الإنكار مقبولاً عند كل من يعرف لغة العرب، فإن ادعىٰ المأمور أنه قد فعل ما أمر به، مع كونه نقص عنه أو زاد عليه، كانت دعواه هذه مردودة عند كل من يعرف لغة العرب. اهـ.

ولا يتعارض إثباتُ حجية مفهوم العدد مع النصوص التي يظهر منها إغفالُ قَصْد خصوص العدد، كذِكرِ العدد للمبالغة أو التنبيه علىٰ ما فوقه، قال الزركشي: محلُّ الخلاف فيما لم يُقصَد به التكثير، فأما المقصود به كالألف والسبعين وغيرهما، مما جرىٰ في لسان العرب للمبالغة، فلا يدل بمُجرَّده علىٰ التحديد. ذكره ابن فورك ...، واستثنىٰ ابن الصباغ في «العدّة» ما إذا كان في العدد تنبيه علىٰ ما زاد عليه، كقوله: «إذا بلغ الماء قُلّتين» فإنه تنبيه علىٰ أن ما زاد عليهما أولىٰ بأن لا يحمل. اهـ.

ثم إن ما تقدم لا علاقة له بكون الأعداد تدل بمنطوقها علىٰ معدودهاحقيقة؛ فإن هذا من المنطوق لا المفهوم، وبالتالي لا يصحُّ القول بأن عدَّ السماوات بسبع، وأيام الخلق بِستّ، والطيور التي أحياها الله لخليله بأربع ـ لا يلزمُ منه أن تكون هذه الأعداد حقيقية! بل هذا لازم، ولكن يبقىٰ الخلاف في: هل مثل هذه النصوص يصحُّ الاحتجاج بها علىٰ نفي خلق الله لسماوات أخرىٰ غير هذه السبع، وخَلْقِه لخلقٍ آخر غير السماوات والأرض في غير الأيام السِّتّ، وإحياء غير الطيور الأربعة للخليل في غير هذه القصّة، وهكذا؟

وقد تلمّس بعض العلماء الحكمة في تكرار العدد سبعة، فقالوا فيما نقله الزرقاني في «شرح الموطأ» ١: ٥١٨: قال بعض العلماء: حكمة هذا العدد أنه لـمّا كان للوترية أثر عظيم في التذكير بالوتر الصمد الواحد الأحد، وكان للسبعة منها مدخل عظيم في الشرع، جعل تكبير صلاة العيد وتراً، وجعل سبعاً في الأولىٰ لذلك، وتذكيراً بأعمال الحج السبعة من الطواف، والسعي، =

= والجمار تشريفاً إليها، لأنه النَّظر إلىٰ أكثر، وتذكيراً بخالق هذا الوجود بالتفكُّر في أفعاله المعروفة من خلق السماوات السبع والأرضين السبع وما فيها من الأيام السبع. انتهىٰ.

وللعلامة ابن القيم كلام قيِّم في هذه المسألة، قال في «زاد المعاد» (٤: ٩٨): «وأما خاصية السبع فإنها قد وقعت قدراً وشرعاً، فخلق الله عز وجل السماوات سبعاً، والأرضين سبعاً، والأيام والإنسان كمل خلقه في سبعة أطوار، وشرع الله سبحانه لعباده الطواف سبعاً، والسعي بين الصفا والمروة سبعاً، ورمي الحجارة سبعاً سبعاً، وتكبيرات العيدين سبعاً في الأولىٰ، وقال: «مروهم بالصلاة لسبع»، و«إذا صار لغلام سبع سنين خُيِّر بين أبويه»، في رواية أخرىٰ: «أبوه أحقُّ به من أمه»، وفي ثالثة: «أمُّه أحقُّ به»، وأمر النبي ﷺ في مرضه أن يُصَبَّ عليه من سبع قِرَب، وسخّر الله الريح علىٰ قوم عاد سبع ليال، ودعا النبي ﷺ أن يُعينه الله علىٰ قومه بسبع كسبع يوسف، ومثّل الله سبحانه ما يضاعف به صدقة المتصدق بحبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة، والسنابل التي رآها صاحب يوسف سبعاً، والسنين التي زرعوها دأباً سبعاً، وتضاعف الصدقة إلىٰ سبعمئة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، ويدخل الجنة من هذه الأمة بغير حساب سبعون ألفاً، فلا ريب أن لهذا العدد خاصية ليست لغيره ...» إلخ.

وللشيخ عطية محمد سالم رحمه الله كلام نفيس لخص فيه ما قاله صاحب «العذب الفائض في علم الفرائض» يُوضح فيه بجلاء خصوصية العدد سبعة، قال: «إن الأعداد بعَدِّ السبعة مكرَّرة المكرَّر، وإن نهاية العدد حقيقة هو العدد سبعة، كما يقال بأن المئة تكرار العشرة، والألف تكرار المئة، وهكذا.

وبيان ذلك علىٰ حدِّ قولهم: أن كلاً من الأعداد واحد واثنين وثلاثة، أعداد أولية، أي: ليست مركّبة من مكرَّر، بناءً علىٰ أن الواحد ليس داخلاً في العدد، وأنّ ابتداء العدد من اثنين. ثم تأتي الأربعة مجموع الاثنين، والستة مجموع الثلاثة مرتين، والسبعة مجموع الثلاثة والأربعة، وما فوق السبعة ففيها تكرار المكرّر، وتكرار المكرَّر لانهاية له، فالثمانية تكرار الاثنين أربع مرات، ولو قيل: هي مجموع الأربعة مرّتين، لقيل: إن الأربعة نفسَها تكرار الاثنين، فلا تخرج عن تكرار المكرّر، والتسعة تكرار المكرّر، وهو الثلاثة ثلاث مرات. والعشرة تكرار الاثنين خمس مرات.

ولذلك قال ابن القيم: «والسبعة جمعت معاني العدد وخواصّه»، وبناء علىٰ ذلك يكون العدد سبعة هو النهاية للعدد، وما بعده تكرار المكرَّر إلىٰ ما فوقه من الأعداد. والله أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

ثم انتقل إلىٰ بيان أمر آخر من أمور الله الإيجاديَّة التي تستلزم اختصاصَه بالألوهيّة، وفي طيَّاته أمور:

الأول: النعمة علىٰ بَني الإنسان في كيفيَّة أصل خِلقتِهم وكرامتهم.

والثاني: توقيف بني الإنسان علىٰ ما بينهم وبين الشيطان من عداوة طبيعيَّة، وأنه يحاول فيهم الزيغ والزَّلل علىٰ الدوام، فعليهم أن يتَّقوا ذلك ويحترسوا منه بما أعطاهم الله من عقل ودراية.

والثالث: أنَّ ما تقدَّم من شرك المشركين ونفاق المنافقين إنما هو أثرٌ من غَواية الشيطان، وقد خصَّ الخطابَ بتوجيهه إلىٰ النبيِّ ﷺ؛ للإيذان بأنَّ فحوىٰ هذا الكلام ليس مما يهتدىٰ إليه بأدلة العقل، كالأمور المشاهدة التي نبَّه عليها الكَفَرةَ بطريق الخطاب العام، وإنما طريق هذا هو الوحي الخاصُّ به ﷺ.

والمهم فيه أنه سبحانه أراد أن يبيِّن سبب جعل الإنسان مختاراً في تصرُّفاته فيفسد في الأرض، ولم يجعله مقسوراً علىٰ فعلٍ كالملائكة حتىٰ لا يفسد، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ مختاراً في تصرُّفاته[1]، لا مقسوراً علىٰ

(١) فحُذف هذا الوصف اعتماداً علىٰ السياق، علىٰ حدّ قوله تعالىٰ: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١] =

فعل الخير كالملائكة، إذ لا يقدرون أن يستفيدوا من خيراتها، ولا أن يستفيدوا من أعمالهم. ويجوز أن يُفهَمَ ذلك من لفظ «خليفة»؛ لأنه يدلُّ علىٰ كمال التصرُّف، وذلك لا يكون إلا بالاختيار، ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾[1]، وإنما قالت الملائكة ذلك لما علمت أنه مختار في تصرُّفاته لا مَقْسورٌ علىٰ الخير مثلها، والله أعلم.

أي: أَتَسْتَخْلِفُ مَنْ هذه صفتُه ونحن المعصومون؟! قال: إني أعلم من المصلحة في استخلافه ما هو خفيٌّ عنكم لا تعلمونه.

---

= أي: لتُبعثُنَّ، وقوله: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ [ق: ٣] أي: نُبعَثُ ونرجع؟ ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ [ق: ٣]، فقد حذف جواب القسم وجواب الشرط اعتماداً علىٰ السياق، وذلك من بلاغة القرآن العالية، وإعجازه العظيم، وحذف إيجازه العجيب. (المؤلف).

(١) الغرض من قصة آدم ووجهُ ربطها بالسياق: بيانُ منشأ كفر أولئك الكافرين والمنافقين الذين لم يهتدوا بهذا القرآن، وكانت حالهم معه كما مثَّلها لهم، فبيَّنت القصة منشأ ذلك فيهم، ضمن بيان طبيعة الإنسان. وقسم القصة إلىٰ ثلاثة فصول؛ ألمع في الفصل الأول منها إلىٰ أنَّ الإنسان مختار في تصرُّفاته، فلذلك يصدر عنه الخير والشر، وليس كالملك المقسور علىٰ فعل الخير. وإنما جُعِلَ بهذه المثابة من الاختيار في التصرف؛ ليكون ذا علم كَسْبي واسع يستخدم به مواهب هذه الأرض وينتفع بها.

وألمع في الفصل الثاني إلىٰ أنه سبحانه كرَّم هذا الإنسانَ، وفضَّله علىٰ سائر المخلوقات، ونبَّهه علىٰ استعداده للغَواية والضلال، وحذَّره من ذلك.

ثم أثبت له الأمر بالتجربة في الفصل الثالث من القصة، وأعلمه أن إرسال الرسل إنما هو لتوجيهه للنهج الصحيح والطريقة المثلىٰ، والمحافظة علىٰ طبيعته الكريمة الناصعة، فإنْ أعرض عنهم دنَّس طبيعته وارتدَّ إلىٰ أسفل سافلين. وكان من أصحاب النار كأولئك المنافقين والكفار. (المؤلف).

وإنما عدَّىٰ كلمة ﴿وَنُقَدِّسُ﴾ باللام للإشارة إلىٰ تضمينها معنىٰ الخضوع والانقياد.

وذهب الأستاذ الإمام إلىٰ أنّ هذه الآيات من المتشابهات التي لا يمكن حَمْلُها علىٰ ظاهرها؛ لأنها بحسب قانون التَّخاطب: إما استشارة، وذلك محال علىٰ الله تعالىٰ، وإما إخبارٌ منه سبحانه للملائكة واعتراضٌ منهم ومُحَاجَّة وجدال، وذلك محال أيضاً[1]، وقد وَصَف القرآنُ الملائكةَ وصفاً صريحاً حيث قال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠][2].

---

(١) أما يجوز أن تكون صُورة هذه المحاورَة حكاية لما دار في خلد الملأ الأعلىٰ عن كشف الحكمة في خلق طبيعة الإنسان مختاراً في تصرُّفاته بحيث ينتج عنه الخير والشر، وما انتهوا إليه من إدراكهم أن ذلك ليكون علمُه يصلح لمهمته ويتَّسع لها، وهي الاستفادة من خزائن الأرض ومواهبها، والله أعلم.

وفي الكلام تصريح بأنَّ الإنسان في جِبلّتِه من الاستعداد لأنواع العلوم الدنيوية ما لم يكن عند الملائكة، ومن كان كذلك صلح لأن يكون خليفة في الأرض دونهم. (المؤلف).

وقوله عن المحاورة: إنها حكاية لما دار في خلد الملأ الأعلىٰ؛ كلام باطل، وتأويل متعسِّف. وينظر الرد على حمل كلام الملائكة على غير الحقيقة في التعليق على مقدمة التفسير للمؤلف غفر الله له (١: ٥٣٨).

(٢) ذكر المفسرون أوجهاً في بيان قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

الوجه الأول: أن الملائكة قالت ذلك بعد إعلام الله تعالىٰ لهم بطبيعة ذرية آدم عليه السلام، وأنهم يُفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، وهذا مرويّ عن ابن عباس وابن مسعود وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم كما نقل ذلك القرطبي في «تفسيره» (١: ٢٧٤)، وابن كثير في «تفسيره» (١: ٢١٨). =

والسلفُ يفوِّضون الأمر إلىٰ الله في فهم حقيقة مثل ذلك، ومعلومٌ أن الله سبحانه يعلمنا بمضمون كلامه ما يُقرِّب المعاني من عقولنا. أما الخلف فيجعلون الكلام علىٰ

---

= الوجه الثاني: أنهم لما سمعوا لفظ: خليفة، فهموا أن في بني آدم من يُفسِد؛ إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد، والفصل بين الناس فيما يقع بينهم من المظالم، ورَدْعهم عن المحارم والمآثم.

الوجه الثالث: ما نقله القرطبي رحمه الله وغيره: أن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء، وذلك لأن الأرض كان فيها الجنُّ قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء. فبعث الله إليهم إبليسَ ومن معه حتىٰ ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، «تفسير القرطبي» (١: ٢٧٤) ثم خلق الله آدم فأسكنه إياها. وهذا مروي عن ابن عباس وأبي العالية.

أما قولُ الملائكة فليس علىٰ وجه الاعتراض علىٰ الله تعالىٰ، وإنما هو ـ كما قال ابن كثير رحمه الله ـ سؤالُ استعلام واستكشافٍ عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربّنا ما الحكمةُ في خَلْق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك فنحن نُسبِّح بحمدك ونُقدِّس لك، أي: نُصلّي لك، ولا يصدر منا شيء من ذلك، وهلّا وقع الاقتصار علينا؟

فقال الله تعالىٰ مجيباً لهم عن هذا السؤال: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: أعلم من المصلحة الراجحة في خَلْق هذا الصنف علىٰ المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم، فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأُرسِل فيهم الرسل، ويوجد منهم الصِّدِّيقون والشهداءُ والصالحون والعُبّاد والزُّهّاد والأولياء والأبرار والمُقرَّبون والعلماءُ العاملون والخاشعون له والمُخبِتُون له تبارك وتعالىٰ المُتبِعون رُسُلَه صلوات الله وسلامه عليهم. انتهىٰ كلام ابن كثير في «تفسيره» (١: ٢١٦).

فسؤالُ الملائكة إنما كان علىٰ سبيل الاستعلام والاستكشاف عن الحكمة من خلق آدم، وليس علىٰ وجه الاعتراض، ولا علىٰ وجه الحسد لآدم وذريته، حاشاهم من ذلك، فهم كما قال الله عنهم: ﴿عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ * لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦- ٢٧]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

التمثيل[١] تقريباً للأفهام وتشخيصاً لما يفيده الكلام من معرفة حال النشأة الآدميَّة وما لها من المكانة والخصوصيَّة.

أقول: فإنَّ القرآن كثيراً ما يُصوِّر المعاني بصُورة السؤال والجواب، أو بصُورة الحكاية لما في ذلك من قوة البيان والتأثير علىٰ النفوس، فهو يُوجِّه بها الأذهان بقوة إلىٰ ما وراءها من المعاني، كقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، فليس المراد أنَّ الله تعالىٰ يستفهم منها وهي تُجاوبه، وإنَّما هو تمثيل لسَعَتها وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا، وأنها ستحوي عدداً كبيراً[٢]. وكقوله تعالىٰ بعد ذكر الاستواء إلىٰ خلق السماء: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، فقد قالوا: ليس هناك أمرٌ بالقول علىٰ الحقيقة، ولا جواب لذلك القول، ولكن الكلام علىٰ التَّمثيل، يُبيِّن به سُهولةَ ذلك عليه، وأنَّ خِلْقَتَها كانت من غير تكلّف ولا مشقَّة، بل هي بمنزلة ما يقال للمأمور: افعل، فيفعل من غير تريُّث ولا توقُّف، فعبَّر عن هذا بالأمر والطاعة[٣].

---

(١) إنما يسلك الخلفُ هذا المسلك حيثُ يمتنعُ حَمْلُ الكلام علىٰ ظاهره لاستحالته عقلاً، وفي دعوىٰ الاستحالة هنا نظر؛ إذ من الممكن إجراءُ الكلام علىٰ ظاهره من المحاور، لكنها لم تكن استشارةً لهم، ولا اعتراضاً وجدالاً منهم، بل كانت استفهاماً لوجه الحكمة في هذا الفعل، كما تقدّم بيانُه في التعليق قبله.

والقاعدةُ المُقرَّرةُ عند أهل العلم: أن الأصل في الكلام حَمْلُه علىٰ الحقيقة، إلا إذا جاءت قرينة تصرفه إلىٰ المجاز، ولا قرينة هنا.

(٢) وهذا فيه نظر أيضاً، فإنه لا يمتنع أن يخلق الله للنار إدراكاً، ويكونُ سؤاله لها تقريراً لا استفهاماً.

(٣) وهذا فيه نظر كسابقه، ومن المعلوم في اللغة وأصول الفقه: أنَّ الأصل في الكلام حَمْله علىٰ الحقيقة إلا إذا جاءت قرينة تصرفه إلىٰ المجاز، ولا قرينة هنا تصرفه عن ظاهره. وينظر في مقدمة الكتاب =

وهكذا الكلام في حكاية خطاب الله سبحانه للملائكة ولإبليس، يُراد به بيان الواقع في صفة طبيعة المَلَك، وطبيعة الإنسان، وطبيعة الشيطان، تحذيراً للإنسان من القوة الشرِّيَّة فيه، كاشفاً ما دار في خَلَد الملائكة عن هذا المخلوق، أو دار فيما بينهم، ويُلمع إلىٰ ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْنُمُونَ﴾، وقولُه تعالىٰ في الآية ٦٩ من سورة صَ: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ والله أعلم.

وعلىٰ كلٍّ فلا تغفل عن أنَّ كلام الله سبحانه كبقية صفات الله العليَّة؛ لأنه سبحانه ليس كمثله شيء، فكذلك صفاته. وعليه فلا يمكننا أن نفهم من ظاهر المحاورة إلا أنها إجمالُ بيانٍ عن طبيعة الإنسان وما دار في خاطر الملائكة عنها، والله أعلم[1].

وقد اختلف المفسِّرون في معنىٰ «الخليفة»، والأقرب: أن المراد بالخليفة مَنْ يتولَّىٰ عمارة الأرض، فقد استخلف الله الإنسان علىٰ غيره من المخلوقات، بما ميَّزه به من قوَّة العقل، ليُظهر عَجَائب صُنعه وأسرار خليقته في هذه الأرض، حيواناتها ونباتاتها ومعادنها وكنوزها. وظهورُ خلافته يكون بسعة علمه ودقة إدراكه وتنوُّع إيجاده، والله أعلم.

ويجوز أن يكون المرادُ: أنه يَخلُف بعضُه بعضاً علىٰ عمارة الأرض والاستفادة من مواهبها.

---

= الجواب المفصل عن استدلال المؤلف في هذه الآية وتوسُّعه في حمل الكثير من الآيات على المجاز، وهي على الحقيقة.

(١) الأصلُ حَمْلُ ما ورد في القرآن علىٰ الحقيقة، لأنها الأصل، ما لم يترجح المجاز بقرينة، وبناء عليه، فلا يحمل اللفظ القرآني علىٰ التمثيل والرمز إلا بدليل قرينة تصرفه إلىٰ المجاز، ولا قرينة هنا تصرف الكلام عن ظاهره، قال السبكي في «الأشباه والنظائر» (١: ٢٧٤): حمل اللفظ علىٰ ما يتبادر إلىٰ الذهن أولىٰ، ومن ثَمّ يُحمَلُ علىٰ الحقيقة ما لم يترجح المجاز بشهرة، أو غيرها.

وقيل: بل المراد أنَّ الله سبحانه يُوحي بشرائعه علىٰ أفرادٍ من هذا الإنسان يَصْطفيهم، ليكونوا خلفاء عنه في بيان ما يوحي به إليهم للناس.

أما فهم الملائكة أن هذا الصنف الجديد يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فقد قيل: إن الملائكة إنما قالت ذلك لأنَّ الله سبحانه أوْقَفَهم علىٰ طبيعة هذا الخليفة بأنه مُستعدٌّ للخير والشرّ باختياره.

أو صرَّح لهم بأنه سيكون من ذريَّة هذا الخليفة مَنْ يعصي ويسفك الدماء، علىٰ ما روي عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم[1]، فيكون في الآية احتباك واكتفاء، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية)، فقد حذف هذه الجملة من الآية الأولىٰ اكتفاءً بها في الآية الثانية، والتقدير: إني جاعلٌ في الأرض خليفةً وسيكون من ذُرِّيَّته من هو شرير... إلخ، ومثل ذلك من نهج القرآن، فإنه يحذف من السؤال ما يدلُّ عليه الجواب، ومن المقدَّم ما يدل عليه المؤخَّر.

أو لأنهم فهموا مِنْ جعلِه خليفةً في الأرض أنه مختار يتصرَّف في شؤونه كما يشاء، وبذلك يصدر منه الخير والشر، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، إذ قد فهموا أنَّ مثل هذه الطبيعة المختارة في تصرُّفاتها ينشأ عنها مثل هذا العمل.

أو أنهم شعروا أنَّ هذا سيكون علىٰ غرار الجن؛ لكونه مِثلَهم مختاراً في تصرُّفاته غيرَ مقسور كالملَك.

أو أنهم فهموا ذلك لبُعْد نظرهم فيما يختصُّون به من العلم والنظر، والله أعلم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١: ٤٥١ - ٤٥٢).

وهو ملخَّص كلامهم الذي جال في خاطرهم: ما الحكمة في خلق هذا النوع ذا إرادة مطلقة واختيار لا حدَّ له، فربما اتَّجه بإرادته هذه إلىٰ خلاف المصلحة والحكمة، وذلك هو الفساد؟

وعلىٰ هذا كلِّه يكون معنىٰ قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾: إني خالقٌ نوعاً واسعَ التصرُّف مختاراً فيه.

وأما علىٰ القول بأنَّ الكلام علىٰ التمثيل، فلا حاجة حينئذٍ للتوجيه والتأويل، والله أعلم؛ لأنَّ سَعَة العلم والإيجاد لا يكون إلا مع الاختيار، فلا يكون خليفةً إلا به.

قال الأستاذ الإمام: ولما كانت الملائكةُ أعلَمَ بشأن الله في أفعاله وعلمه وحكمته، كان قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: جواباً مُقْنِعاً لهم[1]. حيث ردَّهم إلىٰ اليقين بأدنىٰ تنبيه، شأن مَنْ له ثقةٌ تامّة بآخَرَ في علمه وحكمته، فإذا بَدَرَت منه بادرةٌ بعكس ذلك يرجع إلىٰ رُشْده وثقته بأدنىٰ تنبيه، وقد أثبت الله سبحانه لذاته العلم بحكمة هذه الخلافة ونفاه عنهم.

وتابع الأستاذ الإمام كلامه بقوله: ثم فصَّل سبحانه ما جرىٰ تفصيلاً، بعد أن أجمل الجواب إجمالاً، وأظهر أنَّ الإنسان إنما يكون خليفة بالعلم وما يتبعه من العمل بموجبه، فقال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، ويجوز أن يُرادَ: ما يحتاجه في بساطته الأولىٰ ضمن الاستعداد العام، والله أعلم.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ أي: من العلوم المناسبة لطبيعتنا وعالَمِنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾.

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢١٤).

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1]، فهذه الآية تُبيِّن بمضمونها أنَّ علم الملائكة وعملَهم متناسبان مع طبيعتهم، وأنَّ علم الإنسان وعملَه متناسبان مع طبيعته وفي اتِّجاهات منوعة، وبهذه الخاصَّة التي فطر الله الناس عليها كان الإنسان أجدَرَ بالخلافة للأرض من الملائكة، وهذه هي حُجَّة الله البالغة علىٰ الملائكة التي بيَّنها لهم بعد ما نبَّههم إلىٰ علمه المحيطِ بما لا يعلمون.

فمعنىٰ ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ ﴾: أنه أودع في نفسه استعدادَ علمِ جميع الأشياء التي في متناوله[2]، من غير تحديدٍ ولا تعيين مِثلِ تحديد علم الملائكة في اتجاه خاص. وإنما خصّ الأسماء بالذكر للإلماع إلىٰ تحديد علم الإنسان وقلَّته بالنسبة إلىٰ إحاطة علم الله وشموله، فهو محدود بما يتعلَّق به من مفردات أحوال الطبيعة مما يدخل تحت سيطرة العقل والتفكير، ولأن معرفة المسمَّيات والموضوعات هي أوَّلُ العلم بها والمعرفة عنها والبحث عن خصائصها ونتائجها.

---

(١) قوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾، أمَا يؤذن هذا بأن ما كان من الملائكة هو مجرَّد خواطر أبانها الله سبحانه وكشف عنها، وقد انتهىٰ بهم الخاطر إلىٰ أنَّ هذا المخلوق بهذه الطبيعة سيكون أعلم منهم بعلوم الأرض وشؤونها، وهذه هي الحكمة في خلقه علىٰ هذه الصفة. والله أعلم. (المؤلف).

وقد تقدم ما فيه من ضعف وإشكال، وعلىٰ المُعتَمد من أن المحاورة جرت علىٰ ظاهرها؛ يكون قوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ ﴾ مناسباً للمحاورة الظاهرة، وقوله: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ مناسباً للحكمة الخفية عنهم، أو استطراداً، أو إطناباً.

(٢) إيداعُ النفس الإنسانية هذا الاستعداد مُسلَّم، لكن قَصْر المعنىٰ عليه فيه نظر، فالظاهر أن آدم أُودع في نفسه هذا الاستعداد، وعُلِّم الأسماء أيضاً.

وهكذا خُلق الإنسان مستعداً للكمال بهذه العلوم الطبيعية والاستفادة منها، فقد خصَّه سبحانه بالاستعداد العلمي والعملي الواسع المدىٰ، ضمنَ هذه الدائرة التي هو فيها من أحوال الطبيعة وعالمها، إذ قد منح الله الإنسان من القوىٰ والمواهب ما لا يدخل في حُسْبان حاسب، إدراكاً لا تُعجِزه حقيقةٌ، وعقلاً لا تَكِلُّهُ معضلةٌ، وأملاً فسيحاً يبعث علىٰ اقتناء ما يَقصُرُ العمرُ عن استيعابه، فيدفع الثاني إلىٰ إتمام ما بدأ به الأول، وهكذا حتىٰ يتكامل ذلك الأمل، ويتكامل بتكامُله وتتابُعه العمران، فاقتضىٰ ذلك الهدف أن يكون الإنسان ذا إرادةٍ مطلقة واختيارٍ لا حدَّ له، ليكون واسعاً في تصرُّفاته، منقاداً فيها لقوَّته العقلية، لا مقسوراً علىٰ اتجاهات خاصة كالمَلَك.

فالإنسان يمتاز باستعداد علميٍّ وعمليٍّ أرضيٍّ عن سواه من العوالم ذوات العقول، وهذا هو سرُّ اختيار الله سبحانه للإنسان أن يكون خليفةً في الأرض، أو أن يقال: لما جعله خليفةً في الأرض، اقتضىٰ أن يخلقه سبحانه علىٰ هذه الطبيعة من العلم الواسع والاختيار في التصرُّف، وهذا هو معنىٰ قوله ﷺ: «إنَّ الله خلق آدم علىٰ صورته»[1]، أي: ذا اختيار مطلق وإرادة حُرَّة وعلم غزير وعمل واسع لا ينتهي إلىٰ حدِّه، وإنتاجٍ لا يُشابهه فيه مخلوق، والله أعلم.

قال الأستاذ الإمام: وقد علمت الملائكةُ من ذلك أنَّ في فِطْرة هذا الخليفةِ واستعدادِه علمُ ما لا يعلمون، وتبيَّن لهم وجه استحقاقه لمقام الخلافة في الأرض، وأن كل ما يُتَوقَّعُ من الفساد وسفك الدماء ممَّن يُخلُّ بطبيعته منهم، لا يذهب بحِكمةِ الاستخلاف وفائدته[2]. وقد أعطاه الله هذه المواهب؛ ليُظهِرَ بها أسرار الخليقة.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري في كتاب «الاستئذان» (٦٢٢٧)، ومسلم في كتاب «الجنة» (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تفسير «المنار» (١: ٢١٤).

وضمير: ﴿عَرَضَهُمْ﴾ يرجع إلىٰ الـمُسمَّيات المفهومة من الأسماء، وفيه تغليب العقلاء، وقُرئ: (عَرَضَهُنَّ) و(عَرَضَها).

ومعنىٰ: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾: أنَّ مَنْ كان هذا شأنُه فلا يخلق شيئاً إلا بحكمته، ولا يجعل الخليفة في الأرض غيرَ قادر علىٰ أداء خلافته. والذي يُبدونه: هو ما يظهر أثرُه في نفوسهم، وأما ما يكتمونه: فهو ما يوجد في غرائزهم وتنطوي عليه طبائعُهم.

وقد عرَّفنا الله سبحانه بهذه القصة قيمة أنفسنا، وما أودع في فطرتنا ممَّا نمتاز به عن غيرنا من المخلوقات، فعلينا أن نجتهد في تكميل أنفسنا بالعلوم التي خُلقنا مُستعدِّين لها من دون الملائكة وسائر الخلق؛ لتظهر حكمة الله فينا.

أقول: والذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ: أنَّ الله سبحانه خلق الملَك كاملاً في طبيعته صالحاً لعالمه علماً وعملاً، وخلق الإنسان مستعداً للكمال في طبيعةٍ واسعةِ المدىٰ في العلم والإيجاد، وهيَّأ له من المواهب ما تتكامل به تلك الطبيعة إلىٰ حدٍّ بعيد، إذا سار صاحبها في تنميتها وتوجيهها وتدريبها بحسب الخطط التي رسمها الله له في تعاليمه وعلىٰ لسان أنبيائه.

والحكمة في هذا الفرق بين الإنسان والملك: تأهيل الإنسان ليكون خليفة في الأرض، يستفيد من خيراتها الكامنة والظاهرة، الجليَّة والخافية، بهذا الاستعداد المودَع فيه، إذا تدرَّب وتكامل، وذلك لشدَّة حاجته لتلك الخيرات، بخلاف الملَك، فإنه ليس له حاجةٌ في شيء منها، لذلك كان الإنسان مُستعداً لبلوغ الكمال العلمي في الطبيعة إلىٰ أقصىٰ الغايات دون الملائكة، وإن كان العلم المختصُّون به عظيماً كريماً. وكذلك أعدَّه الله لمقامات من الكمال يعجز عن إدراكها التصوُّر والخيال، ومتَّعه بخاصتي الإرادة الواسعة والاختيار المطلق، وأراه طريقي الاعتدال والانحراف، بالفطرة والوحي،

وصرَّح له بأنه إن اعتدل نال كماله الماديَّ والأدبي، وإن انحرف ارتطم بأوحال الحِطَّة والتسفُّل، وارتدَّ إلىٰ ما دون عالم الحيوان، كما هي السنة الطبيعية في هبوط العالي.

وتخصيصُ الإنسان بهذه الخصائص هو معنىٰ قوله ﷺ: «إن الله خلق آدم علىٰ صورته»[١]، إذ لا يلزم من قولك: إن الله خلق يوسف علىٰ صورة القمر أنَّ للقمر يدين ورجلين، إنما هو تشبيه في الإشراق رغماً عن أنَّ القمر لأعظَمُ[٢] بما لا يُقدَر، مهما بلغ الإنسان الجميل من الجمال.

قال في «المنار»: ومن فوائد هذه القصة أننا نستنتج منها أنَّ أسرار الله تعالىٰ وحِكَمَه تخفىٰ علىٰ الملائكة، فنحن أَوْلىٰ بأن تخفىٰ علينا، فلا مَطْمَعَ للإنسان في معرفة جميع أسرار الخليقة وحِكَم الأحكام، لأنه لم يُؤْتَ من العلم إلا قليلاً[٣].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم فصَّل الناحية الآتية في تاريخ خلق الإنسان بعد أن أجملها ومهَّد لها فيما سبق، وذلك لما في هذه الناحية من بيان نعمة التكريم والتَّمنُّن عليهم، والتحذير مما يحيط بهم، والتنبيه إلىٰ أنَّ شرك هؤلاء المشركين إنما هو من إفسادهم لطبيعتهم، وتسهيلهم لوسوسة الشيطان لهم في ذلك. وجعل الكلام تمهيداً إلىٰ بيان ما أخذه من العهد علىٰ بني آدم، وهو الإيمان بالهدىٰ الذي يأتيهم منه تعالىٰ، والاتِّباع للرسول الذي يأتيهم به، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾، وذلك أنَّ الله سبحانه بعد أن عرَّف الملائكة بمكانة آدم، وَوَجْهِ

---

(١) سبق تخريجه قريباً ص٦٨.

(٢) أي: من يوسف.

(٣) تفسير «المنار» (١: ٢١٣).

جَعْلِه خليفةً في الأرض؛ أمرهم بتكريمه، وعبَّر عن ذلك بالسجود، وهو سجود لا نعرف صفته، ولكنَّ أصولَ الدين تُعلِّمنا أنه ليس بسجود عبادة. وقال البيضاوي: إنما أُمرت الملائكة والجن بالسجود[١]. واكتفىٰ بالتعبير بالملائكة علىٰ طريقة إيجاز القرآن.

أقول: فقد حذف من المستثنىٰ منه ما دلَّ عليه بنوع المستثنىٰ، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية)، لأن إبليس من الجنِّ لقوله تعالىٰ: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، فكان التقدير: وإذ قلنا للملائكة والجن اسجدوا لآدم.

وقال الأستاذ الإمام[٢]: إذا صحَّ الجريُ علىٰ أنَّ الملائكة تُطلَقُ أيضاً علىٰ القوىٰ والخاصيَّات الموجودة في المخلوقات[٣]، إذ إنَّ كل أمر كلِّي قائم بنظام مخصوص تمَّت

---

(١) تفسير البيضاوي المعروف بـ«أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (١: ٧١).
والبيضاوي هو ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي (...- ٦٨٥هـ) قاض مفسِّر علَّامة، له: «طوالع الأنوار» في التوحيد، و«نظام التواريخ». «الأعلام» للزركلي (٤: ١١٠).

(٢) يعني: الشيخ محمد عبده، ونقله عنه تلميذه محمد رشيد رضا في تفسير «المنار» (١: ٢٢٣- ٢٢٤).

(٣) هذا كلامٌ باطل لا يجوز اعتقادُه في الملائكة، فإن الملائكة مخلوقات مستقلة بأنفسها ووظائفها عن المخلوقات الأخرىٰ، ويجب الإيمان بهم، وهو ركن من أركان الإيمان الستة، كما قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وفي «صحيح مسلم» (٨) أن النبيّ ﷺ سئل عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقَدَر خيره وشره». اهـ.
وقد وصف الله الملائكة بأنهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال فيهم: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨]، =

له[1] الحكمة الإلهيَّـة في إيجاده، فإنما قِوامه بروح إلهي سُمِّي في لسان الشرع: مَلَـكاً،

= وقال فيهم أيضاً: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]. وفي «صحيح مسلم» (٢٩٩٦) عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «خُلِقَت الملائكةُ من نور».

وقد جعل الله تعالىٰ لهم أجنحة يطيرون بها، كما قال تعالىٰ: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر:١]، وثبت في «الصحيحين» ـ البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ رأىٰ جبريل له ستُّمئة جناح.

وقد منحهم الله تعالىٰ عِظَمَ الخلق، ففي «سنن أبي داود» (٤٧٢٧) عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «أُذِنَ لي أن أُحدِّثَ عن مَلَكٍ من ملائكة الله من حَمَلةِ العرش، إنّ ما بين شَحْمةِ أذنِه إلىٰ عاتقه مسيرةُ سبعمئة عام».

ومن الملائكة مَنْ هم مُوكَّلون من قِبَلِ الله عزّ وجلّ بتدبير بعض الأمور في السماوات والأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥].

وإليك بعض ما ثبت في الكتاب والسنة من أسمائهم والأمور المُوكَلة إليهم:

١ـ منهم الموكل بالوحي من الله تعالىٰ إلىٰ رسله، وهو: جبريل الأمين عليه السلام.

٢ـ ومنهم الموكل بالقطر (المطر) وتصاريفه، وهو: ميكال أو ميكائيل عليه السلام.

٣ـ ومنهم الموكل بالصُّور ونفخه، وهو: إسرافيل عليه السلام.

٤ـ ومنهم الموكل بقبض الأرواح، وهو: مَلَكُ الموت وأعوانه.

٥ـ ومنهم الموكل بحفظ أعمال العباد وكتابتها من خير أو شر، وهم: الكرام الكاتبون، فالذي عن اليمين يكتب الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات.

٦ـ ومنهم الملائكة الذين يتعاقبون فينا، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار.

٧ـ ومنهم الملائكة السيَّاحون الذين يسيحون يتبعون مجالس الذكر.

٨ـ ومنهم الموكل بحفظ العبد في يقظته ومنامه وفي كل حالاته.

٩ـ ومنهم الموكل بفتنة القبر، وهما: منكر ونكير عليهما السلام.

١٠ـ ومنهم الموكل بالجنة، وهم: خزنة الجنة، وفي مقدمتهم رضوان عليه السلام.

١١ـ ومنهم الموكل بالنار، وهم خزنة النار، وفي مقدمتهم مالك عليه السلام. والله أعلم.

(١) في تفسير «المنار»: به.

فلا يُستبعد أن تكون الإشارة في الآية إلىٰ أنَّ الله تعالىٰ لـمّا خلق الأرض ودبَّرها بما شاء من القوىٰ الروحانيَّة التي بها قوامها ونظامها، وجَعَل كل صنف من القوىٰ مخصوصاً بنوع من أنواع المخلوقات، لا يتعدّاه ولا يتعدّىٰ ما حُدِّد له، من الأثر الذي خُصَّ به؛ خَلَق بعد ذلك الإنسان وأعطاه قوة بها يكون مُستعداً للتصرُّف بجميع هذه القُوىٰ المحيطة به وتسخيرِها في عمارة الأرض، وعبَّر عن تسخير هذه القُوىٰ له بالسجود الذي يفيد معنىٰ الخضوع والتَّسخير، وجعله ـ بهذا الاستعداد الذي لا حدَّ له، والتصرُّفِ الذي لم يُعط لغيره ـ خليفةً لله في أرضه، لأنه أكمل الموجودات في هذا الأرض، واستثنىٰ من هذه القوىٰ واحدة عبَّر عنها بإبليس، وهي التي تُعارض اتِّباع الحق، وتصدُّ عن عمل الخير، وتُنازع الإنسان في صَرْف قواه إلىٰ المنافع والمصالح التي تتمُّ بها خلافته، فيصل إلىٰ الكمال الوجودي تلك الخلافة التي خُلِقَ مُستعداً للوصول إليها. انتهىٰ بتصرُّف[1].

---

(١) ولا يخفىٰ ما فيه من تكلُّف شديد، وتأويل بعيد، بلا قرينة تدل عليه، ولا إشارة تُومئ إليه، فلا يكون له حظٌّ من القبول، بل هو مبنيٌّ علىٰ قوله في أوله: «إذا صَحَّ الجريُ علىٰ أن الملائكة ...»، وكيفَ يصحُّ هذا وهو مُصادِمٌ لصريح الآيات؟!

وسجود الملائكة لآدم سجودٌ حقيقي، فإنهم قد امتثلوا كلُّهم أمر الله بالسجود، ويدل لهذا تأكيدُ سجودهم بالمؤكدات في قوله تعالىٰ: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧٣]. وقد أعلم الله سبحانه وتعالىٰ الملائكةَ قبل خَلْق آدم عليه السلام بأنه سيخلق ﴿بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨]، وتقدّم إليهم بالأمر متىٰ تمَّ خَلقُه وتسويتُه أن يسجدوا إكراماً له، وإعظاماً وامتثالاً لأمر الله عز وجل، فامتثل الملائكة كلهم ذلك، إلا إبليس أبىٰ واستكبر وكان من الكافرين، وقد وردت هذه القصة في سورة البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف وصّ.

ولم يخبرنا الله تعالىٰ أن أحداً غير إبليس امتنع من السجود، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾. =

وقد قالوا: إنَّ لكلِّ إنسانٍ شيطاناً، وهي قوَّة نزَّاعةٌ إلىٰ الشرِّ يحدث منها في نفس الإنسان خواطر السُّوء فيقاومها العقل حتىٰ تكون الغَلَبة لأحدهما، فإذا كان العقل لم يُفسِدْهُ صاحبُه بمفاسد التربية وسوء القدوة، فالغَلَبة له، وإلا فالغلبة لها[1]. وقال ﷺ:

---

= وتأويلُ السجود بتسخير القوىٰ باطل، وقد ذكر ابنُ تيمية رحمه الله تعالىٰ في «مجموع الفتاوىٰ» (٤: ٣٤٥): أن هذا القول ليس من أقوال المسلمين واليهود والنصارىٰ، وإنما هو من أقوال الملاحدة المتفلسفة الذين يجعلون الملائكة قُوىٰ النفس الصالحة. فقد سئل رحمه الله: هل سجد ملائكة السماء والأرض؟ أم ملائكة الأرض خاصة؟ فأجاب:

الحمد لله، بل سجد له جميع الملائكة، كما نطق بذلك القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧٣] فهذه ثلاث صيغ مقررة للعموم وللاستغراق، فإن قوله: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يقتضي جميع الملائكة، فإن اسم الجمع المعرف بالألف واللام يقتضي العموم، كقوله: ربُّ الملائكة والروح، فهو ربُّ جميع الملائكة. الثاني: ﴿كُلُّهُمْ﴾ وهذا من أبلغ العموم. الثالث: قوله: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ وهذا توكيد للعموم.

فمن قال: إنه لم يسجد له جميع الملائكة؛ بل ملائكة الأرض؛ فقد ردّ القرآن بالكذب والبهتان. وهذا القول ونحوه ليس من أقوال المسلمين واليهود والنصارىٰ، وإنما هو من أقوال الملاحدة المتفلسفة الذين يجعلون الملائكة قوىٰ النفس الصالحة، والشياطين قوىٰ النفس الخبيثة، ويجعلون سجود الملائكة طاعة القوىٰ للعقل، وامتناع الشياطين عصيان القوىٰ الخبيثة للعقل، ونحو ذلك من المقالات التي يقولها أصحاب رسائل إخوان الصفا وأمثالهم من القرامطة الباطنية ومَنْ سلك سبيلهم من ضُلّال المُتكلِّمة والمتعبدة.

وقد يوجد نحو هذه الأقوال في أقوال المفسرين التي لا إسناد لها يعتمد عليه ... اهـ.

(١) روىٰ مسلم (٢٨١٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «خرج النبيُّ ﷺ من عندي ليلاً، فغرتُ عليه، فجاء فرأىٰ ما أصنع، فقال: «ما لك يا عائشة، أغرت؟» قلت: وما لي لا يغار مثلي علىٰ مثلك؟ قال: «قد جاءك شيطانك؟» قلت: يا رسول الله، أو معي شيطان؟ قال: «نعم». قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: «نعم ـ وفي رواية: إن لكل إنسان شيطاناً ـ ولكن ربي أعانني عليه حتىٰ أسلم». =

«ما من أحد يصبح إلا ومعه ملك يناديه: يا عبد الله هَلُمَّ إلىٰ الخير، وشيطان يناديه: بل هَلُمَّ إلىٰ الشر»[١].

وقال صاحب «المنار»: يَشعُر كل من فكَّر في نفسه، ووازن بين خواطره عندما يهمُّ بأمر فيه وجْهٌ للحق للخير، ووجْهٌ للباطل والشر، بأن في نفسه تنازعاً، كأنَّ الأمر قد عُرِض فيها علىٰ مجلس شورىٰ، فهذا يُورد، وذاك يدفع، واحد يقول: افعل، وآخر يقول: لا تفعل، حتىٰ ينتصر أحد الطرفين، ويترجَّح أحد الخاطرين[٢].

قال الإمام الغزالي[٣]: فسبب الخاطر الداعي إلىٰ الخير يُسمَّىٰ مَلَكاً، وسبب الخاطر الداعي إلىٰ الشر يُسمَّىٰ شيطاناً، واللطف الذي يتهيَّأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمَّىٰ توفيقاً، والهفو الذي يتهيّأ به لقَبول الشر يُسمَّىٰ إغواءً وخِذلاناً، فإنَّ المعاني المختلفة تحتاج إلىٰ أسامي مختلفة[٤]. انتهىٰ باختصار.

---

= وروىٰ مسلم (٢٨١٤) عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وَكَّل الله به قرينه من الجن». قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير».

أقول ـ والله أعلم ـ: وفي هذا إيماء إلىٰ أن في كل إنسان نزعة إلىٰ الشر، فإن ذلَّلها وتسلَّط عليها اسْتَسْلَمت له وانقادت وهانت عليه فسلم منها. (المؤلف).

والصوابُ حملُ الشيطان هنا علىٰ ظاهره، أما هذه النزعة فهي غيرُ الشيطان، ويُستدلُّ علىٰ ثبوتها بما أُضيف إلىٰ النفس من التزيين والتسويل والتطويع ونحوها في عدة آيات من القرآن الكريم.

(١) لم أقف عليه.

(٢) تفسير «المنار» (١: ٢٢٣).

(٣) هو حجَّة الإسلام، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطُّوسي (٤٥٠ - ٥٠٥هـ) أعجوبة الزمان، له نحو مئتي مصنف منها: «تهافت الفلاسفة»، و«الاقتصاد في الاعتقاد»، و«المنقذ من الضلال». «سير أعلام النبلاء» (١٩: ٣٢٢- ٣٤٦).

(٤) «إحياء علوم الدين» (٣: ٢٧).

أقول: وذلك لأنَّ الله سبحانه خَلَقَ الإنسان مختاراً في تَصرُّفاته، تابعاً لإرادته وخواطره، وهذه الخواطر تَتكيَّف بكيفيَّة التربية والتوجيه والتشكيل، فإن كان صالحاً فهي صالحة، وإن كان فاسداً ففاسدة، فالإنسان ابن التربية والتوجيه.

ويقول علماء النفس: إنَّ الذات البشريَّـة تنقسم بنتيجة التربية إلىٰ ثلاثة أقسام: الذات السفلىٰ، والذات العليا، والضمير.

**فالذات السُّفلىٰ**: هي التي تحوي الغرائز في حالتها الهمجيَّة؛ لسوء تربيتها، وكلُّ همِّها أن تصلَ إلىٰ أهدافها، وإنْ أساءت التَّصرُّف وعَبَثت بالقيود الاجتماعية والقوانين النظامية من شرعيَّة ووضعيَّة، ولا تريد أن تخضع للعقل والضمير.

**والذات العليا**: هي التي تَتَـكوَّن صفاتُها من التربية الحَسَنة للغرائز الطبيعية، والنشأة السامية، والثقافة والتهذيب الصَّحيحَيْن، ويكون همُّها التَّمثُّل بالـمُثُل العليا، والتَّفوُّق في ذلك بمعونة العقل والضمير.

فالذات السُّفلىٰ إذا غلبت تهوي بالإنسان إلىٰ أسفل سافلين. لذلك حذَّر منها القرآن وعبَّر عنها بهذه القوة الشريرة التي يُمثِّلها الشيطان، أو هو عبارة عنها[1]. وبعبارة أخرىٰ: هي أنَّ هذه النَّـزْعة الاختياريَّـة الضروريَّـة في الإنسان هي المجال لتلاعب الشيطان، والله أعلم، لأنَّ الآية من الآيات المتشابهات[2].

---

(١) هذا فهم غير صحيح نشأ عن معنًىٰ فاسد، فالذات السُّفلىٰ أو النفس الأمَّارة بالسوء يُوسوِسُ لها الشيطان ولا يمثِّلها، وليس هو عبارة عنها.

وهذا القول يوحي ظاهرُه إنكارَ وجود الشيطان، لا سيما جملة «وهو عبارة عنها»، وإنكار الشيطان هو مذهب الملاحدة من الفلاسفة ومَنْ وافقهم من العقلانيين، كما نصَّ علىٰ ذلك ابن تيمية، ونقلتُ كلامَه قريباً ص٧٤.

(٢) بل الآية محكمة، وقد تكلّف المؤلف ـ سامحه الله ـ في تفسيرها.

والذاتُ العُليا إذا غَلَبت تَسْمُو بالإنسان إلىٰ أعلىٰ عليين. وهو الكمال المنشود لبني الإنسان في عالَم الغيب وعالَم الشهود.

وعلىٰ هذا يكون فحوىٰ الآية إيماءً إلىٰ أنَّ سائر القوىٰ الطبيعيَّة خاضعةٌ للإنسان سوىٰ ما فيه من استعداد الشر الناجم عن إفساده لطبيعته، فإنَّ ذلك يغلبه علىٰ أمره، فحذَّره منه سبحانه غاية الحذر، وهذا هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤ – ٥]، والله أعلم بمراده.

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه ما جَرَىٰ بينه وبين الملائكة وإبليس في تاريخ خلقِه آدم، بيَّن سبحانه ما كان بينه وبين آدم، وما جرىٰ بين آدم والشيطان فيما بعد بتأثير وساوسه، للإلماع إلىٰ منشأ كفر الكافرين ونفاق المنافقين الذين سبق البيان عنهم في أول السورة، وللتحذير من ذلك، فقال: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا﴾ أي: من ثمارها، أكلاً ﴿رَغَدًا﴾ أي: واسعاً، ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي: من أيِّ مكان منها أردتما، ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

وأكثر المفسِّرين علىٰ أنَّ المراد من الجنة: الجنة التي وُعد المتَّقون، كما سيأتي تحقيقه في بيان مَغْزىٰ القصة.

وقال الإمام أبو منصور الماتريدي في «تفسيره»: نعتقد أنَّ الجنة هذه بستان من البساتين، أو غَيْضة من الغياض، كان آدمُ وزَوْجُه مُنعَّمَين فيها، وليس علينا تعيينُها ولا البحثُ عن مكانها[١]. انتهىٰ.

وقد قال بذلك أبو حنيفة رضي الله عنه وغيره. قال الألوسي: وممَّا يؤيد هذا الرأي أن الله خلق آدم ليكون خليفة في الأرض هو وذرِّيته[٢]. فالخلافة منهم مقصودة بالذات، فلا يصحُّ أن يكون وجودُهم فيها عقوبةً عارضة. انتهىٰ.

ولم يعيِّن الله سبحانه هذه الشجرة، فلا نقول في تعيينها شيئاً، ولعلَّ في خاصيَّة هذه الشجرة ما هو سبب خروجهما من حال إلىٰ حال، أو كان النهيُ مجرَّدَ ابتلاء وامتحان منه تعالىٰ، كما ابتلىٰ سبحانه جيش بني إسرائيل بالنهر مجرَّد ابتلاء، لا لخاصيَّة فيه.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾[٣]، أي: حَمَلهما علىٰ الزلَّة وحوَّلهما عن هذه الجنة بهذه

---

(١) نقله المؤلف عن تفسير «المنار» (١: ٢٢٩) ولم أقف عليه في «تفسير» أبي منصور.

وأبو منصور الماتريدي: هو محمد بن محمد بن محمود (...- ٣٣٣هـ) من أئمة أهل السنة والجماعة، له: «التوحيد»، و«أوهام المعتزلة»، و«تأويلات أهل السنة». «الأعلام» للزركلي (٧: ١٩).

(٢) «تفسير» الألوسي المسمىٰ بـ«روح المعاني» (١: ٢٢٢).

والألوسي: هو شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (١٢١٧- ١٢٧٠هـ) مفسِّر محدِّث أديب من المجدِّدين، له: «روح المعاني»، و«غرائب الاغتراب» في التراجم، و«دقائق التفسير». «الأعلام» للزركلي (٧: ١٧٦).

(٣) لما أبان سبحانه عن طبيعة آدم نظرياً، أراه ذلك في نفسه عملياً: أدخله الجنَّة التي أُعدت للمتقين، ونهاه عن شيء امتحاناً، كما ابتلىٰ بني إسرائيل بالنهر، فوسوس الشيطان إلىٰ آدم، وزيَّن له أن الأكل من هذه الشجرة يؤدي إلىٰ الخلود، فارتكب آدم هذا المنهيَّ عنه، وأكل من الشجرة، فلم يبق ـ بمعصيته لله سبحانه ـ صالحاً للبقاء في الجنة، فأخرجه منها وأهبطه إلىٰ الأرض، وقال له: سأرسل لك ولذرِّيَّتك شرائع تَتَضمَّن تعاليمَ وتوجيهاتٍ، بها تحافظون أهليتكم لدخول =

الفعلة، فتارةً يقول لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾، وتارةً يقول لهما: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، إلىٰ أمثال ذلك.

وقد ضَمَّن «أزلَّ» معنىٰ: حَوَّل، وعدَّاها تعديتها، وعطف عليها بقوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي: من النعيم والكرامة، ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟﴾ يعني: آدم وزَوْجه وإبليس، ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: أنتم والشيطان. قال الراغب: الهبوط: الانحدار علىٰ سبيل القهر[1]. أو كما يقال: هبط من بلد إلىٰ بلد، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١].

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ أي: أن استقراركم في الأرض وتمتُّعكم فيها ينتهيان إلىٰ زمن محدود، وليسا بدائمين. وفي الكلام مَجَازُ نسبةِ ما يتعلق بالأبوين والذريَّة إلىٰ الأبوين وحدهما لأنهما الأصل، أو هو من البيان العامِّ بعد الخاصِّ علىٰ نهج القرآن في مثله، لأن من أساليب القرآن أن ينتقل من خطاب خاصٍّ إلىٰ خطاب عامٍّ وبالعكس، (كما جاء في فقرة (ز) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية).

ثم بيَّن ما كان بعد ذلك من أمر آدم، وقال: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ أي: ألهمه الله إيَّاها، وهي كما في سورة الأعراف: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فكان آدم عليه السلام يدعو الله سبحانه بهذه الكلمات، ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾[2]، وإنما اكتفىٰ بذكر شأن آدم لأنَّ حوّاء

---

= الجنة والخلود فيها، فَضْلاً عن أنها تكفل لكم سعادة بينكم في الدنيا والوئام فيها والراحة والرفاه، ومن أعرض عن هذه التعاليم من أفراد أو جماعات ناله شقاء الدنيا وشقاء الأخرىٰ، وخلد في نار جهنم أبد الآبدين. هذا رأيي. والله أعلم. (المؤلف).

(١) «المفردات» ص٨٣٢.

(٢) يكرر القرآن هذه القصة ليقرر في الأذهان عداوة الشيطان للإنسان وابتلاءَه به في هذه الحياة، =

تَبَعٌ له، وعلىٰ هذه القاعدة طُوِيَ ذِكرُ النساء في أكثر مواقع الكتاب والسنة في الأوامر والنواهي وبيان المصير، فيكتفي بذكر المذكَّر عن ذكر المؤنَّث علىٰ طريقة التغليب والتبعية، لأنَّ ذلك من خصائص اللغة وعُرْف التخاطب.

ومُحَصَّل القصة: الإيماء إلىٰ أن الإنسان مخلوقٌ رائدُه عقلُه، يتصرف في شؤونه خيراً وشراً، وفي ذلك مجال للزلل بإغواء المغوين، فلْيَحذَر الإنسان ذلك، ولا يغفل عن إضلال المضلِّين وإغواء الشياطين.

قال في «المنار»: أما مسألة عصمة آدم فالجريُ علىٰ طريقة السلف يَذهبُ بنا إلىٰ أنَّ العصيان والتوبة من المتشابه كسائر ما وَرَدَ في القصة، فليس الكلام علىٰ ظاهره، إذ لا يركن العقل إلىٰ ذلك الظاهر. ويجوز أن نقول: إن تلك المخالفة صَدَرت منه قبل أن تُدركه النبوَّة. وقد يكون الذي وقع منه نسياناً، فسُمِّي استعظاماً لأمره: عصياناً، كما جاء في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، والسهو لا ينافي العصمة[1].

---

= كي يحذر من وسوسته ويتَّقي شرها؛ لأن اتِّباعها خسران مبين للدنيا والأخرىٰ.

ومَغْزىٰ القصة: أن للإنسان جانب خير يصل بتنميته إلىٰ السعادة، وجانب شر يصل بتوسعته إلىٰ الشقاء، فليغتنم الأول، وليحذر الثاني. والتعاليم الإلهية ـ التي هي في القرآن العظيم ـ كفيلة بهذا الأمر الخطير، وقد جعل الله سبحانه المخلوقات المُدرِكة ثلاثة أصناف: صنفاً للدار الأخرىٰ، وهم الملائكة. وصنفاً للدار الدنيا، وهو الحيوان الأعجم. وصنفاً للدارين، وهم: الإنس والجان. ففي الإنسان ناحيتان: ناحية ملكيَّة، وناحية حيوانية. ومظهر الأولىٰ: العقل والعلم والأخلاق الشريفة والعبادة لله وما ينجم عن ذلك. ومظهر الثانية: الشهوة والغذاء والتناسل والتنافس والاختيار في التصرُّف والإيجاد وما يُلابس ذلك. وإنما جَعَله الله بهذه المثابة ليكون أهلاً للأمرين: عبادة الله تعالىٰ والتمسُّك برضاه، وتعمير الأرض والاستفادة من مواهبها وخيراتها لينال فيها مبتغاه. (المؤلف).

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٣٢ - ٢٣٣).

أقول: ويجوز أن يكون هذا كله من تتمة البيان في صفة طبيعة الإنسان، والله أعلم.

ثم استأنف الكلام لبيان صفحة أخرىٰ من صفحات الهبوط، ونتيجةٍ ثانية من نتائجه، فقال: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾[1]، وعلىٰ الشقِّ الثاني من هذا البيان: كان شأن الذين ختم الله علىٰ قلوبهم وكفروا بهذا القرآن.

وإيراد كلمة الشك في ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ للجَرْي علىٰ سَنَن العظماء في إيراد «عسىٰ» و«لعل» في موقع القطع والجزم. وكذلك «إن» بدل «إذا».

---

(١) تُبيِّن الآية أنَّ الله سبحانه لم يترك الإنسان منذ خلَقَهُ دون أن يرسل له الهدىٰ والشرائع بالوحي علىٰ لسان أنبيائه، فقد أرشده منذ ذلك الحين إلىٰ المعرفة الصحيحة في ذات الله وتوحيده، وإلىٰ ما يلائم ما خُلِقَ له من طلب الكمال والسعادة في الدارين، ويبعده عما يُخِلُّ بذلك، وبيَّن له المصير في الحالين؛ ليكون علىٰ بصيرة من أمره. وهذا حقٌّ لا يُتَصوَّرُ غيره، ولا يخطر لمن يعرف سنن الشرائع السماوية خلافه.

ولكن لا بأس أن نضيف إلىٰ هذا ما أثبته المحققون في دراسة الأمم المنقرضة ودياناتها، فقد جاء في كتاب «يوم الإسلام» لأحمد أمين، ص١٥ ما يلي: أثبت الدكتور ماركس موللر مكتشف اللغة السنسكريتية والمتخصِّص في دراسة الأديان الشرقية، أثبت أن الناس كانوا في أقدم عهودهم علىٰ التوحيد الخالص، وأن الوثنية عرضت لهم بفعل رؤسائهم الدينيين.

أقول: وقد جاء عنه ﷺ فيما يرويه عن ربِّه عز وجل: «إني خلقت عبادي حنفاءَ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمَتْ عليهم ما أحلَلْتُ لهم، وأمَرَتْهم أن يُشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً». (المؤلف).

والحديث رواه مسلم (٢٨٦٥)، عن عياض بن حمار رضي الله عنه. وقوله: «فاجتالتهم» أي: استخفَّتْهم فجالوا معهم في الضلال. «النهاية في غريب الحديث والأثر» (جول).

وفي تعقيب القضيَّة بهذا البيان إيماءٌ إلىٰ شدَّة حاجة الإنسان إلىٰ هذا الهدىٰ من الرحمن، يدفع به عنه وساوس الشيطان، ويستعين به علىٰ الكمال المنشود من بني الإنسان، وتقييداً لاختياره حتىٰ يكون باقياً علىٰ هدايته الطبيعية، جارياً علىٰ الأسباب الصحيحة في نَيْل السعادتين في الدنيا والأخرىٰ نتيجة الهدايتين الطبيعية والتعليمية.

والمعنىٰ: أن الله سبحانه سيرسل للبشر بين فترة وأخرىٰ شرائعَ هدىً علىٰ لسان رسلٍ أنبياء، فمن اتَّبع ذلك الهدىٰ نَجَا، ومن أعرض عنه هلك. ومَغْزىٰ هذه النتيجة مع تلك المقدمة: أنَّ بني الإنسان مخلوقون للجنة ما لم يُفسدوا طبيعتهم بالإعراض عن تعاليم الله المؤدية بتلك الطبيعة إلىٰ أن تكون أهلاً لهذه الجنة. فإذا أعرضوا عن تلك التعاليم أفسدوا تلك الطبيعة، وأصبحت لا تصلح لسُكنىٰ الجنة إلا أن يعودوا بها إلىٰ الإصلاح بالتوبة والتمسُّك بتلك التعاليم التي يُرسلها سبحانه إلىٰ البشر بين فترة وأخرىٰ علىٰ لسان أنبيائه. هذا ما ظهر لي من السياق. والله أعلم.

فبيَّن أنه سبحانه سيتابع البشر بإرسال هداية شرعيَّة، تُساعد الهداية الطبيعية، فمن تمسَّك بها أمن من الشقاء، ومن أعرض عنها وقع في البلاء.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ أصناف الناس في عصر التنزيل، وأردف البيانَ بالكلام عن بني

إسرائيل الذين أعرضوا عن هذا الهدىٰ بعد إذ جاءهم علىٰ لسان محمد ﷺ[١]، فقد تقدَّم لمحُ حالهم في بقيَّة السورة، وذلك لأن النبيَّ ﷺ عندما هاجر إلىٰ المدينة، نَصَبَ له أحبارُ يهودها العداءَ حسداً وبغياً، ومال إليهم المنافقون من الأوس والخزرج[٢]، فكان أولئك الأحبار يسألونه أسئلةَ عِنادٍ وتعنُّت وتلبيس للحقِّ بالباطل، فأنَّبهم سبحانه علىٰ كفرهم هذا، مُذكِّراً إيَّاهم بـنِعَمِه علىٰ بني إسرائيل، ومُعدِّداً عليهم هناتِـهم

---

(١) وهناك وجه آخر لربط الكلام الآتي عن بني إسرائيل بما قبله من السياق: بعد أن أنهىٰ الكلام عن حال المشركين والمنافقين المعارضين للنبيِّ ﷺ وما تَبِعَ ذلك من التكشيف والتعليق عليه، التفتَ إلىٰ بني إسرائيل مُعنِّفاً إيَّاهم علىٰ موقفهم هذا مع النبيِّ ﷺ وتكذيبهم له ومحاولة إفسادهم لأمره، بينما كان عليهم أن يكونوا أول مؤمن به لما يعرفونه عنه بما عندهم من علم الكتاب، ولكنهم لانطباعهم علىٰ معارضة الأنبياء والتعنُّت معهم والمشَاغَبة ضدَّهم، كانوا أول كافر به، وسَرَد ما كان لهم من مَاضٍ بعيد في التكذيب والتمرُّد والعصيان، عريقٍ في الكفر والطغيان، والتلاعب بالشرائع والأديان، والعبث بها، واللَّيِّ والتَّحريف لها، والكتمـان لتعاليمها ووصاياها، إلىٰ غير ذلك من معاداة الحق وطمس معالـمه، ونشـر الباطل وتنويع مسالكه، حتىٰ استقصىٰ لهم تلك الأحوال مقرونة بالتأنيب والتشنيع واللعن والإبعاد، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾. (المؤلف).

(٢) كان ليهود المدينة عند أهلها مكانة دينية وعلمية واجتماعية مستمدة من أنهم أهل كتاب سماوي، وذوو مهارة بالتجارة والصناعة والزراعة، وكانوا مندمجين في الحياة العربية، فزادهم ذلك رسوخاً في مركزهم وقوةً في مكانتهم، فلما قدم النبيُّ ﷺ المدينة خشوا علىٰ هذه الامتيازات التي كانوا يتمتَّعون بها، ثم رأوا الناس ينصـرفون عنهم إلىٰ النبي ﷺ، ويتَّخذونه مرجعهم الأعلىٰ ومرشدهم الأعظم وقائدهم المطاع، فكان ذلك حافزاً لهم علىٰ التنكّر والحقد والتآمر والصَّد عن الإسلام، ووجدوا فريقاً من العرب يشتركون معهم في هذه النزعات، فبثُّوا فيهم الريب والشكوك بعد إسلامهم، فأصبحوا منافقين يخادعون الإسلام والمسلمين، وذلك ما أنَّبتهم عليه الآيات في السياق. (المؤلف).

وقبائحهم[١]، ومقابلة النِّعم بالكفران، ودعاهم إلىٰ الإيمان بعد أن تهيَّأت نفوسُهم بما سَبَق من الإرشاد والبيان، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾.

و﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: لقب يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

وإنما ذكَّرهم بالنعمة هنا حثّاً لهم علىٰ اجتناب الباطل وتأنيباً عليه. ومن جملة النعم عليهم: أن جعل فيهم أنبياء وملوكاً بعد أن كانوا عبيداً للقبط.

وبعد أن ذكَّرهم بنِعَمِه عليهم التي من جملتها إرسال الرسل إليهم، أمرهم بالوفاء بذلك العهد الذي أخذه عليهم، وهو الإيمان بالرسل والتَّحوُّل من الشريعة المنسوخة إلىٰ الشريعة الناسخة، كما أخذ علىٰ ذلك ميثاقَ جميع النبيين في قوله تعالىٰ في سورة آل عمران: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ...﴾ [آل عمران: ٨١].

فقد أمرهم بالوفاء بهذا العهد، فقال: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ بالإيمان والطاعة، ﴿أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾[٢]، أي: بحُسْن الإثابة. والعهدُ يضاف إلىٰ كلِّ واحد ممَّن يتولىٰ طرفيه.

---

(١) عُني القرآن بتاريخ بني إسرائيل وما لهم من ماض عريق في الإفساد والتكذيب، والتلاعب والعبث بالآيات المنزلة، واللَّيِّ والتحريف والكتمان، وغير ذلك من التصرُّفات التي تدل علىٰ الأصالة في التمرُّد والعصيان، والعراقةِ في الكفر والطغيان؛ ليعتبر بهم المؤمنون، ويتجنَّبوا سلوكهم المشين. (المؤلف).

(٢) أخذ الله العهد علىٰ الأمم بأن يؤمنوا بكل نبي جاءهم مصدِّقاً لما معهم، ويتحوَّلوا من الشريعة المنسوخة إلىٰ الشريعة الناسخة، أخذ هذا العهد علىٰ الأمم بواسطة أنبيائهم، وقد ذكر ذلك القرآن في سورة آل عمران فقال: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١ – ٨٢] إلىٰ قوله: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. =

ثم أكَّد الأمرَ بالوفاء، بالتحذير عن المخالفة، علىٰ أسلوب القرآن في مثل ذلك (كما جاء في المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾، وهي من أروع عبارات التحذير. وتقديمُ الضمير للزيادة في مدلول الجملة، وخطفُ ياء المتكلم من سنن القرآن للتخفيف.

وقد فسَّرت العهدَيْن آيةُ المائدة: ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [المائدة: ١٢].

ثم فرَّع علىٰ هذا الأمر والتَّحذير، الأمرَ بالإيمان بمحمد ﷺ وقرآنه، لأنه من مُتمِّمات العهد، فقال: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾ وهو: القرآن، ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ أي: التوراة، ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ أي: ولا تبادروا إلىٰ الكفر به والجُحود له مع جدارتكم بالسَّبْق إليه؛ لأنه مُصدِّق لما معكم، وتعرفون حقيَّته وصِدقَه من كتابكم. واستعمالُ معنىٰ الأوليَّة في ذلك معروف في الكلام البليغ، فلا يُقصد بالأوليَّة هنا حقيقتها اللغوية، وإنما يُراد بها المبادرة.

ثم تابع المعنىٰ بطريقة عطف السبب علىٰ المسبَّب، فقال: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾، أي: لا تستبدلوا حظوظ الدنيا بحظوظ الآخرة التي لا يُقابلها شيء، فحظوظ الدنيا ـ مهما بلغت من الكمال ـ تافهةٌ بالنسبة إلىٰ حظوظ الآخرة؛ لأن كل نعيم دون الجنة حقير، وكل بلاء دون النار عافية.

وإنما لم يُدخِل الباء علىٰ الثمن؛ لأنه أبلغ في التقريع أن يُدخِلَها علىٰ المثمن القيم، فهو أكثر تخييلاً بأنه جُعِل ثمناً للقليل.

---

= فقد أبان أنه لم يبق الآن من الشرائع ما هو معمولٌ به إلا شريعة الإسلام، وتوعَّد من يتَّبع غيرها من الأنام، فأصبح الدين مقصوراً عليها إلىٰ يوم الدين. (المؤلف).

ثم أردف النهيَ بالتحذير، فقال: ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾، أي: ولا تتقوا فوات حظوظ الدنيا.

وبعد أن أمرهم باتِّباع الحقِّ المنزل، وتَرْكِ الكفر به والعناد، والغَواية والضلال، أمرهم بترك الإغواء والإضلال الذي كانوا يتعاطونه مع المنافقين وكفار قريش، فقال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ أي: لا تخلطوا الحقَّ المنزل بالباطل الذي تَخْتلقونه وتفترونه، أو المعنىٰ: لا تُـموِّهوا الحق بالباطل، ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ أي: بهذا التَّلبيس. وفيه إشعار بأنَّ كتمان الحق الناتج عن التلبيس هو مدار التقبيح.

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ جملة حالية جاءت لزيادة التقبيح، وليست قَيْداً؛ ليكون لها مفهوم المخالفة.

قال في «المنار»: بيَّنَتْ هذه الآية مَسْلكهم في الغَواية والإغواء في سياق النهي عنه، فقد جاء في كتبهم التَّحذيرُ من أنبياءَ كَذَبةٍ، وجاء فيها أيضاً أنه تعالىٰ يبعث فيهم نبيّاً من ولد إسماعيل يقيم بهم[1] أمة، وأنه يكون من ولد الجارية هاجر، وبيَّن علاماتِه بما لا لَبْس فيه ولا اشتباه، ولكنَّ الأحبارَ والرؤساء كانوا يَلبِسون علىٰ العامة الحقَّ بالباطل، فيوهمونهم أنَّ النبيَّ ﷺ من الأنبياء الذين نَعَتَتْهم الكتب بالكَذَبة ـ حاشاه ـ، ويكتمون ما يعرفونه من نُعُوته التي لا تنطبق علىٰ سواه، وما يعلمون فيه من أنه من الأنبياء الصَّادقين. وكُلُّه ظاهرٌ فيه عليه الصلاة والسلام بأكمل المظاهر.

ومن اللبس أيضاً: ما يفتريه الرؤساء والأحبار، فيكون صاداً لهم عن سبيل الله وعن الإيمان بنبيِّه، عن ضلالٍ وجهلٍ، وهو لَبْس أصول الدين بالمُحْدَثات والتقاليد التي زادوها علىٰ الكتب المنزلة، بضروب من التـأويل والاستـنباط من كلام بعض

(١) في تفسير «المنار» به. وهو الأصح لأن الضمير عائد إلىٰ إسماعيل.

المتقدِّمين وأفعالهم، فكانوا يروون عن سَلَفِهم هذه الزياداتِ في الدين حتىٰ في كتب الأنبياء، ويعتذرون بأنَّ الأقدمين أعلَمُ بكلام الأنبياء وأشدُّ اتِّباعاً لهم، فهم الواسطة بينهم وبين الأنبياء، وعلىٰ مَنْ بعدَهم الأخذُ بما يقولون دون ما يقول الأنبياء، إذ يصعب عليهم فَهْمُ كلامهم بزعمهم[1]. انتهىٰ.

وإنك سترىٰ القرآن العظيم يُكثر من التَّحدُّث عن بني إسرائيل بالظلم والعدوان والمعاكسة لما جاءتهم به أنبياؤهم من الأحكام والحِكم، ولم يُكثر من التحدُّث في مثل ذلك عن بقيَّة الأمم الظالمة مثلهم، مع أنها كثيرة في صفحات الأزمان الغابرة، وقد تعرَّض لها القرآن وتكلَّم عنها، ولكنه لم يتكلَّم كثيراً عن أمرها بمثل ما أكثر عن بني إسرائيل، وذلك لأن بني إسرائيل أكثرُ اتِّصالاً بالعرب، وأكثرُ اختلاطاً بالبيئة التي بُعِثَ بها محمد ﷺ، وأقربُ في الزمان إلىٰ عصر نزول القرآن، ولوجود عدد منهم في المدينة المنورة، ومعارضتهم للدين ومشاغبتهم فيه كالمشركين.

ولما أمرهم سبحانه وتعالىٰ بالإيمان، ونهاهم عن لَبْس الحقِّ بالباطل، ذلك النهي الذي مُؤدَّاه الحثُّ علىٰ التمسُّك بالحق والإيمان بمحمد ﷺ وما جاء به، أمرهم بإقامة الشريعة التي جاء بها هذا القرآن، فقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾، فهذه أمهات ما جاء في القرآن، فكأنه قال: وتمسَّكوا بما جاء من الحقِّ وكونوا من جماعة المسلمين.

والإقامة: الإتيان بالشيء مقوماً كاملاً، والمراد: أن يكون المصلي حاضرَ القلب، يناجي ربَّه، يخافه ويرجوه. وملاك ذلك: أن لا يُحدِّث نفسه بشيء أثناء الصلاة، وذلك لا يكون إلا بالتدريب والمران.

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٤٣).

وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ معطوف علىٰ قوله: ﴿وَءَامِنُواْ﴾.

وقوله: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فيه تنويهٌ بأمر المسلمين، وإيماءٌ إلىٰ أنَّ ما يُسمِّيهِ اليهود صلاةً في دينهم ليس من الدين في شيء، وإنما هو من مخترعاتهم وتحريفاتِهم الباطلة، أو هو مما نُسخ بنَسْخ دينهم.

وبعد أن أمرهم بالإيمان والدخول في زمرة المؤمنين أنَّبهم علىٰ إعراضهم عنه، مخالفين ما أمرَتْهم به التوراةُ من وجوب اتِّباع محمد ﷺ إذا جاء، وعلىٰ سوء سلوكهم في أمر التوراة، مُساوقاً السياق في هذه القضية، فقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: قُبْحَ ما تصنعون، أو: أفلا عقل لكم، والظاهر أنَّ الآية نقدٌ للأمة بعمل رؤسائها وحَمَلة كتابها من الأحبار والعلماء. والكلام تفنيدٌ لادِّعائهم الإيمانَ بالتوراة، بأنَّ هذا الادِّعاء علىٰ خلاف ما يقتضيه ظاهر حالكم.

وقد عرَّفنا سبحانه وتعالىٰ بهذا النقد أنَّ ما يُسمَّىٰ في العرف إيماناً ـ وهو الإيمان الذي لا سلطان له علىٰ القلب ولا تأثير له في إصلاح العمل ـ لا يكون إيماناً صحيحاً ولا يُعبأ به، إذ لا قيمة للقول إذا كذَّبه العمل.

وهذا الضرب من الخِذلانِ يَعرِضُ لكثير من أرباب الأديان عند فساد الحال، وما أجمل التعبير عن هذه الحالة بنسيان الأنفس! فإنَّ من شأن الإنسان أن لا ينسىٰ نفسه من الخير، ولا يحب أن يسبقه أحد إلىٰ السعادة، فكأنه يقول: إذا كنتم موقنين بوعد التوراة علىٰ البر، ووعيده علىٰ تركه، فكيف نسيتم أنفسكم في ذلك وأعرضتم عمَّا جاء فيها من وجوب اتِّباعكم لمحمد ﷺ إذا جاء؟!

وعن أبي مسلم في تفسير الآية: إنهم كانوا يأمرون العرب بالإيمان بمحمد إذا بُعث، فلما بُعث كفروا به، فهذا ليس بفعل مَنْ يعقل.

ولما كان الكلام في توبيخهم علىٰ سيرتهم الـمُعوَجّة يتضمَّن بيانَ مرض النفوس المتأتِّي من عدم الصبر علىٰ التمسُّك بالتعاليم الإلٰهيَّة والقيام بمقتضياتها، لوَّن الخطابَ، فانتقل من الخطاب الخاصّ إلىٰ الخطاب العامِّ علىٰ نهج القرآن في مثله، ووصَفَ الدواء الناجع العام في استصلاح النفوس، فقال: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[1]، وهذا ذِكرٌ لحكم عام يندمج فيه بعضُ شأن الحكم السابق، ومثلُ ذلك من خصائص القرآن، (كما جاء في المادة السابعة من المقدِّمة الثانية في تنويع أساليب القرآن).

ويجوز أن يكون في الكلام انفصالٌ وانتقالٌ للمؤمنين يعالجهم به تجاه الكافرين، وذلك من أساليب القرآن، يُجْري الكلامَ علىٰ أمرٍ بعد أن كان يُجريه علىٰ غيره؛ لداع يقتضيه.

أما الاستعانة علىٰ إصلاح النفس بالصبر، فلأنَّ الصبر الحقيقي هو احتمالُ المكروه بنوعٍ من الرضا والتسليم، وذلك بتذكُّر وعد الله بالجزاء الحسن للصابرين، وهذا الصبر هو الذي يقي الإنسان من الخسران، كما تفيده سورة العصر.

وأما الاستعانة بالصلاة، فلأنها أقرب إلىٰ إرجاع النفس إلىٰ الله تعالىٰ، لما لحقيقتها من التأثير في الروح إذا أدِّيت كاملةً، وإلىٰ هذا الكمال أشار سبحانه وتعالىٰ بقوله: ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: هذه الاستعانة، ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: شاقَّة وثقيلة، واستعمالُ الكِبَر بدل الثقل من باب التَّجوُّز بالملزوم عن اللازم؛ لأن الكِبَر يستلزمُ الثقل، فهي ثقيلةٌ ﴿إِلَّا عَلَى

---

(١) يجوز أن يكون قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ﴾ كلاماً مع بني إسرائيل، فهو يأمرهم بالدخول في الدين والاستعانة بالصبر والصلاة علىٰ ما يتبقىٰ عندهم من الهواجس والقلق علىٰ المصالح والمراكز. ويجوز أن يكون في قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ﴾ انفصالٌ في الكلام والتفاتٌ به إلىٰ المؤمنين؛ يثبِّتهم تجاه هؤلاء المعاندين. ومثل هذا من نهج القرآن وأساليبه. ويجوز أن يكون لهما معاً. والله أعلم. (المؤلف).

﴿ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: المُخْبتين إلىٰ الله بقلوبهم، ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

فإذا كان قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟...﴾ موجَّهاً إلىٰ بني إسرائيل، يأمرهم به أن يدخلوا في الدين، ويستعينوا بالصبر والصلاة علىٰ ما يبقىٰ عندهم من الهواجس في حُطام الدنيا والمراكز؛ يكون قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ...﴾ استبعاداً لصدور ذلك منهم؛ لأنهم ليسوا أهلاً لهذه التضحية.

ثم قال صاحب «المنار»: وعلَّق الأستاذ الإمام علىٰ قوله: ﴿يَظُنُّونَ﴾، وقال: فالإيمان بلقاء الله هو الذي يُوقِفُ المُعتَقِدَ عند حدوده، ولو لم يكن الاعتقاد يقيناً؛ فإن الذي يغلب علىٰ ظنِّه أنَّ هذا الشيء ضارٌّ يجتنبه، أو أنه نافع يطلبه، ولذلك اكتفىٰ هنا بذكر الظن، وهو هنا أبلغ في التقريع؛ لأنَّ فيه إيماءً إلىٰ أنَّ هؤلاء الذين يأمرون الناس بالبر ويَنسَونَ أنفسَهم وهم يقرؤون الكتاب، لا يَصِل إيمانهم بالله وبكتابه إلىٰ درجة الظنِّ الذي يأخذ صاحبُه بالاحتياط. انتهىٰ[1].

ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟...﴾ جملةً معترضةً في السياق، التفتَ بها إلىٰ المؤمنين يُثبِّتهم تجاه مقاومة هؤلاء، ويكون قد أجْرىٰ الكلام علىٰ المؤمنين أثناء جريانه علىٰ بني إسرائيل، ومثل ذلك من أساليب القرآن، والله أعلم.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

ثم ذكَّرهم سبحانه وتعالىٰ بنعمه عليهم علىٰ سبيل التَّفصيل، وأعاد الجملة

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٥٠- ٢٥١).

المذكِّرة لهم بذلك علىٰ سبيل الإجمال، لتكون هزّاً لهم من رَقْدتهم، وتمهيداً لما بعدها من التفصيل، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾، ثم خصَّ منها ما فيه إحساسٌ بالشرف وشعور بالكرامة، لأنَّ في ذلك استعداداً للنفوس بقبول الموعظة والاستئناس لها بمعونة العزيمة الصادقة التي هي من خصائص النفوس الكريمة، فقال: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾، وهذا الفضل علىٰ العالمين إن كان بكثرة الأنبياء فيهم، فهو ظاهرٌ علىٰ عمومه؛ لأنه لا يُعرف شعب من الشعوب يُزاحم الإسرائيليين في هذه المزيَّة، ولا يُنافي ذلك أن يَفضُلَهُم أخسُّ الشعوب إذا هم انحرفوا عن هَدْي أنبيائهم، واهتدىٰ إليها ذلك الشعب الذي كان مفضولاً.

وإن كان المرادُ من التَّفضيل: القُربَ من الله تعالىٰ بمرضاته، فلا بدَّ من تخصيصه بأولئك الأنبياء والمهتدين بهم من أهل زمانهم والتابعين لهم فيه، ومن تقييده بمدَّة الاستقامة علىٰ العمل الذي استحقّوا به التفضيل، تدل الآية علىٰ ذلك بدلالة الاقتضاء، وهو من خصائص اللغة.

وقال قتادة والحسن ومجاهد: علىٰ عالَـمِي زمانهم وعصرهم.

أقول: ويجوز أن يكون ذلك التفضيل بجَعْل نبوَّة ذلك العصر فيهم، وانتدابهم لنشر تلك الشريعة، كما خصَّ العربَ في عصرهم بنبوَّة محمد ﷺ، واختارهم علىٰ سواهم لنشرها في العالمين، وفضَّلهم في ذلك، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾.

وبعد أن حَسَّسهم بالكرامة ترغيباً لهم علىٰ العمل، قَرَنَ ذلك بالترهيب الباعثِ علىٰ العمل أيضاً، جمعاً بين الأمرين علىٰ أسلوب القرآن في مثله، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨﴾،

والعدل: الفِداء والبدَل، والضمير «هم» لما دلَّت عليه «النفس» الثانية الواقعة في سياق النفي، إذ المراد بها المجرمون.

والآية تعريضٌ بما كان عندهم من الاعتماد علىٰ شفاعة الشافعين وتقريب القرابين، فخرج الكلام مَخْرَج العموم، والمراد به الخصوص، ومثل ذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن.

والمعنىٰ: أنَّ ذلك يومٌ تنقطع فيه الأسباب، وتبطل منفعة الأنساب، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، ولا يُمنَعُ المجرمُ من عقاب الله.

وقال الأستاذ الإمام: إنه نفيٌ عام، فما وَرَدَ في إثبات الشفاعة يكون علىٰ هذا من المتشابهات، وفيه يقضي مذهبُ السلف بالتفويض والتسليم، وإنها مزيَّة يختص الله بها من يشاء. وأما في مذهب الخلف فهي دعاءٌ يستجيبه الله تعالىٰ لمن يُريدُ فيمن يُريدُ من أهل الاستحقاق[1].

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

ثم تابع سبحانه تَعداد النعم علىٰ بني إسرائيل مفصِّلاً ما سبق من الإجمال،

---

(١) في جَعْل النفي عاماً، والقول بأن الآية من المتشابهات، وتقييد الشفاعة بأهل الاستحقاق: مَيْلٌ إلىٰ مذهب المعتزلة، والذي عليه أهل السنة والجماعة: أن النفي المذكور في هذه الآية هو مقتضىٰ العدل، أما الشفاعة فمَحْضُ فضل، يُكرمُ الله به من يشاء من عباده لمن يشاء دون استحقاق، فلا يتعارضان.

فقال: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، أصل السَّوْم: الذهابُ في طَلَب الشيء، فهو بمعنىٰ: يبغون لكم سُوءَ العذاب، أي: يُكلِّفونكم ما يَسُوؤكم ويُذِلُّكُم من العذاب.

ثم بيَّن ذلك بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي: كفصائل الأنعام يُذبَحُ ذكورُها وتُستَبقىٰ إناثُها للاستيلاد والاستفادة منها، أي: يقتلون ذُكْران نَسْلِكم ويَسْتَبْقون إناثَه أحياء؛ لإضْعافكم وإذلالكم المُفْضي إلىٰ قطع نسلكم وإبادتكم، ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾، إذ قتل الرجال وإبقاءُ النساء يفترشها الأعداءُ غاية الذلِّ ومنتهىٰ المصائب والبلاء.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: وفي ذلكم العذاب والتنجية منه بلاء من ربكم وامتحان عظيم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

قال الأستاذ الإمام: خاطب الذين كانوا في زمان النبي ﷺ بما كان لآبائهم، لأنَّ الإنعام علىٰ أمة بعنوان: إنها أمة كذا، هو إنعام شامل للأمة، مَنْ أصابه ذلك الإنعام في أفرادها، ومَنْ لم يُصبه، كما يصحُّ الفخرُ به منهم أجمعين[1].

ثم ذكر سبحانه صورة التَّنْجية العجيبة في سياق تفصيل النِّعم عليهم، وكيف كانت سبباً لغرق آل فرعون والخلاصِ منهم، وهي من أكبر النعم علىٰ بني إسرائيل، فقال: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾، والباء للتعدية أو الملابسة، وقيل: للسببية، أي: فرقنا البحر بسبب دخولكم إياه حتىٰ أصبحت فيه مسالك.

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٥٧).

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾: جملةٌ حاليةٌ فيها مزيد التَّحسيس بالنعمة والتَّلذُّذ بالخلاص منهم، والإشعار بالهوْل، فتكون رمزاً للتهديد، والله أعلم.

وبعد أن ذكر نِعمةَ الإنْجَاء من استعباد الظالمين، ذكر النعمة التي وَلِيَتْها[1]، وذكَّرهم بما كان من كفرهم إيَّاها، وضمَّن ذلك تَسْليَته ﷺ عن عدم ارعوائهم عن الجِبِلَّة التي وَرثوها عن أسلافهم، وهي معارضة الهدىٰ والرشاد، والانحراف عن الحقِّ والسداد، وارتكاب العناد والفساد، فقال: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ لإعطائِه التوراة، ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾، وهذا التذييل لبيان أنهم قد انطبعوا علىٰ الظلم والفساد، والانحراف عن الحق.

قال أبو مسلم: الظلم في اللغة: النقص للحق، وفي هذه الآية بيانُ أنَّ معاندتهم للنبيِّ ﷺ ليست بِبِدْعٍ من أمرهم، وإنما ذلك معهود منهم مع رؤية الآيات وإغْداق النِّعم عليهم.

وفيها أيضاً تسليةٌ للنبيِّ ﷺ ممَّا كان يُشاهد من المشركين واليهود، بما كان يُجابه موسىٰ من قومه مع وضوح الآيات، كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وبعد أن ذكَّرهم بذلك الظلم، ذكَّرهم بتَفَضُّله عليهم بالتوبة، وعبَّر عنها بالعفو الذي هو جزاؤها، فقال: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: هذه النعمةَ بدوام التوحيد والطاعة، وفي صورة التعبير بقوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ إيماءٌ إلىٰ شناعته وتناهي قُبحه، أي: عَفَوْنا عنكم بعد توبتكم من ذلك الأمر، علىٰ شَنَاعته وفظاعته.

---

(١) أي: تلتها وجاءت بعدها.

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾.

ثم قفَّىٰ علىٰ ذلك بذكر إيتائهم الكتاب، وهو المنَّة الكبرىٰ، فقال: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾، أي: فلا تقعوا في وثنيَّة أخرىٰ، ولتعرفوا أنَّ ما سيجيء به محمد ﷺ هو هُدىٰ ونورٌ يُرجعكم إلىٰ الأصل الذي تفرَّقتم عنه.

وقد اختلف المفسِّرون في معنىٰ «الفرقان»، فقال بعضهم: هو وصف التوراة، وقال بعضهم: هو ما أُوتيه موسىٰ من الآيات والمعجزات. وقال الأستاذ الإمام بعد حكاية القولين: ولكنَّ ذِكْرَهُ بعد «الكتاب» معطوفاً عليه دليلٌ علىٰ أنَّ المراد به: ما في الكتاب من شرائعَ وأحكام مُفرِّقةٍ بين الحقِّ والباطل والحلال والحرام[1].

ثم بيَّن سبحانه كيفيَّة وقوع التوبة والعفو وتفصيل ذلك، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾، وهذا الأمر بالتوبة وطلب الغفران؛ للإشعار بفظاعة تلك الغَواية، وشناعة هاتيك الجهالة، تجاه من برَّأهم، ثم ذكر صورة التوبة بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ بأن يقتل بعضكم بعضاً. والمراد: استسْلامُ العصاة لإجراء القِصاص فيهم من جانب غير العصاة، أو جانب الحكام منهم، أو المنفِّذين منهم للقصاص، فيكون في الكلام إسنادُ ما هو للأفراد إلىٰ المجموع، وعلاقةُ هذا التجوُّز: اتِّحاد الأمة، وأنها كالنفس الواحدة، أو فيه إجراء الوحدة بالنوع مَجْرىٰ الوحدة بالشخص. ويشبه هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٦٣).

ويحتمل أن يكون المعنىٰ: لِيَبْخَعْ[1] كلُّ من عَبَدَ العِجْلَ نفسَه انتحاراً، إذ من علامة التوبة النَّصوح الإتيانُ بأعمال تشقُّ علىٰ النفس، وما كانت لتأتيها لولا ذلك الشعور الذي يُحدثه الذنب، والفاء للسببية، والثانية للتعقيب لأن القتل من تمام التوبة، أو للتفسير لأنَّ القتل مَظْهر تلك التوبة، وقد حثَّ عليه بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾؛ لأنه يُطَهِّركُم من رِجْسِ الشِّرك الذي دَنَّستُم به أنفسَكُم، ويجعلكم أهلاً لما وعدكم به في الدنيا، ولمثوبته في الآخرة.

وقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ معطوف علىٰ محذوف، لأنه خطاب منه تعالىٰ علىٰ نهج الالتفات الذي هو من أساليب القرآن، إذ هو في الظاهر من كلام الله تعالىٰ، لا تتمة لكلام موسىٰ عليه السلام، أي: ففعلتم ما أُمرتم به، فتاب عليكم، وهو بيانٌ لنعمة الله تعالىٰ عليهم بقَبول التوبة منهم.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ تذييلٌ علىٰ وَجْه التَّعليل لما قبله، وبيانٌ لمنَّة الله العظيمة، وإعلانٌ لبابِهِ المفتوح لكلِّ من يُريد الوصول والدخول.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

ثم ذكر معاندةً أخرىٰ من معانداتهم، وفي سياقها بيانٌ لنعم أخرىٰ من نِعَم الله عليهم، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ

---

(١) بَخَعَ يَبْخَعُ: أقرَّ به وخضع له وتذلل وأطاع. «لسان العرب» (بخع).

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾، أي: واذكروا إذْ قلتم لنبيِّكم: يا موسىٰ لن نُصدِّق بما جئتَ به تصديقَ إذعان واتِّباع حتىٰ نرىٰ الله عياناً جهرةً فيأمرنا بالإيمان لك.

والجهرة في الأصل: مصدر قولك: جَهَرتُ بالقراءة، استُعير للمُعَاينة الواضحة، لما بينهما من الاتِّحاد في الوضوح والانكشاف، وهي استعارةُ صفةِ المسموعات لصفة المُبْصَرات.

وقال القفّال[1]: أصل الجهرة من الظهور، يقال: جَهَرتُ الشيء، بمعنىٰ: كشفته. فتكون حقيقة.

ونَصْبُها علىٰ المصدرية؛ لأنها نوعٌ من الرؤية، أو حالٌ من الفاعل أو المفعول به. وقرئ بفتح الهاء علىٰ أنها مصدر كالغَلَبة، أو جمع كالكَتَبة.

قال بعض المفسِّرين: القائلون هم السبعون المختارون لميقات التوبة عن عبادة العجل.

وقال الأستاذ الإمام: سؤالُ بني إسرائيل رؤيةَ الله تعالىٰ واقعةٌ مستقلّة لا تتَّصل بمسألة العجل، وهي معروفة عند بني إسرائيل ومنصوصة في كتابهم، وذلك أنَّ طائفةً منهم قالوا: لماذا اختُصَّ موسىٰ وهارون بكلام الله تعالىٰ من دوننا؟! وانتشر هذا القول في بني إسرائيل، وتجرَّأ جماعةٌ منهم بعد موت هارون، وهاجوا علىٰ موسىٰ وبني هارون، وقالوا لهم: إنَّ نعمة الله علىٰ شعب بني إسرائيل هي لأجل إبراهيم وإسحاق، فتشمل جميع الشعب، وقالوا لموسىٰ: لست أفضل منّا، فلا يحقُّ لك أن تترفَّع وتَسُودَ

(١) هو الشاشي، أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل (٢٩١ - ٣٦٥هـ)، من أكابر علماء عصره بالفقه والحديث واللغة والأدب، له: «أصول الفقه»، و«محاسن الشريعة»، و«شرح رسالة الشافعي». «الأعلام» للزركلي (٦: ٢٧٤).

علينا بلا مزيَّة، وإننا لن نؤمن لك حتىٰ نرىٰ الله جهرةً، يريدون حالة تكليمه لموسىٰ، فأخذهم إلىٰ خيمة العهد، فانشقَّت الأرض وابتلعتْ طائفةً منهم، وجاءت نار من الجانب الآخر فأخذت الباقين، وهذه النار هي المعبَّر عنه بالصاعقة، وهل ثمَّة مِن نار غيرُ الاشتعال بالكهرباء؟ وهو ما تُحدثُه الصَّاعقةُ التي تُحدِثُ الانشقاق في الأرض أيضاً. وقد أخذ هذا العذابُ تلك الطائفةَ والآخرون ينظرون، وهكذا كان بنو إسرائيل يتمرَّدون ويُعاندون موسىٰ عليه السلام، وكان سَوْط عذاب الله يُصَبُّ عليهم، فَرُمُوا بالأمراض والأوبئة، وسُلِّطت عليهم الهوامُّ وغيرُها حتىٰ أماتت منهم خلقاً كثيراً، فمُجاحدتُهم ومُعاندتُهم للنبيِّ ﷺ لم تكن بِدْعاً من أعمالهم. انتهىٰ[1].

والخطاب مُوجَّه للمجموع، إذ منهم المأخوذون والناظرون، وخطابُ المجموع بما هو واقع من البعض أمرٌ جارٍ في اللغة، ومن خصائصها ومن سَنَنِ القرآن (كما جاء في الفقرة (ج) من المادة السادسة عشرة من المقدمة الثانية)، ويجوز أن يعود ضمير ﴿وَأَنتُمْ﴾ إلىٰ الأمة، ويُراد بالنظر تحقُّق الأمر لها، والله أعلم.

وقد بيَّن سبحانه نعمتَه عليهم بعد هذه النقمة، فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾، ذهب الأستاذ الإمام في هذه الآية إلىٰ المعنىٰ المجازي، فقال: إنَّ المراد بالبعث هو كَثْرة النَّسل[2]، أي: أنه بعدما وقع الموت بالصاعقة وغيرها،

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٦٦- ٢٦٧).

(٢) وفيه عدولٌ عن الظاهر من غير مُقتَضٍ، فأقلُّ ما يُقال فيه: إنه مرجوح. وقد صرَّح بضعف القول ابنُ الجوزي في «زاد المسير» (١: ٦٧).

والصواب: أن معنىٰ الآية هو إحياؤهم بعد الموتة التي ماتوها بسبب الصاعقة المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥]، فقد روىٰ عبد الرزاق في «تفسيره» =

وظُنَّ أنْ سينقرضوا، بارك الله في نَسْلِهم، ليُعِدَّ الشعب بالبلاء للقيام بحقِّ الشكر علىٰ النِّعَم التي تمتَّع بها الآباء الذين حَلَّ بهم العذاب بكفرهم لها.

قال في «المنار»: والعبرة الاجتماعية في الآيات أنَّ الخطاب في كلِّ ما تقدَّم كان مُوجَّهاً إلىٰ الذين كانوا في عصر التَّنزيل، وأنَّ الكلام عن الأبناء والآباء واحدٌ لم تختلف فيه الضمائر، حتىٰ كأنَّ الذين قتلوا أنفسهم توبةً والذين صُعِقوا بعد ذلك هم المُطالَبون بالاعتبار وبالشكر، وما جاء الخطاب بهذا الأسلوب إلا لبيان معنىٰ وحدة الأمة، واعتبار أنَّ كل ما يبلوها الله به من الحسنات والسيِّئات وما يُجازيها من النِّعم والنِّقم، إنما يكون لمعنًىٰ موجود فيها، يصحُّ أن يُخاطَبَ اللاحق منها بما كان للسابق، كأنه وقع منه، ليعلم الناس أنَّ سنَّة الله في الاجتماع الإنساني أن تكون الأمم متكافلة، يَعتَبِر كلُّ فرد منها سعادتَه بسعادة سائر الأفراد، وشقاءَه الدائم بشقائهم، ويتوقَّع نزول العقوبة به إذا فَشَت الذنوب في الأمة، وإن لم يواقعها هو، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]. وهذا التكافل في الأمم هو المعراج الأعظم لِرُقيِّها؛ لأنه يحمل الأمة التي تعرفه علىٰ التعاون علىٰ الخير والمقاومة للغير[1]، فتكون من المفلحين.

ثم ذكر نعمتَيْن أُخرَيَين منَّ بهما علىٰ بني إسرائيل فكفروهما، ولكنه لم يذكر ما كان به الكفران، بل طواه وأشار إليه بما ختم به الآية من أنهم لم يظلموا الله تعالىٰ بتلك الذنوب، وإنما ظلموا أنفسهم. وذلك من أساليب القرآن وضروب إيجازه (كما جاء في

---

= (٧٣) عن معمر عن قتادة في قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٥- ٥٦] قال: أخذتهم الصاعقة، أي ماتوا، ثم بعثهم الله تعالىٰ ليكملوا بقية آجالهم. اهـ.

(١) في تفسير «المنار»: للشر.

المادة الثالثة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾، فهذه هي النعمة الأولىٰ من النعمتين.

قال الأستاذ الإمام: هذه نعمةٌ مستقلةٌ متَّصلةٌ بما قبلها في سياق الذكر، منفصلةٌ عنها في الوقوع، فإن التَّظليل استمرَّ إلىٰ دخولهم أرض الميعاد. ولولا أن ساق الله إليهم الغمام يُظلِّلهم في التِّيه لسَفَعَتْهم الشمس[1].

ثم ذكر النعمةَ الثانية، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾، وكل ما مُنِحَ من الله تعالىٰ يُسمّىٰ إيجادُه إنزالاً، ومنه: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥]، علىٰ أن المنَّ ينزل كالنَّدىٰ، وهو مادة لزجة حلوة تشبه العسل، تقع علىٰ الحجر وورق الشجر مائعةً ثم تجمد وتجف، فيجمعها الناس. قالوا: ومنها الترنجين[2]، وبه فسَّر «المنَّ» بعضُ المفسِّرين.

وأما «السَّلْوىٰ» فقد فسَّروه بالساماني، وهو طير معروف.

ويصح أن يكون النزول علىٰ حقيقته لتحقُّقه في أحد الأمرين وهو المن. وإسناد الفعل إلىٰ أمرين يصح في أحدهما؛ هو من خصائص اللغة، فيكون من باب تغليب ما لأحد الأمرين علىٰ كليهما.

وقوله تعالىٰ: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ فيه تمنُّنٌ عليهم وزيادةٌ في التَّحسيس لهم بالنعمة العظمىٰ. قالوا: وإنَّ بني إسرائيل أكلوا المنَّ أربعين سنة، وإن طعمَه كالرقاق بالعسل.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي: بعصيانهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٦٧)، وقوله: لسفعتهم. أي: لغيَّرت لون بشرتهم وسوَّدته. «لسان العرب» (سفع).

(٢) نوع من أنواع العسل. «تكملة المعاجم العربية» لرينهارت بيتر (٧: ٢٠٧).

﴿يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ تذييلٌ للبحث وتقريرٌ لقاعدة مهمَّة، وهي أنَّ كل ما يطلبه الدين من العبد فهو لمنفعته، وكل ما ينهاه عنه إنما يُقصَدُ به دفعُ الضَّرَر عنه، ولن يبلغ أحدٌ نفعَ الله فينفَعَهُ، ولن يبلغ أحد ضُرَّه فيضرَّه، كما ثبت في الحديث القدسي[1]، فكل عمل ابن آدم له أو عليه، وليس لله منه نفع أو ضرر، فالذين يُعرِضون عن تعاليم الله يضيعون مصالحهم ويُعرِّضُون أنفسهم لمهاوي الرَّدىٰ في الدنيا والأخرىٰ، ويظلمونها بذلك.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

ثم ذكَّرهم سبحانه بنعمة أخرىٰ من نعمِهِ عليهم، ومعاندة أخرىٰ من معانداتهم وكفرانهم، فقال:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ[2] نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

---

(١) يشير إلىٰ الحديث الذي رواه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر، وفيه: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني».

(٢) قوله سبحانه: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ قرئ بالرفع وبالنصب، وعلىٰ الأول: يكون خبراً لمبتدأ محذوف، أي: سؤالنا حطة، أي: نسألك أن تحط عنا خطايانا. وعلىٰ الثاني: يكون مصدراً نائباً عن فعله، أي: حطَّ عنا خطايانا. وقيل: بل المعنىٰ أمرُنا حَطَطْنا القرية ودخلناها، يقولون ذلك شكراً لله وتحدّثاً بنعمه، كما دخل رسول الله ﷺ هو وأصحابه رضي الله عنهم مكة فاتحاً لها شاكراً الله ذاكراً، ويجوز أن يكون المراد من تبديلهم للقول أنهم دخلوا متبجِّحين زاهين بغلبهم، غير ذاكرين لتوفيق الله لهم في ذلك، والله أعلم. وهو حال ينبئ عن عدم تمسُّكهم بأوامر الله ومطالبه سبحانه. (المؤلف).

قال الأستاذ الإمام: ونسكت عن تعيين القرية كما سكت القرآن، فقد أُمر بنو إسرائيل بدخول بلاد كثيرة، وكانوا يُؤْمرون بدخولها، خاشعين لله خاضعين لأمره، مُسْتشعرين عَظَمته وجلاله، ونعَمه وأفْضَاله، وهو معنىٰ السجود وروحُه المراد منه[١]. والمراد بالحطَّة: الدعاء بأن تُحَطَّ عنهم خطاياهم الآتية من التقصير في العمل وكُفران النِّعم. وتبديلُ القول بغيره: عبارةٌ عن المخالفة، والتعبيرُ بقوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ أدلُّ علىٰ المخالفة والعصيان من كلِّ تعبير آخر.

ونسكت كذلك عن تعيين نوع الرِّجْز، كما هو شأننا في كلِّ ما أبهمه القرآن، وقد ابتلىٰ الله بني إسرائيل بالطاعون غير مرَّة، وابتلاهم بضروب أخرىٰ من النِّعم، في أثر كل ضرب من ضروب ظُـلْمِهم وفسوقهم، ومن أشدِّ ذلك: تسليطُ الأمم عليهم، وحَسْبُنا ما جاء في القرآن عبرةً وتبصرةً، فنُعيِّن ما عيَّنه ونُبهم ما أبهمه، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال بعض المفسِّرين: إنَّ المراد بالقرية: بيت المقدس، وفيه باب يُسمَّىٰ إلىٰ الآن «باب حطة».

وقال في «مجمع البيان»: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾، أي: فخالف الذين عَصَوا وفعلوا ما لم يكن لهم أن يفعلوه، وغيَّروا ما أمروا به، فقالوا غير ذلك، واختلف في ذلك الغير، فقيل: إنهم قالوا بالسريانية: هاطا سماقاتا، ومعناه: حنطة حمراء[٢]،

---

(١) المراد من السجود معناه الحقيقي وهو الانحناء ووضع الجبهة علىٰ الأرض، ولا داعي لصرف اللفظ العربي الواضح الذي جاء في الآية القرآنية إلىٰ معنىٰ مجازي بعيد متكلَّف. وكلام الأستاذ في تفسير «المنار» (١: ٢٦٨).

(٢) في «مجمع البيان»: حنطة حمراء فيها شعيرة.

وكان قصدهم بذلك الاستهزاء[١]. أو طلب الحنطة دون حطِّ الخطايا، لأنهم أناس ماديُّون.

أقول: ويجوز أن يُراد بالتبديل أنهم دخلوا زاهينَ مُتبَجِّحين غيرَ ذاكرين لتوفيق الله لهم ولا شاكرين لذلك، والله أعلم.

وإطلاقُ القول علىٰ المقول الذي يُراد به، سائغٌ في اللغة وعُرْفِ التخاطب.

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

ثم ذكَّرهم بنعمة أخرىٰ كفروها، وكان ذلك في التِّيه حين استولىٰ عليهم العطش، فقال: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾، قال الأستاذ الإمام: أمره أن يضرب بعصاه حجراً من حجارة تلك الصحراء، وعُبِّر عنه في سِفْر الخروج بالصخرة، فضرب، ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ أي: بعدد أسباطهم، و﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[٢] أي: عَيْنَهم الخاصَّة بهم.

ثم امتنَّ علىٰ بني إسرائيل في هذه النعمة واغتباطهم بما مَنَحهم من العيش الرغد في مُهاجَرِهم، فقال: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾، فعبَّر عن الحال الماضية بالأمر ليستحضر سامعُ الخطاب أولئك القوم في ذهنه، ويتصوَّر اغتباطهم فيه كأنهم حاضرون الآن والخطاب يُوجَّه إليهم، ومثل ذلك قوله: ﴿مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: (من رزقنا) كما يقتضيه: ﴿فَقُلْنَا﴾، وذلك للإيذان بأنَّ الأمر بالأكل والشرب لم يكن بطريق الخطاب،

---

(١) «مجمع البيان» للطبرسي (١: ٢٣٠) [طبعة مؤسسة الأعلمي].

(٢) تفسير «المنار» (١: ٢٧٠).

بل بواسطة موسىٰ عليه السلام، وهذا ضربٌ من ضروب إيجاز القرآن وأساليبه التي لا تُجارىٰ في دقَّة الإشارة، وفيه تحسيسٌ بالنعمة أردفه بالنهي عن بَطَرها وكفرانها، فقال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

قال الأستاذ الإمام: إنَّ كثيراً من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب في القصص وفصولها، ويقولون هنا: إنَّ الاستسقاء وضَرْب الحَجَر كان قبل التِّيه، وقبل الأمر بدخول تلك القرية، فذكرت هنا بعد تلك الوقائع.

والجواب عن هذه الشبهة ـ إن سلَّمناها لهم ـ: هو أنه لم يقصد القرآنُ بالقصص التأريخَ وسَرْدَ الوقائع بحسب أزمنة وقوعها وتسلسلها، وإنما المراد بها الاعتبار والعظة، ومتىٰ كان هذا هو الغرض فيجب أن يكون ترتيبُ الوقائع في الذكر علىٰ الوجه الذي يكون أبلَغَ في التذكير، وأدعىٰ إلىٰ التأثير حسب السياق.

ولما كان الغَرَضُ من هذه القصص هنا: النعمَ متَّصلةً بأسبابها لتُطلب بها، وبيان النِّقم بعللها لِتُتَّقىٰ من جهتها، فهذا السياق هنا هو الموافق لهذا الغرض.

ثم إنَّ الباحثين في التاريخ لهذا العهد قد رجعوا إلىٰ هذا الأسلوب في التقديم والتأخير؛ لأن الغرض معرفة سِيَرِ الماضين، وما كان لها من النتائج والآثار، فالطريق الصحيح: أن ننظر في كلِّ حادثة من حوادث التاريخ المهمة، ونُبيِّن أسبابها ونتائجها من غير تفصيل. فهذا ضَرْبٌ من ضروب الإصلاح العلمي جاء به القرآن[1]. وكم للقرآن من إصلاح؟.

وقال بعض المفسِّرين: إنما غيَّر القرآن الترتيب الواقعيَّ في هذه الوقائع لإبراز

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٧١).

كلِّ واحدة منها في مَعرِضِ أمرٍ مستقلٍّ واجب التذكُّر والتذكير به، ولو رُوعي الترتيب الواقعي في الذكر لفُهِمَ أنَّ الكل أمرٌ واحد أُمِرَ بتذكُّره والتذكير به.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

ثم ذكَّرهم سبحانه وتعالىٰ بكفرانهم لنعمةٍ أخرىٰ متَّصلة بما قبلها، وهو إنزال المنِّ والسَّلوىٰ عليهم، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

قال في «المنار» ما ملخَّصه: مع كثرة آيات الله القائمة علىٰ نبوَّة موسىٰ وصدق وعده لبني إسرائيل بالتمكُّن من الأرض الموعودة، والخروج من الظلم والذلِّ الذي كانوا فيه؛ لم تَسْتيقنه أنفسهم، بل كانوا علىٰ رَيْب من ذلك، وكانوا يظنُّون أنَّ موسىٰ عليه السلام خدعهم بإخراجهم من مصر، وجاء بهم في البريَّة ليُهلكهم، فلذلك دأبوا علىٰ إعناته والإكثار من الطلب، حتىٰ ييأسَ منهم فيرتدَّ بهم إلىٰ مصر، حيث أَلِفُوا الذلة، ولهم مَطْمَعٌ في العيش وأملٌ في الخلاص من الهَلَكَة[1].

فما ذكره عنهم في هذه الآية إنما هو علىٰ حدِّ قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، ويُرشد إلىٰ ما فيه من الإعنات قولُهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾، فقد عبَّر عن مسألتهم بما فيه حرف النفي الذي يأتي لسَلْبِ الفعل في مستقبل

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٧٣ - ٢٧٤).

الزمان مع تأكيده، فكأنهم قالوا: اعلم أنه لم يبق لك أمل في بقائنا معك علىٰ هذه الحالة من التزام طعام واحد، فإن كانت لك منزلة عند الله كما تزعم، فادْعُهُ يُخْرج لنا ما يمكن معه أن نبقىٰ معك إلىٰ أن يتم الوعد الذي وعدك ووعدتنا، وهم يعلمون أنهم في بريَّة غير مُنْبِتةٍ مِثلَ هذا.

وقد وصفوا الطعام بالواحد مع أنه نوعان، فلأنهما طعامُ كلِّ يوم. ويقال لمن يأكل كلَّ يوم عدّة ألوان لا تتغيَّر: إنه يأكل من طعام واحد.

والمراد من البَقْل: ما يطعمه الإنسان من أطايب الخضر، والقثاء: هي أخت الخيار.

ولما قالوا ذلك، ﴿قَالَ﴾ موسىٰ؛ تَقْريعاً لهم علىٰ أشَرِهِم، وإنكاراً لتبرُّمهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾، وفي صورة التعبير إشارةٌ إلىٰ إعناتهم الذي قَصَدوه من وراء هذا السؤال. والـ﴿أَدْنَىٰ﴾ في اللغة: الأقرب، واستعير للأخسِّ والأدْوَنِ، كما استُعير البُعد للرفعة.

ثم تابع التقريع وقال: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ من الأمصار، ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي: فإنكم إن هبطتموه ونزلتموه وجدتم فيه ما سألتم، أما هذه الأرض التي قضىٰ الله أن تقيموا فيها إلىٰ أجل محدود، فليس من شأنها أن تُنْبِتَ هذه البقول.

وتحرير المعنىٰ: إن أردتم الخلاصَ ممَّا كرهتم، فإنَّ ذلك بأيديكم، أقدِموا علىٰ محاربة مَنْ يليكم من سكان الأرض الموعودة، فإنَّ الله سبحانه كَفل لكم النَّصرَ عليهم، وعند ذلك تجدون طلبكم في الأمصار التي تدخلونها، فالتَمِسوا طلبكم بأفعالكم إن أردتم.

وبعد أن ذكر كفرانهم للنعمة وإعناتهم في هذا الطلب، بيَّن ما نالهم من الجزاء الدنيوي بذلك، فقال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾، والذلُّ: خُلُق خبيث

من أخلاق النفس، يُضاد الإباء والعزَّة، وأثره يُسمَّىٰ المسكنة، ويُراد به فَقْدُ المُلْكِ وما يتبعُه من العزِّ والسلطان. ويجوز أن يكون في الجملة من لطف المسلك ما يشير إلىٰ منشأ جُبْنهم وإحْجامهم عن المحاربة وهبوط الأمصار، فتكون الجملة في موضع التعليل لمضمون ما قبلها.

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رجعوا به، وهذا كما يقال: رَجَع ـ أو عاد ـ بصفقة المغبون، إذا كان ذلك آخر شوطه ومنتهىٰ سعيه. وتنكير الغضب للدلالة علىٰ أنه نوع عظيم من سخطه جلَّ شأنه.

ثم عقَّب بيانَ هذا الجزاء ببيانٍ مُجمَل عن سببه، وإن عُلِمَ ذلك من السياق؛ ليكون تصريحاً بالتشنيع عليهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ فإنهم بإحراجهم لموسىٰ عليه السلام، وإعْناتهم له في المطالب مع كثرة ما شاهدوا من العجائب، وما أظهر الله لهم من الغرائب، قد دلّو علىٰ أن لا أثر للآيات في نفوسهم، فهم بها كافرون في الحقيقة. والنفوس لا تتحلَّىٰ بالفضائل والشجاعة والإقدام إلا بالثقافة الصحيحة.

ثم تابع البيان عن السبب، وأشفعه بقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: حَنَقاً عليهم، ومن كان كذلك أمَا يكون موضعاً لغضب الله ونِقَمِه ومُسْتَحقاً لها؟ وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فيه زيادة في التشنيع، أما قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ فهو إجمال بعد التفصيل، وهي جملة مُؤكِّدة لسابقتها مُقرِّرة لها، جاءت علىٰ نهج القرآن بصورة نظريَّة عامة لبيان أسباب ما ينال الأمم من الجزاء والبلاء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

ثم استطرد في بيان أحوال المعتدلين والمؤمنين، وبيان مصيرهم علىٰ نهج القرآن

في المقابلة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾، ولفظة ﴿مَنْ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الثانية بَدَلَ خاصٍّ مِن عامٍّ. ويجوز أن تكون بدلاً من كليهما، علىٰ أن تكون بياناً لسبب الحكم.

قال الأستاذ الإمام: هذه الآية بمنزلة الاستثناء من حكم الآية السابقة، وإنما وَرَدَ الكلام علىٰ هذا الأسلوب البديع متضمِّناً لجميع مَنْ تمسَّك بهَدْي نبيٍّ سابق وانتسب إلىٰ شريعة سماوية ماضية، ليدل علىٰ أنَّ الجزاء السابق وإن حكي علىٰ أنه من خطأ اليهود، فإنه لم يُصِبْهم إلا لجريمة قد تشمل الشعوب عامة، وهي الفسوق عن أوامر الله، وانتهاك حُرماته، فكلُّ مَنْ أجرم كما أجرموا سقط عليه من غضب الله ما سقط عليهم، و علىٰ أنَّ الله جلَّ شأنه لم يأخذهم بما أخذهم لأمر يختصُّ بهم، علىٰ أنهم من شعب إسرائيل أو من ملّة يهود، بل ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون، فعمادُ الفلاح ووسيلةُ الفوز بخيري الدنيا والآخرة إنما هو صدقُ الإيمان بالله تعالىٰ، بأن يكون المؤمن قد ارتقىٰ بإيمانه مُرتقىٰ يشعر فيه بِالجلال الإلهي، فإذا رَفَع بصره إلىٰ الجناب الأرفَع، أغْضَىٰ هيبةً وأطرق إلىٰ العبوديَّة خشوعاً، وإذا أطلق نظره فيما بين يديه، شعر في نفسه عزَّةً بالله، فيكون عبداً لله وحده سيِّداً لكلِّ شيء بعده. هذا هو الإيمانُ المرضيُّ عند الله تعالىٰ، الذي يكون أصلاً لتهذيب أخلاق صاحبه، ومصدراً لأعماله الحسنة المرضية[1].

قال في «المنار»: أطمع الله تعالىٰ بهذه الآية بني إسرائيل، بعدما قرَّعهم بالنُّذُر التي تكاد تُوقع اليأس في قلوبهم، وبيَّن لهم ولسائر الناس أنَّ المَنفَذَ إلىٰ هذا الطمع،

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٧٧ - ٢٧٨).

بل البابَ الذي يؤدِّي إلىٰ هذا الرجاء: هو الجمع بين الأمرين اللَّذَيْن بَعث لتقريرهما الأنبياءَ عليهم السلام، وهما: الإيمان الصحيح اليقيني، والعمل الصالح[1].

والآية تدلُّ علىٰ أنَّ أهل الأديان ـ وهم الذين بلغتهم دعوة النبيِّ علىٰ وجهها وبشرطها ـ إذا آمنوا بالله واليوم الآخر علىٰ الوجه الصحيح الذي بيَّنه نبيُّهم وعملوا الأعمال الصالحة، فهم ناجون مأجورون عند الله تعالىٰ.

أقول: ولا يتصوَّر هذا في حقِّ غير المسلمين، إلا في أزمانهم الأُوَل، قبل أن يعبثوا بشرائعهم، وقبل أن تُنسَخَ وتُبدَّل بغيرها، والبشر كله مسؤول عن معرفة الديانة الصحيحة بما أعطاه الله من العقل السليم الذي اكتشف فيه من الخفايا العظيمة والتي وصل إليها اليوم.

وفي الآية إتباعُ الكلام وتحليلُ السياق بما كان فيه نشاطٌ وعظةٌ للسامع علىٰ نهج القرآن في ذلك (كما جاء في مفهوم المادة الخامسة من المقدمة الثانية)، فبعد أن ذكر السبب الذي سجَّل عليهم ذلك الوبال والغضب، وهو كفرانُهم للآيات وقتلُهم الأنبياء، وعصيانُهم واعتداؤهم المتواصل، أتْبَعَ ذلك ببيان حال المؤمنين من المسلمين ومن سائر المِلَل، وبيان مصيرهم، لأن فيه نشاطاً وعظةً للسامعين.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

ثمَّ عاد وتابع السياق في جناياتهم، فذكَّرهم بكفران آية عظيمة أخرىٰ، فقال:

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٨٢).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ قائلين: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من أحكام التوراة، ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجِدّ وعزيمة، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ أي: لا تَنسَوْهُ وانشروه في الناس.

والميثاق: هو العهد الذي أخذه عليهم. والمفهوم من أخذ الميثاق: أنهم قبلوا الإيمان وعاهدوا موسىٰ عليه السلام، أو الإيمان نفسه هو الميثاق، لأنه يستلزم التعهُّد والتمسُّك به. ورفعُ الطور فوقهم حتىٰ ظنُّوا أنه واقع بهم: هو من آيات الله التِّسع ومعجزاته التي جاءتهم لتقويةِ إيمانهم وأَخْذِ ما أوتوا من الكتاب بقوةٍ واجتهادٍ. وذِكرُ ما فيه وعدمُ نسيانهم: إنما يكون بالمحافظة علىٰ العمل به، فإنَّ العمل بالشيء هو الذي يجعل العلم به راسخاً في النفس مستقراً عندها.

وبعد أن أمرهم بذكر ما فيه، لأنَّ الذِّكر الدائم يثبت العمل، وَصَلَه بذكر فائدته، وهي إعداد النفس لتقوىٰ الله عزَّ وجل، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: راجين أن تنخرطوا بذلك في سِلك المتَّقين؛ لأنَّ المواظبة علىٰ العمل بما يُرشد إليه الكتاب، تطبع في النفس مَلَكَة مراقبة الله تعالىٰ، فتكون بها تقيَّة نقيَّة راضية مرضية، والعاقبة للتقوىٰ.

ورفعُ الطُّور فوقهم آيةٌ كونية من الآيات التي يُخَوِّف الله بها عبادَه، ويُجْريها علىٰ أيدي الأنبياء، وإن كانت بأسباب طبيعيَّة معروفة أو غير معروفة[1]. ويجوز أن يكون هذا الرفع بحركة زلزال قويّ قَلَع الجبل إلىٰ فوق وعاد إلىٰ موضعه، وإن حَدَثَ به بعض الخلل والتفسُّخ والتفنّش.

وبعد أن ذكَّرهم بتلك الآية الكونيَّة وما اتَّصل بها من الهداية لهم، ذكَّرهم بما

---

(١) وقد تكون بغير أسباب، فتكون معجزةً خارقةً للعادة، أي: خارقةً للسُّنن الكونية والأسباب الطبيعية.

كان منهم من التَّولِّي عن الطاعة والإعراض عن القَبول، وامتنَّ عليهم بما عاملهم به من الفضل والرحمة والصفح عما يستحقّونه من المؤاخذة والعقوبة، فقال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: لسعادة الدنيا وهي التمكُّن في الأرض المقدَّسة، ولسعادة الآخرة وهي خيرٌ ثواباً وخيرٌ أملاً، فمن فضله وإحسانه أن وفَّقكم للعمل بالميثاق بعد ذلك، بتكثير الأنبياء فيكم، يحثُّونكم علىٰ الصَّلاح والإصلاح.

ثم ذكَّرهم بكُفْرةٍ أخرىٰ ونكال آخر، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

أباحَ الله تعالىٰ لبني إسرائيل العمل في ستّة أيام من الأسبوع، وحَظَر عليهم العمل في يوم واحد، وهو يوم السبت، وفَرَض عليهم في هذا اليوم الاجتهادَ في الأعمال الدينية إحياءً للشعور الديني في قلوبهم، وإضعافاً لِشَرَهِهِم في جَمْع الحُطام وحُبِّهم للدنيا، فتَجاوزت طائفةٌ منهم حدودَ الله تعالىٰ في السبت واعتدَوها، فكان جزاؤهم علىٰ ذلك جزاءَ مَنْ لم يرض نفسه بآداب الدنيا[1]، وجزاءُ مثله هو الخروجُ من محيط الكمال الإنساني، والرتوع في مراتع البهيمية. من «المنار»[2].

وقد اختلف المفسِّرون في معنىٰ: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾، فقال الجمهور: الأمر للتكوين، وهو حقيقة في مَسْخهم قردة، ثم موتهم علىٰ إثْر ذلك.

وقال مجاهد: لم تُمسَخ صُوَرُهم، ولكن مُسِخَت قلوبهم فمثِّلوا بالقردة، كما مُثِّلوا

---

(١) في «المنار»: «الدين»، وعلىٰ هذا يكون ضبط العبارة هكذا: «مَنْ لم يُرضِ نفسَه بآداب الدين».
(٢) (١: ٢٨٤).

بالحمار في قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]، ومثل قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، و علىٰ هذا يكون المراد: أنهم أفسدوا طبائعهم وحرَّفوا فِطَرَهم تحريفاً أخرجوها عن طبائع البشر السليمة، وضلّوا عن الطريق السويِّ ضلالاً بعيداً.

والخسوء: الطرد والصَّغار. وضمير: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ يعود إلىٰ العقوبة، أو القرية؛ ويريد أهلها المعتدين. وعلىٰ الأول: يُراد بـ«ما لديها وما خلفها»: الذنوبُ الحديثةُ والقديمةُ، و علىٰ الثاني: يُراد القرىٰ القريبة منها والبعيدة. والنكال علىٰ الأول: الجزاء، و علىٰ الثاني: الاعتبار.

أما علىٰ رأي مجاهد، فيكونون قد أصبحوا في الخِسَّة وتشوُّه الطباع كالقِرَدة، وكان ذلك نكالاً لعمل المبتدئين بالاعتداء، ولعمل من اتَّبع أثرهم، وموعظةً للمتقين، الذين أدركوا أنَّ التلاعب بتعاليم الدين، يُجرِّد الإنسان من إنسانيته، ويردُّه إلىٰ أسفل سافلين[1].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا

---

(١) تقدَّم التعليق علىٰ مَيْل المؤلف إلىٰ حَمْل المَسْخ علىٰ مَسْخ معنوي في المقدمة (١: ٦٤٧-٦٤٨) وإبطاله.

كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

ثم ذَكر قصَّةً من قصصهم تدلُّ علىٰ سَفَههم، وخفَّة أحلامهم، وجَهْلهم بعَظَمة الله، وما يجبُ أن يُقابَلَ به أمرُه من الاحترام والامتثال، وإن لم تظهر حكمتُه بادئ الأمر، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، قال أبو السعود: وسَبَبُه: أنه كان في بني إسرائيل شيخ موسر، فقتله بنو عمِّه طمعاً في ميراثه، فطرحوه علىٰ باب المدينة، ثم جاؤوا يطالبون بدمه، فأمرهم الله تعالىٰ أن يذبحوا بقرة لاكتشاف القاتل، فاستغربوا من هذا الأمر، و﴿قَالُوا﴾ لموسىٰ لـمّا قال لهم ذلك: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾، لأن الهزؤ في أثناء تبليغ أمر الله سبحانه جهلٌ وسَفَه، فنفىٰ عنه عليه السلام ما توهَّموه من قِبَلِهِ علىٰ أبلغ وَجْه وآكده، وذلك بالاستعاذة منه، استفظاعاً له[1].

فلمَّا تبيَّن لهم الجِدُّ من كلامه: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي: ما صفتها وما حالها؟ ﴿قَالَ﴾ موسىٰ: ﴿إِنَّهُ﴾ تعالىٰ ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ أي: لا مُسِنَّة ولا فتيَّة، ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: وسط في السنِّ، ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ يحثُّهم علىٰ الامتثال، ويَزْجُرهم عن المراجعة.

ولكنهم لم يقنعوا، و﴿قَالُوا﴾ له: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ أي: ناصعُ الصُّفرة خالصُها، ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: بكمال لونها ووَصْفِها.

---

(١) تفسير أبي السعود «إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم» (١: ١١٠ - ١١١).

وأبو السعود: هو محمد بن محمد بن مصطفىٰ العمادي (٨٩٨- ٩٨٢هـ)، مفسِّر شاعر من علماء الترك المستعربين، له: «تحفة الطلاب»، و«تسجيل الوقف». «الأعلام» للزركلي (٧: ٥٩).

ولكنهم لم يقفوا عند هذا الحدِّ أيضاً، بل زادوا في الاستكشاف، و﴿قَالُواْ﴾ له: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، كأنَّهم يريدون بيان حقيقتها، بحيث تمتازُ عمَّا عَدَاها ممَّا تُشاركها في الأوصاف المذكورة والأحوال المشروحة في أثناء البيان، ولذلك علَّلوه بقولهم: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ يَعنُونَ أنَّ الأوصاف المبيَّنة يشترك فيها كثير من البقر، فلا نهتدي بها إلىٰ تشخيص ما هي المأمور بها، ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي: إلىٰ ذلك بما تزيدنا من البيان عن مُشَخَّصاتها.

فأمره سبحانه أن يُبيِّن لهم ذلك بقوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ أي: ليست بقرةَ حَرْثٍ ولا سَقْي، ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ أي: من العيوب وأثر العمل، ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: ليست فيها بُقعةٌ أو بُقَعٌ تُخالف لون جلدها.

فلما سمعوا هذا البيان ﴿قَالُواْ﴾ لموسىٰ عليه السلام: ﴿ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بحقيقة وَصْف البقرة، ولم يبق لنا في شأنها اشتباه، ثم فتَّشوا، وبعد الجهد عَثَروا علىٰ بقرة مستكملة لهذه الصفات المبينة ﴿فَذَبَحُوهَا﴾.

وأما قوله: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ ففيه تشنيعٌ عليهم وحكايةٌ لتردُّدهم في قَبول هذا الحكم، أو المراد: ما قَارَبوا أن يذبحوها إلا بعد أن انتهت أسئلتهم وانقطع ما كان من تنطُّعهم وتعنُّتهم.

وعن ابن عباس رضِيَ الله عنهما: لو ذبحوا أيَّ بقرة أرادوا لأجْزأتهم، ولكن شدَّدوا علىٰ أنفسهم فشدَّد الله عليهم[1]. انتهىٰ.

فالتنطُّعُ في الدين والإحفاءُ في السؤال أثناء نزول الأحكام ممَّا يجرُّ إلىٰ التشديد فيها. فمن شدَّد شُدِّد عليه، ولذلك نهىٰ الله تعالىٰ هذه الأمة أيام نزول القرآن عن كثرة

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢: ٢٠٤)

السؤال بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ١٠١ - ١٠٢].

وعنه ﷺ: «ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك مَنْ كان قبلكم كثرةُ سؤالهم، واختلافُهم علىٰ أنبيائهم»[١]. ومعنىٰ عفا الله عنها: لم يأمر بها.

قال في «المنار» ما ملخَّصه: رُوعيَ في قصص بني إسرائيل بيانُ المِنَنِ التي مَنَحهم الله إيَّاها، وضروب الكُفْران والفسوق التي قابلوها، وما كان في أثر ذلك من تأديبهم بالعقوبات، وابتلائهم بالحسنات والسيِّئات، وكيف كانوا يُحْدِثون في أثر كل عقوبة توبةً، ويَحْدُثُ لهم في أثر كلِّ توبة نعمةٌ، ثم يعودون إلىٰ بَطَرِهِم وينقلبون إلىٰ كفرهم[٢].

أما هذه الآيات فقد جاءت علىٰ غير هذا الأسلوب حسب خصائص القرآن في تلوين الأساليب، فقد ذكر أولاً وسيلة الخلاص، وهي ذَبْحُ البقرة، بما يُعجب السامع ويشوِّقه إلىٰ معرفة ما وراءها، فالمفاجأة بهذا الأمر والجدال الذي وقع فيه يثير الشوق في الأنفس إلىٰ معرفة السبب والغاية، فتتوجَّه الفكرة بأجمعها إلىٰ تلقِّيه، حتىٰ يتبيَّن في آخرها أنَّ ذبحَ البقرة كان لفَصْل النزاع في واقعةِ قَتْلٍ لم يُعرَف فيها القاتل، وكانوا قد طلبوا من موسىٰ عليه السلام الفَصْل فيها وبيان القاتل، ولما أمرهم بذبح البقرة استغربوه؛ لما يعتقدون من أنَّ فيه مباينةً لما يطلبون، فقالوا: أتتخذنا هزواً؟ وهذا من سَفَههم وخفَّة أحلامهم وجهلهم بما يجب أن يقابل به أمر الله من الاحترام والامتثال، وإن لم تظهر حكمته باديَ الرأي، ولا أقلَّ من أنها قربان، وهم يعدّون القربان من أعظم

---

(١) رواه مسلم (١٣٣٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تفسير «المنار» (١: ٢٨٧).

القُربات، وسيكون ذلك تشريعاً لهم في الـحَلِفِ علىٰ دَرْءِ تُهمة القتل، كما جاء عندهم في أول الفصل الحادي والعشرين من سفر تثنية الاشتراع.

وبعد أن ذكر وسيلة الخلاص، وهي ذبح البقرة، بأسلوب يُعجب السامع ويُشوِّقه إلىٰ معرفة ما وراء ذلك، ذكر الجرم، وهو قتلُ النفس والمدارأة فيه، فقال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي: فكان كلٌّ منكم يدرأ التهمة عن نفسه إلىٰ غيره، ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي: من إخفاء القاتل وتُهمة الأبرياء.

وهذا هو أول القصة المحتوية علىٰ المخالفة، وهي القتيل، ثمَّ التنازع في القاتل. وإنما فعل ذلك ليَظهَرَ كلٌّ من الأمرين مُستَقلاً بنفسه واجبَ التذكير والتذكُّر، ولو راعىٰ الترتيب الواقعي لظهر أمراً واحداً ولم تتكرَّر العبرة فيه، وليتناسق السياق المبني علىٰ بيان ما دأبوا عليه من معارضة الأنبياء والإعنات وتلبيس الحقِّ والتملّص من أحكام الله وعهوده، فيكون السياق مُتَّحداً ومُتَسَلْسِلاً في هذا الأصل والخاصَّة.

وأسند القتل إلىٰ الأمة لأنها متكافلة كالشخص الواحد في مثل ذلك، فيجبُ عليها أن تتآمر بالمعروف وتَتَناهىٰ عن المنكر.

ثم ذكر تشريع الحكم لكشف الحقيقة بذبح البقرة، فقال: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، والذي عليه أكثر المفسِّرين: أنَّ الضمير يعود إلىٰ المقتول، أي: اضربوا المقتول ببعض هذه البقرة، فضربوه فحَيِيَ.

ثم قال تعالىٰ علىٰ أسلوب القرآن في تعقيب مثل هذا الموقف بالاستدلال علىٰ الحشر: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: كما أحيا هذا المقتول بعد موته يُحيي الموتىٰ يوم القيامة، وإحياءُ هذا المقتول آيةٌ علىٰ قُدرته سبحانه وتعالىٰ علىٰ إحياء الموتىٰ، والكلام علىٰ معنىٰ: إن الله أراكم هذه الآية حتىٰ تكمل عقولكم فتؤمنوا

بقواعد الدين، ولاسيما مسألة البعث، لذلك قال تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: قدرةَ الله تعالىٰ علىٰ ذلك، فكانت الشرائع السابقة تأتي بالآيات الفعلية؛ لأنَّ عقول البشر لم تكتمل كما كملت قبيل نزول القرآن، فلذلك جاء بخطاب العقل لا بالعواطف.

وقال بعض أهل العصر: إنَّ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ...﴾ قصَّةٌ أخرىٰ مستقلَّـة عن سابقتها، والضمير في ﴿ٱضْرِبُوهُ﴾ يعود علىٰ المتَّهم بالقتل، والضمير في ﴿بِبَعْضِهَا﴾ يعود إلىٰ جثَّة المقتول؛ لأنَّ ذلك يُرْهبُه ويملكُ عليه شعورَه، فتبدر منه بوادر تُنْبئ عن فعلته[1].

---

(١) هذا تأويلٌ متكلَّف، ولا أعلمُ به قائلاً ممّن تقدَّم من المُفسِّرين، والتفسير الأول ـ كما يقول المؤلف رحمه الله ـ أتمُّ وأجلىٰ.

فالضمير في قوله تعالىٰ: ﴿ٱضْرِبُوهُ﴾ يرجع للقتيل، وفي قوله سبحانه: ﴿بِبَعْضِهَا﴾ يرجع للبقرة، والمراد بإحياء الموتىٰ: هو بعثُهم بعد الموت. وقد روي عن بعض السلف بيانُ العضو الذي ضُرِبَ به القتيلُ فحَيِيَ بإذن الله وتكلّم وذكرَ مَنْ قتله.

قال ابنُ كثير في «تفسيره» (١: ٣٠٢- ٣٠٣): هذا البعضُ أيَّ شيء كانَ من أعضاء هذه البقرة فالمعجزةُ حاصلةٌ به، وخَرْقُ العادة به كائن، وقد كان معيَّناً في نفس الأمر، فلو كان في تعيينه لنا فائدةٌ تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبيّنه الله تعالىٰ لنا، ولكن أبهمه، ولم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانُه، فنحن نُبهمُه كما أبهم الله.

ولهذا روىٰ ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧٥٠) بإسناده إلىٰ ابن عباس، قال: إن أصحاب بقرة بني إسرائيل طلبوها أربعين سنة حتىٰ وجدوها عند رجل في بقر له، وكانت بقرة تعجبه، قال: فجعلوا يعطونه بها فيأبىٰ، حتىٰ أعطوه مِلْءَ مسكها دنانير، فذبحوها فضربوه ـ يعني القتيل ـ بِعُضْوٍ منها، فقام تَشْخُب أوداجُه دماً، فسألوه فقالوا له: من قتلك؟ قال: قتلني فلان.

وكذا قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم إنه ضُرِبَ ببعضها.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: فضربوه فحيي، ونبّه تعالىٰ علىٰ قدرته وإحيائه الموتىٰ بما شاهدوه من أمر القتيل، حيثُ جعل تبارك وتعالىٰ ذلك الصنعَ حجّةً لهم علىٰ المعاد، وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والفساد، والله تعالىٰ قد ذكر في هذه السورة ما خلقه في إحياء الموتىٰ، =

ويدَّعي صاحب هذا الرأي أنَّ الفنَّ الحديث أثبت ذلك في إظهار الجرائم، حيث أثبت أنَّ المجيءَ بالمجرم إلىٰ مكان الحادثة، وذِكْرَ بعض تفاصيل الحادثة أمامه، واستجوابَه علىٰ أثر ذلك؛ يبعثه إلىٰ التكلُّم بالواقعة إجمالاً، أو تبدر منه بوادر تُنْبئ بجرمه إن كان مجرماً.

ويكون معنىٰ إحياء الموتىٰ: حفظ الدماء، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فالإحياء معناه: الاستبقاء، ومعنىٰ ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: يُعلِّمكم أحكامه وإرشاداته.

أقول: ويجوز ـ والله أعلم ـ علىٰ هذا التوجيه أن يكون المعنىٰ: كما رأيتم صحَّة هذا الإرشاد، فاعلموا أنَّ ما يأتي عن الله سبحانه من الآيات عن إحياء الموتىٰ ومتعلّقاته أمرٌ صحيحٌ واقع. هذا ولكن التفسير الأول للآية أتمُّ وأجلىٰ.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه أنه قد طرأ عليهم بعد رُؤْية تلك الآيات، ما أزال أثرَها من قلوبهم، وذهب بعبرتها من عقولهم. وتلك عادتهم كلما طال الأمد علىٰ توبتهم التي يُجدِّدونها إثر كل عقوبة يعاقبون بها، فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

---

= في خمسة مواضع: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦]. وهذه القصة، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة الذي مر علىٰ قرية وهي خاوية علىٰ عروشها، وقصة إبراهيم والطيور الأربعة. انتهىٰ باختصار.

والعطف بـ﴿ثُمَّ﴾ يفيد أنَّ الأوَّلين منهم قد خَشَعت قلوبهم لما رأوا في زمن موسىٰ عليه السلام ما رأوا، ثم خَلَف من بعدهم خَلْف كان أمرُ قسوتهم ما وصفه عزَّ وجل. ويجوز أن تكون كلمة ﴿ثُمَّ﴾ لاستفظاع تلك القسوة منهم بعد مشاهدة الآيات.

والقسوة: الصلابة، وهي من صفات الجماد استُعيرت للقلوب.

وكذلك ﴿أَوْ﴾ الترددية مستعارةٌ من حال المخاطبين، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، فارجع إلىٰ تفسيره في سورة الصافات. ويجوز في ﴿أَوْ﴾ هنا أن تكون للتقسيم، بمعنىٰ أنَّ أقلَّها قسوةً تُشبه الحجارة، ومنها ما هو أشدُّ منها قسوة.

ثم ذكر وجه تلك المفاضلة بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ومنها الحجر الذي ضربه موسىٰ بعصاه، فانفجر منه اثنتا عشرة عيناً، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾، والمعنىٰ: أنَّ هذه الحجارة ـ علىٰ صَلَابتها وقسوتها ـ تتأثَّر بالماء اللطيف، فيشقها وينفذ منها بقلَّة أو كثرة، فيُحيي الأرض وينفع النبات والحيوان، وأما هذه القلوب فلم تَعُدْ تتأثَّر بالحِكَم والنُّذُر، ولا بالعِظات والعِبَر، فالحِكَمُ لا تقوىٰ علىٰ شقِّها والنفوذ منها إلىٰ أعماق الوُجْدان، وأنوارُ الفطرة قد انطفأت فيها فلا يظهر شعاعها علىٰ إنسان. ومجمل المعنىٰ: أنَّ من الحجارة ما يشقُّه الماء اللطيف القليل منه أو الكثير بإذن الله.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: إنَّ من الحجارة ما تتأثَّر بالحوادث التي يُحدثها الله في الكون، كالصواعق والزلازل، والشُّهب والنيازك، منقادة لأحكام الله، وقلوبكم لا تتأثَّر بتلك الإرشادات الإلٰهيَّة فلا تفيد فيها المؤثِّرات كما أفادت في الأحجار. وفي صورة عَقْدِ المشابهة بين الحجارة وقلوبهم بهذه الطريقة من المفاضَلَة بلاغةٌ بالغةُ المرمىٰ قويَّة التصوير، من أبلغ صور إعجاز القرآن.

والقلوب يُعبَّر بها عن الوُجْدان، ويُعبَّر بها عن العقل، ويُعبَّر بها عن النفس الناطقة، لأنَّ من شأن القلب أن يتأثَّر مما يتأثر منه الوجدان أو العقل أو الروح، كما قال في «المنار»[1].

والمعنىٰ: إن هذه القلوب قد فَقَدت خاصَّةَ التأثر والانفعال بما يُرَدَّد عليها من المواعظ والآيات، التي هي من خواصِّ الروح الإنساني، حتىٰ كأنَّ أصحابَها هَبَطوا من درجة الحيوان إلىٰ درجة الجماد كالحجارة، بل نزلوا عن درجة الحجارة، لأنَّ الحجارة علىٰ صَلَابتها وقسوتها لا تماثلهم.

ثم هدَّدهم سبحانه بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾، فهو توعُّدٌ ترتجفُ له القلوب، وتَقشَعِرُّ له الأجسام. عافانا الله عن ذلك. وتعقيبُ الكفر والضلال بالوعيد هو من نهج القرآن.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

وبعد أن عدَّد هَنَاتِ بني إسرائيل، ونَعَىٰ عليهم جناياتهم، فسَرَد ما كان لهم من

---

(١) (١: ٢٩٢).

ماض بعيد في التَّكذيب والتمرُّد في الكفر والطغيان، والتلاعب في الشرائع والأديان، واللَّيِّ والتَّحريف والكتمان، لَفَتَ الخطابَ إلىٰ النبي ﷺ والمؤمنين يُيَئِّسُهُمْ من إيمانهم، وقَرَنَ ذلك ببيان كفرهم بكتابهم وتلاعُبهم به، وضمَّن الكلامَ صورةً من تدليسهم علىٰ المسلمين، ونفاقهم معهم، وتآمرهم عليهم، وإلباسهم علىٰ الناس، وجعل ذلك تتمَّةً لما فَرَّع عليه من أسباب التَّيئيس، وزيادةً فيه، وأحاط البيان بدلائل سابقة ولاحقة علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾ أي: ينقادوا لكم ويُصَدِّقوكم، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

ففي هذه الجملة زيادةُ بيانٍ علىٰ السياق في تضافر أسباب الإبعاد عن الإيمان مضافاً إلىٰ ما تقدَّم من الطِّباع السيِّئة والعصيان.

وقال في «المنار»: كان الظاهر أن يكون الخطاب للنبي ﷺ خاصَّة، ولكنْ خاطبَ المؤمنين معه لأنهم كانوا يشاركونه في الألم من إيذائهم، والطمع بهدايتهم، فأشركهم بالتسلية، ولأنَّ طَمَعَ بعض المؤمنين بإيمانهم كان يحملهم علىٰ الانْبساط معهم في المعاشرة إلىٰ حدِّ الإفْضاء إليهم ببعض الشؤون المِلِّيَّة المَحْضة، واتِّخاذهم بِطانة، وكان يَعْقِبُ ذلك من الضرر ما يَعْقِبُ، حتىٰ نهاهم الله تعالىٰ عن اتِّخاذ البطانة من دون المؤمنين، إذا كانوا موصوفين بأوصاف هؤلاء، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

والآية الآتية تدلُّ علىٰ هذا الإفضاء أيضاً[1].

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٩٤).

وقال أكثر المفسِّرين في معنىٰ الآية: إنهم كانوا يسمعون التوراة ويُؤوِّلونها تأويلاً فاسداً حسب أغراضهم. قال ابن جرير[١]: لو كان المرادُ بها هنا تحريفَ كلام التوراة المكتوب لَـمَا قال: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾. فزيادة «يسمعون» هنا لا بدَّ لـها من حكمة، ولولا ذلك لجاء الكلام علىٰ نَسَق الآيات الأخرىٰ التي ذكر فيها التحريف، كأن يقول: وقد كان فريقٌ منهم يُحرِّف كلام الله، وقد حقَّق ابن جرير رواية عن ابن عباس: أنَّ المراد بهذا الفريق: السبعون رجلاً الذين اختارهم موسىٰ من قومه، فسمعوا كلام الله، فلم يَمْتثلوا أمره، وحرَّفوا القول في إخبارِهم قومَهم حين رجعوا إليهم، فيكون معنىٰ «كلام الله»: كلامه لموسىٰ وقت المناجاة.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ نصٌّ في التعمُّد وسُوء القصد.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فيه زيادةٌ لتقبيح شأنهم وسوء طوِيَّتِهِمْ.

قال في «المنار» تعليقاً علىٰ سماعهم كلام الله تعالىٰ: إنهم سمعوه علىٰ الوجه الذي لا نعرفه، وإنما نعرف أنهم صحبوا موسىٰ إلىٰ حيث كان يُناجي الله تعالىٰ، وكان من شأن الله تعالىٰ معهم أن صدَّقوا بأنَّ ما جاء به موسىٰ عليه السلام هو وحيٌ من الله تعالىٰ. والتَّصديقُ بذلك لا يتوقَّف علىٰ معرفة كيفيته[٢] وكُنْهه، فإنَّ أكثر ما نُصَدِّق به تصديقَ يقين لا نعرف حقيقته وكنهه، ولا كيفيَّة تكوينه وإيجاده[٣].

أقول: ومثل ذلك كثير في موجودات هذا الكون وسننه فضلاً عن أحوال الله

---

(١) في «تفسيره» (٢: ٣٤٧).

(٢) أي: كيفية سماعهم له، وسماعُهم صفةٌ لهم، فيصحُّ أن تُكيَّف، سواء عُرفت الكيفية أو جُهلت، أما كلامُ الله تعالىٰ فصفةٌ من صفاته لا تُكيَّف.

(٣) تفسير «المنار» (١: ٢٩٤- ٢٩٥).

سبحانه، فهذه حبَّة البُر مثلاً ونبتُها واستواؤها علىٰ سوقها، وبذرة التين مثلاً وتشجُّرها وإثمارها، فهو أمر نُصدِّق به تصديقَ يقين، ونُشاهده مشاهدةَ عيان، دون أن يتوقَّف علىٰ ذلك معرفة كيفيَّتِهِ وكُنه حقيقته، وكذلك قوة الكهرباء وآثارها جليَّة وحقيقتُها خفيَّة، وهذه عملية التذكُّر وعملية الإدراك ليس أحد يعلم كيف تتمُّ كل واحدة منها، رغماً عن أنها حقيقة واقعية مستفيضة، وأمثال ذلك كثير. ولا ننسىٰ أن كلام الله سبحانه كسائر صفاته لا يمكن أن تُدرك حقيقته، كما لا يمكن أن نُدرك حقيقة ذاته تعالىٰ، وإنما نستدلُّ علىٰ ذاته وصفاته بآثاره، فموسىٰ عليه السلام فهم عن الله دون أن يعرف الكيفية، ولا تنسَ أن الأنبياء وإن كانوا بشراً فإنهم كُمَّلٌ، وبهذا الكمال كان فيهم مواهب ومزايا لا تُوجد بسائر البشر. هذا رأيي. والله أعلم.

وسأل رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام: «هل ترىٰ ربك»؟ فقال: «كيف أرىٰ ربي؟ لا أعلم أكثر مما تعلم»[1].

وبعد بيان ما صَدَر عن أشباههم من أسلافهم، بيَّن ما صَدَر عنهم بالذات من الشنائع المؤيسة من إيمانهم، فقال: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

والمرادُ من الفَتْح هذا: الإنعامُ عليهم بالشريعة والأحكام والبشارة بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام، شبَّه الذي يُعطَىٰ الشريعة بالمحصور يُفتَحُ عليه، فيخرج من الضيق، أو بمن هو خارج الباب فيفتح له.

أما قوله: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ فقد قال ابن الأنباري: معناه: في حكم ربكم، كما

---

(١) لم أقف عليه.

يقال: هذا حلال من عند الله، أي: في حكمه. وقال البيضاوي[١]: أي: ليحتجُّوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه، فجعلوا مُحَاجَّتهم بكتاب الله وحكمه مُحَاجَّة عنده، كما يقال: عند الله كذا، ويُراد به: أنه جاء في كتابه وحكمه.

والمراد بحُكم الله: حكمُه في التوراة بصفة محمد ﷺ، وذلك أنه كان قوم من اليهود ـ ليسوا من المعاندين ـ إذا لقُوا المسلمين حدَّثوهم بما في التوراة من صفة محمد ﷺ، فنهاهم كبراؤهم عن ذلك وقالوا لهم: لا تُخبروهم بما في التوراة من صفة محمد فيُحاجُّوكم به في كتابكم. وعلىٰ هذا يكون الكلام عن المجموع لا عن الجميع.

والضمير في: ﴿قَالُوٓاْ﴾ الثانية غيرُه في الأولىٰ، ومثل ذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن (كما جاء في الفقرة (ز) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، ويجوز أن يكون الضمير الثاني عينَ الأول.

والمعنىٰ: إذا اختَلَوْا فيما بينهم لامَ بعضهم بعضاً بهذه الملامة.

فقال تعالىٰ مُؤنِّباً لهم: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾، أي: فكيف يُسِرُّون الكفر ويُعلنون الإيمان، وكيف يكتمون من صفات النَّبيِّ ﷺ ما كتموا، ويُحرِّفون من كتابهم ما حرَّفوا؟! فهو توبيخٌ لهم وتقريع، وبيانٌ لمكان الغباوة فيهم، وفي طيَّاته توعُّد وترهيب.

ثم ذكر لهم خياناتٍ كبرىٰ في الدين، وأنَّبهم عليها تأنيباً رهيباً بعد أن مَهَّد لها بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾، وهذه هي كالمقدِّمة للآيات الآتية التي هي محطُّ التأنيب. ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

---

(١) في «تفسيره» (١: ٣٤٨).

قال في «المنار»: وهذا هو شأن عامَّتهم، لا علم لهم بشيءٍ من الكتاب، وما عندهم من الدين إنما هو أمانيٌّ يتمنَّونها وتجول صُورها في خيالاتهم، وظُنونٌ يُلهُون بها أنفسَهم، وهذا هو محلُّ الذم، لا مجرَّد كونهم أميِّين، فإنَّ الأُميَّ قد يتلقَّىٰ العلم عن الثقات ويعقله عنهم بدليله، فيكون علمه صحيحاً[1].

ومنهم من فسَّر «الأماني» بالقراءة، أي: إنَّهم لا حظَّ لهم من الكتاب إلا قراءة ألفاظه من غير فهم ولا اعتبار يظهر أثرهما في العمل.

وقد وَرَدَ التمنِّي بمعنىٰ القراءة، ومنه قول الشاعر:

تمنَّىٰ كتابَ الله أولَ ليلةٍ ... تمنِّيَ داودَ الزَّبُورَ علىٰ رِسْلِ[2]

وهذا النوع من التَّمنِّي قد برز فيه المسلمون حتىٰ سبقوا من قبلهم، فقد أمسَوْا أكثر الأمم تلاوةً لكتابهم، وأقلَّهم فهماً له واهتداءً به، وذلك مما يُؤسف له غاية الأسف.

ومن مباحث اللفظ: أنَّ قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ استثناء منقطع، لأنَّ العلم المنفيَّ قاصرٌ لا يشمل الأماني، ويصح أن يكون متعدِّياً، والآية علىٰ حدِّ قولهم: ما علمت فلاناً إلا فاضلاً، ويكون المعنىٰ أنهم: إنما يعلمون من الكتاب أنه مجموعة أماني، يُمنُّونها أنفسهم، فهم لا يأخذون منه إلا ما هو لهم، ويمدُّهم في غرورهم. وأما ما يُنَبِّههم علىٰ سيِّئات أعمالهم، فكأنه غير معروف لهم من الكتاب.

وبعد أن ذكر حالة هؤلاء الأُميِّين، ذكَرَ حالة الرؤساء والعلماء وما كانوا يستغلُّونه من أميَّة هؤلاء لفائدتهم الدنيَّة، فتوعَّدهم علىٰ ذلك، وأنَّبهم تأنيباً فاضحاً، فقال:

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٩٧).

(٢) ذكره الأنباري في «الزاهر في معاني كلمات الناس» (٢: ١٥١)، وأبو البقاء الكفوي في «الكليات» (ص٣٢٠) دون نسبة.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: يفعلون ذلك لقاءَ مراكزَ موهومةٍ أو دراهمَ معدودة، ثم كرَّر الوعيد وفصَّله وهوَّله تهويلاً مريعاً بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾، فبيَّن أن التَّوعُّد لهم من ناحيتين.

وقوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾، فيه زيادةٌ في التَّشنيع وتمكينٌ في التقريع، وإنما قال: ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، لأنَّ كلَّ ما يُباع به الحقُّ فهو قليل، مهما كان شأنه ومقداره.

قال الأستاذ الإمام ما مُلخَّصه: كان علماؤهم يُلبِّسون علىٰ الناس بتأليف الكتب الدينيَّة علىٰ أنها مأخوذة من كتاب الله، ويُودعونها آراءهم، وهذه الكتب هي مَثَار الأماني والغرور الذي يجول في عقول أولئك الأميين[1].

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾﴾.

ثم ذكر ضرباً من ضروب تلك الأماني التي تكتبها الأحبار بأيديها، فقال: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾، فأنَّبهم علىٰ ذلك أبدع التأنيب، وقرَّعهم أهزأ التقريع بقوله: ﴿قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾، وهذا من أسلوب الهزل في الجد، تهكُّماً بهم، ومثله في القرآن كثير، (كما جاء في المادة الخامسة عشرة من المقدمة الثانية).

ثم عقَّب النهج الإنكاري التَّهكُّمي ببيان الحقيقة علىٰ أمرهم، علىٰ أسلوب القرآن في مثل ذلك (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة الرابعة من المقدِّمة الثانية)، فقال:

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٩٩).

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾؟ نعم، إنهم يَهرِفون بما لا يعرفون، ويقولون علىٰ الله ما لا يعلمون. وهذا الأسلوب البديع في الردِّ والإنكار وتقرير الحقيقة، هو من أساليب القرآن المعجزة والمنوعة في البيان.

ولبعض المفسِّرين وَجْهٌ آخر في الفقرة الأخيرة، وتحريره: أنه إنما قال: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مع أنهم يعلمون عدم وقوعه، للمبالغة في التوبيخ والنكير، لأنهم إذا استحقوا التوبيخ علىٰ افترائهم مع جهلهم، فما ظنُّك بافترائهم وهم يعلمون، كإنكارهم رسالة محمد ﷺ.

ثم بيَّن حقيقةَ الأمر ضِمنَ تشريع كُلِّيٍّ مستمر المدىٰ، وسَبكَه علىٰ إبطال دعواهم، فقال: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾، أي: ليس الأمر كما تَتمنَّون وتزعمون، بل تمسُّكم النار وتمسُّ كلَّ مَنْ علىٰ شاكلتكم ممَّن أحاطت به خطيئته. وإحاطةُ الخطيئة به: أن تأخذ بجوانب إحساسه ووجدانه، فيصبح أسيرَ الشهوات، سجينَ الموبقات، رهين الظلمات. وإنما يكون ذلك بالاسترسال في الذنوب، كما قال تعالىٰ: ﴿بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، ففي ﴿يَكْسِبُونَ﴾: معنىٰ الاسترسال والاستمرار والانطباع، و﴿رَانَ عَلَىٰ﴾ بمعنىٰ: غطَّاه وغمره.

قال صاحب «الكشاف»[1]: كلمة ﴿بَلَىٰ﴾ إثباتٌ لما بعد النفي، وهو قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ أي: بلىٰ تمسّكم، والقاعدة العامة في ذلك: أن كلَّ من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فهو من أصحاب النار، خالد فيها؛ لا يُخفَّفُ عنهم العذاب ولا هم يُنصَرون.

---

(١) (١: ١٨٥).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

ثم قابل مصير أولئك الخاطئين بمصير الصَّالحين، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾، فبيَّن مصير الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح وما يَنْبعث عنه من الأعمال الصَّالحات. والضمير ﴿هُمْ﴾ في الجملتين لإفادة القَصْر وتأكيد مضمون الجملة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

ثم شرع في بيان قبائحَ أخرىٰ لأسلافهم، تُنْبئُ عن اليأس من إيمان أخلافهم، لمشابهتهم لهم بالتربية والخُلُق، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وذلك بإرسال موسىٰ إليهم بالتوراة التي من أهم مندرجاتها: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾، ثم قال: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، فغيَّر الأسلوب عن النَّسق السابق، وجَعَله بصيغةٍ وَوَضْعٍ يدلُّ علىٰ شدَّة الاهتمام بهذا

الحكم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية)، واستعمل المصدر ﴿حُسْنًا﴾ بمعنىٰ الوصف للمبالغة.

والقولُ الحَسَنُ: هو النافع في الدِّين والدُّنيا، فهو يشمل النصيحةَ والأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر. والتَّلطُّفُ بالقول والكلامُ الحسن مصدرٌ للنجاح عظيم، والمجتمع الذي يسودُ فيه يكون هادئاً مريحاً؛ لأنَّ كثيراً من المشكلات تنشأ من رداءة السلوك ورديء الكلام.

ثم تابع البيان في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بنفس الأسلوب الدالِّ علىٰ الاهتمام. وإقامةُ الصلاة إنما تكون بالإخلاصِ لله، والصِّدق في التوجُّه إليه، والخشوع لِعَظَمتِهِ وجلاله، ولا يحضر معه شيئاً أبداً، وذلك يكون في التمرُّن والتدرّب، وليس فيه صعوبة بعد ذلك، ولا تكون بمجرَّد الإتيان بصورة الصلاة ورسومها الظاهرة.

وبعد تفصيل أمهات الميثاق، ذكر ما كان من أمرهم، فقال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾، وهذا هو محطُّ التَّشنيع والتقبيح. والالتفاتُ من الغيبة إلىٰ الخطاب؛ لإفادة مزيد التأنيب والتقريع.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾، فيه زيادةٌ في التَّشنيع. وقوله: ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ تأكيدٌ للمبالغة في هذا المعنىٰ المستفاد من التولِّي. والخطابُ لمجموع الأمة، لاعتبارها كالشخص الواحد، يُخاطبها بما كان عليه السلف وما عليه الخلف، وينسبها للأمة جمعاء علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة السادسة عشرة من المقدمة الثانية).

وبعد أن ذكَّرهم بأمهات الأحكام في العبادات والمعاملات وما كان من إهمالهم

لها وتركهم إيَّاها، ذكَّرهم بأهم المنهيَّات التي أخذ الله الميثاق عليهم باجتنابها، وما كان من نقضهم إياها وارتكابهم لها، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾، أورد النهي عن سفك بعضهم دمَ بعضٍ، وإخراج بعضهم بعضاً من ديارهم وأوطانهم، بلون من التعبير يؤكِّد معنىٰ وحدة الأمة، ويُحدث في النفس أثراً شريفاً من التكاتف والتضامن.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ يجوز أن يكون خطاباً للعموم، والإتيان بـ﴿ثُمَّ﴾ للإيذان بأهمِّية ذلك الإقرار. والمعنىٰ: أنكم أقررتم مُؤْذنين بوجوب المحافظة عليه، مُؤكِّدين ذلك، شاهدين علىٰ أنفسكم. وهو علىٰ حدِّ قولهم: أقر فلان شاهداً علىٰ نفسه.

ويجوز أن يكون خطاباً لمن كان منهم في عصر القرآن، بأنهم مُقِرُّون بهذا الميثاق ويشهدون به، فالحُجَّة ناهضةٌ عليهم إذ يقتل بعضهم بعضاً، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي: في ذلك الإخراج والقتل. فقوله: ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ بيانٌ للمراد من القتل والإخراج، إذ كان بنو قينقاع من اليهود حلفاءَ الأوس، وبنو قريظة وبنو النَّضير حُلفاءَ الخزرج، وكلُّ فريق يُظاهر حلفاءه من العرب ضدَّ إخوانه من اليهود في ذلك القتل والإخراجِ.

ومما يستوجب العجب أنهم كانوا إذا اتَّفقوا مع الحلفاء علىٰ فَدْي الأسرىٰ، يَفْدي كلُّ فريق من اليهود أسرىٰ أبناء جنسه وإن كانوا من أعدائه، ويعتذرون عن هذا بأنهم مأمورون في الكتاب بفَدْي أسرىٰ شعب إسرائيل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ﴾ أي: والحال أنه كما يجبُ عليكم فداؤهم، ﴿مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾.

فأنَّبهُم بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، فتعملونَ بفداء الأسرىٰ ولا تعملون بتحريم القتال والإخراج، ينكر عليهم هذا العمل، ويُوبِّخهم عليه.

ثم سجَّل عليهم جزاءه، فقال: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وهو ما ينتج عن التَّفرُّق بينهم من الذلِّ والهَوَان والغلَبة علىٰ أمرهم، وما يتبع ذلك من الأمور.

وبعد أن بيَّن جزاءهم في الدنيا بيَّن جزاءَهم في الأخرىٰ، فقال: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾، وإنما غيَّر صيغة النَّظْم للإيذان بكمال الفرق بين الجزاءين، ثم ختم السياق بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾، وفيه غاية التَّهديد والوعيد.

ثم أكَّد الوعيد الشديد، وبيَّن السبب العام بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: جعلوا حظوظهم من الحياة الدنيا بدلاً من الآخرة، بما فرَّطوا في جَنْب الله، وأهملوا من شريعته، حتىٰ لم يتَّبعوا منها إلا ما يوافق أهواءهم، ولا يُعارض شهواتهم، ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ كناية عن التَّيئيس من النَّجاة. أعاذنا الله.

وأحكامُ القرآن لا تقتصر علىٰ مَنْ تنزل فيه، بل تعمُّ كل مَنْ تصدق عليه، والمسلمون إذا قاتلوا إخوانهم في الدين ـ منفردين أو مع الأجانب ـ يشملهم هذا التأنيب والوعيد.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

ثم شَرَع في بيان جنايةٍ أخرىٰ من جناياتهم، وصدَّر الكلام بالجملة القَسَمِية لإظهار كمال الاعتناء به، وللإشارة إلىٰ أنَّ محمداً لم يكن أول نبيٍّ أُرسِلَ حتىٰ تنكروا أمره هذا الإنكار، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾، وهم يُوشَعُ وشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا وعُزير وحزقيل وإلياس واليسع وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ وغيرهم[1]، عليهم الصلاة والسلام، وكلهم جاؤوا لتنفيذ أحكام التوراة من دون نَسْخ، إلا عيسىٰ فقد نسخ بإنجيله بعضَ أحكامها، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، وهو الوحيُ الذي يُؤيِّد الله به الأنبياء، وهو المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، وإضافة «الرُّوح» إلىٰ «القُدس» من إضافة الموصوف إلىٰ الصفة لإفادة المبالغة في الاختصاص، وهي مثل مسجد الجامع، وحق اليقين، وما شابه ذلك.

ثم عقَّب هذا بموقفهم تجاه إرسال الأنبياء إليهم، مسبوكاً علىٰ توبيخهم وتقريعهم بمعاملاتهم الفظيعة الشنعاء معهم، فقال: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ كزكريا ويحيىٰ. والإتيانُ بالمضارع لاستحضار صورة القتل الفظيع في ذهن السامع، وذلك من البلاغة العالية. ولا يخفىٰ ما في قوله: ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ من النقد اللاذع الشنيع. وإدماجُ المساوئ في الاستفهام التوبيخي ـ مفاجأةً للنفوس بقوة التَّشنيع والتقبيح ـ هو من أساليب القرآن، (كما جاء في المادة الرابعة عشرة من المقدمة الثانية). وتقديمُ المفعول للتشويق إلىٰ الحكم.

---

(١) بعض من ذكرهم المؤلف وعدَّهم في الأنبياء لم يرد في إثبات نبوَّتهم نصٌّ من القرآن أو السنَّة الصحيحة، وإنما ورد ذلك في أخبار أهل الكتاب، فلا يُجزَم بنبوَّتهم.

وبعد أن ذكر لهم تلك القبائحَ المُوجبةَ للإعراض عنهم، وحكايةِ حالهم لغيرهم، التفتَ من الخطاب إلىٰ الغيبة، وذكر ما كانوا يعتذرون به عن عدم إيمانهم بالكتاب، واهتدائهم به، فقال:

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ﴾[1]، والأغلف: ما يلفُّه الغلاف، ومرادهم: إننا لا نعقل قولك، ولا يَنْفُذُ إلىٰ قلوبنا مفهوم دعوتك، وقد ردَّ الله تعالىٰ عليهم بقوله: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، أي: إنَّ قلوبهم ليست غُلفاً لا تفهم الحقَّ بطبعها وأصل خِلْقتها، وإنَّما أبعدهم الله تعالىٰ من رحمته بسَببِ كفرهم بالأنبياء السابقين، وبالكتاب الذي تركوا العملَ به وحرَّفوه اتِّباعاً لأهوائهم، لأنَّ التَّمادي علىٰ الإعراض والكفر يُفسِدُ الطبيعة، فيحجب القلب عن نور الحقِّ، ويعمي البصيرة، ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾. والقلَّة لا يكون لها سلطان علىٰ القلوب، و﴿مَّا﴾ مزيدة للمبالغة في القلّة.

وفي الآية إيماء لحقيقة طبيعة الإنسان، وهي أنَّ فطرتَه سالمةٌ من كلِّ خلل، ولكنها تفسد بمفاسد التربية وسوء القدوة.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ

---

(١) قال أرسطو: لا ينفع الدليل وإن كان قاطعاً مع محاولة العناد، ولا ينفع البرهان وإن كان قوياً مع فساد التصوُّر، ولا ينفع الحديث وإن كان شافياً مع سوء الاستماع، ولا تنفع البيِّنة علىٰ الباطل مع الإلف والعادة له. (المؤلف).

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

ثمَّ ذكر لهم هذه الجناية الكبرىٰ والخيانة العظمىٰ، وهي الغرضُ الأساسي من سَرْد هذه القصص، والغايةُ القصوىٰ منها، وذلك أنهم كانوا أولَ كافر بهذا الكتاب، مع أنَّ الواجب يَقْضي عليهم بأن يكونوا أوَّلَ مؤمن به، فعادَ بالسياق إلىٰ ما بدأه به، فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، و«الاستفتاح» معناه: طلب الفَتْح، وهو الفَصْل في الشيء والحكم فيه، ويُستعمل بمعنىٰ النصر؛ لأنه فَصْل بين المتحاربين. وكانت اليهود تستفتح علىٰ مُشْركي العرب بالنبيِّ المُنْتَظر، يقولون: إنه سيظهر فينصر كتابُه التوحيدَ الذي نحن عليه، ويخذل الوثنيَّةَ التي تنتحلونها ويُبطلها، فيكون مُؤيِّداً لدين موسىٰ.

روىٰ محمد بن إسحاق عن أشياخ من الأنصار: أنَّ هذا نزل فيهم وفي يهود المدينة قالوا: كنا قد عَلَوْناهم قهراً في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، وهم يقولون: إنَّ نبياً سيبعث الآن نتبعه، قد ظلَّ زمانه، نقتُلكم معه قَتْلَ عادٍ وإرم[1].

ثم عطف بقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾، وذلك لكونه بُعث من العرب، فحملهم الحسد علىٰ الكفر بما جاء به، جُحُوداً وبَغْياً، فسجَّل عليهم بقوله: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾، ولم يقل: «عليهم»؛ ليكون الكلام حُكماً عاماً علىٰ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢: ٣٣٢- ٣٣٣).

كلِّ مَنْ كفر، بحيث يشمل مدلولَ الضمير وغيرَه، علىٰ نهج القرآن في مثله، وللإيماء إلىٰ أنَّ لَعْنَهم بسبب كفرهم.

ثم قبَّح شأنهم مُلمعاً إلىٰ أنه لا سبب لعنادهم إلا الحسد، فقال: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، و﴿ٱشْتَرَوْا۟﴾ بمعنىٰ «باعوا». وذكر ابن جرير: أنَّ «اشتروا» بمعنىٰ «ابتاعوا»[1]، والمعنىٰ: أنهم يزعمون قد أنقذوا أنفسهم بما فعلوا، فيكون تهكُّماً بهم. وقوله: ﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ تعليلٌ للكفر لا لشرائهم[2]، و«البغيُ»: الحسد، والطلب لما لا حقَّ له فيه، والمراد: إنكارهم الوحي إلىٰ محمد ﷺ حَسَداً له لأنه ليس من بني إسرائيل.

﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ لأنهم اسْتَوجبوا غضباً حديثاً بالكفر بالنبيِّ ﷺ، فوق ذلك الغضب الذي لحقهم من قبلُ بإعنات موسىٰ عليه السلام والكفر به، وهو الذي ذكره سبحانه سابقاً بقوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١].

وبعد أن سجَّل عليهم عذاب الدنيا توعَّدهم بعذاب الآخرة، فقال: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ أي: مقرونٌ بالإهانة والذل، مقابل تكبُّرهم علىٰ الحق. ويجوز أن يكون هذا عاماً لعذاب الدنيا والآخرة معاً، فيكون تذييلاً لما قبله، وإنما لم يقل: «ولهم» لِمَا في المُظْهَر من بيان التعليل بالوصف، وليكون الكلام حكماً عاماً يشمل مدلول الضمير وغيره. وذلك من سَنَنِ القرآن في كثير من الفواصل.

ثم ذكر اعتذاراً لهم وقرنه بالردِّ والإبطال، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ

---

(١) «تفسير الطبري» (٢: ٣٤٠).

(٢) ضمَّن ﴿بَغْيًا﴾ معنىٰ كرهاً، فعدَّاها تعديتها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. (المؤلف).

﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: من الكتب الإلٰهيَّـة، فذكر العامَّ وأراد به الخاصَّ، وهو القرآن. وإنما سلك هذا المَسْلك وأتىٰ بهذا التعبير، إيذاناً بتحتُّم الإيمان به من حيث مشاركته لما آمنوا به من قبلُ في الإنزال من الله، وموافقته له في المضمون، وتنبيهاً علىٰ أنَّ الإيمان بما عَـدَاه مما أنزل الله من غير إيمان به ليس بإيمان بما أنزل الله. ولذلك شنَّع عليهم بقوله: ﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعنونَ به التوراة، ويدسُّون أنهم غير مُلزمين بالإيمان بغيره، أو أنهم لا يثقون إلا به أنه من عند الله، كما حكىٰ عنهم سبحانه بقوله: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة، فيلزمهم من الكُفر به الكفرُ بما آمنوا به، لأن الكفرَ بما يماثل الشيء ويصدِّقه كفرٌ بذلك الشيء[1].

قال في «المنار»: صيغة الدعوة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، تُشْعِرُ بوجوب الإيمان بما أنزل الله تعالىٰ، لأنه هو الذي أنزله، لا لأنَّ المنزَّل عليه فلان أو فلان، ولذلك لم يقل: آمنوا بما أنزل علىٰ محمد ﷺ، فإنَّ ما أنزل [لو أنزل] علىٰ غيره لوجب الإيمان به؛ لأنَّ الوحي هو المقصود بالذات، والأنبياء إنما هم مُبلِّغون، فتقييدُ الخضوع لوحي الله ـ بكونه لا بدَّ أن يكون مُنزَّلاً علىٰ شخص من شَعْبِ كذا ـ تحكُّمٌ علىٰ الله، وقضاءٌ عليه بأن تكون رحمتُه مقيَّدة بأهواء فريق من خلقه، فإيرادُ الدعوة بما ذكر من الإطلاق، مع إيراد الجواب مقيَّداً بقيد: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، يُشعر بقوَّة حُجَّة الدعوة، ووَهْن ما بُني عليه الجواب من الشبهة[2].

---

(١) والآية تشعر بأنَّ الله سبحانه إذا جدَّد شريعة يجب علىٰ البشر كلِّه أن يؤمن بها. وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٨١]. (المؤلف).

(٢) تفسير «المنار» (١: ٣١٧) وما بين معكوفين منه.

وبعد أن بكَّتهم[1] ببيان التناقض في أقوالهم، بكَّتهم ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم، فقال: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ بما أُنزِلَ عليكم، فالقتل للأنبياء ينافي الإيمان ويناقض الادِّعاء به، وما قيمة الدعوىٰ إذا كذَّبها العمل؟

ثم سَرَدَ عدَّة أعمال لهم تناقض دعواهم الإيمانَ بما أنزل عليهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات الظاهرة والأحكام الباهرة، ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ أي: في اتِّخاذكم العجل إلهاً بعد تلك المعجزات. وأيُّ ظلم أعظم من هذا الشرك المشين بعد بيان الحق المبين؟! وأين إيمانكم بما أُنزِلَ عليكم؟!

وقد سبق التذكير باتِّخاذ العجل في سياق آخر، وهو أنَّ النِّعم التي أسْبَغَها الله تعالىٰ علىٰ بني إسرائيل لم يكن لها من شكرٍ عندهم إلا اتِّخاذُ عجل يعبدونه من دون الله. وهاهنا يقول: إنَّ هذا العمل يناقض دعواكم الإيمان، وإنَّ الآيات البيِّنات الدالَّة علىٰ النبوَّة والوحدانيَّة لم تزدكم إلا إيغالاً في الشِّرك وانهماكاً في الوثنية.

وهكذا تتكرَّر القصص أو النُّبَذ منها في القرآن، ولكلِّ مرة سياقٌ وأسلوبٌ وغرضٌ غير الأول، كما في الآية الآتية أيضاً.

ثم تابع الكلام عن أعمالهم التي تناقض دعوىٰ إيمانهم بما أنزل إليهم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ قائلين: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ أي: مما أُمِرتُم به في التوراة، ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بكلِّ جهدكم دون تقصير، ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ أي:

---

(١) بكَّته تبكيتاً: إذا قرَّعه بالعذْل تقريعاً. «لسان العرب» (بكت).

ما فيها، سماعَ فَهْم وتدبُّر، وسماعَ طاعةٍ وقَبول. وقد سبق الكلام عن رفع الطُّور فارجع إليه.

ثم التفت عن الخطاب إلىٰ الغيبة إبعاداً أو تهجيناً لهم، لإعراضهم عن ذلك، فقال: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وليس المراد أنهم نطقوا بهاتين الكلمتين، ولكن المراد أنهم فهموا الميثاق ولم يعملوا به، ففيه تجوُّز بالقول عن الفعل، وهو من خصائص اللغة وأساليب القرآن[1]. فهذا القول مثال آخر للتناقض بين أقوالهم وأفعالهم.

وهذه القصَّة قد تكرَّرت أيضاً كما تكرَّرت سابقتها علىٰ نهج تكرار القصص في القرآن، ولكنْ لكلِّ مرة سياقٌ وأسلوبٌ ونَظْمٌ خاصّ وغَرَضٌ جديد، (كما جاء في المادة الثانية عشرة من المقدِّمة الثانية).

وبعد أن سَجَّل عليهم هذه المعَانَدة بهذه الصُّورة الشنيعة، كرَّ إلىٰ بيان حالة العَجْل بصورةٍ تشبهها في بيان فساد طبيعتهم، ليجمع بينهما في شدَّة المخالفة، فقال: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[2]، ويجوز أن يكون هذا في موضوع التعليل لما تضمنَّه قولهم: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، أي: إن تشبُّعَهم بالكفر يمنعهم من الطاعة

---

(١) هذا محتمل، لكن الأظهر أنهم نطقوا بذلك حقيقةً، فهو المعنىٰ الظاهر من لفظ الآية الكريمة، ولا قرينةَ تقتضي العدول عنه.

(٢) تكرَّر في هذا السياق ذكر اتِّخاذ العجْل ورفع الطور، فذُكرا في السابق تأنيباً لهم علىٰ تعقيب النعم بالكفران، وذُكرا هنا رداً لدعواهم الإيمان بما أنزل عليهم. ومحصَّل الكلام: أن لا صحَّة للدعوىٰ إذا كذَّبها الظاهر ولا قيمة لها، فهو نقض لجوابهم، وإن كان منقوضاً بطبيعته، لأن طلب الإيمان بما أنزل الله لا يتحقَّق بالإيمان بما نَسَخه الله، فضلاً عن أن دعوىٰ الإيمان به قبل نسخه كان غير صحيح، إذ يناقضه العمل. والتأنيب مُوَجَّه إلىٰ مجموع بني إسرائيل لا إلىٰ جميعهم، بدليل ما سبق من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ....﴾ [البقرة: ٦٢]. ومثل ذلك من خصائص اللغة وعُرف التخاطب. (المؤلف).

والإيمان. وهذه الاستعارة من فرائد الاستعارات، فإنه استعار لهذه الحالة حالةَ الثوب عند ما يتشرَّب بالصبغ لا يزول منه.

والمعنىٰ: أنَّ مَيْلهم لعبادة العجل كان شديداً، لِـمَا كانوا عليه من الوثنية في مصر، فقد رَسَخ ذلك في قلوبهم بطول الزمن، وَوَرِثَـهُ الأبناء عن الآباء. ولا شك أنَّ مَيْل اليهود للوثنيَّة متأصِّل فيهم لطول ما خضعوا للأمم الوثنيَّة في تاريخ حياتهم.

ثم صرَّح بتفنيد ادِّعائهم الإيمان، بصورة تهكميَّة بديعة، فقال: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ أي: بئسما يأمركم به ذلك الإيمان، من الأعمال التي منها عبادةُ العجل وقَتْلُ الأنبياء، ومُحصَّلُهُ: إنَّ دعواكم الإيمان ليس لها ظلٌّ من الحقيقة، إذ يكذِّبها العمل.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

ثم انتقل إلىٰ تبكيت آخر لدعوىٰ من دعاويهم الباطلة مفنِّداً لها، وهي أنهم شعبُ الله الخاص، ولهم الجنَّة دون سواهم، ولن تمسَّهم النار إلا أياماً معدودات، فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: في دعواكم أنه لن يدخل الجنَّـة إلا من كان هُـوداً، وأنكم شعبُ الله المختار فلن تمسَّكم النار إلا أياماً معدودات. أي: إن كنتم تتيقَّنون أنَّ الآخرة خُلقت لكم لتتنعَّموا بها؛ فتمنَّوا الموت الذي يُوصلكم إلىٰ ذلك النعيم الذي لا مُزاحِمَ لكم فيه، إذ لا يُعقَلُ أن يرغب الإنسان عن السعادة ويختار الشقاء عليها.

والغرض من هذه الحجة: إظهار كذبهم بطريق التَّحدِّي، وهي حُجَّة عليهم في أنفسهم، وليست حُجَّة إلزامية لهم أمام الناس، علىٰ أنه يجوز أن تكون إلزاماً ظاهراً بعدم هذا الإيمان، لأنَّ مَنْ يثق بأن سعادة الآخرة سينالها لا مَحَالة، يرغب بالموت، ولا أقلَّ من أن يكون ذلك وقت الاحتضار، والله أعلم.

وقد روي عن كثير من الصحابة رضي الله عنه تَمَنِّي الموت عند القتال، وإقدامُهم العجيب طلباً للشهادة، وما ذلك إلا لصدق إيمانهم بما أعدَّ الله للمؤمنين في الدار الآخرة. وهكذا تكون درجةُ عدم الجَزَع من الموت بنسبة درجة الإيمان الصحيح والأعمال الصالحة، ودرجةُ الجزع بعكسها.

وقال الأستاذ الإمام: إنَّ الكلام حُجَّة علىٰ مُدَّعي الإيمان، واستحقاقَ ما أعدَّه الله لأهله في الآخرة، تُقنعُهم في أنفسهم بأنهم إما صادقون في دعواهم، وذلك إذا كانوا يتمنَّون في أنفسهم الموت والوصول إلىٰ الدار الآخرة، ويبذلون أرواحهم في سبيل الله بارتياح، إذا كان حفظُ الحقِّ يقتضي بَذْلَها، وإما كاذبون فيها، وذلك إذا كانوا شديدي الحِرص علىٰ هذه الحياة، وليس المراد به الحجّةَ الإلزاميةَ أمام الناس، ولذلك كانت العبرة في الآية عامة، فهي وإن كانت واردةً في سياق الاحتجاج علىٰ اليهود، يجب علىٰ المسلمين أن يتَّخذوها ميزاناً ليقينهم، لأن الله سبحانه أنزلها لذلك[1].

ثم عقَّب نهجَ إلزامهم بالتَّحدِّي لهم، بنهج التسجيل عليهم بضدِّه، علىٰ أسلوب القرآن في مثل ذلك (كما جاء في الفقرة (د) و(هـ) من المادة الرابعة من المقدِّمة الثانية)، فقال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، وصورة هذا التسجيل تُؤيِّد ما قاله الأستاذ الإمام من أنَّ قوله تعالىٰ: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ حُجَّة عليهم في أنفسهم، لا حُجَّة

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٢٢).

إلزامية أمام الناس، فإنَّ هذا التعليل صريح بأنَّ المانع لهم من تمنِّي الموت هو ما يعرفونه في أنفسهم من أنهم عاصون مقترفون للذنوب.

وقد أسند الفعل إلىٰ الأيدي لأنَّ أكثر الأعمال تُزاوَل بها، حتىٰ أصبح هذا التعبير كنايةً عن الإجرام، في عُرْفِ اللغة، ومعناه: بما قدَّموه من عمل سَيِّئ.

ثم قرَّر مضمون هذا التسجيل، بتذييل متضمِّن للتهديد، فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: في أمورهم التي من جملتها ادِّعاءُ ما ليس لهم، ونفيُه عن غيرهم. أو عليم بالظالمين الذين يستحقّون العذاب.

ثم أكَّد المضمون السابق، وهو عدمُ الارتياح للآخرة، مبالغةً في تكذيبهم، أكَّده ببيان حالهم وشدَّة حرصهم علىٰ الحياة، فقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾، والتنكير للتحقير، أي: وإن كانت في بُؤْس وشقاء، وبهذه المناسبة ذَكَرَ طائفةً من المشركين تُشْبِهُهُم في ذلك فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾، قال أبو مسلم: في الكلام تقديم وتأخير. والتقدير: ولتجدنَّهم وطائفةً من الذين أشركوا أحرَصَ الناس علىٰ حياة. والجمهور علىٰ أن قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ لبيان قسم من المفضَّل عليهم في هذه الخاصَّة، خصَّهم بالذكر بعد العموم، لأنهم عُرفوا بشدَّة الحرص علىٰ الحياة وتمنِّي طول البقاء في الدنيا، حيث لا يؤمنون بحياةٍ بعدها، وعليه فالجارُّ متعلق بـ﴿أَحْرَصَ﴾.

فمعنىٰ الآية: إنك لتجد اليهود أحرصَ علىٰ الحياة من جميع الناس، حتىٰ من الذين أشركوا.

ثم استأنف الكلام لبيان هذا الحرص الشديد، فقال: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ـ ولفظ «الألف» في عرف اللغة يُعبَّر به عن المبالغة في الكَثْرة ـ وإنما يودُّ ذلك لأنه يعرف من نفسه أنه مخالف لكتابه، ويتوقَّع سخط الله وعقابه في الآخرة، فيتمنَّىٰ لو

امتدَّت له الدنيا وعُمِّر فيها، ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾، يُسَفِّه رأيهم في هذه الأمنية. أي: وما تعميرُه الطويل بمُبعدِهِ عن العذاب المُعَدِّ له، وكل آتٍ قريب.

واختار الأستاذ الإمام أنَّ الضمير في قوله: ﴿وَمَا هُوَ﴾، مُبهَمٌ يفسِّره ما بعده[1]. أي: التعمير. وأكثر المفسِّرين على أنه للشأن أو لـ«أحدهم» في قوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾.

ثم ذيَّل الكلام بهذا التهديد، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾، والبصير في كلام العرب: العالِمُ بكُنْه الشيء، الخبيرُ به. أي: إن الله سبحانه عليمٌ بخفيَّات أمورهم، فهو مُجازيهم بها لا محالة.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

ثم ذكر تَعِلَّةً أخرىٰ من تعلَّاتهم واعتذارهم عن عدم الإيمان بالنبيِّ ﷺ وبما جاء به من البيِّنات والهدىٰ، وهي أنَّ جبريل الذي ينزل بالوحي على النبي ﷺ عدوٌّ لهم، لأنه كان قد أنذرهم بخراب بيت المقدس، فلا يؤمنون بوحيٍ يجيء هو به. فَفَنَّدها سبحانه وَرَدَّها عليهم وسَفَّه رأيهم بقوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

ومعنىٰ الرد: أنَّ القرآن مُنَزَّل من عند الله لا من عنده، فليست عداوته مُسَوِّغةً

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٢٣).

لنُكران ما نزل به من عند الله، كيف وقد نزل ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب السماويَّة التي تقدَّمته، ومنها التوراة، فهو من طبيعتها ونمطها، وهذه حُجَّةٌ ثانية عزَّزها بثالثة، فقال: ﴿وَهُدًى﴾ أي: من الضلالات والبدع التي طرأت على الأديان، فألقَتْ أهلَها في حضيض الهوان، ويهدي المؤمنين إلى ما يُصلح شأنَهم في الدارين، ثم أيَّدها برابعة، فقال: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

وخلاصة الردود: إنكم إذا كنتم تعادون جبريل لأنه قد أنذر بخراب بيت المقدس، فهو إنما أنذر المفسدين، وقد أُنزِلَ هذا القرآن من عند الله هُدىً وبشرىٰ للمؤمنين، فما لكم أن تتركوا هذه البشرىٰ وهذه الهداية بهذا الكتاب المُصَدِّق لكتابكم والمنزَّل بإذن الله، إن كنتم مؤمنين، ما لكم أن تتركوه لأنَّ الذي نَزَل به نَزَل بإنذار أهل الفساد، فهذا غير مُسْتَوجِب للترك ولا مُجيز له ولا مُسوِّغ.

وبعبارة أخرىٰ: إنه لا وجه لمعاداته، بل تجبُ محبَّتُه، فإنه نزَّل عليك كتاباً مُصدِّقاً لكتبهم هادياً لشرائعهَا، يُبشِّر العاملين بها بالجنَّة، فلا جَرَم أنَّ معاداتِهِ خلافُ الحقِّ والإنصاف، بل هو السَّفَه والاعتساف، لا منطق فيه ولا تعقُّل.

وهذه التَّعِلَّةُ هي أشدُّ هُراءً وخطلاً من التَّعِلَّتين السابقتين اللتين ذكرهما وردَّهما عليهم، وهما قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١]، وقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨]. وإنما ذكر القرآن هذه التَّعلَّة الثالثة مع شدَّة هرائها وخَطَلها؛ لأنها أفظَعُ مما سبق في الإيذان بشدَّة تعنُّتهم وعِنَادِهم، وأفضَحُ لسخافتهم وهَوَجهم.

وبعد أن أقام الحجج على حماقتهم وسخفهم في دعوىٰ عداوة جبريل، بيَّن حقيقة حالهم في هذه العداوة؛ مُلْمِعاً إلى أنها مُسْتَتْبِعة بحكم الاستلزام لعداوة جميع الملائكة، تلك العداوة الموجبة لعداوة الله، وذلك كفرٌ مُوجب لعذاب الله، وصدَّر

الكلام بعداوة الله إيذاناً بأن عداوتَه عداوتُهم، ويجوز أن يكون نزَّل كفرهم بما أنزل الله بمنزلة العداوة لله، وتوعَّدهم علىٰ كلِّ ذلك بطريقة المشاكلة، فقال: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ أي: بكفره بما يُنزل من الهداية، ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ أي: برفض الحقِّ والخير الذي فُطروا عليه، وكراهة قيامهم بما يَعهَدُ به إليهم ربُّهم عزَّ وجل، وهم لا يَعْصُون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: بتكذيب بعضٍ وقَتْل بعضٍ، ﴿وَجِبْرِيلَ﴾ لأنه يَنْزل بالآيات والنُّذُر.

وقوله: ﴿وَمِيكَىٰلَ﴾ إنما ذُكر علىٰ وجه التكميل والاستلزام، وذلك لأنهم يزعمون أنهم يُحِبُّونه وأنهم كانوا يؤمنون بالنَّبيِّ ﷺ لو كان هو الذي ينزل بالوحي عليه، فأشار سبحانه أنَّ مَنْ كان عدواً لجبريل فإنه عدوٌّ لميكال أيضاً؛ لأنَّ فطرتهما واحدة، فمن عَادَاها في أحدهما فقد عاداها في الآخر، وبيَّن أنَّ مَنْ عادىٰ الله سبحانه وعادىٰ هؤلاء المقرَّبين عنده الذين جعلهم رحمةً لخلقه بنقل رحمةِ الله وتعاليمه إليهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾، أي: فإنَّ الله عدوٌّ له؛ لأنه كافر بالله ومُعَادٍ له، والله عدوٌّ للكافرين. فإقامة الـمُظْهَر مقام المُضْمَر، لبيان أنَّ سبب عداوة الله لهم إنما هو الكفر، فإنَّ الله سبحانه لا يُعادي قوماً لذواتهم ولا لأنسابهم، وإنما يكره لهم الكفر ويُعاقبهم عليه معاقبة العدو للعدو.

قال الأستاذ الإمام: هذا وعيدٌ لهم بعد بيان فساد العلَّة التي جاؤوا بها، وهم لم يدَّعوا عداوةَ هؤلاء كلِّهم، ولكنهم كذلك حسب الاستلزام وفي نفس الأمر، فأراد أن يبيِّن حقيقة حالهم في الواقع، وهي أنهم أعداءُ الحقِّ وأعداءُ كل من يُمثِّله وينقله ويدعو إليه، فالتَّصريح بعداوة جبريل كالتَّصريح بعداوة ميكال الذي يزعمون أنهم يحبُّونه، وأنهم كانوا يؤمنون بالنبي ﷺ لو كان هو الذي ينزل بالوحي عليه، ومُعَاداة القرآن كمعاداة سائر الكتب الإلٰهيَّة؛ لأن الغرض من الجميع واحد، ومُعَادَاةُ محمد ﷺ كمُعَادَاة

سائر رسلِ الله؛ لأنَّ وظيفتهم واحدة. فقولهم السابق وحالُهم يدلَّان علىٰ مُعَاداة كل مَنْ ذُكِرَ، وهذا من ضروب إيجاز القرآن التي انفرد بها[١].

ثم قال في «المنار»: قد تقدَّم غيرَ مرة أنَّ عذاب الله وانتقامَه من الكَفَرة الفَجَرة لا يشبه انتقام ملوك الدنيا وزعمائها، وإنما قَضَت سُنَّته تعالىٰ بأن يكون لكلِّ عمل يعمله الإنسان في ظاهره أو في نفسه وضميره أثرٌ في نفس العامل يُزكِّيها أو يُدسِّيها، وسعادةُ الإنسان في الآخرة وشقاؤه تابعٌ لآثار اعتقاداته وأعماله في نفسه. ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦][٢].

ثم نوَّه بشأن ما سبق بيانُه، وأنه حقٌّ ثابت وقولٌ صادق، ببيان أن القرآن منزلٌ من عند الله، وكل ما جاء فيه حقٌّ ثابتٌ، وأنه في نفسه آيات بيِّنات، وما يكفر بها إلا الفاسقون الذين خرجوا من نور الفطرة وانغمسوا في ظلمات التقليد، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾، أي: الذين خرجوا عن هداية الفطرة، وانطبعوا علىٰ الضلال بتقليد الضَّالِّين، مثل هؤلاء الكفرة المتمردين.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ معارضتهم ومعاداتِهم لرسول الله ﷺ نَبْذٌ للعهد الذي أخذه الله عليهم في التوراة أن يؤمنوا بهذا الرسول إذا جاء، ونَبْذٌ للعهود التي أخذها عليهم رسول الله ﷺ حين قَدِمَ المدينة أن لا يفسدوا عليه، وأن لا يكونوا مع أعدائه المشركين، ولكنَّهم نقضوا تلك العهود، وأوْغَلوا في العِنَاد، ونَهَجوا معه منهج أسلافهم مع سليمان عليه السلام في شدَّة التَّضليل والمشاغبات، حسب دَيْدَنهم المعهود في الفساد، وشرح ذلك شرحاً جلياً، فقال: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾،

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٢٥).

(٢) المصدر السابق (١: ٣٢٦).

والمراد بالعهود هنا: عهودهم للنبيِّ ﷺ، ولما كان لفظ «فريق» يُوهم العدد القليل، وكان الواقع أن الذين كانوا يَرَونَ الوفاء له ﷺ قليلون، وأنَّ الناقضين هم الأكثرون؛ أضرَبَ عنه، وقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾، فهم لا أيمان ولا عهودَ لهم لأنهم لا إيمان لهم.

ولما كان هذا شأنهم نبذوا كتاب الله تعالىٰ كما قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وهو التوراة، ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهم اليهود ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ وهو التوراة التي يفاخرون بها ويحتجُّون بأنهم مكتفون بهدايتها؛ نَبَذوها ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾، أي: ولم يعملوا بما فيها من البشارةِ بالنبيِّ ﷺ والأمرِ باتِّباعه، ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ ذلك فيها، وهذه الشناعةُ هي علَّةُ جميع ما صَدَر عنهم من الشناعات في مُعاداة النبي ﷺ ومُجَاحَدته. «نَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ» مَثَلٌ يُضرب للترك والإعراض عن الشيء.

قال الأستاذ الإمام: ليس المراد بنَبْذِ الكتاب وراءَ ظهورهم: أنَّهم طرحوا التوراة برمَّته، وتركوا التَّصديق به في جملته وتفصيله، وإنما المراد أنهم طَرَحوا جزءاً منه، وهو ما يُبشِّر بالنبيِّ ﷺ ويُبيِّن صفاته، ويأمرهم بالإيمان به واتِّباعه، فهو تشبيه لتركهم إياه وإنكارهم له، بمن يُلقِي الشيءَ وراءَ ظهره حتىٰ لا يراه فيتذكره، وتَرْكُ الجزء منه كتركه كلِّه، لأنَّ ترك البعض يَذهَبُ بحُرْمة الوحي من النفس، ويُجرِّئ علىٰ ترك الباقي.

ولا فرق في هذا الحكم بين اليهود والنصارىٰ، فكلٌّ منهما مُبشَّر بالنَّبيِّ ﷺ في كتابه، وكلٌّ منهما قد نَبَذَ الكتاب فلم يعمل به في ذلك[1]. فاليهود نَبذوا كتابَ الله المُبشِّرَ بنبوَّة محمد ﷺ والآمِرَ لهم باتِّباعه ونَصْره.

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٢٨).

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: اتَّبعوا دقائقَ الخبائث في تشكيك الناس في أمر النبيِّ ﷺ والمشاغبات ضدَّه، كما كانت تُلقي وتَنشُرُ شياطينُ الإنس المتآمرة الهدَّامة في عهد مُلكِ سليمان ونبوَّته، ومن ذلك أنهم كانوا يقولون: إنَّ ملك سليمان قائمٌ علىٰ أساس السحر والطلسمات، وليس بنبوَّة قائمة علىٰ أساس الوحي والمعجزات.

فردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾، أي: لم يكن أمره قائماً علىٰ سحر وخُزَعْبِلات، بل علىٰ وحيٍ ومعجزات، وكيف يكون تكليمُ الطيور والنمل وتسخيرُ الجنِّ والريح خُزَعبِلات، كلا، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ بتلك المعجزات، وأخذوا يُشاغبون و﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ أي: الإفكَ والمشاغباتِ ودقائقَ الخبائث والمخاتلات، لينشروا ذلك بين أصحابهم، ويصدُّوهم عن دين سليمان عليه السلام.

وقد جاء في تاريخ ملك سليمان: أنه لما عَظُم أمرُه اسْتراب مَلِكُ بابل الذي كانت له مطامع في سورية وفلسطين، وحلَّ منه الجزع محلَّ الطمع، فأوفد إلىٰ بيت

المقدس شخصين من دُهاة بطانته، يحملان من التعاليم في المشاغبات ما يُفْسدان به علىٰ سليمان ملكَه ومقامَه، فاعتنقا اليهودية وأظهرا الزهد في الدنيا والتقشُّف في العيش باسم الدين، فالتفَّ حولهما الناس، واتَّخذا من بينهم دعاةً أخذوا يَسْتَهوون الرأيَ العام، ويُفسِدون الأفكار، ويُوغرون الصُّدور علىٰ سُليمان، بما يُوسوسون به للناس من البَوْن الشاسع بين ما هم عليه من التقشُّف الذي يَسْتدعيه الدين بزعمهم، وبين ما عليه سليمان من أُبَّهة الملك ورَغَد العيش، ونسبوا استخدامه للقوىٰ الطبيعية والجن إلىٰ السحر والطلسمات، وربما رَمَوه بالكفر، زاعمين أنَّ في نسائه وثنيات.

وكان الرأيُ العام يعتقد أنَّ هذين الشخصين مَلَكان، أو رجلان زاهدان تقيان كالمَلَكين، والعُرْفُ يطلق اسمَ المَلَكِ علىٰ الصَّالح، فكان يعتقد العامة قد أُنيطَ بهما أو أنزل الله عليهما في بابل هذه التعاليم ليبيِّنا للناس أمر سليمان وحقيقة شأنه، فقاما ينشران ذلك في البلدان.

وقد أَنَّبهم سبحانه وتعالىٰ علىٰ هذا الاعتقاد الفاسد والنشر والاتِّباع له، واصفاً هذين الشخصين بما يدَّعيانه أو يصفهما به الناس، فقال: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾[1]، أي: واتَّبعوا مُشَاغَباتِ وإفسادات هذين الشخصين

---

(١) يجوز أن تكون (ما) في قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ نافية، والجملة معطوفة علىٰ قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾، ومفادها: نفيُ ما يتقوَّلونه من أن هذه التعاليم الخبيثة التي تُتلىٰ عليهم من جانب شياطينهم، إنها تعاليم منزلة من عند الله علىٰ الملكين ببابل لينشراها بين الناس.
ثم خصَّ بالذكر من بين أولئك الشياطين: الناشرَين لهاتيك التعاليم الخبيثة، هاروت وماروت؛ ليبيِّن أنهما اللذان يُذيعان تلك التقوُّلات، وليذكر شدَّة خبث تعاليمها، وأنها تفكُّ أقوىٰ الروابط فتفرِّق بين المرءِ وزوجه والأخ من أخيه، كما تفعل المبادئ الهدَّامة من العداوة والبغضاء بين الأقارب والأصدقاء في شأن اعتناقها والأخذ بها ونشرها بين الناس. =

المتبوعَين اللذين يَدَّعيان أنهما مَلَـكَان، أو يعتقد الناس فيهما أنهما مَلَـكان أو رجلان صالحان كالمَلَـكين، أُنزل عليهما هذه التعاليم ببابل، ليكشفا أمر سليمان وخُزعبلاته للناس.

وذُكر عن الحسن البصـري أنه كان يقول: إنهمـا عِلْجان من أهل بابـل[1]. وعلىٰ هذا يكون التعبير بالإنـزال والوصف بالـمَلَـكين جاء[2] تـماشياً مع زَعْمِهم

---

= وبعبارة أخرىٰ: يجوز أن تكون (ما) نافيةً نَفَىٰ بها الإنزال والملكيَّـة معاً، ثمَّ استأنف الكلام ونصب ﴿هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ علىٰ التَّبيين والتَّحذير، علىٰ حدِّ قولهم: المحتال والخدَّاع، ويقرب منه قوله تعالىٰ: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا﴾ [الشمس: ١٣]، ثم شرح حالهما في المشاغبات السِّحريَّة وابتدأ بأنهما لا يُلقِّنان مبدأهما لمن طَلَب الدخول فيه، ولا يُظْهرانه علىٰ أسرار جمعيتهما حتىٰ يأخذا عليه العهد بأن يهتمَّ فيه بقوة، وأن لا يرتدَّ عنه بعد الدخول فيه، فإن كفر به بعد ذلك ابتُلي ابتلاءً شديداً، ويلقنان أعوانهمـا خبائثَ المشاغَبات علىٰ سُليمـان التي تُفرِّق أمتن الروابط، وتُوهي أقوىٰ العقائد، يبثُّونها في الناس فيفرِّقون بين الوالد وولده، والأخ وأخيه، والزوج وزوجه، وينشرون العداوةَ والبغضاء في المجتمع، كمـا تفعل سائر المبادئ الخبيثة بين الناس، فيتفرَّقون في أمرها قبولاً ورفضاً ومقاومةً وتأييداً. هذا رأيي في الآيات، والله أعلم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾ علىٰ تقدير النفي: بعد أن نفىٰ لهم هذا الاعتقاد الفاسد؛ من أن هذه التعاليم نَزَلت من عند الله علىٰ المَلَكَين ببابل، ليحذِّرا الناس من كذب سليمان في ادِّعاء النبوة وكفره. استأنف الكلام لبيان الصحيح الواقع في شأن هذه التعاليم الخبيثة، وهذين الشخصين الدَّجَّالين اللذين يلقبونهما بالملكين، وسلك في ذلك مسلك التحذير، ونصب الاسمين عليه فقال: ﴿هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾. (المؤلف).

(١) ذكره ابن قتيبة في «تأويل مختلف الحديث» ص ١٧٨.

(٢) قد جاء مثل هذا التعبير بالإنزال والوصف بالملكين تماشياً مع زعمهم في قوله تعالىٰ في سورة سبأ: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥]، حيث إنَّ التعبير =

ومُجاراةً له مسبوكة علىٰ التَّشنيع والتَّسفيه.

ويُـؤنسُ لهذا الرأي أن القرآن أنكر علىٰ المشركين حين اقترحوا نزول مَلَـكٍ عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥][1].

وبعد أن أَنَّبهم علىٰ هذا الاعتقاد السخيف في أمر هاروت وماروت، واتِّباعهم خِطَّتهما، ذكرَ سبحانه حقيقةَ أمر هذين الدجَّالَين وشأنَهما في تمويههما علىٰ الناس وسِحْرهما لهم، وإرهابهما للداخل في جمعيتهما، عن الإفلات منهما، فقال: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: بمبادئنا وتخرج عليها. وهذا علىٰ أصول الجمعيَّات السريَّة الهدَّامة؛ يقول رؤساؤها للداخل في جمعيَّتهم حين يأخذون عليه

---

= بـ«ما أجرمنا» عن إيمان المؤمنين مبنيٌّ علىٰ اعتقاد المشركين بأنَّ محمداً وأتباعه مجرمون بخروجهم علىٰ دين الآباء وإحداثهم ديناً جديداً. ومثله قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٤٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]. فقد جاءت هذه التعابير القرآنية بحسب اعتقاد المخاطبين، ويقال: لعلَّ لهذا مجاز الوصف علىٰ زعم الزاعم. (المؤلف).

(١) اختلف الـمُفسِّرون في قصة هاروت وماروت اختلافاً طويلاً، واستندوا في كثير من أقوالهم إلىٰ إسرائيليات دخيلة، أو أحاديث واهية. والذي عليه المحققون: أن هاروت وماروت كانا مَلَكَيْن حقيقةً، أنزلهما الله ليعلِّما الناس السحر؛ ابتلاءً من الله لعبادِه، فيكون فعلُهم هذا طاعةً لله لا معصية فيه، مع تحذيرهم الناس فيما يُعلِّمونهم وبيان الكفر فيه.

و«ما» موصولة وليست بنافية علىٰ هذا التفسير.

أما آيةُ الإسراء فنفت إنزال الملائكة رسلاً، ولم تَنْفِ إنزالهم لغرض آخر، فلا تعارض بينها وبين إنزال هاروت وماروت، بل ثبت في أحاديث عديدة نزول الملائكة لأغراض شتىٰ، وفي نزول جبريل عليه السلام علىٰ مريم ليهب لها غلاماً دلالةٌ علىٰ جواز ذلك أيضاً.

العهدَ والميثاقَ: إنْ كفرتَ بمبادئنا تُقتل غِيلةً بيد الفدائيين، فلا يمكنه الخروج منها أبداً، وإنْ رأىٰ كلَّ مكروه.

ثم أجمل سبحانه تعاليمها الخبيثة وقوَّتها في المشاغبة والإفساد، فقال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ أي: ما هو من أدقِّ أساليب الإغواء والاستهواء، يفرِّق بين المرتبطين بأقوىٰ الروابط، وقد عبَّر عن المعنىٰ المراد بطريق الكناية، إذ يريد أنها تعاليم خبيثة تُمزِّق أمتن الروابط وأوثق العلاقات، لأنها من المكر والخديعة بمكان.

ثم ألمع تعالىٰ إلىٰ أنَّ مثل هذا المكر لا يمشي علىٰ أقوياء الإيمان، لأنَّ الإيمان الصَّادق يُنير البصيرة، فلا يلتبس علىٰ صاحبه الحقُّ بالباطل، ولأنَّ العقيدة الصحيحة المستقرَّة لا يُزعزعها شيء، ولكن المكر والخديعة يُؤثِّران علىٰ ضعاف الإيمان، وعلىٰ أرباب الكفر والخذلان، وأومأ إلىٰ أنَّ ذلك جاء علىٰ السنة الكونيَّة العامَّة فقال: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، إذ قد جرت سُنَّته تعالىٰ في طبيعة الإنسان أنه إذا أفسد فطرته بمفاسد التربية والكفر والخذلان تمشي عليه التمويهات والزعبرات؛ لأنه يفقد نور البصيرة وجوهر العقل السليم، كما قال تعالىٰ في الشيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

ثم أفاد سبحانه أن هذه التعاليم الخبيثة المختلفة، تضرُّ بنفوس مَنْ يَخْتلقها ومن يعتنقها ضرراً فادحاً؛ لأنها تفسدها وتحيد بها عن فطرتها، فتُحطِّمُها وتردُّها إلىٰ أسفل سافلين، حسب السنن الكونية في طبيعة البشر، فقال: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ ويُحطِّم نفوسهم، ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي: في إحباط أمر سليمان ولا أمر الرسول عليهما الصلاة والسلام، لأن المؤمن الصادق الإيمان لا ينخدع بالخزعبلات، ولا بوساوس الشياطين والمشاغبات؛ لِمَا عنده من نور البصيرة والنظر الصحيح.

ثم شَنَّع عليهم وسفَّه أمرَهم حيث أعرضوا عمَّا يعرفونه من الحق، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أي: لقد علم أهل الكتاب من اليهود في عصر التَّنزيل أنَّ مَن استبدل ما تَتْلو الشياطين بكتاب الله عز وجل وتعاليمه العادلة الموصلة لسعادة الدارين ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي: ليس له نصيبٌ من نعيم الآخرة وهنائها، علموا ذلك من نصِّ التوراة، فتولَّوا عنه وهم معرضون.

ثم نعىٰ عليهم، فقال: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا﴾ أي: باعوا ﴿بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث استبدلوا بعملهم هذا نعيم الآخرة بشقائها[1] ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي: لو كانوا من أهل العلم والمعرفة والبصيرة والوجدان.

فأَنَّبَ القرآن في هذه الآيات اليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ؛ بأنَّهم اتَّبعوا معه ما تَبِعَه أسلافهم الدجَّالون والمشاغبون في ملك سليمان ونبوَّته.

ثم أردف هذا النهج الانتقادي بالنهج الإرشاديِّ علىٰ أسلوب القرآن في مثل ذلك، وصفاً للدواء بعد بيان الداء، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ بمحمد ﷺ وما جاء به من عند الله وعملوا بمقتضاه، ﴿وَٱتَّقَوْا﴾ اللهَ العليَّ العظيمَ، ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: لناهم ثوابٌ جزيل من عند الله، وذلك ﴿خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: لو كان قد بقي فيهم شيءٌ من نور البصيرة والعرفان.

هذا ما رأيته من تفسير هذه الآيات، إذ ينسجم مع السياق ويتناسب، والله أعلم بمراده.

---

(١) والصواب أن يُقال: استبدلوا شقاء الآخرة بنعيمها، فالنعيم هو المتروك، والباء تدخل عليه في مثل هذا الاستعمال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

ثم تابع الكلام عن دسائس اليهود وفساد أمرهم، وشرح حالهم، ناهياً المؤمنين عن كلمة يَفترصُها اليهودُ منهم للتورية بالدسِّ والامتهان، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ﴾ حتىٰ لا تحتاجوا إلىٰ نظر وتأنٍّ. وكلمة ﴿رَٰعِنَا﴾ كانت تدور علىٰ ألسنة الصحابة رضي الله عنهم في خطاب النبي ﷺ. والمعنىٰ: راقِبْنا وتأنَّ بنا إذا تكلَّمت، وانتظر ما يكون من شأننا في حفظ ما تُلقيه علينا وضَبْطه.

والمشهور في كتب التفسير: أنَّ سبب النهي هو أنَّ اليهود المنافقين الذين يحضرون مجالس الرسول ﷺ، افترصوها وصاروا يخاطبون بها النبيَّ ﷺ لاوِين ألسنَتهم بها لتوافق كلمةَ شَتْم بلسانهم العبراني، قيل: كانوا ينطقون بها: راعينا، وهي في العبرانية كلمةَ سبٍّ يتسابُّون بها فيما بينهم. وقيل: كانوا يلوون بها ويريدون بتحريفها نسبتَه ونسبةَ كلامه في الدين إلىٰ الرعونة. وفي سورة النساء: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦]. فنهىٰ الله سبحانه المؤمنين عن استعمال هذه الكلمات التي افترصتها اليهود للشتم والأذىٰ، وأمرهم بكلمةٍ خيرٍ منها تفيد ما كانوا يريدونه بها، وهي كلمة ﴿ٱنظُرْنَا﴾، وأمرهم أن يُحسنوا الاستماع حتىٰ لا يحتاجوا للاستمهال،

فقال: ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾، ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ لبيان أنَّ ما صدر عن اليهود من سُوء الأدبِ في خطاب الرسول ﷺ هو أثرٌ من آثار الكفر، يعذَّبون عليه العذاب الشديدَ في الآخرة، ففيه تحذيرٌ وتبصيرٌ للمؤمنين، ووعيدٌ للكافرين.

ثم بيَّن سبحانه للمؤمنين أنَّ أكبر باعث لهذه المخالفات والمعاندات من اليهود هو حَسَدُهم وبُغْضُهم لكم، جزاء دينكم القويم، لا فرق بين أهل الكتاب والمشركين في ذلك، فقال: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أما أهل الكتاب، ولاسيما اليهود، فيحسدون العرب أن يكون فيهم الكتاب والنبوَّة، وهو ما كانوا يحتكرونه لأنفسهم، فهذا هو مصدر حَسَدِهم. وأما المشركون فلعداوتهم وخيبة آمالهم حيث اسْتَتَبَّ أمر المسلمين واسْتَفحل، وكانوا يظنُّونه سيفشل، وكان بعض رؤسائهم يقول: إذا كانت المفاخر في بني هاشم، والرياسة في بني هاشم، والنبوَّة في بني هاشم، فما بقي لنا؟ يحسدونهم علىٰ ذلك.

ثم ردَّ عليهم سبحانه بما يُبيِّن جهلهم في هذا الحسد، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾، فما أشدَّ حمق الحاسد! وما أجهله! وهذا تسخيف لعقولهم، وإلقامُ حَجَر لهم.

ومرمىٰ الآية: أنَّ الله سبحانه بعلمه الواسع وحكمته البالغة، يختصُّ لنبوَّته مَنْ يَصْلُح لها، ويُرسله بشريعةٍ ملائمةٍ لتقدُّم النوع الإنساني ورُقيِّه في مضمار هذه الحياة، كلَّما اقتضت الحكمة ذلك، فتقوم هذه الشريعة الجديدة مقام ما قبلها ناسخةً لها. وذلك بتبديل بعض أحكامها وإضافة بعض الأحكام إليها، حسبما تقتضيه الحكمة وتتطلَّبه مصلحة البشر حتىٰ بدأ أول تكامل النوع الإنساني في العلوم والمعارف، فنزل القرآن واستقرَّ به أمر الأديان، ولم يَبْقَ لليهوديَّة والنصرانيَّة مكانٌ. ألمح سبحانه إلىٰ ذلك،

فقال: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[1]، وعلىٰ هذا

---

(١) لما كان قوله تعالىٰ: ﴿مَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يتضمَّن إرسال الرسل وتجديد الشرائع، أردفه ببيان الحكمة من ذلك، فأومأ إلىٰ أن إرسال الرسل نوعان:

نوع لإعادة معالم الشريعة التي نبذت وراء الظهر بالتحريف، فيأتي الرسول لإظهار قواعدها المطموسة، وحَمْل الناس علىٰ العمل بها، وذلك مثل رسالة داود وسليمان وزكريا ويحيىٰ عليهم السلام، فإنهم أرسلوا لإقامة شريعة التوراة المطموسة المعالم والمحرَّفة الأحكام. فمثل هؤلاء الرسل يأتون بمثل الشريعة السابقة ويدعون الناس للتمسُّك بها والعمل بمقتضاها.

ونوعٌ لنسخ الشريعة السابقة بشريعة أخرىٰ خير منها، كشريعة موسىٰ وشريعة محمد عليهما السلام، فإنَّ القرآن العظيم أنزل بعد أن تدرَّج النوع الإنساني في الرقيِّ والكمال، محتوياً علىٰ تعاليم وتوجيهات للبشر تصلحُ لكلِّ حال ومآل إلىٰ يوم القيامة، فلذلك كانت شريعته خاتمة للشرائع علىٰ الإطلاق، إذ لا حاجة لغيرها بعدها، فقوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ راجع إلىٰ قوله: ﴿نَنسَخْ﴾، وقوله: ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ راجع إلىٰ قوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ لبيان هذين النوعين من الإرسال الذي تضمَّنه قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ بوجوه المصالح وتدابير الأمور في ملكوت السموات والأرض، وهو علىٰ كل شيء قدير.

وإنما قال: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ الآية، ولم يقل: من شريعة، ليتناول البيانُ الشريعةَ كلَّها أو الآيات منها؛ لأن الشريعة مجموعة آيات وتعليمات. والله أعلم.

فائدة: حول قوله تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ الآية.

جاءت الشرائع السماوية من لدن آدم إلىٰ نزول القرآن متَّحدةً في العقيدة وأصول الدين، متدرِّجةً رُقياً في صور الأعمال والعبادة، وفي التهذيب والثقافة نحوَ الكمال، كما يتدرَّج الصبيُّ في العلم والعمل حتىٰ إذا بلغ أشدَّه واستوىٰ ألقي إليه العلم العالي ومقاليد الأعمال العظيمة، وطُلب منه القيام بها والسعي في إنجازها.

وهكذا كان أمر الشرائع الإلهيَّة لنوع الإنسان، من مبدئه البدائي إلىٰ أوَّل تكامله الإنساني في المعرفة يحبُو نحو الكمال وتحبو معه الشريعة كذلك، وتنسخ شريعة بأخرىٰ أعلىٰ منها في التهذيب =

يكون ذكر الآية من ذكر الجزء وإرادة الكل، وإنما عبَّر بهذا التعبير ليشملَ الكلامُ نسخ آيةٍ من شريعة بآيةٍ أخرىٰ منها(١).

---

= والثقافة، حتىٰ وصل إلىٰ أول درجة من كمال الاستعداد للثقافة العالية، أنزل الله سبحانه إليه ما ظلّ يهديه في الشرائع السابقة، وهو هذا القرآن العظيم، علىٰ لسان هذا الرسول الكريم، وخُتمت بهما الشرائع والأنبياء، وبقيت هذه الشريعة الغرَّاء هي شريعة البشر إلىٰ يوم الدين، وطُلب منه أن يضمَّ إلىٰ لغته المحليَّة لغة هذا الدين العربية العالمية، فيتّحد العالم في اللغة والثقافة والدين، ويعيش بهذه الوحدة سعيداً في دنياه سعيداً في أُخراه. (المؤلف).

(١) لا شك أنّ الله تعالىٰ ينسخُ من التشريعات ما شاء كلما اقتضت الحكمة ذلك، ولا شك أن الشرائع السابقة لشريعة الإسلام قد نسختها شريعة محمد ﷺ؛ لأن الله ختم بها جميع الشرائع، وأرسله إلىٰ الإنس والجن.

وقال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني، ثم يموت، ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار». رواه مسلم (١٥٣).

وقد نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري» (٨: ٢٤٥) الإجماع علىٰ أن الإسلام نَسَخَ جميع الشرائع السابقة.

أما قول الله تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]، فمعناه ـ كما قال ابن جرير في «تفسيره» (٢: ٤٧١) ـ: ﴿مَا نَنسَخْ﴾ أي: ما ننقل من حكم آية إلىٰ غيره، فنبدله ونغيره، وذلك أن نحول الحلال حراماً، والحرام حلالاً، والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً، ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة، فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ. انتهىٰ المراد منه.

فقد دل هذا الكلام علىٰ أن المراد ما ينسخ من حكم آية إلىٰ غيره، ويدل لهذا سببُ نزول الآية، فقد قال الواحدي في «أسباب النزول» (١: ٢١): قال المُفسِّرون: إن المشركين قالوا: أترون إلىٰ محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، ما هذا في القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه، وهو كلام يناقض بعضه بعضاً، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ..﴾ الآية، وأنزل أيضاً: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ..﴾ الآية. انتهىٰ. =

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يريد لها الخير، ولا معارض لأمره، ولا مُعقِّب لحكمه، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾، فقد استشهد سبحانه بما ذكر علىٰ قُدرته تعالىٰ علىٰ الإتيان بما هو خيرٌ من المنسوخ حسبما تقتضيه المصلحة في شأن خلقه تعالىٰ، وعلىٰ أنه وليُّ المؤمنين ومريدٌ لخيرهم، وأضاف إلىٰ ذلك تهديد من ينحرف ويعارض. فالآية ردٌّ لتبجُّحهم، وبيانٌ لأنَّ الله سبحانه يبعث الرسول بشريعة متَّفقة بفروعها مع زمنه، وبعد عصر أو دهر يبعث رسولاً آخر بوحي آخر يكون فيه بُعد تبدُّل لفروع الشريعة الأولىٰ حسب رُقيِّ النوع الإنساني، فيمحو حُكماً ويُثبت حُكماً آخر حتىٰ نضج العقل البشري، فجاء هذا القرآن الشامل المنطبق علىٰ ما كان وما يكون بقواعد كليَّة، والصالح لشؤون البشر إلىٰ يوم القيامة، وفيه تبديلٌ لبعض فروع الشريعة السابقة، حسب الحكمة البالغة، بمقتضىٰ علم الله الواسع الذي أحاط بكلِّ شيء، وقدرته العظيمة التي وَسِعَت كلَّ شيء، ورأفته بالناس أجمعين. هذا ما أراه في تفسير الآية علىٰ ضوء ما فسَّرها به أبو مسلم.

ومعنىٰ: ﴿نُنسِهَا﴾: نَجْعلها مَنْسيَّةً أو نأمر بتركها، وهذا في نسخ الآية بالآية.

---

= ومن أمثلة ذلك ما ورد في الحديث من أن الآيات الأولىٰ من سورة المزمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١-٤] نُسِخَت بالآية التي في آخر السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ﴾ [المزمل: ٢٠].

ففي «صحيح مسلم» (٧٤٦) عن سعد بن هشام: «أنه سأل عائشة فقال: يا أمَّ المؤمنين؛ أنبئيني عن قيام نبي الله ﷺ؟ قالت: ألستَ تقرأ هذه السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾؟ قلت: بلىٰ، قالت: فإن الله عز وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبيُّ الله ﷺ وأصحابُه حَوْلاً، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، حتىٰ أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيفَ، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة». انتهىٰ.

وقيل: معنىٰ ﴿نُنسِهَا﴾: نبقيها، مثل نُنسِئْها، فقد قال ابن عباس: معناه: نتركها لا نبدِّلها[١]. وقال السُّدِّيّ: معناه: نتركها لا ننسخها[٢]. وقرئ: (نَنْسَأْهَا)، و(نُنْسِئُهَا)، أي: نُرجئها ونُؤخِّرها.

ويجوز أن يكون المرادُ من قوله: ﴿نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ الشريعة المنسوخة حديثاً، ومن قوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ الشريعةَ المنسوخةَ قديماً من شرائع الرسل التي لم يقصص علينا أمرها، أو الرسل التي تقادم عهدها ولم نعلم من أحكام شريعتها شيئاً، والله أعلم.

أما قوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾، فتوضِيحُه: أنَّ كل تجديد في الشرائع ينشأ عن حاجة ماسَّة إليه من أحوال الشعوب والأمم، علىٰ سُنَّة التدرُّج الطبيعي في رُقيِّ نوع الإنسان، فكلَّما ازداد رُقياً تُبدَّلُ له الأحكام بما هو خير منها حسب قانون التدرُّج في رُقيِّ النوع، وذلك ضمن تبدُّل الشريعة نفسها، وتبدُّل بقية الأحكام بمثلها، بمعنىٰ: تبقىٰ بعينها في الشريعة الجديدة أو بتحوير قليل، وكذلك تأتي الشريعة الجديدة بتصحيح ما أخطأ البشرُ في فهمه من الشريعة المنسوخة، وإصلاح ما تعمَّدوا تحريفَه منها علىٰ هذه الوتيرة بعد ذهاب نبيِّهم وتطاول العهد أيضاً، إما بأحسن منها حسب ما يَقْتضيه قانون التدرُّج المذكور، أو مثلها علىٰ وجه الصحَّة، وذلك في بقيَّة الأحكام التي لا يُراد تبديلُها. هذا ما رأيته، والله أعلم. ولا يخفىٰ أنَّ التبديل لا يكون في الاعتقاديات ولا في الطبيعيَّات[٣].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٦٥).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢: ٤٧٦).

(٣) ولم يتعرض المؤلف رحمه الله إلىٰ النسخ في فروع الأحكام في الشريعة الواحدة، والعلةُ المذكورةُ في كلامه في تجويز نسخ الأحكام وتبديلها في شريعة سابقة بشريعة لاحقة، هذه العلةُ نفسُها واردةٌ في تجويز نسخ الأحكام الفرعية في الشريعة الواحدة.

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـِٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

ثم أجرىٰ الكلام علىٰ ضعفاء الإيمان من المسلمين الذين أثَّرت فيهم مشاغبات اليهود الخبيثة، علىٰ نمط ما كان يفعله أسلافهم في عهد سُليمان، فأخذوا يُكثرون السؤال والجدال، فأنكر القرآنُ عليهم، فقال: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـِٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾، وإن كانت تلك الآيات فعلية وهذه قوليَّة، ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾[1] [البقرة: ١٠٨]، والتقدير:

---

(١) قوله: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ ...﴾ تُؤْذن الآية أنَّ اليهود لما اتَّبعوا في المُشَاغَبات والتَّشكيكات مع المسلمين خطَّة أسلافهم في عهد سليمان أثَّر ذلك في ضعفاء الإيمان مثل قولهم: إنَّ أحكام القرآن مغايرة لأحكام التوراة، وإنَّ محمداً لم يأتِ بالمعجزات كما أتىٰ موسىٰ، وأمثال ذلك، فأخذ هؤلاء الضعفاء يكثرون السؤالات من رسول الله ﷺ لـمّا رانَ علىٰ قلوبهم، فأنَّبهم سبحانه بهذه الآية، وجَعَل هذا كعمل بني إسرائيل عَدَمَ الثقة في أحكامهم. ويجوز أن تكون الآية معطوفة علىٰ محذوف، علىٰ نهج القرآن في مثلها، والتقدير: أَقَنِعْتُمْ بهذا البيان أم تريدون... إلخ. أو معطوفة علىٰ: ألم تعلم؛ لأنه من خطاب الخاص مُراداً به العام. ويجوز أن تشمل الآية اليهود؛ لأنَّ محمداً ﷺ جاءَ رسولاً لكلِّ البشر ورسالتُه وقرآنه العربي عالميان.

ووجه الربط في قوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ ....﴾، تُلهم هذه الآية: أنَّ ما كان يفعله اليهود من المشاغبات والتشكيكات علىٰ نَـمَط ما كان يفعله أسلافهم في عهد =

أَقَنِعْتُمْ بهذا البيان أم تريدون.

ويجوز أن يكون الخطاب لعموم المخاطبين في عصر التنزيل، يُحذِّر به ضعفاء الإيمان من تشكيك هؤلاء المضلِّلين في أمر النسخ للشرائع، ويؤنِّب المشركين علىٰ اقتراحهم الآيات كما اقترح بنو إسرائيل علىٰ موسىٰ رؤيةَ الله جهرة، أو أن يجعل لهم إلهاً كما للمصريين، وعلىٰ كلٍّ فقد أرشدنا الله تعالىٰ بهذا إلىٰ أنَّ التفنُّن في طلب الآيات الكونيَّة، وفي التعنُّت وعدم الإذعان لما يجيء به النبيُّ من الآيات القوليَّة، هو دأب المطبوعين علىٰ الكفر. والكلامُ معطوفٌ علىٰ مُقدَّر مفهوم من السياق، وذلك علىٰ نهج القرآن (كما جاء في المادة العاشرة من المقدِّمة الثانية).

وتُلهم الآية أنَّ اليهود قد نَجَحوا في دسِّهم وتشكيكهم بين ضعفاء المسلمين حتىٰ صار بعضُهم يجادل ويسأل، فأنَّبهم سبحانه وتعالىٰ علىٰ ذلك.

ثم تابع الكلام في البيان المنطوي علىٰ التَّحذير من التورُّط فيما تضمَّنه السياق من قبول آراء اليهود في شيء من أمور دينهم، وذكر المنشأ ووجه العلَّة في ذلك، فقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾، وفيه تنبيهٌ للمسلمين علىٰ أنَّ ما يبدو من أهل الكتاب أحياناً من إلقاء الشُّبه علىٰ الإسلام، وتشكيك بعض ضعفاء المسلمين في بعض أحكامه المخالفة

---

= سليمان عليه السلام؛ قد أثَّر بعض التأثير علىٰ ضُعفاء الإيمان من المؤمنين، كما أثَّر علىٰ المشركين، فأخذ ضعفاء الإيمان يقترحون ويسألون من الرسول ﷺ أشياء أنكرها عليهم القرآن وصدَّهم عنها وألمع إلىٰ أنَّ ذلك يضادّ الإيمان.

وقوله: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ﴾ [البقرة: ١٠٩] يُؤْذِنُ بأنَّ بعض المؤمنين طلبوا الإذن من الرسول بالبطش بهؤلاء المشاغبين، فأمرهم سبحانه بالصبر والعفو والأناة، أو هي للأمر بالتحمُّل والثبات. (المؤلف).

للتوراة، إنما هو مكر السُّوء، يبعث عليهِ الحسدُ واعتقادُهم أنَّ هذا الأمر إذا تمَّ للمسلمين سيدخلون تحت سلطانهم لا محالة.

وقيَّد الكلام بما فيه الزيادة في النقد والتشنيع، فقال: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: بانطباق ما يحفظون من بشارات كتبهم بنبيِّ آخرِ الزمان عليه الصلاة والسلام.

وفي جميع الآيات المتقدمة ـ ولاسيما آية النسخ ـ تمهيدٌ إلىٰ ما سيأتي من أمر تحويل القبلة الذي سيستغله اليهود، وتثبيتٌ للمسلمين، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

ثم أمر الله تعالىٰ المؤمنين بأن يقابلوا هذا الحَسَدَ وما ينبعث عنه بما يليق بهم من محاسن الأخلاق، وهو العفوُ عن هؤلاء الحسَّاد المغرضين، فقال: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾، قال الأستاذ الإمام: وفي أمره تعالىٰ لهم بالعفو والصفح، إشارةٌ إلىٰ أنَّ المؤمنين علىٰ قلَّتهم هم أصحاب القدرة والشوكة، لأنَّ الصَّفْح إنما يُطلب من القادر، وفيه إيذانٌ بأنَّ أهل الحق هم المؤيَّدون بالعناية الإلٰهيَّة، ثم صرَّح بذلك فقال: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾، فوعدهم بأنْ سيمدُّهم بمعونته، ويؤيِّدهم بنصره علىٰ قلّة عددهم، وقرَّر ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٩﴾.

ثم قال الأستاذ الإمام: وبعد أن وَعَدهم بالنَّصر دلَّهم علىٰ بعض وسائل تحقُّقه، وهي الصلاةُ التي تُوثِّق عروة الإيمان وتُعلي الهمَّة وترفع النفس بمُنَاجَاةِ الله العليِّ الكبير، والزكاةُ التي تَصِلُ بين الأغنياء والفقراء، فتتكوَّن باتِّصالهم وحدة الأمة، فقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وقد مضت سنة القرآن بقَرْنِ الزكاة بالصلاة؛ لأنَّ الصلاة لإصلاح نفوس الأفراد، والزكاة لإصلاح شؤون الاجتماع[1].

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٤٨).

وإقامة الصلاة ليست عبارة عن أدائها مطلقاً، وإنما هي عبارة عن القيام بحقوقها الروحيَّة في صورتها العمليَّة، وذلك بالتوجُّه إلىٰ الله تعالىٰ، ومناجاتِهِ، وإشعار القلب عظمته، فبهذا الشعور ينمُو الإيمان، وتقوىٰ الثقةُ بالله، وتتنزَّه النفس أن تأتي بالفواحش والمنكرات، وتستنيرُ البصيرة فتكون أقوىٰ نفاذاً في الحق وأشدَّ بعداً عن الأهواء، فنفوس المصلِّين جديرة بالنصر؛ لما تُعطيها الصلاة من القوة المعنويَّة، ومن الثقة بقدرة الله العليَّة. كما أنَّ الزكاة قوامٌ للنصر ومُعينٌ عليه؛ لأنها القوة الماديَّة.

وبعد أن تبيَّن أنَّ إقامة هذين الركنين من وسائل النصر والسلطان في الدنيا، بيَّن لهم أيضاً أنها من أسباب السعادة في الآخرة، ولكن البيان جاء بصورة قاعدة عامة علىٰ أسلوب القرآن في تعقيب الأمر الخاصِّ بأمر عام يشمله وغيره، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ أي: فلا يضيع عنده عمل من الأعمال التي تصدر عنكم.

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

ثم رجع بالكلام إلىٰ محوره السابق، وعاد إلىٰ بيان سخافاتهم وضلالاتهم، علىٰ نهج القرآن في العودة، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾، وهُودٌ: جمع هائد، كعُوذ جمع عائذ. وهاد يهود بمعنىٰ: تاب ورَجَع إلىٰ الحقِّ. أي: قالت اليهود: لن يَدْخُلَ الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارىٰ: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، فردّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، أي: ذلك ما يتمنَّونه ولا يُدركونه.

وتُطلق الأمنية علىٰ كلِّ ما لا حُجَّة عليه، لذلك طالبهم سبحانه بالبرهان علىٰ ما

يدّعون، فقال: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾، فبيَّن لنا أنَّ قولهم هذا هُراء؛ إذ لا حُجَّة له في كتبهم المنزلة. وإنما طالبهم سبحانه وتعالىٰ بالبرهان؛ لِيُقرِّر لنا قاعدةً لا توجد في غير القرآن من الكتب السماوَّية السالفة، وهي أن لا يُقبَل من أحدٍ قولٌ لا دليل عليه، وذلك لأنَّ الأمم التي خُوطبَت بالكتب السماويَّة السالفة، لم تكن مُسْتَعدَّة ومتأهِّلة لاستقلال الفكر ومعرفة الأمور بأدلتها وبراهينها.

ثم قرَّر الردَّ عليهم مُبيِّناً حقيقة الأمر في استحقاق دخول الجنة، ومُؤْذناً بأنَّ بابها مفتوح لكلِّ مَنْ يعمل ذلك، سواء كان منهم أو من غيرهم، فقال: ﴿بَلَىٰ﴾، وهي كلمةٌ تذكر في الجواب لإثبات نفيٍ سابق. والمعنىٰ: إن الجنة مفتوحة لكل مَنْ يعمل لها عملها، وهو ما بيَّنه سبحانه بقوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: بأن توجَّه إليه وحده وخصَّه بالعبادة، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: مُخلص له في العلم الصالح المطلوب منه، ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي: يُدخله الجنَّة برحمته خالداً في سعادتها، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ أي: يوم الفزع الأكبر، فنفىٰ عنهم ما يَرهقُ الكافرين والمسيئين. وفيه تعريضٌ لأولئك المنكرين الضَّالِّين.

والإفراد في الضمائر باعتبار لفظ ﴿مَنْ﴾، والجمع باعتبار معناها، علىٰ نهج القرآن في ذلك. وإنما عبَّر بالأجر؛ للإيذان بقوَّة ارتباط دخول الجنَّة بالعمل المذكور كما يرتبط العامل بأجرته.

وأما ما جاء في الحديث: «لن يدخل أحدٌ الجنة بعمله، ولكن بفضل الله»[1]؛ فالمرادُ منه: أن عمل الإنسان مهما بلغ فإنه ضئيل بالنسبة إلىٰ الجزاء العظيم الجليل، وذلك من فضل الله[2].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ارتباطُ دخول الجنة بالعمل: ارتباطٌ شرعي، أي: وضعه الشارع، فهو مَحْضُ فَضْلٍ من الله تعالىٰ، =

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

ثم أتبع هذه الدعوىٰ منهم بما يناقضها من قولهم، وهو تضليلُ كلِّ فريق منهم لصاحبه، مُبيِّناً سَفَهاً آخر من سفاهاتهم وعَمَاياتِهم في أمر الدين، مُقرِّراً فيه أنهم يقولون أقوالاً مجرَّدة عن المنطق والبرهان، والعلم والعرفان، ففي القول السابق ذَكَرَ أنه قولٌ مجرَّد عن البرهان، وذكر لهم هاهنا قولاً مخالفاً للمنطق باستلزامه التناقض والهذيان، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾[1]، فكفروا بعيسىٰ وهم يتلون التوراة التي تُبشِّر به، وتذكر من العلامات ما ينطبق عليه. ولا تزال اليهود إلىٰ اليوم تدَّعي أنَّ المبشَّر به في التوراة لَمَّا يأتِ بعد، وتنتظر ظهوره وإعادته الملك إلىٰ شعب إسرائيل، وهذا هو المسيح الدجال، والله أعلم.

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ لإنكارهم المسيح المتمِّم لشريعتهم، ولكن هؤلاء النَّصارىٰ لم يفطنوا أنَّ هذا النفي العام يتضمَّن نقْضَ التوراة، وهي جزءٌ من شريعتهم، فكان يقول كلُّ فريق منهم ما يقول، ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: يتلو كلٌّ منهم كتابه، فكتاب الأوَّلِين التوراةُ يبشِّر برسول منهم وهو عيسىٰ، ظهر ولم يؤمنوا به، فهم مخالفون لكتابهم، وكتاب الآخِرين الإنجيلُ يقول بلسان المسيح: إنه جاء متمِّماً

---

= فلا يكون فيه للعبد استحقاق، وبه يكونُ الحديثُ المذكور علىٰ ظاهره، وجَعْلُ الفضل في المقابلة من حيث المقدار: تضييقٌ للمعنىٰ وحَصْرٌ له.

(١) الآية تلمع بمعنيين: جهالة منطقهم وتناقضه، وإيقاع بعضهم ببعض حنقاً وكرهاً. ولذلك أردفها بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ.....﴾؛ لأن ذلك هو مصدر ما يأتي من السعي في الخراب المادي للمعابد. (المؤلف).

لناموس موسىٰ لا ناقضاً له، وهم قد نقضوه بقولهم هذا؛ لأن عموم قولهم يستلزم إنكار اليهوديَّة بجملتها، فدينهم واحد، ترك بعضهم أوَّله وبعضهم آخره، فلم يُؤمن به كله أحد منهم، والكتاب الذي يقرؤونه حُجَّة عليهم.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ هذا دأب الضَّالِّين في كل عصر، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: علىٰ نحو ذلك السخف، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من مُشْركي العرب وغيرهم من الملل ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ حيث قالوا: إنَّ محمداً وأتباعه ليسوا علىٰ شيء، وتعصَّب كلٌّ لملَّته التي جَعَلها جنسيَّة، وزعم أنها هي المنجية لكلِّ من وُسِمَ بها، والحقُّ وراء ذلك، إنما هو إيمانٌ خالص وعملٌ صالح، لا قوميَّة ولا عنصرية، ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أي: يُحِقُّ الحقَّ ويجعل أهله في النعيم، ويُبطل الباطل ويُلقي بأهله في الجحيم.

والذي أراده سبحانه للبشر المتدرج في الرقي أن تكون الأديان كالصفوف العلمية، تنتقل من دين إلىٰ دين حتىٰ بدأ أوّل كماله ختمها بدين عالٍ سماوي يحوي من القواعد ما يكفي للبشر إلىٰ آخر الدنيا، وهو القرآن، وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

ثم نعىٰ عليهم وعلىٰ المشركين فظيعةً أخرىٰ من فظائعهم، كان ما قبلها مقدِّمة لها ووسيلة؛ لأنها صادرةٌ من تضليل بعضهم لبعض ومقاومتهم لهم، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾، ويُؤْذِن السياق أنَّ

عموم الآية كما يشمل مَنْ صَدَّ المؤمنين عن مساجد الله، ومن سَعَىٰ في خرابها بالفعل، يشمل أيضاً مَنْ عطَّلها عن عبادة الله الحقَّة، وشغلها بعباداتٍ باطلة ما أنزل الله بها من سلطان، والله أعلم، لأن كلَّ ذلك سَعْيٌ في الخراب، ومَنْشأُ السعي في الخراب الفعلي إنما هو تضليل بعضهم لبعض، إذ في جملة ذلك معارضةُ الضالِّ للمهتدي ومنعُه عن إقامة شعائره في المعابد.

ومن الذين منعوا مساجدَ الله أن يُذكر فيها اسمه: مشركو مكة؛ منعوا النبي ﷺ وأصحابَه من دخول مكة يوم الحديبيَّة، وذلك فوق ما أنهم قد عطَّلوها عن عبادة الله الحقَّة، وشغلوها بعبادات باطلة.

ومن الذين سَعَوا في خرابها: مُشْركُو الرومانيين، عندما خرَّبوا بيت المقدس، وهَدَموا هيكل سليمان عليه السلام، بإغْراء المسيحيين لينتقموا من اليهود. ثم لما اعتنق الرومان المسيحيةَ حرَّقوها وجعلوها تُضَاهي دينهم في التثليث، وخرَّبوا معابدها معنوياً بهذه المسيحية المحرَّفة، وأمثال ذلك في الواقع والتاريخ كثير.

ثم بيَّن ما كان يجب عليهم من حُرمة المساجد وعبادة الله فيها علىٰ وَجْه الحقِّ والصواب، علىٰ نهج القرآن في إرداف النقد بالإرشاد، وضَمَّنَ ذلك مبالغة في النعي عليهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ أي: خاشعين، أي: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخضوع، فَضْلاً عن الاجْتراء علىٰ تخريبها أو تعطيلها، أو الإغْراء بذلك، أو إشغالها بعبادات شركيَّة باطلة. فالكلامُ زيادةٌ في التأنيب والتفظيع، أردفه بالوعيد، فقال: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي: بالذل والهوان والجهل الفاضح في أمر الأديان، ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

ولما نوَّه سبحانه بأمر المساجد، ونعىٰ علىٰ مَنْ خرَّبها وقذَّرها، قَرَنَ ذلك ببيان أنَّ

الأرض كلَّها مسجد، إيذاناً بعدم الاختصاص الذي ربَّما يشعر به هذا التنويه بأمر المساجد، فيظنّ أنَّ مثل هذا المنع مُسوِّغ لترك العبادة، وإلماعاً إلىٰ أنَّ ما كان مشروعاً علىٰ مَنْ قبلنا خُفِّف عنا، وخاطب المسلمين مُهوِّناً المنع عليهم، بأنَّ الأرض كلها مساجدُ لهم، فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي: له كل الأرض، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ﴾ أي: في أيِّ مكان صلَّيتم مُوَلِّين وجوهَكُم شَطْر القبلة ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ﴾ يُوسِّع في أحكامه علىٰ عباده، ﴿عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ بمصالحهم وبالمتوجِّه إليه أينما صلَّىٰ وعبد، فاعبد الله حيثما كنت، وتوجَّه إليه أينما حللت.

فالآية بيانٌ للتساهل في مواضع الصَّلوات، تبيِّن أنَّ الأرض كلَّها مساجد إذا ولَّينا وجوهنا للقبلة، والمراد بوجه الله هنا: رضاؤه.

وفي الآية نَسْخٌ أو إبطالٌ لما كان عليه أهل الملل السابقة من أنَّ العبادة لله تعالىٰ لا يصحُّ أن تكون إلا في الهيكل والمعبد المخصوص، وبيانٌ في أنَّ الأرض كلها مسجد لله، فالمنعُ عن المسجد لا يمنع عن عبادة الله سبحانه، ولا يضرُّ إلا المانع، إذ يعودُ وباله عليه. وفيها أيضاً تمهيدٌ لما سيأتي من أمر تحويل القبلة، وذلك علىٰ نهج القرآن في ازدحام المعاني والأغراض في التركيب الواحد، وقَصْد الأهداف المنوَّعة.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ السياق السابق في تعداد مخازي أهل الكتاب والمشركين وتقوُّلاتهم وجهالاتهم الباطلة، فقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾، فهذا عطفٌ علىٰ قوله

تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ١١١]، عَطَفه عليه إيماءً إلىٰ أنه من الكفر الذي لا يحقُّ لصاحبه أن يدخل الجنَّـة، وإنما هو من أهل النار، ويجوز أن يكون الواو للابتداء؛ لأنَّ السياق في معرض سَـرْد القبائح والتـلاعب في الاعتقاد، فيجوز فيه الاستئناف.

قال في «المنار»: ويصحُّ أن يُنْسَب هذا إلىٰ اليهود والنصارىٰ والذين لا يعلمون جميعاً؛ لأن الله تعالىٰ أخبرنا في كتابه في مواضع منه بأن اليهود قالت: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾، وأنَّ النصارىٰ قالت: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾، وأن المشركين قالوا: إن الملائكة بنات الله. ولا فرق في الأحكام التي تُسند إلىٰ الأمم بين كونها صَدَرت من جميع أفراد الأمة أو صدرت من بعضهم، فإنَّ هذا الإسناد مُنْبِئٌ بتكافل الأمة، وقد نُقِلَ أنَّ كلمة: «عُزير ابن الله» قالها بعض اليهود لا كلّهم، وكذلك اعتقاد أنَّ الملائكة بنات الله، لم يكن عاماً في مشركي العرب، وإنما عُرف عن بعضهم.

وقد ردَّ سبحانه وتعالىٰ عليهم بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾، وهي كلمة تفيد التنزيه مع التعجُّب[1].

ثم أضـرب إلىٰ بـيان الحق، فـقال: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾، وتقرير الردِّ: أنَّ كلَّ ما في السماوات والأرض لا يتجاوز أن يكون أحد مخلوقاته الخاضعة تحت مُلكيَّته وقَهْره، وليس هذا معنىٰ الولد والبنوَّة، فلا يتصوَّر هذا الأمر في جَنْب الله.

وقال في «المنار»: نزَّه تعالىٰ نفسه بكلمة «سبحانه» التي تفيد التنزيه مع التعجُّب مما ينافيه، كأنَّ الذي يعرف الله تعالىٰ لا ينبغي أن يصدر عنه مثل القول الذي يشعر بأنَّ

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٥٩).

له تعالىٰ جنساً يماثله، فإنَّ قائلَ ذلك لا يكون علىٰ علم بالله تعالىٰ، ومقدِّراً جلالَه، وإنما يكون زاعماً فيه المزاعم، وظاناً فيه الظُّنون؛ لأنَّ هذا الولد الذي نسبوه إليه تعالىٰ لا يخرج عن أن يكون من العالم العلوي أو السُّفلي، ولا شيء منهما مجانسٌ له عزَّ وجل، بل جميع ذلك من مخلوقاته ومُلْكٌ له قانتٌ لعزَّته وجلاله خاضعٌ لقهره مُسخَّرٌ لمشيئته، نعم إنَّ له تعالىٰ أن يختصَّ مَنْ شاء بما شاء، كما اختصَّ بعض الأنبياء بالوحي، وبعضَ مخلوقاته بالعظمة، ولكن هذا التَّخصيص لا يرتقي بالمخلوق إلىٰ مرتبة الخالق، وهي الألوهيَّة، بل لا يخرجه عن حدود جنسيَّته[1].

وقد غلَّب في الملكيَّة ما لا يعقل، فاستعمل ﴿مَا﴾ بدل (مَنْ)، فقال: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنَّ المراد بتسخيرها له التَّسخير الطبيعي الذي لا يشترط فيه الاختيار، ويستوي في ذلك العاقل وغيره، ولكنه في غير العاقل أظهر. ولما ذكر القنوت لله تعالىٰ، جمعه بضمير العاقل؛ لأنَّ من شأنه أن يكون من العقلاء، فغلَّب فيه العقلاء، وذلك من البلاغة العالية.

ثم زاد هذا الحكم بياناً وتأكيداً بقوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾، فما الذي يماثله في هذا حتىٰ يُشرَك به؟ تعالىٰ الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وقد ألمع إلىٰ أن خلق عيسىٰ من دون أب لا يقتضي أن يكون ابناً لله، وليس هو أمراً غريباً علىٰ الله؛ لأن أمره سبحانه بين الكاف والنون.

ثم ذكر قبيحة أخرىٰ من قبائح مشركي العرب، وماثَلَها بقبائح غيرهم من أهل الكتاب، ويجوز أن تكون تمثيلاً لقوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٨] علىٰ تقدير أن يكون الخطاب فيها لأمة الدعوة مطلقاً، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٥٩- ٣٦٠) بتصرف.

﴿يَعْلَمُونَ﴾ أي: الجاهلون بالكتاب والشرائع وصفات الله سبحانه من مُشركي العرب: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: كما كلَّم هذا وأوحىٰ إليه وهو بشر مثلنا، ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ أي: من الآيات التي اقترحناها. وهذا بيانٌ لِقَدْحِهم في النبوَّة بعد أن بيَّن قدحَهم في الآية السابقة بالوحدانيَّة، وهذا القول ناشئٌ من جهلهم أنَّ الأنبياء بحكم ما لها من كمال تختصُّ خِلقةً بمزايا من قوَّة الرُّوح تصلح بها للاتِّصال بالوحي والتلقِّي منه، ولا يصلح لذلك كل بشر.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ هذا دأبُ مَنْ قبلهم من مُعَارضي الأنبياء في الأمم الغابرة، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، فقد أنكروا علىٰ رسلهم اختصاصهم بالوحي من دونهم، واقترحوا عليهم الآيات تعنُّتاً وعناداً، فقد ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: عقولهم في بَلَاهة المنطق وسخافة التفكير، وفي مُكابَرة الحقِّ واستبْعاد أن يكون واحدٌ من البشر رسولاً يُوحَىٰ إليه، وفي اقتراح الآيات تعنُّتاً وعناداً، وإن اختلفت الصُّور؛ فطلبَ قومُ موسىٰ مَثَلاً رؤْيةَ الله جهرةً، وطلبَ قومُ محمَّد مثلاً أن يرقىٰ في السماء أمامهم فيأتيهم بكتاب يقرؤونه، وطلبوا أن يُنزِّل عليهم ملائكةً أو يروا ربَّهم، فهم في سَخَافة العقل ومكابرةِ الحق والعِناد متشابهون، كما قال تعالىٰ في سورة الذاريات: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

ثم ردَّ عليهم سبحانه وتعالىٰ بأنَّ أحسن الآيات قد أتتهم ولم يعقلوها، فقال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾[1]، أي: آتيناهم آيات عظاماً، لو أنهم

---

(١) كانت آيات الأنبياء التي تؤيد دعواهم آيات كونية عجيبة، كالعصا لموسىٰ، وإبراء المرض لعيسىٰ، وأمثال ذلك، فلما بلغ تدرُّج الإنسان في العلم والفهم والعرفان أول درجة الكمال، ختم الله الشرائع بنزول القرآن يخاطبهم بالعقل والبرهان؛ لأنه أجلىٰ للحق وأوضح للبيان لقوم يوقنون. (المؤلف).

يوقنون، وهي آيات القرآن التي يظهر بها الحق بطريق منطقي مقبول واضح، لا يشتبه فيه الفهم، ولا يَحار فيه الذهن، كما في الآيات الكونيَّة، وإنما لم يتعرَّض لردِّ طلبهم التكليم؛ لظهور بطلانه بنفسه.

وبعد أن بيَّن لجاجهم في اقتراح المعجزات على سبيل التَّعنُّت، وإصرارهم على الباطل، خَتَم السياق المتضمِّن لإنكارهم رسالته، بما فيه تسليةٌ له ﷺ، وردٌّ عليهم، وتمحيصٌ وتقريرٌ للحقِّ، ضمن البيان لوظيفة الرسول، فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالشيء الثابت المتحقِّق، ﴿بَشِيرًا﴾ بسَعَادتي الدنيا والآخرة لمن يتَّبعه، ﴿وَنَذِيرًا﴾ بشقائهما لمن يخالفه، ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ أي: لست بمسؤول عنهم في انحرافهم عن الصواب، وإنما هم المسؤولون، فلا يضرُّك تكذيب المكذِّبين.

ومحصَّل الكلام: أنك مكلَّف بتبليغ الرسالة وقد فعلت، فلا عليك إن كذَّبوا. وفي عنوانهم[1] بأصحاب الجحيم، إيعادٌ لهم وتحقيرٌ ووعيدٌ رهيب.

وفي الآية من العبرة أنَّ الأنبياء بُعثوا معلِّمين لا مُسيطرين ولا مُكرِهين، فإذا جاهدوا فإنما يجاهدون دفاعاً عن الحق لا إكراهاً عليه.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

ثم بيَّن سبحانه شدَّة تمسُّكهم بباطلهم، ويأسه من إيمانهم به، وقطَعَ طمَعَهُ في ذلك، فقال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ زاعمين أنهم على ملَّة إبراهيم وذُرِّيَّتِهِ عليهم السلام.

---

(١) أي: تسميتهم بهذا الاسم وإطلاقه عليهم كالعنوان لهم.

قال الأستاذ الإمام: من شأن الإنسان أن يتألَّم من القبيح أشدَّ التألُّم، إذا وقع ممَّن لا يتوقع منه، وكان النبيُّ ﷺ يرجُو أن يبادر أهل الكتاب إلىٰ الإيمان به، وأن لا يرىٰ منهم المكابرة والمجَاحَدَة والعناد، لموافقته لهم في طابع دينهم ومقاصده من توحيد الله تعالىٰ والإخلاص له وتقويم عِوَج الفطرة الإنسانية الذي طرأ عليها بسبب التقاليد، ولذلك كان يخاطبهم بمثل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وغيرها من الآيات، فلما رأىٰ من إعراضهم عن إجابة دعوته وإسرافهم في مُجَاحدته أشدَّ مما رأىٰ من مشركي العرب الذين جاء لِـمَحْق دينهم، كَبُر ذلك عليه، فجاءت هذه الآية لتسليته ﷺ عمَّا كان يجده من عنادهم وإيذائهم، كما جاء غيرها من الآيات، ولتيئيسه من إيمانهم حتىٰ لا يبقىٰ له مَطْمع فيه[1].

ثم أمره تعالىٰ في مقابلة ذلك بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾، أي: اجْهَر بقول الحق، وهو أنَّ الهدىٰ الصحيح هُدىٰ الله الذي أنزله علىٰ أنبيائه دون ما أضافه إليه اليهود والنصارىٰ بأهوائهم.

ثم لوَّن الخطاب، فأتىٰ بخطاب العين مراداً به الغير، (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الخامسة)، فقال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ التي أضافوها علىٰ كتبهم ﴿بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١٢٠﴾.

وهذا تهديدٌ عظيم تَرعَدُ له الفرائص، وتقشعرُّ منه الأبدان، وليس هذا زَجْراً له ﷺ، إذ لا يخالف ذلك ما في نفسه وانطباعاته، وإنما هو أسلوب من أساليب القرآن

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٦٥) بتصرف.

تجده كثيراً فيه. والمراد: شدَّة التفظيع لما تعلَّقت به هذه الأهواء من الشرك والكفران.

وقال في «المنار»: إنَّ من المعلوم أنَّ شرط (إنْ) لا يقتضي الوقوع، فهو لا يدلُّ علىٰ أن اتِّباع أهوائهم متوقَّع منه ﷺ، وإنما هو فرض لبيان مضمونه بلون من ألوان شدَّة البيان.

وَقال الأستاذ الإمام: مَنْ تدبَّر هذا الإنذار الشديد الموجَّه من الله تعالىٰ إلىٰ نبيِّ الرحمة المؤيَّد بالكرامة والعصمة، علم أنَّ المراد به الوعيد والتشديد علىٰ الأمة، فإنَّ الله تعالىٰ يخاطب الناس كافَّة في شخص النبي ﷺ، كما جرىٰ عرف التخاطب مع الرؤساء والزعماء، فقد يقال للملك: إذا فعلت هذا كانت عاقبته كذا، والمراد: إذا فعلته دولتك أو أمتك.

أقول: ويجوز أن يكون مثل هذا الأسلوب للمبالغة في التفظيع.

ثم استدرك علىٰ هذه الآية الـمُيئِّسة من إيمان أهل الكتاب، بأنَّ منهم مَنْ آمن أو يُرجىٰ إيمانه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فأخذوا ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: يتدبَّرونه ويفهمونه فهماً صحيحاً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ هم الذين يقدرون شأنَ ما جئتَ به، و﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ إيماناً صحيحاً، ﴿وَ﴾ أما ﴿مَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾ من الرؤساء المعاندين والـمقلِّدين الجاهلين، وهم الأكثرون، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ أي: للسعادة الأبديَّة.

قال الأستاذ الإمام: عبَّر عن التدبُّر والفهم، بالتلاوة حقَّ التلاوة، ليُرشدنا إلىٰ أنَّ ذلك هو المقصود من التلاوة، وأن مَنْ يتلوه علىٰ غير هذه الصورة، فهو كَمَثَل الحمار يحمل أسفاراً[1].

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٦٨).

أقول: وعلىٰ هذا فكيف بترجمة القرآن إلىٰ لغة من اللغات، وكيف يتلوه هذه التلاوة مَنْ لم يتعلّم العربية، فلذلك كانت عالميةً كالقرآن والدين الإسلامي.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾.

ثم دعا أهل الكتاب إلىٰ ترك أسباب الغرور المانع من الإيمان بهذا القرآن، وذكَّرهم بما له عليهم من المنن والإحسان، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾، وتمحيصُ ذلك بأن خصَّهم في عصر نزول التوراة دون سائر الأمم، فإنزالها عليهم وانتدابهم لنشرها في الأمم، كما خصَّ العرب بمثل ذلك. وقد تكرَّرت فذكرها أولاً مصدِّراً بها الكلام الذي دعاهم فيه إلىٰ اجتناب الباطل، وذكرها ثانياً مصدِّراً بها الكلام الذي دعاهم فيه إلىٰ اعتناق الحقِّ لتكون هزاً لهم في كلا الموقفين. وإنما ذكَّرهم بهذه الميزة ليثيرَ فيهم الحِرصَ علىٰ التمسُّك بأسبابها، لأنَّ الوصف بالشرف مَثَارٌ للنخوة وحثٌّ علىٰ العمل.

وقد جَعَل هذا تمهيداً لقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ أي: فلا ينفعكم أن تعتذروا بأنهم كنتم متَّبعين لرؤسائكم وعُلمائكم في ذلك الفهم، ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ﴾، وكانوا يعتقدون بالمكفِّرات تُؤْخذ عدلاً عمَّا فرطوا فيه، ويعتقدون بشفاعة أنبيائهم لهم[1]، فأوضح لهم الحقَّ بأسلوب تهديدي قرَّره بقوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾، ومَنْ يمنعهم من الله وعذابه؟ أعاذنا الله.

---

(١) ذكر هذا الأمرَ بعضُ المُفسِّرين، وهو غيرُ مُستبعَد في شأن بني إسرائيل المخاطبين في الآية قبل هذا بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ..﴾ [البقرة: ٤٠]. وينظر ما علقتُ عليه في مقدمة التفسير حول الشفاعة (١: ٧٧٩-٧٨١).

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾.

ثم عقَّب سياق الكفر بسياق الإيمان على نهج القرآن في مثله، ناظراً إلى ما ألمعتْ إليه آية: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠] من ادِّعاء صحَّة ما هم عليه من عقيدةٍ وأعمال، وأنها تُطابق ما جاء به إبراهيم وذُرِّيَّته عليهم السلام، وضَمَّنَ الكلامَ مُحاجَّة الإسرائيليين ومشركي العرب بأنَّ هُدىٰ الله هو ما عليه النبيُّ ﷺ؛ من التوحيد والإسلام الذي هو ملَّة إبراهيم عليه السلام، وأنَّ ما هُم عليه أهواء زائفةٌ، وما يدعونه من أنهم على ملَّته غير صحيح، وذلك لبيان ما صَدَر عن إبراهيم وأبنائه الأنبياء مما يُصرِّح بالتوحيد وبطلان الشرك وبصحَّة نبوة محمد ﷺ، ذاكراً في ذلك تاريخ إبراهيم عليه السلام، فقال: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ أي: بواجبات ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾[1].

---

(١) وجه ربط قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ...﴾ بالسياق: لما ذكر في السياق السابق الطويل أحوال مشركي العرب والمنافقين، وأحوال بني إسرائيل، وأنَّبهم على قباحة تصرُّفهم في أمر الدين ونَبْذ كتابهم المبين، وعلىٰ بَلَاهة منطقهم في عقائدهم الباطلة وأفكارهم المتناقضة =

قال الأستاذ الإمام ـ مُعلِّقاً علىٰ قول بعض المفسِّرين في تفسير الكلمات: أنها الخصال العشر؛ التي منها الختان وقصُّ الشارب[١] ـ قال: إنَّ هذا من الجُرأة الغريبة علىٰ القرآن، ولا شك عندي في أنَّ هذا مما أدخله اليهود علىٰ المسلمين ليتَّخذوا دينهم هزؤاً، وأيُّ سخافة أشدُّ من سَخَافة من يقول: إنَّ الله ابتلىٰ نبياً من أجلِّ الأنبياء بمثل هذه الأمور؟! وأثنىٰ عليه بإتمامها، وجَعَل ذلك كالتمهيد والتَّرويض لجَعْله إماماً للناس وأصلاً لشجرة النبوَّة، وإنَّ هذه الخصال لو كُلِّف بها صبيٌّ مميِّز لسَهُلَ عليه إتمامها، ولم يُعَدَّ ذلك منه أمراً عظيماً. والحقُّ أنَّ مثل هذا يُؤْخَذ كما أخبر الله تعالىٰ به، ولا ينبغي تعيين المراد منه إلا بنصٍّ عن المعصوم ﷺ[٢].

أقول: وإن كان ولا بدَّ من البيان، فالأوْلىٰ أن تُحمل «الكلمات» علىٰ الأوامر الإلٰهيَّة وتنفيذها، أشباهَ تركِ ولدِه وزوجِه بوادٍ قَفْرٍ مُوحش تنفيذاً لأمر الله، ومحاولة

---

= وسَخَافة دعاويهم وشناعة كفرهم وَلَـيِّ ألسنتهم وطَعْنهم في الدين، عَرَضَ صورةً من الدين الصحيح والعقائد السليمة والعبادة المستقيمة في تاريخ إبراهيم عليه السلام، لأنَّ العرب وبني إسرائيل من ذُرِّيته ويدَّعون أنهم علىٰ شريعته، فَعَرَض ذلك لبيان باطلهم وضلالهم وللمبالغة في الردِّ علىٰ أكاذيبهم وافتراءاتهم وتعلُّلاتهم السخيفة وتبجُّحاتهم المُزْرية، علىٰ نهج القرآن في الكلام عن المؤمنين بعد الكلام علىٰ الكافرين؛ ليتبيَّن الحال للناظرين، ولا عدوان إلا علىٰ الظالمين. (المؤلف).

(١) يشير إلىٰ الحديث الذي رواه البيهقي (١: ٥٣) من حديث عمار بن ياسر مرفوعاً: «عشر من الفطرة: المضمضة، والاستنشاق، والسواك، وقص الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، وحلق العانة، وغسل البراجم، والانتضاح بالماء، والختان».
والبراجم: هي مفاصل الأصابع، واحدتها: بُرجُمة. وفي معناها كُـلُّ ما يجتمع فيه الوسخ من البدن.

(٢) تفسير «المنار» (١: ٣٧٣- ٣٧٤).

ذبح ابنه تنفيذاً لأمر الله، ومناهضة قومه بكلِّ قوة حتىٰ أدَّىٰ الأمر إلىٰ محاولة إحراقه بالنار وإخراجه من الديار، إلىٰ أمثال ذلك من عظائم الأمور، والله أعلم، فإنَّ الأنبياء تُروَّض وتُبتلىٰ بما أيْسَرُه يَـجْزَع له كلُّ جَلِدٍ جَسُور، ولا يقوم علىٰ مثله صَبْر صَبُور، وليس ذلك بشيءٍ في جانب مقام النبوَّة المستهدف لعظائم الأعمال وجلائل الأمور. ولا يُعارض هذا أنَّ بعض هذه الأمور جَرَت في أثناء نبوَّته؛ لأن اختبار النبيِّ يكون قبل النبوَّة وأثناءها تدريباً له، ولأنَّ الكلام هنا عَرَض لها، فلا فرق فيه بين السابق واللاحق.

فلما أتمَّ إبراهيم عليه السلام تلك الأمور التي ابتلاه الله وامتحنه بها علىٰ وجهها الأكمل، ﴿قَالَ﴾ تعالىٰ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ تنشر فيهم الدين الصحيح والعمل الصالح. ويظهر من السياق أنَّ المراد بالإمامة درجة عالية في مَسْلك النبوة، والله أعلم. أما إبراهيم عليه السلام، فقد افترص هذا الرضا من الله عزَّ وجل وطلب ما أُلـهِمَ من أن تَتعاقب هذه الكرامة في عقبه، كما حكىٰ عنه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: قال: واجعل من ذُرِّيتي أئمةً للناس، وهذا إيجازٌ في الحكاية عنه لا يُعْهَد مثله إلا في القرآن.

فأجاب سبحانه طلبه بقوله: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾، فهذه إجابة ضمنيَّة خفيّة لدعوته ﷺ، وعِدةٌ إجمالية منه تعالىٰ، بتشريف بعض ذريته عليه السلام بنَيْل عهد الإمامة حسبما طلب، فلم يُبعث بعده نبيٌّ إلا كان من ذُرِّيَّته ومأموراً باتِّباع ملَّته.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: لا يكون ذلك إلا مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، لأنَّ العالم غارق في الظلم والظلام، وفي العبارة من الإيجاز ما يتناسب مع إيجاز ما قبلها من الدعاء، فقد صيغت الإجابة بصيغة الطلب نفسه.

ثم قال الأستاذ الإمام: وقد أخذوا من هذه الآية حكماً أصولياً، وهو أنَّ الظالم لا يجوز أن يُولَّىٰ منصب الإمامة العظمىٰ، واشترطوا لصحَّة الخلافة فيما اشترطوا: العلم والعدل[١]. لأنَّ المراد بالظالمين: المشركون، والشِّرك جهل وظلم عظيم.

ثم ذكر سبحانه ما كَلَّف به إبراهيم عليه السلام بعد نَـيْله للإمامة، وهو بناء البيت وتطهيره، وسَبَك العبارة بصورة تزدحم فيها المعاني، زيادةً علىٰ الغرض الأصلي، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، مذكِّراً العرب بهذه المنة، فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، واختار «المثابة» علىٰ «المَزار» لأنها تتضمَّن هذا وزيادة، وتـتناسب مع قوله: ﴿وَأَمْنًا﴾ بمعنىٰ: مَأْمناً لهم في بلاد المخاوف التي يُتَخَطَّف الناس فيها مِن حولهم بالقتل والسَّلب، وذلك لأنَّ العرب في الجاهلية كانت تشنُّ الغارات بعضها علىٰ بعض، وتقتل وتأسر وتسلب، ولا يُحتَرَمُ منهم إلا أهل هذا البيت.

وقوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ جملةٌ اعتراضية في خلال قصَّة بناء إبراهيم لهذا البيت، تشير إلىٰ اتِّخاذه لهذا الغرض، ووجوب حَجِّه. فأمرنا بذلك مُعجِّلاً قبل إتمام السياق، اهتماماً بالأمر، علىٰ نهج القرآن وبلاغته في مثل ذلك. فالجملة بمقتضىٰ السياق تمنُّنٌ وتنويه، وبمقتضىٰ الصيغة أمرٌ وتشريع.

وفي هذه الآيات تمهيدٌ آخرُ لما سيأتي من أمر تحويل القبلة أيضاً فوق الغرض المنوط بها علىٰ نهج القرآن في ازدحام المعاني والأغراض في أكثر تراكيبه وأساليبه.

أما مقام إبراهيم فقد قال بعضهم: إنه الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء الكعبة، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس وقتادة وجابر وغيرهم. وقال آخرون: إنه الحرم كله، وهو مرويٌّ عن النخعي ومجاهد. وعن عطاء: أنه مواقف الحج كلها[٢].

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٧٦).

(٢) روىٰ هذه الآثار الطبري في «تفسيره» (٢: ٣٣-٣٤).

ويظهر من قوله تعالىٰ: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ أن المراد بالمصلَّىٰ: معناه العام، وهو المعبد كما ذهب إليه بعض المفسِّرين. وعليه، فيكون المراد من المصلَّىٰ: المدَّعىٰ، أي: ما يُدعىٰ الله فيه وما يُتَوجَّه فيه إليه، فيكون المراد من الصَّلاة هنا معناها اللغوي لا الاصطلاحي، ولكنه يشمله لأنه أعمُّ منه.

وإضافة البيت إلىٰ الله تعالىٰ للتعظيم، إذ كل شيء عظَّمه الله تعالىٰ أضافه إلىٰ نفسه كما في قوله تعالىٰ: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]، و(خليل الله)، و(روح الله). وعبَّر بالتطهير عن البناء؛ تعبيراً بالغاية، وتهجيناً للمشركين عن تلويثه بالأصنام.

وبعد أن نوَّه بشأن هذا البيت زيادةَ تنويه، ألمع إلىٰ التَّنويه بشأن بلدِ هذا البيت، ذاكراً سبحانه الحال الثالث من أحوال إبراهيم عليه السلام، وهو دعاؤه لهذا البلد وأهله المؤمنين منهم، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، فخصَّ بدعائه المؤمنين كما هو اللائق به، ولكنَّ الله واسعُ الرحمة، جَعَل رزق الدنيا عاماً للمؤمن والكافر، فاستجاب دعاء إبراهيم عليه السلام بأوسع ممَّا طلب، مُبيِّناً أنَّ فَضْله لا يختصُّ بالمؤمن، إلا أنه في حقِّ الكافر متاع في الدنيا فقط، حيث قال: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾، وفي الآية إيجازٌ بليغٌ، والتقدير: قال: أرزق مَنْ آمن ومَنْ كفر، ولكن أمتِّع به الكافر قليلاً في الدنيا، ثم أضْطَرُّه إلىٰ عذاب النار في الآخرة.

قال في «المنار»: ذكَّر الله تعالىٰ العرب أولاً بنعمته عليهم بهذا البيت، إذ جعله مثابةً للناس وأمناً، وبدعاء إبراهيم عليه السلام لبلد البيت، واستجابة الله تعالىٰ دعاءه، إذ جعله بلداً آمناً تُجْبىٰ إليه الثمرات من البلاد البعيدة فيتمتَّع أهله بها، وهي نِعَمٌ

يعرفونها لا ينكرونها. وانتقل منها إلىٰ التذكير بالنعم المعنويَّة، فذكر عَهْدَه إلىٰ إبراهيم وإسماعيل بأن يُطَهِّر بيته للطائفين والعاكفين والركَّع السجود، لِيُنَبِّههم بإضافة البيت إلىٰ نفسه أنه لا يليق أن يُعبَدَ فيه غيرُه، وبتطهيره لأجل الطواف والاعتكاف والصلاة أنه يجب تنزيهه عن الأصنام والتماثيل وعبادتها الفاسدة، وعن سائر الأعمال الذميمة كطواف العريان، وكانوا يَفْعَلونه.

ثم ذكَّرهم بعد هذا بأنَّ إبراهيم هو الذي بنىٰ هذا البيت بمساعدَةِ ابنه إسماعيل، وذكَر لهم من دعائهما هناك ما يُرشدهم إلىٰ العبادة الصحيحة والدين الحق، ويَجْذبهم إلىٰ الاقتداء بذلك السلف الصَّالح الذي ينتمون إليه ويفاخرون به[1]. فقال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ قائلين: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾، وشرفُ هذا البيت إنما هو بتسمية الله إيَّاه بيتَه، وجَعْلِهِ موضعاً لضروبٍ من عبادات مخصوصة فيه لا تكون في غيره.

ثم تابعا الدعاء فقالا: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ أي: منقادَيْن خاضعَيْن. والمراد: ما يشمل التوحيد والإخلاص والعمل جميعاً، ﴿وَ﴾ اجْعَل ﴿مِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، وقد غَلَب استعمال النُّسُك في عبادة الحج خاصَّة، واستعمال المناسك في معالمه وأعماله، كمواقيت الإحرام والوقوف والطواف وأمثال ذلك.

ثم قالا: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾، وهذِهِ الفاصلة تعليلٌ للدعاء، ومزيدُ استدعاء ورجاء للإجابة.

وقد قيل: إذا أراد العبد أن يُستجاب له فَلْيدع الله عزَّ وجل بما يناسب ذلك الدعاء من أسمائه وصفاته.

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٨٣).

ويختلف اتهام هؤلاء الأبرار لأنفسهم باختلاف معرفتهم بصفات النفس وما يعرض لها من الآفات في سَيْرها، ومعرفتهم بكمال الله عزَّ وجل، ومعنىٰ القرب منه واستحقاق رضوانه، ولذلك قال بعض العارفين: حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقربين.

واعلم أنَّ الظاهر يدلُّ علىٰ أنَّ أول ما جرىٰ من الأمور المحكيَّة في هذا السياق هو الابتلاء وما يتبعه، ثم الدعاء للبلد، ثم رَفْعُ قواعد البيت، ثم جَعْلُه مثابةً للناس، والأمرُ بتطهيره. وإنما غيَّر في الترتيب الوقوعي في الحكاية لتنظيم الشؤون الصَّادرة عن الله سبحانه في سلك مستقلّ، وتنتظم الأمور الصادرة عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من الأفعال والأقوال في سلك آخر.

أما قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ فإنما وقع في تَضَاعيف الأحوال المتعلِّقة بإبراهيم عليه السلام لاقتضاء المقام ذلك، بحيث لم يكن منه بُدّ، وكذلك وقوع قول إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ في كلامه سبحانه.

ثم تابعا الدعاء، فبعد أن طلبا أن يكون من ذُرِّيَّتهما أمةً مسلمةً منقادةً لأوامر الله تعالىٰ، طلبا طريقَ هدايتها، فقالا: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، والضمير يعود إلىٰ الأمة المسلمة التي سأل اللهَ إبراهيمُ أن يجعلهم من ذُرِّيَّته، وقد أجاب الله هذه الدعوة بإرسال خاتم النبيين، كما وَرَد في الحديث: «أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسىٰ»[1] إلخ، وإنما خصَّ إبراهيم بالذكر لأن إسماعيل تَبَعٌ له.

ثم ذكرا مهمة ذلك الرسول، فقالا: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ

---

(١) رواه أحمد (١٧١٥٠) ـ وقال مُخرِّجوه: حديث صحيح لغيره دون قوله: «وكذلك أمهات النبيين ترين» ـ، والحاكم (٣٥٦٦) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه.

﴿وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾، وهذه الكلمات من إبراهيم عليه السلام تُقرِّر الصِّلة التاريخية المتينة التي تربط هذا النبيَّ وأمته بذَيْنِكَ النبيَّين الجليلَيْن ودينهما. وهذه الفاصلة تعليلٌ لإجابة المؤمَّل، بأنه مما تَقْتضيه الحكمة، وبأنَّ الله سبحانه لا يُغْلَب علىٰ ما يريد. والأنبياء لا تدعو بمثل هذا الدعاء وتطلب مثل هذا الطلب، إلا بعد الوحي الإلهامي من الله، بأنَّ ذلك بالحسبان.

وقد عُلِمَ مِن عَهْدِ بناء البيت إلىٰ إبراهيم وتطهيره لعبادته ودعائه بهذا الدعاء: أنَّ ملَّته هي توحيد الله، وإسلام القلب إليه، والإخلاص له بالأعمال، وتعظيم البيت، وإقامة المناسك فيه؛ لذلك بكَّت الله سبحانه المشركين بقوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾[1]، أي: امتهنها واستخفَّ بها. كأنه تعالىٰ يقول: هذه ملَّة أبيكم إبراهيم الذي تنتسبون إليه وتفخرون به، فكيف ترغبون عنها وتنتحلون لأنفسكم أولياء لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً[2].

ثم إنه تعالىٰ لما حكم بسَفَاهة مَنْ رَغِبَ عن ملَّة إبراهيم عليه السلام، بيَّن السبب والوجه، فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بهذه الملَّة، فجعلناه إماماً للناس، وجعلنا في ذُرِّيته الكتاب والنبوة، ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ لجوار الله، وذلك بعمله بهذه الملَّة، ودعوته إليها، وإرشاده الناس بها. فملَّةٌ جَعَلَت لإبراهيم هذه المكانة عند الله تعالىٰ في الدنيا والآخرة لا يَرغَبُ عنها إلا من سَفِه نفسَه وجَنىٰ علىٰ إدراك عقله، فاستحبَّ العَمَىٰ علىٰ الهُدىٰ.

---

(١) السفه: هو أن يرىٰ النفع في موضع الضرر، والضرر في موضع النفع، فيجوز أن يضمَّنَ «سَفِهَ» معنىٰ: خسر، أي: خسر نفسه بهذا النظر الفاسد. (المؤلف).

(٢) كانت قريش تنتسب إلىٰ إبراهيم وإسماعيل، وتدعي أنها علىٰ ملة إبراهيم، وسائرُ العرب تبعاً لها، وكانت تعتقد أنها أهدىٰ من الفرس والروم باتباعها لإبراهيم. (المؤلف).

وإنما آثَرَ الجملة الاسميَّة في جانب الصَّلاح في الآخرة؛ لأنه أمرٌ خفيٌّ يحتاج إلىٰ تأكيدٍ أشدَّ من تأكيد الاصطفاء.

ثم حكىٰ حالة خامسة عن أحوال إبراهيم عليه السلام، وسَبَك العبارة علىٰ أن تكون تصويراً للاصطفاء، وتعليلاً له ولكونه من الصَّالحين، كما هو أسلوب القرآن في بلاغة التراكيب وضروب الإيجاز، فقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ أي: اصْطَفَاه إذْ دعاه إلىٰ الإسلام بما أراه من آياته، ونَصَبَ له من بيِّناته، فأجاب الدعوة، و﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾، وفي هذا الوصف إيذانٌ بكمال إسلامه المبنيِّ علىٰ النظر والاستدلال.

وقد نشأ إبراهيم ﷺ في قوم يعبدون الكواكب ويتَّخذون الأصنام، فأراه الله حُجَّته وأنار بصيرته، فنفذت أشعتُها في العالم الشمسي ونظامه، وأدركت أن لجميع العالمين رباً واحداً منفرداً بالخلق والتدبير. وحاجَّه قومه فَبَهَرهم ببرهانه وأفحمهم ببيانه، وقد قصَّ الله تعالىٰ خبره معهم في سورة الأنعام[1].

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

ثم ذكر تعالىٰ تكميلَه عليه السلام لغيره، إثر ذكر كمالِهِ في نفسه، توكيداً لوجوب الرغبة في ملَّته، فقال: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾ أي: بالملَّة أو بالخصلة التي ذكرت أخيراً ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ بنيه، وهذا العطف بيانٌ لتكميل يعقوب أيضاً لغيره إثر بيانِ كمالِهِ في

(١) في الآيات ٧٤-٨٣.

نفسه، إيذاناً بتسلسل تلك الوصيَّة فيهم، فكانا يوصيان بها بنيهما قائلين: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي: اختاره لكم؛ بهدايتكم إليه، وجَعَل الوحي فيكم، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ وهذا لونٌ بليغ من ضروب تعابير القرآن، يدلُّ علىٰ الحثِّ بأن يبالغوا في تمسُّكهم بالإخلاص والانقياد إلىٰ الله. علىٰ حدِّ قولهم: مت وأنت شهيد.

ثم قال في «المنار»: ذَكَرَ ملّةَ إبراهيم وحُكْمَ الراغب عنها، ووصيَّتَه بَنِيه بها، ووصيَّةَ حفيده يعقوب بَنِيه بها أيضاً، وذلك يشعر بأنَّ بني إبراهيم كانوا يوصُون بما أوصاهم أبوهم. فإن يعقوب أخذ الوصيَّة عن أبيه إسحاق، وذلك من ضروب الإيجاز الدقيق في القرآن.

ثم أراد أن يقرِّر أَمْرَ هذه الوصيَّة ويؤكِّدها، ويقيم الحجَّة بها علىٰ أهل الكتاب متندِّراً عليهم، فقال: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾[1]، وخلاصة هذه الوصية: عقيدة التوحيد والتنزيه، وإسلام القلب لله تعالىٰ، والإخلاص له.

وصورةُ الكلام لونٌ بليغ وبديع من التَّقريع للمشركين علىٰ تمسُّكهم بدين الشرك، وادِّعائهم أنه دينُ إبراهيم عليه السلام. وإبراهيمُ وأولاده كانوا يوصُون بالتوحيد والتنزيه، أو هو تقريعٌ لليهود كذلك.

و﴿أَمْ﴾ للعطف علىٰ محذوف، كما هي سنة القرآن (المذكورة في الفقرة (ب) من المادة العاشرة من المقدِّمة الثانية).

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٩٢).

والتقدير: أكنتم غائبين أم كنتم شهداء؟ وهذا الاستفهامُ ملفوفٌ بتنذُّر وهُزْءٍ، وفيه مبالغةٌ في التقرير، أي: إني أزيدكم علماً بهذه الوصيَّة وحرصهم عليها. ويجوز أن تكون «أم» لمجرَّد الاستفهام.

ثم عقَّب النهج التقريعي التهكُّمي، بالنهج التَّصريحي، مُلمِعاً إلىٰ أنَّ بينكم وبينهم تَبايناً بعيداً، فقد كانوا علىٰ الحق، وأنتم علىٰ الباطل، فقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾، وفي هذه الفاصلة تنـزيلٌ لهم منزلة غير الراضين عن عبادتهم، إيماءً لبُعدهم عنهم، ومبالغةً في مغايرتهم لهم، وشدَّةَ قطع لأطماعهم عن الانتفاع بحسنات أسلافهم، فلا ينتفع أحد بعمل غيره إذا لم يكن له شيء في العمل، ولا يُجزىٰ أحد بعمل غيره، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٩ – ٤١]. وهذا القانون المقرَّر في الكتب السماوية قديمها وحديثها بلا خلاف فيها.

وقال الإمام الغزالي: إذا كان الجائع يشبع إذا أكل والدُه دونَه، والظمآن يُرْوَىٰ بشُرب والدِه، فالعاصي يَنْجو بصلاح والده[1].

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

ثم أعاد مضمون قوله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وأكمل الردَّ عليه بعد أن تهيَّأ الكلام بذكر تاريخ إبراهيم عليه السلام

---

(١) يراجع كلام الغزالي في «الإحياء» (٣: ٣٨٥).

وديانته عائداً بالكلام إلىٰ محوره السابق ـ وهو مساوئ بني إسرائيل وضلالهم الشنيع ـ علىٰ نهج القرآن في العودة، فقال: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾، وفي هذا الكلام إيجازُ القرآن وسَبْكُه الخاص. والمراد: قالت اليهود: كونوا هُوداً، وقالت النصارىٰ: كونوا نصارىٰ. كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، وإنما يُوجز القرآن مثل هذا الإيجاز، اعتماداً علىٰ ظهور المراد بدلالة الاقتضاء ومعونة السياق. وذلك من البلاغة العالية.

ومعنىٰ الآية: إن اليهود يدعون إلىٰ اليهودية التي هم عليها ويحصرون الهداية فيها، والنَّصارىٰ يدعون إلىٰ النصرانية التي هم عليها ويحصرون الهداية فيها، لذلك قال تعالىٰ مُلقِّناً لنبيِّه ﷺ البرهان في مُحاجَّتهم: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ أي: نـتَّبع ملَّة إبراهيم الذي لا تنازعون في هُداه ولا في هَدْيه، فهي الملة الحنيفيَّة التي لا انحراف فيها ولا زَيْغ، المبنيَّة علىٰ التوحيد والتَّنزيه بلا وثنيَّة ولا شرك.

والحنيف في اللغة: المائل. وإنما أطلق علىٰ إبراهيم هذا اللقب أو الوصف؛ لأنَّ الناس في عصره كانوا علىٰ طرائق مُنوَّعة من الشرك والكفر، فخالفهم كلهم، وتنكَّب عن طرائقهم.

وفي هذا الردّ عليهم تعريضٌ ببطلان دَعْواهم اتِّباع إبراهيم عليه السلام. وإنما الذين يتَّبعونه المؤمنون بدين الإسلام، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران: ٦٨].

وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ تعريضٌ بأنه ليس منهم وليسوا منه في شيء، وتعقيبٌ لإثبات الشيء بنفي ضدِّه، علىٰ نهج القرآن في ذلك.

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

ثم خاطب المؤمنين وأرشدهم إلىٰ طريق التوحيد والإيمان بضَرْب من التفصيل، تحقيقاً للحقِّ في مقابلة دعوىٰ اليهود والنصارىٰ الباطلة، فقال: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾، ثم غيَّر الأسلوب تفخيماً لشأن المنزَّل إلينا فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: فكلُّهم رسل الله، وكلُّ شرائعهم من أم الكتاب، فلا نقول كما يقول غيرنا: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ولكنها أتت متدرِّجة تدرُّج صفوف العلم، وينسخ الثاني الأولَ مثل قوانين الدولة.

وإنما قال: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾، ولم يقل: (لا نُفرِّقُ بينهم)؛ للتنصيص علىٰ عدم التفريق بين كلِّ فرد وفرد منهم، ثم أكمل البيان بقوله: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي: مُنقادون لله مُذْعنون.

والمنزَّل إلينا: القرآن، والمنزَّل إلىٰ إبراهيم: الصُّحُف، وعَدَّها كذلك مُنزَّلةً علىٰ إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط؛ لأنهم مكلَّفون بالعمل بها. وما أوتي موسىٰ: التوراة، وعيسىٰ: الإنجيل. وقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ إجمالٌ لما قبله وتقرير. وقيل: المراد بما أنزل: الشرائع، وبما أُوتوا: المعجزات والآيات الكونيَّة.

ثم بكَّتَ أولئك المعاندين بهذا الأسلوب الإفْحامي، فقال: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ

مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن ذلك ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ فألمع سبحانه بدلالة الإيماء ومَعُونة السياق إلىٰ أنَّ غرضهم من هذه الدعوىٰ: الشقاق والمشَاغَبة والخصام والتنصُّل من الإيمان بالقرآن، وأنَّ الله سبحانه سيكفيك شرَّهم وفسادهم، فلا تهتمَّ لأمرهم.

وفي صيغة الكلام مقابلةُ فَهْم وقَلْبٌ للوصف، أي: إن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا، لا إنْ آمنتم بما آمنوا به اهتديتم.

وفيه أيضاً تسليةٌ له ﷺ وتثبيتٌ، وإنما جرَّد الخطاب له في الكفاية مع أنها للكُلِّ؛ لأنه الرئيس يُخاطَب بما هو للمجموع.

وقيل: الكلام من باب الاستدراج وإرخاء العنان، أو من باب التعجيز والتبكيت، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]. والمعنىٰ: فإن حصَّلوا ديناً آخر مثل دينكم، مماثلاً له في الصحَّة والسَّداد؛ فقد اهتدوا، وإذ لا إمكان له؛ فلا إمكان لاهتدائهم إلا بهذا الدين.

ثم عبَّر عن الإيمان بما ذكر علىٰ الوجه الذي فصَّل، ووصفه بقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾، وإنما عبَّر عنه بهذه العبارة وَوَصفه بهذا الوصْف، لكون هذا الإيمان تطهيراً للمؤمنين من أوْضَار الكفر، وحليةً تُزيِّنهم بآثاره الجميلة وأحواله الجليلة، كما أنَّ شأن الصَّبغ بالنسبة إلىٰ الثوب كذلك. وهي مصدرٌ منصوب علىٰ الإغراء، وقيل: مصدرٌ مؤكِّد لقوله تعالىٰ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، لكونه بمثابة فعله أو لازمه، لأن الإيمان تكييف للنفس كالصَّبغ، وتثقيفٌ لها بأحسن أنواع التثقيف.

وقال الأستاذ الإمام: تُشير هذه الآية إلىٰ أنه لا حاجة في الإسلام إلىٰ تمييز المسلم من غيره بأعمال صناعيَّة كالمعموديَّة عند النصارىٰ مثلاً، وإنما المدار فيه علىٰ ما صبغ الله

به الفطرة السليمة من الإخلاص وحبِّ الخير والاعتدال والقَصْد في الأمور، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠][1].

ثم نوَّه سبحانه بشأن هذه الصبغة، فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾، وعلىٰ رأي الأستاذ فيما بيَّن من التلميح، يكون في الكلام مشاكلة تقديرية، وذلك لأنَّ النصارىٰ كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمُّونه المعموديَّة، ويزعمون أنه تطهيرٌ لهم، وبه تتحقَّق نصرانيَّتهم، فردَّ الله سبحانه عليهم وكذَّبهم بطريقة المشاكلة، مُبيِّناً أنَّ هذا الدين الصحيح هو صبغة فطرية إلٰهيَّة، لا صبغة كاذبة وهميَّة كصبغتكم.

وإجمال البحث عن السياق: أنَّ الملَّة الصحيحة هي ملَّة إبراهيم، وهي لم تكن يهوديَّة ولا نصرانيَّة، وإنما هي صبغة إلٰهيّة، صبغة الله التي لا صُنع لأحد فيها، بل هي بريئة من اصطلاحات الناس وتقاليد الرؤساء، فهي الجديرةُ بالاتِّباع، ولكن التقاليد والتحريفات والمواضعات قد طمستها؛ لذلك جاء محمد ﷺ ببيانها ودعوة الناس إلىٰ الرجوع إليها.

ومن مباحث اللفظ: أنه يجوز أن يقال فيه: إنَّ قوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ منصوب علىٰ الإغراء، وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ معطوف عليه بتقدير القول، أي: الزموا صبغة الله وقولوا: ونحن له عابدون.

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا

(١) تفسير «المنار» (١: ٤٠٠).

ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ تلقينه إلزامَهم وإفحامَهم بطريقة ثانية، فقال: ﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾ أي: بدعواكم الاختصاص بالقُرب منه، وزعمكم أنكم أبناء الله وأحباؤه، وأنه لن يدخل الجنَّة إلا مَنْ كان هُوداً أو نصارىٰ، من أين جاءكم هذا القرب والاختصاص دوننا، ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ﴾ وربُّ العالمين؟ فنسبة الجميع إليه واحدة، هو الخالق وهم المخلوقون، وهو الربُّ وهم المربوبون، وإنما يتفاضلون في الأعمال البدنيَّة والنفسيَّة، فلنا اعتقادنا ولكم اعتقادكم، ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾، وروح الأعمال: الإخلاص، فهو وحده الذي يجعلها مقرِّبةً لصاحبها من الله، ووسيلةً لمرضاته، ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ من دونكم، فإنكم اتَّكلتُم علىٰ أحسابكم وأنسابكم، واغْتَررتُم بما كان من صلاح آبائكم وأجدادكم.

والإخلاص: هو أن يأتي الإنسان بأعمال نقيّة لا يشوبها أدنىٰ رياء أو شرك، وهو من الصفات الروحيَّة التي تسمُو بالمرء إلىٰ منزلة رفيعة من الخُلق الإنساني.

ثم عطف علىٰ قوله: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ قولَه: ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾، فـ﴿أَمۡ﴾ هنا هي المعادِلةُ للهمزة في قوله: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾، علىٰ معنىٰ: أَيُّ الأمرين تأتون: إقامة الحُجَّة وتنوير البرهان علىٰ حقيَّة ما أنتم عليه فقد أبطلناه عليكم، أم التَّشبُّث بذيل التقليد والافْتراءُ علىٰ الأنبياء بأنهم علىٰ دينكم، ولم يحدث اسم اليهودية والنصرانية إلا من بعدهم. وإنما قَرَنَ الشقَّ الأول بالرد بقوله: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾، ولم يقرن الشق الثاني، وهو ما بعد ﴿أَمۡ﴾ بالردِّ؛ لأنه ظاهر البطلان.

ثم انتقل إلىٰ طريقة أخرىٰ في المحاجَّة والإلزام عن تزكيتهم لأنفسهم وادِّعاءِ

أنهم هم المرضيُّون عند الله، فقال: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ﴾ أي: بالصنف المرضيِّ عند الله من الشرائع والأحكام وأربابها ﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾ أعلَمُ بما يُرضيه وما لا يُرضيه، أو: وقد أبطل دعواكم بأنهم منكم.

ثم زاد في إلزامهم بالتَّشنيع عليهم في كتمانهم الحقَّ الذي يعرفونه في ذلك، مُلْمِعاً إلىٰ أنَّ مثل هؤلاء كيف يكونون مرضيين عند الله؟ فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾، وهي شهادة كتابهم المبشِّر بأنَّ الله يبعث فيهم نبياً من بني إخوتهم العرب من أبناء إسماعيل.

ثم أكَّد التوبيخ والتقريع بالوعيد، فقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ خابوا وخسروا.

ثم ختم المحَاجَّة بتكرير الجملة السابقة، وهي قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾، لأنَّ ما قبلها مُماثِلٌ لما قبل سابقتها، فهي للمبالغة في زَجْرهم عمَّا هم عليه من الافتخار بالآباء، والاتِّكال علىٰ أعمالهم، والادِّعاء بأنهم علىٰ ملَّتهم، وسالكون مَسْلكهم، وسائرون علىٰ آثارهم. وهذا الوجه هو الصواب. وقد نزَّلتهم الآية منزلة غير الراضين عنهم، زيادةَ إبعادٍ لهم عنهم، وزَجْراً عن فخرهم بهم.

وقيل: بل الخطاب السابق بهذه الجملة لهم، وهذه لنا للحثِّ علىٰ العمل، وأن لا نكون مثلهم في شبه تلك الأعمال، وأن لا نغترَّ بشفاعة سلفنا الصالح، ونجعلها وسيلة في النجاة إذا نحن قصَّرنا في عملنا، فليس للإنسان إلا ما سعىٰ.

وعليه، فالمراد بالأمة في الأولىٰ: الأنبياء عليهم السلام، وفي الثانية: أسلاف اليهود. أما علىٰ الرأي الأول: فالمراد بالأمة: الأنبياء في الآيتين[1].

---

(١) ما يأتي من الكلام عن القبلة مقتطف من «المنار» ببعض تصرُّف. (المؤلف).

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾.

ثم انتقل إلىٰ أمر تحويل القبلة، مُساوقاً بالكلام مشاغبات اليهود والمشركين، ومُنبِّهاً علىٰ ما سيكون منهم في هذا الأمر من المشاغبات، ومبيِّناً أنَّ هؤلاء السفهاء الضَّالِّين المضلِّين سينتهزونه ذريعةً لإثارة الفتن والتضليل في ضعفاء النفوس وضعفاء الإيمان، ويتَّبعون فيه معهم ما اتَّبعته الشياطين علىٰ عهد سليمان.

وقدَّم الكلام علىٰ ما سيثيره السفهاء في ذلك قبل الكلام عليها اهتماماً به ومساوقةً لمساوئ أهل الكتاب، وذلك مما تقتضيه البلاغة العالية في دقَّة المسلك، فقال: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ...﴾[1]، أي: إنا سَنُحَوِّلك عن الصخرة[2] إلىٰ الكعبة، وحينئذ سيقول

---

(١) كان النبي ﷺ وأصحابه قبل الهجرة يستقبلون الكعبة في صلاتهم، قبلة أبيهم إبراهيم عليه السلام، فلمَّا هاجروا أمروا بالتوجُّه إلىٰ بيت المقدس، واستمرَّ ذلك نحو سبعة عشر شهراً، ثم أمروا ثانياً بالتوجُّه إلىٰ الكعبة، إحياءً لذكرىٰ المسجد الحرام في القلوب، وفتحاً لباب الأمل بالرجوع إليه، وإثارةً لحميَّتهم في ذلك، ليُخلِّصُوه ممَّن منعهم منه.
وقيل: كان ﷺ يُصلِّي بمكة إلىٰ بيت المقدس والكعبةُ أمامه، فلمَّا هاجر إلىٰ المدينة لم يمكن الجمع بينهما، فصلَّىٰ إلىٰ بيت المقدس أول مَقْدَمِهِ المدينةَ واستدبر الكعبة سبعة عشر شهراً، ثم أُمِرَ باستقبال الكعبة المشرفة لما ذكرنا. (المؤلف).

(٢) لم يثبت أن التوجُّه في الصلاة إلىٰ بيت المقدس كان من أجل الصخرة، فإن كان لا بُدَّ من تعيين بقعة أصغر من بيت المقدس، فالأصح أن يُقال: إلىٰ المسجد الأقصىٰ، دون تخصيص بالصخرة.

ما يقول السفهاء ويُشاغِبون ما يُشَاغبون، لأنهم متىٰ وجدوا مَجَالاً للمشاغبة لم يألوا جُهداً.

والألف واللام للعهد، إذ المراد بهم مَنْ كانوا موضوعَ البحث في السياق السابق، وهم أهل الكتاب والمنافقون والمشركون من العرب، وعَنْوَنَهُم بهذا العنوان للإيماء إلىٰ مبالغتهم في الكذب المتعمَّد والبُهتان، في سبيل تضليلهم للناس وإفسادهم، لأنَّ السفيه هو البهَّات الكذَّاب المتعمِّدُ خلافَ ما يعلم، فهم يعلمون أنَّ توجُّهكم للكعبة حقٌّ واجبٌ عليكم، يعلمون ذلك من كتابهم المبين أنَّ النبيَّ المبشَّر به سيستقبل الكعبة، ولكنهم بهتاناً وتضليلاً يقولون: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ وهي: بيت المقدس.

فلقَّن الله سبحانه نبيَّه ﷺ الحُجَّة البالغة والحكمة السديدة في أمر الاستقبال بقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي: إنَّ الجهاتِ كلَّها لله، لا فَضْل لجهة منها بذاتها علىٰ جهة، وإنَّ لله سبحانه وتعالىٰ أن يُخَصِّص منها ما شاء فيجعله قبلة لمن يشاء، لتكون جامعةً وشعاراً لهم في عبادتهم، وهو الذي ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ أي: يصل سالُكه إلىٰ سعادة الدارين.

وليست القبلة إلا إشعاراً بأنَّ مساجد المسلمين في القارات الخمس كلِّها مربوطة بهذا المسجد، فتتوحَّد بذلك الأمة جمعاء في أهم عمل لها، ثم أوجب سبحانه علىٰ كلِّ مستطيع أن يزور هذا المسجد مرة في عمره، وجَعَل ذلك في أيام خاصَّة ليحتشدوا علىٰ عبادة تشعر بالإجابة لله علىٰ أذان إبراهيم عليه السلام، وبصورة مظاهرة بالتلبية والتمجيد والتحميد لله.

وفي هذه الجملة أيضاً إشارة إلىٰ تفنيدهم وتفهيمهم أنَّ الأصل الهداية إلىٰ الصراط

المستقيم، بما ينزله سبحانه من الشرائع، لا التوجُّه إلىٰ جهة مخصوصة، أو إلىٰ بيت المقدس. ومحصَّل الجواب: أن ذلك بتوجيه الله الذي يعلم كل شيء ويفعل ما يشاء.

ثم وجَّه الخطاب إلىٰ المؤمنين؛ مُلمعاً إلىٰ أنَّهم ممَّن هداهم الله وأناط بهم أمر هداية الناس، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ هَدَيناكم و﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[1] أي: معتدلةً وعلىٰ صراط مستقيم، بما أنزل عليكم من هذا الدين المبين، وواسطةً في تبليغ غيركم من الناس أجمعين، ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: فيما تُعلِّمونهم من هذه الشريعة الفاضلة الكاملة، ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: فيما يبلِّغكم من رسالات ربه.

ومُلخَّص المعنىٰ: أنَّ الله سبحانه جَعَل القِبلة في بلادكم، وبعثَ النبيَّ ﷺ منكم وبلغتكم؛ لتكونوا معلِّمين للناس هذه الشريعة الغرَّاء المعتدلة، وشهداء عليهم، ويكون الرسول مُبلِّغاً لكم وشهيداً عليكم. فالآية تُؤْذن بأن الله سبحانه وتعالىٰ انتدبَ العربَ لنشر هذا الدين المبين بين الأمم المتفرِّقين، وجَعَلهم مسؤولين عن ذلك، وخصَّ هذه المنقبةَ بهم، كما جَعَل القبلة في بلادهم، لأنهم هم الذين يفهمون لغة القرآن فهماً صحيحاً، فيتحتَّم عليهم أن يكونوا أئمةً ومعلِّمين للأمم التي لا تفهم تلك اللغة بهذه المثابة، يعلِّمونهم الدين ولغة هذا الدين، فإنَّ تعلُّمَ اللغةِ العربية ـ التي هي لغة هذا الدين

---

(١) قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ...﴾، قال بعض المفسرين: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: الذين كانوا قبلكم، تشهدون عليهم بمقتضىٰ ما علمتموه من كتابكم أنَّ الله سبحانه بعث أنبياء إلىٰ أمم، فآمن من آمن وكفر من كفر، ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: بأنه أتاكم بكتاب من عند الله، فآمن من آمن وكفر من كفر. وقد اختار سبحانه الأمة العربية لنشر هذا الدين المبين؛ لأنها كانت تمتاز عن سائر الأمم بسَعة المدارك وألمعيتها، وَوَفْرة المواهب ونُضوجها، وسلامة الأخلاق وكرم معدنها، وثراء لغتها الدقيقة الأنيقة، التي هي مقياس النُّبل والإنسانية، ومعيار الأصالة والمدنيَّة. (المؤلف).

المبين ـ واجبٌ علىٰ كلِّ مسلم، بل علىٰ كلِّ البشر، لأن الله سبحانه طَلَبَ أن يكون هذا الدين ولغته عالميَّتَين. وكلٌّ من أحسن اللغة العربية ودان بدين الإسلام فهو عربيٌّ، كبلال وصهيب وسلمان وسيبويه والبخاري وأبي حنيفة النعمان.

وقد جاء عنه ﷺ: «ألا إنَّ العربية اللسان»[1].

ومحصَّل البيان: أنه لما كان قوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ يشير مضمونه بمعونة السياق إلىٰ أنَّ الأمر باستقبال الكعبة منَّةٌ من الله علىٰ العرب لإتمام النعمة عليهم، بأن تكون القبلة في بلادهم، إحياء لمآثرهم القديمة في زمن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، أردفه بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ يمتنُّ علىٰ العرب أيضاً وينتدبهم لنشر هذا الدين العالمي ولغته العربية في الآفاق بين الناس.

ومفاد الكلام: أننا جَعَلناكم واسطةً بين الرسول وبين الأمم لتكونوا شهداء علىٰ الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً، فذَكَرَ الشَّهادةَ وأراد التعليمَ؛ لأنَّ المعلِّم يشهد علىٰ درجة التلميذ في تطبيقهِ العلمَ علىٰ العمل. ويؤيِّد هذا الرأي ما جاء في آخر سورة الحج من قوله تعالىٰ: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]، وما جاء في سورة الزخرف من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٤: ٢٢٥) من حيث أبي سلمة بن عبد الرحمن، وفيه: «ألا وإن العربية ليست لكم بأب ولا أم، إنما هي لسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي». وقال ابن عساكر عقبه: هذا حديث مرسل، وهو مع إرساله غريب، تفرَّد به أبو بكر سلمىٰ بن عبد الله الهذلي البصري، ولم يروه عنه إلا قرة. وقال ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» ص١٦٩: هذا الحديث ضعيف، وكأنه مركب علىٰ مالك، لكن معناه ليس ببعيد، بل هو صحيح من بعض الوجوه.

﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، فارجع إليه ودقِّق النظر فيه يتَّضحْ لك الأمر جلياً. هذا رأيـي. والله أعلم.

وكذلك ما جاء في حديث الأعرابي الذي بال في المسجد من قوله ﷺ: «فإنما بُعثتم ميسِّرين ولم تُبعثوا معسِّرين»[١]. فكلمة: (بُعثتم) تُؤْذن بذلك.

وأما ما قاله المفسِّرون في الآية، فأولاه ما مُلَخَّصه: أنَّ اسم الإشارة في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ يعود إلىٰ الهداية إلىٰ الصِّراط المستقيم، أي: علىٰ هذا النَّحو من الهداية هَدَيناكم وجعلناكم أمة وسطاً معتدلين، بمعنىٰ: أنزلنا عليكم شريعةً تجعلكم ذوي أخلاق فاضلة؛ لأنَّ الفضيلة وَسَط بين طرفين كل منهما[٢] رذيلة، كالشجاعة مثلاً؛ فإنها وسط بين التَّهوُّر والجبن، وكالكرم؛ فإنه وسط بين التبذير والبخل، وهكذا سائر الفضائل.

وإنما أنزلت عليكم هذه الشريعة المكوَّنة من الكمالات الإنسانية والفضائل الأخلاقية، لتنشروها بين الناس وتكونوا شهداءَ عليهم، وحُجَّةً علىٰ المتطرِّفين منهم بما فرَّطوا في جَنْب الله، ويكون الرسول شهيداً عليكم بما وافقتم سُنَّته، وما كان لكم من الأسوة الحسنة فيه إذا استقمتم علىٰ صراط الهداية، ويكون حُجَّة عليكم إذا انحرفتم عنها. وذلك لأنَّ ما هُدِيتُم إليه هو الكمال الإنساني الذي ليس بعده كمال، وقد انتُدِبْتُم لنشره بين البشر علىٰ اختلاف الأجناس.

قال الأستاذ الإمام: يقال: إنَّ هذا خبر عظيم بمِنْحةٍ جليلة، ومنَّة بنعمة كبيرة، فكيف جيء به معترضاً في أطواء الكلام عن القبلة ولم يجئ ابتداءً، أو في سياق تعداد الآلاء والنِّعَم؟

---

(١) رواه البخاري (٢٢٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في الأصل: «منهم».

والجواب: أن الله تعالىٰ عَلِم أنَّ الفتنة بمسألة القبلة ستكون عظيمة، وأنَّه سيقول أهل الكتاب تمويهاً وتضليلاً: إنَّ محمداً ليس علىٰ بيِّنة من ربِّه، لأنه غيَّر قبلته، ولو كان الله هو الذي أمره بالصلاة إلىٰ بيت المقدس، لما نهاه عنه ثانياً، وصَرَفه عن قبلة الأنبياء. ويقول المنافقون: إنه صلىٰ أولاً إلىٰ بيت المقدس، استمالةً لأهل الكتاب ودهاناً لهم، ثم غلب عليه حبُّ وطنه وتعظيمه فعاد إلىٰ الكعبة، فهو مُضْطرب لدينه.

وأمثال هذه الشبهات، مع كونها تدلُّ علىٰ عدم الاعتدال في أفكار قائليها، وتؤثر في نفوس المسلمين، فالمطمئنُّ الراسخ في الإيمان يحزن لشكوك الناس وتشكيكهم في الدين، والضعيف غير المتمكِّن ربما يَضْطرب ويتزلزل؛ لذلك بدأ الله سبحانه بإخبار المسلمين بما سيكون بعد التحويل من إثارة رياح للشبه والتشكيك، ولقَّنهم الحُجَّة، وبيَّن لهم ما فيها من الحكمة، وبيَّن لهم منزلتهم من سائر الأمم، وهي أنهم أمة وسط لا تَـغْلو في شيء، ولا تقف عند الظواهر، وأنهم شهداء علىٰ الناس وحُجَّـة عليهم، باعتدالهم في الأمور كلِّها، وفهمهم لحقائق الدِّين وأسراره، ومن أهمِّها: أنَّ القِبلة التي يُتوجَّه إليها لا شأن لها في ذاتها، وإنما العبرةُ فيها باجتماع أهل الملَّة علىٰ كيفيَّة واحدة عند التوجُّه إلىٰ الله تعالىٰ بأمر منه.

ولما كانت نسبة الجهات إليه سبحانه وتعالىٰ واحدة؛ إذ لا تحصره ولا تحدُّه جهة، كان التزام الجهة المعيَّنة منها لغير مُجرَّد الاتِّباع لأمر الرسول المبلِّغ عن الله تعالىٰ، مَيْلاً مع الهوىٰ، أو تخصيصاً بغير مُخصِّص، وكلاهما مما لا يرضاه لنفسه العاقل المعتدل بعدما ثبت بالواقع أنَّ الرسول الذي أمر به لم يأمر إلا بما ظهرت فائدته ومنفعته للمُمتثلين له من إصلاح النفوس وحَمْلها علىٰ الخير وتَوَجُّهها إلىٰ البِرِّ، مما دلَّ علىٰ أنه مؤيَّد من الله تعالىٰ وموثوق به[1].

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٦).

لذلك بيَّن سبحانه وتعالىٰ الحكمة في هذا الأمر، فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، والأكثرون علىٰ أنَّ المراد بالقبلة التي كنت عليها: بيت المقدس، فقد أُمِروا باستقبالها مدَّة، ثم أُمروا بالتَّحوُّل عنها، وما ذلك إلا ليتبيَّن الثابت علىٰ إيمانه ممَّن لا ثبات له؛ لأنه عُرضة لرياح تغدو به وتروح، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ففي مثل هذه الاختبارات تَغْذيةُ الإيمان بالطاعة من المؤمن الصَّادق وانكشاف الكفر والنفاق من المنافق. أي: إن الله تعالىٰ يختبر بما يظهر به صِدقَ الصادقين ورَيْبَ المرتابين.

وقال بعض المحققين: إنَّ هذه الجملة من قبيل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، فالرؤيا لم تكن في نفسها فتنة، وإنما افتتن الناس إذ أُخبروا ولم يفقهوا المرادَ منها، فظنوا أنها تكون حالاً، فأنكروا لَمَّا صدَّتهم قريش عام الحديبية، كذلك كان أمر تحويل القبلة، أنكره الجهَّال ورأوه عظيماً، أما الذين هَداهُم الله إلىٰ فقه ذلك، فكانوا يرونه أمراً حكيماً، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾، وهم المحافظون علىٰ الاعتدال في الفكر والإدراك، وفي الميْل والرغبة؛ لأنهم يُدركون أنَّ الكعبة هي قِبلةُ المسلمين، وإنَّما صرفهم الله عنها أول الإسلام، لأنها مشغولة بالأصنام، حتىٰ [إذا] قَرُبَ زمنُ فتح مكة وتطهير البيت من الأوثان، أمرهم باستقباله حثاً لهم علىٰ الفتح والتَّطهير العاجل.

وقد ألمعت الآية إلىٰ أنَّ قول من يقول: لو كان محمدٌ علىٰ حقٍّ لما اتَّجه يوماً إلىٰ بيت المقدس، ويوماً إلىٰ المسجد الحرام. وقول مَنْ يقول: قد رَجَع محمد إلىٰ قبلة العرب وسيرجع إلىٰ دينهم. كلاهما هُراء وإضْلال وبُعْد عن الحقِّ إلىٰ الضلال.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ معهودٌ في القرآن كثيراً، ومثله: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا

رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٨]، وقوله: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤]، والعقل والنقل متَّفقان علىٰ أنَّ علمه تعالىٰ قديمٌ لا يتجدَّد.

وللمفسِّرين في هذه الألفاظ أقوال، ذكر الأستاذ الإمام أظهرها، فقال ما مثاله: جرت عادة العرب في لغتها أن تنسب للرئيس والكبير ما يحدث بأمره وتدبيره، يقولون: فتح الأمير البلد، وقاتل الجيش، وكثيراً ما يقولون هذا والأمير ليس واحداً من العاملين، فهو أسلوب معهود إذا أُريدَ إسناد الفعل إلىٰ الجمهور أسندوه إلىٰ المقدَّم فيهم، ولما كان الله تعالىٰ وليَّ الذين آمنوا وخاطبهم خطاب السيد؛ صحَّ بحسب هذا الأسلوب العربي أن يذكر الفاعل بصيغة الجمع التي تشمل المتكلِّم وغيره، وإن كان غيره هو المقصود بالفعل.

فمعنىٰ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾: إلا ليعلم عبادي المؤمنون بإعلامي إيَّاهم. وقد علم المؤمنون في هذه الفتنة من هو الثابت علىٰ اتِّباع الرسول ﷺ، ومن هو المنافق الذي قَلبَته ريحُ الشبهة علىٰ عقبيه. فكان المنافقون مع المؤمنين بحيث لا يُميَّزُ أحدهم الآخر لقيامهم جميعاً بأداء الأعمال الظاهرة المطلوبة، فانكشف شأنهم بهذا التَّحويل.

وهكذا كان سبحانه وتعالىٰ يُمحِّص ما في القلوب بما يبتلي به الناس من الفتن والاختبارات ليعلم بعضهم بعضاً، كما قال تعالىٰ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣].

قال صاحب «المنار»: وثَـمَّ وَجْـهٌ آخر جرىٰ عليه بعض المفسِّرين في تفسير ﴿لِنَعْلَمَ﴾، هو أدق من هذا، وهو أنَّ المراد بالعلم في مثل هذا: علمُ الظهور والوقوع، وذلك أنَّ الله تعالىٰ يعلم الأشياء علماً أزلياً، ويتعلَّق هذا العلم بها قبل وقوعها أنها

ستقع، وبعد وقوعها أنها وقعت، والجزاء يترتَّب علىٰ ما وقع بالفعل. فقوله: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ هنا: يُراد به الثاني، أي: لنعلم عِلمَ وقوع ووجود، يترتَّب عليه الثواب والعقاب. وليس معناه أنه تجدَّد له عِلمٌ لم يكن، حاشاه من ذلك، وإنما التَّجدُّد في الشيء المعلوم بمعنىٰ: أنه لم يكن موجوداً ثم وُجِدَ وظهر، كأنه قال: ما جعلنا القبلة جهة بيت المقدس إلا لِنُحَوِّلَها ونمتحنَ المؤمنين بالتَّحويل، ليظهرَ ما ثَبَت في العلم القديم من اتِّباع بعض الناس للرسول واستقامتهم علىٰ هدايته، وانقلاب بعضهم علىٰ عَقِبَيه، وإظهار ما أكنَّه في نفسه من الرَّيْب، وبذلك يمتاز المهتدون من الضَّالِّين، وتقوم الحُجَّة للمؤمنين علىٰ الكافرين[1].

ثم قال جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾، وأكثر المفسرين علىٰ أنَّ المراد بالإيمان هنا: الصلاة؛ لأنها أثر الإيمان، إذ وَرَدَ أنَّ بعض المؤمنين أحبُّوا أن يعرفوا حال صلاتهم قبل التَّحويل، ولا سيما ضعاف الإيمان منهم، الذين كان يُشكِّكهم اليهود بقولهم: إذا كان سَمْتُ المسجد الأقصىٰ غير حق فقد أضاع النبيُّ عبادةَ الذين صَلُّوا إليه، وإن كان حقاً فلا معنىٰ للتحوُّل عنه. يتَّبعون بمثل هذه المشاغبات ما كانت تَتْلو الشياطين علىٰ مُلك سليمان من المشاغبات الخبيثة المزلزلة لضعفاء الإيمان وقُصَراء النظر.

أما الأستاذ الإمام فقد قال: إنَّ السياق يدلُّ علىٰ أنَّ الإيمان هنا مُستَعْمَلٌ في معناه الحقيقي، فإنه لما بيَّن أمر الفتنة في تحويل القبلة، وبيَّن أنَّ من الناس من ينقلب إلىٰ الكفر ويترك الإيمان، ومنهم من يثبت علىٰ إيمانه، عالماً أنَّ الاعتماد في مثل مسألة القبلة علىٰ اتِّباع الرسول ﷺ، لأنَّ الجهات في نفسها متساوية، لا فضل لجهة منها علىٰ جهة، بشَّر

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٨).

هؤلاء المتَّبعين بأن يُجْزَون علىٰ إيمانهم الجزاءَ الأوفىٰ، فلا يضيع الله أجرهم ولا يَلِتُهُم من ثَباتهم علىٰ اتِّباع الرسول شيئاً[١]. لذلك خَتَم سبحانه الآية بهذه الجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ فبيَّن أنّ توفيةَ الله المؤمنَ المخلصَ أجرَه هي من آثار رأفته ورحمته سبحانه وتعالىٰ، فلا يُخشىٰ أن تتخلَّف.

وقال المفسِّر الجلال: الرأفة: شدَّة الرحمة، وقُدِّمَ الأبلغ للفاصلة[٢]. وأنكر الأستاذ الإمام هذا القول أشدَّ الإنكار، ويُنكِرُ مِثلَه في كلِّ موضع، فيقول: إنَّ كل كلمة في القرآن موضوعة في موضعها اللائق بها، فليس فيه كلمة تقدَّمت ولا كلمة تأخَّرت لأجل الفاصلة؛ لأنَّ القرآن لا التزام فيه للسجع، وينزِّه الله عن الضرورة.

ثم قال: وعندي أنَّ الرأفة أثرٌ من آثار الرحمة، ولا تُستعمل إلا في حقِّ مَن وقع عليه بلاءٌ، والرحمة تتناول ذلك وتتناول الإحسان المطلق، فذِكْرُها بعد الرأفة من قبيل الدليل بعد الدعوىٰ، كما تُحب البلاغة وترضىٰ، كأنه قال: إنَّ الله رؤُوفٌ بالناس لأنه ذو الرحمة الواسعة، فلا يُضيعُ عملَ عاملٍ منهم[٣].

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ١٠).

(٢) تفسير الجلالين، ص ٦٩. والمعهود في الكلام أن يؤخَّر الأبلغ ليكون له بعدَ غيره فائدة. والعكس كان هنا لتناسب الفواصل. والمراد بالجلال هنا: السيوطي (ت ٩١١) لا الجلال المحلي (٨٦٤).

(٣) تفسير «المنار» (٢: ١١).

تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾.

وبعد أن ذكر للمؤمنين ما سيثيره السفهاء في هذا الأمر، ولقّنهم الحُجَّة ببيان ما في ذلك من الحكمة، وأنه أمرٌ منطبق علىٰ هدايتهم الصحيحة وموافقٌ لها، شَرَع في أمرهم بالتَّحوُّل، بعد مقدِّمة وجيزةٍ مُبيِّنةٍ شدَّةَ تشوُّقه ﷺ لذلك، وأنه تعالىٰ يعلمه منه، فوعده بإنجازه، وقَرَنَ الوعد بالإنجاز، وذلك من البلاغة العالية التي لا تكون إلا في القرآن المُعجِز بتراكيبه وأساليبه، فقال: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

كان أنبياء بني إسرائيل يصلُّون إلىٰ بيت المقدس، وكانت صخرةُ المسجد الأقصىٰ قبلتَهم[1]، وقد صلَّىٰ النَّبيُّ ﷺ والمسلمون إليها زمناً، فأخذ اليهود يزهون علىٰ المسلمين، بأنَّ اتِّجاههم إلىٰ قِبلتهم اعترافٌ بأنهم علىٰ الهدىٰ، وبأن النبيَّ والمسلمين إنما يأخذون الهُدىٰ منهم، وبأنهم أَوْلىٰ أن يتَّبعوهم، وأن يندمجوا فيهم لا العكس، فحَزَّ هذا في نفس النبيِّ ﷺ، وانبثقت فيه أمنية التَّحوُّل عن سَمْتِ المسجد الأقصىٰ، لا سيما وقد ظهر من اليهود ما أيأسه منهم.

---

(١) في تعيين الصخرة نظر، حيثُ لم يثبت ذلك بالأدلة المعتبرة، وغايةُ ما فيه: ما ورد في كتب بني إسرائيل وأخبارهم، وهم غير مأمونين عليها، فلا يُستند إليها.

فكان النبيُّ ﷺ يتشوَّق لاستقبال الكعبة، ويتمنَّىٰ لو حوَّل اللهُ القِبلةَ إليها، بل قال المفسِّر الجلال: إنه كان ينتظره، لأن الكعبة قبلة أبيه إبراهيم، والتوجُّه إليها أدعىٰ إلىٰ إيمان العرب. أي: وعلىٰ العربِ المعوَّلُ في ظهورِ هذا الدِّين العالمي العام، ولغة هذا الدين التي يجب أن تكون عالميةً واجبةَ النشر هي لغتُهم، لأنهم كانوا أكمل استعداداً من جميع الأنام.

ولعله كان يسمع تألماً أو انتقاداً، أو يرىٰ حَيْرة من العرب المسلمين وغير المسلمين، من الاتِّجاه إلىٰ المسجد الأقصىٰ وإهمال الكعبة، وهي بيت الله الـمُقدَّس منـذ قديم الأحقاب.

ولعله أيضاً كان يعلم أن تحوُّله للكعبة لا يكون إلا إذا قَرُبَ موعدُ فتح مكة وتطهيرها من الأوثان، فكان يتشوَّق لذلك غاية التشوُّق إلىٰ التحول.

وقال الأستاذ الإمام: ولا بُعْدَ في تشوُّفه إلىٰ قبلة إبراهيم، وقد جاء بإحياء ملَّته وتجديد دعوته، ولا يُعَدُّ هذا من الرغبة عن أمر الله تعالىٰ إلىٰ هوىٰ نفسه، كلا، إن هوىٰ الأنبياء لا يعدو أمرَ الله تعالىٰ وموافقةَ حكمته ورضوانه، ولو كان لأحد منهم هوىٰ ورغبةٌ في أمر مباح مثلاً، وأَمَرَ اللهُ تعالىٰ بخلافه لانقلبت رغبتهم فيه إلىٰ ما أمر الله تعالىٰ ورضيه، بل المقام أدقُّ والسِّرُّ أخفىٰ.

قال: وإنَّ روح النبي منطويةٌ علىٰ الدين بجملته، قبل أن ينـزل عليه الوحي بتفصيل مسائله، فهي تشعر بصفائها وإشراقها بحاجة الأمة التي بعث فيها، شعوراً إجمالياً كلياً، لا يكاد يتجلَّىٰ في جزئيَّـات المسائل وآحاد الأحكام إلا عند شدَّة الحاجة إليها، والاستعداد لتشريعها. عند ذلك يتوجَّه قلب النبيِّ إلىٰ ربه، طالباً بلسان استعداده بيانَ ما يشعر به مجملاً، وإيضاح ما يلوح له مبهماً، فينزل الروح الأمين علىٰ قلبه، ويخاطبه

بلسان قومه عن ربه، وهكذا الوحي إمداد في موطن استعداد، ولا كسبَ فيه للعباد، وإذا كان حُكمٌ شُرِعَ لسببٍ مؤقَّت، وزمنٍ في علم الله معيَّن، تشعر روحُ النبي بذلك في الجملة، فإذا تمَّ الميقات وأَزِفَ وقتُ الرُّقِّي إلىٰ ما هو أفضل، وجدت روح النبيِّ من الشعور بالحاجة إلىٰ النسخ، ما يُوجِّهها إلىٰ الشارع العليم والديَّان الحكيم، كما كان يتقلَّب وجه نبيِّنا ﷺ في السماء تشوُّفاً إلىٰ تحويل القبلة، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[1].

قال في «المنار»: وفسَّر بعضهم تقلُّب الوجه بالدعاء، وحقيقةُ الدعاء: هو شعور القلب بالحاجة إلىٰ عناية الله تعالىٰ فيما يطلب، وصدق التوجُّه إليه فيما يرغب، ولا يتوقَّف علىٰ تحريك اللسان بالألفاظ، فإنَّ الله ينظر إلىٰ القلوب وما أَسَرَّت، فإن وافقتها الألسنة فهي تَبَعٌ لها، وإلا كان الدعاء لَغْواً يُبغضه الله تعالىٰ، فالدعاءُ الديني لا يتحقَّق إلا بإحساس الداعي بالحاجة إلىٰ عناية الله تعالىٰ، وعن هذا الإحساس يعبر اللسان بالضراعة والابتهال.

فهذا التفسير ليس بأجنبي من سابقه، فتقلُّب الوجه في السماء: عبارة عن التوجُّه إلىٰ الله تعالىٰ، انتظاراً لما كانت تشعر به روح النبي ﷺ وترجوه من نزول الوحي بتحويل القبلة، ولا تدلُّ الآية علىٰ أنه كان يدعو بلسانه طالباً هذا التحوُّل ولا تنفي ذلك.

وهذا التَّوجُّه هو الذي يُحبُّه الله تعالىٰ، ويهدي قلبَ صاحبه إلىٰ ما يرجوه ويطلبه، لذلك قال الله عزَّ وجل: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾،وقرن الوعد بالإنجاز[2] ومَهَّد له به، وذلك من مقتضيات البلاغة العالية، فقال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾،

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ١٢ - ١٣).

(٢) في تفسير «المنار»: بالأمر.

والشَّـطرُ يُطلق علىٰ مَعَان، الظاهر منها هنا: النحو والجهة، فالواجب استقبال جهة الكعبة في حال البُعْد عنها وعدم رؤيتها[١]. والتعبير بالمسجد الحرام بدل الكعبة إيذان بهذا التساهل، والله أعلم.

ثم أمر بذلك المؤمنين، فقال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾، أي: في أيِّ جهة كنتم منه، شرقاً أو غرباً أو شمالاً أو جنوباً، فولُّوا وجوهكم شَطْره واتِّجاهه، فيكون مركزاً لدائرة المسلمين، يربط بين قلوبهم وأبدانهم أينما كانوا، ربطاً لوحدتهم العابدة بوحدة الله المعبودة، فيتكون من ذلك قوة روحية ومادية لا تنفصم عُراها، لو كانوا يعلمون.

وقد زادت ذلك متانةً فريضةُ الحجِّ التي تجمع بينهم فعلاً في هذا المركز العظيم.

وقد عُهِدَ من أسلوب القرآن أن يكون الأمرُ يُؤْمَر به النبي ﷺ ولا يُذْكَرُ أنه خاص به أمراً له وللمؤمنين به، فإذا أريد التخصيص جيء بما يدل عليه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، وإنما أمر الله المؤمنين في هذه الآية بما أمر به النبي ﷺ فيها نصاً صريحاً، ولم يَكْتَفِ بأمره، للتأكيد الذي اقتضته الحال في حادثة القبلة، فإنها كانت حادثة كبيرة اسْتَتْبعت فتنة عظيمة، فأراد الله أن يُعلم المؤمنين بعنايته بها ويُقرِّرها في أنفسهم، فأكَّد الأمر بها وشرَّفهم بالخطاب مع خطاب الرسول عليه الصلاة والسلام، لتشتدَّ قلوبهم وتطمئن نفوسهم، ويتلقوا تلك الفتنة التي أثارها المنافقون والكافرون بالحزم والثبات علىٰ الاتِّباع.

وبعد هذا، عاد إلىٰ بيان حال السفهاء مثيري الفتنة في مسألة تحويل القبلة، فقال

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ١٣).

تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، أي: يعلمون أنَّ تولِّيَ المسجدِ الحرامِ هو الحقُّ المنزَّل من الله علىٰ نبيِّه؛ لأنهم يعلمون من كتابهم أن النبيَّ المبشَّر به سيستقبل الكعبة، ولكنهم يكتمون ذلك سَفَهاً وتضليلاً.

وجمهور المفسِّرين علىٰ أن أكثر أولئك الفاتنين كانوا من أهل الكتاب المقيمين في الحجاز، ولولا ذلك لم تكن الفتنة عظيمة، لأنَّ كلام المشركين في مسائل الوحي والتشريع قلَّما يُلتفت إليه، وأما أهل الكتاب فقد كانوا معروفين بين الناس بالعمل، ومن كان كذلك فإنَّ عامَّـةَ الناس تقبل كلامَه ولو نطق بالمحال؛ لأن الثقة بمظهره تَصُدُّ عن تمحيص خبره، فهو في حاله الظاهرة شُبْـهَةٌ إذا أنكر، وحُجَّةٌ إذا اعترف، ولأنَّ الجمـاهير من الناس قد اعتادوا علىٰ تقليد مثله من غير بحث ولا دليل، وقد جرىٰ أصحابُ المظاهر الدينية والعلمية علىٰ الانتفاع بغرور الناس بهم، فيقولون ما لا يعتقدون، ويُسنِدون ما يقولون إلىٰ كتبهم، كذباً وتأويلاً، كما كان يفعل أحبار اليهود.

وقد كذَّب الله هؤلاء الخادعين، وبيَّن لهم أنهم يقولون ما لا يعتقدون، كأنه يقول: إنَّ هؤلاء قد قام عندهم الدليل علىٰ ما سبقت به بشارة أنبيائهم من صحَّة نبوة الرسول، ويعلمون أنَّ أمر القبلة كغيرها من أمور الدين، قد جاء به الوحيُ عن الله تعالىٰ، وأنه الحقُّ لا محيص عنه، ولكنهم ينكرون ذلك تضليلاً وإفساداً.

وقد بلغ الأمر باليهود أن قالوا للرسول ﷺ: ارجع إلىٰ قبلتنا نتَّبعك ونؤمن بك، وما يريدون إلا الفتنة والطعن في الدين، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾، فهو المطَّلعُ علىٰ الظواهر والضمائر، الحسيبُ علىٰ ما في السرائر، الرقيب علىٰ الأعمال.

ثم قال في «المنار»: وكان ﷺ حريصاً علىٰ هداية أهل الكتاب، راجياً بإيمانهم ما لا يَرجُوه من إيمان المشركين، فبمقدار حرصه ورجائه كان يُحزنه عروض الشُّبَه لهم في

الدين، ويَتمنَّىٰ لو أُعطي من الآيات ما يَمْحُو كلَّ شبهة لهم، فلما كانت فتنة تحويل القبلة بمُخَادعتهم الناس، أخبره تعالىٰ بأنهم غير مشتَبِهين في الحق فتُزال شُبَهُهم، وإنما هم قوم معاندون مُجاحِدون عن علم وتقصُّد.

ثم أعلمه أنَّ الآيات لا تُـؤثِّر في المعاند، ولا تُرجع الجاحد عن غيِّه[1]. فقال: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾، فلا يَحْزُنْك قولهم ولا إعراضُهم، لا تَحْسَبنَّ الآياتِ والدلائلَ مُؤثِّرةً فيهم وصارفةً لهم عن عنادهم، فهم قوم مقلِّدون لا نظر لهم ولا استدلال.

وكما يَأَّسه من اتِّباعهم قبلَـتَه، أيأسهم من اتِّباعِهِ قبلتَهُم، فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾، فإنك الآن علىٰ قبلة إبراهيم الذي يُجلُّونه جميعاً، ولا يختلف في حقيَّة ملَّته أحدٌ منهم، فهي الأجدر بالاجتماع عليها وترك الخلاف فيها، فإذا كان اتِّباعكُم إبراهيمَ لا يُزحزحهم عن تعصُّبهم لما ألفوا، وعنادهم فيما اختلفوا، وإذا كان التقليد يحولُ بينهم وبين النظر في حقيقة معنىٰ القبلة، وكون الجهات كلِّها لله تعالىٰ، وأنَّ الفائدة فيها الاجتماع دون الافتراق، فأيُّ دليل أم آيةٍ تُرجعُهم عن قبلتهم، وأيُّ فائدة تُرجىٰ من موافقتك إيَّاهم عليها؟

ألم تر كيف اختلفوا في القبلة، فجَعَل النَّصارىٰ لهم قِبلةً غير قبلة اليهود التي كان عليها عيسىٰ بعد موسىٰ، ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ لأنَّ كلاً منهم قد جمد بالتقليد علىٰ ما هو عليه، والمقلِّد لا ينظر في آية ولا دليل، ولا في فائدةِ ما هو فيه، والمقارنةُ بينه وبين غيره، فهو أعمىٰ لا يبصر، أصمُّ لا يسمع، أغْلَفُ القلب لا يعقل[2]. إذ لا منفعة للعقل مع غلبة العاطفة أو الانطباع علىٰ التقليد.

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ١٤ - ١٥).

(٢) المصدر السابق (٢: ١٥).

ثم هدّد بهذا التهديد المبنيِّ علىٰ الغرض والتقدير، تهويلاً للأمر، كما هو أسلوب القرآن في مثل هذا الموقف، أو هو خطاب للأمة في شخص النبيِّ ﷺ علىٰ نهج القرآن في مثله (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الخامسة)، فقال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ أي: إننا قد أقمنا لك مسألة القبلة علىٰ قاعدة العلم الذي عَرفتَ به أنَّ نسبة الجهات إلىٰ الله تعالىٰ واحدة، وأنَّ جمود أهل الكتاب علىٰ ما هم فيه إنما جاءهم من التقليد وحرمان أنفسهم من النظرة، وإنَّ طعنهم فيك وفيما جئت به من أمر القبلة وغيره ليس إلا مُجاحدة ومُعانَدة لك، مع العلم بأنك النبيُّ الموعود به في كتبهم؛ يأتي من ولد إسماعيل ويُصلِّي إلىٰ القبلتين، فبعد هذا العلم كلِّه لا ينبغي لأحد من أتباعك المؤمنين أن يفكروا في أهواء القوم استمالةً لهم، إذ لا محل لهذه الاستمالة، والحقُّ قويٌّ بذاته وغنيٌّ بمن ثَبَتَ عليه. وَمَنْ عَدَل عنه مُجاراةً لأهل الأهواء لِما يرجُو من فائدتهم واتِّقاء مَضَرَّتهم، فهو ظالمٌ لنفسه وظالمٌ لمن يَسْلك بهم هذا السبيل الجائر.

قال الأستاذ الإمام: هذا الخطاب بهذا الوعيد لأعلىٰ الناس مقاماً عند الله هو أشدُّ وعيداً لغيره ممَّن يتَّبع الهوىٰ ويحاول استرضاء الناس بمُجاراتهم علىٰ ما هم عليه، فإنه أفرده بالخطاب مع أنَّ المراد أمَّتُهُ خاصَّةً، إذ يستحيل أن يتَّبع هو أهواءهم، وأن يُجارِيَهُم علىٰ شيءٍ نهاه الله تعالىٰ عنه، وذلك ليتنبَّه الغافل ويعلم المؤمنون أن اتِّباع أهواء الناس ـ ولو لغرض صحيح ـ هو من الظلم العظيم الذي يقطع طريق الحق، ويُردي الناس في مهاوي الباطل. كأنه يقول: إنَّ هذا ذنب عظيم لا يُتَسامَحُ فيه مع أحد، حتىٰ لو فُرِضَ وقوعُه من أكرم الناس علىٰ الله تعالىٰ، لَسَجَّل عليه الظلم، وجَعَله من أهله الذين صار وصفاً لازماً لهم، وما للظالمين من أنصار، فكيف حال مَنْ ليس له ما يقارب

مكانته عند رَبِّه عزَّ وجل؟ نقرأ هذا التشديد والوعيد، ونسمعه من القارئين، ولا نَزْدجر عن اتِّباع أهواء الناس ومُجاراتهم علىٰ بدعهم وضلالاتهم!

ثم قال في «المنار»: وبعد أن ذكر أنَّ الذين أُوتوا الكتاب يعلمون أنَّ ما جاء به النبي ﷺ في أمر القبلة هو الحقُّ من ربهم، ولكنَّهم يُنْكِرون ويَمْكُرون، ذكر ما هو الأصلُ والعلَّةُ في ذلك العلم، وهو علمهم بنبوَّة محمد ﷺ علماً يقيناً، فكيف لا يعلمون أنَّ ما جاء به من أمر تحويل القبلة هو حقٌّ ووحيٌ من الله تعالىٰ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ أي: إنهم يعرفون النبيَّ ﷺ بما في كُتُبهم من البشارة به، ومن نُعُوته وصفاته التي لا تنطبق علىٰ غيره، وبما ظهر من آياته وآثار هدايته، بذلك كله يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

قال عبد الله بن سلام رضِيَ الله عنه ـ وكان من علماء اليهود وأحبارهم ـ: أنا أعلم به من ابني[1]. فقال عمر رضِيَ الله عنه: لِـمَ؟ فقال: لأني لست أشك في محمد أنه نبيٌّ، فأما ولدي فلعلَّ والدته خانت.

فقد اعترف مَنْ هداه الله من أحبارهم ـ كهذا العالم الجليل، وكتميم الداري من علماء النصارىٰ ـ بأنهم عَرَفوه ﷺ معرفةً لا يتطرَّق إليها الشك[2].

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ أنه الحق الذي لا مِرْية فيه، فمن كان هذا خُلُقَه فماذا يرجىٰ منه؟ وقد أَسْنَدَ هذا الكتمان إلىٰ فريق منهم، إذ لم يكونوا كلهم كذلك، فإنَّ منهم من اعترف بالحق وآمن واهتدىٰ به، ومنهم من كان يَجْحده عن جهل، ولو علم به لجاز أن يقبله.

---

(١) ذكره المناوي في «تخريج أحاديث تفسير البيضاوي» (١: ١٩٥) وقال: أخرجه الثعلبي من حديث ابن عباس.

(٢) تفسير «المنار» (٢: ١٧).

ثم خاطب عزَّ وجل نبيَّه ﷺ بلون من ألوان شدَّة التثبيت، وحذَّر الأمة في شخص الرئيس، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾، ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ مبتدأ وخبر، أي: إنَّ العمدة في معرفة الحقِّ هو الوحي يأتيك من عند ربِّك، فلا تلتفتْ إلىٰ أوهام هؤلاء الجاحدين المعاندين، فإنها لا تصلح شبهة علىٰ الحقِّ الصريح الذي علَّمك الله فتمتري به.

والنهيُ في هذه الآية كالوعيد في الآية السابقة، وجّه الخطاب به إلىٰ النبيِّ ﷺ والمراد به أمتُه وأتباعه، أي: من كان منهم غير راسخ في الإيمان، وخُشي عليه الاغترار بمظاهر أولئك المخَادعين الذين يغترُّ بأمثالهم الأغرار في كلِّ زمان ومكان.

وذهب بعض المفسِّرين إلىٰ أن الضمير في ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ لِمَا ذكر من أمر القبلة، إذ في كتبهم أنَّ الرسول المبعوث من ولد إسماعيل يُصلِّي إلىٰ القبلتين. والظاهر عَوْدُه للنبي ﷺ.

ثم أردف الكلام بحُجَّة أخرىٰ تُرغِم أنوفَ المعارضين في أمر القبلة، فقال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ أي: لم تكن جهةٌ من الجهات قبلةً لكلِّ الملل، وإنما لكلِّ أمة من الأمم جهةٌ تُولِّيها في صلاتها. فإبراهيم وإسماعيل كانا يوليان الكعبة، وكان بنو إسرائيل يستقبلون صخرة بيت المقدس، وكان الأنبياء المتقدِّمون يستقبلون جهات أخرىٰ، فليست الجهة أُساً من أسس الدين الثابتة التي لا تتبدَّل، كتوحيد الله والإيمان بالبعث والجزاء، وإنما هي من الفروع المتبدِّلة بتَبدُّل الأديان والأزمان، فإذا كان كذلك فالواجب فيها الاتِّباع المحض، والتَّسليم لأمر الوحي، وإن لم تظهر حكمة التَّخصيص للناس.

﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: باتِّباع الوحي، وإيَّاكم والجدلَ والمشاغباتِ في أمثال هذه الأمور، وقد فصَّل «الخيرات» بقوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ...﴾ [البقرة: ١٧٧] في الآيات الآتية.

ثم وعد المؤمنين وتوعَّد المعارضين، ناظراً إلىٰ بيان اختلاف جهات الأمم في استقبال القبلة، وساق البحث إلىٰ ما يلائم البعث، مبيِّناً أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ يأتي بهم في أيِّ جهة ماتوا، وأيَّ جهةٍ استقبَلُوا، يحاسَبُون عمَّا عملوا، فقال: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾، لا فرق في اختلاف القبلة وقُربها وبُعدها، وهذا علىٰ نهج القرآن في ذكر البعث في غضون البحوث عند كلِّ مناسبة تقتضيه، (كما جاء في الفقرة (ج) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية). وإنما ذَكَّرَ هنا بالجزاء يوم البعث، ترغيباً بالخيرات، وترهيباً عن المخالفات.

ثم أتىٰ بدليل قدرته علىٰ البعث، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾، فإنَّ كثيراً من هذه الفواصل تُذكَرُ كالدليل للدعوىٰ (كما جاء في الفقرة (ج) من المادة الثالثة من المقدمة الثانية).

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾.

ثمَّ إنه بعد هذا التعليق علىٰ الأمر بتولية الوجوه نَحْوَ المسجد الحرام، أعاده تأكيداً، فقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، فأعاد الأمر في صورة أخرىٰ ليُبيِّن أنه شريعة عامة في سائر الأماكن والبلدان، أي: في أيِّ مكان كنت من المعمورة دانية من المسجد أو قاصية، فَوَلِّ وجهك شَطْره واتِّجاهه. وقد وثَّقَ الأمر

وأكَّده وَرَدَّ علىٰ المشاغبين بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: الثابت الموافق للحكمة، ثم حثَّ المؤمنين علىٰ اتِّباع ذلك بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ أي: فيُجازيكم علىٰ ذلك أحسن الجزاء، وقُرئ: (يعملون) علىٰ صيغة الغيبة، فيكون وعيداً للكافرين وتهديداً لهم.

ثم أعاد الحكم مرةً ثالثةً ليقرِّر أنه شريعةٌ عامَّةٌ في كلِّ زمان ومكان، لا يختصُّ ببلاد دون بلاد، حضراً وسفراً، وليُعلِّله ويبيِّن حكمته، فقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ أي: في أسفارك ومَغَازيك، ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، وبعد أن أمره ﷺ أمَرَ أمتَهُ أيضاً تقريراً للحكم واهتماماً به، فقال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ من أقطار الأرض مقيمين أو مسافرين، ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ واتجاهَه.

قال في «المنار»: ابتدأ هذه الآيةَ بصيغة الأمر الواردة في الآية التي قبلها، وجمع فيها بين خطاب النبي ﷺ وخطاب الأمة؛ ليترتَّب علىٰ ذلك ما يأتي من التعليل وبيان الحكمة، وهو قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، وليس هذا الجمع والإعادة لمجرَّد التأكيد كما قال بعض المفسرين، وإنما هو تمهيدٌ للعلَّة وتوطئةٌ لبيان الحِكَم الموصولة به، وهو أسلوب معهود عند البلغاء.

والمراد بالناس: المحاجُّون في القبلة المعروفون، وهم فريقان: أهل الكتاب، والمشركون. ووجهُ انتفاء حُجَّتهم علىٰ الطعن في النبوَّة بتحويل القبلة عن بيت المقدس إلىٰ الكعبة: هو أنَّ أهل الكتاب كانوا يَعرفون من كتبهم أنَّ النبيَّ الذي يُبعث من ولد إسماعيل يكون علىٰ قبلته، وهي الكعبة. فجَعْلُ بيت المقدس قبلةً دائمةً حُجَّةٌ علىٰ أنه ليس هو النَّبيُّ المبشَّر به، فلما كان التحويلُ عرفوا أنه الحقُّ من ربهم، وأنَّ المشركين كانوا يَرَوْنَ أنَّ نبياً من ولد إبراهيم جاء لإحياء ملَّته، لا ينبغي له أن يستقبل غير بيت ربِّه

الذي بناه جدُّه إبراهيم، وقد جاء التحويل موافقاً لما يَرَوْنه، فانتفت حُجَّة الفريقين[1].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ بالعناد وإبغاء الـمُشَاغَبات، فهم لا يهتدون بكتاب، ولا يعتبرون ببرهان، ولا ينظرون إلىٰ حِكَمِ الأمور وأسرارها، بل يُجادلون في الله وشَرْعِهِ بلا هُدىً ولا كتاب منير، وهم الذين أثاروا الفتن وحرَّكوا رياح الشُّبه في مسألة القبلة، ولا قيمة لما يقول هؤلاء، فإنهم هم السُّفهاء، كما وصفوا في الآية الأولىٰ، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أي: في مشاغباتهم، إذ لا مرجع لكلامهم من الحقِّ، ولا تـمكُّن له في النفس؛ لأنه لا يستند إلىٰ برهان عقليّ ولا إلىٰ هدىً سماويٍّ، ﴿وَٱخْشَوْنِى﴾ أي: فإنني أنا العليُّ القدير، وقد وَعَدتكم بأن أُمكِّن لكم دينَكُم الذي ارتضيتُ لكم، وأُبدلكم من بعد خوفكم أمناً، وإنني لا أُخلِفُ الميعاد.

ثم ذكر العلـة الثانية أو الحكمة الثانية، فقال: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ﴾، وذلك برجوعهم إلىٰ البنيان؛ لأنه معبدُهم، وأشرف أثر عندهم ينسب إلىٰ أبيهم إبراهيم الذي بناه ورفَعَ قواعده لعبادة الله تعالىٰ، ولا شك أنَّ كلَّ أمر يصدر من الله تعالىٰ فامتثاله نعمة، إلا أنه إذا كان فيه حكمةٌ ظاهرةٌ وشرفٌ يتعلق بتاريخها، وكان أثره حميداً نافعاً فيها، تكون النعمة أتم، والمنَّة أكمل، ولذلك عبَّر بالإتمام.

وذكر الأستاذ الإمام من الحكمة في جَعْل القبلة في أول الأمر بيتَ المقدس: أن الكعبة كانت في أول الإسلام مشغولة بالأصنام والأوثان، وكان سلطان أهل الشِّرك مُتمكِّناً فيها، والأمل في انكشافه عنها بعيداً، فصرفه الله أولاً عن استقبال بيت مدنَّس بعبادة الشـرك، وإن كان الله أمر إبراهيم عليه السلام بتطهيره للطائـفين والعاكفين والركَّع السجود؛ صَرَفه إلىٰ بيت المقدس قِبلةِ اليهود الذين هُم أقرب إلىٰ ما جاء به من

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٠).

التوحيد والتنزيه، ولما قَـرُبَ زمنُ تطهير البيت الحرام من الأصنام والأوثان وعبادتها وإزالة سُلطة الوثنيين عنه، جَعَله الله تعالىٰ قِبلةً للمُوحِّدين، ليُوَجِّه النفوس إليه ويحثَّها عليه. فيكون ذلك مقدِّمة لتطهيره، وإتمام النعمة بالاستيلاء عليه، والسير فيه علىٰ سُنَّة إبراهيم من التوحيد والعبادة الصحيحة لله تعالىٰ وحده[1].

أقول: وعلىٰ هذا يكون قوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ وعداً لهم بقُرب فتح مكة، وهي من أكبر النعم؛ لأنَّ بها اسْتَتَبَّ أمر الدعوة، وقويت شوكة الإسلام.

ثم ذكر سبحانه حكمةً ثالثةً لتحويل القبلة، فقال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ أي: ليُـعِدَّكُم بذلك إلىٰ الاهتداء بالثبات علىٰ الحقِّ والرسوخ فيه، فإنَّ المعارضات والمُحَاجَّات تُظْهر ضَعْفَ الباطل وزهوقَه، وتُبيِّن قوَّة الحق وثبوته، وتجعل العِلْمَ به مُفَصَّلاً بعد أن كان مُجْمَلاً، فهي مُدْرِجةُ الكمال لأهل اليقين، فكانت الفتنةُ التي أثارها السفهاء علىٰ المؤمنين في مسألة القبلة مُعِدَّةً للاهتداء ووسيلةً للثبات علىٰ الحق.

قال في «المنار»: ثم نظر وقارن لإتمام النعمة عليهم بقوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ أي: يتمُّ نعمته عليكم باستيلائكم علىٰ بيته الذي جَعَله قِبلةً لكم، وبتطهيركم إيَّاه من عبادة الأصنام والأوثان، البيت الذي هو موضعُ شَرَفِكم وفخْرِكم، كما أتـمَّها عليكم بإرساله رسولاً منكم، فالقبلة في بلادكم، والرسول من أمتكم، والخطاب للعرب كما هو ظاهر[2]. ولا يُعارض هذا كونُه رسولاً للعالمين؛ لأنَّ الكلام هنا في التَّمنُّن علىٰ العرب الذين هم أصلُ أهل الدين المبين، أي: لنضيف إليكم نعمة إلىٰ نعمة. وقيل: بل يجوز أن يكون الخطاب عاماً، والمراد بكونه منهم: أنه من البشر لا من المَلَك، أو علىٰ اعتبار أنَّ العربيَّ مَنْ أحسنَ العربيةَ ودخل في الإسلام.

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٢١- ٢٢).

(٢) المصدر السابق (٢: ٢٢- ٢٣).

ثم وصف هذا الرسولَ بالأوصاف التي كان بها نعمةً تامةً ورحمةً شاملة، فقال: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: الدالَّة علىٰ أنَّ ما جاء به من التوحيد والهداية هو الحقّ من عند الله. والآيات تتعلَّق بإثبات العقائد وأصول الدِّين، وهي المقْصِد الأوَّل منها، ويليها تهذيبُ الأخلاق، ولذلك قال: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أي: يُطهِّر نفوسكم من الأخلاق السافلة والرذائل الممقوتة، ويُخَلِّقها بالأخلاق الحميدة، ويُخَلِّصُكم من العقائد الوثنيَّة وأدرانها ووساوسها التي تعبث بالعقول، وتأسر النفوس، فتخضع لبعض المخلوقات، ترجُو خيرَها وتخشىٰ ضُرَّها، وتزعمُ أنها تتقرَّب بها إلىٰ خالقها، وهي بذلك في ضلال بعيد ومَرْمىً سحيق.

ثم نصَّ علىٰ المتلو، ونوَّه بشأنه، فقال: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، قال الإمام الشافعي رضِيَ الله عنه: الحكمة هي سُنَّة الرسول ﷺ.

وقال الأستاذ الإمام: السنةُ العمليَّة المتواترة هي المبيِّنةُ لتفصيل ما أجمله القرآن[1]،

---

(١) تقييد السنة التي تُبيِّن مُجمَلَ القرآن بالعملية أولاً، والمتواترة ثانياً؛ محلُّ نظر، فالذي عليه الأصوليون: أن خبر الآحاد الصحيح ـ سواء كان حديثاً قولياً أو عملياً أو غير ذلك ـ صالحٌ لبيان مجمل القرآن أيضاً، والخلاف بينهم في تخصيصه لعامِّ القرآن دون بيان مجمله.

ووجوبُ العمل بخبر الواحد قد تضافرت عليه الأدلة من كتاب وسنة، وهو مذهبُ الصحابة رضيَ اللهُ عنهم، ومذهبُ تابعيهم بإحسان. فقد عمل الصحابة بالآحاد، وحاجّوا بها في وقائع خارجة عن العَدِّ والحصر، من غير نكير مُنكِر، ولا مدافعة دافع، فكان ذلك منهم إجماعاً علىٰ قبولها وصحَّة الاحتجاج بها.

ومن أشهر ما يُمثِّلُ به علماء مصطلح الحديث لخبر الآحاد حديث: «إنما الأعمال بالنيات» حيث تفرَّد عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه بروايته عن النبي ﷺ، وتفرّد علقمة بن وقاص الليثي بروايته عن عمر، وتفرّد محمد بن إبراهيم التيمي بروايته عن علقمة، وتفرّد يحيىٰ ابن سعيد الأنصاري =

= بروايته عن محمد بن إبراهيم، قال الحافظ ابن حجر في «شرح نخبة الفكر»: وقد وردت لهم متابعات لا يعتبر بها.

أما الدليلُ علىٰ قبول خبر الواحد من السنة؛ فـبَعثُه ﷺ إلىٰ الآفاقِ مُعلِّمين وداعين، كمعاذ ابن جبل وأبي موسىٰ الأشعري ودحية بن خليفة الكلبي، ولو كان خبر الواحد لا تقوم به حجة لكانت بعثتُه لهم ﷺ عبثاً، والله أعلم.

أما من أنكر وجوب العمل بما استوفىٰ شروط الصحة والقبول من السنة ـ قولية أو فعلية أو تقريرية ـ فهو مبتدع مخالف للإجماع.

وأما أقسام السنة ودورُها في بيان القرآن وتفصيل أحكامه، فهذا بحث طويل ولا تتَّسع له هذه التعليقة، ولكن نذكر لك أشياء رئيسة يُهتدىٰ بها إلىٰ المقصود، ويُعرَف من خلالها أوجُهُ بيان السنة للقرآن وارتباطها الوثيق به، فالسنة علىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تُؤكِّد ما في القرآن وتُوضِّحُه، كما في «الصحيحين» عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: «بُني الإسلام علىٰ خمس شهادة إلا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان»، أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

القسم الثاني: تُبيِّن ما في القرآن، وذلك من عدة جوانب:

الأول: بيان مُجمَله، كبيان عدد ركعات الصلاة وما يتبع ذلك، وبيان الحج والعمرة ونحو ذلك.

الثاني: تخصيص عامِّه، كالنص علىٰ البيوع المحرمة وإخراجها من قوله تعالىٰ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

الثالث: تقييد مُطلَقه، كتقييد قول الله تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١]، حيثُ قيَّدتها السنةُ بالثلث فما دون.

الرابع: توضيح مُشكِله، كتوضيح قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] حين أشكل هذا علىٰ الصحابة وشق عليهم، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: «ليس كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، أخرجه البخاري (٣٣٦٠)، ومسلم (١٢٤). فبيّن لهم أن المراد ظلم الشرك.

الخامس: بَسْط مختصره، كبسط قصة أصحاب الأخدود التي جاءت موجزة في القرآن الكريم. =

وإظهار ما في أحكامه من الأسرار والمنافع، ولهذا أطلق عليها لفظ الحكمة، فالسنة العمليَّة التي علَّمتهم كيف يهتدون بالقرآن، ومرَّنتهم علىٰ العدل والاعتدال في جميع الأحوال، لأنها التربية العملية بمُوجب تعاليم القرآن، فقد أوقف النبيُّ ﷺ أصحابه رضِيَ الله عنهم علىٰ فقه الدين، ونَفَذ بهم إلىٰ سرِّه، فكانوا حكماء علماء، عُدولاً نجباء، حتىٰ كان أحدهم ليَحْكُمُ المملكةَ العظيمة فيقيم فيها العدلَ ويُحسن السياسة، وهو لم يحفظ من القرآن إلا بعضه، ولكنه فَـقِهَهُ حَقَّ فِـقْهِهِ، وطَـبَعَ نفسَهُ عليه. وفقهُ الدين ومعرفة أسرار الأحكام هو غير التزكية، ولكنه يتَّصل بها ويُعِين عليها، حتىٰ يطابق العلمُ العملَ.

وهذه الآية نبأ عن استجابة دعوة إبراهيم عليه السلام حينما دعا بقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1] [البقرة: ١٢٩].

ثم نوَّه بشأن هذا التعليم للكتاب والحكمة، مُبيِّناً أنَّ ما يتناوله من المواضيع لا

---

= السادس: نسخُ بعض أحكامه، كنسخ الوصية للوالدين وعموم الورثة في قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

السابع: التفريعُ علىٰ أصل مقرَّر في القرآن، كمنع أكل أموال الناس بالباطل، ولو كان عن رضا من الطرفين في العقود المحرمة، قال الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وبيّنت السنة أن العقود المحرمة لا تجوز ولو حصل التراضي.

القسم الثالث: أن تكون السنة مُوجِبةً أو محرِّمةً لحكم سكت القرآن عنه، كإيجاب زكاة الفطر، وكتحريم نكاح المرأة علىٰ عمتها أو خالتها، وتحريم كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير، وتحريم الذهب والحرير علىٰ الرجال، وغير ذلك. والله تعالىٰ أعلم.

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٥).

يمكن معرفته إلا به، فقال: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾، أي: ما لا طريق للناس في معرفته بالنظر والفكر، وهو ما لم يُعلم إلا بالوحي، كأخبار عالَم الغيب في اليوم الآخر وأمثال ذلك.

وبعد أن امتنَّ عليهم بإتمام النِّعَم، علَّمهم ما يحفظها ويُديمها، فقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ أي: بما أتممتُ عليكم من النِّعم، ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ أي: بإدامتها والثواب عليها.

قال الأستاذ الإمام: وهذه الكلمة عظيمة جداً، وهو الربُّ ونحن العبيد، وهو الغنيُّ عنا ونحن الفقراء إليه.

ثم حثَّ على ذلك بالتنبيه إلىٰ وجوب مقابلة الإحسان بالإحسان، فقال: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى﴾ هذه النِّعمَ بالعمل بها وتوجيهها إلىٰ ما وُجدت لأجله بحسب السنن الإلٰهيَّة، ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ أي: ولا تكفروا نِعَمي ـ التي منها العقل والسمع والبصر ـ بإهمالها أو صرفها إلىٰ غير ما وُجدت لأجله بحسب السنن الإلٰهيَّة العادلة.

وفي الآية تحذيرٌ لهذه الأمة مما وقعتْ فيه الأممُ السالفةُ، حيث حوَّلت الدِّينَ عن قُطبه الذي يدور عليه[1]. وعطَّلت أحكامه بالتأويل والتبديل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

ثم قال في «المنار» ما ملخَّصه: وبعد أن ذكر سبحانه في الآيات السابقة افتتانَ

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٢٦).

الناس بتحويل القبلة، وإزالةَ شبه الفاتنين والمفتونين، وإقامةَ الحُجج علىٰ المشاغبين، وحِكَم التَّحويل وفوائده للمؤمنين، ولا جَرَم أنَّ أهل الحق كانوا يُلاقونَ من أهل الباطل وأشياعِهِ صعوباتٍ كبيرةً، أمرهم سبحانه أن يستعينوا بالصبر والصلاة علىٰ ما يُلاقونه من الشدائد في سبيل الحق، والدعوة إلىٰ الدين، والمدافعة عنه وعن أنفسهم، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾، فوصفهم بالإيمان إثْرَ ما يُوجبه ويقْتضيه، تنشيطاً لهم، وحثاً علىٰ مُراعاة ما يعقبه من الأمور[1].

والمراد بالصبر: مَلَكةُ الثبات والاحتمال التي تُهوِّن علىٰ صاحبها كلَّ ما يُلاقيه. ولا شك أنَّ هذه هي أمُّ الفضائل التي تُربِّي مَلَكات الخير في النفس، إذ ما من فضيلةٍ إلا وهي محتاجة إليها، وعليه جَرَىٰ النبيُّ ﷺ وأصحابه عليهم الرضوان، حتىٰ فازوا بعاقبة الصبر المحمودة، ونَصَرَهم الله تعالىٰ مع قلَّتهم وضَعْفهم، علىٰ جميع الأمم مع قوَّتها وكَثْرتها، وإنما كان ذلك بالصبر، ومَنْ لم يَسْتَعن علىٰ عمله بالصبر لا يتمُّ له أمر، ولا يثبت علىٰ عمل، ولاسيما الأعمال العظيمة، ومَنْ يزعم أنه عاجز عن تحصيل هذه المَلَكَة، فهو خائنٌ لنفسه مُحتقرٌ نعمة الله تعالىٰ عليه.

وقد جَرَتْ سُنَّة القرآن أن يُنبِّه إلىٰ الصبر في كلِّ مقام يشقُّ علىٰ النفس احتمالُه، وقد ذُكِرَ في نيفٍ وسبعين موضعاً.

وأما الحاجةُ إلىٰ الاستعانة بالصلاة علىٰ تأييد الحقِّ والقيام بأعبائه، فوجهُها محجوبٌ لا يكاد ينكشف إلا للمصلِّين الذين هم في صلاتهم خاشعون، تلك الصلاة التي أكثَرَ من ذكرها الكتاب العزيز، ووَصَفَ ذويها بفُضْلىٰ الصفات، وهي الصلاة المشتملة علىٰ التوجُّه إلىٰ الله تعالىٰ، وحضور القلب معه سبحانه، واستغراقه في الشعور

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٢٨).

بهيبته وجلاله وكمال سلطانه، تلك الصلاة هي التي قال فيها جلَّ ذكره: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال فيها: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وليست هي مجرَّدَ الصُّورة المعهودة من القيام والركوع والسجود والتلاوة باللسان فقط كما نفعله الآن، تلك التي يسهل علىٰ كلِّ صبيٍّ مُميِّز أن يتعوَّد عليها، والتي نشاهد [لدىٰ بعض] المعتادين عليها الإصرارَ علىٰ الفواحش والمنكرات، واجتراحَ الآثام والسيئات، وأيُّ قيمة لتلك الحركات المجرَّدة الخفيفة في نفسه حتىٰ يصفها ربُّ العزَّة والجلال بالكِبَر إلا علىٰ الخاشعين. وإنما جُعلت تلك الحركات والأقوال صورةً للصلاة؛ لتكون وسيلةً لتذكير الغافلين وتنبيه الذاهلين، ودافعاً يدفع المصلِّي إلىٰ ذلك التوجُّه المقصود، الذي يملأ القلب بعظمة الله وسلطانه، حتىٰ يستسهلَ في سبيله كلَّ صعب، ويَستَخِفَّ بكل كَرْب، ويسهلَ عليه عند ذلك احتمالُ كلِّ بلاء، ومقاومةُ كل عناء، فإنه لا يَتَصوَّر شيئاً يعترض في سبيله إلا ويرىٰ سيِّدَه ومولاه أكبر منه، فهو لا يزال يقول: الله أكبر، حتىٰ لا يبقىٰ في نفسه شيءٌ كبير إلا ما كان مُرْضِياً لله تعالىٰ الذي يُلجَأ إليه في الحوادث، ويُفزَعُ إليه عند الكوارث.

ثم علَّل الأمر مُنوِّهاً بشأنه في أنه يعين علىٰ عظائم الأمور، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾، والمعيَّة هنا معيَّة المعونة، فالصَّابرون موعودون من الله بالمعونة والظَّفَر، ومَنْ كان الله مُعينَهُ وناصرَهُ لا يغْلبه شيء، وإنما يكون الصبر معيناً علىٰ جلائل الأمور وعظائم الأعمال، إذا أصبح عادة مألوفة وطبيعة راسخة. من «المنار» بتصرف[1].

وقال الأستاذ الإمام: إنَّ من سُنَّة الله تعالىٰ أنَّ الأعمال العظيمة لا تتم، ولا ينجح

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٢٨- ٣٠).

صاحبُها، إلا بالثبات والاستمرار، وهذا إنما يكون بالصبر، فمن صبر فهو علىٰ سُنَّة الله، والله معه بما جعل هذا الصبر سبباً للظَّفَر؛ لأنه يولِّد الثبات والاستمرار الذي هو شرط النجاح، ومن لم يصبر فليس الله معه؛ لأنه تنكَّب سُنَّتَه، ولن يَثْبُتَ فيبلُغَ غايتَه[1].

وبعد أن دعاهم إلىٰ الاستعانة بالصبر والصلاة علىٰ مقاومة المعارضين، رغَّبهم ببيان شأن من يُقتَل منهم، زيادةً في التثبيت وتمهيداً لما بعدها، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ أي: بحياتهم، إذ ليست في عالم الحسِّ الذي يُدرَك بالمشاعر. والمعتمد عند الأستاذ الإمام: أنها حياة غيبيَّة تمتاز بها أرواح الشهداء علىٰ سائر أرواح الموتىٰ من الناس، بها يُرزقون وينعَّمون، ولكننا لا نعرف حقيقتها ولا الرزق الذي يكون بها، ولا نبحث عن ذلك؛ لأنه من عالَم الغيب الذي نؤمن به ونُفوِّض الأمر فيه إلىٰ الله تعالىٰ.

قال بعض المفسِّرين العصريين: وفي الآية دلالةٌ علىٰ أن الأرواحَ جواهرُ قائمةٌ بأنفسنا تبقىٰ بعد الموت درَّاكةً، وبذلك نطقت الآيات والسُّنن، وعليه دلَّ العلم الحديث، وإنما خصَّ الشهداء بذلك لما يَسْتدعيه مقام التَّحريض علىٰ الشهادة، وفيه نصٌّ علىٰ أنَّهم مُختصُّون بمزيدِ القُرب من الله سبحانه وتعالىٰ ومميّزات الحياة الثانية[2].

وبعد أن ذكر الله سبحانه فَضْل الشهادة التي استُهدِفَ لها المؤمنون في سبيل الدعوة إلىٰ الحقِّ والدفاع عنه، ألمع إلىٰ أنَّ من طبيعة القيام بالإصلاح أن يقترن بالصعوبة والشدائد، وذكر مجموع المصائب التي سيلاقونها في سبيل ذلك، فإنَّ الإعلام بالمصائب قبل وقوعها يجعل النفوسَ مُسْتَعدَّةً لتحمُّلها متوطِّنة لتلقيها، ولا سيما إذا وُعدت بالجزاء

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٠).

(٢) انظر: قصة الشهيد ثابت بن قيس في سورة الحج (٥: ٢١٦) (المؤلف).

الكبير على الصبر عليها، فقال: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾.

أقول: وهذا أمر منتظر في أثناء كلِّ نهضة وانقلاب، إذْ يتعرَّض القائمون به لذلك قبل أن يتمَّ ويَسْتَتِبّ، وقد أومأت هذه الآية إلىٰ أنَّ مجرَّد الانتساب للإيمان لا يقتضي سَعَة الرزق وقوة السلطان وانتفاء المخاوف والأحزان، وإنما يجري ذلك بسُنن الله تعالىٰ في الخلق. والمؤمنُ الموفَّقُ يستفيد من مَجَاري الأقدار، إذ يتربَّىٰ ويتأدَّب بمقاومة الشدائد والأخطار.

ثم ذيَّل البيان بهذا التسجيل العام، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾، وفيه إيذانٌ بأن هذه الأمور هي التي تُكتَسَبُ بها مَلَكَةُ الصبر التي يُقرَنُ بها الظفر، ويكون صاحبها أهلاً لأن يبشَّر بحُسْن العواقب في الأمور كلها.

ثم ذكر من وصف الصابرين قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾، قال في «المنار»: وليس المراد بالقول مُجَرَّد النطق بهذه الكلمات، وإنما المراد التلبُّس بمعناها، والتحقُّق في الإيمان بأنهم من الله، وإلىٰ الله يرجعون، فهو الذي بيده ملكوتُ كلِّ شيء، ولا يفعل إلا ما سبقتْ به الحكمةُ وارتضاه النظامُ الإلهيُّ المعبَّر عنه بالسنَّة الطبيعية[1]، فيجبُ أن ينطلق اللسان بالكلمة بدافع الشعور بهذا المعنىٰ وتمكُّنه من النفس. فأصحاب هذا الاعتقاد والشعور هم الجديرون بالصبر إيماناً وتسليماً، بحيث لا يملك الجزعُ نفوسَهم، ولا تُقِعدُ المصائب همَّتهم، بل تزيدهم ثباتاً ومثابرةً،

(١) هذه السنن الطبيعية هي الـمُعبَّر عنها بالعادة في كلام العلماء السابقين، والعادة: قانون وضعه الله تعالىٰ لأفعال عباده، فلا حكم لـها علىٰ أفعال الله تبارك وتعالىٰ، ويدل عليه أنه سبحانه وتعالىٰ خرق العادة فيما أيَّد به رُسُلَه من معجزات، فقول المؤلف: إنه تعالىٰ لا يفعل إلا ما ارتضاه النظام الإلهي الـمُعبَّر عنه بالسنة الطبيعية؛ مما لا يُوافَقُ عليه.

فيكونون هم الفائزين. ولا ينافي الصبر والثبات ما يكون من حزن الإنسان عند نزول المصيبة، بل ذلك من الرحمة ورقَّة القلب، ولو فقد الإنسان هذه الرحمة لكان قاسياً؛ لا يُرجىٰ خيره، ولا يُؤْمن شره[1].

ثم خَتَم القول ببيان الجزاء بالإجمال، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾، أما الصَّلوات فالمراد بها: أنواع التكريم وإعلاء المنزلة عند الله والناس، وأما الرحمة: فهو ما يكون لهم في نفس المصيبة من حُسْن الصبر والعزاء والتسليم للقضاء، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ أي: إلىٰ ما ينبغي عمله في أوقات المصائب والشدائد، إذ لا يَسْتحوذ الجزع علىٰ نفوسهم، ولا يذهب البلاء بالأمل من قلوبهم، فيكونون هم الفائزين بخير الدنيا والراحة فيها، الـمُسْتَعدِّين لسعادة الآخرة، بِعُلوِّ النفس وكَرَم الأخلاق.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾.

ولما كان في تحويل القبلة إلىٰ البيت الحرام توجيهٌ لقلوب المؤمنين إلىٰ الاستيلاء عليه، لتطهيره من الشرك والآثام، وكان قوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾ وعداً ضمنياً لفتح مكة، وقد قرَّره بما يُعين عليه، وهو الصبر، وبيان حال الشهداء، ذكر بعده حكماً من أحكام الحج؛ تأكيداً لتلك البشارة، وزيادةً في التثبيت، كما تقدَّم في ذكر الصلاة، وبياناً لأنَّ حكم الصَّفا والمروة ليس من مُواضعات المشركين الذين رَغبوا عن ملَّة إبراهيم وعبثوا بها، علىٰ نهج القرآن في دقَّة المسالك وتعدُّد الأغراض والمقاصد، فجعل الكلام بحسب السياق حثاً وتحسيساً لفتح مكة التي جُعِلَت قبلةً وعداً وتأييداً، وبحسب

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٣).

النظم حكماً وتبييناً، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾، فإذا تمَّ لكم فتح مكة ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾.

كان علىٰ الصَّفا والمروة صنمان للمشركين، وكانوا إذا طافوا بهما مَسَحوهما، فتحرَّج المسلمون عن الطواف بهما، وكانوا يرون أنَّ الطواف بهما من مُبْتَدَعات الجاهلية، فأنزل الله هذه الآية مُبيِّناً أنه من شعائر الله وأعلام مناسكه، فمن حجَّ أو اعتمر وَجَبَ عليه السعيُ بينهما[1].

ثم نوّه بشأن هذه الشعائر ببيان أنَّ الله سبحانه لا يُضيع أجر من أحسن عملاً، فقال: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: فعل طاعة من الخير فرضاً أو نفلاً، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ فلا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها وجازىٰ عليها. وعبَّر عن المجازاة

---

(١) إنَّ العبادة منها شعائر يجتمع الناس لها، وتقصد الأمة بعملها إظهار الدين والإشعار به والاجتماع والتآلف علىٰ عبادة الله تعالىٰ، وكل أعمال الحج من هذا القبيل، ولا بدَّ في الشعائر أن تتخصَّص بمكان وتتوقَّت بزمان؛ لأجل جمع الناس عليها، كما في الحج ومناسكه، وأداء ذلك في مكة المكرمة.

ومن العبادة ما ليس بشعائر، وهو ما يقصد به تربية كلِّ فرد نفسه وتزكيتها، كالصوم وصلاة السنن في البيت، ولا سيما صلاة الليل، فإنها تُهذِّب النفوس وتمنعها من المفاسد، وتُنمِّي المَلَكات الفاضلة، وتُربِّي الإخلاص، وتُجنِّب الرياء.

ومن العبادة ما لا حظَّ للنفس والعقل فيها لبُعد مَرْماها ودقَّة مبْناها، وقد تكون لمجرَّد الامتثال وتغْذية الإيمان بالطاعة الصادقة في كلِّ ما يأمر به الله سبحانه، سواء عُلمت حكمته وفائدته أو لم تُعلم، ومن هذا النوع بعض أعمال الحج ومناسكه، وربما كان لرمي الجمار مدخل في نفي الوساوس الناجمة عن عدم إدراكنا لِحكَم تلك الأحكام، فجعل إظهاراً لشيء [من] تلك الوساوس والتبري منها، والله أعلم. (المؤلف).

بالشكر مبالغةً في نوع هذا الإحسان، وما أكبر شكر الله للمحسنين! اللهمَّ اجعلنا ممن سَبقت لهم منك الحسنىٰ، يا أرحم الراحمين.

وعن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: قلت لعائشة رضِيَ الله عنها: «إني لأظنُّ أنَّ رجلاً لو لم يطف بين الصفا والمروة ما ضرَّه. قالت: لِـمَ؟ قلت: لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، فقالت: ما أتمَّ الله حجَّ امرئ ولا عُمرته لم يطف بين الصفا والمروة، ولو كان كما تقول لكان: (فلا جناح عليه أن لا يطوَّف بهما)، وهل تدري فيما كان ذاك؟ إنما كان ذاك أنَّ الأنصار كانوا يهلُّون في الجاهلية لصنمين علىٰ شطِّ البحر يقال لهما: إساف ونائلة، ثم يجيئون فيطوفون بين الصفا والمروة، ثم يحلقون، فلما جاء الإسلام كرهوا أن يَطُوفوا بينهما، للذي كانوا يصنعون في الجاهلية. قالت: فأنزل الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ آخرها»[1]. وفي رواية: «قلت لها وأنا صغير».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ أصل السياق وما تضمَّنه من عبث أهل الكتاب بكتابهم، بالتأويل والتحريف في معانيه، إذ الكلام عن القبلة هو من نفس السياق؛ لأنَّ اعتراض أهل

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (١٧٩٠)، ومسلم (١٢٧٧). ولم أقف علىٰ رواية: «قلت لها وأنا صغير».

الكتاب علىٰ تحويل القبلة ـ مع أنه معلوم من كتابهم: أن النبيَّ الذي يُبعث من ولد إسماعيل، يكون علىٰ قبلته وهي الكعبة ـ وإنكارهم أنهم مأمورون فيه باتِّباعه، إنما هو من تحريفهم وتأويلهم لذلك الكتاب، وقد بيَّن حكم هؤلاء العابثين، بصُورة تشريع عام، لا يقتصر عليهم، وذلك من أساليب القرآن، فقال عائداً إلىٰ السياق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾، فالآية صورةُ حكم عام يشملهم وغيرَهم، علىٰ نهج أساليب القرآن في الإيجاز والعموم، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية). وفيها إيذانٌ بأنهم لم يقتصروا علىٰ كتمان الشهادة للنبي ﷺ بالتأويل كما مرَّ، بل كتموا ما في الكتاب من الهُدىٰ والإرشاد، بضروبٍ من التأويل، حتىٰ أفسدوا الدين وانحرفوا بالناس عن صراطه المستقيم. والكتمانُ قد يكون بالسَّتر والإخفاء، وقد يكون بإزالة شيء ووَضْعِ غيره في موضعه.

وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ ليس المراد أنه ينبغي ويُطلَبُ لعنهم، وإنما المراد أنهم بفعلتهم هذه يكونون موضعَ لعنةِ اللاعنين الآتي ذكرها في حقِّ المُصرِّين علىٰ الكفر، حيث يظهر في الآخرة للعوالم أنهم لم يستحقوا الرحمة.

ثم بيَّن بطريقة الاستثناء مصيرَ مَنْ تابَ وآمن منهم، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟﴾ أي: عَمَلَهم، ﴿وَبَيَّنُوا۟﴾ أي: ما كانوا يكتمونه، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾.

ثم قرَّر تعالىٰ مصير مَنْ أصرَّ منهم علىٰ الكفر حتىٰ الممات، وبيَّن ذلك بصورةِ قاعدةٍ عامة تشملهم وغيرَهم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي:

في النار، وقد أُضمِرَت من غير ذكرٍ تفخيماً لشأنها وتهويلاً لأمرها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة). أو في اللعنة، بمعنىٰ أنها دائمة فيهم.

وفي كلٍّ من التقديرين: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ أي: لا يُمهلون، أو لا يُنظَرُ إليهم نظرَ رحمةٍ وامتنان، وإنما عبَّر هنا عن اللعنة بالجملة الاسمية، للإيذان بدوامهم فيها؛ لأنَّ الجملة الاسميَّة تدلُّ علىٰ الثبوت.

وبعد أنْ هَدَم أباطيل أولئك الضَّالِّين والمشركين وبيَّن مصيرهم الهائل، بنتيجة ذلك الشِّرك والضلال، ذكر الطريقَ المنجي من ذلك المصير وهو التوحيد، ودَعاهُم إليه، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد والدعوة إلىٰ الرشاد، وفي تعقيب الكفر والضلال بما يُرشد للنجاة والفلاح، وصفاً للدواء بعد بيان الداء. وبيَّن سبحانه صَمَدانيَّته التي يجب أن يُعتمد عليها، فيما يقول وفيما يُنزِل، وأن لا يُعتمد علىٰ سواه، إذ لا مُسْتَحِقَّ لذلك إلا الله، وكل ما يقال فيما يخالف هذا فهو سَفَهٌ وضلالٌ. وَوَصَلَ البحثَ بالتوحيد وتأكيده، والشرك وتفنيده، والتوعُّد عليه، فقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ أي: فبرحمته العظيمة لا يُوجِّهكم إلا لما فيه الخير والصلاح، فلا تشركوا به أحداً، ولا تأخذوا أحكام الدين عن غيره أبداً.

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

ثم أيَّد وحدانيَّته واستحقاقه أن يُعبَدَ وحده، بما أوجد في هذا الكون من عجائب

تدلُّ علىٰ اختصاصه تعالىٰ بصفات الألوهيَّة وأفعالها، وعلىٰ رحمته الشاملة وخيره العميم، وعلىٰ أنَّ تشريعاته في الخيريَّة والإتقان مثل مخلوقاته العظيمة في ذلك الشأن، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: من آيات بيِّنات يُدهِشُ المتأمِّلين بعضُ ظواهرها، فَضْلاً عما اكتشف العلماء من عجائبها، وإني ذاكر لك شيئاً من ذلك؛ لترىٰ ما يَروعُك ويُدهشك، جلَّ من هذه قدرته وأفعاله.

جاء في كتاب «عجائب الكون»: اتَّخذ الفلكيون لقياس أبعاد الشمس والقمر والكواكب السيَّارة «الميل» وحدةً قياسية، فقالوا: إنَّ بُعد الشمس عنا ثلاثة وتسعون مليوناً من الأميال، فلو فرضنا صاروخاً طار إليها بسرعة ثمانية وثمانين ميلاً في الساعة، يصلها في مئة وعشرين سنة، وهكذا قاسوا بقية الكواكب، وإنما الشمس نجمٌ من النجوم، وهي أقرب نجم إلينا، وبقية نجوم السماء كلُّها شموس، تضيء الكواكب التي معها في مجراتها، وبينها ما هو أكبر من شمسنا ثلاثين مليون مرة، ولكننا نراها صغيرة لبُعدها الشاسع، ولذلك لم يتمكَّن الفلكيون أن يقيسوا ذلك البُعد بالأميال كما قاسوا بُعْدَ الشمس وتوابعها، إذ يتعذَّر استعمال الأعداد لتلك الأميال، لكثرتها غير المتناهية، فاستعانوا في قياسها بسرعة النور الذي يسير في الثانية مئة وستة وثمانين ألف ميل، فإذا ضُرب هذا العدد في ستين كانت الدقيقة الضوئية، وإذا ضُرب الناتج في ستين أخرىٰ كانت الساعة الضوئية، وإذا ضُرب هذا الناتج في أربع وعشرين كان اليوم الضوئي، وإذا ضرب الناتج الأخير في ثلاثمئة وخمسة وستين كانت السنة الضوئية، وهي حوالي ستة ملايين مليون ميل، فيتَّخذون هذه السنة الضوئية وحدةً قياسية لبُعد النجوم التي لا عداد لها.

وقد قالوا: إنَّ الشمس يصل ضوؤها إلينا في ثماني دقائق، وإن أقرب نجم إلينا بعد الشمس يصل نوره إلىٰ الأرض في أربع سنوات ونصف سنة، أي: إن بُعْدَه عنا

يزيد علىٰ خمس وعشرين مليون مليون ميل. ومعنىٰ هذا: النور الذي نراه من هذا النجم قد خرج منه قبل أربع سنوات ونصف سنة، فلو فرضنا أنْ تلاشىٰ هذا النجم لسببٍ ما، فإننا نبقىٰ متمتِّعين بنوره في المحل الذي كان فيه مدَّة أربع سنوات ونصف سنة، غير شاعرين بما حدث له من التلاشي.

وهكذا يصل إلينا نور النَّجم المُسَمَّىٰ بالنَّسر الطائر في أربعة عشر سنة ونصف، ونجم السماك الرامح يصل نورُه إلينا في مدَّة خمسين سنة، ومن النجوم ما هو أبعد من ذلك بكثير جداً. وإنَّ بعض المجموعات النجومية والسدائم الكونية قد خرج منها الضوء منذ ألوف السنين، فإنَّ سديم المرأة المسلسلة[1] يزيد علىٰ ستمئة ألف سنة، وإن أبعد ما كشفت عنه النظارات الفلكية من السدائم، يبعد عنا مئة وأربعين مليون سنة ضوئية، وعلىٰ الرُّغم من دقَّة الآلات لم يكشف من النجوم البعيدة إلا أوائلها، والأقسام التي أصبحت معروفة من الكون ليس شيئاً بالنسبة إلىٰ ما يزال مجهولاً، ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۞ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨-٣٩].

وقد بيَّن العلم في أوائل القرن الثامن عشر للميلاد أنَّ هذه النجوم في حركة دائمة، فقد كان قبل ذلك يعتقد أنَّ هذه النجوم ثوابت لا حركة لها، وقد وجد الفلكيون أنَّ معدل حركة النجوم هذه تقدَّر بمئات الملايين من الأميال في السنة، وأنَّ هذا الفضاء أوسع مما يتصوَّر الإنسان مهما شطَّ به الفكر وحلَّق به الخيال، فهو علىٰ كثرة نجومه لم تزدحم فيه، بل لم تشغل منه إلا جزءاً صغيراً، وأنَّ معدَّل المسافة بين نجم وآخر يقدَّر بثلاثمئة مليون ميل. وهذه المسافة تجعل الاصطدام بعيد الوقوع غير محتمل، فلو فرَّقنا وأطرنا في جوِّ القارات الخمسِ عشرَ نحلات، لكان احتمال تصادم اثنتين منها أقرب

---

(١) إحدىٰ المجرّات.

من احتمـال تصادم نجمين في الفضاء، ولكان جو الأرض أكثر ازدحاماً بالنحل من ازدحام الفضاء بالنجوم، وعلىٰ الرغم من الفراغ العظيم الموجود بين النجوم فـإنَّ مجموعها الكُلّي كبير جداً يستحيل تصوُّرُه.

ويقول الفلكيُّون: إننا لكي نتخيَّل المجموعَ الكُليِّ لنجوم السماء عدا السدائم يجب أن نتصوَّر لذلك العدد مكتبةً ضخمة تحوي علىٰ الأقل نصف مليون كتاب كلٌّ منها خمسمئة صحيفة.

وإذا كنا نطالع صفحة في الدقيقة مدة ثماني ساعات في اليوم، فلا بدَّ من سبعمئة سنة لقراءة هذه المكتبة عن آخرها، ولو كنَّا نعدُّ النجوم بسرعة ألف وخمسمئة نجم في الدقيقة، لاستغرق عدُّ النجوم كلها سبعمئة سنة.

وهناك المجتمعات النجميَّة وهي التي قد تجمَّعت في أشكال كروية تعرف بالعناقيد والمجتمعات النجميَّـة، ويختلف عدد النجوم فيها من خمسة آلاف نجم إلىٰ مئة ألف نجم، وذلك فيما أمكن كشفه. وتدور نجوم كلِّ مجتمع بعضُها حول بعض خاضعةً لنظام الجاذبية العامة، وهذه المجتمعات علىٰ أبعاد شاسعة عنا، وتتراوح بين ثمانية عشر ألف سنة ومئة وثمانين ألف سنة ضوئية في المدىٰ الذي قدرت أن تكشفه لنا النظارات الفلكية، فمجموع الجاثي مثلاً يصل نورها إلينا في ثلاث وثلاثين ألف سنة، وهي تبعث من الضوء مليونين ونصف مليون مرة قدر ما تبعثـه الشمس، ومع ذلك لا يُرىٰ إلا بصعوبة، فلا عجب إذا ظهرت المجتمعات الأخرىٰ التي أبعادها تزيد علىٰ ذلك بكثير، لطخاً سحابية، لأنها تبعد عنا مئة وأربعين مليون سنة ضوئية، وقد كشف منها إلىٰ حدِّ الآن مليونان من السحائب.

أما الفضاء الذي تشغله الواحدة من هذه المجتمعات، فقد دلَّت الأرقام علىٰ أن

قُطْرَ بعضها يزيد علىٰ ألف سنة ضوئية، وأنَّ معدَّل المسافة بين نجم وآخر في أيِّ مجتمع لا يقلُّ عن عشرة ملايين مليون ميل، وهذا المقدار يجعل الاصْطدامَ بين هذه النجوم بعيدَ الاحتمال في هذه المجتمعات أيضاً.

وهذا الكون العظيم خَلَقَه سبحانه بمشيئة وإرادة وما مسَّه من لغوب، فهذا هو معبودنا جلَّ جلاله لا نشرك به أحداً، خاب المشركون والذين يجعلون له ولداً. اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك مما لا أعلم.

وقد ظهر لك أنَّ هذه الأرض التي نعيش عليها، ليست إلا ذرةً تدور حول شمس من شموس عديدة انتثرت في الفضاء انتـثار الرمال في الصحراء، فاقرأ عند ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، لتفهم معناها فهماً إجمالياً، إذ لا يحيط علماً بذلك إلا العليمُ العلَّام، سبحانه وتعالىٰ عمَّا يشركون، ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]، ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١]، لاسيما الذين يقولون: ليس لهذا الكون خالق، وينكرون البديهيات.

ولا تقلُّ عظمةُ الكون امتداداً في الزمان، عن عَظَمته امتداداً في المكان، ولكن الوقت لا يتَّسع لبيان ذلك، فنكتفي بلمحة عَجْلىٰ، فنقول: قال علماء الفلك: إنَّ عمر الشمس يُـقَدَّر بنحو خمسة ملايـين مليون سنة، وإنَّ عمر الأرض يُـقدَّر بنحو ألفي مليون سنة، فهي منفصلة منها، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وعمر الحياة علىٰ الأرض يقدَّر بنحو ثلاثمئة مليون سنة، وعمر الإنسان عليها يقدَّر بنحو ثلاثمئة ألف سنة، فهو مخلوق حديث وآخر أنواع المخلوقات، والله أعلم، قال تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ

يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان: ١]. أَمَّا تكوُّن الأجرام السماويَّة ومبدؤها فيعجز العلم عن تحقيقه. أفلا يكون في ذلك كلِّه دلالة علىٰ اختصاصه سبحانه بالألوهيَّة وانفراده بها.

وقال أحد علماء الغرب: لا أستطيع أن أدرك كيف يُصَعِّدُ أحدٌ نظرَه إلىٰ السماء ثم ينكر وجود الله.

أقول: وكل ما ذكرناه من امتداد هذا الكون وإعمار كائناته قد تحقَّق بالطرق العلمية الحديثة، التي أظهرت كثيراً من الحقائق الراهنة البعيدة المدىٰ في خفايا هذا الكون وعجائبه ومحتوياته، أفلا يكون لنا ثقةٌ بهذه الطرق العلمية إذا أنبأتنا عن امتداد هذا الكون في المكان والزمان، وأبعاد هذه السماوات؟

وإذا أردت الاطلاع علىٰ بعض آيات السماوات وعجائبها، فاقرأ أمثال كتاب «النجوم في مسالكها»[1] لترىٰ ما يدهشك ويريعك حتىٰ إنك لتقول:

يكاد الـذي يتلـو غريـبَ حـديثها ... يظنُّ خيالاً أو أحاديثَ مفـتري[2]

ثم تابع سبحانه دليل الإبداع والمنَّة، فقال: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ وذلك بما أودع الله في الماء من خاصَّة حَمْل الأجسام حسب نظام العَوْم، فكلُّ ذلك يجري علىٰ سنن طبيعية مُطَّردة أودعها الله في طبيعة الماء لإفادة الناس، فإنَّ البحر طريق عظيم في المواصلات بين القارات والبلاد النائية، ولولا هذا النظام الطبيعي لتعطَّل قسم كبير لا يُستهان به من مصالح الناس، فقوله: ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ بيانٌ لِعَظَمة منَّته تعالىٰ بذلك علىٰ الناس ومظهر رحمته، وتنبيهٌ لهم علىٰ ما يجب عليهم من الإيمان والشكر فضلاً عن عدم الكفر.

---

(١) في علم الفلك للسير جمس جينز.

(٢) البيت لشكيب أرسلان، الشاعر اللبناني المتوفىٰ سنة ١٩٤٦.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ أي: وما في سُنَن تجمُّع البخار ثم انقلابه إلىٰ ماء من عَظَمَة في هذا النظام البديع، وقد شرح العلماء المتَخَصِّصون في ذلك كيفيَّة تكوُّنه ونزوله، ولم يخرج شرحهم وبيانهم عن الكلمة الوجيزة في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨]. وفي كلمة «السماء» مجازٌ مرسل، أراد بها السحاب؛ لعلاقة المجاورة.

ثم وصف هذا الماء بأعظم آثاره، فقال: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، وهذا كما يتناول الإحياء المتكرِّر في كل سنة يتناول الإحياء الأول عندما انفصلت الأرض من الشمس، وكانت مائرة ملتهبة تَتَبخَّر من حرارتها مادة الماء، فتُلاقي في الجوِّ برودة، تجعلها ماء ينزل علىٰ الأرض فيبرد من حرارتها، حتىٰ صار سطحها ماءً، وظهرت بعد ذلك اليابسة، وخلق الله عليها النبات والحيوان، ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾، فهذا العطف يجوز أن يكون علىٰ ﴿أَنزَلَ﴾ أو علىٰ ﴿أَحْيَا﴾.

ثم قال تعالىٰ في إتمام البيان: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فالرياح هي التي تُثير السَّحاب وتسوقُه إلىٰ حيث يُمطر وتُفرِّقُ شملَه أحياناً، وهو يتكوَّن بنظام ويتفرَّق بنظام عَجيبَيْن، يعرف ذلك العلماء المُتخصِّصون، ومن لا يعرف ذلك لا يفهم كونها آية فهماً تفصيلياً.

وإنما أخَّر السحاب المُسَخَّر عن إنزال الماء من السماء، عكس الترتيب الطبيعي؛ ليُعدَّ آيةً مستقلةً كما عُدَّ كل أمر من الأمور المسرودة آيةً مستقلة، وذلك لأنَّ كلَّ واحد منها مُسْتتبع لآثار معيَّنة ونتائج مخصوصة بها. ولو رُوعي في النَّظم الترتيبُ الطبيعيُّ لتُوُهِّمَ كونُ المجموع المرتَّب بعضه علىٰ بعض آيةً واحدة.

ويجوز أن يكون في قوله: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلماعٌ

إلىٰ نشأته وتكوُّنه، حيث ينشأ من الأرض بخاراً، ويتصاعد إلىٰ طبقات الجوِّ الباردة فينقلب ماء.

ولـما جُعل كلُّ واحد من هذه الأمور آيةً مستقلة، قال تعالىٰ: ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ فإنَّ آيات الوجود تنطق بوحدانيَّة الـمُوجِد المعبود. وقد أوضحت هذه الآيةُ الأدلةَ والبراهينَ علىٰ وجود الله ووحدانيته وعِظَمِ قُدرته وجليلِ حكمته وعميمِ رحمته في الناس واختصاصه بالألوهية.

وقد قال العلماء: إنَّ لله كتابين: كتاباً مخلوقاً وهو الكون، وكتاباً منَزَّلاً وهو القرآن. وقد أجمع المفكِّرون علىٰ أن أسمىٰ أغراض الدين هو نقل الإنسان من حظيرة الحيوانية إلىٰ حظيرة التفكير، وإعداده لأن يحيا حياة الفضيلة والاستقامة والتقوىٰ والكمال الصحيح.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

ثم بيَّن سبحانه ركاكةَ آراء المشركين وسخافةَ عقولهم، إثر تقرير وحدانيَّته تعالىٰ، وتحرير الآيات الكونيَّة الباهرة الملجئة للعقلاء إلىٰ الاعتراف بالتوحيد والتنزيه، وأنه يستحيل أن يشاركه مشارك في ذلك، فقال مُنَدِّداً بهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ﴾ بعد كل ذلك ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أي: من حُبِّ هؤلاء لأندادهم، أو من حُبِّ كل شيء. ويجوز أن يكون اسمُ التفضيل ليس علىٰ

بابه، ولكنه للمبالغة في الوصف، أي: يُحبُّونه حُباً شديداً، ولا يشركون في حبِّه أحداً.

والأنداد: الأمثال والأشباه، وهو أعمُّ من الأصنام والأوثان، فيشمل العظماء الذين يخضع لهم بعض الناس خضوعاً دينياً ألوهياً.

وقوله: ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، فيه ثلاثة أقوال، فقيل: المعنىٰ: كحُبِّهم لله، يعني: أنَّ المشركين يُسَوُّون بين الله وبين شركائهم في المحبة، وقيل: بل المعنىٰ كالحب اللازم لله عليهم، وقيل: كحُبِّ المؤمنين لله.

وللحبِّ أسباب، منها ـ وهو المقصود هنا ـ: أن يعتقد أنَّ في المحبوب قدرةً عظيمةً ونفوذاً كبيراً، مع ثقته بأنه يهتمُّ لأمره، ويعطف عليه، بحيث يمكنه اللجوء إليه عند الحاجة. المؤمنون يَقْصُرون ذلك في الله سبحانه وتعالىٰ، أما المشركون فيُسَوُّون بين الله والأنداد في ذلك، فإذا ضايقهم أمر أو نزل بهم ضُرٌّ؛ لجؤوا إلىٰ بشر أو صخر، أو توسَّلوا بحيوان أو قبر، أو استشفعوا بزيد أو عمرو، لجلبِ نفعٍ أو دفع ضر[1].

وقد ردَّ الله سبحانه عليهم، وسبك الردَّ علىٰ الإنذار والتوعُّد، وضمَّن ذلك اختصاص القوة والقدرة بالله، فقال: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾، وهذا تهديد بأبلغ تعبير وأروعه، وبأسلوب من أساليب القرآن المصوغة للمبالغة في تهويل الخطب وتفظيع الأمر، فإنه تعبير يتجلَّىٰ رَوْعَةً وهَوْلاً، ويتعالىٰ شرفاً ونُبلاً. جلَّ مَنْ هذا كلامه.

---

(١) التوسل بنبي أو عبد صالح والاستشفاع بهم إذا كان مع اعتقاد أنه يضرُّ وينفع فهو نوع من الشرك، وهو داخل في معنىٰ اتخاذ الأنداد من دون الله، بخلاف التوسل والاستشفاع به مع اعتقاد أن الضرر والنفع بيد الله. وعدم التفرقة بين الحالتين خطأ ينبني عليه تكفير جماعات من المسلمين بغير وجه حق. والكلامُ في الثاني كلامٌ في مسألة فقهية، يجري البحثُ فيها من حيثُ الجوازُ أو المنع، لا في مسألة عَقَدية.

وقد أقام بيان القدرة المرهوبة مقام جواب ﴿لَوْ﴾، للإيذان بأنه لا يُحيط به البيان، وأنه مما لا يستطيع السامع أن يسمعه لما فيه من الهول، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في المادة العاشرة من المقدمة الثانية)، أي: لرأوا أمراً هائلاً وأن القوة لله جميعاً.

وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ ظرفٌ ثانٍ أو بدلٌ من ﴿إِذْ يَرَوْنَ﴾، ذَكَرَهُ لشرح حالهم التعيس، لبيان أثر ذلك الهوْل وما يكون لهم من التقاطع والندم، والتَّحسُّر والتلاوم، وَلاتَ ساعةَ مَنْدَم. أعاذنا الله.

والمعنىٰ: إذ تبرَّأ الرؤساء من الأتباع، واعترفوا ببطلان ما كانوا يدَّعون في الدنيا ويدْعونهم إليه، من فنون الكفر والضلال، واعتزلوا عن مخالطته وقابلوهم باللعن، ﴿وَ﴾ ذلك عندما ﴿رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ فرأىٰ الرؤساء أن قد تضاعف عليهم العذاب بسبب إغوائهم لهؤلاء الأتباع، ورأىٰ الأتباع أنْ قد حلَّ بهم العذاب الشديد من جرَّاء ما أغواهم به هؤلاء الرؤساء، فتذكَّر كلٌّ منهما للآخر، ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ أي: العلاقات التي كانت بينهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي: إلىٰ الدنيا، أي: ليت لنا ذلك ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ اليوم، ثمَّ ختم البيان بما يُشعر بندمهم وتيئيسهم من نجاتهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ فلا تفيدهم الأماني، ولا يُجْديهم الندم نفعاً، والحسرةُ: شدَّة الندم والكَمَد[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

(١) الكَمَد: الحزن المكتوم. «لسان العرب» (كمد).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

ثم خاطب أولئك الرؤساء الذين يعبثون بعقول الأتباع، ليحملوهم علىٰ أن يحبُّوهم ذلك الحبَّ الذي تقدَّم ذكره في الآية السابقة، ويستغلّون منافعهم وأموالهم، خاطبهم بهذه الآية العامة التي تشملهم وغيرَهم. وقد جعلها وما يليها حلقة وَصْل ختم بهما السياق السابق، المتضمِّن للتنديد بالضَّالِّين المكذِّبين الذين عَبَثوا بشرائع الله تأويلاً وتبديلاً، يتَّبعون في ذلك خُطوات الشيطان، ومَهَّد بها للسياق اللاحق المبيِّنِ إلىٰ نهاية السورة تشريعاتِ الله الصحيحة وأحكامَه الواجبة الاتِّباع، التي تأخذ بهم إلىٰ الرُّشد والفلاح، واشتمل علىٰ تحليل الطيبات وتحريم الخبائث، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ[1] كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ أي: فلا تتَّبعوا خطواته في الأقوال والأعمال، ولا سيما في التَّحريف والتضليل، وتحريم ما لم يُحرِّم الله وتحليل ما لم يُحلل، وتنشروا ذلك بين الأتباع بُغْيةَ السيادة عليهم والحصول علىٰ منافع الدنيا، فإنَّ ذلك سبب الدمار وعذاب النار.

---

(١) لما كان مضمون السياق السابق يدلُّ علىٰ أنَّ المعارضين لا يتَّبعون حدود الله ويعبثون بتشاريعه تحريفاً وتبديلاً، شرع سبحانه في السياق الآتي ببيان أحكامه الواجبة الاتباع، فكانت هذه الآية وما يليها حلقة وَصْل ختم بها السياق السابق، ومهَّد للاحق، ونعَىٰ بها علىٰ المعارضين من أهل الكتاب والمشركين، تمسكهم بعقائدهم الضالة وتشريعاتهم الباطلة التي يتَّبعون فيها خطوات الشيطان، وأعقب ذلك بالتشريعات الصحيحة، والتوجيهات السَّديدة التي يجب اتِّباعها، فتَسَلْسَلت إلىٰ انتهاء السورة. (المؤلف).

وقوله: ﴿ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ تحسيسٌ بالنِّعم، وتمهيدٌ لما بعدها من النهي عن كفرانها باتِّباع خطوات الشيطان. والمراد به ما تَقَدَّمَ لهم من الأقوال والأفعال من مبدأ السورة إلىٰ هنا، وأمثال ذلك، كتحريم السائبة والوصيلة من المشركين، وإنكار أهل الكتاب ما جاءهم في كتبهم عن رسول الله ﷺ. فالآية ردعٌ للبشر عما صدر من بعضهم، علىٰ نهج القرآن في إسناد ما هو للبعض إلىٰ الكل، إيماءً للتضامنِ ووجوبِ التناهي بينهم وكفِّ العقلاء للسفهاء.

وفي قوله: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ إشارةٌ إلىٰ أنَّ الله سبحانه لا يُحِلُّ إلا الطيب، ولا يُحَرِّم إلا الخبيث.

قال في «المنار»: أما السُّوء فهو كل ما يَسُوؤُك وقوعُه أو عاقبتُه، فمن الشرِّ ما يقدُمُ عليه المرء مُندفعاً بتزيين الشيطان له، حتىٰ إذا فعله فاجأه السوء، ومنه ما لا يظهر السوء في بدايته، ولكنه يتَّصل بنهايته.

وأما الفحشاء فكلُّ ما يقبح في أعين الناس من المعاصي والآثام. والفحشاء في الغالب أقبح وأشد من السوء. وإنّما يُعرف الشيطان بهذا الأثر الذي يُنسب إليه، وهو وحيُ الشر وخواطرُ الباطل، والإفساد للنفس هو منشأ هذا الوحي والخواطر الرديئة، وقد قالوا: إنَّ لكل إنسان شيطاناً، وهو قوَّة نزَّاعة إلىٰ الشرِّ[1] تُحدِثُ له خواطر السوء. ومن أقبح ما يوسوس به: أن يحمل الإنسان علىٰ التَّقوُّل علىٰ الله بما لا يعلم، فيُحرِّم ما لم يُحَرِّم، ويُحلِّل ما لم يُحلِّل، فإنَّ هذا هو الأصل في إفساد العقائد وتحريف الشرائع[2].

---

(١) تفسير «الشيطان» بهذه القوة غير صحيح، نعم.. لا ينكر وجود مثل هذه القوة في النفس الإنسانية، لكن تفسيرُ «الشيطان» بها غير صحيح، وقد تقدَّم التعليقُ علىٰ هذا المعنىٰ في المقدمة (١: ٥٦١).

(٢) تفسير «المنار» (١: ٧٢).

ثم أنَّبهم ـ بما فيهم الأتباع ـ علىٰ تقليدهم الأعمىٰ، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾، ولو كان للمُقلِّدين قلوبٌ يفقهون بها، لكانت هذه الآية كافيةً بأسلوبها لتنفيرهم من التقليد الأعمىٰ، فإنها حُجَّة عقليةٌ لا تُنقَض، إذ أبعَدُ الناس عن معرفة الحق المقلّدون الذين لا يبحثون ولا يستدلون، ولذلك ضرب الله لهم المثل في الآية الآتية، فقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: في اتِّباعهم هذا لمتبوعيهم وتقليدهم لآبائهم دون معرفةِ الحقِّ من الباطل بالوعي والبرهان ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾، فضَرَبَ الله لهم هذا المَثَل، زيادةً في تقبيح شأنهم والازدراء عليهم، فشبَّه حالهم بحال الغنم مع الراعي يدعُوها فتُقبِل، ويَزْجُرها فتنزجر، وهي لا تعقل مما يقول شيئاً ولا تفهم له معنىٰ.

وتشعر هذه الآية بأن ليس القَصْدُ من الإيمان والتكليف بالأعمال الصَّالحات أن يُذلَّل الإنسان للخير فقط، بل هناك ما هو أسمىٰ من ذلك مضافاً إليه، وهو أن يترقّىٰ عقلُه وتسمو نفسُه بالعلم والعرفان، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المُرضِي لله سبحانه وتعالىٰ، ويترك الشر لأنه يفهم سوءَ عاقبته ومضرَّته لنفسه أو بالفرد أو بالمجتمع. ولولا ذلك لم يَنْه عنه سبحانه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾.

ولما كان مضمون السياق ـ ولا سيما قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ...﴾ [البقرة: ١٦٨] ـ يدلُّ علىٰ أنَّ المعارضين لا يتَّبعون حدود الله، ويعبثون بتشاريعه تحريفاً وتبديلاً، أتبعه سبحانه

في السياق الآتي، ببيان أحكامه الواجبة الاتِّباع دون ما يشرعه هؤلاء لأنفسهم علىٰ نهج القرآن في إتباعِ النقد بالرشاد والدعوة إلىٰ الإرشاد، وسَلْسَلَ ذلك إلىٰ آخر السورة.

أما صاحب «المنار»: فقد قال في وجه الربط: وبعد أن بيَّن تعالىٰ حال الذين يتَّخذون الأنداد من دونه، وأشار إلىٰ أنَّ سبب ذلك حبُّ الحطام وارتباطُ مصالح المرؤوسين بمصالح الرؤساء في الرزق والحياة، وخاطب الناسَ كلَّهم بأن يأكلوا من الأرض إذ أباح لهم جميع خيراتها وبركاتها، بشرط أن تكون حلالاً طَيِّباً، وبيَّن سوء حال الكافرين المقلّدين الذين يقودهم الرؤساء كما يقود الراعي الغنم، لا يدركون حكمةً ولا يفقهون قولاً. بعد هذا كله وجَّه الخطاب إلىٰ المؤمنين خاصَّة؛ لأنهم أحقُّ بالفهم وأَجْدَرُ بالعلم وأحرىٰ بالاهتداء[1]. فنبَّههم إلىٰ عدم الالتفات إلىٰ أولئك الحمقىٰ الذين أُبيحت لهم خيرات الأرض، فطفقوا يُحلُّون بعضها ويُحرِّمون بعضها بوساوس رؤسائهم، فقال[2]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ لأنها ليست من الطيِّبات.

أما تحريم الميتة فلأنها لا بد أن قد ماتت بعلة يُخشىٰ ضررُها، وكذلك الدم، وأما لحم الخنزير فهو مُولِّدٌ للدودة الوحيدة وغيرها لا سيما في البلاد الحارة[3]. وأما ما أُهِلَّ

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٧٧).

(٢) لما كان مضمون السياق السابق ـ ولا سيما قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ...﴾ [البقرة: ١٦٨] ـ يدلُّ علىٰ أنَّ المعارضين لا يتَّبعون حدود الله ويعبثون بتشاريعه تحريفاً وتبديلاً، شرع سبحانه في السياق الآتي ببيان أحكامه الواجبة الاتباع، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾. (المؤلف).

(٣) قوله: ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ ذُكِرَ في تقرير للمعهد الطبي في الولايات المتحدة أن تلك البلاد التي تأكل لحم الخنزير تختلف نسبة الإصابة بديدان التريكينيلا، بين ٥-٣٥ في المئة علىٰ اختلاف =

به لغير الله، أي: ما ذُبح باسم صنم، أو نبيٍّ، أو ولي، فلأنه من أعمال الوثنية يُفسِد الروحَ ويمرضُها[١].

وإنما قال: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ ولم يقل: واشكروا لي، لتربية المَهَابة، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

وقد ألمعنا فيما سبق إلىٰ أنَّ هذه الآية مبدأ سياق جديد مناسب لما قبله، فإنَّ ما تقدَّم من أول السورة إلىٰ ما قبل هذه الآيات، كله في القرآن والرسالة وأحوال المنكرين للداعي، وما جاء فيها من الأحكام فإنما جاء بطريق العرض والاستطراد، وهذه الآية ابتداءُ قسم جديد من الكلام، وهو سَرْدُ أنواع الأحكام، إذ لما كان مضمون سياق الآيات السابقة يقضي بأنَّ الله سبحانه مُسْتقل في أمر التشريع، ولا يجوز لأحد أن يضع أحكاماً تشريعية دينيَّة، عقَّبه بسياقٍ سَرَدَ فيه أهم الأحكام التي شرعها سبحانه وتعالىٰ، فإنه يذكر فيه أحكام محرَّمات الطعام، وأحكام القصاص، والوصيَّة، والصوم، والحج، والنكاح، والطلاق، والرضاع، والصدقات، والربا، والدَّيْن، وغير ذلك. وبدأها ببيان أحكام الأطعمة، وذكر المحرَّمات منها.

---

= تلك البلدان في نسبة تناولها له، كما أن أعراضها تظهر علىٰ ملايين من أهالي تلك البلاد بأشكال شتىٰ، مثل ارتفاع الحرارة والنزلات المعدية والمعوية وآلام العضلات والمفاصل. ويقول التقرير المذكور في خِتامه: ويُحتَملُ أن بضعة آلاف من الوفيات سنويّاً سببُها هذه الدودة. فما أعظم حكم الإسلام! وما أكبر عنايته بالأرواح والأجسام! وإنَّما حرمت هذه الأربعة لأنها من الخبائث. والحصر في الآية إضافي بالنسبة إلىٰ ما كانت تحرمه الجاهلية علىٰ نفسها من بَحيرة وسائبة ووصيلة وحامٍ، وليست هي جميع المحرَّمات. (المؤلف).

(١) قد تظهر الحكمة في تحريم ما حرَّم الله، وقد تخفىٰ، وليس لظهورها أو خفائها أثرٌ في الانتهاء عنها واجتنابها، لأن هذا الاجتناب مُرتَّبٌ علىٰ ورود النهي الجازم المفيد للتحريم، لا علىٰ ظهور الحكمة في تحريمه.

ثم إنه بعد أن ذكر هذه المحرَّمات من المطعومات، استثنىٰ منها حالة الاضطرار، فقال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ أي: إلىٰ الأكل، بأن لم يجد ما يسدُّ رَمَقه سواه، ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: غير طالبٍ له قَصْداً وراغبٍ فيه لذاته، فهذه حال مؤكّدة للاضطرار، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الشيء بسَلْب ضدِّه، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: ولا مُتَجَاوز في ذلك الأكل قَدْر الضرورة، ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ لأنَّ إلقاءه بنفسه إلىٰ التَّهلكة بالموت جوعاً أشدُّ ضرراً من أكل الميتة وما عُطف عليها، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ يسامح المضطرين.

قال في «المنار»: وفي هذه الفاصلة نكتة دقيقة لا تظهر إلا لصاحب الذوق الصحيح في اللغة، وهي أنَّ ما ذكر في تحديد الاضطرار دقيق جداً، ومرجعهُ إلىٰ اجتهاد المضْطر، ويَصْعُبُ علىٰ مَن خارت قواه من الجوع أن يعرف القدر الذي يُمسِكُ الرَّمق ويقي من الهلاك بالتدقيق، وأن يقف عنده. والصادق الإيمان يخشىٰ أن يقع في صنف الباغي والعادي بغير اختيار، فالله تعالىٰ يُبشِّره بأن الخطأ المتوقَّع في الاجتهاد في ذلك مغفورٌ له ما لم يتعمَّد تجاوزَ الحد. والله أعلم[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾.

ثم ذكر مصير أولئك الرؤساء الذين يُضَلِّلون أتباعهم بما يكتمون من التشريع ويشرعون من عندهم، وبما يُحرِّمون عليهم وما يُحلُّون لهم من تلقاء أنفسهم أو بالتأويل،

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٨١).

وتوعَّدهم بالوعيد الرهيب، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المنوَّه عنه في التوراة والإنجيل: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وكلُّ ثمن يؤخذ عِوَضاً عن الحقِّ فهو قليل في جَنْب ما يفوت من سعادة الحق، وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل، وقد توعَّدهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾، وكلمةُ ﴿فِى بُطُونِهِمْ﴾ تمكينٌ للأكل وتقريرٌ له، علىٰ حدِّ قولهم: نظرت بعيني. والمعنىٰ: إن ما يأكلونه ثمناً لكتمان الحق سَيُوردُهم النار، ﴿وَ﴾ فوق ذلك ﴿لَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وهذه الجملةُ مُستعارةٌ من حال المُخاطَبين. وهي عبارة عن غضبه العظيم عليهم، وتعريضٌ بحرمانهم ممَّا أتيح للمؤمنين من فنون الكرامات السنيّة والزلفىٰ، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يُطهِّرهم بالمغفرة والعفو، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾. أعاذنا الله.

ثم نعىٰ عليهم مُصَوِّراً عَمَلَهم القبيح وسوءَ نتائجه وما ينبعث عنه من الخسران العظيم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾، وهذا العطف بالواو بين جُزءَي الصلة إنما هو من عطف المعلول علىٰ العلة؛ لأنَّ هذا المعطوف أثر المعطوف عليه، وقوله: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ تهديدٌ رهيبٌ في طيَّات التَّجهيل والتَّعجيب، علىٰ نهج القرآن في سَبْك التركيب علىٰ عدَّة معان. وهذا كما يقال للذي يَتعرَّض لما يُوجب غضب الملك: ما أصْبَرَكَ علىٰ السجن، أي: إنَّه لا يتعرَّض لهذا إلا من هو شديد الصبر علىٰ العذاب.

قال الأستاذ الإمام ما مثاله: إنَّ الكلام في أكلهم النارَ والتَّعجُّبِ من صبرهم علىٰ النار، هو تصويرٌ لحالهم وتمثيل لمآلهم[1].

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٨٦).

ثم علَّل ما سجَّله عليهم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ذلك الحكم الذي سُجِّل عليهم وقُرِّر في شأنهم، إنما هو لمخالفتهم الكتاب الذي جاء بالحق. والحقُّ لا يُغالب ولا يُخالف؛ لأنَّ الحقَّ مطابق للسنن الكونيَّة، ومخالفتها تُؤدِّي إلىٰ التلف والهلاك، إذ لا ضَرَر في الدارين علىٰ الفرد والأمة إلا من مخالفة السنن الكونيَّة والخروج عنها. ولا يكفل بيان هذا الأمر علىٰ الوجه الصحيح إلا مقرَّرات هذا القرآن العظيم والنور المبين.

ثم ذكر حكماً آخر في الكتاب غير حكم كتمانه، وهو حكم الاختلاف فيه، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾، فهو يفهمنا أنَّ الخلاف فيه بُعْدٌ عن الحق ككتمانه؛ لأنَّ الحق واحد وهو ما يدعو إليه هذا الكتاب الذي ينطبق علىٰ الحق الواقع والهدىٰ والرشاد.

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

ثم مهَّد للبحث الآتي في الأحكام الشرعية، بالإجمال للبحث الأصلي السابق، وهو الجدال في أمر القبلة، فأعاده إلىٰ الذاكرة علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (و) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، مُبيناً أن أمر القبلة ليس بالشيء المهم، وإنما المهم استباق الخيرات التي فصَّلها، فقال: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾، وفيه ذكرُ العام وإرادةُ الخاصّ، أي: ليس البر أن تُولُّوا وجوهكم لجهة معيَّنة في ناحية من الأرض.

وهذا ردٌّ علىٰ أهل الكتاب الذين أكبروا أمْرَ تحويل القبلة عن بيت المقدس ـ كما تقدَّم في آيات التحويل ـ وحكمَه، وطال خَوْضُهم فيه، وأكثروا المشاغَبات وأثاروا العَجَاج المزعج حتىٰ شغلوا المسلمين، فهو يُهَوِّن أمرَ تحويل القبلة ويُبيِّن أنَّ الجمود علىٰ ناحية مُعيَّنة في ذلك ليس من البر، بل الجهات كلُّها ليست من البرِّ في ذاتها، إلا بعدَ أن يَخُصَّها اللهُ لذلك، وإنما البرُّ بالإيمان بالله والامتثالِ لأوامره، والإيمانِ باليوم الآخر، وأن يعمل صالحاً يرضاه الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ [١] مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾، فنفت كلمة «ليس» أن يكون البر فيما دَرَجَ عليه الجاهلون من الأمور الفاسدة والمظاهر الجوفاء، وأثبتت كلمة «لكن» أصولَ الإيمان والحق والسلوك المستقيم، وأنها هي البرُّ المرضيُّ عند الله.

والبر: جماع الخير والإحسان، وبيَّنت الآية ثلاثة أنواع منه: البر في العقيدة[٢]

---

(١) البِرُّ: جماع الخير بسائر أنواعه، فيشمل العقيدة والعمل والخلق، وقد جمعت الآية ذلك.
فالأول: الإيمان بالله وحده، والإيمان بالملائكة المستعدة لتلقِّي الوحي من الله، والإيمان بالكتاب، وهو الشريعة التي ينزلها الله علىٰ البشر بواسطة الوحي، والإيمان بالنبيين الذين هم بمقتضىٰ كمالهم البشري مستعدُّون للاتِّصال بالوحي والتلقِّي منه، والإيمان باليوم الآخر حياته وجزائه، نعيمه وشقائه.
والثاني: البِرُّ بالعمل الصالح، وهو شُعَبٌ كثيرة. وجماعُهُ: بذل النفس والمال ابتغاء مرضاة الله وهناء خلق الله، وقد ذكرت الآية جملة منه.
والثالث: البِرُّ في الخلق وجماعه الإنسانية، وقد ذكرت الآية منه الوفاء بالعهود، ومقاومة الطوارئ دفاعاً عن الفرد والمجموع، والصبر علىٰ ذلك. (المؤلف).

(٢) البرُّ في العقيدة: أن نُجرِّده من الشريك والنقيض حتىٰ من الرياء في الأعمال وأن يُنسبَ إليه ظلم أو محاباة، فتوحِّده توحيداً خالصاً، وتنزِّهه تنزيهاً دقيقاً ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾. فإنَّ الله سبحانه لايقبل عملاً فيه ذرة من شرك أو رياء. (المؤلف).

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، والبر في العمل، والبر في الخُلُق، وهذا القسم منها هو ثمرة البر في العقيدة.

وفي الكلام إخبار عن المعنىٰ بالذات، وهو معهود في الفصيح من اللغة العربية، والغرض منه تمثيل المعنىٰ في الشخص، فيكون أجلىٰ وأتم. ولو قال: (ولكن البر إيمان بالله) فات هذا الغرض[1].

قال في «المنار»: والإيمان المطلوب هو: معرفةٌ حقيقيَّةٌ تَمْلِك العقلَ بالبرهان، والنفسَ بالإذعان، حتىٰ يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إلىٰ المؤمن من كلِّ شيء ويُؤْثَرَ أمرهما علىٰ كلِّ شيء. ومن ذلك: الإيمان باليوم الآخر والاعتداد له. أما الملائكة: فهم خَلْق روحانيٌّ عاقل قائم بنفسه، وهو من عالَمِ الغيب، كاليوم الآخر، فلا نبحث عن حقيقتهم، ولكن نؤمن بهم حسبما جاء في كتاب الله المنزَّل علىٰ رسوله ﷺ. والإيمان بهم أصل الإيمان بالوحي، لأن الوحي مَلَك يفيض العلم بإذن الله علىٰ روح النَّبيِّ، بما هو موضوع الدين. ولذلك قدَّم ذكر الملائكة علىٰ ذكر الكتاب. والكتاب: هو الوحيُ

---

(١) بَيَّنَ نَظْمُ الآية حقيقة البر والبار معاً نفياً وإيجاباً، علىٰ نهج القرآن في إيجاز السَّبْك والاحتباك. فكأنه قال: ليس البر أن تولوا ولا البار من يُولِّي، ولكن البر أن تؤمنوا بالله والبار من آمن بالله، فرمز إلىٰ ذلك بالموصول الاسمي بدل الموصول الحرفي، علىٰ نهجه في مثله، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية). وإنما قال: ولكن البر، ولم يقل: ولكن البار من آمن بالله؛ لأن المصدر يدل علىٰ الوصف، والوصف لا يدلُّ علىٰ المصدر، وذلك من البلاغة العالية التي ينهجها القرآن.

ثم قال: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾، فغيَّر الأسلوب وعبَّر بالوصف للاهتمام بهذا الأمر. وقد زاد في التغيير في قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فأضاف إلىٰ التغيير بالوصف المخالفة في الإعراب، مبالغةً في الاهتمام، فنصبه علىٰ التخصيص، وذلك من نهج القرآن، (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية). (المؤلف).

المنزَّل من الله تعالىٰ علىٰ أنبيائه لِيُبيِّنوه للناس، إذ فيه لهم كمال الإنسانيَّة وسعادة الحياتين الدنيويَّة والأخرويَّة، يحتوي علىٰ بيان عالم الغيب من اليوم الآخر وما يكون فيه. والإيمان بالنبيين يقتضي الاهتداء بهَدْيهم والتخلُّق بأخلاقهم والتأدُّب بآدابهم، ويتوقَّف هذا علىٰ معرفة سيرتهم والعلم بسنتهم[1].

وبعد بيان قسم الإيمان من البر، بيَّن قسم العمل منه، فقال: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، وهذا أول حكم في توزيع المال حتىٰ لا يكونَ دُولةً بين الأغنياء، وفي هذا القيد بلاغةٌ عاليةٌ، إذ فيه تَتْميمٌ للكلام، وتكميلٌ لصورة في إنفاق المال تتناول إطعام الطعام، فقد رسم في الذهن أروع صورة منه، حيث إنهم يسمحون به وهم أحوج ما يكونون إليه.

والجود بالنفس أقصىٰ غاية الجود[2]

قال الأستاذ الإمام: وهذا الإيتاء غير إيتاء الزكاة الآتي، وهو ركنٌ من أركان البر وواجبٌ كالزكاة، فقد أمر الله تعالىٰ المؤمن أن يعطي من غير الزكاة ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، فهم أحقُّ الناس بالبرِّ والصِّلة، ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ كي لا تسوءَ حالهم وتفسدَ تربيتهم فيكونوا بلاءً علىٰ أنفسهم وعلىٰ الناس، ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ لأنهم لما كانوا عاجزين عن كسب ما يكفيهم وَجَبَت مساعدتهم ومُواساتهم.

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ قيل: المراد به: المنقطع في السفر بحيث لا يتَّصل بأهل ولا

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٩٠- ٩٢).

(٢) هو عجز بيت نسبه ابن عبد ربه في «العقد الفريد» (١: ٩٩)، والعسكري في «ديوان المعاني» (١: ١٠٣- ١٠٤) لمسلم بن الوليد وصدره:

يجود بالنفس إن ضنَّ الجواد بها

قرابة، وفي الأمر بمُواساته وإعانته في سفره ترغيبٌ في السياحة[١]. ولا تبعد الصيغة عن أن يُراد بها: مَنْ لا مأوىٰ له ولا مَلْجأ من أرباب الفقر المدْقع والضر المفجع. وفي هذا العنوان وبهذا التعبير عنهم تهييجٌ للعطف عليهم والرأفة بهم؛ لأنَّ مسكنهم الطرقات.

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ أي: الذين تدفعهم الحاجة إلىٰ تكفُّف الناس، وقد جاء عن رسول الله ﷺ: «لا تحلُّ المسألة لغنيٍّ، ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ، إلا لذي فقر مُدْقع، أو غُرْم مُفْظع»[٢]. والسويُّ: الصحيح البدن. والـمِرَّة: القوة. والفقر المدقع: الشديد. والغُرْم المفظع: الدَّين الثقيل. وكان الشافعي رضِيَ الله عنه يقول: قد يكون الرجل بالدرهم غنياً مع كسبه، ولا يغنيه الألف مع ضعفه في نفسه وكثرة عياله[٣].

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ أي: فكاك الأسرىٰ، وعتق الأرقّاء منهم، وإعانة المكاتَبين منهم علىٰ أداء ما كاتبوا عليه من المال للأسياد. وفي جَعْل هذا حقاً واجباً في أموال المسلمين دليلٌ واضح علىٰ رغبة الشريعة في عِتْق المماليك، واعتبارها أنَّ الإنسان خُلِقَ حُراً إلا في أحوال عارضة تقتضيها المصلحة العامة.

ثم عطف علىٰ إيتاء المال علىٰ حُبِّه إقامةَ الصلاة؛ لأنه هو الركنُ الركينُ الرُّوحانيُّ من قسم البرِّ العملي، فقال: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[٤]، وإقامةُ الصلاة لا تتحقَّق بأداء

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٩٤).

(٢) رواه الترمذي (٦٥٣) وقال: حديث غريب من هذا الوجه.

(٣) ذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (١: ٣٢٦).

(٤) جاء عنه ﷺ: «ليس للمرء من صلاته إلا ما عَقَل منها»، يعني: إلا ما كان قلبه حاضراً فيها، يدرك ما يقرأ فيها وما يسبح ويدعو ويثني به علىٰ الله.

وروىٰ أبو داود (٧٩٦) بالسند عن عمار بن ياسر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ الرجل =

أفعال الصَّلاة وأقوالها فقط، وإنْ جاء بها المُصَلِّي تامَّةً علىٰ الوجه الذي يذكره الفقهاء؛ لأنَّ ما يذكرونه هو صورة الصلاة وهيئاتُها، وإنما البرُّ والتَّقوىٰ في سرِّ الصلاة وروحها الذي تصدر عنه آثارها من إصلاح الطباع، والنَّهي عن الفحشاء والمنكر، وتَـقْوية العزيمة والمُجَادلة في الحق، وأمثال ذلك، وهذا لا يتمُّ إلا بمراقبة الله تعالىٰ في صلاته، واستشعار عَظَمته وسلطانه، وتذكُّر ذلك السَّناء الإلٰهي، وتوجُّه القلب إليه، واستغراقه في ذكره ومناجاته ودعائه، فلا يبالي بما لقي من الشدائد في سبيله، فهذا هو البرُّ في إقامة الصلاة، وملاك ذلك كلِّه: أن لايُحَدِّثَ نفسه علىٰ شيءٍ من أمور الدنيا أثناء الصلاة، ولا يملك المصلِّي هذه الإقامة إلا بالدُّربة والمران.

ثم قال: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، إذ لا تُذكَرُ الصلاة في القرآن غالباً إلا ويُقرَنُ بها إيتاء الزكاة؛ لأنها ركنٌ عظيم من أركان البر، وبَذْلها في سبيل الحق مُهذِّب للروح، ومُصلح للحياة الاجتماعية، إذ لا يتمُّ أمر بدون مال.

ثم قطع الأسلوب وغيَّر نَسَقَه عن سابقه، إشارةً لامتياز هذا النوع من البر في أحوال المعيشة، وتنبيهاً إلىٰ الاهتمام به، وإيثاراً لاسم الفاعل الدالِّ علىٰ الاستمرار،

---

= لينصرف ـ أي: من صلاته ـ وما كُتب له إلا عشرها، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها». فالرجل يصلي الصلاة وما كتب له من ثوابها إلا بقدر ما حضره من الإدراك والخشوع والإخلاص لله تعالىٰ. ولا يكون ذلك إلا بأن يتدرَّب ويتمرّن أن لا يُحدِّث نفسه بحديث، وأن يُصْغي لما يقول من قراءة وثناء ودعاء. فإقامةُ الصلاة لا تحصل إلا بالتدرُّب عليها والتمرين.(المؤلف).

وحديث: «ليس للمرء من صلاتـه» ذكره الغزالي في «إحياء علوم الدين» (١: ١٥٩)، وقال العراقي في «تخريجه»: لم أجده مرفوعاً، وروىٰ محمد بن نصر المروزي في «كتاب الصلاة» من رواية عثمان بن أبي دهرش مرسلاً: «لا يقبل الله من عبد عملاً حتىٰ يشهد قلبه مع بدنه».

وحديث: «إن الرجل لينصرف من صلاته» رواه أبو داود (٧٩٦)، وأحمد (١٨٨٩٤).

فقال: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾، فإنَّ الإيفاء بالعهود والعقود من أهم الأمور في نظام المعيشة والعمران.

ثم غيَّر النَّسَق ثانياً، ولكن بعلامة الإعراب، مبالغةً في اختصاص المعنىٰ الآتي بالعناية والاهتمام، (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾، ﴿ٱلْبَأْسَآءِ﴾: البؤس، وهو الشدَّة والفقر، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: السقم والوجع، ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾: وقت القتال وجهاد العدو.

ثم ختم البيان بالتَّسجيل الآتي، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي: في دعوىٰ الإيمان، دون الذين قالوا: آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ لأنَّ التقوىٰ الحقيقيَّة هي ما ذكر من الأعمال والأحوال، لا التعصُّب في الاتجاه إلىٰ ناحيةِ قبلةٍ مُعيَّنة قد أمر الله بالاتِّجاه إلىٰ غيرها.

والتقوىٰ: هي أن تجعل بينك وبين سَخَط الله وقايةً، بأن تَتَحامىٰ أسبابَ خِذلانِهِ لك في الدنيا وعذابه في الآخرة. ويتضمَّن ذلك إحكامَ ما بين الإنسان وخالقه، وما بينه وبين الناس. فتجد هذه الكلمة في أكثر آيات القرآن الأخلاقية والاجتماعية. والمراد بها: أن يتَّقي الإنسان ما يُغْضِب ربَّه، وما فيه ضرر لنفسه أو إضرار لغيره من الناس.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

ثم شرع في بيان بعض الأحكام الشرعيَّة التي هي من البر المطلوب، وساقها علىٰ وَجْه التلافي لما فرط من المؤتمرين بأمر الشيطان، والمتَّبعين لخطواته، المُخِلِّين بما ذكر

من أصول الدين وقواعده، التي عليها بُنيَ أساسُ المعاش والمعاد. وعلىٰ وَجْه الإعلام عن اختصاص التشريع به تعالىٰ، وأنّه هو المشرِّع الذي يجب اتِّباعُ أحكام تشريعه، وذلك بعد أن مهَّد بأنَّ أمر القبلة ليس بالشيء المهمِّ، وإنما المهمُّ ما أصلح النفوسَ والمجتمعات من الشرائع والأحكام.

وقدَّم البيان عن الحكم الصحيح للقصاص، لأنه كان فوضىٰ في الجاهلية، فعجَّل به إبقاءً علىٰ وحدة المؤمنين إذا حَدَث فيها هذا الحادث الأليم، ولأنَّ حفظ النفس من أهم أغراض الشرائع، لذلك قدَّمه، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ ﴾.

كانت العرب تجري في قصاصها علىٰ نظام أوجدته العادات والتقاليد، فقد كانت القبيلة كلُّها مسؤولة عن جناية فردٍ منها، ومكلَّفةٌ بحمايته، لذلك قلَّما كان وليُّ المجْني عليه يكتفي من الجاني، أو يَقْصُرُ الطلبَ عليه، ولاسيما إن كان المجْني عليه شريفاً أو سيداً في قومه. فكانت تتحكَّم في القصاص علىٰ قَدْر قوة القبائل وضعفها، فَرُبَّ حر كان يُقْتَلُ من قبيلةٍ فلا ترضىٰ قبيلته بأخذ القاتل به، بل تطلب به رئيساً، وأحياناً كانوا يطلبون بالواحد عشرة، وبالأنثىٰ ذكراً، وبالعبد حراً، فإن أُجيبوا وإلا سفكوا دماءاً كثيرة في سبيل ذلك، فجاءت الآية ناهية عن هذا العمل، ومُعرِّضة بالمشركين الذين اشتركوا في المشاغبات في أمر تحويل القبلة، بما مَفَاده أنَّ البرَّ أن تَتَجنَّبوا في أخذ الثأر مِثلَ هذا الظلم والطغيان، لا أن تنكروا تحويل القبلة من مكان إلىٰ مكان.

فالآية بمقتضىٰ السياق تفيد التَّجهيل والتأنيب، وبمقتضىٰ الصيغة تفيد إنشاء حكم من أحكام البر موجَّهاً للمؤمنين فيه إرشاد وتهذيب. ومُحَصَّله: أن يُقْتَصَّ من القاتل وحده، ذَكَراً كان أو أنثىٰ، حُراً أو عبداً، يقتصُّ منه للمقتول، ذكراً كان أو أنثىٰ، حراً أو عبداً. والله أعلم. وهذا هو القصاص الشرعي.

ولا تدلُّ الآية علىٰ أنَّ الحرَّ لا يُقْتل بالعبد والرجل لا يُقتل بالمرأة، لأن منطوق لفظ «القصاص» في أول الآية حكمٌ منصوصٌ عام يشمل ذلك، ولا يُعارضه مفهوم التفصيل؛ لأنَّ المفهوم لا يُعارض المنطوق، ولأنه لا يعتبر إلا حيث لم يظهر للتخصيص غرضٌ سوىٰ اختصاص الحكم. وقد علمت الغَرَضَ من هذا التفصيل والتخصيص هنا، فلا يُعتبر مفهوم المخالفة فيه، كما قُرِّر ذلك في أصول الفقه.

قال الأستاذ الإمام: والآية جاريةٌ علىٰ أسلوب القرآن في مخاطبة جماعة المؤمنين في الشؤون العامة والمصالح، لاعتبار الأمة متكافلةً ومطالبةً بتنفيذ الشريعة وحفظها، وبالخضوع لأحكامها، لأنَّ الأمة ـ في نظر القرآن ـ كالشخص الواحد. ففي هذا الخطاب بالقصاص يدخل القاتل، لأنه مأمور بالخضوع لحكم الله، ويدخل سائر المسلمين لأنهم مأمورون بمساعدة الشرع وتأييده، ومراقبة من يختارونه للحكم به وتنفيذه[1]. ويدخل الحاكم لأنه مأمور بالتنفيذ.

وبعد أن ذكر سبحانه وجوب القصاص وهو أصل العدل، ذكر أمرَ العفو، وهو مقتضىٰ التراحم والفضل، فقال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾، كان القصاص علىٰ القتل محتَّماً عند اليهود، ولكن القرآن جاء وسطاً، يفرض القصاص إذا أصرَّ عليه أولياء المقتول، ويُجيز الدية إذا عَفَوا. وأولياء المقتول الذين جعل الله لهم هذا الحق: هم عُصْبَتُه الذين يعتزُّون بوجوده ويُهانون بفقده.

وعبارة الآية تُشعر بأنَّ الله تعالىٰ يُحبُّ من عباده العفو، وأنه يُعتبَر ويتحقَّق وإن لم يكن تاماً متفقاً عليه من جميع أولياء الدم. فإن عَفَا بعضُهم يُرجَّح جانبه علىٰ الآخرين،

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ١٠٣).

كما يدلُّ عليه تنكير ﴿شَيْءٌ﴾، فقد ذهب جمهور المفسرين إلىٰ أنه نائبٌ عن المصدر، أي: عُفي له شيءٌ من العفو، بأن ناله بعضُه ممَّن لهم المطالبة به. ويؤيِّد هذا ويؤكِّده التعبيرُ عن العافي بلفظ «الأخ»، ذلك العنوان الذي يُحرِّك عاطفةَ الرحمة والحنان، وهو كما قال المفسِّرون يُؤْذِنُ بأنَّ القتل لا يقطع أخوة الإيمان.

وقوله: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، الاتِّباع: اللحاق، أي: علىٰ العافي أن يطلب الدية من القاتل بالمعروف، بأن لا يُرهقه من أمره عُسراً.

وقوله: ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي: علىٰ القاتل أن يُؤدِّي بإحسان، بأن لا يماطل ولا ينقص ولا يُسيء في كيفيَّة الأداء، ويجوز العفو عن الدية أيضاً، كما في قوله تعالىٰ في سورة النساء: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ [النساء: ٩٢]. من «المنار» بتصرُّف[1].

وقد أكَّد في الترغيب بهذه الجملة المسبوكة علىٰ الامتنان حيث قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: هذا الحكم ـ وهو سقوط القِصَاص عند العفو ـ ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾، وفيه إيذانٌ بأنه حكمٌ انفرد به الدين الإسلامي، ذلك الدين المشتمل علىٰ التراحم والتعاطف والعفو والإحسان.

ثم توعَّد من اعتدىٰ بعد الصلح وقال: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد العفو عن الدم والرضا بالدية بأن انتقم من القاتل، ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ قيل: معناه: أنه يتحتَّم قَتْلُ الولي العافي هو أو غيره إذا قَتَلَ القاتِلَ بعد العفو، ولا يجوز العفو عنه، بل يقتله الحاكم وإن عفا عنه وليُّ المقتول. إلا أنَّ الجمهور علىٰ أن حكمه كحكم القاتل

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ١٠٣ - ١٠٤).

ابتداءً، وعليه مالك والشافعي. والمراد حينئذ بالعذاب الأليم: عذاب الآخرة. قال الأستاذ الإمام: وهو الصحيح، وفي الحديث ما يُؤيِّده[١].

ثم علَّل مشروعيَّة القصاص وبيَّن حكمته علىٰ وجه بديع، حيث جَعَل الشيء محلاً لضدِّه، فقال: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[٢]، لأنه يمنع من كثرة تَسرُّب هذه الجريمة البشعة علىٰ حياة الناس، وبيانُ الأسباب والحِكَم لوضع الأحكام العملية كإقامة البراهين والأدلة للمطالب العقلية، يُعرف بالأول العدلُ وما يتفق من المصالح، كما يُعرف بالثاني الحقُّ من الباطل والصحيحُ من الفاسد. وبذلك يكون الحكمُ أوقَعَ في النفس، وأبْعَثَ علىٰ المحافظة عليه، وأدعىٰ للرغبة في العمل به.

وقد بيَّنت هذه الآية حكمة القصاص بأسلوب لا يُسامىٰ، وعبارةٍ لا تُحاكىٰ، فقرَّرت ضرورة نظام القصاص في هذه الحياة بأخصر عبارة وأدقِّها.

ومن دقائق البلاغة فيها: أن جعل الضدَّ متضمِّناً لضدِّه، وهو الحياة في الإماتة التي هي القصاص، وعرَّف «القصاص» ونكَّر «الحياة» للإشعار بأنَّ في هذا الجنس من الحكم نوعاً من الحياة عظيماً، لا يُقْدَرُ قَدْرُه، ولا يُجهَلُ سِرُّه.

ثم قال تعالىٰ بعد هذا البيان للحكمة والبرهان: ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، فخصَّ بالنداء أصحابَ العقول الكاملة للتنبيه علىٰ أنهم هم الذين يفقهون سرَّ هذا الحكم وما اشتمل عليه من الحكمة والمصلحة العامة.

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ١٠٥). وانظر في معنىٰ ذلك ما رواه ابن أبي شيبة (٥: ٤٦٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) المصالح التي شرعت العقوبات دفاعاً عنها وحماية لها خمس: حفظ الدين وشُرع له قتل المرتد، وحفظ النفس وشُرع له القصاص، وحفظ النسل وشُرع له حد الزنىٰ، وحفظ العقل وشرع له حد شارب الخمر، وحفظ المال وشُرع له حد السارق وقطاع الطرق. (المؤلف).

ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾، فجعله تعليلاً لشرع القصاص، أي: تتَّقون الاعتداء وسفك الدماء. من «المنار»[1] بتصرف.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾.

ولما كان السياق في بيان الأحكام وتفصيل البرِّ المطلوب فيما تقدَّم من الكلام، فبعد أن ذكر حكم القصاص في القتل، وهو ضَرْبٌ من ضروب الموت، ذكر حكم ما يُطلب ممَّن يحضره الموتُ، علىٰ نهج القرآن في المناسبات والانتقالات، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية). وفيه تعقيب الحكم الخاصّ بالحكم العام الذي يشمله وغيرَه، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

فهذا بيانٌ لحكم آخر من الأحكام المذكورة في هذا السياق، ذكره بمناسبة القصاص، وهو حكم الوصيَّة. والخطابُ فيه موجَّه إلىٰ الناس كلِّهم بأن يوصُوا بشيءٍ من الخير، لا سيما في حال حضور الموت، لتكون خاتمة أعمالهم خيراً، وهو علىٰ نَسَق ما تقدَّم في الخطاب بالقصاص، من اعتبار الأمة متكافلةً يُخاطَبُ المجموعُ منها بما يُطلب من الأفراد، وقيام الأفراد بحقوق الشريعة لا يتمُّ إلا بالتعاون والتكافل والائتمار والتَّناهي، فلو لم يأتمر البعض وَجَب علىٰ الباقي حَمْله علىٰ الائتمار.

وفسَّروا «الخير» بالمال الكثير، كما فسَّره به بعض الصحابة، وهذه الكثرة تعتبر

---

(١) (٢: ١٠٧).

بالعُرْف، فهي تختلف باختلاف الأشخاص ومراتبهم وحاجاتهم العرفية، فَرُبَّ مقدار يُعَدُّ كثيراً عند شخص، ويُعَدُّ فقراً وعَدَماً عند آخر. والمعروف: العدل.

وقد حقَّق الأستاذ الإمام أنَّ الآية غير منسوخة بآية المواريث، لأنها لا تناقضها، بل تؤيدها، لقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ﴾ [النساء: ١١]، وهذا الأسلوب ينافي النسخ، فإنَّ الله سبحانه إذا شَرَع للناس حكماً وعلم أنه مؤقت، وأنه سينسخه بعد زمن، لا يؤكِّده ويوثقه بقوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠﴾، وبقوله: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١﴾.

أقول: فإنَّ هذا التهديد المُرْهب يحثُّ على العمل بها وينافي النسخ[1]، فالأستاذ الإمام مصيبٌ في قوله، وقد أفاض الأستاذ الإمام في هذا البحث، ونقله صاحب «المنار» في تفسيره[2]، فارجع إليه فإنه بحثٌ مفيدٌ.

ثم استثنىٰ من هذا التبديل المنهي عنه قوله: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾، الجنف: الميْل عن الحقِّ والعدل خطأً. والإثم: التعمُّد في ذلك. كأنه قال: إنْ خرج الموصي في وصيَّته عن المعروف والعدل خطأً أو عَمْداً، فتنازع الموصىٰ لهم، فينبغي أن يتوسَّط بينهم من يعلم ذلك ويصلح الأمر بنوع من التبديل في الوصية.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: أن يُصْلح مِنْ قَصْد الموصِي قبل إنجاز الوصيَّة إن كان فيما صمَّم عليه من توزيع وصيته إجْحاف في حقِّ البعض. وعبَّر بـ«خاف» بدلاً عن:

---

(١) قد يكونُ الأمر مؤقتاً، لكنه مما تَضِنُّ به الأنفس ـ كما في الوصية ـ أو يشقُّ عليها، فيناسبُه التأكيد حثاً علىٰ الائتمار به، وترهيباً عن مخالفته، ولا يكون التأكيد ـ والحالةُ هذه ـ منافياً للنسخ، فتأمل.

(٢) تفسير «المنار» (٢: ١١٤).

رَأَىٰ أو عَلِمَ، تبرئةً للموصي من القطع بجنفه أو إثمه. إذ ربما يكون له وَجْهٌ حسن في نيته، وتحامياً من تقييد التصدِّي للإصلاح، بالعلم بذلك يقيناً. وللتعبير عن مثل هذا العلم بالخوف شواهدُ في كلام العرب. وهذا المصلح مثاب مأجور، ومُستثنىٰ من عموم النهي عن تبديل الوصية، وإنما الأعمال بالنيات، ولذلك ختم الحُكْمَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾ إشعاراً بأن مَنْ خالف بعضَ المخالفة لأجل المصلحة، ورائدُهُ الإخلاصُ فهو مغفور له.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

ولما كان الكلام في سَرْد أحكام متتالية سَرَدها بنتيجة بيان أنَّ الله سبحانه مستقلٌّ

بالتشريع، يردُّ بذلك علىٰ المشركين، وينصُّ علىٰ ما اشترعه من الأحكام، ويفصِّل البرَّ المطلوب فيما تقدَّم من الكلام، ذكر حكم الصوم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾[1]، وفي هذا التنظير تخفيفٌ علىٰ

(١) تؤذن هذه الآية بأن الله سبحانه قد فرض الصيام علىٰ جميع البشر في سائر عصوره منذ آدم عليه السلام، إصلاحاً للأرواح والأبدان، وقد أيَّد علمُ الطب الحاضر حاجةَ الإنسان الملحَّة إلىٰ الصيام، لصحَّة بدنه ووقايته من الأمراض، فإنه ينقي البدن من سائر الترسُّبات المضرَّة ومن الشحوم المحيطة بالقلب إذا زادت عن الحاجة وطغت عليه، حيث تكون خطراً تولد الأمراض القلبية، ولذلك قال ﷺ: «صوموا تصحوا» [قلت: رواه الطبراني في «الأوسط» (٨٣١٢)، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢: ٤٩): رواته ثقات.].

ثم قال تعالىٰ: ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ إيذاناً بأنها قليلة بالنسبة للسنة الكاملة، ومنقِّية للبدن مما ترسَّب فيه طوال هذه المدة من الرواسب المضرة.

ثم قال: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ أي: فمن حضر منكم الشهر فليصمه. وهذه العبارة أدلُّ علىٰ المبالغة في التأكيد والشمول؛ لأنها تشمل كلَّ حي من أفراد الإنسان المسلم، فإنَّ الحي منهم يحضر الشهر، أما الذي لم يحضر فهو من مات قبل هلاله. فهذه العبارة للمبالغة في تقرير الوجوب والشمول، إلا ما استثناه سبحانه بقوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖ﴾ والإطاقة: منتهىٰ القدرة، ولا يقال: أطاق رفع هذا الشيء، أو أطاق حمله إلا إذا كان ذلك الفعل غير منتظر منه ولا في مُكْنَتِهِ، لذلك حمله الصحابة رضي الله عنهم علىٰ الشيخ الفاني، فقد أفطر أنس رضي الله عنه سنتين في آخر عمره وكان بلغ تسعاً وتسعين سنة، ثم نوَّه سبحانه بأمر الصوم للتمسُّك به في أقصىٰ الطاقة فقال: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤﴾.

ثم رغَّب بذلك فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ فرغَّب سبحانه باطلاعه علىٰ أعمالنا وأحوالنا، وأنه يجيب دعوة الداعي لا سيما إذا كان قد أجاب دعوة الله في أحكامه وتوجيهاته وأطاعه ولبّاه. فاستجيبوا له أيها المؤمنون فيما يأمركم به سبحانه فقد وعدكم عليه بالجزاء =

النفس، وتنويهٌ بشأن الصوم، وإيماءٌ إلىٰ أنه مما يحتاج إليه البشر روحاً وجسماً، فهو من ضروريات الحياة.

وفيه أيضاً إعلامٌ بوحدة الدين في أصوله ومقاصده، وتأكيدٌ لأمر هذه الفريضة، وترغيبٌ فيها، وهو من تشبيه الفرضيَّة بالفرضيَّة، ولا تدخل في الكميَّة والكيفيَّة.

ثم ذكر سبحانه حكمة إيجاب الصوم علينا، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾، أي: ليُعِدَّكم الصومُ للتقوىٰ وإصلاح النفس، بترك الشهوات المباحة الميسورة، امتثالاً لأمره واحتساباً للأجر عنده، فتتربَّىٰ بذلك العزيمة والإرادة، علىٰ ضَبْط النفس وترك الشهوات المحرَّمة والصبر عليها.

وقد جاء في الحديث: «الصيام نصف الصبر»[1]، فالصيام يُحرِّر الإرادة الإنسانيَّة، ويجعلها تَبَعاً لأوامر الله، لا لرغائب النفوس، فشَرَعَه سبحانه للناس كي يُدَرِّبهم علىٰ قيادة شهواتهم، ويَكُفَّهم عن الانقياد لها فهو ليس تعذيباً جسمانياً، ولكنه تدريبٌ علىٰ تحمُّل المشاق، كما أنَّ الرياضة البدنية ليست محاولةً لهدم الجسم الإنساني، ولكن تدريب له وتعمير.

ثم قال في «المنار»: ومعنىٰ «لعلَّ»: الإعدادُ والتهيئة. وإعدادُ الصيامِ نفوسَ

---

= الأوفىٰ، لاسيما في الصيام الذي قرنه بهذا الإعلام. وجاء في الحديث القدسي: «الصوم لي وأنا أجزي به» فهو يدلُّ علىٰ عظم الجزاء. (المؤلف).

قلت: حديث «الصوم لي...» متفق عليه، رواه البخاري (٧٤٩٢)، ومسلم (١١٥١)، عن أبي هريرة.

(١) رواه ابن ماجه (١٧٤٥) عن أبي هريرة، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناد الحديث من الطريقين معاً ضعيف. فيه موسىٰ بن عبيدة الربذي، ومدار الطريقين عليه، وهو متفق علىٰ تضعيفه.

الصائمين لتقوىٰ الله تعالىٰ يَظْهَر من وجوه كثيرة، أعظمها شأناً وأظهرها أثراً: أنه أمرٌ مَوْكُول إلىٰ نفس الصائم، لا رقيبَ عليه فيه إلا الله تعالىٰ، وسرٌّ بين العبد وربِّه لا يُشْرف عليه أحدٌ غيره سبحانه. فإذا ترك الإنسان شهواته ولذَّاته، لمجرَّد الامتثال لأمر ربِّه والخضوع لإرشاد دينه، مدَّة شهر كامل في السنة، مُلاحِظاً أنه لولا اطِّلاعُ الله تعالىٰ عليه ومراقبتُه له لما صَبَر عن تناولها وهو في أشدِّ التَّوْق إليها، فلا جَرَم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة مَلَكَة المراقبة لله تعالىٰ، والحياء منه سبحانه أن يراه حيث نهاه.

وفي هذه المراقبة من كمال الإيمان بالله تعالىٰ والاستغراق في تعظيمه وتقديسه أكبرُ مُعِدٍّ للنفوس ومُؤَهِّل لها إلىٰ سعادة الروح في الدنيا والآخرة. انظر هل يُقْدِم مَنْ تُلابسُ هذه المراقبةُ قلبَه، علىٰ غشِّ الناس ومخادعتِهم؟ هل يسهل عليه أن يراه الله آكلاً لأموالهم بالباطل؟ هل يحتال علىٰ الله تعالىٰ في منع الزكاة وهَدْم هذا الركن الركين من أركان دينه؟ هل يجترح السيئات ويَسدُلُ بينه وبين الله ستاراً؟ كلا، إن صاحب هذه المراقبة لا يسترسل في المعاصي؛ إذ لا يطول أمدُ غفلته عن الله تعالىٰ، وإذا نسي وألمَّ منها بشيء يكون سريع التذكُّر قريب الفيء والرجوع بالتوبة الصحيحة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فالصيام أكبر مُربٍّ للإرادة، وكابحٍ لجماح الأهواء، فروح الصوم وسرُّه في هذا القصد والملاحظة التي تُحدِث هذه المراقبة، وهذا هو معنىٰ تشبيه الشارع ﷺ الصوم بالوِجَاءِ في كَسْر سَوْرة الشهوة[1]؛ لأنَّ المراد أنَّ تأثيره في تربية النفس وتقوية الإيمان يجعل صاحبَه مالكاً لنفسه يَصْرِفُها حسب الشرع لا حسب الشهوة والهوىٰ.

---

(١) يشير إلىٰ الحديث الذي رواه البخاري (١٩٠٥)، ومسلم (١٤٠٠) عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

ثم بيَّن تعالىٰ: أن الصيام الذي كتبه علينا مُعيَّن محدود، فقال: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي: مُعيَّنات بالعدد، أو قليلات في السنة، وهي أيام رمضان، كما روي عن ابن عباس وغيره[١]. ويُؤْذِنُ نَظْم الآية بضرورة صيام الإنسان أياماً معدودات في السنة لمصلحة روحه وبدنه، ولذلك فَرَضَه الله علىٰ البشر أجمعين.

ولما كان فرضُ الصيام بالصيغة المذكورة يفيد العموم، استثنىٰ[٢] من يشقُّ عليهم أداؤه ومَنْ هم عُرضة للمشقَّة، فقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

ثم ذكر نوعاً آخر ممن استثنىٰ، وهو من لا يستطيع الصوم إلا بمشقة شديدة، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[٣]، والإطاقة: هي أقصىٰ حدِّ المشقة، إذ لا يقال: أطاق الشيء؛ إلا إذا كان من المنتظر أن لا يقدر عليه، ثم قُدِّرَ بكلِّ جهد ومشقة، أي: من لا يستطيع الصوم إلا بمشقة شديدة. وقد فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما هذا النوع بالشيوخ الذين بلغوا من السنِّ ما لا يتحمَّلون معها مشقة الصيام.

وقد أفطر أنس بن مالك رضِيَ الله عنه بعدما كبر، عاماً أو عامين قبل وفاته، وأطعم كل يوم مسكيناً خبزاً ولحماً، وكان عمره تسعاً وتسعين سنة.

وقال الأستاذ الإمام: الإطاقة: أدنىٰ درجات الـمُكْنَة والقدرة علىٰ الشيء، فلا تقول العرب: أطاق الشيء، إلا إذا كانت قدرته عليه في نهاية الضعف، بحيث يتحمَّل

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ١١٧ - ١٢١).

(٢) لا يخفىٰ أن هذا الاستثناءَ استثناءٌ من وجوب الأداء في الحال، لا في أصل الوجوب.

(٣) الفرق بين الطاقة والوُسع: أنَّ الطاقة أدنىٰ درجات القدرة. والوُسعُ: ما تتَّسع له القدرة ولا يستغرقها، بل تزيد عليه. (المؤلف).

به مشقة شديدة. فالمراد بالذين يطيقونه هنا: الشيوخ والضعفاء والحوامل والمراضع يَخَفْنَ علىٰ الأجنَّة والأطفال ونحوهم، كالفَعَلَةِ الذين جعل الله معاشهم الدائم بالأشغال الشاقَّة، كاستخراج الفحم الحجري من مناجمه، وأشباه ذلك[1].

أقول: وقد ظهر في زماننا نَعْرةُ فسقٍ وضلالٍ من بعض المارقين من الدين، أخذوا يتأوَّلون هذه الآية بأنها رخصة عامة لاستبدال الصوم بالفدية مطلقاً. ولَعَمْري إنَّ هذا هو السخف والضلال المبين، فضلاً علىٰ أنه الكفر والفسوق المناقض لما كان عليه السلف الصالح وإجماع المسلمين، إذ هو معنىٰ لا تـتحمَّله الآية ولا السياق، يعرف ذلك مَنْ يعرف من أساليب الكلام، وهو خَطَلٌ بيِّنٌ لعدَّة وجوه:

**الأول**: أن العرب تقول: طاق الشيء وأطاقه، بمعنىٰ: لم يتمكَّن من فعله إلا بمنتهىٰ الجهد وعظيم المشقَّة، ولذلك فهم منها الصحابة والتابعون ـ الذين هم أعلم بمدلولات الألفاظ اللغوية وأساليب القرآن ـ أنها مُخْتصَّة بالشيخ الفاني الذي بَلَغ من العمر ما لم يتمكَّن معه الصوم إلا بجهد لا تتحمَّله طاقته.

**الثاني**: ليس من المنطق أن يحتِّم القضاء علىٰ المريض الذي رَخَّص له بالفطر مع عذره، ثم يرخص بالفدية وحدها للصحيح القدير. تعالىٰ الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

**الثالث**: أن أسلوب التخيير الذي جاء في القرآن محصور في أسلوب واحد معروف النَّظْم، يتكوَّن من العطف بـ«أو»، وذلك مثل التخيير أو الترتيب في فدية القتل غيرِ العمد والظهار واليمين وصيد المحرم. وهذا الأسلوب لا يشابهها بوجه من الوجوه.

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ١٢٥ - ١٢٦).

وهذه الملاحظاتُ ظاهرةٌ لا تحتاج إلىٰ بيان، ولكن أردت أن أقرع بها سَمْعَ هؤلاء الجهَّال المأفونين، والضلَّال التائهين، وإن كان مثل هذا الخطل لا يدعو إلىٰ الاهتمام والكلام.

هذا، ويحتمل أن تكون الآية امتداداً لما قبلها وتتميماً له، فهي تصنِّف المرضىٰ والمسافرين صنفين: صنفاً لا يطيقون الصوم فعليهم القضاء فقط، وصنفاً يطيقونه في الجملة فعليهم القضاء والكفارة.

ويجوز أن يكون هذا التصنيف للمرضىٰ فقط، والله أعلم.

وقد قال بعض الفقهاء في الحامل والمرضع يجبُ عليها القضاء والكفارة أخْذاً من ذلك، والله أعلم.

ثم قال تعالىٰ بعد بيان الواجب الحتم والرخصة فيه: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾، وذلك بأن يزيد علىٰ تلك الأيام المعدودات صيام أيام تطوعاً، ويحتمل أن يكون المراد بتطوع الخير: الزيادة في الفدية، أو المعنيين معاً، وهو الأَوْلىٰ؛ لعموم اللفظ، ومثل ذلك من أساليب القرآن.

ثم أردف الكلام بالترغيب بالصيام، فقال: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: الصيام خير لكم لما فيه من رياضة الجسد والنفس وتربية الإرادة وتغذية الإيمان وتقويته بمراقبة الله تعالىٰ. ويدفع عن النفس والجسم الكثير من الأمراض، ويقيها الكثير منها، وهو يُهذِّب الطباع، ويستثير الرحمة، ويحيط الإنسان بكثير من الفوائد والخيرات، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم والمعرفة. أو: إن كنتم تعلمون وَجْه الخير فيه، لا إن كنتم تصومون تقليداً من غير فقه ولا علم بسرِّ الحكم.

وقد أُثر عنه ﷺ أنه قال: «صوموا تصحُّوا»[1]، فالصيام وإن كان فيه كُلفة العلاج لا شك أنه مفيدٌ فائدتَه. فقد قالوا: إنه يُفني المواد المترسِّبة في البدن، ويُجفِّف الرطوبة الضَّارَّة، ويُطهِّر الأمعاء من السُّموم، ويذيب الشحم الذي هو شديد الخطر علىٰ القلب. وقال بعض أطباء الإفرنج: إنَّ صيام شهر واحد في السنة يُذهِبُ الفضلات الميتة في البدن مدَّة سنة كاملة.

وقال طبيب أمريكي ينصح قومه: بالانقطاع عن الطعام مُدَداً من الأيام في كل عام؛ لأن الجراثيم ما دامت تجد الطعام متوفِّراً في جسم الإنسان، فإنها تتكاثر وتنمو، وبالصوم تضعف وتذبل، ثم امتدح الدين الإسلامي حيث فرض الصيام.

أقول: وذلك إذا رُوعيت فيه حِكمة الصوم، وهي راحة المعدة، فيجب أن يكون الأكل في الفطور والسحور معتدلاً صحياً، وتحت الشبع، ويكون الشرب كذلك، لا إفراط فيه أيام الصيف. وبالجملة، يجب أن تُراعىٰ فيه القواعد الصحيَّة في المأكل والمشرب، والنوم واليقظة، والعمل والراحة، إلىٰ غير ذلك من الأمور الصحيَّة. ومن الجهل أن يملأ الصائم مَعِدَته عند الفطور بأنواع من الأطعمة حتىٰ يشكو البِطْنة وآلامَها، ثمَّ ينسب ذلك إلىٰ الصيام.

وعلىٰ كلٍّ فقد قرَّر جهابذة الأطباء أنَّ الصوم علاجٌ لعدد من الأمراض الفتَّاكة، كالضغط الشرياني، وتَشَحُّم القلب، وتحميض الدم، كما أنه هُدْنةٌ سنوية تستريح فيها أجهزة الجسم عامة، والجهاز الهضمي خاصَّة، من عناء العمل، وتُعطي فرصةً للتخلُّص من السموم والمواد الدهنية الزائدة عن حاجة الجسم، جلَّت حكمة الحكيم العليم.

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٨٣١٢)، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢: ٤٩): رواته ثقات.

ثم بيَّن تعالىٰ تلك الأيام المعدودات وحكمة تخصيصها، فقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[1]، فأدمج في بيان الأيام حكمةَ تخصيصها بهذا الشهر، وهي كونه نَزَل فيه القرآن، وفاضَتْ علىٰ البشر هدايةُ الرحمن، فحقَّ أن يُعبَدَ الله تعالىٰ فيه ما لا يعبد في غيره، تذكُّراً لإنعامه بهذه الهداية، وشكراً عليها، فيكون ذلك كفاءَ فيضِهِ الإلهي بالإحسان.

أما معنىٰ إنزال القرآن في رمضان ـ مع أنَّ المعروف باليقين أن القرآن نزل مُنجَّماً متفرقاً في مدَّة البعثة كلِّها ـ فهو: أنَّ ابتداء نزوله كان في رمضان، وذلك في ليلة منه سُمِّيت ليلة القدر، أي: الشرف، وكانت ليلةً قام فيها الملائكة بحفاوة عُظمىٰ لهذا الحَدَث، حتىٰ مطلع الفجر، كما جاء في سورة القدر ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [آية رقم: ٤-٥]، وسُمِّيت أيضاً الليلة المباركة، كما جاء في سورة الدخان [آية رقم: ٣]، وإن ابتداء هذا النزول كان فرقاً بين الحق والباطل. وإطلاق الأمر علىٰ ابتدائه هو من خصائص اللغة ومتعارفٌ بين أهلها، فإنك تقول: نزل المطر في ساعة كذا، لأوَّل ساعة ابتدأ فيها نزوله، وإن استمرَّ بعد ذلك ساعات عديدة.

ثم قال تعالىٰ بعد بيان فضيلة شهر رمضان بإنزال القرآن فيه: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ

---

(١) لما كان ممَّا يألفه الناس ويقترن بالحكمة أن يحتفلوا بذكرياتهم العظيمة ذات الأثر الخالد حين تمرُّ عليهم أزمنتها، رفع سبحانه شأن رمضان الذي ابتدأ فيه نزول القرآن، فخصَّه بما أوجب علىٰ الناس من الصيام، دون غيره من الشهور والأيام، ذكرىٰ لهذا الحدث الجلل، الذي أخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور، وهداهم إلىٰ الصراط المستقيم، وسعادة الدارين، وحقيقة الإنسانية التي خلق لها الإنسان، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]. (المؤلف).

﴿ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾، قال الأستاذ الإمام: إنما عبَّر بهذه العبارة، ولم يقل: (فصوموه)، لِـمِثْل الحكمة التي لم يُحدِّد فيها القرآن مواقيتَ الصلاة، وذلك أنَّ القرآن خطاب الله العام لجميع البشر، وهو يعلم أنَّ من المواقع ما لا شهور فيها، ولا أيام معتدلة، بل السنة كلُّها قد تكون فيها يوماً وليلةً كالبلاد القطبية، فالمدَّة التي يكون فيها القطب الشماليُّ في ليل وهي نصف السنة، يكون فيها القطب الجنوبي في نهار، وبالعكس. ويقصر الليل والنـهار ويطولان علىٰ نسبة القرب والبعد عن القطبين أو عن خطِّ الاستواء، أرأيت هل يكلِّف الله تعالىٰ مَنْ يقيم في جهة القطبين وما يقرب منها أن يصلِّي في يومه وهو نصف سنة خمس صلوات؛ إحداها حين يطلع الفجر، والثانية بعد زوال الشمس، إلخ، ويكلِّفه أن يصوم شهر رمضان بالتعيين ولا رمضان له؟

كلا، إنَّ من الآيات الكبرىٰ علىٰ كَوْن هذا القرآن من عند الله المحيط عِلمُه بكل شيء، لا من تأليف البشر، ما نراه فيه من الاكتفاء بالخطاب العام الذي لا يتقيَّد بزمان مَنْ جاء به ولا مكانه، ولو كان من عند النبيِّ ﷺ لكان كل ما فيه مناسباً لحال زمانه وبلاده وما يليها من البلاد التي يعرفها، إذ لم تكن العرب تعرف أنَّ في الأرض بلاداً نهارُها كعدَّة شهْرٍ أو أشهر من شَهْرنا وأشهرنا[1]، ولياليها كذلك.

فمنزِّل القرآن ـ وهو علَّام الغيوب وخالق جميع البلاد والأفلاك ـ خاطب الناس كافَّة بما يمكن أن يتمثَّلوه، فأطلق الأمر بالصلاة، والرسول بيَّن أوقاتها مفصِّلاً بما يناسب حال البـلاد، وإن كان ذلك بالوحي أيضاً، فبيَّن حال البلاد المعتدلة التي هي القسم الأعظم من الأرض، وإذا وَصَل الإسلام إلىٰ أهل البلاد التي أشرنا إليها، يمكنهم أن يَقْدُرُوا أوقاتاً للصلاة باجتهادهم، وبالقياس علىٰ ما بيَّنه النبيُّ ﷺ من أمر الله المُطْلَق.

---

(١) في تفسير «المنار»: «كعدّة أَنْهُر أو أشهر من أنْهُرِنا وأشهرنا».

وكذلك الصيام، فلم ينصّ بحكم رمضان إلا علىٰ مَنْ شهد الشهر وحَضَره، والذين ليس لهم شهرٌ مثله يسهل عليهم أن يَقْدُروا له قَدْرَه.

وقد ذكر الفقهاء مسألة التقدير بعدما عرفوا بعض البلاد التي يطول ليلُها ويقصر نهارُها، والبلاد التي يطول نهارها ويقصر ليلها، كما ذكرنا، واختلفوا في التقدير علىٰ أيِّ بلاد يكون، فقيل: علىٰ البلاد المعتدلة التي وَقَع فيها التشريع كمكة والمدينة. وقيل: علىٰ أقرب بلاد معتدلة إليهم[1].

وتحرير ما قاله الأستاذ الإمام: أنَّ اختيار هذه العبارة للنصِّ علىٰ وجوب صيامِ شهرِ رمضان، بصورته الكاملة ذات الأيام التسعة والعشرين أو الثلاثين، أما الذين ليس لديهم مثل هذا الشهر، وهم الساكنون في مناطق أقرب إلىٰ القطبين وأبعد عن خط الاستواء، حيث لا يظهر عندهم الشهر علىٰ مثل هذا النظام، ولم تكن لديهم أيام وليال شبيهة بأيامنا ولياليا، وربما يكون نهارهم عدَّة أشهر وليلهم كذلك، فألمعت هذه العبارة إلىٰ وجوب تقدير أيام لهم وليال، بساعات مكة أو أقرب ما يليهم من البلدان التي يظهر فيها نظام الشهر كاملاً مشهوداً. هذا ـ أظنه ـ محرَّر ما قاله الأستاذ الإمام.

أما أنا فأتـذوَّق من قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾: أنه أمرٌ بوجوب الصوم بعبارةٍ أدل علىٰ الوجوب والشمول، إذ إنها بمعنىٰ أنَّ الصوم يجب علىٰ كلِّ حيٍّ ـ وإن كان هناك مُسْتَثْنيات ـ، فكلُّ حيٍّ يشهد الشهر ويحضره، يقال عنه: شهد الشهر، أما الذي لم يشهده فهو من مات وفات. ففي هذه الصورة من التعبير كثيرٌ من تأكيد الوجوب. ولذلك أعاد الكلام علىٰ الرخصة للمريض والمسافر فيما يأتي تقريراً لها، بعد هذا التأكيد علىٰ الصوم. هذا ما تراءىٰ لي من عبارة هذا النص، والله أعلم.

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ١٣١).

وقال في «المنار» ما ملخصه: وبعد أن عظَّم سبحانه أمر الصوم في نفسه وبيَّن أنه خيرٌ ويُندبُ التطوُّع به، ثم حدَّد الواجب منه بشهر رمضان الذي له من الفضل والشرف ما له، أعاد الكلام علىٰ الرخصة تأكيداً لها، فقال: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ لئلا يتوهَّم بعد ذلك أنه لا تُحمَدُ فيه الرخصة، ولَعَمْري إن تأكيد الصوم بمثل ما أكَّد الله تعالىٰ به يقتضي تأكيد أمر الرخصة، ولولا ذلك التأكيد ما أتاها مُتَّقٍ، بل إننا نرىٰ الصحابة رضِيَ الله عنهم كانوا علىٰ تأكيد أمر الرخصة في القرآن يَتَحامَوْنَ الفطر في السفر أولاً، حتىٰ إنَّ النبيَّ ﷺ كان يأمرهم به في بعض الأسفار فيتريَّثون حتىٰ يفطر أمامهم.

ثم امتنَّ سبحانه وتعالىٰ علىٰ العباد بهذا التخفيف، فقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أي: فيما يشرعه لكم من الأحكام.

ونظم الآية يُشْعر بالحثِّ والترغيب في إتيان الرخصة، ويُشعر بأنَّ الأفضل أن يصوم إذا لم تلحقه مَشَقَّة أو عُسْر، وإلا كان الأفضل أن يفطر. وهذا أصل من أصول الدين عبَّروا عنه بقاعدة: (المشقَّةُ تجلِبُ التيسيرَ).

وقد اختلفوا في معنىٰ اللام من قوله تعالىٰ: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾، وقد اختار الأستاذ الإمام: أنها لتقوية الفعل، كما في قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [الصف: ٨]، فهي في سياق: يُريد الله.

ثم حملهم علىٰ التمسُّك بأوامره تعالىٰ وتشريعاته التي منها الصوم، ببيان أنه شاهدٌ لهم ورقيب، ومَزَجَ بهذا البيان معنىٰ آخر، علىٰ نهج القرآن في سَبْك المعاني والأغراض، وهو رجاء الإجابة في الدعاء، ولا سيما من الصائم، ذكر ذلك علىٰ طريقة

القرآن في تعقيب الأمر بما يشمله وغيرَه؛ لأن الدعاء يشمل العبادة، فبعد أن ذكر الصوم؛ وعد بقَبوله وعظَّم المكافأةَ عليه، وإجابة الدعاء فيه، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

قال البيضاوي[1]: لما أمرهم سبحانه وتعالىٰ بصوم الشهر ومراعاة العدَّة، وحثَّهم علىٰ القيام بوظائف التكبير والشكر، عقَّبه بهذه الآية الدالة علىٰ أنه خبير بأحوالهم، سميع لأقوالهم، مُجيب لدعائهم، مُجازٍ لهم علىٰ أعمالهم، تأكيداً له وحثاً عليه. بمعنىٰ أنه مزجَ بما يذكِّر بعظمة الله، ويبعث علىٰ مراقبته والتوجُّه إليه، ويحمل النفوس علىٰ التمسُّك بما أمر به، (كما جاء ذلك في المادتين الثالثة والخامسة من المقدِّمة الثانية في أساليب القرآن).

وعلىٰ كلٍّ، فالآية وعدٌ علىٰ قَبول الدعاء، ومضاعفة الأجر للصائم، وتُلمِعُ إلىٰ أنه لا وساطة بين الله سبحانه وبين عباده، كما يزعم أرباب الوسائط ويفعلون.

أما معنىٰ قرب الله تعالىٰ، فقد قالوا: إنه القرب بالعلم، بمعنىٰ أنَّ علمه محيط بكلِّ شيء، فهو يسمع أقوال العباد ويرىٰ أعمالهم.

ويقول البيضاوي[2]: هذا تمثيل لكمال علم الله تعالىٰ بأفعال العباد وأقوالهم، واطِّلاعه علىٰ أحوالهم، بحالِ مَنْ قَرُب مكانُه منهم.

أقول: وقد استعار هذا من حال المخاطبين، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة).

---

(١) في «تفسيره» (١: ١٢٥).

(٢) المصدر السابق (١: ١٢٥).

وقال الأستاذ الإمام: يصحُّ أن يكون من قُرب الوجود، فإنَّ الذي لا يتحيَّز ولا يَتَحدَّد تكون نِسَبُ الأمكنة وما فيها إليه واحدة، فهو تعالىٰ قريبٌ بذاته[١] من كلِّ شيء، إذ منه كل شيء إيجاداً ومَدَداً، وإليه المصير.

قال في «المنار»: هذا الذي قاله الأستاذ الإمام هو من الحقائق العالية، وعليه السادة الصوفية، فقد قال أحد العلماء في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] إنه القرب بالعلم، وكان أحد كبار الصوفية حاضراً فقال: لو كان هذا هو المراد لقال تعالىٰ في تتمَّة الآية: (ولكن لا تعلمون)، ولكنه لم يَنفِ العلم عنهم، وإنما قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾، وليس من شأن العلم أن يُبْصَرَ فينفي هنا إبصارَه، وإنما ذلك شأن الذات. انتهىٰ بالمعنىٰ. وهو مذكور بنصِّه في كتاب «اليواقيت والجواهر» للشعراني.

وعلىٰ كلِّ حال: لازم القُرب موجود، وهو العلمُ الكامل بأحوالهم وأقوالهم، وعدم الحاجة إلىٰ رفع الصوت، وإلىٰ الواسطة بينه وبين عباده في الدعاء وطلب الحاجات، كما كان عليه المشركون في التوسُّل بالشفعاء والوسطاء إلىٰ الله تعالىٰ[٢]، كأنه قال: فأخْبِرْهم بأنني قريب منهم، وأنني أقرب إليهم من حبل الوريد[٣].

---

(١) قوله: «بذاته» لم يرد به النص، والأصل في هذه المباحث التقيُّد بالألفاظ المنصوص عليها، وزيادةُ هذه اللفظة يلزمُ منها لوازمُ فاسدة، فينبغي تركُها، وإن كان الشيخ محمد عبده قد احترز عن هذا اللازم الفاسد بقوله قبلها: «فإن الذي لا يتحيَّز ولا يتحدَّد تكون نِسَبُ الأمكنة وما فيها إليه واحدة». وينظر ما كتبته حول هذه الكلمة في المدخل الثاني من مداخل التفسير (١: ١٠٣).
وعلىٰ كُلّ، فالله تعالىٰ قريبٌ من خلقه بصفاته لا بذاته.

(٢) مع اعتقادهم أن لهؤلاء الشفعاء والوسطاء تأثيراً بالضر والنفع.

(٣) تفسير «المنار» (٢: ١٣٥).

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1]، أي: ولا سيما الصائم في رمضان، وهذا تكميلٌ للبحث وتوسيعٌ للبيان، وقد جاء في الأثر: أن الله سبحانه «لا يستجيب الدعاء من

---

(١) استشكل بعضهم موقع الدعاء وفائدته، مع أنَّ الله سبحانه قد قضىٰ الأمور وقدَّرها من الأزل، ولا تبديل لقضاء الله، فقد رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف، كما جاء في الأثر، ونرىٰ كثيراً من الدعاء لا يقترن بالإجابة.

والجواب: إنَّ دعاء العبد معلوم لله سبحانه من الأزل، مشترك في ذلك مع القضاء والقدر، فيكون عنصراً من عناصر تنظيم القضاء والقدر، مرعياً فيها، وقد قُرن أزلاً بالإجابة أو المنع أو لحكمة اقتضت ذلك، ونحن لا علم لنا بالأمرين، وعلينا أن ندعو الله بمطالبينا، فإما أن يكون قد اقترن أزلاً بالإجابة فيقع، أو بوقوع ما هو الأصلح منه للداعي، والله يعلمُ ونحن لا نعلم، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. أو يقترن بعدم وقوع كليهما لأسباب اقتضت ذلك، أو لحكم إلهيَّة، وحينئذ يُعوِّضنا الله ثواب الدعاء في الآخرة، كما جاء ذلك في الأثر. وكل نوع من الثلاثة إجابة منه تعالىٰ وخير وإحسان، فعلينا بالدعاء والله يفعل ما يشاء.

وعن أبي خزامة قال: «قلت: يا رسول الله، أرأيت رُقىً نسترقيها، ودواء نتداوىٰ به، وتُقاة نتقيها، هل تردُّ من قدر الله شيئاً؟ قال: (هي من قدر الله)». رواه أحمد. (المؤلف).

وقوله: كما جاء في الأثر: «رفعت الأقلام وجفت الصحف» إشارة إلىٰ الحديث الذي رواه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد في «مسنده» (٢٦٦٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «يا غلام إني أعلِّمك كلمات، احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وأما حديث أبي خزامة: «هي من قدر الله» فقد رواه أحمد (١٥٤٧٢)، والترمذي (٢٠٦٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

قلب غافل لاهٍ»، فعلىٰ الداعي أن يتوجَّه إلىٰ الله بقلبه ولسانه، قال ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنَّ الله سبحانه لا يستجيب الدعاء من قلب غافل لاهٍ»[١].

وينبغي أن يُعلمَ أن هناك فرقاً بين إجابة الدعاء وبين قضاء حاجة الداعي؛ فإجابة الدعاء محقَّقة، وإعطاء المطلوب قد يكون عاجلاً أو آجلاً، وقد يُعوِّضه عنه في الدنيا أو في الآخرة تَبَعاً للحكمة والسنن الكونيَّة، وقد يكون الخير في غير ما يَطلب، فيَصْرِفُ الله عنه ذلك بدعائه، فمقتضىٰ الإجابة مختلف عندنا وعند الله.

وقد ورَدَ في الحديث الصحيح: أنَّ الإجابة تكون بإحدىٰ ثلاث: «إما أن يُعجِّل له دعوته، وإما أن يدَّخرها له، وإما أن يكفَّ عنه من السوء مثلها»[٢].

وإجابةُ الدعاء: إلهامُ النفس العمل المفيد طبق الأسباب الصحيحة، فالعارف بالشريعة وبسُنن الله الكونيَّة لا يقصد بدعائه إلا هدايته إلىٰ الأسباب التي تُوصله إلىٰ تحصيل رَغَباته، ونَيْل مقاصده، فهو إذا سأل الله أن يزيد في رزقه لا يقصد أن تمطر له السماء ذهباً ولا فضة، وإنما يريد أن يُوفِّقه الله للأسباب. وإذا سأل اللهَ شفاءَ مريضه الذي أعياه علاجه، فإنه لا يريد أن يخرق العادة ويبطل السنن الكونيَّة، بل يريد توفيقه إلىٰ العلاج الذي يكون سبب الشفاء. ومَنْ ترك السعي والكسب: وطلب أن يُؤْتىٰ مالاً وغنىٰ، فهو جاهلٌ مأفون. وكذا المريض الذي لا يتَّخذ الدواء ولا يتمسَّك بالأسباب؛ لأنهما لا يُراعيان سُنن الله في هذا الكون ومُلابساته.

ولما كان الغرض من قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٧٩) عن أبي هريرة، وقال: هذا حديث غريب.

(٢) رواه الترمذي (٣٥٧١) وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وأحمد (٢٢٧٨٥)، عن عبادة بن الصامت.

إعلاماً برؤية الله لعبادة عبده، وبياناً لما يُذكِّر بعظمة الله، ويبعث النفوس علىٰ مراقبته، ويحملها علىٰ التمسُّك بما يأمر به، وكله هدىٰ ورشاد، وتوجيه وسداد، وكان الكلام امتداداً للدعوة إلىٰ الصوم، وحثاً عليه؛ أردفه بقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ أي: فلْيُجيبوا دعوتي لهم إلىٰ الإيمان والأعمال النافعة لهم، كالصيام وغيره ممَّا أدعوهم إليه، لعلّهم يرشدون للوصول إلىٰ سعادة الدارين.

ثم عاد إلىٰ سَرْد بقية أحكام الصوم، فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ فبيَّن ما امتاز به صومنا من الرخصة التي لم تكن لمن قبلنا، وذلك أنَّ الصحابة رضي الله عنهم فهموا من قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: أنَّ التشبيه يتناول كيفيَّة الصوم أيضاً، فكانوا إذا أفطروا يأكلون ويشربون ويتغشون النساء إلىٰ وقت النوم، فإذا نامَ أحدهم ثم استيقظ من الليل صام ولو كان في أول الليل؛ لأنَّ أهل الكتاب كانوا يصومون كذلك.

وقال البخاري: لما نزل صوم شهر رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، فبيَّن الله لهم الحكم(١).

والرفث: كلمةٌ جامعة لكلِّ ما يُريده الرجل من المرأة فيما يتعلَّق بالجماع، وعُدِّيَ بـ«إلىٰ» لتضمُّنه معنىٰ الإفضاء والوصول.

وقوله تعالىٰ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ يكنّىٰ به عن المخالطة وشدَّة الاتصال، فهو كلام مستأنف سيقَ لبيان سببِ الحكم كما قال الزمخشري في «الكشاف»(٢)، أي: إذ كان بينكم وبينهنَّ هذه الملابسة والمخالطة، فإنَّ اجْتنابهن عَسِرٌ عليكم.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٠٨) عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) (١: ٢٥٧).

ولفظ ﴿لِبَاسٌ﴾ مصدر: لابسه، بمعنىٰ: خالَطَه وعَرَف دخائله.

وقال ابن عباس: معناه: هُنَّ سَكَن لكم وأنتم سَكَن لهنّ[1]. وقد اعتبر ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وعلىٰ كلٍّ، فالآية تمثيلٌ وتصويرٌ لقوة العلاقة ووثاقة الرابطة الاجتماعية، وإشعارٌ بمُوجبات الحفظ والرعاية، والرحمة والمودَّة والعناية، وبذلك كان الزواج عهداً شريفاً، وميثاقاً غليظاً، ترتبط به القلوب، وتختلط به المصالح، ويندمج كلٌّ في الآخر فيتَّحد شعورهما، وتلتقي رغباتهما وآمالهما، ويكونان كشخص واحد.

ثم ذكر سبب البيان، فقال: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تنتقصونها بعض ما أحلَّ الله لها، توهُّماً منكم أنَّ مَنْ قبلكم كان كذلك. ولم يقل: (تختانون الله) للإشعار بأنَّ الله تعالىٰ لم يُحرِّم عليهم ذلك.

وقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ لا يقتضي أنه كان محرَّماً، كقوله تعالىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ [المائدة: ٩٦]، فقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ أي: تجاه خطئكم في اجتهادكم هذا وتحريمكم علىٰ أنفسكم ما لم يُحرِّم الله عليكم، فبيَّن لكم الرُّخْصة في ذلك.

وفي لفظ التوبة والعفو إيناسٌ لهم؛ لأنَّ ذلك كان منهم ورعاً.

ثم كرَّر الرخصة مُفرِّعاً إيَّاها علىٰ التوبة، وضمَّنها بعضَ ما يلزم بيانُه في ذلك، وقال: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾[2]، أي: ما حدَّده لكم في نظام

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٣: ٤٩٢).

(٢) يجوز أن يكون ﴿كَتَبَ﴾ بمعنىٰ: فَرَضَ، وعدَّاه باللام لتضمُّنه معنىٰ: شرع. والله أعلم. ثم عطف علىٰ المباشرة ما يُشاركها في الحكم، وذكر الحدَّ النهائي لهما. وفي ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ شيء من التغليط. (المؤلف).

الفطرة من جعل المباشرة سبباً للنسل، فَلْتكن مباشرتكم بقصد إحياء سُنَّة الله في الخليقة.

ثم بيَّن حكماً آخر من أحكام الصيام يتضمَّن كيفية الصيام، وإباحة الأكل طوال الليل، علىٰ خلاف صيام أهل الكتاب، وعطفه علىٰ الأمر بالمباشرة لإفادة التَّشريك في الحكم، فقال: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: يُباح لكم الأكل والشرب كالمباشرة عامَّة الليل، فمتىٰ تبيَّن الفجر وَجَبَ الصيام. والتعبير بالخيط يدلُّ علىٰ وجوب التدقيق في طلوع الفجر الصادق، إذ بعد انتشار الضياء ولو قليلاً لا يُسمَّىٰ خيطاً.

وبعد أن حدَّد لهم المبدأ حدَّد لهم النهاية، فقال: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾، فبيَّن مبدأ الصوم ونهايته بطريقة التَّحديد تفصيلاً للحكم.

ثمَّ استثنىٰ من عموم إباحة المباشرة بعد أن أكمل البيان عنها ببيان مبدأ الصوم ونهايته، استثنىٰ مباشرتهنَّ في المساجد، وذلك تَتْميمٌ للبحث وتكميلٌ للحكم، لأنَّ الاعتكاف كما يقع في رمضان يقع في غيره، علىٰ نهج القرآن في توسيع البيان، وفي تعقيب الأمر الخاصِّ بالأمر العام الذي يشمله وغيرَه، فقال: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾.

ثم ختم السياق بما يحمل علىٰ التمسُّك بما سبق من الأحكام، وجَعَله تمهيداً لما بعده، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾، والنهيُ عن قُربها أبلغ في التحذير؛ لأنه يُرشد إلىٰ الاحتياط الدقيق، كالشاب يُداعب امرأته في النهار، لا يثق بالوقوف عند الحدِّ المباح، وكوجوب مراعاة الاحتياط التام في أمر الفجر وأمر الليل في الصيام.

وقال بعضهم: لا تقربوها بالتأويل والتحريف، ولا بالرأي والهوىٰ، بل اقبلوها كما هي. وعلىٰ هذا، يكون فيها تعريضٌ للصحابة رضِيَ الله عنهم، حيث اخْتَانوا أنفسهم بالرأي والتأويل، باتِّباعهم لأهل الكتاب.

ثمَّ بالغ في التَّنويه بشأن هذه الأحكام التي انتظمها السياق، ونبَّه لموضع عَظَمة الهداية فيها والرشاد، فقال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ أي: علىٰ هذا النَّحْو من البيان، يُبيِّن لهم آياتِهِ لِيُعدَّهم للتقوىٰ والتَّباعد عن الوهم والهوىٰ.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

ثم عاد فذكر حكماً آخر، فيه شَبَهٌ بحكم القصاص من حيث التَّعريض بالمشاغبين في أمر القبلة، وكان فيهم المُرابون، فأوْمأ إلىٰ أنَّ الأَوْلىٰ بكم أن تَتَناهوا عن أكل أموال الناس بالباطل، لا أن تُثيروا هذه المُشَاغبات. وقد ألمع بذلك ضمن هذا الحكم العام من الأحكام المفصّلة للبر المطلوب، فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[1]، فالآية بمقتضىٰ صِيغتها، حكمٌ عام من أحكام البرِّ الذي يجب أن يهتمَّ به، وبمقتضىٰ السياق: تَقْريعٌ وتأنيب لأولئك المشاغبين المرابين.

---

(١) خلل السياق بالنهي عن أكل أموال الناس بالباطل ليعرِّض بأهل الكتاب الذين كان هذا ديدنَهم، وهم الذين أثاروا فتنة أمر القبلة. أي: إنَّ مثل هذا العمل يحق أن يُهْتَمَّ باجتنابه، لا أمر القبلة وتحويلها. ولكن ذكر ذلك بصورة حكم عام نظمه في سلك الأحكام، علىٰ نهج القرآن في ذلك، كما أبطل عبثهم في أمر القصاص والأخذ بالثأر، بحكم آية القصاص السابقة، وعَرَّض بهم في الأمرين معاً. (المؤلف).

وهناك مناسبةٌ أخرىٰ للربط ولو بعيدة، وهي اتفاقُه مع الصَّوم في أنهما مَنْعٌ عن الأكل وإن اختلف في النوع، وفي أن الأول أمرٌ بين العبد وربه، والثاني أمرٌ بين العبد والعبد.

وإنما وَرَدَ هذا الحكم بهذه العبارة للإشعار بوحدة الأمة وتكافلها، وللتنبيهِ علىٰ أنَّ احترام مال الغير هو احترامٌ وحفظٌ لمال نفسه، واستحلالُ مال الغير يُجرِّئ الغير علىٰ استحلال ماله. فما أبلغ هذا الإيجاز! وما أجدره بوصف الإعجاز! أما الباطل فهو ما لم يكن في مقابلة شيءٍ حقيقي معاوضٍ به.

وبعد أن بيَّن هذا الحكم العام، خصَّ نوعاً منه بالذكر تكميلاً للبيان، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾، وضمير ﴿بِهَآ﴾ يعود إلىٰ قضيَّة الأموال المفهومة من السياق، أي: لا تُلقوا بحكومة الأموال إلىٰ الحكام وتستعينوا بقوَّة البيان ليحكموا لكم فتستحلُّوها، وأنتم تعلمون أن لا حقَّ لكم فيها؛ لأنَّ حكم الحاكم إذا أخطأ لا يُحلُّ الباطل.

وقد جاء عنه ﷺ: «إنَّما أنا بشرٌ مثلكم، وأنتم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم ألحن بحُجَّته من بعض فأقضي له علىٰ نحو ما أسمع منه، فمن قضيتُ له بشيء من حقِّ أخيه، فإنما أقضي له قطعة من النار»[1].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣)، عن أم سلمة.

لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾.

ولما كانت الأهلَّة لها علاقة بشهر الصيام، ومعاملات الأموال، وبأشهر الحج، وبالقتال في الأشهر الحرم، جَعَل الكلام عنها في درج هذه الأبحاث التي هي تفصيل للبرِّ المطلوب، وأدْمَجَ في ذلك الكلام عن القتال في المسجد الحرام، يردُّ علىٰ اعتراض المشركين، والكلام عن الحج، ربطاً للمواضيع المتنوِّعة المتناسقة، ومُوَاصَلَة للأحكام التَّشريعيَّة التي هو بصَدَد سَرْدِها في هذا السياق المتضمِّن لأنواع البر، فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[1]، وطريقة السؤال والجواب من أساليب القرآن الحكيم في الإرشاد والبيان، تأتي فيه كثيراً، (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية).

---

(١) تلهم الآيات ـ والله أعلم ـ أنَّ السؤال كان من جانب المشركين وأهل الكتاب بواسطة ضعفاء الإيمان والمنافقين. ومَرْمَىٰ السؤال: تعريضٌ ومشاغبةٌ عن غزوات المسلمين في الأشهر الحرم، وفي الأماكن القريبة من الحرم، وقتال المشركين فيها، فردَّ عليهم أولاً بما كان لهم من سخافة في إتيان البيوت من ظهورها إذا كانوا محرمين بالحج، مُعرضاً بذلك عن تفاهة سؤالهم هذا، كما هو شأنهم في فلج المنطق. ثم أجاب بما خلاصته: أنَّ الأشهر الحرم لا تحمي مجرماً، ولا تكون مانعاً من الدفاع والتأديب، وفصَّل الصور المباحة من ذلك، وَحَدَّ حدودها في الأشهر الحرم والمكان المحرّم معاً، علىٰ نهج القرآن في توسيع البيان إذا اقتضىٰ الشأن. هذا ما أراه، والله أعلم. (المؤلف).

ومعنىٰ الآية: إنَّ الأهلَّة مواقيتٌ لهم في صيامهم وحَجِّهم من العبادات، وفي نحو عدَّة النساء وآجال العقود من المعاملات، فإنَّ التوقيت بها يسهل علىٰ العالم بالحساب والجاهل به، وعلىٰ أهل البدو والحضر، فهي مواقيتٌ لجميع الناس، بخلاف السنة الشمسيَّة، فإنها لا تصلح إلا للحاسبين من أهل الحضر، بعد ارتقاء العلوم الرياضية.

وقيل: إن السؤال عن الأهِلَّة وقع منهم بالفعل، لمَ تبدو صغيرة ولا تزال تنمو حتىٰ تكون بدوراً؟ ثم لا تزال تَضْؤل حتىٰ تكون أهلَّة؟

فيكون في هذا الجواب الحكيم إشارةٌ إلىٰ أنه ليس من وظيفة الدين إلا الحقائق الأولية، وحكم تعلُّقها بالإنسان لا المعلومات المأخوذة من بضاعة العلوم الناقصة، مهما بلغت من الرقي[1]. وهل يليق بقانون تشريعي أن يذكر فيه مثلاً بعض مسائل الفلك؟ كلا! فكيف بالقرآن العليِّ الشأن. لذلك قال تعالىٰ مُعرِّضاً بهم: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾، فهذا الكلام تمثيل لوجوب التعقُّل والسَّداد في الأعمال والأقوال، وتعريضٌ لهم بأنَّ من يسأل النبيَّ عمَّا لم يبعث لبيانه ولا يتوقَّف عرفانه علىٰ الوحي، فهو في طلبه الشيء من غير مطلبه، كمن يطلبُ دخولَ البيت من ظهره دون بابه.

وقال بعض المفسِّرين: إنَّ الحكم الذي أفادته الآية هو إبطال ما كانوا يفعلونه في الجاهلية إذا هم أحرموا بالحج، من إتيان البيت من ظهره، وتحريم دخوله من بابه، تحرُّجاً من التظلُّل بالسقوف أثناء الإحرام، ذكره بمناسبة ذكر مواقيت الحج.

---

(١) في صرف السائلين عن العلَّة إلىٰ الحكمة إيذانٌ بأنَّ القرآن إنما جاء لبيان العقائد والأعمال للمكلَّفين، لا لبيان الحقائق الكونيَّة، وما جاء فيه من الإلماع لها أحياناً فإنما سيقَ برهاناً علىٰ وجوده سبحانه أو توحيده أو قدرته التي لا يعجزها أمر البعث والحساب، وأمثال ذلك، فلا يتكلم عن حقائق الأشياء، وإنما يتكلّم عن حكم تعلقها بالإنسان. (المؤلف).

وأقول: إنَّ من خصائص القرآن ازدحامَ المعاني في التركيب الواحد، فيجوز أن يُراد المعنيان، الأول يكون تعريضاً، والثاني تحقيقاً وتشريعاً، والأول بحسب السياق، والثاني بحسب النَّظْم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

ثم ختم الكلام بما يحثُّ علىٰ التمسُّك بالأحكام السابقة، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ أي: إنَّ البرَّ هو تقوىٰ الله، فاتقوا الله رجاءَ أن تفلحوا في أعمالكم.

ولما كان السياق في سَرْد الأحكام بمناسبة بيان اختصاصه سبحانه بالتشريع، وفي تفصيل البِّر المطلوب، فبعد أن مهَّد بالسؤال عن الأهلَّة وبيَّن أنها مواقيت للعبادات ولا سيما الحج، وأشهره حُرُم، وهناك مظنَّة أن يَصُدَّهم المشركون عنه فيتحرَّجون عن قتالهم.

فبعد هذا التمهيد الذي فيه إلماعٌ إلىٰ ما جرىٰ قُبيل صلح الحديبية ممَّا في علم الله، من تحرُّج الموقف بين المشركين والمسلمين، والمبايعة تحت الشجرة علىٰ الموت، ذكر حكم قتال المشركين في الأشهر الحرم وعند المسجد الحرام، إذا بدؤوهم بذلك، فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾، فوردت هذه الآية في الإذن بالقتال للمُحْرمين وفي الأشهر الحرم، إذا فُوجئوا بالقتال بَغْياً وعدواناً. وقد علَّل الإذن بأنه مدافعة في سبيل الله، وسيأتي تفصيله في الآية التالية.

ثم ختم الآية بهذا التأديب العام العادل، فقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾، والمراد هنا نهيهم عن الاعتداء بالقتال، كأن يبدؤوهم به، أو يقتلوا مَنْ لا يقاتل كالنساء والصبيان والشيوخ والمرضىٰ، أو غير ذلك من أنواع الاعتداءات. وهذا الحكمُ وهذا الأدب هو أعلىٰ ما يتصوَّر في الإنسانية ومعناها الصحيح.

ثم علل النهي بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾.

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: أينما أدركتموهم، ولو في أرض الحرم، ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي: من مكة. وهذه الجملة مسبوكة من الحكم والتعليل معاً، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. ومُؤدَّىٰ التعليل: المقابلة بالمثل.

ثم زاد التعليل حُجَّةً بقوله: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي: إنَّ فتنتَهم إيَّاكم في الحرم عن دينكم ـ بالإيذاء والتعذيب، والإخراج من الوطن، والمُصَادَرة للمال ـ أشدُّ قبحاً من القتل فيه.

ثم قيَّد عموم هذا الحكم بقوله: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾، فشرط لجواز مقاتلتهم عند المسجد الحرام أن يبدأ المشركون بذلك، فيدافع المؤمنون عن أنفسهم اضْطِراراً.

ولما كان القتل في المسجد الحرام أمراً عظيماً، أكَّد الإذن فيه بشرطه، فقال: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ﴾ فيه ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ﴾، وإنما لم يقل: (فقاتلوهم)؛ للإشعار بأنه سبحانه يَعِدُهم بالنصر عليهم والغلبةِ لهم.

ثم علَّل ذلك الحكم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾.

ولما كان الغرض من هذا القتال هو المقابلة والدفاع عن النفس، قال تعالىٰ في إتمام بيان الحكم: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا﴾ أي: كَفُّوا عن القتال، فكفُّوا عنهم، أو كفّوا عن الكفران، فإنَّ الله يقبل منهم. وقد أقام التعليل مقام الجواب، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ أي: يمحو عن العبد ما سَلَف إذا هو تاب عمَّا اقترف.

ثم كرَّر الأمر بالقتال؛ لِيُبيِّن ما هو الغاية والغرض منه، فقال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا

﴿تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: حتىٰ لا تكون لـهم قوة يفتنونكم بها، ويُـؤْذونكم لأجل الدين، ويمنعونكم من إظهاره أو الدعوة إليه، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي: ويكون دينُ كلِّ شخص خَالصاً لله، لا أثر لخشيةِ غيره فيه، فلا يُفْتَنُ عنه ولا يُؤْذَىٰ فيه.

ثم كرَّر الأمر بالكفِّ عنهم إذا هم كَفُّوا، تقريراً له، وسَبَكَ الكلام علىٰ التعليل العام، المقرِّر لقاعدة عامة من قواعد العدل، يشمل هذا الحكم وغيره، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ أي: فلا عدوان عليهم؛ لأنَّ العدوان لا يجوز أن يكون إلا علىٰ الظالمين، تأديباً لهم.

ففي الكلام إيجازٌ بالحذف واستغناءٌ عن المحذوف بالتعليل الدالِّ عليه. وذِكْـرُ المُظْهَر في مَوْضع المُضْمَر؛ لبيان هذا التعليل والرمز إليه، ولتعقيب الحكم الخاصِّ بحكمٍ عام يشمله وغيرَه، وكل ذلك من سنن القرآن الحكيم، (كما جاء في بعض مواد المقدمة الثانية).

ويجوز أن يكون المعنىٰ: فلا عدوان إلا علىٰ مَنْ كان ظالماً منهم، بارتكابه ما يُوجب القصاص، إذا وُجد. أي: فلا يُحارَبون إذا انـتهوا، وإنما يُـؤْخَذُ المجرم منهم بجريمته إذا كان بينهم مجرم.

ثم زاد تعليل الإذن بالقتال بياناً، ببنائه علىٰ قاعدة عادلة، فقال: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾[1]، فذكر هذه القاعدة حُجَّةً لوجوب مُقَاصَّة المشركين

---

(١) أقام المشركون ضجَّة قوية مُفْتَعَلة ضدَّ المسلمين عندما تبايعوا علىٰ الموت في الحديبية تحت الشجرة بعد أن منعوهم من دخول مكة لأداء العمرة، ذلك البلد المحرم الذي جعله الله سواء العاكف فيه والبادي، ولا يجوز منذ أسَّسه إبراهيم عليه السلام، وقال له سبحانه: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]، لا يجوز أن يمنع منه عابد أو قاصد، فلما منعهم المشركون من دخول مكة، جرت هذه البيعة في =

علىٰ انتهاك الشهر الحرام، بمقابلتهم بالمثل، جزاءً وفاقاً. والدفاعُ عن النفس أمرٌ مُحتَّم، الشرُّ بالشرِّ والبادئ أظلم.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، وسمَّىٰ الدفاع والجزاء اعتداءً للمُشَاكَلَة. فبيَّن تعالىٰ أنَّ المحظور في الأشهر الحرم العدوان بالقتال، لا المدافعة عن النفس. ثم حدَّد هذه الرخصة ونظمها بهذا الأدب العالي، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: فلا تعتدوا عن الحدِّ في الجزاء، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ أي: بالمعونة والتأييد وحُسْن العاقبة.

والحُرُمات: جمع حُرمة، وهي ما يجب احترامه والمحافظة عليه.

ثم ذكر ما يتوقَّف عليه القتال في سبيل الدفاع عن الحق، وهو الإنفاق، فقال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في سبيل الدفاع عن الحق لله تعالىٰ.

ثم ذكر علَّة هذا الأمر وحكمتَه، ضمن حكم آخر عام، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾، أي: لا تُمسكوا عن الإنفاق في الاستعداد للقتال،

---

= الحديبية وفي شهر ذي القعدة، فانتهز المشركون وقوعَ هذا الحلف في الحديبية الداخلة في حرم مكة، وفي شهر ذي القعدة المحرم، وأثاروا عَجَاجة وشَغَباً مثل الذي أثاره اليهود والمنافقون في أمر تحويل القبلة، وقد أبان القرآن سَفَههم وخُبث عملهم وسوء نظرهم في أمر القبلة، كما مرَّ بيانه. وردَّ هنا مشاغبات المشركين في بيعة الحديبية بقوله: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾، فرخَّص سبحانه للمؤمنين أن يُدافعوا عن أنفسهم إذا تعرَّض لهم العدوُّ في أرض الحرم أو في الأشهر الحرم، دفاعاً عن النفس، وعن الحقِّ المبين، فلمَّا منعهم المشركون من دخول مكة لأداء واجبهم نحو ربِّهم، رَخَّص للمسلمين مقاتلتهم في الحرم، وردَّ الإثم علىٰ المشركين المانعين الظالمين. (المؤلف).

فإنَّ ذلك يُضْعِفُكُم ويُمكِّن الأعداء منكم فتهلكون. ويدخل في عموم صيغة هذا النَّهي نقصانُ العلم بصنع آلات الحرب، وكذلك بالطرق الحربيَّة وفنونها التي يعرفها العدو، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾، فالأمر بالإحسان هنا علىٰ عمومه وبأنواعه، أي: أحسِنوا كلَّ أعمالكم وأتقِنوها فلا تُهملوا إتقانَ شيءٍ منها. ومن ذلك: التوسُّع في الإنفاق في الفنون الحربيَّة.

ويدلُّ السياقُ دلالةً واضحةً علىٰ أنَّ الجهاد في الدين الإسلامي لم يُشرَع إلا لحماية الدعوة، كي تنتشر في البشر وفي كرة الأرض؛ لأنَّ محمداً ﷺ رسولٌ للعالمين، والدينَ الإسلاميَّ دينٌ عالميٌّ، ولغةَ كتابه العربي لغةٌ عالمية، أوجبه وأوجبها علىٰ البشر في جانب لغاتهم غير العربية، والله أعلم؛ لأنَّ ما لا يتمُّ الواجب إلا به واجب، وأقوىٰ الروابط البشريَّة: اللغة والدين، ولذلك اهتمَّ بها الأعاجم وأتقنوها، وألَّفوا بها الكتب والموسوعات، كسيبويه[1] والفيروزآبادي[2] وأمثالهما.

وقد قالوا: لم يشهد التاريخ أمة قوية رحيمة بالضعفاء في فتوحها كالأمة العربية. وقد اعترف بذلك المنصفون من مُؤرِّخي الإفرنج، فهذا جوستاف لوبون الفيلسوف الفرنسي يقول: ما عرف التاريخ فاتحاً أعدلَ ولا أرحمَ من العرب. وما يتجنَّىٰ به أعداء الإسلام من دعواهم أنَّ الإسلام قام بالسيف، فقول يُكذِّبه التاريخ، ولا يُؤيِّده مَنْ ينظر إلىٰ الأمور بعين الإنصاف، ويَدَعُ التعصُّب وراءه ظهرياً.

---

(١) هو أبو بشر، عمرو بن عثمان (١٤٨ - ١٨٠هـ) إمام النحو وحجّة العرب، وهو أول من بسط علم النحو، له: «الكتاب». «سير أعلام النبلاء» (٨: ٣٥١- ٣٥٢).

(٢) هو مجد الدين الشيرازي، أبو طاهر محمد بن يعقوب (٧٢٩- ٨١٧هـ) من أئمة اللغة والأدب، وكان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير، له: «القاموس المحيط»، و«سفر السعادة». «الأعلام» للزركلي (٧: ١٤٦- ١٤٧).

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

وبعد أن ذكر حكم القتال عند المسجد الحرام، انتقل إلىٰ أحكام الحج، مشيراً إلىٰ ما سيكون من غلبتهم لهم ومن فَتْحِهم لمكة.

وابتدأ بحكم متعلق بالحج والقتال معاً، وهو الإحصار والمنع من الحج، من جانب العدوِّ المقاتل، ابتدأ به ليكون حلقة وَصْل بين البحثين، بعد أن مهَّد له بما تقدَّم

إضافةً إلىٰ مناسبةِ وقعة الحديبية ومَنْعِ المشركين للمسلمين من دخول مكة لأداء العمرة، فقال: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ بأداء المناسك علىٰ وجهها، والإخلاص لله وحدَه، ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي: مَنَعكم العدو من الوصول إلىٰ مكة كما جرىٰ في الحديبية ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ أي: فعليكم ما تيسَّر من الهدي فداءً عن الإحلال، ﴿وَلَا﴾ تحلّوا من إحرامكم و﴿تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾.

اعلم أنَّ الدخول بالحج أو العمرة يكون بالإحرام، وهو نيَّةُ النسك عند الابتداء به مُهِلًّا بالتلبية، ولبسُ غير المخيط. والخروجُ منه ـ ويُعبَّر عنه بالإحلال والتَّحليل ـ يكون بحلق الرأس أو تقصير شعره. فالنهيُ عن الحلق هنا: عبارة عن النهي عن الإحلال قبل بلوغِ الهديِ إلىٰ المكان الذي يَحلُّ ذبحه فيه، وهو في حال الإحصار من عدو، حيث يُحصر الحاج؛ لأنه ﷺ نَحر في الحديبية[1]. أما إذا كان الإحصار من مرض، فالكعبة هي المحل، لقوله تعالىٰ: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣].

وبمناسبة ذِكرِ الحلق ذَكَرَ حكم مَنْ يُؤذيه تركُ الحلق واللبس في الإحرام، فقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ يَضْطره مرضه إلىٰ لبس شيء من ثيابه المعتادَة، ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ يَضْطره إلىٰ الحلق أو التغطية، ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ أي: فله أن يحلق أو يلبس ثيابه أو يُغطِّي رأسه، وعليه فديةٌ من هذه الأجناس.

جاء في تعليق البخاري: ويُذكَرُ عن ابن عباس وعطاء وعكرمة: ما كان في القرآن: أو، أو، فصاحِبُه بالخيار. وقد خيَّر النبي ﷺ كعباً رضِيَ الله عنه في الفدية[2].

---

(١) رواه مسلم (١٧٨٦) عن أنس بن مالك «أنه ﷺ نحر الهدي في الحديبية».

(٢) «صحيح البخاري» (٨: ١٤٤)، وتخيير النبي ﷺ رواه البخاري (١٨١٧) عن كعب بن =

وعن ابن عون عن أيوب قال: الصيام ثلاثة أيام، والنسك شاة، والمساكين

ثم أكمل البيان بذكر الحكم عند عدم الإحصار، فقال: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ أي: كنتم في حال أمن، ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي: فمن أهَلَّ من الميقات في أشهر الحج بالعمرة وتابع مناسكها حتىٰ أتمَّها وتحلَّل منها، وبقي بمكة حلالاً متمتِّعاً بمحظورات الإحرام، حتىٰ جاء يوم التروية، فأحرم بالحج من مكة، فعليه ما تيسَّر من الهدي؛ لأنه أحلَّ وتمتَّع بحريَّة التَّحلُّل، ثم أحرم بالحج من غير الميقات، لذلك جُبِرَ بالهدي.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: الهدي؛ لعَدَمه أو عدم المال، ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ﴾ أي: في أيام الإحرام بالحج، وتمتد إلىٰ يوم النحر، ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي: إلىٰ بلادكم، ويصدُقُ بالشروع في الرجوع، وعليه بعض الأئمة وغيرهم من السلف، حيث قالوا: يجزيه الصوم في الطريق. وقال أبو حنيفة: معناه: إذا فرغتم من أعمال الحج. وقال مالك: إذا رجعتم من منىٰ. ولا يخفىٰ أنَّ الاحتياط أن يصومها بعد الوصول إلىٰ أهله، تحقيقاً لظاهر المعنىٰ من هذا اللفظ.

ثم أجمل العدد فقال: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾؛ إزالةً لوهم مَنْ عساه أن يتوهَّم أن كلَّ واحد من القسمين يُغْني بانفراده.

---

= عجرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ رآه وأنه يسقط علىٰ وجهه فقال: أيؤذيك هَوامُّك؟ قال: نعم، فأمره أن يحلق وهو بالحديبية، ولم يتبيَّن لهم أنهم يحلُّون بها، وهم علىٰ طمع أن يدخلوا مكة، فأنزل الله الفديةَ، فأمره رسول الله ﷺ أن يطعم فَرَقاً بين ستة، أو يهدي شاةً، أو يصومَ ثلاثة أيام. وقوله: «فرقاً». قال ابن منظور في «لسان العرب» (فرق): الفَرَق بالتحريك مكيالٌ يسع ستة عشر رطلاً، وهي اثنا عشر مدّاً، وقيل: الفَرَق خمسة أقساط، والقسط نصف صاع.

(١) رواه النسائي في «الكبرىٰ» (١١٠٣٠) عقب حديث كعب بن عجرة.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ التمتع بالعمرة إلىٰ وقت الإحرام بالحج وما يتبعه من الأحكام خاصٌّ بالآفاقيين دون أهل الحرم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ لأنَّ مَنْ كان من أهل مكة فليس عليه عمرة، وإنما العمرة للآفاقي، وذلك لأنَّ العمرة تعمير البيت بالطواف، والمكيُّ حاضر البيت يعمره كل ساعة بالطواف، لأنَّ أهل الآفاق هم الذين يحتاجون إلىٰ هذا التمتُّع، لما يلحقهم من المشقَّة بالسفر.

ثم ختم الآية بما يحمل علىٰ التمسُّك بمندرجاتها، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ أي: لمن لم يتقه. ويُقابلُ التمتُّع: القِران، وذلك بأن يدخل مكة مُحرماً ويظلَّ كذلك حتىٰ يخرج إلىٰ عرفات، ويعودَ منها إلىٰ مكة ويطوفَ ويسعىٰ ويحلَّ الإحرام. وثالث الأنواع: الإفراد، وهو أن يُحرم بالحج ويُتِمَّه، ثم يخرج إلىٰ أدنىٰ الحِلِّ، فيُحرم ويأتي بالعمرة، وهذا لا يحتاج إلىٰ هدي.

ثم بيَّن تعالىٰ الوقت الذي يؤدَّىٰ فيه الحج، فقال: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ أي: الوقت الذي يؤدَّىٰ فيه الحج أشهر يعلمها الناس، وهي: شوال وذو القعدة وذو الحجة. والمراد من ذي الحجة: عشر منها. وذِكرُ الكل وإرادةُ البعض من خصائص اللغة. والقرينةُ هنا معرفةُ الناس للمراد منها، أي: إنَّ الحج يؤدَّىٰ في هذه الأشهر، ولا يلزم أن يكون من أول يوم منها إلىٰ آخر يوم، بل معناه: أنه يصحُّ الإحرام به من غُرَّة أولـها وتنتهي أركانه وواجباته في أثناء آخرها. فالوقوف في التاسع من ذي الحجة، وبقية المناسك في أيام العيد كما بيَّنته السُّنَّـة، بخلاف بقية السَّنَـة، فلا ينعقد فيها حج، وإنما تنعقد العمرة فقط. والمراد من هذا البيان: تثبيت المعلوم من لدن إبراهيم عليه السلام.

ثم بيَّن الآداب التي يُؤكَّـدُ التأديبُ بها علىٰ الحاج، فقال: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ

﴿ٱلْحَجَّ﴾ أي: أَوْجَبه علىٰ نفسه بالشروع فيه، ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾، الرفث: كلمة جامعة لكلِّ ما يريده الرجل من المرأة، يُطلق ويُراد به الجماع، ويُراد به خطاب الرجل المرأة فيما يتعلَّق بالجماع، ويُراد به دواعي الجماع ومتعلقاته. وقيل: المراد به الفحش. والفسوق: الخروج عن حدود الشرع. والجدال: التنازع، والتنازع مظنَّة في الحج لكثرة الاجتماع وتضارب الحاجات وتنوُّع المسلمين المختلفي العادات واللغات والعقول والسلوك والأجسام والقوات، فهو امتحان لقوَّة الإيمان والتدرُّب علىٰ التآلف مع المسلمين علىٰ اختلاف هذه النَّواحي فيهم، كما أنَّ هذه الآداب اللسانية والعملية للمُحرم تعظيمٌ لشأنه ولشأن المكان والحال، لأنه دَخَل بالإحرام والإهلال من الميقات، في حدود الحرم والحظيرة المقدَّسة التي يجب أن تُحترم بكلِّ الآداب وبمكارم الأخلاق، ولأنه يجب علىٰ المرء في أوقات العبادة والحضور مع الله تعالىٰ أن يكون علىٰ أكمل الآداب وأفضل الأحوال، وناهيك بدخول حدود البيت الذي نسبه تعالىٰ لنفسه وبحضوره.

وإنما آثر النفيَ علىٰ النَّهي، للمبالغة في إيجاب الحكم، بتخييل أنه قاعدةٌ مقرَّرة معروفة. ولذلك أعاد لفظ الحج مُظْهَراً لتكون الجملة بذاتها قاعدةً مستقلةً تامَّة، ولو أعاده مُضْمَراً لتعلَّقت الجملة بما قبلها، ولم تصلح أن تكون قاعدة تامة مستقلة بذاتها.

وهناك وجه آخر، وهو أنه متىٰ توفَّرت العناية بالاسم في الكلام يُؤتىٰ بالظاهر منه موضع المُضْمَر؛ لأنَّ الكناية لا تبلغ مبلغ التصريح، كما جاء في «دلائل الإعجاز»[1]، وذلك علىٰ حدِّ وضع لفظ الجلالة موضع ضميره في كثير من آيات القرآن.

---

(١) ص٦٩. وهو للجرجاني، أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (...- ٤٧١هـ) أحد أئمة اللغة، وهو واضع أصول علم البلاغة. له: «أسرار البلاغة»، و«إعجاز القرآن»، و«العوامل المئة». «الأعلام» للزركلي (٤: ٤٩).

ثم ذكر سبحانه بعد هذه الأحكام ما يحمل علىٰ التمسُّك بها، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: لا زاد إلا زاد الأعمال الصالحة، فهي خيرُ ما يُدَّخر ويهتم للحصول عليه. أو المعنىٰ: إنَّ الزاد الذي يعين علىٰ الأعمال الصالحة هو خير الزاد، ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ أي: مَنْ له لبٌّ وعقل فَلْيَتَّقِني.

وقيل أيضاً في معنىٰ هذه الآية: وتزوَّدوا، أي: احملوا معكم الزاد في سفركم إلىٰ الحجِّ، فهذا الزاد هو خير الزاد؛ لأنه زاد يوصل إلىٰ تقوىٰ الله، بأداء مناسك الحجِّ. وعليه، فالآية تدلُّ علىٰ الترغيب بتقوىٰ الله لأنها غذاء الروح، وهي أن لا يفقدك حيث أمرك و لا يراك حيث نهاك. وتدلُّ أيضاً علىٰ وجوب الاعتماد علىٰ ماليَّته في الحج لا علىٰ الصَّدقات، فذلك ليس من التقوىٰ، كما جاء في تعليقات البخاري عن سبب النزول[1].

ولما كان ربما يسبق إلىٰ الفهم وجوبُ الزهد عن كسب المال أثناء السفر إلىٰ الحج، وأنه يَحرُم فيه ما كانت عليه العرب في جاهليتها من التجارة والكسب في موسم الحج، كما يحرُم الرفثُ والفسوق والجدال، أزال هذا الوهم ببيان أنَّ الكسب في أيام الحج غير محظور، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

كان العرب في الجاهلية إذا أزْمَعوا الحجَّ إلىٰ مكة من أصقاع شبه الجزيرة، جعلوا عكاظَ الواقع بين نخلة والطائف موعدَهم في هلال ذي القعدة، يقيمون بها عشرين يوماً، يتَّخذونها سُوقاً لتجارتهم ومُبادَلَة البضائع فيما بينهم، ويكون في جانب ذلك

---

(١) رواه البخاري (١٥٢٣) عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾. رواه ابن عيينة عن عمرو عن عكرمة مرسلاً.

مباهاة بالشعر والأدب بين شعراء القبائل وخطبائهم. وإنما يتَّخذون ذلك إذاعةً لقبائلهم في هذا المجتمع، وإشادةً بفخرهم وتفوُّقهم علىٰ غيرهم، ثم ينصرفون إلىٰ مجنَّة يقيمون فيها عشرة أيام كذلك.

فإذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا إلىٰ ذي المجاز[١]، فأقاموا أسواقهم بها ثماني ليال، ثم تَرَوَّوا من مائها في اليوم الثامن، وانصرفوا إلىٰ عَرَفة، لذلك سُمِّي اليوم الثامن بيوم التروية، وبقي هذا الاسم إلىٰ اليوم، ولكنه بقي دون مُسمّىٰ.

وبديهيٌّ أنَّ الذين يحضرون هذه الأسواق هم الذين كانوا يريدون التجارة، فأما مَنْ لم يكن له تجارة ولا بيع، فإنه يخرج من أهله رأساً إلىٰ عرفة. وكان من لا يريد التجارة من أهل مكة يخرج يوم التروية، وظلَّ الحال علىٰ ذلك حتىٰ جاء الإسلام، وخَلَع علىٰ الحج من الجلال ما تضاءل إزاءه أمر التجارة. وهناك ظنَّ قوم أنَّ الحج والتجارة لا يجتمعان، وفكروا في إبطال الأسواق، فنزلت الآية، وأباحت التجارة قبل الحج وأثناءَه، فبقيت الأسواق حتىٰ نهبها الثوَّارُ الذين خرجوا من مكة في الثلث الأول للقرن الثاني الهجري، فتُركت.

وقد ورد في أسباب النزول عن ابن عباس أنه قال: كانت عكاظ ومجنَّة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثَّموا أن يتَّجروا في الموسم، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت هذه الآية[٢].

قال الأستاذ الإمام: كان بعض المشركين وبعض المسلمين في أول الإسلام يتأثَّمون في أيام الحج من كلِّ عمل، حتىٰ كانوا يقفلون حوانيتهم، فعلَّمهم الله تعالىٰ أنَّ الكسب

---

(١) سيأتي قريباً أن عكاظ والمجنة وذي مجاز هي أسواق في الجاهلية.

(٢) رواه البخاري (٢٠٥٠).

طلبُ فَضْلٍ من الله لا جُناح فيه مع الإخلاص. وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يُشْعر بأنَّ ابتغاء الرزق مع ملاحظة أنه فَضْل من الله نوعٌ من العبادة[١].

ثم قال تعالىٰ في إتمام التعليم: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾، المشعر: المَعْلَم الظاهر، والوصف بالحرام للإيذان بأنه داخلٌ في الحرم إذ هو حدوده، وهو المزدلفة. والإفاضة من المكان: الدفع منه، مُستعار من إفاضة الماء.

قال في «المنار»: وعرفات أعرَفُ من أن تُعرَّف. وذكروا وجوهاً للتسمية، أحسنها أنه يُتعرَّف فيه إلىٰ الله بالعبادة، أو أنه يُشْعِر بتعارف الناس فيه من سائر الأصقاع. ويوم عرفة: اليوم الذي يقف فيه الحاج بعرفات، وهو تاسع ذي الحجة. ولعرفاتٍ أربعة حدود: حَدٌّ إلىٰ جادَّة طريق المشرق، والثاني: إلىٰ حافات الجبل الذي وراء أرضها، والثالث: إلىٰ البساتين التي تلي قَرْنَيها علىٰ يسارِ مستقبلِ الكعبة، والرابع: وادي عُرَنة؛ بضم ففتح. وليس عُرَنة ولا نَمِرَة من عرفات. والوقوف بعرفات أعظم أركان الحج[٢]. وكلُّها موقف، والمشعر الحرام: جبلٌ بالمزدلفة يقف عنده الإمام، ويُسمَّىٰ: «قُزَح»، وسُمِّي «مَشْعَراً» لأنه مَعْلَم للعبادة، وَوُصِفَ بالحرام لحُرمته، وقيل: هو المزدلفة كلّها من مَأْزِمَي[٣] عرفات إلىٰ وادي مُحَسِّر، بكسر السين المهملة المشدَّدة. وليس هذا الوادي من مزدلفة ولا من منىٰ. والمعنىٰ: أنه يُطلب من الحاج إذا نزل من عرفات إلىٰ المزدلفة أن يذكر الله عند المشعر الحرام، بالدعاء والتكبير والتهليل والتلبية[٤].

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ١٨٥).

(٢) حيث يجتمع الحاج في صعيد واحد، يدعو ويُلبِّي، وهي رَوْعة لا تُشبهها رَوْعة. (المؤلف).

(٣) المأزِم: مضيقٌ بين جَمْعٍ وعرفة. «لسان العرب» (أزم).

(٤) تفسير «المنار» (٢: ١٨٦).

وفي حديث جابر عند مسلم: أنَّ النبيَّ ﷺ أتىٰ المزدلفة، فصلىٰ بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يُسبِّح بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتىٰ طلع الفجر، فصلىٰ الفجر حين تبيَّن له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء ناقتَه، حتىٰ أتىٰ المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعا الله وكبَّره وهلَّله ووحَّده، فلم يزل واقفاً حتىٰ أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس(١).

والمبيت بمزدلفة من جملة مناسك الحج، وتُسمَّىٰ المزدلفة: جَمْعاً. وقوله: «ولم يُسبِّح بينهما»، يريد: لم يُصَلِّ سُنَناً.

قال الأستاذ الإمام: أمر بالذكر عند المشعر الحرام للاهتمام به؛ لأنهم ربما تركوه بعد المبيت، ولم يَذكُر المبيتَ لأنه كان معروفاً لا يُخشىٰ التهاون فيه، والقرآن لم يبيِّن كل المناسك، بل المهم منها، وبيَّن النبيُّ ﷺ الباقي بالعمل(٢).

أقول: وكان ﷺ يقول عندما كان يباشر النُّسك: «خذوا عني مناسككم»(٣).

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: واذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هدايةً حسنة، وأراكم مناسككُم وعباداتكم الصَّالحة التي ضَلَّ عنها غيرُكم، وأرشدكم إليها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾، و﴿إِن﴾ مخففة، واسمُها ضميرُ شأن، أي: وإنه كنتم قبل هذا العهد تشركون بالله وتأتون بأعمال ليست من شعائر الله.

ثم أمرهم بإبطال ما كانت عليه قريش، وهو وقوفهم بمزدلفة ترفُّعاً عن

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨).

(٢) تفسير «المنار» (٢: ١٨٧).

(٣) رواه مسلم (١٢٩٧) من حديث جابر بن عبد الله رضِيَ الله عنهما.

الوقوف بعَرَفة مع سائر العرب. فقال: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: من عهد إبراهيم عليه السلام، ويُشعر من قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ بتشريع عام في المنع من التمايز عن الناس في مثل ذلك، أي: ليكن وقوفكم بعرفة وغيرها مع الجماهير من الناس ولا تشذُّوا عنهم، بما تُسوِّل لكم أنفسكم من أنكم ممتازون عليهم بملك أو رفعة منزلة، فيكون خطاباً لمثل هؤلاء الناس أو خطاباً عاماً للناس بما فيهم هؤلاء، أتمَّه بقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: من الأعمال التي أحدثتموها بعد إبراهيم، من تغيير تلك المناسك علىٰ حسب ما أوْحَت إليكم أهواؤكم، ثمَّ وعدهم بغفران ما سلف منهم، بعبارة مسبوكة علىٰ التعليل، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ أي: يغفر لمن تاب وآمن وعمل صالحاً.

ثم أمرهم بإبطال عادةٍ أخرىٰ من عوائد الجاهلية أيضاً، كانوا يفعلونها أثناء حجِّهم، وهي وقوفهم بمِنىٰ يتفاخرون بآبائهم نثراً وشعراً كما كانوا يفعلون في الأسواق، فأمرهم سبحانه أن يستبدلوها بذكر الله تعالىٰ بعد قضاء المناسك، وهي أعمال الحج، فقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ فأمرهم سبحانه أن يذكروا الله تعالىٰ بعد إكمال أعمال الحج، كما كانوا يذكرون آباءهم في الجاهلية أو أشدَّ ذكراً، يدعونه ويكبِّرونه ويُهلِّلونه ويُوَحِّدونه.

وكان النبيُّ ﷺ قد خطب في حَجَّة الوداع فأرشدهم إلىٰ ترك المفاخرات، ومما قال في ذلك: «أيها الناس، إنَّ ربكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، ألا لا فَضْل لعربي علىٰ عجميٍّ، ولا لعجميٍّ علىٰ عربيٍّ، ولا لأحمرَ علىٰ أسود، ولا لأسودَ علىٰ أحمر إلا بالتقوىٰ، إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلَّغت»[1].

---

(١) رواه أحمد (٢٣٤٨٩) عمن سمع خطبة النبي ﷺ. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣: ٥٨٦): رجاله رجال الصحيح.

وقيل أيضاً في معنىٰ الآية: إنَّ مَنْ عَزَم علىٰ الحج أخذ شوقُه يتزايد يوماً فيوماً، ويذهل عن أهله وأبويه، ويتمنَّىٰ لو طار إلىٰ البيت الحرام بقادمتي جناح، ولا يزال هذا شأنه حتىٰ يتم مناسك الحج، وهناك تَتَحوَّل القلوب إلىٰ الأوطان بنسبة ذلك النسيان، ويشتد بها الشوق إلىٰ الأهل والأبوين والجيران، اشتداداً عظيماً، وهنا يحاول الشيطان أن يجد الثغرة التي يدخل منها إلىٰ القلب، فعليك أن تعالجه بذكر الله.

ثم ألمع إلىٰ الحثِّ علىٰ التمسُّك بما جاء في السياق من الأحكام، علىٰ نهج القرآن في مثله، وذلك ببيان صِنفَي الناس ومصيرهم، ليَحمِلَنا علىٰ التمسُّك بأحكام الله، فنكون من الصنف الثاني المقبولين عند الله، وعبَّر بالقول عن الطلب والعمل، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وأتىٰ بفاء التفريع؛ ليدلَّ علىٰ أن مَنْ يهتم بذكر الآباء والافتخار بأمور الدنيا هو من الصنف الأول، ومَنْ يهتم بذكر الله ويتبع ما أمر به هو من الصنف الثاني، فقال: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾[1]، الخلاق: النصيب والحظُّ.

ذكر تعالىٰ أن هذا الفريق يطلب حظَّ الدنيا مطلقاً، ولم يقل: إنه يطلب فيها حسنة؛ لأن من كانت الدنيا كلَّ همِّه لا يبالي أكانت شهواتُه وحظوظُه حسنةً أم سيئة،

---

(١) هذا في موضع التعليل لما تضمَّنه ما قبله من النهي عمَّا كان يفعله الجاهليون بعد قضاء المناسك من اتِّخاذ الأسواق الأدبية والمجتمعات للتفاخر بالآباء والأجداد، فقد ألمع سبحانه إلىٰ أن أولئك الأبناء والآباء والأجداد، إنما هم ممَّن ليس لهم في الآخرة من خلاق، فلا وجه للمفاخرة بهم والتمجيد، سوىٰ في حظوظ الدنيا وحدها، ألمع إلىٰ ذلك ضمن هذه الجملة المعترضة في السياق، صنَّف بها الناس إلىٰ صنفين، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، والله أعلم.
وهذا القول يتناول أيضاً المادي البحت الذي لا يلفت إلىٰ الروح وجهاً، ولا يُوجِّه إليها نظراً. (المؤلف).

فهو يطلب الدنيا من كل باب، ويسلك إليها كل طريق، لا يميِّز بين حرام وحلال، ونافع لغيره وضار، فباستيلاء حبِّ الدنيا عليه لم يكن للآخرة وما أعدَّه الله فيها للمتَّقين من الرضوان موضعٌ من نفسه، ليعمل له ويرجوه، ويدعو الله فيه، كما أنه لا يخاف ما توعَّد الله به المجرمين فيها ويتحاشاه، فيلْجأ إليه تعالىٰ، بأن يقيه شرَّه. فحرمانُ هذا الفريق من خَلاق الآخرة هو أثرُ كسبه وسُوء اختياره وتفضيله حظوظ الدنيا الفانية علىٰ سعادة الأخرىٰ الباقية. وما أبلغ حذف مفعول «آتنا» في هذا المقام! فهو من دقائق الإيجاز التي تَحار فيها الأفهام، وتعجز عنها قرائح الأنام.

ثم ذكر القسم الثاني، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ أي: ومنهم مَنْ يطلب خير الدنيا والآخرة، لا حظوظ الدنيا كيفما كانت كالفريق الأول، لأن هذا لا يتَّفق مع طلب حظِّ الآخرة. وطلبُ الحياة الحسنة في الدنيا يكون بالأخذ بأسبابها وسُننها. وأعظمُها وأنفعُها: الثقة بالله والإخلاص له، وقَصْد الخير في الأعمال كلها، وتوقِّي الشرور كلها. وطلبُ الحياة الحسنة في الآخرة يكون بالإيمان الخالص والعمل الصَّالح، وطلب الوقاية من النار يكون بترك المعاصي والشهوات المحرَّمة، مع القيام بالفرائض المحتَّمة. هذا هو الطلب بلسان القلب والعمل، وأما الطلب بلسان المقال، فهو يصدق ذلك، بما يُذكِّر القلب بأنَّ هذه الأسباب من الله، وقد مضت سُنَّته بأن يُعطِي بها فضلاً منه ورحمة.

ولم يذكر في التقسيم مَنْ لا يطلب إلا حسنة الآخرة؛ لأن التقسيم لبيان ما عليه الناس في الواقع ونفس الأمر بحسب داعي الجِبلَّة وتأثير التربية وهَدْيِ الدين، ولا يكاد يُوجد في البشر من لا تتوجَّه نفسه إلىٰ حُسْن الحال في الدنيا، مهما كان غالياً في العمل للآخرة، أو لو وجد لا يكون مرضياً عند الله لقوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

ثم قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ فبيَّن صريحاً أنهم يُعطَونْ ما دعوا الله فيه، ولكن بكسبهم، وهذا نصٌّ فيما تقدَّم من معنىٰ الدعاء، وأنه لا بدَّ أن يكون طلب اللسان مطابقاً لما في النفس من الشعور بالحاجة إلىٰ الله تعالىٰ، بعد الأخذ بالأسباب والسعي في الطرق التي مضت بها سنة الله تعالىٰ.

أقول: ويجوز أن يكون المرادُ من القول في الآية: فِعلَ ما يؤدِّي إلىٰ كسب الدنيا وحدها أو كسب الدنيا والآخرة معاً. والتجوُّز بالقول عن الفعل من أساليب القرآن (كما جاء في الفقرة (أ) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة في مجازات القرآن). ولهذا قال: ﴿مِّمَّا كَسَبُواْ﴾، ولم يقل: (لهم ما طلبوا). والمعنىٰ: إنهم لما كانوا يطلبون الدنيا بأسبابها، ويسعون للآخرة سعيها؛ كان لهم حظٌّ من كسبهم هذا في الدارين علىٰ قدره. أما من اقتصر كسبُه علىٰ الدنيا فإنه ينحصر حظُّه فيها ويخسر الآخرةَ ويناله شقاؤها، كما ينال المرضُ من يُهمل الأسباب الصحيَّة والقوانين الطبيعية.

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ أي: يُوفِّي كل كاسب أجرَه عَقِبَ عمله وبحَسَبه، لأنَّ سنَّته مَضَت بأن تكون النتائج آثارَ الأعمال، فهو يُوفِّي كلَّ عامل عمله بلا إبْطاء، ومن ذلك أن كلَّ قول أو عمل صالح ينكت في القلب نكتة بيضاء، وكلَّ سَيِّئ منها ينكت نكتة سوداء، وكما يكون الجزاء سريعاً في الدنيا كذلك يكون في الآخرة. فإنَّ أثر الأعمال يظهر للمرء عقب الموت، وهو أوَّلُ قدم يضعها في عالم الآخرة.

وأما سرعة الحساب يوم الحساب، فهو ـ والله أعلم ـ يكون بإدراك الناس كلهم دفعة واحدة لأعمالهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، فيدرك كلُّ واحد ما عمل من خير أو شرٍّ، ويعلم ما له وما عليه، وما يستحق علىٰ كلِّ عمل من نعيم أو شقاء. فسرعة الحساب: عبارة عن إطلاع كلِّ عامل علىٰ عمله أو إعلامه

وإشعاره دفعة بما له ممَّا كسب، وما عليه ممَّا اكتسب، وذلك يتمُّ في لحظة قصيرة لسائر الناس. وقد وَرَدَ: أنَّ الله تعالىٰ يحاسب الخلائق كلَّهم في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا[١]، ووَرَد: في قَدْر فواق ناقة، أي: حَلْبها. ووَرَدَ: بمقدار لمحة البصر، ويجوز أن يكون للأعمال آثارٌ ومظاهرُ تبرز علىٰ الأرواح والأبدان، يراها كلُّ ذي عيان، والله أعلم. وذلك مصداقٌ لقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وبعد أن أمر بذكر الله عند المشعر الحرام، وكانوا لا يذكرونه هناك، وأمر بذكره عند تمام قضاء المناسك بعد أيام منىٰ، حيث كانوا يذكرون مفاخر آبائهم، أمرهم بذكره تعالىٰ فيما بين ذلك تتميماً للبحث، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ هي أيام منىٰ، كما جاء في الحديث[٢]، وهي أيام التشريق الثلاثة من حادي عشر ذي الحجة إلىٰ ثالث عشر، وهي التي يرمون فيها الجمار وينحرون فيها هَدْيَهم وضحاياهم، ويذكرون الله عند كلِّ عمل من تلك الأعمال.

وقد جعل الله تعالىٰ التخيير في التعجيل والتأخير مشروطاً بالتقوىٰ فقال تعالىٰ: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: لا حرج عليه، ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ إلىٰ ثالث ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أيضاً، وذلك ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ اللهَ ووقف عند حدوده، فإنَّ التقوىٰ هي الغرض من الحجِّ، ومن كل عبادةٍ. أو أنَّ ذلك التخيير لمن لم يكن قصده به حظاً من حظوظ النفس وأهوائها، وإنما صرح بنفي الإثم فيها للردِّ علىٰ أهل الجاهلية، حيث

---

(١) تقدم تخريجه في المقدمة (١: ٦٠٩).

(٢) لم أقف علىٰ حديث يدل علىٰ هذا المعنىٰ، وإنما روي عن ابن عباس، ذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٢: ٤٥٨).

كان منهم من يُؤثِّم المتعجِّل، ومنهم من يُؤثِّم المتأخر. وقوله: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ إيذانٌ بأن الجاهليِّين آثمون علىٰ كلتا الحالتين؛ لأنهم ليسوا من المتَّقين.

ثم أمر بالتقوىٰ بعد الإعلام بمكانتها، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ أي: وكونوا علىٰ يقين بأنكم تُجمعون وتُساقون إليه، فيُريكم جزاءَ أعمالكم، والعاقبة للمتقين. وإنَّ العلم بذلك هو الذي يُصلح النفوس ويُزكِّي الأرواح، حتىٰ تَتَوجَّه إلىٰ الخير وتتّقي الشرور والمعاصي. وإنما أمر سبحانه وتعالىٰ بالذكر في هذه الأيام، ولم يأمر برمْي الجمار؛ لأنَّ رمي الجمار هو من الأعمال التي يعرفونها ويعملون بها، وقد أقرَّهم عليها، فخصَّ بالذكر المهمَّ الذي هو روح الدين، وهو ذكر الله تعالىٰ عند كل عمل من تلك الأعمال أيام منىٰ، وتلك سنَّة القرآن حيث يذكر إقامة الصلاة مثلاً والخشوع فيها، وذكر الله تعالىٰ ودعاءَه فيها، ولا يذكر كيفيَّة القيام والركوع والسجود، وإنما يترك ذلك لبيان النبي ﷺ لها بالعمل، كما جاء عنه ﷺ: «صلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي»[1]، وقال في الحج: «خُذُوا عنِّي مناسككُم»[2].

وبيَّنت السنة أيضاً أنَّ ذكر الله تعالىٰ في هذه الأيام هي التلبية والتكبير أدبار الصلوات وعند ذبح القرابين ورمي الجمار وغير ذلك من الأعمال، وكذلك في غير الأعمال، فقد روي عن ابن عمر رضِيَ الله عنهما: أنه ﷺ كان يكبِّر بمنىٰ تلك الأيام، وعلىٰ فراشه، وفي فُسطاطه، وفي مجلسه، وفي مَمْشاه، في تلك الأيام جميعاً[3].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦٠٠٨)، ومسلم (٦٧٤)، عن مالك بن الحويرث.

(٢) رواه مسلم (١٢١٨) عن جابر بن عبد الله رضِيَ الله عنهما.

(٣) ذكره البخاري معلّقاً موقوفاً علىٰ ابن عمر، باب التكبير أيام منىٰ، قبل حديث (٩٧٠)، ووصله ابن حجر في «تغليق التعليق» (٢: ٣٧٩).

قال في «المنار»: أرشدنا سبحانه وتعالىٰ في آيات المناسك السابقة أنَّ المراد منها ومن كل العبادات، هو تقوىٰ الله تعالىٰ بإصلاح القلوب، وإنارة الأرواح بذكر الله تعالىٰ واستشعار عَظَمته وفضله، وأنَّ طلب الدنيا من الوجوه الحسَنَة لا يُنافي التقوىٰ، بل يُعينُ عليها، بل هو مما يهدي إليه الدين، خلافاً لأهل الملل السابقة، حيث ذهبوا إلىٰ أنَّ تعذيب الأجساد وحرمانها من طيِّبات الدنيا هو أصل الدين وأساسُه. وأرشدنا سبحانه إلىٰ أن مَنْ يطلب الدنيا وحدها ويجعل لذَّاتها أكبرَ همِّه، ليس له خَلَاق في الآخرة، لأنه مُخلِد إلىٰ حضيض البهيميَّة، لم تَسْتنر روحُه بنور الإيمان، ولم يرتق عقله في معارج العرفان.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾.

ولما كان محلُّ التقوىٰ ومنزلُها القلوبَ دون الألسنة، وكان الشاهد والدليل علىٰ ما في القلوب الأعمال، دون مجرَّد الأقوال، ذكر في الآيات الآتية أن الناس في دلالة أعمالهم علىٰ حقائق أحوالهم ومكنونات قلوبهم قسمان، فقال[1]: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ أي: يُعجبك قوله، وأنتم في هذه الحياة؛ لأنكم تأخذون بالظواهر، وهو منافق اللسان، يُظهر خلاف ما يُضْمر، ويقول ما لا يفعل، ويُوهم أنه نصيرٌ للحق والفضيلة، مُتَّقٍ لله في السرِّ والعَلَن، لا يُريد للناس إلا الخير.

---

(١) هذا تصنيف آخر للناس معطوف علىٰ التصنيف الأول ومتمِّم له، والله أعلم. (المؤلف).

﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ﴾ أي: يحلف بالله علىٰ أنَّ ما في قلبه موافقٌ لما يدَّعي ويقول، وفي معنىٰ الـحَلِف أن يقول الإنسان: اللهُ يعلمُ ويشهد بأني أُحبُّ كذا، أو أريد كذا، كما قال تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٦]، وهو تأكيد معروف في كلام العرب، حتىٰ قال العلماء: هذا آكدُ من اليمين. والمعنىٰ: إنَّ أحدهم لَيُبالغ في الخلابة والتودُّد إلىٰ الناس بالقول، ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ أي: وهو في نفسه أشدُّ الناس مُخاصمةً وعداوةً لمن يتودَّد إليهم، أو هو أشد خصمائهم[1]. أو المعنىٰ: أنه قويُّ العارضة في الجدل، يُحجُّ بها المنكر عليه أو المعارض له.

وفي الآية وجْهٌ آخر ذهب إليه بعض المفسِّرين، وهو أنَّ ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلِّق بالقول. والمعنىٰ: يُعجبك قوله إذا تكلَّم في شؤون الحياة الدنيا، فيستهوي أهل السلطان والسيادة.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ شيئاً من أمر الناس ﴿سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ بما يكون من أثر إفساده واعتدائه، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ أي: يبغضه ويغضبُ علىٰ مَنْ يتعاطاه.

وفي ﴿تَوَلَّىٰ﴾ معنىٰ آخر، وهو: أن صاحب تلك الدعوة القوليَّة التي ذكرناها، إذا أعرض عن مُخاطِبِهِ وذهب إلىٰ شأنه، فإنَّ سعيَه يكون علىٰ ضدِّ ما قال. يدَّعي الصلاح وهو يسعىٰ بالفساد.

وهذه الآية ترشدنا إلىٰ التمييز بين الناس بأعمالهم وسيرتهم، وعدم الاغترار بزُخْرف القول.

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ١٩٦).

ولما كان الإفساد يصدر تارةً عن الجهل وسوء الفهم، وأحياناً عن إفساد الفطرة وسُوء القصد، وكان مَنْ يعمل السوء بجهالةٍ سريعَ التوبة مبادراً إلىٰ قَبول النصيحة، وكان شأن الآخر الإصْرارَ علىٰ ذنبه كالمستهزئ بربِّه، ذكر من صفة المفسد ما يُميِّز بينه وبين المخطئ، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ أي: حَملته الأَنَفَة وحميَّة الجاهلية علىٰ اللَّجاج[1] بذلك الإثم الذي نُهي عنه؛ عناداً، وهذا من قولهم: أخذته بكذا؛ إذا حملته عليه. والمعنىٰ: أنه إذا أُمِرَ بمعروف أو نُهِيَ عن منكَر، تسرَّع إليه الغضب، فيؤذي ويعاكس. فسجَّل عليه سبحانه بقوله: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾، وهذا أعظم وعيد بأبلغ تعبير.

ثم ذكر الفريق الثاني، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى﴾ أي: يبيع ﴿نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

قال في «المنار»: وكان من مقتضىٰ المقابلة أن يُوصَفَ هذا الفريق بالعمل الصالح، مع مطابقة قوله لعمله وموافقة لسانه لما في قلبه، والآية تضمَّنت هذا الوصف وإن لم تنطق به، كما هي بلاغة القرآن في تراكيبه، فإنَّ من يبيع نفسه لله لا يبغي ثمناً لها غير مرضاته، لا يتحرَّىٰ إلا العملَ الصالح وقولَ الحق والإخلاص في القلب، وهذا هو المؤمن الذي يعتدُّ القرآن بإيمانه[2]. لذلك قَرَنه بما يتضمَّن الجزاء الأوفىٰ، فقال: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ أي: يُنيلهم ما حاولوه من مَرْضَاته وثوابه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ

---

(١) اللَّجاج: أن يحلف علىٰ شيء ويرىٰ غيرَه خيرٌ منه فيقيم علىٰ يمينه ولا يحنث. «لسان العرب» (لجج).

(٢) تفسير «المنار» (٢: ٢٠٢).

ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾.

وبعد أن بيَّن تعالىٰ اختلاف الناس في الصلاح والفساد، والإصلاح والإفساد، أراد أن يهدينا إلىٰ أنّ شأن المؤمنين الاتفاق والاتحاد، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾[1].

والسِّلم: المسالمة والانقياد، فيطلق علىٰ السلام وعلىٰ دين الإسلام، و﴿كَآفَّةً﴾ حالٌ من السِّلْم، فهي تفيد وجوب أخذ الإسلام بجملته دون إهمال شيء منه.

وذهب بعض المفسِّرين إلىٰ أنَّ ﴿كَآفَّةً﴾ ترجع إلىٰ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فهي بمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[2].

ومن ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: الفواحش والمنكرات كلها.

أما قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، فقد قال أبو مسلم: إنَّ ﴿مُّبِينٌ﴾ من صفات البليغ الذي يُعْرب عن ضميره. فالمراد: إنه قويُّ التأثير عليكم بوسوسته.

---

(١) هذا خطاب للمؤمنين بما فيهم ضعفاء الإيمان، أمرهم أن يأخذوا بجميع دين السلم هذا ولا يزلُّوا في بعضه بخداع المضللين، وتوعَّدهم علىٰ الزلل، ثم توعَّد المضللين بالآية التي تلي، فهو تفريع علىٰ تصنيف الناس، يحمل به المؤمنين أن يكونوا من الصنف الممتاز. (المؤلف).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥)، عن جرير بن عبد الله.

ثم ختم السياق بما يحمل علىٰ التمسُّك بما سبق بيانه، بعبارة مسبوكة علىٰ التهديد، فقال: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: من الأحكام والتوجيهات في ثنايا هذا السياق، أو في ثنايا القرآن، ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ أي: فاعلموا أنه يحلُّ بكم العقاب، لأنه عزيزٌ لا يُغْلَبُ علىٰ أمره، حكيمٌ لا يُهمِلُ أمور غيره، ولا يُنزل العقاب إلا في حينه، فهو يُمهِلُ ولا يُهمِل. أو المعنىٰ: إنَّ هذه البيِّنات ناتجة عن علم وحكمة، فالزَّلل عنها جريمة لا تُغْتَفَر، وفساد كبير. فقد حذف جواب الشرط، وأقام مقامه بيان الحجَّة وتقرير البرهان، وهذا من ضروب إيجاز القرآن، (كما جاء في المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ أصل السياق، وهو الكلام عن المعارضين والمشاغبين، وتوعَّدهم علىٰ مُعارضتهم، وعدم إيمانهم ودخولهم مع المؤمنين في السِّلم كافَّة، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، و﴿يَنظُرُونَ﴾ بمعنىٰ: ينتظرون، وهي كثيرة الاستعمال في القرآن.

وإتيان الله: بمعنىٰ: إتيان أمره، وهو من أساليب العرب المعروفة، يقولون: حاربهم الأمير، وإنما حاربهم قائدُه وجُندُه. أو نُفوِّض أمر ذلك المعنىٰ إلىٰ الله.

والغمام: السحاب. ويجوز أن يُراد به معناه الحقيقي، إذا كان المراد بالآية الوعيد بعذاب الدنيا، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]، أما إذا أريد بها عذاب الآخرة فيجوز أن يُراد بالغمام ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، ويُحتمل أن يراد سحيق

الأجرام، أو المادة السديمية التي تكوَّنت منها السماوات، وهي ما عبَّر عنه في بدء التكوين بالدخان، فإنَّ مادة التكوُّن تعود بعد الانحلال إلىٰ ما كانت قبل التكوين، والله أعلم.

فالآيةُ توعُّدٌ لهم بيوم القيامة وما فيه من حال عصيب، والتعبيرُ بإتيان الله أدلُّ علىٰ الترهيب، والله أعلم.

والحق أنَّ ذلك من الأمور الغيبيَّة، نُفوِّض الأمر فيها إلىٰ الله. وعلىٰ كلٍّ، فمفاد الآية: الترهيب الرهيب، والوعيد الشديد.

وقولُه: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ جملة حالية، يجوز أن يُراد به أنَّ الله سبحانه لا يقبل حينئذ توبة تائب؛ لأن ذلك إنما يكون يوم القيامة. ويجوز أن يكون المعنىٰ: لا ينتظرون غير ذلك؛ لأنه أمرٌ قَضَاهُ الله وأبرمه، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ أي: فيضع كلَّ شيء في مَوْضعه الذي قَضَاه، ويُجازي كلَّ عامل بعمله.

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

ثم أنَّبَ بني إسرائيل وتَوَعَّدهم علىٰ مُعَارضتهم الشديدة للرسول ﷺ، مع أنه قد بيَّن لهم عنه في التوراة بآيات بيِّنات، فقال: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾، وفيه دقّة إشارة إلىٰ أنَّهم إذا استمرُّوا علىٰ المجَاحَدة والخصام، وأعرضوا عن

الدعوة إلىٰ الدخول في هذا السلام، فليس ذلك بِدْعاً منهم ولا دليلاً علىٰ أنهم لم يتبيَّنوا حقيَّة الإسلام، ولكن معارضة الحقِّ قد انطبعوا عليها، وهم فيها دائبون.

ثم أردف ذلك بالتهديد العام، فقال: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ عليه بالآيات الدالَّة علىٰ الحق ويتلاعب بها ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾ بالبيان، وأيَّدت الحق بالبرهان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ أي: لمن خالف شرعته ومنهاجه. وهذا تهديدٌ علىٰ التحريف والتأويل[1] للشرائع المنزلة التي ينعم الله بها علىٰ العباد، وهو عام لجميع الأمم، ويشمل الإهمال أيضاً، لأن النتيجة واحدة وإن اختلفت المقدِّمات.

ثم ذكر سبحانه وتعالىٰ الأمر الباعث لهم علىٰ ذلك التحريف والتلاعب، فقال: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: أُشربت محبتُها في قلوبهم حتىٰ تهالكوا عليها وتهافتوا فيها، وباعوا بها آخرتهم، مُعرضين عنها، لاهينَ عن أمرها، ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لأنهم مُعرضون عن الإغراق في لذات الدنيا المزيَّفة، وملاهيها الباطلة، ويرون الكياسة في الاستعداد لما بعد الموت، وذلك بترقية النفس بالتهذيب الصحيح، والتَّحلِّي بالفضائل، فيسخر الكافرون منهم علىٰ ذلك.

فردَّ الله سبحانه علىٰ هؤلاء الساخرين مُبيِّناً عُلوَّ كرامةِ هؤلاء المؤمنين يوم القيامة، نتيجةَ ما يهزؤون به عليهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: إذا اسْتَعلَوْا علىٰ المؤمنين في هذه الحياة القصيرة الفانية، بما يكون لهم من الأتباع والأنصار والمال والسلطان، نتيجةَ تهافتهم علىٰ تحصيل زخارف هذه الحياة، فسينال المتقون في الحياة الأبديَّة الباقية حظوظاً عليَّةً، ليست حظوظ هؤلاء الكفار في دنياهم شيئاً مذكوراً بالنسبة لتلك الحظوظ الرفيعة الشأن.

---

(١) يعني: التأويل الباطل الذي لا يدل عليه دليل، ولا تُرشد إليه قرينة، وفيه إبطال معنىٰ النص، كتأويلات الباطنية ومَنْ نحا نحوهم.

وإنما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ ولم يقل: والمؤمنون، للإيذان بأن الإيمان وحده لا يؤدي لذلك، إذا لم تصحبه التقوىٰ وصالحاتُ الأعمال.

ثم أكمل الردَّ سبحانه ببيان أنَّ أرزاقَ الدنيا ونعيمَها ـ حسب سنة الله تعالىٰ فيها ـ مبذولة للتقيِّ والشقيِّ، إذا اتَّبع سُنَّة الله الكونيَّة في الحصول عليها، وجدَّ في طرق الكسب الصحيحة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾، ولا تعلُّق لذلك بالكفر ولا بالإيمان، ولكن بالسَّعي الصحيح والإحسان في طرق الكسب، كما جرت سُنَّته تعالىٰ فيه.

ويجوز أن يكون الكلام تذييلاً لما قبله؛ لأنَّ الرزق قد يشمل نعيم الآخرة، فهو يُنوِّه بكثرة ذلك النعيم، ويجوز أن يكون من التعقيب بما يشمل ما قبله وغيره، علىٰ نهج القرآن في ذلك.

ثم بيَّن سبحانه أنَّ هذا الانحراف عن الحقِّ ليس هو من أصل الطبيعة، فلا فرق بين طبيعة الكافر وطبيعة المؤمن في أصل الخِلْقة، لأنَّ كلَّ مولود يولد علىٰ الفطرة، ولكنه ناتجٌ من تحريف الكافر طبيعَته، بمفاسد التربية، فقال: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[1]،

---

(١) ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ في انطباعهم علىٰ معرفة الحق من الباطل، لقوله تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ - ٨]، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ليساندوا هذه الفطرة ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ لمن تمسَّك بالحق، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لمن خالفه وأعرض عنه، ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ...﴾ ولفظ «كان»، لمجرَّد الثبوت ولا تدل علىٰ المضيِّ، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، فالآية تعقيبٌ علىٰ السياق الذي جاء فيه تصنيف الناس، والتنويه بشأن المحسنين، والتأنيب للمسيئين، بأنهما في أصل خِلقتهم متساوون، وللصلاح مستعدّون، ولكن في التربية مختلفون، فضلاً لهم من تربيتهم لا من أصل خلقتهم. =

أي: فيما هو مقتضىٰ أصل الخِلْقة والجبلّة، من الهداية الطبيعية والغريزة الدينية والأخذ بما يُرشد إليه العقل في الاعتقاد والعمل، ولكنهم بحكم اختيارهم في تصرُّفاتهم، مُعرَّضون لأن يحرِّفوا عقولهم عن جادّة الحق، بكسبهم وصُنع يدهم وسُوء نشأتهم، كما أشار إلىٰ ذلك الملائكة بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فأضاف سبحانه إلىٰ هدايتهم بالطبيعة هدايتهم بالشريعة.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: فكانت الشريعة مُساندةً للطبيعة في السَّيْر مع الحقِّ وتَجنُّب الباطل، تَـرُدُّ الضَّالِّين إلىٰ سبيل الحقِّ في العمل والإيمان، إلا أنَّ مَنْ آمن منهم بشريعته، كانت لا تلبث أن تنحرف وتخرج أجيالـهم تدريجياً بمرور الزمن بالتأويل والتحريف من أصل الشريعة، وتنحدر إلىٰ الشرك بعد الإيمان، وعن الحق إلىٰ الضلال، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: جَوْراً وتغلُّباً، وطلباً للرياسة في مذهب جديد يكوِّنونه بتغيير بعض معالم الدِّين، ليخْتصُّوا فيه بأتباع وموالين، أو لسوء التربية والتقليد الأعمىٰ، يكونون للضلال مُتَّبعين، وعمَّا أُرسل إليهم معرضين، ومن ذلك مشركو قريش، حيث خرجوا عن دين إبراهيم عليه السلام.

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهم أهل الإيمان الصادق في كلِّ دين، المحافظون

---

= كما يُرشد قوله تعالىٰ ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ...﴾ أنَّ الله سبحانه خلق الناس أمة واحدة في التسوية والاعتدال، وتمييز الخير من الشر في أصل خلقتهم، وأرسل لهم الشريعة لتساعد هذه الطبيعة، فتسلك سبيل التزكية وتجتنب سبيل التدسية أي: سبيل الغواية والفساد. وهذا كما إذا قلت: نبت النوىٰ نباتاً حسناً طبيعياً، فأرسلت له البستاني يساعده في طبيعته، يُداريه ويسقيه، يُقوِّم منه ما التوىٰ، ويُعدِّل ما حَنَاه الهواء. (المؤلف).

علىٰ طبيعتهم والمُزَكُّون لها، أو هم المؤمنون بمحمد ﷺ والمهديُّون بهذا القرآن العظيم الذي حوىٰ سائر كتب الله المنزلة وشرائعه المرسلة؛ هداهم ﴿لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: لما اختلف فيه أولئك المختلفون ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الصريح. وهذه الهداية إنما هي ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بتيسيره ولطفه سبحانه وتعالىٰ. وهذا القيد لإفادةِ منَّةِ الله تعالىٰ علىٰ المؤمنين بهذه الهداية العظيمة.

وفي التعبير بالإيتاء بدل الإنزال؛ إيماءٌ إلىٰ كمال تمكُّنهم من الوقوف علىٰ ما في تضاعيفه وثناياه، وفي ﴿ٱخْتَلَفُوا۟﴾ إسنادُ فعل الأغلبية إلىٰ الجميع، للإيذان بتكافل الأمم وتضامنها.

ثم ذيَّل الكلام بما زاد في التَّمنُّن، بعبارة تشملهم وغيرَهم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وهم الذين لم يُحرِّفوا طبيعتهم بكسبهم وسوء تصرُّفهم، فالله يهديهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ أي: يُوصِلُ سالكه إلىٰ السعادة.

ومُحصَّل الكلام: أنَّ الله سبحانه خَلَقَ البشر مُستعداً للهداية بطبيعته، وللخير بفطرته، وأيَّد فيه ذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فكانت الحُجَّة البالغة لله علىٰ الناس فيما اختلفوا فيه وخرجوا من الهداية إلىٰ الضلال، بإفسادهم لِفِطَرهم، وأخذوا يقاومون الحقَّ والهدىٰ إذ جاءهم علىٰ لسان أنبيائهم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾.

وبعد هذا البيان من الله سبحانه، التفت إلىٰ المؤمنين، يحثُّهم علىٰ مقاومة هذه المعارَضَة للحقِّ من جانب اليهود والمشركين إلىٰ الحدِّ الأقصىٰ، لأنَّ المنازل الرفيعة في

الجنان لا تُنال إلا بالجهاد في سبيل الله للمعارضين للحق والـمُفسِدين الـمُضلِّلين، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾[1]، يقولون ذلك طلباً ودعاء للنصر واستطالةً لمدَّة الشدَّة.

وليس في هذا الطلب نقصٌ يُعابون عليه، فإنَّ كل مخلوق لا يعلم من غيب الله ما يعلم الله، لا بد أن يمسَّهُ مثل هذا الضجر من استبطاء نصر الله للحق[2] الذي بُعِثَ به ذلك الرسول، حتىٰ يكون الكمال لله وحده، إذ لا يعلم حكمة ذلك إلا الله.

وهذه الآيةُ معطوفةٌ علىٰ محذوف يُفهم من السياق، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

وقد بيَّن لهم سبحانه وتعالىٰ سُنَّته في خلقه، وهي أنَّ القائمين بالدعوة ونشر الهداية يُجابهون صعوباتٍ جمَّة. وهكذا كان أمر الماضين من القائمين بمثل هذه الدعوة، مسَّتهم البأساء والضرَّاء واشتدَّ عليهم الأمر حتىٰ استبطؤوا نصر الله، ثم جاءهم النصر، ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾، هذه هي السنة الطبيعية في سبيل نشر الدعوة وتبليغها للناس. ولا يمكن أن يكون نشر الـهداية التي تكون واسطةً لدخول الجنة أمراً هيِّناً، يفعلها صاحبُها من دون مشقَّات عظيمة واختلاف عليه.

---

(١) لما كان السياق متضمِّناً للحرب بين المؤمنين والمشركين بنوعيها الحارة والباردة، من مشاغبات ومناوشات المؤمنين علىٰ الصبر، مبيناً أن مثل ذلك سنة من سنن الاجتماع في الانقلابات، ومن اسْتَهْدَف عظائمَ الأمور صَبَرَ علىٰ مرارة المقدّمات. (المؤلف).

(٢) لو قال: الضجر من إيذاء أقوامهم وما أصابهم من البأساء والضراء، والإلحاح في طلب النصر من الله وتعجيله؛ لكان أولىٰ.

وفي هذه الآية تَـتْميمٌ للآية: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥]، أتىٰ بها بعد أن تهيأ مكانها هنا لأداء الغرضين، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾.

ولـما كان من سُنَّـة القرآن أن يكون بيان التوحيد، وبيان الوعظ والنصيحة، وبيان الأحكام، مختلطاً بعضها ببعض، ليكون كلٌّ منها مؤيداً بالآخر ومؤكداً به، (كما جاء في المادة الثالثة من المقدِّمة الثانية)، عاد بعد الوعظ والإرشاد إلىٰ السياق في بيان الأحكام التي هي من البر، وذلك مِن هذه الآية إلىٰ قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ .... ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وابتدأ ببيان كيفيَّـة إنفاق الأموال، مراعاةً لِلُطْـفِ المَسْلك، لأنَّ الإنفاق هو الركن المهم في الثبات تجاه المقاومين ودفاعهم، وفي تخفيف البأساء والضراء عن البائسين من جرَّائهم، فقال: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ[1] مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ

(١) وهناك وجه آخر لربط آية ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾، لما كان من أساليب القرآن العودة علىٰ الموضوع =

﴿مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ وهم الذين لا يفي كَسْبُهم بحاجتهم، ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المتشرِّد في الطرقات من أرباب العاهات أو المسافر المحتاج للنفقات.

وفي الكلام احتباكٌ يُفْهَم من الجواب، إذ يدلُّ علىٰ أنَّ السؤال كان مُركَّباً من فرعين: أفضل ما يُنفَقُ وأفضل مَنْ يُنفَقُ عليه، واختصر السؤال اكتفاءً بما في الجواب، علىٰ نهج القرآن في الإيجاز، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

والخير: المال الذي يُغني أو يسدُّ الحِوَج. ويجوز أن يكون بياناً للمال الذي يحقُّ أن ينفق منه، وهو الكثير. أما قوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ فأراد به مُطْلَقَ الإحسان، بدلالة النهج والأسلوب.

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ تشويقٌ وحَمْلٌ علىٰ العمل بذلك.

ثم تابع السياق في سَرْد الأحكام، وخصَّ بالذكر هاهنا مشروعيَّة القتال، مراعاةً لِلُطْف المَسْلَك في وجوب مقاومة المعارضين، وجمعاً بين بذل المال وبذل النفس في سبيل الله وتقريراً لآية ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾، فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾.

قال في «المنار» بعد أن نقل ما قاله المفسِّرون والأستاذ الإمام في وجه الكُره، قال: وثمَّ وجه آخر، وهو أنَّ كُرهَهُم للقتال لم يكن خوفاً علىٰ أنفسهم أن يبيدوا، ولا علىٰ الحقِّ الذي حملوه أن يضيع ـ كما ذكر ذلك الأستاذ الإمام ـ وإنما هو حبُّ السلامة والرحمة بالناس، التي أودعها القرآن في نفوسهم، وثبَّتها الإيمانُ في قلوبهم، واختيار مُصَابَرة

---

= لتقريره، أو لشرح ناحية أخرىٰ من نواحيه، عاد إلىٰ موضوع الإنفاق في آية ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وذكر أفضل ما ينفق وأفضل من ينفق عليهم، ورغَّب في ذلك. وكذلك الحال في آية القتال الآتية. (المؤلف).

الكفار ومجادَلتِهم بالدليل والبرهان، دون مجالَدتِهم بالسيف والسِّنان، رجاءَ أن يدخلوا في السِّلم كافَّة ويتركوا خطوات الشيطان[١]. هذا هو وَجْه نظرهم في كراهية القتال، ولكن حكم الأشياء ونتائجها ومُعمَّياتُها خَفِيَتْ عليهم، كما قال تعالىٰ لهم: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾، فقياسُكم جميعَ الكافرين علىٰ أنفسكم وتوقُّعُكم أن يزيَّن لهم من الإيمان ما زُيِّن لكم، هو من الأَقْيِسَة الباطلة، فإنَّ الاستعداد في النفوس يتفاوت تفاوتاً عظيماً، بتفاوت تربيته وتنميته، فمنهم مَنْ ساءت خليقته بتحريفه لها، وأحاطت به خطيئته، حتىٰ لم يَبْق لروح الحق مَنفَذٌ إلىٰ عقله، ولا لحبِّ الخير طريقٌ إلىٰ قلبه، فلا تنفع فيه الدعوة، ولا تُرجىٰ له الهداية. ومثل هذا الفريق في الأمة كمثل الدم الفاسد في الجسم، فإنه إذا لم يخرج يفسده، فلم يأمر الله سبحانه بقتالهم إلا رحمة بمجموع الأمة أن تفسد بهم. وأنتم ـ أيها المؤمنون ـ لا تعلمون كُنْه استعداد الناس، ولا ما يكون من أثره في مستقبلهم، وإنَّما الله هو الذي يعلم ذلك، فامتثلوا أمره.

وبالإجمال، إنه تعالىٰ أورَدَ العبارة علىٰ صورة بليغة تُهوِّن أمرَ القتال علىٰ النفوس، بأسلوب إيجاز القرآن وبلاغة تراكيبه في تقرير نظرياته العامَّة، مُؤْذناً أن ذلك مَبْنيٌّ علىٰ علم الله العظيم وحكمته البالغة.

ومن حكمة الجهاد ما قالوا: إن النفوس الإنسانيَّة كالأجسام؛ تَعرِضُ لها الأمراض، وتعطِّلها عمَّا خُلقت له، وتتعاصىٰ فيها حتىٰ لا يصلح معها الإرشاد والتقويم بالموعظة والكلام، وحينئذ لا يسهل تحويلها من الشر إلىٰ الخير، بل تحتاج إلىٰ داع قويٍّ بقهره، قويٍّ بصبره، قويٍّ بحُجتَّه، فيه من المناعة الخلقية ما يتقوىٰ به علىٰ احتمال ما يُرمَىٰ به ممّا يستفزُّ الحليم ويستنفد صبر الكريم، ويعجب له الرجل العادي.

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٢٤٩).

وهكذا كان حاله ﷺ مع قريش وسائر المعاندين؛ صَدْعٌ بالحق بأمر الله وصبرٌ عليهم، فلما لم تنفعهم المواعظ وحدها، وعارضوا الدعوة معارضةً قويَّة، واشتطُّوا في ذلك، فرض الله عليه قتالهم، فقام بذلك حتىٰ رضي الحقّ وانتصر علىٰ الباطل. فلم يكن السيف في يده إلا مشرط الجرّاح يَبتُرُ به ما فسد من الأعضاء. فسار ﷺ علىٰ هذه السنَّة الكونيَّة، ولم يقتصر علىٰ الحُجَّة والبرهان في المواضع التي لا تنفع فيها الحُجَّة ولا يقنع البرهان، وذلك بأمرٍ من الله العليم الحكيم، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

ويؤيِّد هذا ما جاء عنه ﷺ أنه بعد أن غلب المشركين وأوقع بهم في بدر، كان يمرُّ بعد انتهاء المعركة بين قتلاهم، ويكرر قوله: «نُفَلِّقُ هاماً». فيتمُّ أبو بكر البيت، ويقول:

..... مـــن رجـــالٍ أعـــزةٍ علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما[1]

وفيه دليل علىٰ أَلَـمِه ﷺ من الضرورة التي ألجأته إلىٰ قتل صناديد قريش الذين قاوموا دعوته أشدَّ المقاومة، وأخرجوه من بلده، ثم تبعوهم إلىٰ دار هجرتهم يقاتلونهم فيها ليبيدوهم.

ثم أكمل هذا البيان بإعادة بيان حكمة إباحة القتال في الشهر الحرام وفي البلد الحرام، وبيان العذر في ذلك، إشباعاً للكلام في هذا البحث الذي أثار فيه المشركون ضجة تهويشيَّة زاعمين أنه خَرْقٌ لتقليد مقدَّس، وهو هُدْنةُ الأشهر الحرم، فأعاد البحث عن ذلك بعد أن قطعه دفعاً للسأم من طول البحث وتنشيطاً للذهن، علىٰ نهج القرآن

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤: ٢٥)، والبيت نسبه ابن قتيبة في «الشعر والشعراء» (٢: ٦٣٤) للحصين بن الحمام. والحصين هو المرّيّ الذبياني، أبو يزيد (... نحو ١٠ ق هـ) شاعر فارس جاهلي، وكان سيد بني سهم بن مرة، له ديوان شعر.

في العودة، (كما جاء في الفقرة (و) من المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ بمعنىٰ: أنَّ القتال فيه مستنكر جداً، ﴿و﴾ لكن ﴿صَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن الطريق الموصل إليه، ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ أي: بالله سبحانه، ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: وصدٌّ عن المسجد الحرام، وهو مَنْع المؤمنين من الحجِّ والاعتمار كما في يوم الحديبية، ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ﴾ وهم النبيُّ ﷺ والمهاجرون، كل ذلك ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: من القتال في الشهر الحرام ومُبرِّر له.

ويُؤْخذ من هذه الآية أنَّ من سنَّةِ الإسلام ارتكابَ أخفِّ الضررين، ودَفْعَ الضرر الأشدّ بالضرر الأخف. وعلىٰ هذين المبدأين أباح الدينُ أكلَ الميتة وبقيَّة محرَّمات المأكولات عند الاضطرار، إبقاءً علىٰ الحياة.

ثم صرَّح بالعلَّة العامة لمشروعيَّة القتال، وهي فتنة الناس عن دينهم، فقال: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي: إنَّما يريد المشركون أن يفتنوكم عن هذا النور الذي أنزله الله عليكم، ويردُّوكم إلىٰ دينهم إن استطاعوا، وهذا العملُ إجرامٌ كبير أشدُّ من إجرام القتال في الشهر الحرام بكثير. ودفعُ الضرر الأشدِّ بالضرر الأخفِّ سنةٌ صحيحة وشريعةٌ مستقيمة. وكان المشركون يفتنون المؤمنين عن دينهم بالإيذاء والتعذيب، كما فعلوا بعمار بن ياسر وعشيرته، وصهيب وخباب، وغيرهم.

حكىٰ خباب رضِيَ الله عنه قال: لقد رأيتُني يوماً وقد أُوقد لي نارٌ وضعوها علىٰ ظهري، فما أطفأها إلا ودك ظهري[1]، أي: دهنه. فهذا نموذج من فتنة المشركين لضعفاء المسلمين. أفلا يستحقُّون المقاتلة، دفاعاً لهم، ولو في الأشهر الحرم؟

ثم ذكر ما يضمره لهم المشركون وحذَّرهم العاقبة، فقال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١: ١٤٤).

حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾، فبيّن سبحانه وتعالىٰ للمسلمين ما صمَّم عليه المشركون تجاههم، وحذَّرهم من الارتداد مهما بلغ بهم الحالُ من عداء المشركين الشديد لهم. أما حبوط الأعمال، فلأنَّ العمل الصالح إنما ينفع بحُسْن أثره في النفس، ونفوسُ الكفار يوغِلُ فيها الفساد فتفقد الاستعداد لذلك الأثر، فيسلمهم هذا الحال إلىٰ عذاب النار. أعاذنا الله. وكذلك الأعمال الصالحة إذا لم يكن معها عقيدة صحيحة لا يكون لها أثر صالح في النفوس.

والإشارة بلفظ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إلىٰ ﴿مَنْ﴾، باعتبار المعنىٰ، وهو صنف المرتدين، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

ثم رغّب المؤمنين بالثبات تجاه هؤلاء المقاتلين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ وبهذا الرجاء يَسْتَبْسِلون في مقاتلة هؤلاء الكفرة المعارضين، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ يغفر لهم ما عَسَاه يفرط منهم، ويتغمَّدهم برحمته ورضوانه.

وفي الآية إيماءٌ لما ينال المشركين والمرتدين من عكس ذلك، علىٰ نهج القرآن في الاكتفاء والإيجاز والإيماء. وإنما كرَّر الموصول مع أنَّ المراد بهما صنف واحد، لتفخيم شأن الهجرة والجهاد، فكأنه مُستقل في تحقيق الرجاء.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن

﴿تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾.

ثم تابع السياق في سَرْد الأحكام، وخصَّ المجتمع والعائلة حتىٰ انتهىٰ إلىٰ آية (٢٤٣): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ ...﴾، وذكر حكم الخمر والميسر اللذين اتَّبع فيهما الكفار والمشركون خطوات الشيطان، مُلمِعاً إلىٰ أنَّ من البِرِّ تركَهُما، فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾؛ لأنَّ مضرَّتهما كبيرة في البدن والنفس والعقل والمال، وكذلك في التَّصافي وارتباط الناس بعضهم ببعض، ولا إثم إلا فيما كان ضاراً[1]، ولا يوجد إثم من الآثام يدخل ضرره في كثير من الأشياء مثل الخمر والميسر الذي هو أكل لأموال الناس بالباطل، وقعود عن الأعمال المفيدة في طرق الكسب الطبيعية كالتجارة والزراعة والصناعة وغيرها. وبالإجمال، إنَّ التجارب العلميَّة والمشاهدات الاجتماعيَّة التي أيَّدتها الإحصاءات، متظافرة متضامنة علىٰ إثبات فداحة مضار الخمر والميسر في الأمة والأسرة والأفراد.

﴿وَ﴾ فيهما ﴿مَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ ضئيلة، وأهم منافع الخمر: بعض المعالجات الخارجية، كتطهير الجروح والقروح، وأهم منافع الميسر: استفادة الفقراء من مَيْسر الجاهلية إذ كانوا يتعاطونه علىٰ جزور تُفرَّق للفقراء، ويدفع ثمنها الخاسرون. هذا نفع الخمر والميسر، وذاك ضررهما.

﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[2] مادياً واجتماعياً وأخلاقياً وطبياً. وهذا إرشاد

---

(١) لكن قد يخفىٰ ضرره، ولذا لم يُعلَّق الإثم في النصوص الشرعية علىٰ الضرر، وإنما عُلِّقَ علىٰ مخالفة الأمر وارتكاب النهي.

(٢) الخمر أساس الشرور وأصل البلايا وسبب الدمار، تَضرُّ بالإنسان جسماً وعقلاً، إذ تفسد العقل =

إلىٰ مَدْرك علَّة التحريم. ويؤذن بأنَّ مدار التحريم في المحرَّمات علىٰ أن يَغْلِبَ الضررُ منها ما فيها من النفع. فكلُّ ما كان كذلك فهو حرام.

ومن هذا الإرشاد تقرَّرت القاعدتان في الإسلام، قاعدة: دَرْءُ المفاسد مقدَّمٌ علىٰ جلب المصالح، وقاعدة: ارتكاب أخف الضررين.

أما قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ فقد جاء علىٰ سُنَّة القرآن في بيان بعض الأحكام بصورة السؤال والجواب، (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية)، ولا يلزم منه وقوع السؤال فعلاً[1].

وبعد أن ذكر حكم ما يُستهلك المال في سبيل الإثم والضرر، أردفه بحكم ما يُنفق منه في سبيل الخير والنفع والأجر، ووجوب الاقتصاد فيه، جمعاً بين المتضادَّين، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، إذ الضدُّ يُظهِرُ حُسْنَه الضِّدُّ، وعَوْداً إلىٰ بحث الإنفاق، وتتميماً له، أرجأه ليرتبط بمنع الميسر الذي كان فيه بعض النفع للفقراء، إيماءً إلىٰ أنَّ في الإنفاق البريء عوضاً عنه، وبياناً إلىٰ أنَّ الإنفاق يكون في هذا السبيل، لا في ذاك

---

= وأحكامه، وتمحُو الذاكرة، وتقلِّل التفكير، وتشوشه، وتُسبِّب اختلالاً في جهاز التنفس، وتضعف القلب، وتلهب الكليتين، وتخرب ألياف الكبد، وتمزِّق العصارات والغشاء في الجهاز الهضمي، وتخرش النسيج العصبي، حتىٰ قال غلادستون: فتك الخمرة بالناس أشد من فتك الطاعون والحرب والمجاعات، لو كانوا يعلمون. وأما الميسر والقمار واليانصيب، فأقل ما فيه أنه استفادة شخص بأضرار ألوف من الناس. والكاسب يحصل علىٰ المال لا في مقابلة عوض، والخاسر يخسر ماله ويدفعه تغريراً واعتباطاً. والشريعة الغرَّاء تأبىٰ أمثال هذه المعاملات الفاسدة بين الناس. والميسر مَتْلفة للمال، مَضْيَعة للثروات، مَفْسدة للمروءات، خراب للديار، فلا شيء أضرُّ في مثل ذلك من القمار. (المؤلف).

(١) هذا بعيد، بل الظاهر وقوع السؤال فعلاً، ولا مانع منه، فلِمَ العدولُ عنه إذن؟

السبيل، وعلىٰ هذه الصورة لا علىٰ تلك الصورة، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾، وإنما أتىٰ بالعاطف للإيذان باتِّصاله بما قبله، وهكذا ما يأتي بعده من الأسئلة.

قال الواحدي: أصل «العَفْوِ» في اللغة: الزيادة، قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ [الأعراف: ٩٥]، أي: زادوا علىٰ ما كانوا عليه قبلُ من العدد[١]. وقال القفَّال: العفو: ما سهُل وتيسَّر، ومنه: عَفَوْت عنه، أي: تَسَاهلت وتيسَّرت. ففي المادة معنىٰ التخفيف. فالمراد من العفو في الآية: ما سَهُل وخَفَّ. وهو بعينه معنىٰ الفضل الذي لا يضر بالمنفق. وإنما أورده بهذه العبارة المطلقة البليغة، ليُقدِّره كل قومٍ أو فرد في كلِّ عصر بحسب ما يليق بحالهم؛ لأنه خطاب عام ليس خاصاً بحال الناس في زمن البعثة، وإنما يتناول حالهم في سائر الأوضاع والأزمان.

وقد قال ﷺ: «خير الصدقة ما أبقت غنىٰ»[٢]، وعنه ﷺ: «طوبىٰ لمن أنفق الفَضْلَ من ماله»[٣]، وعن جابر بن عبد الله قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل بمثل البيضة من ذهب، فقال: يا رسول الله، خذها صدقة، فوالله لا أملك غيرها، فأعرض عنه، ثم أتاه من بين يديه، فقال ﷺ: «هاتها» مغضباً، فأخذها منه، ثم حذفه بها، بحيث لو أصابته لأوجعته. ثم قال: «يأتيني أحدكم بماله لا يملك غيره، ثم يجلس يتكفَّف الناس، إنما الصدقة عن ظَهْرِ غِنىً، خذها فلا حاجة لنا فيها»[٤].

---

(١) تفسير «الوسيط» للواحدي (١: ٣٢٤).

(٢) رواه أحمد (١٥٥٧٧) عن حكيم بن حزام، بلفظ: «خير الصدقة ـ أو: أفضل الصدقة ـ ما أبقت غنىً، واليد العليا خير من اليد السفلىٰ، وابدأ بمن تعول». ورواه مسلم (١٠٣٤) بلفظ: «عن ظهر غنىً».

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٦٩).

(٤) رواه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٤٧٧١).

ثم ختم سبحانه وتعالىٰ الكلام بعبارة تدلُّ علىٰ الاهتمام بما تقدَّم من الأحكام وغيرها، لِعِظَم أمره في الأحوال الاجتماعيَّة والروحيَّة، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: القوليَّة في الأحكام الشرعيَّة، أي: يُبيِّنها علىٰ هذه الصُّورة الواضحة المقرونة بمدرك العلة وواضح البرهان ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي﴾ أمور ﴿ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾؛ لأنَّ هذه الآيات المبيِّنة نظامٌ لهما معاً، تُبيِّن لكم ما ينفعكم فيهما، فتفكَّروا واعتبروا.

وإذا كان السؤال في الآيات واقعياً[1] يكون تعدُّد هذه الأسئلة يدلُّ علىٰ حرصهم لمعرفة ما يرضي الله، وما له أثر صالح في حياتهم، ولا سيما الحياة الشخصيَّة والاجتماعيَّة.

قال الأستاذ الإمام: إنَّ النكتة في الجَمْع بين السؤال عن الخمر والميسر والسؤال عن الإنفاق في آيةٍ واحدة هي المقارنة بين حالِ فريقين من الناس؛ فريقٍ ينفق المال في سبيل الإثم، وفريقٍ ينفقه في سبيل الله، يزيل به ضرورة إخوانه المساكين، ويرفع به شأن أمته، بما يجعله للمصالح العامة وأعمال الخير[2].

ثم ذكر حكماً من أحكام أموال اليتامىٰ كان قد أشكل عليهم بعد نزول بعض الآيات فيها، مراعاةً لِلُطْفِ المَسْلَك مع إنفاق العفو وحفظ الاعتدال في الأموال، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾.

عن ابن عباس رضِيَ الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾

---

(١) وهو الحق الذي لا محيد عنه، وليست الأسئلة افتراضية أو توهمية، كما توهمه المؤلف، غفر الله له.

(٢) تفسير «المنار» (٢: ٢٦٩).

[النساء: ١٠]، انطلق مَنْ كان عنده يتيم، فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه، فيحبس له حتىٰ يأكله أو يفسد، فاشتدَّ ذلك عليهم، فذكروه لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية[1] بهذا الحكم: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾[2]، فأزالت شبهة المتأثمين. والمعنىٰ: إن القيام عليهم لإصلاح نفوسهم بالتهذيب والتربية، ولإصلاح أموالهم بالتثمير والتنمية، خير من إهمال شأنهم وتركهم لأنفسهم تفسد أخلاقهم وتضيع أموالهم وحقوقهم.

وقوله: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ كشفٌ لشبهة المتحرِّجين، ومعنىٰ ذلك: أن لا وجه للتحرُّج من مخالطتهم في المأكل والمشرب والمكسب، فهم إخوانكم في الدين، ومن شأن الإخوة أن يكونُوا خلطاء وشركاء.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ فوضع سبحانه وتعالىٰ للضمير والوجْدان حداً وقاعدةً يرجع إليها في هذا الشأن، وهي مراقبة الله سبحانه وتعالىٰ في ذلك، وهو يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصُّدور.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ هذه الرخصة والسهولة إنما هي من رحمته في شؤون البشر ورأفته فيهم، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾؛ يبيِّن مزيَّة الشريعة وسهولتها، أي: لأحرجكم وضيَّق عليكم وأوقعكم في العَنَت والمشقَّة، بأن يُكلِّفكم القيام بشؤون اليتامىٰ وتربيتهم وحفظ أموالهم ولا يأذن لكم بمخالطتهم، ولا بأكل لقمةٍ واحدة من طعامهم، ولكنه لسَعَة رحمته ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، و﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

---

(١) رواه أحمد (٣٠٠٠)، والطبري في «تفسيره» (٤: ٣٥٠).

(٢) جاء هذا في السور المكية، كسورة الضحىٰ والماعون وغيرهما، المبالغة في العناية باليتيم والنهي عن قربان ماله إلا بالتي هي أحسن. (المؤلف).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعارضه شيء، ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ يفعل ما تقتضيه الحكمة والمصلحة العامة(١).

وقد تضمَّنت الآية بيان منَّة الله تعالىٰ علىٰ الناس في تشريعه الحكيم.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

ثم تابع السياق في سَرْد الأحكام التي هي من البرِّ المطلوب إيجاباً أو سلباً، وذكر حكم نكاح المشركات والمشركين، مُراعاةً للطف المسْلك في النهي عن المضار العامة كالخمر والميسر، ناهياً عن مصاهرتهم حذراً من مضرَّتهم في عدوانهم والاقتباس من أحوالهم وشؤونهم، فقال: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾، ثم بالغ بالحَمْل علىٰ الانزجار، مُصَدِّراً الجملة بلام الابتداء، فقال: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ مع ما لها من شرف الحرية ورفعة الشأن، بل ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ لمالها وجمالها. و«لو» هذه لاستقصاء الأحوال علىٰ وجه الإجمال، وتدخل علىٰ أبعد الأحوال ليكون ما عداه داخلاً بالأَوْلىٰ.

وبعد أن نهىٰ عن نكاح المشركات بهذه الصورة المؤكدة، نهىٰ عن إنكاح المؤمنات للمشركين، فقال: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لا تزوِّجوا منهم المؤمنات ﴿حَتَّىٰ

(١) تقدم التعليق علىٰ مثل هذه العبارة (٢: ٣٧٢).

﴿يُؤْمِنُواْ﴾، ثم بالغ في النهي بقوله: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ حُرٍّ ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾.

ثم عَلَّل النهي بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المشركات والمشركون ﴿يَدْعُونَ﴾ مَنْ يقارنهم ويعاشرهم ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: إلىٰ ما يُؤدِّي إليها من الكفر والفسوق، لأنَّ الزواج أقوىٰ مُقْتض للتسامح في شؤون كثيرة تؤدي إلىٰ الوقوع في المهالك والضلال، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ﴾ أي: بواسطة عباده المؤمنين؛ مَنْ يقارنهم ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بتيسيره وتوفيقه، ﴿وَ﴾ هكذا ﴿يُبَيِّنُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ مقرونةً بالحُجج والبيِّنات ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ حكمة الأحكام.

ثم تابع سَرْد الأحكام، وذكر حكم المحيض من أحكام المضارِّ العامَّة؛ مراعياً لطف المسلك في سبق ذكر النكاح، فإنه ملائِم له، لاسيما إذا كان المشركون يبالغون منه في عزلة النساء كاليهود، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى[1] فَٱعْتَزِلُواْ

---

(١) قال بعض الأطباء ما مختصره: الأذىٰ في هذه الآية عام يشمل معنيين: الأول: الإيذاء والضرر. والثاني: القذر المهجوج. والوطء أثناء الحيض فيه هذان النوعان من الأذىٰ، لكلٍّ من المرأة والرجل، إذ يتسبَّب عنه في المرأة زيادة احتقان في جهاز التناسل وإرهاق عصبي، فضلاً عن أن رغبتها للمباشرة الجنسية تكون حينئذ معرضة خاملة، فتكره الرجل، وليس الأذىٰ الذي يلحق بالرجل من جراء هذا الوطء بأقل منه في المرأة، إذ قد يصاب بالتهاب صديدي في مجرىٰ البول، بانتقال بعض جراثيم الحيض إليه، فضْلاً عما قد يحدث له من الشعور العميق بالاشمئزاز الذي قد يسبِّب له عقدة نفسية تؤثِّر علىٰ قواه الجنسيَّة، أو كراهيةً لزوجته وإعراضاً عنها.
وقد روي أن اليهود والمجوس كانوا يبالغون في التباعد عن الحائض، والنصارىٰ يجامعونها ولا يبالون بالحيض، وإن أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجالسوها في بيت، أشد من فعل اليهود والمجوس، لهذا توجَّه بعض المسلمين بالسؤال من النبي ﷺ عمَّا يحل لهم وما يحرم عليهم في مخالطة الحائض، فنزلت الآية، وقصرت المنع علىٰ الوطء فقط، والاستمتاع فيما بين السرَّة والركبة. (المؤلف).

﴿ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ لأنه أذىٰ منهنَّ وعليهنّ ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ[1] فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أي: بالغُسْل أيضاً فوق طهارتهنَّ بانقطاع المحيض، ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ وهو مَوْضع النَّسل الذي كوَّن الله تعالىٰ الفطرة عليه، ثم أكَّد هذا المعنىٰ بمضمون قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾، فإنه يتضمَّن النهيَ عن غير ذلك بحكم مدلول المخالفة.

ثم قرَّر المعنىٰ بقوله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ فعقد المشابهة بين الاستيلاد والاستنبات، وهذا يتضمَّنُ النهيَ عن إتيانهنَّ في غير المأتىٰ الذي يتحقَّق به معنىٰ الحَرْث والاستيلاد، فوق ما تضمنَّه قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾. وقوله: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[2] ترخيصٌ بالكيفيَّة في الموضع المخصوص للحَرْث والاستيلاد. ولذلك أعاد لفظ «الحرث» مظهراً. ويؤيد هذا ترغيبه وترهيبه سبحانه وتعالىٰ بقوله: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾، فهذا إنذارٌ للَّذين يخالفون عن أمره، وتبشيرٌ للذين يقفون عند حدوده ويتَّبعون هَدْيَه، ولا أنفع للإنسان في مستقبله الأخروي من الولد الصالح.

---

(١) بيَّن رسول الله ﷺ نوع الاعتزال بأنه الامتناع عن الوطء فقط لا غير، فقد جاء عن عائشة رضِيَ الله عنها أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يأمرني فأتَّزر، فيباشرني وأنا حائض». متفق عليه [رواه البخاري (٣٠٢) ومسلم (٢٩٣)].

يريد ﷺ بهذا الفعل بيان خطأ اليهود ومعارضتهم، فإنهم كانوا يعتزلون الحائض اعتزالاً تاماً لا يؤاكلونهنَ ولا يشاربونهنّ، وربما لا يجلسون معهنّ حتىٰ يطهرن، فأراد ﷺ أن يبيِّن لنا المراد من الاعتزال في هذه الآية، وأنه لا يتجاوز حرمة الوطء فقط. (المؤلف).

(٢) يجوز أن تكون ﴿أَنَّىٰ﴾ هنا بمعنىٰ: متىٰ، فتكون ترخيصاً بالزمن المطلق، ما لم يكن هناك مانع شرعي كالحيض والصيام. (المؤلف).

أقول: وفي عطف ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ علىٰ قوله: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ بلاغةٌ عالية من بلاغات القرآن، إذ فيه إيماءٌ إلىٰ أنْ لا يجعلوا كلَّ همِّهم في هذهِ الملاذِّ، بل يهتمُّون بأمر أُخْراهم.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾.

وبعد أن نهىٰ عن أمرٍ متعلِّق بالطبيعة نهىٰ عن أمر متعلِّق بالاجتماع يضرُّ بالبر المطلوب، وهو اليمين التي تكون عُرْضَة دون عمل خير يقدَّم للنفس أو للغير، بأن يحلف أن لا يُحْسِن إلىٰ فقير مُعيَّن، أو أن لا يشارك في جمعية تقوم بعمل نوع من البر أو الإصلاح، إلىٰ أمثال ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾، والعُرْضة: لها معانٍ، أظهرُها هنا: أن تكون بمعنىٰ المانع المعترض دون شيء، أي: لا تجعلوا الحَلِفَ بالله تعالىٰ مانعاً بينكم وبين عمل من أعمال الخير، بأن تحلفوا علىٰ تركِكم ﴿أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، فهذا أمر مخالف للبر، فاللهُ سبحانه لا يرضىٰ أن يكون اسمه حجاباً دون الخير ومانعاً له، فكثيراً ما يُسْرع الإنسان إلىٰ الحَلِف بألا يفعل كذا وهو خير، وأن يفعل كذا وهو شر، فنهانا الله سبحانه عن ذلك، لأن فيه التباطؤ عن تقديم الخير، وفيه جَعْلُ القسم بالله مانعاً من هذا التقديم.

ثم ختم السياق بما يحمل علىٰ التمسُّك بما ذكر فيه، والانزجار عمَّا تضمنه هذا النهي، فقال: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ أي: لا تخفىٰ عليه من أمركم خافية. وعبَّر بالأيمان عن الخير المحلوف عليه بطريقة المجاز المرسل، كما قال عليه السلام في حكم هذا الآية: «إذا حلفت علىٰ يمين، فرأيت غيرها خيراً منها، فَأْتِ الذي هو خير، وكفِّر

عن يمينك»[١]، فقوله: «حلفت علىٰ يمين» فيه التعبير باليمين عن المحلوف عليه، وذلك من خصائص اللغة، (كما جاء في المادة التاسعة من المقدمة السادسة).

ويجوز أن يكون المعنىٰ: ولا تجعلوا لفظة الجلالة معرَّضة للحلف بها علىٰ ذلك، ولما كان بعض هذه الأيمان تجري علىٰ لسانهم بحكم العادة من دون قصد، ذكر حكم اللغو من الأيمان، تتميماً للبحث، فبيَّن تعالىٰ أنَّ اليمين لا ينعقد إلا إذا كان عن قَصْد وتصميم، فقال: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾[٢]، واليمين اللغو: هو الذي لا يُرادُ به التوثيق، وذلك ما يقع في الكلام حَشْواً غير مقصود، فلا يُؤَاخذكم الله تعالىٰ عليه بوجوب الكفارة، ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم﴾، أي: تلزمكم الكفارة ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، وذلك إذا نويتَ الحلف وقَصَدت اليمين.

ثم ذكر علَّة السماح بلغو اليمين، فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ أي: يُسامح بما لم تتقصد القلوب من مظاهر الذنوب.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾.

وتكميلاً للبحث عن أحكام الأيمان ذكر أيضاً حكم الإيلاء الذي كان في الجاهلية

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢)، عن عبد الرحمن بن سمرة.

(٢) اختلفوا فيما هو اللغو؛ فذهب مالك وأبو حنيفة إلىٰ أنها اليمين علىٰ الشيء يظنُّ الرجل أنه علىٰ يقين منه، فيخرج الشيء علىٰ خلاف ما حلف عليه. وهذا مرويٌّ عن الحسن وقتادة ومجاهد.
وقال الشافعي: لغو اليمين: ما لم تنعقد عليه النيَّة، مثل ما جَرَت به العادة من قول الرجل في أثناء المخاطبة: لا والله، بلىٰ والله. وهذا القول مرويٌّ عن عائشة رضِيَ الله عنها.
وقيل: هو الحلف علىٰ المعصية، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس رضِيَ الله عنهما. والله أعلم. (المؤلف).

ممَّا يجعل فيه اليمين عرضة للإحسان في عشرة النساء، متَّبعين خطوات الشيطان في ذلك؛ لأنه أمر مخالف للبر، فقال: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾، والإيلاء: هو أن يحلف الرجل لا يقرب زوجتَه. ويقع ذلك عند المغاضبة والغيظ، والحلفُ عليه حلفٌ علىٰ ما لا يرضىٰ الله تعالىٰ به؛ لـما فيه من ترك التوادِّ والتراحم وحُسْن العشرة الواجبة بين الزوجين، وما يترتَّب علىٰ ذلك من المفاسد في نفسيهما وفي عيالهما، ولذلك أنزل الله فيه هذا الحكم، وهو انـتظارُهم مدَّة أربعة أشهر لا أكثر، ﴿فَإِن فَآءُو﴾ أي: رجعوا إلىٰ نسائهم؛ بأن حنـثوا في اليمين وكفَّروا عنه، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾ أي: فيغفر لهم، لأنَّ الفيئة توبةٌ في حقِّهم.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «من حلف علىٰ يمين قطيعة رحم أو معصية، فبرُّه أن يحنث فيها ويرجع عن يمينه»[1].

﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ أي: فليراقبوه ولا يجعلوا ذلك إيذاءً ومُضَارَّة، بل يقيمون فيه حدود الله، ويجعلونه كما أمر الله.

وخلاصة الحكم: أن الـمُؤْلِي ينتظر مدَّة لا تزيد علىٰ أربعة أشهر، فإما أن يرجع عن إيلائه ويكفِّر عن يمينه، وإما أن يُطلِّق زوجته طلاقاً شرعياً بدون مضرَّة.

والإيلاءُ من عادات الجاهلية الأثيمة، فقد كان الرجلُ الكارهُ لامرأته لا يحب أن يتزوَّجها غيرُه، فيحلف أن لا يقربها أبداً، ويتركها؛ لا مزوَّجة ولا مطلَّقة، وكان المسلمون في ابتداء الإسلام يفعلون مثل هذا بحسب العادة، فأنزل الله سبحانه هذا الحكم، وأزال الضرر عنهنَّ، فضرب للزوج مدَّة يتروَّىٰ فيها؛ فإن رأىٰ المصلحة في ترك هذه المضارَّة، رجع وحنث في اليمين وكفَّر، وإن رأىٰ المصلحة في المفارقة فارقها،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٤: ٤٤٢).

والله سبحانه سميعٌ لأقوالهم عليمٌ بنيَّاتهم، فإن كانوا يريدون بذلك إيذاء النساء ومُضَارتهنَّ فهو يتولَّىٰ عِقابَهم، وإن كان لهم عذر شرعي ـ وهو التربية وإقامة حدود الله في ذلك الإيلاء، أو اليأس من إمكان العشرة في ذلك الطلاق ـ فإن الله غفور رحيم.

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾.

وبمناسبة ذكر الطلاق، ذكر حكم العدة، فقال: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾، والقُرْءُ: الانتقال من الطهر إلىٰ الحيض، لذلك عبَّر به قوم عن الطهر، وقوم عن الحيض. ومعنىٰ ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾: يَتَرَيَّثْن وينتظرن، ويكْفُفْن جماح أنفسهن. وفي الكلام من لطف الإشارة والنزاهة في العبارة ما لم يُعهَدْ مثلُه إلا في القرآن.

وأورد الحكم بلفظ الخبر لتأييده والاهتمام به؛ لأنَّ الذهن يتصوَّر أنهنَّ ممتثلات جاريات علىٰ ذلك، وهو من شؤونهن، وهذا من أساليب القرآن في مثل هذا المقام. والغرض من هذا التربُّص: العلمُ ببراءة الرَّحِم من الزوج السابق. والمراد من المطلَّقات هنا: مَنْ تحقَّق فيهنَّ معنىٰ الزوجيَّة، وهُنَّ غير الآيسات والصغيرات اللاتي ذكر حكمهنّ في سورة الطلاق.

ثم بيَّن حكمة هذا التربُّص والتَّريُّث عن الزواج مدَّة ثلاثة قروء في سياق حكم آخر عام، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وهي معرفةُ مرجع الولد، ومهلةُ التفاهم للتراجع وتلافي الندم، فقال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، وفي هذا التعبير تحذيرٌ شديدٌ، وتهديدٌ عظيمٌ عن الكتمان.

ثم أفرد الحكمة الثانية ضمن حكم آخر، وهي الرجعة، فقال: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في زمن التربُّص، وهي العدة. وصيغة التفضيل: إما لإفادة أنَّ الرجل إذا أراد الرجعة والمرأة تأباها، وجب إيثار قوله علىٰ قولها، وإما تمكينٌ للردع المستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾؛ لأنَّ ذلك الكتمان للتعجيل بالزواج من الأجنبي، وإلحاق جنينها به. فصيغة التفضيل للتنديد والتأنيب عن ذلك. والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾ خطابٌ وتكليفٌ عام للأمة، باعتبار تكافلها ومسؤوليتها عن الإصلاح، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. ويجوز أن يكون الضمير للبعولة، فيكون الكلام حينئذ قيداً للأحقيَّة. والمعنىٰ: هم أحقُّ بالرد إن لم يُمْسِكُوهنَّ ضراراً ليعتدوا. أما إذا أراد من المراجعة أن لا تتزوَّج بغيره، فلا حقَّ له. وقيل: إنه ليس بشرط للصحة، ولكنه حثٌّ علىٰ الإصلاح، وزَجْر عن قصد الضَّرر، أُخرِجَ مَخْرَجَ الشرط، للمبالغة في ذلك.

ففي هذه الآية حكمةٌ أخرىٰ للعدَّة، وهي إمكان المراجعة وتلافي الندم. وهذا لطفٌ كبير من الله سبحانه وتعالىٰ، وحرصٌ من الشارع علىٰ بقاء العصمة الأولىٰ، وعلىٰ مصلحة الزوجين والأولاد.

ولما كانت إرادة الإصلاح بردِّ المرأة إلىٰ العصمة إنما تؤتي ثمرتها إذا قام كلٌّ منهما بالحقوق الواجبة عليه، ذكر ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بحسب العُرْف والعادة، فأحال حقوق كلٍّ من الزوجين علىٰ الآخر إلىٰ العرف والعادة؛ لأنها تختلف باختلافها. وهذه كلمة جليلة جمعت ـ علىٰ إيجازها ـ ما لا يؤدَّىٰ بالتفصيل إلا في بحث طويل، فهي قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساويةٌ للرجل في جميع الحقوق إلا أمراً واحداً ذكره بقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[1]، وهي درجة الرياسة البيتيَّة المفسَّرة بقوله تعالىٰ في سورة النساء: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ...﴾ [النساء: ٣٤]، فارجع إليه.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ للترهيب والإيماء إلىٰ ما في هذه الأحكام السابقة من الحكم، وللحَمْل علىٰ التمسُّك بتلك الأحكام.

قال الأستاذ الإمام: وهذه المنزلة التي رفع النساء إليها لم يرفعهنَّ إليها دينٌ سابقٌ، ولا شريعة من الشرائع، بل لم تصل إليها أمة من الأمم قبل الإسلام[2].

---

(١) المرأة في الإسلام قسيمة الرجل، لها من الحقوق ما له، وعليها ما عليه، ولا فضل إلا أن يقوم الرجل بما له من قوَّة الجلد وبسطة اليد واتِّساع الحيلة فيلي رياستها، فهو بذلك وليها، يحيطها بقوته ويذود عنها بدمه، وينفق عليها من كسب يده. فأما فيما سوىٰ ذلك، فهما في السرَّاء والضرَّاء علىٰ سواء. (المؤلف).

(٢) تفسير «المنار» (٢: ٢٩٨).

ومن جملة تلك الحقوق: توزيع الأعمال بين الزوجين، فعلىٰ المرأة تدبير المنزل، وعلىٰ الرجل السَّعيُ والكسب. ولا ينافي ذلك استعانة كلٍّ منهما بالخدم والأُجراء إذا كانت هناك حاجة وضرورة.

وبعد أن ذكر الطلاق بصورة مُجملة في قوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ...﴾، فصَّله وجَعَل ذلك التفصيل كالبيان لأحقيَّة البعولة بالرد، فقال: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ أي: مرَّةً بعد مرَّةٍ، وفي كلِّ مرة تجربةٌ لفراق مُؤَقَّت مع بقاء الفرصة لإرجاع العلاقات الزوجيَّة.

ومن حكمة الإسلام وتمام ملاءمته للسنن الاجتماعية: عَدَمُ تحريم الطلاق بتاتاً؛ لأنه ليس شراً علىٰ الإطلاق، بل هناك ضرورات تقتضيه، وقد أمر سبحانه وتعالىٰ بإجراء التحكيم قبل الطلاق، قال تعالىٰ في سورة النساء: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ....﴾ [النساء: ٣٥]، وجاء في الحديث: «أبغض الحلال إلىٰ الله الطلاق»[1]، فدلَّ علىٰ أنَّ الطلاق لا يحسن إلا عند ضرورة تقتضيه لأنه هدم للعائلة.

ومن حكمة الله سبحانه وتعالىٰ: أن جعله مرَّةً بعد مرّة، ليكون للزوج وقتٌ كافٍ وفرصةٌ سانحة للتروِّي والرجوع وتلافي الندم، إن كان الأمر صادراً عن غضب، ولتكون فرصةً كافية للصلح والتفاهم بين الزوجين، إن كان سوء التفاهم هو الباعث علىٰ الطلاق.

وبعد تَيْنِكَ المرَّتين: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي: ليس لكم بعد

---

(١) رواه أبو داود (٢١٧٨)، وابن ماجه (٢٠١٨)، عن ابن عمر. وقال الحافظ في «فتح الباري» (٩: ٣٥٦): وأعل بالإرسال.

المرتين إلا أحد أمرين: إما إمساك بمعروف، أي: بحُسْن عشرة ولُطْف معاملة، أو تَسْريحٌ وفراقٌ بإحسان إليها واتِّقاء إهانتها والإساءة إليها. وذلك بصورة الطلاق السُّنِّي، وأن لا يذكرها بسوء بعد مفارقتها، ولا يُنفِّر الناس منها، وأن يؤدي لها حقوقها المالية: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾، ويدخل في ذلك المهر وغيره مما يعطيه الرجل امرأته علىٰ سبيل التمليك، فلا يحلُّ أن يأخذ منه شيئاً، بل يجب أن يمتِّعها بشيءٍ من ماله، وهو من الإحسان المقرَّر في الآية والمصرَّح به في قوله: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

ومحلُّ هذا الحكم: إذا كان الزوج هو الذي اختار فراق المرأة ورغب عنها، أما إذا كانت هي الراغبة عنه الطالبة لفراقه، وخيف أن تتوسَّل إليه بالنشوز وسوء العشرة، لكراهتها إيَّاه، أو لسوء خلقها، لا لمضارَّته لها، فلا جُناح عليهما حينئذ فيما يأخذه منها لإطلاق سراحها، إذ لا يكلف خسارة امرأته وماله بغير ذنب، وفي ذلك قال تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي: فيما تعطيه إيَّاه ليخلعها.

وقد جاء عن ابن عباس رضِيَ الله عنهما: «أن جميلة بنت عبد الله بن سلول امرأة ثابت بن قيس بن شماس، أتت النَّبيَّ ﷺ، فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعتبُ عليه في خُلُق ولا دين، ولكن لا أطيقه بُغْضاً، وأكره الكفر في الإسلام ـ تريد: كفر نعمة العشير وخيانته، وتعني بالخيانة: إضمار البغض ـ. قال ﷺ: «أَتَرُدِّين عليه حديقَتَه؟» ـ وكان أمْهَرَها إيَّاها ـ، قالت: نعم. قال: «اقبَلْ الحديقةَ وطلِّقها تطليقة»[1].

---

(١) رواه البخاري (٥٢٧٣).

وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «أيُّما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس، فحرام عليها رائحة الجنة»(١).

ثم ختم سبحانه وتعالىٰ الآية بوعيدِ مَنْ يخالف هذه الأحكام، فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه وتعالىٰ أنَّ الطلاق الرجعي مرتان، وأنه يكون بلا عوض، وقد يكون بعوض؛ بيَّن الطلاق البائنَّ والدرجة النهائية، وجعله تفصيلاً وتوضيحاً لقوله: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ فقال: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أي: فإن طلَّقها بعد المرتين طلقة ثالثة ـ وهي المراد بقوله: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ ـ فلا يملك مراجعتها بعد ذلك، إلا إذا تزوَّجت بآخر زواجاً صحيحاً عادياً، وذلك لأنَّ الطلاق الأول ربما جاء من غير رويَّة تامَّة، ولكن الطلاق الثاني لا يكون كذلك؛ لأنه لا يكون إلا بعد الندم والمراجعة، ويكون الاختيار بينهما قد تمَّ، فإنْ هو عاد وطلَّق ثالثة لم يبق هناك مجال للتردُّد بأنَّ وفاقهما غير ممكن، فعلىٰ كلٍّ منهما أن يبحث له عن قرين آخر. أما إذا نكحت زوجاً آخر وتبدَّلت عليها الأزواج والأحوال، فمن الممكن أن يتبدَّل الخُلُق، أو وجهة النظر بهذه الطوارئ.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾ أي: الزوج الأول والمرأة ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ التي أوجب سبحانه مراعاتها علىٰ الزوجين من الحقوق، لتبدُّل نظر كلٍّ واحد منهما في الآخر بعد هذا العارض.

---

(١) رواه أبو داود (٢٢٢٦)، والترمذي (١١٨٧) وقال: حديث حسن، وأحمد (٢٢٣٧٩)، عن ثوبان.

ثمَّ ختم الآية بالتنويه بشأن هذه الأحكام، فقال: ﴿وَتِلْكَ﴾ أي الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ وهذا التخصيص في البيان، للإيذان بعِظَمِ الحِكَم التي في هذه الأحكام، وأنه لا يعلمها إلا العالمون. وذلك فوق ما فيه من اسْتفزاز الشعور والحثِّ علىٰ التمسُّك بهذه الأحكام الجليلة، فلا يُهملها إلا الجاهل، إذ لا يعلم قيمتها وحكمها.

وعن ابن عباس رضِيَ الله عنهما قال: سئل رسول الله ﷺ عن المُحلِّل فقال: «لا، إلا نكاح رَغْبة، لا دلسة ولا استهزاء بكتاب الله عز وجل»(١).

وعن عمر رضِيَ الله عنه قال: «لا أُوتَىٰ بمُحلِّل ولا مُحلَّل له إلا رجمتهما»(٢).

أقول: وتسميته مُحلِّلاً تسميةٌ لغوية وعادية، لا شرعية. أو من مَجَاز الوصف علىٰ زعم الزاعم، وذلك من خصائص اللغة.

وربما يتبادر إلىٰ الذهن أنَّ التحليل علىٰ هذه الصورة قد وقع في صدر الإسلام، ولذلك جاء الكلام عنه، وهدَّد عمر رضِيَ الله عنه عليه، كلا، لم يقع ذلك، وإنما هو مما يتبادر إلىٰ الذهن، فمنعته الشريعة منعاً باتاً من أول الأمر، وردَّ ﷺ علىٰ هذا السائل الزاعم رداً عنيفاً، وقد ألمعت الشريعة أنَّ الطلاق لا يسوغ إلا بعد الاقتناع التام بأنَّ اجتماع هذين الزوجين أصبح ألماً لا يُطاق، وأنَّ انفصالهما خير لهما ولأطفالهما علىٰ ما به من مصائب وويلات، فهو شر يُدفع به ما هو أشر منه، علىٰ نهج الشريعة الإسلامية في اتِّباع أخف الضررين.

ثم بيَّن تعالىٰ الواجب في معاملة المطلقات، فقال: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي:

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١: ٢٢٦).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٧٣٦٣).

طلاقاً رجعياً ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ وهو انقضاء زمن العِدَّة، وفي الكلام تجوُّز بالفعل عن مقاربته ومشارفته، (كما جاء في المادة الرابعة من المقدمة السادسة). والمعنىٰ: إذا قاربن الأجل وإتمام العدة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: فاعْزموا أحد الأمرين: إمساك المرأة بالمراجعة، أو إطلاق سبيلها، ويكون رائدكم الإحسان في كليهما، كما مرَّ بيانه فيما سبق.

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ أي: ولا تُراجِعُوهنَّ لِتَضُرُّوهُنَّ بتجدُّد عدتهنَّ. وهذه الجملة تأييدٌ وتقريرٌ للإمساك بمعروف وتوضيحٌ لمعناه، وزَجْرٌ عما كانوا يتعاطونه من ذلك علىٰ عادتهم في الجاهلية. ثم توعَّد عليه، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي: بتعريضها لسَخط الله.

ثم قرن هذا التوعُّد بوعيد آخر عام، لمن يتعدَّىٰ حدود الله في الأحكام، فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾، ولا شكَّ أنَّ الذي يُخالف أمر الله وينقض هذه العهود بعد توثيقها، طلباً لشهوة من شهواته، أو استمساكاً بعادة من عاداته، فهو جدير بأن يعدَّ مستهزئاً بآيات الله، ومن ذلك مُعَاطاة التَّحليل، فقد جاء مَنْعُه والزَّجْر عنه كما تقدَّم، وفي هذا حثٌّ للمسلمين علىٰ احترام صلة الزوجيَّة، والبعد عما كانوا يفعلونه في الجاهلية، من اتِّخاذ هذه الصلة لعبةً بأيدي الشهوات.

وبعد التحذير من التهاون بحقوق النساء بالترهيب، قرَّرها في النفوس بطريقة الترغيب فيها، ببيان المنَّة في هداية الدين التي هي منها، علىٰ نهج القرآن في الترادف، (كما جاء في فقرات المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾.

قال الأستاذ الإمام: نعمةُ الله عليكم: هي إرسالُ هذا الرسول وبيانُ الحدود

والحقوق التي تحفظ لكم الهناء في الدنيا، وتضمن لكم السعادة في الآخرة، فما بعدها من قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم ...﴾، عطفُ تفصيل وتفسير لها. والحكمة: هي سرُّ الكتاب.

ثم قال: وفي النعمة وجه آخر، وهي هذه الرحمة التي جعلها الله بين الرجال والنساء، وامتنَّ بها علينا في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحۡمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وذهب بعضهم إلىٰ أنَّ النعمة هنا عامَّة، تشمل نِعَم الدنيا والدين[١].

ثم ختم الكلام بما يحمل علىٰ التمسُّك بهذه الأحكام، وأن تُفْعَل بصورة صحيحة سديدة، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٢٣١﴾ أي: فلا تخفىٰ عليه من أمركم خافية، ويُشرِّع لكم من الأحكام ما هو صالح لكم، بل أنتم في أشدِّ الحاجة إليه.

ثم ذكر حكم المرأة المطلَّقة بعد انقضاء العدة، فقال: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾، والمراد ببلوغ الأجل: هو انقضاء العدَّة؛ بمعناه الحقيقي، لا قُرْبُه كما في الآية السابقة. قال الإمام الشافعي رضِيَ الله عنه: دلَّ سياق الكلامين علىٰ افتراق البلوغين[٢]. أي: فيكون المعنىٰ هنا: فإذا انقضت عدتهنَّ، ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾ أي: المطلِّقين لهُنّ رجعياً، أو المستحدثين الذين يُرِدْنَ نكاحهم. والعَضْل: المنع. أي: لا تمنعوهنَّ من الرجوع إلىٰ أزواجهن، أو التزوُّج بغيرهم ﴿إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ شرعاً وعادة، بأن لا يكون هناك شيء يخلُّ بالمروءة والشرف.

ورجَّح الزمخشري في «الكشاف»[٣] أنَّ الخطاب للأُمَّة، واختاره الأستاذ الإمام

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٣١٧).

(٢) انظر «تفسير الرازي» (٦: ٤٥٥).

(٣) (١: ٣٠٦).

فيه وفي أمثاله من خطابات القرآن، لأنَّ الأُمَّة متكافلة في المصالح العامة، والحكمة في هذا الخطاب العام: أن يعلم المسلمون أنه يجب علىٰ مَنْ علم منهم بوقوع المنكر أن ينهىٰ عنه.

ثم أردفه بوعيد من يخالف ذلك، فقال: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، وهذه الآية حَثٌّ علىٰ التمسُّك بتلك الأحكام، وتتضمَّن أنَّ الإيمان الصحيح يقتضي الفعل بموجبه، وأنَّ من لم يعمل ويتَّعظ فليس بمؤمن.

والخطاب في ضمير الإشارة ـ وهو الكاف ـ إما للجمع، وهو سائغ في اللغة، فإنه يستعمل للمفرد والجمع، أو هو للجمع علىٰ تأويل كل واحد واحد، أو للرسول ﷺ مراداً به العموم، علىٰ طريقة خطاب الرئيس مع المرؤوسين، وهي من خصائص اللغة.

وقال البيضاوي: الخطاب للنبيِّ ﷺ للدِّلالة علىٰ أنَّ حقيقة المشار إليه أمرٌ لا يكاد يتصوَّره كل أحد[1].

وقد قيل: إنَّ الكاف المفردة يجوز أن تستعمل في كلِّ خطاب، مفرداً كان أو مثنىٰ أو جمعاً، وهي لغة بعض العرب الفصحاء.

ثم أكَّد الحث ببيان وجه الحكمة الذي هو كالتعليل، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾، لأنَّ عَضْل النساء والتضييق عليهنَّ مدعاةٌ لفساد الأخلاق وشقاء البيوت، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ دقائقَ الأحكام وبالغاتِ الحِكَم.

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ

---

(١) «تفسير البيضاوي» (١: ١٤٤).

بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾.

ثم انتقل إلىٰ أحكام الرضاعة لأنها من متمِّمات البحث، فقال: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ﴾ ومنها المطلقات ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ فبيَّنت الآية تمام المدَّة، ونصَّت علىٰ أنَّ التقدير تحقيقيّ لا تقريبيّ، وأشعرت بالرخصة بدونها، إذا لم يكن هناك حاجة لإتمام الرضاعة، كما سيأتي التصريح به بقوله: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا ...﴾.

ثم بيَّن نفقة الإرضاع، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ أي: الأب ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾، وفي اختيار التعبير بالوالدات والمولود له دون الأمهات والآباء؛ إشعارٌ بعلَّة الحكم، وبما تقتضيه الولادة من الاستحقاق والاستعطاف، وهي من أنواع بلاغة القرآن في لطف المأخذ ودقَّة الإشارة.

وقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ معناه: أنَّ هذا الرزق والكسوة نوعاً ومقداراً، إنما يكون بحسب العُرْف والعادة في أمثالهم، وقد علَّل ذلك بقوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾، والوسع: ما تتَّسع له القدرة ولا يستغرقها، بخلاف الطاقة فإنها آخر درجات القدرة.

ثم أكمل التَّعليل وتـمَّم الحكم بهذا التفصيل، فقال: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾، وكلمة ﴿تُضَآرَّ﴾ تـحتمل البناء للفاعل والبناء للمفعول، فيحرم أن يتأتَّىٰ من أحد الوالدين إضرار بالآخر بسبب الولد، فلا ينبغي أن تمتنع الأم من إرضاعه تعجيزاً للوالد بالتماس الظِّئر، أو تكلِّفَه من النفقة فوق وُسْعِه، إلىٰ أمثال ذلك. ولا ينبغي للأب أن يمنع الأم من إرضاع ولدها، وهي له أرأم وبه أرأف، أو

يُضيِّق عليها في النفقة مع الإرضاع، أو يمنعها من رؤيته بعد تمام الحضانة، إلىٰ أمثال تلك الأوضاع والأحوال، فكلُّ ذلك يشمله النهي.

ثم ذكر مَنْ يقوم مقام الأب في هذه الأحكام عند فَـقْدِه، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أي: عند فَقْد المولود له. وهذا القيد مفهوم من التعبير بالوارث؛ حسب بلاغة القرآن في تراكيبه وكلماته المختارة لدقَّة الإشارة ولطف الإلماع والتلميح.

ثم ذكر حكم الفطام، فقال: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: لهما أن يفطماه قبل هذه المدَّة أو بعدها إذا اتَّفق رأيهما علىٰ ذلك لمصلحةٍ اقْتَضته، وليس لأحدهما الاستبدادُ في ذلك دون الآخر.

وقال أبو مسلم: يحتمل الفِصالُ معنىٰ آخر، وهو إيقاعُ المفاصلة بين الأم والولد، بأن ترضىٰ بضمِّه إلىٰ أبيه يستأجر له ظئراً ترضعه، ويرضىٰ هو بذلك، لا يُضارَّ به أحدهما الآخر.

وبهذه المناسبة ذكر حكم الاسترضاع، فقال: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: ما أردتم إيتاءَه بالصُّورة المتعارفة. وقال قتادة[1] والزهريُّ: أي إذا سلَّمتم ما آتيتم من إرادة الاسترضاع بأن رضِيَ كلُّ واحد من الأبوين بذلك.

أقول: وهذا المعنىٰ علىٰ قراءة (أَتَيْتُم) بمعنىٰ: عملتم وفعلتم. أي: إذا تمَّ الاتفاق بينكم في الفصال أو الاسترضاع أو كليهما، وكان علىٰ صورة مرضيَّة متعارفة. أما علىٰ

---

(١) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي البصري (٦١ - ١١٨هـ) مفسِّر حافظ ضرير أكمه، قال عنه الإمام أحمد: قتادة أحفظ أهل البصرة. «سير أعلام النبلاء» (٥: ٢٦٩ - ٢٨٣)، و«الأعلام» للزركلي (٥: ١٨٩).

قراءة: ﴿ءَاتَيْتُم﴾ بمدِّ الهمزة، بمعنىٰ: وافقتم عليه، أو بمعنىٰ: أعطيتم. فقد قيل في معنىٰ الآية: إذا سلمتم ما أردتم إيتاءَه المراضعَ من الأجور، بحسب المتعارف المستحسن شرعاً وعادة، لأن المرضع إذا لم تُعامَل معاملةً حسنة لا تبرُّ بالطفل ولا تُعنىٰ بشؤونه.

ثم ختم الآية بما يبعث علىٰ التزام أحكامها، كما هو أسلوب القرآن، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ فما أشدَّ هذا التهديد والوعيد علىٰ ترك العناية بالأطفال، ومضارَّة كلٍّ من الوالدين بالآخر! فليعتبر بذلك المسلمون، ولا يتركوا تربيةَ الأولاد للمصادفة والاتفاق.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾.

وبمناسبة ذكر عِدَّةِ المطلَّقات، ذكر عدَّة الوفاة تتميماً للبحث، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾.

قد مرَّ الكلام علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾، عند قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ

﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فارجع إليه. والمراد بالأزواج هنا: الزوجات. وهذا الاستعمال فصيح، إذ يطلق الزوج علىٰ الرجل والمرأة، إشعاراً باتحادهما. والمعنىٰ: إنَّ عدَّة النساء اللاتي يموت أزواجهنّ، أربعة أشهر وعشر ليال، حداداً علىٰ أزواجهنَّ. وهذا الحداد الشرعيُّ المطلوب منهنَّ قاصرٌ علىٰ ترك الزينة والطيب وعدم الخروج من المنزل إلا لضرورة، وعدم التعرُّض بالأزواج والتعريض بالزواج.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: أتـممْنَ عدَّتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بحسب العُرْف والعادة مما كان محظوراً عليهنَّ في العدَّة من التَّزيُّن والتَّطيُّب والتَّعرُّض للخُطَّاب والخروج من المنزل.

وهذه المدَّة خاصَّة بحداد الزوجات علىٰ الأزواج، كما نصَّ عليه. وأما في غير الأزواج فلا يحلُّ هذا الحداد أكثر من ثلاثة أيام، كما جاء عن رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ لامرأة تؤمنُ بالله واليوم الآخر أن تُحِدَّ علىٰ ميِّت فوق ثلاث، إلا علىٰ زوج أربعة أشهر وعشراً»(١).

قال في «المنار»: وقد سُئل الأستاذ الإمام عن الحكمة في كون عدَّة الوفاة أربعةَ أشهر وعشراً، فأجاب: إنَّ مثل هذا ليس علينا أن نبحث عنه، وإنما نبحث عما يشير الكتاب إلىٰ حكمته إشارةً ما(٢).

ويقول البعض: إنَّ زيادة المدة هنا علىٰ مدة براءة الرحم، وفاءً لحقوق الزوجيَّة، وبراءةً للنفس من الكآبة والحزن، فوق براءة الرحم.

ثم ختم الآية بما يبعث علىٰ التزام أحكامها، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (١٢٨٠)، ومسلم (١٤٨٦)، عن أم حبيبة.

(٢) تفسير «المنار» (٢: ٣٣٢).

ثم ذكر ما يجوز عمله في مدَّة العِدّةِ من متعلّقات الخطبة وملابساتها، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾، والمراد بالنساء: المعتدَّات لوفاة أزواجهنَّ، إذ اللام للعهد. قالوا: ومثلهن المطلَّقات طلاقاً بائناً. وأما الرجعيَّات فلا يجوز التعريض لهنَّ، لأنهنَّ لم يخرجن عن عصمة بعولتهن بالمرة. والتعريض: إفهامُ المخاطب ما تريد بإشارة دقيقة، والإكنان في النفس: أن يضمره من دون ذكره.

ثم علَّل ذلك بقول: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ أي: في أنفسكم وخطرات قلوبكم، وليس ذلك مما تملك أيديكم.

ثم استدرك بقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾، قال ابن عباس: كأن يقول لها: إني أحبك، عاهديني أن لا تتزوَّجي غيري، ونحو هذا[1].

ثم أكَّد الاقتصار علىٰ التعريض بقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، قال الأستاذ الإمام [٢: ٣٣٨]: هو ما يُعهَدُ مثلُه بين الناس المهذبين بلا نكير. والفائدة منه: التمهيد وتنبيه الذهن حتىٰ إذا تمَّت العدَّة كانت المرأة عالمةً بالراغب والراغبين، فإذا سبق إلىٰ خطبتها المفضول، ردَّته إلىٰ أن يجيء الأفضل عندها.

ثم صرَّح بما فهم من سابق القول، فقال: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ أي: حتىٰ تنتهي مدَّة العدَّة التي فرضها القرآن وكتبها.

ثم قرن الأحكام بالموعظة علىٰ سُنَّة القرآن، فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾، وفي هذا من التحذير عما في نفس الخاطب ما فيه.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢: ٤٣٩).

ثم ختم السياق المليء بعبارات التحذير، ببيان أنَّ للإنسان مَخْرجاً بالتوبة إذا هو تَعَدَّىٰ شيئاً من الحدود، وأراد الرجوع إلىٰ الله تائباً راغباً، فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ لا يُعجِّل بالعقوبة، بل يُمهِل، ليُصلِحَ المجرمُ بحُسن العمل ما أفسده بما سبق من الزَّلل.

ثم عاد إلىٰ بيان أحكام المطلّقات، علىٰ نهج القرآن في التنقُّل والعودة، فاستثنىٰ من الأحكام السابقة في حقهنَّ المطلَّقاتِ اللاتي لم يُدخَل بهن، فقال: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي: لا يلزمكم شيء من العِدّةِ وعدم التعرض بالخطبة مما مرَّ بيانه، ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ بالدخول بهن.

ثم أضاف حكماً آخر، وهو عدم وجوب المهر في هذه الحالة ما لم يُذكَر، فقال: ﴿أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ وهي المهر، و﴿أَوْ﴾: إما بمعنىٰ «إلا» التي يُنصَبُ المضارع بعدها بـ«أن» مضمرة، أي: إلا أن تفرضوا، وإما بمعنىٰ الواو، أي: وما لم تسمّوا مهراً. ﴿وَ﴾ لكن ﴿مَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: أعطوهنَّ شيئاً يتمتَّعن به، ولتكن هذه المتعة علىٰ حسب حالكم في الثروة؛ ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ أي: علىٰ الغنيِّ بنسبة غناه، وعلىٰ الفقير بنسبة فقره. وأكَّد ذلك سبحانه بقوله: ﴿مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بحسب ما يتعارف به الناس بينهم علىٰ اختلاف أصنافهم وأحوالهم وشرفهم.

ثم بالغ في التأكيد، فقال: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾، فرمزت الآية إلىٰ أن ذلك إحسان في التعامل، وتطييبٌ لخاطر المطلَّقة، واعترافٌ بأنَّ هذا الطلاق لم يكن لأمر يوجب عليها الغضب والمقت. وقد جاء في سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

ثم ذكر حكم المفروض لها، فقال: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي: فالواجب عليكم إعطاؤهنَّ نصف المهر الذي سمَّيتموه وفرضْتُموه فيما بينكم، ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ بأن يَسمَحْنَ لكم به، فلا يأخذْن منكم، تَعفُّفاً ورفعة، ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ وهو الزوج بأن يسمح تكرُّماً، بالمهر كله، ولا يسترجع منها النصف.

ثم أيَّد هذا ورغَّب فيه بقوله: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، وهذا تذكيرٌ بما تقتضيه الإنسانيَّة، وهو أن لا تَتنكَّر العائلتان فيما بينها من جراء هذا الطلاق.

ثم ختم الآية بما يبعث على التزام أحكامها والتحذير من المخالفة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ أي: فلا تخفى عليه من أمركم خافية.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

ولما كان من خصائص القرآن وأساليبه التذكيرُ والإرشادُ بعد تقرير الأحكام أو في تضاعيفها، حَمْلاً على التَّمسُّك بها، (كما جاء في فقرات المادة الخامسة من المقدمة الثانية)، وكانت الصلاة أكبر مذكِّر بعظَمَة الله، ومَنْ حافظ عليها بصورتها الصحيحة، فهو جديرٌ بالوقوف عند حدود الله والعمل بشريعته، وكان من نهج القرآن أن يذكِّر بها مجرَّدةً أو مقرونةً بحكم جديد، كلما سنحت الفرصة بالتذكير بها، (كما جاء في الفقرة (ج) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، جاء بعد بيان الأحكام السابقة قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ وذلك من أعظم البر. أي: صَلُّوا لله خاشعين، إذ القيام بمعنى الصلاة، من إرادة الكل بالجزء، ومنه

قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨]، أي: لا تُصَلِّ فيه، وقوله ﷺ: «مَنْ قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه»(١).

وللعلماء في الصلاة الوسطىٰ أقوال، أصحُّها أنها صلاة العصر؛ لحديث علي رضِيَ الله عنه: «شَغَلُونا عن الصَّلاة الوسطىٰ، صلاةِ العصر»(٢).

وقال الأستاذ الإمام: يتبادر إلىٰ فهمي أنَّ المراد بالصلاة الوسطىٰ(٣): الصلاة الفُضْلىٰ، وهي التي يحضر فيها القلبُ وتَتَوجَّه بها النفسُ إلىٰ الله، ويقوِّي هذا قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾، فهو بيانٌ لمعنىٰ الفَضْل في الفُضْلىٰ وتأكيدٌ له، إذ قالوا: إنَّ في القنوت معنىٰ المداومة علىٰ الضراعة والخشوع(٤).

وقال سعيد بن المسيب: المرادُ بالقنوت هنا المعروفُ في صلاة الصبح(٥). وهو ـ إن صحَّ ـ يُرجِّح أنها الصلاة الوسطىٰ.

وقيل: ليس المراد من الوسطىٰ صلاةً بعينها، ولكن المراد بها كل صلاة تتوسَّط أحوال الشخص الشاغلة ومهماته، ولذلك جاء في السنة بيانُها بكلِّ واحدة من الصلوات الخمس، علىٰ حسب حال المخاطَب في نوع أشغاله عندما يسأل عنها ﷺ.

ثم أكَّد وجوب المحافظة علىٰ الصلاة، بما فيه إشعارٌ بأنها لا يجوز إهمالها في أية

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٥٩)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٢٩٣١)، ومسلم (٦٢٧).

(٣) في تفسير «المنار»: «الفعل» بدل «الوسطىٰ».

(٤) تفسير «المنار» (٢: ٣٤٧).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٧: ١٢٩). وسعيد بن المسيب هو المخزومي القرشي، أبو محمد بن أبي وهب بن عمرو (١٣ - ٩٤هـ)، الإمام العَلَم، عالم أهل المدينة، وسيد التابعين في زمانه. «سير أعلام النبلاء» (٤: ٢١٧).

حالة من أحوال الإنسان، فقال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾، قال الأستاذ الإمام: هذا تأكيدٌ للمحافظة، وبيانُ أنَّ الصلاة لا تسقط بحال، والسبب في ذلك أنها عملٌ قلبيٌّ[1] لا يمكن الاستغناء عنها في تَغْذية الإيمان بالله، كي لا يغفل عن ذكره. إذ لا ريب أنَّ هذه الهيئة التي اختارها الله تعالىٰ للصلاة هي أفضل مُعين علىٰ استحضار سلطانه وتذكُّر كرمه وإحسانه. فإنَّ قولك: (الله أكبر) في فاتحة الصلاة، وعند الانتقال فيها من عمل إلىٰ عمل، يعطيك من الشعور بكون الله أكبَرَ وأعظَمَ من كلِّ شيء تشغل به نفسك، وتُوجِّه إليه همَّك، ما يَغْمر روحك ويستولي علىٰ قلبك وإرادتك.

وفي قراءة الفاتحة من الثناء علىٰ الله تعالىٰ، وتذكُّرِ رحمته وربوبيَّته، ومعاهدته علىٰ اختصاصك إيَّاه بالعبادة والاستعانة، ودعائه لأن يهديَكَ صراطَه الذي استقام عليه مَنْ سَبَقت لهم منه النعمة من عباده الصالحين ما فيها.

وكلُّ ما تقرأ من القرآن بعد الفاتحة، له في النفس آثارٌ محمودة تختلف باختلاف مَا في القرآن من المعارف العالية والحِكَم البالغة والعبر العظيمة والهداية القويمة.

وانحناؤك للركوع والسجود بعد ذلك يُقوِّي في النفس معنىٰ العبوديَّة، وتَذَكُّرَ عظمة الألوهيّة، ونِعَم الربوبيَّة، لما في هذين العملين من علامة الخضوع والخروج عن المألوف. وكذلك ما شُرع فيها من تسبيح الله وتذكُّر عظمته.

وإذا تعذَّر عليك الإتيان ببعض تلك الأعمال البدنيَّة، فإن ذلك لا يسقط عنك هذه العبادة القلبيَّة التي هي روح الصَّلاة، مع الإشارة إلىٰ تلك الأعمال البدنية بقدر الإمكان الذي لا يَمنَعُ منه مدافعةُ الخوف الطارئ.

---

(١) أي: بَدَني قلبي، إلا أن الصورة البدنية فيها يمكن أن تنتقل من حال إلىٰ أخرىٰ، أما الصورة القلبية فلا يُتَصوَّرُ سقوطها، كما سيأتي بيانُه في كلامه.

فالآية تعلِّمنا أنه يجب أن لا يُذْهِلنا عن الله تعالىٰ شيءٌ من الأشياء، ولا يَشْغلَنا عنه شاغلٌ، ولا خوفٌ في حال من الأحوال، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾، أي: فصَلُّوا مشاةً أو راكبين، كيفما اتَّفق، لا يمنعكم من أداء ذلك ملاحمة القتال، ولا مقاومة العدو، ولا دفع الصائل، ولا الفرار من الأسد. ويأتي هذا الخائف من أقوال الصلاة بما يأتي، ويومئ بالركوع والسجود بقدر الاستطاعة، ولا يلتزم التوجُّه إلىٰ القبلة. وقاسَ الفقهاء علىٰ ذلك أحوال المرض وتناولوا في الإيماء إلىٰ حدِّ العين. وهذا حكمُ صلاة الخوف في غير ساحة القتال، وأما صلاة الخوف بإزاء العدو، فهي مذكورة في سورة النساء.

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ أي: إذا زال خوفكم واطْمأنتم فأتمُّوا الصلاة كما تعلمون ممَّا علَّمكم الله. وإنما عبَّر عن الصلاة بالذكر؛ لأنه معظمُ أركانها، ولأنها تذكرةٌ بالله لمن ينسىٰ، وتزكيةٌ لمن يخشىٰ. وفي التعبير عن أدائها علىٰ الوجه المعروف، بقوله: ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾؛ تعريضٌ بفَضْلِه فيهم، وتمنُّنٌ عليهم بهذا التعليم والتوجيه الذي فيه سعادتهم.

وهذه الجملة جاءت علىٰ سُنَّة القرآن في مَزْج المعاني بما يذكِّر بفضل الله علىٰ الناس، وهذا من أعظم الصور في السبك والنظم في أساليب القرآن. من «المنار» بتصرف[1].

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ

(١) تفسير «المنار» (٢: ٣٥١- ٣٥٢).

وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ بيان بقية الأحكام الزوجيَّة، علىٰ نهج القرآن في التنقُّل في المواضيع، والعودة فيها، (كما جاء في فقرات المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية). فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ فَلْيُوصوا ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ فإنَّ ذلك من البر. أي: علىٰ الزوج أن يُوصي أولياءَه لا يُخْرجون زوجته من منزله إلىٰ نهاية الحَوْل، وأن تُمتَّع بما تحتاجه، وعلىٰ الأولياء أن يُنفِّذوا ذلك.

قال في «المنار»: والسبب في هذا: ما عُلم من عادة العرب في إلزام المرأة بيتَ زوجها المتوفىٰ سنة كاملة، فلمَّا جعل الإسلام عدَّتها أربعة أشهر وعشراً، كان من مُقْتضاه أن يُخْرجها الورثة من البيت بعد مضيِّ العدة، فإذا كانت غير راغبة في الزواج يشقُّ عليها خروجها من بيتٍ كانت علاقتها به قوية جداً. فكان علىٰ الزوج الوفِّي أن يُوصي بعدم إخراجها من هذا البيت، إلىٰ مدة سنة كاملة، تقضي فيها حُزنها وتَسْلىٰ[1] فيه زوجها، وأن لا تُكلَّفَ النفقةَ علىٰ نفسها ما دامت في هذا البيت، جَبْراً لقلبها[2]. أما إذا اختارت الخروج من نفسها فلا جناح علىٰ أولياء الميت فيما تفعله في نفسها مما هو معروف شرعاً وعادة، من التعرُّض للخطَّاب بعد العدة، بمعنىٰ أنهنَّ يُخيَّرن بين المقام والخروج، فإن أقمن فليس للورثة مَنْعُهنَّ من ذلك، وإنْ خَرَجْن فليس عليهنَّ المنع، كما هو مفاد الآية الآتية.

ولا تعارض بين هذه الآية وما سبق في آية العدَّة؛ لأن تلك لبيان واجبٍ من

---

(١) يقال: سلوت إذا نسيتُ ذِكْرَه «لسان العرب» (سلا).

(٢) تفسير «المنار» (٢: ٣٥٦).

واجباتها، وهذه لبيان حقٍّ من حقوقها، فلها أن تَتَمتَّع ببيت زوجها إلىٰ آخر الحَوْل إن أرادت. وإنْ أرادت أن تَتَزوَّج بعد انقضاء عدَّتها وتخرج من بيت زوجها المتوفَّىٰ، فلها ذلك.

وذهب بعض الصحابة والتابعين إلىٰ أنَّ الأمر بهذه الوصيَّة كان للندب، وتهاون الناس به كما تهاونوا في كثير من المندوبات، كاستئذان الأولاد الذين لم يبلغوا الحُلُمَ عند دخول بيوتهم في الأوقات الثلاثة التي هي مظنَّة التهاون بالسَّتْر؛ قبل صلاة الفجر، وحين وضع الثياب من الظهيرة في أيام الحرِّ، ومن بعد صلاة العشاء.

واختار الأستاذ الإمام أنَّ الوصيَّة من الله، وهي للندب لا للوجوب. والتقدير: والذين يُتَوفَّونَ منكم ويذرون أزواجاً، فالزموا وصيَّةً من الله لأزواجهم: أن يُمَتَّعنَ متاعاً، ولا يَخْرُجْنَ من بيوت أزواجهنَّ إلىٰ تمام الحَوْل، فإن خَرَجْنَ من تلقاء أنفسهنَّ فلا جناح عليكم ـ أيها الأولياء ـ فيما فعلن في أنفسهنَّ من المعروف الذي لا يخلُّ بالشرف شرعاً وعادة، كالتعرُّض للخطَّاب بعد العدَّة، والتزوُّج، إذ لا ولاية لكم عليهنَّ، فلا يُمنَعْنَ إلا من الـمُنْكَر الذي يمنع منه العُرْفُ شرعاً أو عادة.

واختار أبو مسلم أنَّ معنىٰ الآية: والذين يُتَـوفَّونَ منكم ويَذَرون أزواجاً، وقد أوصَوْا وصيَّة لأزواجهم بنفقة الحول وسُكنىٰ الحَوْل، فإنْ خَرَجن قبل ذلك وخالفْنَ وصيَّة الزوج بعد أن يُقِمْنَ المدَّة التي ضربها الله لهنَّ، فلا حرج فيما فعلنَ في أنفسهن من معروف، أي: نكاح صحيح؛ لأن إقامتهنَّ بهذه الوصية غير لازمة.

قال: والسبب أنهم كانوا في الجاهلية يوصون بالنفقة والسكنىٰ حَوْلاً كاملاً، وكان يجب علىٰ المرأة الاعتداد بالحول. فبيَّن الله تعالىٰ في هذه الآية أنَّ ذلك الاعتداد غير واجب.

نقل عنه هذا الإمام الرازي في «تفسيره» وارتضاه، وبيَّن وجوه الرِّضا فيه. ثم قال: وإذا عرفت هذا فنقول: هذه الآية من أولها إلىٰ آخرها تكون جملة واحدة شرطيَّة، الشرط فيها: هو مضمون قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً[1] لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾، والجزاء: هو قوله: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾. فهذا تقدير أبي مسلم، وهو في غاية الصحَّة[2]. انتهىٰ.

وذهب جمهور المفسِّرين إلىٰ أنَّ هذا الحكم كان في أول الإسلام، فكانت عدَّةُ الوفاة سنةً كاملة مُجاراةً لعادات العرب، ولكن مع تخيير المرأة في الاعتداد في بيت الميت، فإن اعتدَّت فيه وجَبَت نفقتها من تَرِكَتِهِ، وحَرُمَ علىٰ الورثة إخراجُها، وإن خرجت هي سَقَطَ حقُّها في النفقة. وقالوا: إنه لم يكن يومئذ للمرأة من ميراث زوجها إلا هذا المتاع والنفقة، ثم نُسِخَت هذه الآيةُ بجَعْل العدَّة أربعةَ أشهر وعشراً، وذلك بالآية السابقة المتقدِّمة عليها بالذكر والمتأخِّرة عنها بالنزول. فيكون الإصلاح لتلك العادة في الاعتداد لوفاة الزوج وما يتبعه من الحِدَاد عليه قد حصل بالتدريج، شبه تحريم الخمر. فأُقرَّت مدَّة العدة أولاً، ولكن مُنع أن تكون بتلك الحالة الرديئة المتَّبعة في الجاهلية، ثم نُسخت المدَّة بما تقدَّم.

وقد نقل الرازي عن مجاهد رأياً آخر وارتضاه، وهو: أنه في عدَّة المتوفىٰ عنها زوجها آيتان: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ

---

(١) أقول: وعلىٰ هذا يكون قوله: ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ بدلاً من ﴿أَزْوَٰجًا﴾ بدل اشتمال. أو يكون ﴿وَصِيَّةً﴾ مصدراً نائباً عن فعله، والجملة صفة لـ﴿أَزْوَٰجًا﴾. أي: أزواجاً موصىٰ لهنَّ بهذه الوصية. (المؤلف).

(٢) «تفسير الرازي» (٦: ٤٩٣).

﴿أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وهذه الآية. فيجب حَمْلُ الآيتين علىٰ حالتين، فإن اختارت الإقامة في دار زوجها المتوفَّىٰ والنفقة من ماله فعدَّتها سنة، وإلا فعدَّتها أربعةُ أشهر وعشرٌ، فيكون للعدَّة علىٰ قوله أجلٌ محتَّم وهو الأقل، وأجلٌ مخيَّر فيه وهو الأكثر[١].

قال في «المنار»: أقول: إنَّ قول مجاهد هذا بعيد جداً، وإن فضَّله الرازي علىٰ قول الجمهور[٢].

ثم قال في «المنار»: وقد خَتَم سبحانه وتعالىٰ الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾ للتذكير بأنَّ لله العزَّة والغَلَبة فيما يُريد من تحويل الأمم عن عادات ضارَّة إلىٰ سنن نافعة تَقْتَضِيها الحكمة، كتحويل العرب عن عاداتهم في العدَّة والحداد، بجَعْل المرأة أسيرةً ذليلةً مقهورةً مدَّةَ سنة كاملة، إلىٰ ما هو خيرٌ من ذلك، وهو إكرامُها ما دامت في بيت زوجها بين أهله، وعَدَمُ الحَجْر علىٰ حريتها إذا أرادت الخروج منه ما دامت في حظيرة الشرع وآداب الأمة المعروفة. فهذه الحكمة البالغة توافق مصلحة الأفراد والجماعات في كلِّ زمان ومكان[٣].

ثم قال تعالىٰ بعدما تقدَّم: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ فذكر هذا الحكم العامَّ الذي يشمل ما تقدَّم وغيرَه، يُبيِّن فيه أنَّ المتعة مشروعةٌ لكلِّ مطلَّقة. وروي هذا عن بعض الصحابة والتابعين، وبعض الأئمة، وهو الصحيح.

ثم ختم الكلام عن هذه الأحكام بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ حثاً علىٰ التمسُّك بتلك الأحكام المبيَّنة، وتنبيهاً لموضع الحكم

---

(١) «تفسير الرازي» (٦: ٤٩٢)

(٢) تفسير «المنار» (٢: ٣٥٦).

(٣) المصدر السابق (٢: ٣٥٧).

فيها، وتحذيراً عن المخالفة. والمعنىٰ: إن الله سبحانه يبيِّن لعباده أحكام دينهم علىٰ هذا النَّحو من البيان الذي تُقْرَنُ فيه الأحكام بعللها وأسبابها وبيانِ فوائدها، ليكونوا علىٰ بصيرةٍ من دينهم، عالمينَ بانطباق أحكامه علىٰ مصالحهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾.

ثم عاد بالكلام إلىٰ مبحث القتال، علىٰ طريقة القرآن في العَوْد إلىٰ المباحث المهمة، المرَّة بعد الأخرىٰ لتقريرها في النفوس، مُردفاً السياق بالقصَّة الآتية، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأحكام والمواعظ بالقصص، للاستشهاد علىٰ هلاك المخالفين لأحكام الله وسننه، ولا سيما الدفاع وحفظ الكيان.

وقد تضمَّنت هذه القصة بيان أن الله سبحانه حكيم في أحكامه وأعماله، فكلُّ أحكامه وسُننه موافقةٌ للحكمة والمصالح العامة[1]، وأنَّ من أعرض عنها هوىٰ وتردَّىٰ، فإن عاد وتمسَّك بها استقام واهتدىٰ إلىٰ صراط مستقيم. وقد خصَّ بالذكر أمر الدفاع، من بين سائر الأحكام المتقدِّمة، وأنَّ الإعراض عنه يؤدِّي إلىٰ تَلَف الأمة، ليدعم ما سبق من الأمر بقتال المعارضين وقمْع شرِّهم، ويحذر من التهاون والجبن في ذلك، فقال تعالىٰ مُستشهداً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾، وكلمة: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إذا خُوطب بها مَنْ لم ير ما تتعلَّق به لتعريفه به، (كما جاء ذلك مُفَصَّلاً في الفقرة (ج) من المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية).

---

(١) تقدَّم التعليق علىٰ مثل هذه العبارة ص٣٣٧.

ففي هذه القصة عَوْدٌ إلىٰ الترغيب بالقتال في سبيل الله، دفاعاً عن حرَّية الأمة، وحفظاً لكيانها، ودواماً لاستقلالها، وذلك علىٰ نهج القرآن في العود إلىٰ المباحث المرة بعد المرة، (كما جاء في الفقرة (و) من المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية)، لأنَّ ذلك أوقع في الهداية والإرشاد، وتمكينها في النفوس.

ويجوز أن يكون الكلام انتقالاً من تلك الأحكام المسرودة السابقة، إلىٰ حكم القتال في سبيل الله، متابعةً لسَرْد الأحكام التي هي من البرِّ واستباق الخيرات، ولكنه قدَّم عليه بيان حكمة القتال بأسلوب قصصي، زيادةً في التبصرة والاتعاظ.

قال الأستاذ الإمام: أطلق القرآن القول في هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم ولم يُعيِّن عدَدَهم ولا أمتَهم ولا بلدَهم، ولو علم لنا في التعيين والتفصيل فائدة، لتفضَّل علينا بذلك في كتابه المبين. فلا نُدخِلُ فيه شيئاً من الروايات الإسرائيلية التي ذكروها، وهي صارفةٌ عن العبرة، لا مزيد كمالٍ فيها.

والمتبَادَر من السياق: أنَّ أولئك القوم قد خرجوا من ديارهم بسائق الخوف من عدوٍّ مهاجِمٍ لا من قلَّتهم، فقد كانوا ألوفاً، أي: كثيرين، وإنما هو الحذر من الموت الذي يُولِّده الجُبْنُ في أنفس الجبناء، فيريهم أنَّ الفرار من القتال هو الواقي من الموت، وما هو في الحقيقة إلا سبب الموت، لأنه يمكِّن العدوَّ من الرقاب[1]. ويُحفِّزه إلىٰ الفتك بهم، استهانةً بأمرهم.

وقد خرجوا فارّين من الموت، ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ أي: أماتهم بإمكان العدوِّ منهم[2]. وإطلاقُ القولِ علىٰ الفعل من خصائص اللغة وأساليب القرآن، فالأمر أمر

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٣٦٢).

(٢) إن هـؤلاء ماتوا موتاً حقيقياً، ثم أحياهم الله، وأكثرُ كلام المفسِّرين علىٰ أنهم خرجوا فراراً =

التكوين، أي: قضت سنَّته في خلقه بأن يموتوا بما أتوه من سبب الموت، وهو تمكينُ العدوِّ المحارب من أقفائهم بالفرار، ففتك بهم، وقتل أكثرَهم، وأفنىٰ قوتهم، وأزال

---

= من الأمراض، وقيل: من العدو. ولم نرَ مَن ذكرَ تمكُّن العدو منهم وهم أحياء، وأنهم استقلوا بعد ذلك، ولا يسوغُ تأويل الآية بذلك لمخالفته لتفسير السلف ولظاهر النص، فقد ذكر أهل العلم أنه لا يُعدَلُ عن الظاهر إلىٰ المؤوَّل إلا بدليل يجعلُه أقوىٰ من الظاهر الذي يتبادر إلىٰ الذهن.

قال وكيعُ بنُ الجرّاح في «تفسيره»: حدثنا سفيان، عن ميسرة بن حبيب النهدي، عن المنهال بن عمرو الأسدي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢٤٣] قال: كانوا أربعة آلاف، خرجوا فرارا من الطاعون، قالوا: نأتي أرضاً ليس بها موت، حتىٰ إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم: ﴿مُوتُواْ﴾ فماتوا، فمرَّ عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربهم أن يحييهم، فأحياهم، فذلك قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾، الآية.

ذكرَه ابنُ كثير في «تفسيره»، وسندُه حَسَن. ولم يذكر ابن كثير خلافاً في هذا لابن جريج ولا لغيره.

وفي «زاد المسير» لابن الجوزي (١: ٢١٩): وفي معنىٰ حذرهم من الموت قولان: أحدهما: أنهم فرُّوا من الطاعون، وكان قد نزل بهم. قاله الحسن والسُّدِّي. والثاني: أنهم أمروا بالجهاد ففرُّوا منه. قاله عكرمة والضحاك. وعن ابن عباس كالقولين.

وفي «تفسير البغوي» (١: ٣٢٨): قال أكثر أهل التفسير: كانت قرية يقال لها: داوَرْدان، قِبَلَ واسط، بها وقع الطاعون، فخرجت طائفة منها وبقيت طائفة، فهلك أكثر من بقي في القرية وسلم الذين خرجوا، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين، فقال الذين بقوا: أصحابنا كانوا أحزم منا، لو صنعنا كما صنعوا لبقينا، ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن إلىٰ أرض لا وباء بها، فوقع الطاعون من قابل فهرب عامة أهلها، وخرجوا حتىٰ نزلوا وادياً أفيح، فلما نزلوا المكان الذي يبتغون فيه النجاة ناداهم مَلَكٌ من أسفل الوادي وآخرُ مِن أعلاه: أنْ موتوا، فماتوا جميعا. انتهىٰ.

استقلالهم، وفرَّق شملهم، وذهبت جامعتُهم، حتىٰ صاروا لا يعدّون أمة؛ لأنَّ مَنْ بقي منهم خضعوا للغالبين واندمجوا فيهم.

﴿ثُمَّ﴾ بعد مرور الأزمان عليهم وانتباههم لما هم فيه من الذلة والهوان، وتشبُّثِهم بإنقاذ أنفسهم من ذلك، ﴿أَحْيَيْنَٰهُم﴾ ومعنىٰ حياتهم: عَوْد الاستقلال إليهم[1]. وذلك من رحمة الله تعالىٰ في البلاء، يُصيب الناس فيكون تأديباً لهم، ومُطَهِّراً لنفوسهم مما عرض لهم من دنس الأخلاق الذميمة.

أشعر الله سبحانه أولئك القوم بسُوء عاقبة الجُبْن والخَوف والفشل والتَّخاذل بما أذاقهم من مرارتها، فجمعوا كلمتهم ووثَّقوا رابطتهم حتىٰ عادت لهم وحدتُهم قويَّة، فاعتزُّوا وكَثُروا إلىٰ أن خرجوا من ذلِّ العبوديَّة التي كانوا فيها إلىٰ عزِّ الاستقلال. فهذا معنىٰ حياة الأمم وموتها، فالموتُ والإحياءُ واقعان علىٰ القوم في مجموعهم لا في جميعهم، علىٰ ما عهدنا في أسلوب القرآن. وإطلاق الحياة علىٰ الحالة الشريفة، والموت علىٰ مقابلها، معهود في القرآن أيضاً، كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ثم قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في وَضْع تلك السنن والأحكام التي منها أن جَعَل المصائب والعظائم مُحْيِيةً للهمم والعزائم. تَفسُدُ الأخلاقُ في الأمم، فتسوء الأعمال، فيسلِّط الله علىٰ فاسدي الأخلاق النكباتِ، ليتأدَّب الباقي منهم، فيجتهدوا في إزالة الفساد وإدالةِ[2] الصلاح، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾

---

(١) هذا تأويل متعسف، والصواب إبقاء الآية علىٰ معناها الظاهر، إذ لا مانع منه، ولا دليل علىٰ خلافه.

(٢) الإدالةُ: الغَلَبَةُ. «لسان العرب» (دول).

لجهلهم بحِكَم ربِّهم في أعمـاله وأحكامه، فلا يشكرون تلك الأعمال، ولا يقدِّرون تلك الأحكام.

فلا تكونوا كذلك أيها المؤمنون، بل تمسَّكوا بأحكام الله، لأنها حكيمة، واعتبروا بما نزل عليكم، وتأدَّبوا به، واعلموا أنَّ الجبن عن مدافعة الأعداء هو الموت المحفوف بالخِزْي والعار، والذل في الديار، والمؤدِّي إلىٰ عذاب النار. فلا تقصِّروا في حماية جامعتكم في الـمِلَّة والدِّين، ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيـمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ لا يخادَع ولا يخفىٰ عليه ضمير، فلا ينفعكم ما تعتذرون به عن أنفسكم في التقصير. من «المنار» بتصرف[1].

ثم قال: ولا يشتـرط أن تكون القصة في مثل هذا التعبير واقعة[2]، بل يصحُّ مثله في القصص التمثيليَّة، إذ يُراد: أنَّ من شأن مِثلِها في وضوحه أن يكون معلوماً حتىٰ كأنه مرئيٌّ بالعين. وتكون هذه القصة التمثيليَّـة إنما سيقت لبيان حِكْمة الحُكم الذي أُخِّر عنها، وهو قوله: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيكون الانتقال في السياق من تلك الأحكام المسرودة مع بيان حكمتها والتنبيه لفائدتها، إلىٰ حكم آخر سبقته حكمتهُ مبينةً بأسلوب قصصي، زيادةً في التعبير ومبالغةً في الحَمْل علىٰ الاعتبار، كمـا تقدَّم بيانه.

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٣٦٢- ٣٦٥).

(٢) بل يُشتَرط هذا، وكلام الله يُنزَّهُ عن تمثيل يُعبَّر عنه بما يُشعِرُ سامعَه أنه واقع، وليس بواقع، والتمثيل فيه له أساليبه الواضحة التي تُميِّزه عن القصص.

ومن المُقرَّر عند أهل العلم أن الأصل حَمْلُ القرآن علىٰ الحقيقة، ما لم يترجح المجاز بشهرة، أو غيرها، وبناء عليه فلا يحمل اللفظ القرآني علىٰ التمثيل والرمز إلا بدليل قرينة تصرفه إلىٰ المجاز، ولا قرينة هنا تصرف الكلام عن ظاهره.

ويرىٰ جمع من المفسِّرين منهم ابنُ كثير بسنده عن ابن جريج وعطاء: أنَّ هذا مَثَل لا قصةٌ واقعةٌ[١]، ضُرِبَ للعظة والتأمُّل فيما ينطوي عليه؛ ليكون أفعل في النفس وأدعىٰ إلىٰ الزَّجْر. والمراد منه: أنَّ سُنَّة الله في خلقه جَرَت بأن تموت الأمم باحتمالها الظلم وقبولها الجوْر والعَسْف[٢]، حتىٰ إذا فاقت من سباتها، وتنبَّهت من غفلتها، قام بعض أفرادها بتدارك ما فات والاستعداد لما يُرقِّي شأنَها، وتبذل في ذلك كلَّ مرتخص وغال، وتتلمَّس كل الوسائل التي تُحقق لها ما تصبو إليه، ولا يصدُّها عن ذلك ما يَحُول دونها من العوائق حتىٰ تفوز ببُغْيتها وتنالَ أمنيتها. ومن ثَمَّ أُثر عن عليٍّ كرم الله وجهه أنه قال: «بقية السيف هي الباقية»[٣]. أي: هي التي يَحيَا بها أولئك الميِّتون.

ولما كان القتال للدفاع عن الحقِّ، يتوقف علىٰ بذل المال، ذكر بعده حكم الإنفاق، بعبارة تستفزُّ النفوسَ، وأسلوبٍ يبسط الأكفَّ. علىٰ أسلوب القرآن في جعل بعض الجمل متمِّمة لما قبلها ومقرِّرة حكماً عاماً بنظمها، فقال:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ تلطَّفَ سبحانه في استدعاء عباده إلىٰ أعمال البر والطاعة بما يعمُّ الصَّرف علىٰ الدفاع والإحسان إلىٰ المُعْوزين بأنواعهم، علىٰ أسلوب القرآن في تعقيب الحُكم بحُكم آخر يعمُّه وغيرَه.

وقال الأستاذ الإمام: هذا التعبير بمثابة الهزِّ والزلزال لقلوب المؤمنين، فقلبٌ لا يلين له ويندفع به إلىٰ البذل قلبٌ لا يمسُّه الإيمان.

---

(١) لم أجده في «تفسير ابن كثير»، ونسبه لابن كثير أيضاً ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (٢: ٤٧٨) عن ابن جريج عن عطاء: أن هذا مَثَل لا قصة واقعة.

(٢) العَسْفُ: السير بغير هداية والأخذ علىٰ غير الطريق. «لسان العرب» (عسف).

(٣) ذكره الجاحظ في «البيان والتبيين» ص٣٧٠ بلفظ: بقية السيف أنمىٰ عدداً وأكثر ولداً.

أيُّ لطفٍ من عظيمٍ يُداني هذا اللطف من الله تعالىٰ بعباده، الغنيِّ عن العالمين، الفعَّالِ لما يريد، يرشد عباده ـ الذين أنعم عليهم بفضل من المال واختصَّهم بشيء من النعمة ـ إلىٰ مواساة إخوانهم، بما فيه سعادتهم وسعادة من يعيش معهم. ويهديهم إلىٰ بَذْلِ شيء من فضول أموالهم التي أنعم الله بها عليهم، وصَرْفِها في المصالح العامَّة التي فيها صلاحُ حالهم، وحفظُ شرفهم واستقلالهم. فيُبرز[1] هذا الهَدْيَ والإرشاد في صورة الاستفهام، دون صيغة الأمر والإلزام، ويُسمِّي نفسه مقترضاً، ليشْعُرَ قلبُ الغنيِّ بمعنىٰ الحاجة التي ربما تصيبه يوماً ما. ثم هو يَعِدُه بمضاعفةِ ذلك العطاء. أيكون هذا اللطف كلُّه منه بعبده الذي غَمَره بنعمته وفضْلِه علىٰ كثير من خلقه، ثم يجمد قلب هذا العبد، وتنقبض يدُه، لا يستحي من ربه، ولا يثق بوعده[2]؟!

﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ أي: يُضيِّق علىٰ بعض الناس لجهلهم بسُنن الله في كسْب المال، وعدم نهوضهم للسعي في ذلك وسَيْرهم بمقتضىٰ تلك السنن، ويُوسِّع للَّذين يسيرون بمقتضىٰ تلك السنن الطبيعية بقدر اعتنائهم في تطبيقها وتجويدها. لا فرق في ذلك بين مؤمن وكافر، وبَرّ وفاجر، وبمقتضىٰ هذه السنة الكونية لا يستقلُّ الإنسان برجاحة عقله، بل له حاجة إلىٰ معونة الله وتوفيقه بتسخير الأسباب له وتسهيلها. فيجب علىٰ مَنْ وفَّقه الله لنَيْل الغِنىٰ أن يُساعد من حُرِمَ من ذلك؛ تنسيقاً لِسُنن الله الكونيَّة، واستدامةً لنعم الله عليه، فالله سبحانه هو مُقلِّب الأحوال ومُغيِّر الأوضاع، ولو شاء أن يغني فقيراً ويفقر غنياً لفعل، فإنَّ الأمر كلَّه له، بيده القبض والبسط والغِنَىٰ والفقر، وهو واضع السُّنن والهادي إليها والموفِّق للسير عليها. فليس حظُّه الأغنياء

---

(١) في «المنار»: فيبرِّر.

(٢) تفسير «المنار» (٢: ٣٦٩).

علىٰ مواساة الفقراء، والإنفاق في المنافع العامَّة والخاصَّة من حاجة به أو عجز منه سبحانه، كلا، بل هي هداية الإنسان إلىٰ سنن الله في هذا الكون، وإلىٰ طرق الشكر علىٰ النعم، بما يحفظها ويُفْضي إلىٰ المزيد فيها، حتىٰ يبلغ كماله الاجتماعي الذي أعدَّه له بحكمته.

ثم ختم الآية بما يحثُّ علىٰ العمل بمقتضىٰ تلك الهداية، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ فلا تُهملوا ما يأمركم به واحذروه.

روىٰ الطبري عن ابن مسعود رضِيَ الله عنه: قال لما نزلت ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، قال أبو الدحداح: «وإنَّ الله يُريد منا القرض؟! قال النبي ﷺ: «نعم يا أبا الدحداح». قال: ناولني يَدَك، فناوله يدَه. قال: فإني قد أقرَضْتُ ربي حائطي، حائطاً فيه ستمئة نخلة. ثم جاء يمشي حتىٰ أتىٰ الحائط، وأمّ الدحداح فيه في عيالها، فناداها: يا أمَّ الدحداح، قالت: لبيك. قال: اخرجي من الحائط فإني قد أقرضته لربي»[1].

زاد غيره: فقال النبي ﷺ: «كم من عِذْق رداح لأبي الدحداح»[2].

والآية مَثَلٌ لتقديم العمل العاجل طلباً للثوب الآجل.

والمراد من القرض: العمل الصالح مطلقاً، المنتظم للجهاد انتظاماً أوَّلياً. والمراد بحُسْنه: الإخلاص فيه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥: ٢٨٤-٢٨٥). والحديث رواه مسلم (٩٦٥) عن جابر بن سمرة.

(٢) رواه أحمد (١٢٤٨٢)، عن أنس.

وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾.

ثم أردف قصَّة الذين خرجوا من ديارهم بقصَّة أخرىٰ واقعية تاريخية، مؤيِّدة لها في المضمون، تقلع من نفوسهم خوفَ الجهاد وإن كانوا قليلي العدد، وهي قصَّة قوم بني إسرائيل اشتدَّ شعورهم بالحاجة إلىٰ مدافعة العادين عليهم واسترجاع ديارهم وأبنائهم من أيديهم، حتىٰ طلبوا من نبيِّهم زعيماً يقودهم في ميدان الجِلاد[1]، وقاموا بما قاموا به من الاستعداد، ولكن ضَعْف نفوسهم كان قد بلغ منهم مبلغاً لم تنفع معه تلك العدَّة، فتولَّوا وأعرضوا للأسباب التي أشير إليها، وأُلهِمَ القليل منهم، كما هو شأن الأمم عند الانتباه بعد النوم والسبات، فيعودون إلىٰ رُشْدهم، واعتبروا فانتصروا.

حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، وكلمة: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ في مثل هذا المقام مستعارةٌ للتعبير عن الأمر المتحقِّق بعبارة الظاهر المرئيّ، تصويراً لِتَحقُّقه، وإذا خُوطب بها مَنْ لم يعلم ما تعلَّقت به، كما هنا، تكون لتعريفه به وإعلامه عنه. ﴿ٱلْمَلَإِ﴾: القوم يجتمعون للتشاور، ولا مفرد [له]. وقيل:

---

(١) أي موضع الضرب بالسيف في القتال. «لسان العرب» (جلد).

الملأ: الأشراف من الناس. أي: ألم تَرَ إلىٰ أهل الحَلِّ والعقد من بني إسرائيل، ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أقم لنا أميراً يقودنا إلىٰ الحرب، ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾ أي: أتوَقَّع منكم الجُبْن عن القتال إن كُتب عليكم من جانب الله. وإنَّما فصل بين «عسىٰ» وخبرها بالشرط للاعتناء به.

وكان دأْبُ بني إسرائيل أن يقومَ أمرهم بمَلِكٍ يجتمعون عليه يُجاهد الأعداء ويُجري الأحكام، ونبيٍّ يطيعه الملك ويقيم أمر دينهم، ويأتيهم بالخبر من ربِّهم.

فلما قال لهم ذلك ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾، وذلك أنَّ جالوتَ مَلِكَ العمالقة الذين كانوا يسكنون ساحل بحر الروم، بين مصر وفلسطين، ظهر علىٰ بني إسرائيل، وأخذ ديارهم، وسَبَىٰ أبناءهم، وضرب عليهم الجزية، وأخذ توراتهم التي كانوا قد أخرجوها إلىٰ ساحة الحرب يستنصرون بها.

وهذا التعبيرُ في أسلوب النفي أبلغُ تعبير وآكَدُه؛ لأنه يتضمَّن نفي جميع الأسباب الموجبة للسلب، وإثبات الأسباب المقتضية للإيجاب. وهي: اغتصاب بلادهم، وإخراجهم من ديارهم، واستعباد أبنائهم، إلا أنَّ ذلك العزم كان مِنْ أكثرهم زعماً مجرَّداً.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟﴾ جُبناً وخَوَراً ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، وذلك أنَّ الأمم إذا قهرها العدو ونكَّل بها، يُفسد بأسها، ويغلب عليها الجُبن والمهانة. فإذا أراد الله إحياءها بعد موتها يَنْفُخُ روح الشجاعة والإقدام في خيارها، وهم الأقلّون، فيعملون ما لا يعمل الأكثرون.

قال الأستاذ الإمام: «وفي الآية من الفوائد الاجتماعية: أنَّ الأمم التي تفسد أخلاقُها وتضعف قد تُفكِّر في المدافعة عند الحاجة إليها، وتعزم علىٰ القيام بذلك، ولكنهم إذا باشروا العمل ضَعُفوا وجبنوا، وقد توعَّدهم الله علىٰ ذلك فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ أي: الذين يظلمون أنفسهم وأمتهم بتخاذلهم عن الجهاد والدفاع عنها، فيصبحون في الدنيا أذلاء مستضعفين، وفي الآخرة أشقياء معذبين»[1].

ثم فصَّل القصة بعد أن أجملها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ وأمركم بالجهاد معه، ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾، وإنما قالوا ذلك لأنهم قد اعتادوا الخضوع للأغنياء والشرفاء المُسْتبدّين، وإن لم يمتازوا بصفاتهم الذاتيَّة، ومعارفهم وأخلاقهم النفسيَّة، ولأنَّ طالوت ليس من سلائل الملوك ولا من سلائل النبوَّة. وقد كان المُلْكُ في سِبْط يهوذا بن يعقوب، والنبوُّة في سِبْط لاوي بن يعقوب، وطالوت من سبط بنيامين.

فبيَّن الله تعالىٰ فيما حكاه عن نبيِّه أنهم مُخطئون في زعمهم أنَّ استحقاق الملك يكون بالنَّسَب وسَعَة المال، وإنما يكون بالصفات الذاتية الممتازة وبالعلم، و﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً﴾ أي: سَعَة ﴿فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾، فعطف السبب علىٰ المسبَّب في قوله: ﴿ٱصْطَفَىٰهُ﴾، ﴿وَزَادَهُۥ﴾، أي: اختاره لما أودع فيه من الاستعداد الفطري للمُلك، وميَّزه بسَعَة العلم والدراية، وبالقدرة علىٰ المدافعة والرياسة، ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ أي: ممَّن يجعل فيه الخصائص، ويوفقه للأسباب.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ علىٰ طريقة القرآن في التنبيه

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٣٧٧).

علىٰ الدليل بعد الحكم، والتذكير بأسمائه الحُسْنىٰ وآثارها، أي: واسع القدرة والتصرُّف، إذا شاء شيئاً اقْتَضَتْهُ الحكمة في نظام الخليقة وقع لا محالة، عليمٌ بوجوه الحكمة، يضعُ الأشياء في مواضعها حسب حكمته البالغة، فلا يضع سننه سُدىٰ.

ويظهر أنهم طلبوا آيةً تدلُّ علىٰ اصْطفاء الله له وتمليكه عليهم، فاكتفىٰ القرآن بالجواب، علىٰ نهجه في مثل ذلك، ولم يذكر سؤالهم، وتابع التفصيل بقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ وهو صندوق التوراة ﴿فِيهِ﴾ لكم ﴿سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ واطمئنان، إذ فيه رُضَاضُ[1] الألواح، ﴿وَ﴾ فيه ﴿بَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ وهي عَصَا موسىٰ وشيءٌ من ثيابه وعمامة هارون وشيءٌ من آثاره، يأتيكم ذلك معاداً من العمالقة الغاصبين له، ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وأولىٰ ما قيل في تفسير حَمْل الملائكة له: أن البقرتين كانت تجرَّان العَجَلة التي عليها التابوت من عمالقة بلاد فلسطين إلىٰ بني إسرائيل، كما سيأتي في تفصيل القصة، كانتَا تسيران بإلهام الملائكة وحراستها، إذ ليس معهما سائق من البشر، فالكلام علىٰ حدِّ قولهم: حمل فلان متاعه، وإنما حملته راحلتُه[2].

ثم قرَّر ذلك بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ أي: إنَّ رجوع التابوت من الفلسطينيين إليكم علىٰ هذه الصورة بعد يأسكم من رجوعه، آية لكم علىٰ ملوكيَّة طالوت عليكم.

وتلخيص القصة: أنه كانت حروب بين الفلسطينيين وبني إسرائيل، فانتصر الفلسطينيون، وأخذوا التابوت من بني إسرائيل بعدما نكلوا بهم تنكيلاً. وكان صموئيل

---

(١) رُضاض الشيء: فُتاتُه. «تاج العروس» للزبيدي (رضض).

(٢) بل أولىٰ ما قيل: حَمْلُ الآية علىٰ ظاهرها دون حاجة إلىٰ هذا الإغراق في التأويل.

قاضياً لبني إسرائيل، وهو نبيُّهم الذي طلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً ففعل، كما تقدَّم. وكان رجوع هذا التابوت آيةً من الله لِـمُلْكِ طالوت.

وقالوا في سبب إتيان التابوت: إنَّ أهل فلسطين ابتُلُوا بعد أخذ التابوت بالفئران في زروعهم فتشاءموا منه، واعتقدوا أنَّ إله إسرائيل انتقم منهم، فأعادوه علىٰ عجلة تجرُّها بقرتان، ووضعوا فيه فئراناً من الذهب، جعلوا ذلك كفارة لذنوبهم. ملخص من تفسير «المنار» بتصرُّف[1].

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾.

ثم قالوا: ولما كانوا كارهين لـملكه، ثم أذْعَنوا من بعد، وكان إذعان الجميع ورضاهم مما لا يمكن العلم به إلا بالاختبار والابتلاء، أراد الله سبحانه أن يبتليَ هذا القائدُ جندَه، ليعلمَ المطيعَ من العاصي، والراضي من الساخط. فإن طاعة الجيش للقائد وثقتَه به من شروط الظفر، وأحوَجُ القواد إلىٰ اختبار الجيش مَنْ وَلِيَ علىٰ قوم وهم له كارهون. أو كان فيهم من يكرهه، فقال تعالىٰ حاكياً لهذا الاختبار: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ أي: خرج بهم من بيت المقدس ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي: لم يَذُقْهُ ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٣٨٣- ٣٨٤).

﴿مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ فقد أعلم طالوت جنوده بأنهم سيمرُّون علىٰ نهر يمتحنهم به بإذن الله، فمن شرب منه فلا يُعَدُّ من أشياعه المتَّحدين معه في أمر القتال، إلا أن يكون ما يشربه قليلاً، فإن الغُرْفَة تُؤْخذ باليد مما يتسامح به، ومن لم يَذُقْهُ بالمرَّة فهو الذي يُركن إليه ويوثق به.

فالابتلاء سيكون علىٰ ثلاث مراتب:

مرتبةُ من يَشرب فيُروىٰ، لا يُبالي بالأمر، وحكمُه أن يتبرأ منه.

ومَرتبةُ مَنْ يأخذ بيده غرفةً يبلُّ بها ريقَه، وهو مقبول.

ومرتبةُ مَنْ لا يذوقه بالمرَّة، وهو الولي النصير الذي يوثق باتحاده، ويُعوَّلُ علىٰ جهاده.

ثم بيَّن تعالىٰ ما كان من نتيجة اختبارهم، حيث تبيَّن أن المطيع المؤمن إيماناً صادقاً منهم قليل، فقال: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، وذلك لأنهم قد اعتادوا العصيان، وفسد بأْسُهم، وتزلزل إيمانهم، ولم يبقَ فيهم من أهل الإيمان والغيرة علىٰ الدين إلا القليل.

ثم ذكر ما جرىٰ بين المطيعين وغيرهم من المحاورة التي أظهرت صدق إيمان المطيعين وإخلاصهم، وفشل الآخرين وخبثهم، فقال: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ والتحق بهم الباقون الذين نزلوا علىٰ النهر وشربوا وارتَوَوا، ﴿قَالُوا۟﴾ أي: أولئك الشاربون: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ فأجابهم المخلصون، بما حكىٰ عنهم سبحانه بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ وهؤلاء الذين يظنُّون أنهم ملاقو الله هم الذين جاوزوا النهر مع طالوت، ولم يتخلَّفوا عنه للشرب.

وقد أفادت الآية أنَّ الإيمان بالله تعالىٰ والتصديق بلقائه، من أعظم أسباب الصبر والثبات في مواقف الجِلاد.

وكلمة ﴿يَظُنُّونَ﴾ هنا للمبالغة في التعبير عن قوة يقينهم واعتقادهم. فقد قال الرازي: إنَّ من خصائص اللغة إذا أريد المبالغة في اليقين، يؤتىٰ بلفظٍ وُضع للشك[1].

ثم تابع الكلام عن المؤمنين، فقال: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ﴾ جَبّار فلسطين ﴿وَجُنُودِهِۦ﴾ دَعَوُا الله مراعين في صورة طلبهم الترتيب الطبيعي و﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بتيسيره ونصره وتأييده، ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ﴾، وكان أحدَ أفراد جيش طالوت المؤمنين، قتل ﴿جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ أي: جَعَله ملكاً ونبياً وأنزل عليه الزبور. ولم يجتمع المُلكُ والنبوةُ لأحد قبله من بني إسرائيل، وإنما كان الملك في سبط، والنبوة في سبط. كما مرَّ بيان ذلك.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.

ثم بيَّن تعالىٰ حكمة الإذن بالقتال، فقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: بغلبة أهل الباطل والفساد، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

(١) لم نقف على قول الرازي في «تفسيره».

﴿ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ حيث أذِنَ لأهل الصلاح أن يدفعوا أهل الفساد وأهل الباطل، وفوّقهم عليهم، وجَعَل لهم السلطان في الأرض.

ثم ختم سبحانه وتعالىٰ السياق بما فيه تنويهٌ بشأنه، مُحتجاً بذلك علىٰ حقيَّة هذا القرآن، وأنه منزَّل من الله تعالىٰ، وأنَّ من نزل عليه هو رسول الله، فقال: ﴿تِلْكَ﴾ أي: البيِّنات والقصص التي قَصَصْناها عليك، إنما هي ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾، ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾، أي: إذ لولا الرسالة لما تُليت عليك تلك الأحكام والقصص، لمعرفة مواضع العبر والبيِّنات، ولتبليغها للناس، وفي هذا الكلام تعريضٌ بأنَّ ما يقوله بنو إسرائيل في هذه القصة مخالفاً لهذا، فهو باطل وتحزُّب.

ومن نهج القرآن أنه يقرِّر بهذه الحُجَّة نبوته ﷺ إثر أكثر القَصص الذي يقصُّه عليه.

ووجه الحجة: إنك لم تكن في أزمنة وقوعها، ولا تعلم شيئاً من التاريخ عنها، ولو تعلَّمته لجئتَ به تخليطاً علىٰ النَّحو الذي عند أهل الكتاب أو غيرهم من القصَّاصين، بخلاف ما قُصَّ عليك، فإنه هو الحقُّ المبين والصدق اليقين.

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾.

ثم قال في «المنار» نقلاً عن الأستاذ الإمام، ما خلاصته: وبعد أن رغَّب في بذل المال والنفس في سبيل الله، وضَرَب لذلك الأمثال، وختم سبحانه وتعالىٰ السياق بأن

ما ذُكر هو آيات الله تعالىٰ يتلوها عليه بالحق، وشهادته له بأنه من المرسلين، أي: الذين كانوا أقطاب الهداية ومحلَّ التوفيق والعناية، ذَكَر أولئك الرُّسل الذين هو منهم صلوات الله تعالىٰ عليهم، ومُبيِّناً تفضيلَ بعضهم علىٰ بعض، وخَصَّ بالذكر أو الوصف مَنْ بقي لهم أتباعٌ، وذكر ما كان من أمر أتباعهم من بعدهم في الاختلاف والاقتتال، فقال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: بمآثر جليلة مع استوائهم في اختيار الله تعالىٰ إيَّاهم للتبليغ عنه، وهداية خلقه إلىٰ ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وقد بيَّن هذا التفضيل في بعض المفضَّلين، فقال: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ مِن وراءَ حجاب، فلا يُدرىٰ كيف كان التَّكليم، ولكنه إيمانٌ مع إيقانٍ دون إدراكٍ لحقيقة الشأن، وذلك مثل موسىٰ عليه السلام، قيل: ونبيّنا أيضاً عليه الصلاة والسلام، وكان ذلك ليلة المعراج. ولا يجوز لنا البحث عن كيفيَّة تكليم الله لرسله.

قال الأستاذ الإمام: إنَّ هذا الكلام مما لا يمكن أن يعرفه إلا النبي المُكَلَّم، حتىٰ إنه لا يستطيع أن يُفهمه لغيره[1].

أقول: وكثير من الحقائق التي لا نشك فيها لا نعلم عن كيفيتها، فهذه عملية التذكُّر والإدراك نفسها لا أحد يعرف كيف تتمُّ له هذه الحقيقة. ومن المعلوم أنَّ الأنبياء عليهم السلام من أكمل البشر، مُزوَّدون بالقدرة علىٰ استلهام المعلومات عن الله سبحانه بطريقة خارجة عن نطاق الحواس، يجري فيهم ذلك دون أن يعلموا كيفيته. والله أعلم. فما علمه موسىٰ عليه السلام هو إيمان مع إيقان دون إدراك لحقيقة الشأن، والله أعلم.

وقال بعض العلماء: إنه من نوع تكليم الله للملائكة.

أقول: ويجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون الملك المقرَّب منطبعاً علىٰ أن يحسَّ بالتوجُّه

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٣-٥).

إلىٰ الأمر الأعلىٰ، فيلحظه وينطبع في هُوَّيته ما يلحظ، أو شبيهاً بمثل ذلك، والله أعلم بأسراره[١].

ثم قال تعالىٰ في إتمام البيان عن التفضيل: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: في مراتب الفَضْل ومعارج الكمال.

وقد ذهب جماعة المفسِّرين إلىٰ أنَّ المراد به نبيُّنا ﷺ، أو إبراهيم عليه السلام، وقيل: أولو العزم من الرسل.

ثم ذكر من الذين لهم أتباع: عيسىٰ عليه السلام، فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، و﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ هي: ما يتبيَّن به الحق من الآيات والدلائل. و﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ هو: روح الوحي الذي يُؤيِّد الله به رسله. والكلمة من إضافة الموصوف إلىٰ الصفة.

ثم ذكر سبحانه وتعالىٰ اختلاف البشر علىٰ أنبيائهم، وأشار إلىٰ أنَّ منشأ ذلك الاختلاف إنما هو الطبيعة الإنسانيَّة التي خلقها الله مُستعدَّة لذلك، إذا أفسدها صاحبها، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ من الأمم، ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: علىٰ أيدي هؤلاء الرسل، وذلك بأن يخلقهم مُستعدّين للهداية وعمل الخير فقط كالملائكة، لا مُستَعِدِّين للأمرين بحكم اختيارهم وحريَّة تصرُّفهم، ومَهْدِيِّين بفطرتهم للنَّجْدَين، ﴿وَلَٰكِنِ﴾ لم يشأ سبحانه وتعالىٰ ذلك؛ لأنه غير مُوافق للحكمة التي خَلَق الله البشر بمقتضاها، ومن ذلك أن جعلهم خلفاء الأرض، يتصرَّفون فيها بمواهبهم، ومعارفهم المكتسبة، رائدُهم العقل، وسائقُهم الأمل.

---

(١) هذا القول لا يصح. وليت المؤلف ـ غفر الله له ـ اقتصر علىٰ ما ذكره أولاً: لا يجوز لنا البحث عن كيفية تكليم الله لرسله.

فلمَّا خلقهم سبحانه وتعالىٰ ذوي إرادة مطلقة، مختارين في تصرُّفاتهم حتىٰ يقدروا علىٰ العمل والإيجاد، وكانوا بذلك الاختيار مُستعدِّين للحقِّ والخير بطبيعتهم، وللباطل والشر بإفسادهم لها، ﴿ٱخْتَلَفُوا۟﴾ بمقتضىٰ ذلك الاستعداد، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾ وهم الذين لم يفسدوا طبيعتهم، ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ وهم الذين أفسدوا طبيعتهم، فأعرضَتْ نفوسُهم عن الإيمان، وتنكَّبت عن الصِّراط المستقيم، ﴿وَ﴾ بعد أن خلقهم علىٰ هذه الطبيعة أيضاً ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ وذلك بأن يخلقهم مُسْتعدِّين لأن يعذر المختلفون بعضهم بعضاً، فلا يهتمُّون بالدفاع عن الحقِّ والنضال عنه، ومقاومة الباطل وجهاد أهله، وانتصار كلِّ ذي رأي لرأيه، أو أن يُوطِّن كلُّ فريق منهم نفسه، علىٰ أن يقف عند رأيه ويسعىٰ له بالفطنة والوئام، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الحكمة لم تشأ ذلك، لئلا يسلبهم القدرةَ علىٰ العمل والنشاط بإبطال موهبة التنافس بينهم، وإن ﴿ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ أي: من مقتضيات الحكمة العالية التي تَخفىٰ علىٰ غير ذوي الألباب، إذ لولا استعداد الناس بأن يدفع الله شرَّ بعضهم ببعض؛ لفَسَدَت الأرض، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وفي تكرار جملة: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾، تقريرٌ لأنَّ الله سبحانه هو الذي أراد للإنسان حريَّة التصرُّف في أعماله، وجعل له عقلاً يفرِّق بين الخير والشر، إن لم يفسده صاحبه بمفاسد التربية وسوء القدوة.

وتوضيح ذلك ما قاله الأستاذ الإمام، وهو: أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ لم يخلق البشر بقوىً محدودة متساوية في أفرادهم، لا تتجاوز ما به طلب قوام الجسم، بالإلهام الفطري والإدراك الجزئي، كالأنعام السائمة، والطيور الحائمة. وإنما خلق الإنسان وجَعَل له عقلاً يتصرَّف في أنواع شعوره، وفكراً يجول في طرق حاجاته البدنيَّة والنفسيَّة، وجعل ارتقاءه في إدراكه كسبيّاً ينشأ ضعيفاً فيقوىٰ بالتدريج، حسب التربية التي يُحاط بها،

والتعليم الذي يَتلَقَّاه، وتأثير حوادث الزمان والمكان والأسوة والتجارب، وجعل هداية الدين له أمراً اختيارياً لا وضعاً اضطرارياً. فهي معروضةٌ أمامه يأخذ منها بقدر استعداده كما هو شأنه في الأخذ بسائر أنواع الهداية والاستفادة من منافع الكون.

هذه هي سنَّة الله تعالىٰ في الإنسان، وهي منشأ الاختلاف. فهو يقول: لو شاء الله أن يجعل سنَّته في تبليغ الدين وعَرْضِه علىٰ الناس هكذا، بأن يجعله من إلهاماتهم العامَّة وشعورِهم الفطريِّ، كشعور الحيوان وإلهامه ما فيه منفعته؛ لكانوا في هداية الدين سواء، يسعدون به أجمعون، فتمنعهم بياناته أن يختلفوا فيقتتلوا. ولكنه خلق الإنسان علىٰ غير ما خلق عليه الحيوان، خلقه ذا إرادة مطلقة يتأتَّىٰ منها الاختلاف في المآرب؛ ليكون نشيطاً في العمل والإيجاد، وذلك بحسب حكمته تعالىٰ.

وكان هذا هو سبب الاختلاف في أهل الأديان، فمنهم مَنْ آمن إيماناً صحيحاً فأخذ الدين علىٰ وجهه، إذ فهمه حقَّ فهمه. ومنهم من لبسه مقلوباً، وحكَّم هواه في تأويله، فكان كافراً به في الحقيقة، وإن كان غالياً فيما أحدث فيه من مذهب أو طريقة، وكان ذلك مَدْعاة التخاصم وسبب التنازع والتقاتل[1].

أما قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ﴾، فالمراد: أنه سبحانه بعد أن فَطَر الإنسانَ علىٰ الاستعداد للاختلاف، فلو شاء أن يجعلَ في الطبيعة أن يعذر المختلفون بعضهم بعضاً، ويُوطِّن كلُّ فريق منهم نفسه علىٰ أن ينتصر لرأيه بالحُجَّة، ويسعىٰ إلىٰ مصلحته بالفطنة، لما اقْتتلوا علىٰ ما يختلفون فيه. ولكنه جَعَلهم درجات في الفَهْم والحَزْم، وأودع في غرائزهم المدافعة عن حقيقتهم التي يعتقدونها، والنضال دون مصلحتهم بكلِّ ما قدروا عليه من قول وعمل. فالقويُّ بالرأي يُحارَب بالرأي، والقويُّ بالسيف يُقاوم

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٧).

بالسيف. فكان الاختلاف في الرأي والمصالح معاً مع عدم العذر، مُؤدّياً إلىٰ الاقتتال لا محَالة، والله سبحانه يفعل ما يُريد حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة[1] الخفيَّة عن إدراك البشر. هذا ما قاله الأستاذ الإمام بتصرُّف قليل.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾.

ثم عاد إلىٰ الأمر بالإنفاق بأسلوب ترهيبي، بعد أن نَدَب إليه بأسلوب ترغيبي بقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا ....﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وذلك علىٰ نهج القرآن في العودة إلىٰ الكلام في الشيء الذي يُريد أن يبحث عنه مُشْبعاً، (كما جاء في الفقرة (و) من المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ ﴾، فأمر بالإنفاق ولكن بأسلوب الترهيب. وكان قد ذكر أمر الإنفاق في الآيات السابقة بأسلوب التَّرغيب كما مرَّ بيانه، وذلك لأنَّ الأكثرين يفعل في نفوسهم الترهيبُ ما لا يفعله الترغيبُ.

وقوله: ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾ تحسيسٌ وتهوينٌ واسْتِدْرارٌ بأنَّ الذي يُطْلَب منهم، إنَّما هو من رزق الله لهم، ولولا ذلك لما نالوه، فلا يبخلوا به. وقد فسروا البيع بالافتداء.

وقد أعقَبَ التحذيرَ من ذلك اليوم الهائل، ببيان أنَّ الذي يقع في هَوْله إنما يقع بفعله وظلمه لنفسه، فقال: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ أي: والكافرون هم الذين ظلموا أنفسهم، فلم يتَّقوا ذلك اليوم، وما ظلمهم الله لأنه سبحانه وتعالىٰ لم يخلقهم

---

(١) لو اقتصر المؤلف رحمه الله علىٰ ذكر الحكمة لكان أحسن، فقد وردت النصوص الشرعية بوصف الله بها، أما المصلحة فلا، ولا يخفىٰ أيضاً أن المصلحة هنا: هي مصلحة العباد، ومراعاة مصلحة العباد نوع من الحكمة، أما أن تكون المصلحة متعلقة بالله تعالىٰ فهذا لا يُتصوَّر أصلاً في حقِّه سبحانه.

مَطْبوعين علىٰ الكفر، بل خلقهم مُسْتعدّين للإيمان، ولكنهم أفسدوا استعدادهم بسُوء تصرُّفهم فيه، فأعرضوا عمَّا جاءهم من الحق، وكيَّفوا نفوسهم بكيفيَّةٍ أهَّلتهم للشقاء في ذلك اليوم.

وقد قرَّرت الآية أن السعادة الأخرويّة لا تُنال بالفداء، ولا بإسعاد الأخلّاء، ولا بشفاعة الشفعاء، وإنما العُمدة فيها علىٰ اعتدال النفس في أخلاقها وأعمالها التي من جملتها الإنفاق.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

ثم ردَّ علىٰ الكافرين كفرهم، ببيان اختصاصه سبحانه بالألوهيَّة وصفاتها، وجعله كالتعليل لإسناد الظلم لهم في إشراكهم بالله، مع أنَّ اختصاصه سبحانه بالألوهيَّة أوضح من الشمس في رابعة النهار، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ أي: الحيُّ بذاته المبالغُ بالقيام بتدبير خلقه. بمعنىٰ: المدبِّر لهم علىٰ أكمل نظام، ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ والسِّنة: النعاس، وعطف النوم عليها لتأكيد نفي هذه الصفة عنه تعالىٰ. وإنما بالغ بنفي هذه الصفة عنه تعالىٰ؛ لتقرير ضدِّها له سبحانه. وتقريرُ الوصف من طريقة سَلْبِ ضدَّه هو أبلغ طريقة في التقرير. والجملة كلها تمكين لصفة القيوميَّة، وتقريرٌ لمضمونها.

ثم ذكر سبحانه عِظَمَ شأنه وسَعَة سلطانه، فقال: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُلكاً وإيجاداً وتسخيراً، وقهراً وتصريفاً وتدبيراً. فهو وحده المستحق للألوهية، فكيف يشركون به من لا يخلق شيئاً وهم يُخْلَقون، فالكافرون هم الظالمون.

وبعد أن قرَّر التوحيد مقروناً بالدليل، ردَّ علىٰ المشركين الذين يشركون به شركاء يزعمون أنهم شفعاء لهم عند الله، فقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[1]، وفي صورة العبارة بيانٌ لكبريائه وعِظَم شأنه، وأنه لا يُدانيه أحد، ليقدر علىٰ تغيير ما يريده شفاعة وضراعة، ولا يملكون منه خطاباً، فَضْلاً عن أن يُدانيه عناداً ومناصبة.

ومعنىٰ هذه الحقيقة: أنه لا يمكن أن يوجَد شفيع عنده لأحد إلا من بعد إذنه، وليس لأحد حقٌّ في الإخبار عنه تعالىٰ بمَنْ يشفع عنده ومَنْ يقبل شفاعته إلا بإعلام منه، وذلك لا يكون إلا بوحيٍ منه.

وقد ثبت في وحي هذا القرآن أنه لا يشفع أحدٌ عنده بإذنه إلا مَن ارتضاه للشفاعة، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، علىٰ أحد الرأيين في الآية.

---

(١) يجوز أن يكون في قوله تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ الاستثناء من مضمون ما قبله، بالحمل علىٰ المعنىٰ. أي: لا ينصرف أحد من الفزع الأكبر إلىٰ مستقر الأمان والسعادة في الآخرة، إلا بإذنه سبحانه وتعالىٰ، لا بشفاعة شفيع، وإنما ذلك يكون بالإيمان الصحيح والعمل الصالح، كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]. والله أعلم.
ومحصَّل الكلام علىٰ المعنىٰ الأول: أنه لا يجرؤ أحد مهما كان مقرَّباً أن يبادئه سبحانه بالشفاعة لأحد، إلا من بعد أن يأذن له سبحانه بذلك. والشفاعة لا تُغيِّر شيئاً قَدَّرَهُ الله وقضاه. وفي الكلام ردٌّ علىٰ الكافرين في اعتمادهم علىٰ الشفعاء. (المؤلف).

وثبت في هذا الوحي أيضاً أنَّ هؤلاء المأذون لهم بالشفاعة لا يشفعون إلا لمن كان الله راضياً عنه بإيمانه وعمله الصالح، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ما وَرَدَ من أحاديث الشفاعة محمول علىٰ الدعاء الذي يفعل الله تعالىٰ عقبه ما سبق في علمه الأزلي أنه سيفعله، مع أنا نقطع بأنَّ الشافع لا يُغيِّر شيئاً من علمه، ولا يُحدث تأثيراً في إرادته، وإنما تظهر بها كرامة الله لعبده بما أوقع من الفعل عقب دعائه»[1].

أقول: وذلك لأنَّ تعلُّق علمه تعالىٰ بالمعلومات ـ ما كان منها وما يكون ـ واحدٌ لا يتغيَّر ولا يَتَجدَّد من الأزل إلىٰ الأبد، ولا يغيب عن علمه شيء مما كان وما سيكون، وكلُّه حاضر في علمه سبحانه علىٰ الدوام، لا يَعْزُبُ عنه مثقالُ ذرَّة في الأرض ولا في السماء، عالم بسلوك الشخص وأقواله وأفعاله، وما سيجري عليه، يعلم كلَّ ذلك علماً أزلياً أبدياً، ومنه دعاؤه إيَّاه تعالىٰ، وقد نظمه في ميزانيته[2]، وقدَّره له قَبولاً أو رفضاً أو تبديلاً بما هو خيرٌ له أو بما جَدَّ له في الآخر، فكلُّ ذلك في علم الله عند أمر الـمَلَك عند ولادة هذا الشخص بكتابة رزقه وأجله وشقي أو سعيد، فكلُّ ما سيجري علىٰ الإنسان مما له مانع أو مُقْتض، حاضرٌ في علم الله عندما يأمر المَلَكَ بهذه الكتابة، فما أصابه لم يكن ليُخطئه، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه. فالدعاءُ داخلٌ في تنظيم القضاء والقدر من الأزل، وكذلك الشفاعة.

أما قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فيجوز أن يكون للإنذار والتهديد،

---

(١) يُنظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» ص ٤٤٥.

(٢) أي: قضائه وقَدَره، والتعبير بها أَوْلىٰ من المذكور.

ويجوز أن يكون تعليلاً لتحديد الشفاعة، مُستعاراً من المتعارف في الشفاعة لدىٰ السلطان العادل، حيث يُبيِّن الشفيع ما يخفىٰ علىٰ السلطان من أحوال المشفوع له التي تستحق العطف والرحمة، فهي تبيِّن أنَّ الله سبحانه يعلم أحوالهم تمام العلم؛ ما ظهر منها وما بطن، فلا مجال ولا معنىٰ للشفاعة عنده إلا أن تكون بطريقة الدعاء منه سبحانه. وهو المراد من الاستثناء كما سبق، والأنبياء لا تدعو من الله إلا ما يقع في نفسها أنه أمرٌ مَرْضيٌّ لله. والله أعلم.

وقال الأستاذ الإمام: وهذا إنذارٌ للمسلمين أن لا يكونوا كأهل الكتاب يتَّكلون في نَجَاتهم علىٰ شفاعة أسلافهم وصالحيهم.

ثم عطف عليه قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ ليدلَّ بهما علىٰ تفرُّده تعالىٰ بالعلم الذاتي التامّ الدال علىٰ وحدانيته. والمراد بـ«ما شاء»: ما يوحي به إلىٰ الرسل، ممَّا كان خفياً علىٰ البشر.

ثم أتىٰ بهذه الجملة التَّمثيليَّة الدالَّة علىٰ عِظَم شأنه عزَّ وجل، وسَعَة سلطانه، وإحاطة علمه بالكائنات خَفِيَتْ أو ظهرت، صَغُرت أو عَظُمت، فقال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، قال كثيرٌ من المفسِّرين ـ منهم القفال والزمخشري[1] ـ: إنَّ الكلام تصويرٌ لعظمته وتمثيلٌ لكبريائه، ولا كرسيَّ ولا قيام ولا قعود. ولكنه سبحانه خاطب عباده في تعريف ذاته وصفاته، بما اعتادوه في ملوكهم وعظمائهم[2].

---

(١) قوله: «كثير من المفسِّرين» تهويل لا يُوافَقُ عليه، بل الأكثرون علىٰ إثبات عالم الكرسي. وليته نقل كلام محمد رشيد رضا في «المنار» (١: ٣١): بأن الكرسي مخلوق من علم الغيب الذي نؤمن به، ولا نبحث عن حقيقته، ولا نتكلم فيه بالرأي.

ثم إثباتُ الكرسي مظهرٌ من مظاهر القدرة، فلا يلزم منه قيام ولا قعود.

(٢) «الكشاف» (٢: ٣٢٨).

أقول: وذلك علىٰ نهج القرآن في استعارة المعنىٰ الذي يُسْنَدُ لله تعالىٰ، من صفات المخاطَبين ليقرِّبه من الأفهام، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة).

وقال الأستاذ الإمام: السياق يدلُّ علىٰ أنَّ الكرسيَّ هو العلم الإلٰهي، وبذلك قال بعض المفسِّرين[١] وأهل اللغة، ويقال: كَرِس الرجل ـ كفَرِح ـ أي: كثُر علمه وازدحم علىٰ قلبه. والمراد هنا: أنَّ عِلْمَه تعالىٰ محيط بما في السماوات والأرض[٢]. حفظاً وتدبيراً، وإحصاء وتقديراً.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾، أي: لا يُثقله ويُكلِّفه حفظ عوالم السماوات والأرض، ولا يشقُّ عليه، لأنَّ أفعاله مجرَّد إرادة[٣]. وإن هذه الصفات التي جاءت في الآية تملأ القلب بعَظَمة الله وجلاله، وسَعَة قدرته وكماله، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ أي: يتعالىٰ أن يكون شأنُه كشأن البشر في حالٍ من الأحوال، فالتعبير عنه سبحانه بصفات الملوك، فيه تجوُّز وتوسُّع في المقال ليتقرَّب المعنىٰ إلىٰ الأفهام.

وبعد أن بيَّن سبحانه وتعالىٰ شؤونه الجليلةَ الموجبة للإيمان به وحده، الذي هو

---

(١) فقول المؤلف في تفسير الكرسي: إنه «قول كثير من المفسِّرين» يخالف ما ينقله عن محمد عبده، بأنه قول بعض المفسّرين، وتفسير الكرسيِّ بالعِلم هو قول ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير، واختاره الطبري. والذي يظهرُ أنهم فسّروا الآية بذلك، ولا يلزمُ منه نفيُ حقيقةِ الكرسيّ، فقد وردت فيه عِدّة أحاديث.

(٢) تفسير «المنار» (٣: ٢٨).

(٣) لعله يريد أن أفعاله سبحانه لا تتخلف عن إرادته، كما أنها لا تحتاج إلىٰ مزاولة بالآلات، بل تترتبُ علىٰ إرادته وقدرته بحسب علمه سبحانه وتعالىٰ.

أساس الدين المبين، قرَّر ذلك بأنه أمرٌ تهدي إليه الفطرة وتُرشد إليه المشاهدات الكونيَّة، وقال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[1].

قال في «المنار»: وهذه قاعدةٌ كبرىٰ من قواعد الدين الإسلامي، وركنٌ عظيم من أركان سياسته، فهو لا يُجيز إكراه أحد علىٰ الدخول فيه، ولا يسمح لأحد أن يُكْرِه أحداً من أهله علىٰ الخروج منه. وإنما نكون متمكِّنين من إقامة هذا الركن وحفظ هذه القاعدة، إذا كنا أصحابَ قوة ومَنَعة نحمي بها ديننا وأنفسنا، لندعو إلىٰ سبيل ربِّنا بالحكمة والموعظة الحسنة، ونُجادل المخالفين بالتي هي أحسن[2]. ولذلك فرض الله الجهاد في سبيل الله، فهو لحفظ كيان الإسلام وسَيْره في الأنام بطبيعته المرنة ونوره المبين، وليس الجهاد للإكراه علىٰ الدين، بل ليكون الإسلام قوياً واسع الرقعة والمجال، قابضاً علىٰ السياسة والسلطان، لأن الله سبحانه أنزله ديناً لكلِّ البشر، ولغته عالميَّة لما بعده من بني الإنسان.

ثم علَّل عدم الإكراه بقوله: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾، وهذا التعليل يُؤْذِن بأنّ الدين الإسلامي انتشر بقوته الروحية لا بقوة السيف، كما يتقوَّل المغرضون، ويُؤْذن بأن لا حاجة إلىٰ الإكراه بعد أن تبيَّن من نعوته تعالىٰ ـ التي يمتنع توهُّم اشتراك الغير في شيءٍ منها ـ حقِّيَّة الإيمان والتوحيد الذي هو الرُّشد الموصل إلىٰ السعادة الأبديَّة،

---

(١) في آية الكرسي ردٌّ لكفر الكافرين الظالمين، ببيان اختصاصه سبحانه بالألوهيَّة مقروناً بالبراهين القطعية من صفاته تعالىٰ، وتعقيبها بآية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ تفريع عليها بأنَّ ما جاء فيها من البراهين الواضحة من صفاته سبحانه يجعل البشر ملزماً بالتوحيد دون حاجة إلىٰ القسْر عليه والإكراه، يدرك ذلك كل من بقي فيه شيءٌ من نور البصيرة وسلامة العقل والإدراك. (المؤلف).

(٢) تفسير «المنار» (٣: ٣٣- ٣٤).

وبطلان الكفر والشرك الذي هو الغي المؤدي إلىٰ الشقاء السَّرمدي، تبيَّن هذا لكلِّ من له أدنىٰ مُسْكة[١] من العقل والدراية.

لذلك فرَّع عليه بقوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ وهو ما يكون سبباً للطغيان والخروج عن الحق من مخلوق يُعبَد، ورئيس يُقلَّد، وهوىٰ يُتَّبع، فمن يكفر بذلك بعد ما تبيَّـن له أنَّ كلَّ شيء هو بمعزل عن استحقاق الألوهية، لأنه بمعزل عن أفعالها وصفاتها، ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ وحده لما أدرك من نعوته الجليلة المقتضية لاختصاص الألوهيَّة به، فلا يَعبد إلا إيَّاه، ولا يرجو غيره، ولا يخشىٰ سواه، ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ فلا يسقط ولا يُخشىٰ عليه الهلكة، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ يعلم ما تُكنُّه القلوب وما تدَّعيه الألسنة، فلا تخفىٰ عليه منكم خافية، ويعلم المؤمن حقاً من غيره. ويجوز أن يُراد بالرُّشْد: عموم ما في الدِّين من السَّيْر علىٰ الهدىٰ.

ثم بيَّن خطة المؤمنين وخطة الكافرين ونتيجة كلٍّ منهما، فقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: لا سلطان لأحد علىٰ اعتقادهم إلا الله، وبذلك ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وبما يوحي قلبياً إليهم من طُرق الهداية وسُبل الرَّشاد، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ﴾ الذي فطروا عليه ﴿إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ بما يُلقون إليهم من أنواع الغَوَاية والضلالة.

ثم سجَّل عليهم بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٢]، فبيَّن ما سينالهم في الآخرة من الجزاء الأليم السَّرمدي الدائم، تنبيهاً وإيقاظاً.

---

(١) يقال مُسْكَة من خير بالضم أي بقية «لسان العرب» (بقي).

(٢) في صورة التركيب اكتفاء وإيماء إلىٰ أن الذين آمنوا هم أصحاب الجنة خالدين فيها. وإنما أفرد النور وجمع الظلمات لوحدة الحق وتنوُّع الباطل. وإنما لم يقل: (والطاغوت وليُّ الذين كفروا) للاحتراز عن وضعه موضع الاسم الكريم في المقابلة. والطاغوت يطلق علىٰ المفرد والجمع. (المؤلف).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

ثم استشهد علىٰ تحقيق الخطتين بالقصة الآتية، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾.

قال الأستاذ الإمام: الكلام مُتَّصل بما قبله وشاهد عليه، كأنه يقول: انظر إلىٰ إبراهيم كيف كان يهتدي بولاية الله إلىٰ الحُجج القيمة، والخروجِ من الشبهات التي تُعرَضُ عليهِ، فيظلُّ علىٰ نور من ربِّه، وانظر إلىٰ الذي حاجَّه كيف كان بولاية الطاغوت له، يعمىٰ عن نور الحُجَّة، وينتقل من ظلمة من ظلمات الشكوك إلىٰ أخرىٰ.

والاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، للتعجيب من هذه المَحاجَّة، وغباوة صاحبها وغروره، مع الإنكار عليه.

وقوله: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ واقعٌ موقع التعليل والتأنيب، ومعناه: إن الذي حَمَله علىٰ هذه المُحاجَّة هو إعطاء الله الملك له، فكان منشأ إسرافه في غروره، وسببَ

كبريائـه وإعجابه بقدرته[1]. وفيه نقد مؤلم وتأفين شنيع، حيث قابل إحسان الله إليه بالإساءة، ونعمته عليه بالكفران.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: أنه جعل ملكه الذي أعطاه الله إيَّاه ذريعةً لادِّعاء أنه إله، ففيه سخرية واستهزاء.

ثم فصَّل صورة المحاجَّة، فقال: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، وكأنه كان قد سأله عن ربه الذي يدعو إلىٰ عبادته، وقد كَسر الأصنام التي تُعبد من دونه، وسفَّه أحلام عابديها لأجله، فأجابه بهذا الجواب، فأنكر الملكُ الطاغيةُ مُـدَّعياً هذا الوصف لنفسه، و﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ أُحْيِـي مَنْ حُكم عليه بالإعدام بالعفو عنه، وأُميت من شئت إماتته بالأمر بقتله، فدلَّ جوابه هذا علىٰ أنه لم يفهم قول إبراهيم ﷺ، أو هو مموِّه مُتَغَابٍ، وهو الظاهر.

ثم قال الأستاذ الإمام: لم يقل: (فقال: أنا أحيي وأميت) بالفاء، لأنه جواب منقطع عن الدليل لا يتَّصل به بالمرة، فإنه أراد أنه يكون سبباً للإحياء والإماتة، والكلام في الإنشاء والتكوين، لا في اتِّخاذ الأسباب والتوسُّل في الشيء المكوَّن. فالمراد بالذي يُحيي ويميت، الذي يُنشئ الحياة في جميع العوالم الحيَّة، من نبات وحيوان وغيرهما، ويُزيل الحياة بالموت. وعبَّر بـ(الذي) الدال علىٰ المعهود المعروف صلته دون (مَنْ) التي فيها الإبهام، وبالمضارع الدال علىٰ التَّجدُّد والاستمرار، لإفادة أنَّ هذا شأنه دائماً.

ولـما رأىٰ إبراهيم عليه السلام أن هذا الطاغية لم يفهم أنَّ المراد بالذي يُحيي ويُميت: مصدر التكوين الذي يحيا كل حي بإحيائه، ويموتُ بقطع إمداده له بالحياة أو هو مُموِّه مُتَغَابٍ؛ لم يلتفت إلىٰ إبطال مقالته، لأنها من الجلاء بحيث لا تخفىٰ، وعَدَل عن

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٣٩).

هذا الدليل إلىٰ دليل أوضح. وقد حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾.

والذي يراه صاحب «المنار»: أن هذا إيضاحٌ لقوله، وإزالةٌ لشبهة الخصم، لا أنه جواب آخر. والمعنىٰ: إنَّ ربي الذي يُعطي الحياة ويسلبها بقدرته وحكمته، هو الذي يُطلع الشمس من المشرق، أي: هو المكوِّن لهذه الكائنات بهذا النظام والسنن الحكيمة التي نُشاهدها عليها، فإن كنتَ تفعل كما يفعل، فغيِّر لنا نظام طلوع الشمس، وائْتِ بها من الجهة المقابلة للجهة التي جَرَت سُنَّة الله تعالىٰ بظهورها منها.

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ أي: أدركته الحيْرة، وأخذَه الحصْرُ من نُصوع الحجَّة وسطوعها، فلم يُحِرْ جواباً[1]. حيث فهم أنَّ مراد إبراهيم عليه السلام أنَّ هذا النظام في سَيْر الشمس لا بدَّ له من فاعل حكيم، إذ لا يكون مثله بالمصادفة والاتفاق، وإنَّ ربي الذي أعبده هو ذلك الفاعل الحكيم الذي قَضَتْ حكمته بأن تكون الشمس علىٰ ما ترىٰ.

ثم ختم سبحانه الكلام بما يُشعر بمنشأ كفر هذا الكافر وإصراره، فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ أي: إن سُنَّته تعالىٰ مضت في طبيعة الإنسان أن مَنْ تشبَّع منهم بالظلم، وهو الضلال والإعراض عن النور الإلٰهي، بفساد التربية وسوءِ القدوة، لا يمكنه أن يميل إلىٰ الهداية أبداً.

ثم ضرب سبحانه وتعالىٰ مثلاً آخر لهداية الدين للمؤمنين إلىٰ البعث والنشور، وإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور، وتقريب أمر البعث إلىٰ الأذهان، وقدرة الله عليه، فقال: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾، وقدَّروا في الكلام: أرأيت، علىٰ طريقة الاكتفاء،

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٣٩).

لإثبات التعجيب أيضاً، وقالوا: إنَّ التقدير: أو رأيتَ مَثَلَ الذي مرَّ علىٰ قرية، في إلمام ظلمة الشُّبهة به وإخراج الله إيَّاه منها إلىٰ النور، وإنما جاء بالكاف للتنبيه علىٰ تعدُّد الشواهد، لأن مُسْتَبْعدي الإحياء كثيرون.

وأقول: يجوز أن تكون هذه الكافُ مقدَّرةً في المثل الأول أيضاً علىٰ نهج القرآن في الاحتباك، فقد حذف نظيرها، من المثل الأول اكتفاءً بها، وحذفت كلمة «أرأيت» من هذا المثل اكتفاءً بنظيرتها في المثل الأول، والتقدير: ألم تر إلىٰ مَثَل الذي حاجَّ إبراهيم... إلخ، أو رأيتَ مَثَل الذي مرَّ علىٰ قرية ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، و«العروش»: جمع عرش، وهو السقف.

وكلمة «خاوية» لها معنيان: الأول: بمعنىٰ ساقطة، والثاني: بمعنىٰ خالية.

وقد اختلفوا في معنىٰ الآية علىٰ وجهين: فقيل معناها: وهي ساقطة علىٰ سقوفها، وذلك بأن سقطت السقوف أولاً ثم تهدَّمت الجدران عليها. من قولهم: خوىٰ البيت. وقيل: معناها: وهي خالية من أهلها ثابتة علىٰ سقوفها. وكِلا المعنيين يُؤْذن بخراب الديار وفناء أهلها.

فلما رأىٰ هذا المارّ هذه القرية علىٰ هذه الحالة، ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟ أي: كيف يُحيي الله أهل هذه القرية بعد فنائهم؟ يُظهر استعظامه لكيفيَّة ذلك وحَيْرته منها. ويجوز أن تكون ﴿أَنَّىٰ﴾ بمعنىٰ: متىٰ، ومفاد الكلام: التَّحسُّس بشدَّة حال هذه الأرواح من جرّاء طول المدة التي مرَّت عليها، والتي ستمرُّ بعد ذلك. والله أعلم. وإذا لم يكن هذا هو غرض السائل، فلا أقلَّ من أن يكون عنصراً فيه مهماً، لأنَّ ما في الجواب من السؤال عن اللُّبث يُؤَيِّد ذلك بمقتضىٰ أساليب القرآن، والشبهةُ قد تعرض للمؤمن[1]، فيطلب المَخْرَج منها بالبرهان.

(١) في كونها شبهة عرضت لهذا الرجل ـ ولعله أحد الأنبياء كما يرىٰ بعضُ المفسرين فيقولون: =

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾[١] أي: أقامه، مأخوذ من قولهم: بعث الناقة، إذا أقامها من مكانها. وفي اختيار الكلمة إشارة إلىٰ سهولة هذا الإحياء عليه تعالىٰ.

قال الأستاذ الإمام: إنَّ من الموت ما يمتدُّ زمناً طويلاً يفقد به صاحبُه الحسَّ والإدراك والحركة من غير أن تُفارق الروح البدن بالمرَّة مثل ما كان لأهل الكهف، وقد عبَّر عنه تعالىٰ بالضرب علىٰ الآذان. قال صاحب «المنار»: ولعل وجه هذا التعبير هو أنَّ السمع آخر ما يُفْقَد من إدراك مَنْ أخذه النوم أو الموت[٢].

ثم قال في هذه الآية ما ملخَّصه: وقد ثبت في هذا الزمن أنَّ من الناس من تحفظ

---

= إنه عُـزَير ـ نظر، والسؤالُ عن الكيفية لا يؤثر في حقيقة الإيمان بالفعل والإيقان به، كما قرَّره المؤلف نفسُه في مواضع من هذا التفسير.

(١) يظهر لي ـ والله أعلم ـ أن ما جرىٰ لـهذا القائل عين ما جرىٰ لأصحاب الكهف من النوم الطويل، ولكن القرآن عبَّر هنا عن ذلك بالموت جرياً علىٰ المعنىٰ العرفي ومناسبة السؤال، وعبَّر عنه في أصحاب الكهف بالضرب علىٰ الآذان جرياً علىٰ المعنىٰ الحقيقي. هذا ما أظنه. والله أعلم.

ومن أساليب القرآن وخصائصه: أن يطوي في السؤال ما يدلُّ عليه الجواب، فيظهر أنَّ السائل ـ والله أعلم ـ استطال الأزمان المارَّة علىٰ أهلها واستعظم شدَّة شعورهم تجاه ذلك، فأبان له سبحانه أنهم يرونها قليلة وإن كانت عديدة بنظر أهل الدنيا، لأن الأزمان تقصر أو تنعدم في حياة الأرواح المجرَّدة عن الأبدان، مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦] علىٰ أحد المعنيين. فالزمان والمكان من خصائص المادة. هذا ما يظهر لي. والله أعلم.(المؤلف).

وتفسيرُه الموت هنا بالنوم الطويل؛ فيه عدولٌ عن ظاهر اللفظ من غير مقتضٍ، بل سياق الآية يُمنعه، ويُرجِّحُ تفسير الموت بحقيقته المعروفة، والله أعلم.

(٢) تفسير «المنار» (٣: ٤٢).

حياته زمناً طويلاً من شهر أو أقل إلىٰ أربعة أشهر يكون فيها فاقد الحس والشعور، ويُعبِّرون عن ذلك بالسُّبات، وهو النوم المُسْتغرق الذي سمَّاه الله وفاة. ويجري ذلك علىٰ سُنَن طبيعيَّة[١] لم يهتد إليها الأكثرون.

وقد أجرىٰ الله تعالىٰ إماتة هذا الميِّت علىٰ مثل هذه السنن. والله أعلم.

ثم بعثه و﴿قَالَ﴾ له: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ يقول ذلك اسْتقصاراً لمدَّة لبثه. فيظهر ـ والله أعلم ـ أن الأرواح بعد ما تتجرَّد عن الأبدان ينعدم لديها الزمان والمكان، كما قال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، علىٰ أحد المعنيين.

وبعد أن قال ذلك ﴿قَالَ﴾ تعالىٰ مُبيِّناً حقيقة حاله: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: لم يفسد بمرور السنين.

وهذه الظاهرة العجيبة أيضاً، يجوز أن تكون جاريةً علىٰ سُنَن الله الطبيعية التي اهتدىٰ الناس إلىٰ شبهها من حفظ الأطعمة مدةً طويلة وإن لم يهتد لها تماماً علىٰ عين هذه الصورة، والله أعلم[٢].

ومفاد الكلام ومُحصَّله: أنَّ النواميس الطبيعيَّة ليست محصورة بما نعلمه منها، بل هناك نواميس لا نعلم عنها شيئاً، منها: نواميس حفظ الأجسام من التفسُّخ والتَّسنُّه، ومنها: رفع الأزمان في حياة الأرواح المجرَّدة عن الأبدان.

---

(١) تقييدُه ذلك بجريانه علىٰ سنن طبيعية مما لا يُوافَق عليه، نعم... بعضُه يجري علىٰ سنن طبيعية، وبعضه لا يجري عليها فيكون خارقاً للعادة.

(٢) بل هذه الظاهرة العجيبة خارجة عن السنن الطبيعية، والله سبحانه الذي خلق السنن الكونية يخرقها إذا شاء، وما توصَّل إليه الناس من حفظ الأطعمة لمدة طويلة لا يقاس علىٰ الإماتة ثم الإحياء.

ففي الآية إيذانٌ له بأن ما تنكره الآن بناء علىٰ ما تعلمه من النواميس، غير منكر في الآخرة لاختلاف النواميس، والله أعلم.

وقد اختلفوا في المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾، فقيل: معناه: انظر كيف مات وتفرَّقت أو تفتَّت عظامه، فلولا طول المدة لم يكن كذلك.

وقيل: معناه: انظر كيف بقي حياً طول هذه المدَّة، علىٰ عدم وجود مَنْ يعتني بشأنه[1]. ويجوز أن يكون نام نَوْمةَ صاحبه وانتبهَ انتباهه مثل كلب أهل الكهف، والله أعلم.

وعلىٰ كلٍّ ففي أمر الحمار والطعام والشراب بيانٌ لأنَّ سنن الله في الكائنات لا تقتصر علىٰ ما نعرفه منها، وإنَّ ما نعرفه قطرة من بحر خضمٍّ لا يعلمه إلا الله، ولا سيما أحوال الآخرة.

ثم قال: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ إذ يُشاهدونك وأنت من أهل الأزمان الخالية، ويشاهدون فيك قُدرة الله العليَّة. وفي الكلام العطف علىٰ المحذوف علىٰ نهج إيجازات القرآن، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

وتقدير الكلام علىٰ ما ذكره الأستاذ الإمام: لنزيل تعجُّبك ونُريك آياتنا في نفسك وطعامك وشرابك وحمارك، ولنجعلك آية للناس[2].

---

(١) دعوىٰ أنَّ الحمار بقي حيّاً طوال هذه المدة، إبطالٌ للمراد من الآية، وهي: الجواب عن السؤال الذي مرَّ علىٰ القرية الخاوية ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟ فبقاء الحمار حيّاً طوال هذه المدة باطل من القول، وتعسُّف بالتأويل، والمعنىٰ الصحيح الذي أشار إليه المؤلف أولاً في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ أي: انظر كيف مات وتفرَّقت أو تفتَّت عظامه.

(٢) تفسير «المنار» (٣: ٤٣).

ثم قال تعالىٰ في إتمام البيان: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾، فقال من ذهب إلىٰ أنَّ الحمار مات: إنَّ المراد بالعظام هنا عظامُه. ومعنىٰ «ننشزها»: نُنمِّيها ونُركِّبها بعد أن تَفَصَّلت وتحلَّلت، لتشاهد كيفيَّة الإحياء في غيرك بعدما علمته في نفسك.

ومن قال: إنَّ الحمار لا يزال حياً، يقول: إنَّ المراد من العظام جنسُها، فقد قال الأستاذ الإمام: إنه بعد أن أراه الآية التي تكون حُجَّة خاصَّة لمن رآها، نبَّهه إلىٰ الحُجَّة العامَّة والدليل الثابت الذي يُمكن أن يُحتجَّ به علىٰ البعث في كلِّ زمان ومكان، وهو سنَّة الله تعالىٰ في تكوين الحيوان وإنشاء لحمه وعظمه في بطن أمه أو بيضته، فالإنشاء معناه: الإحداث والتقوية، والإنشاز معناه: التنمية، لأنَّ الذي ينمو يعلو ويرتفع. كأنه يقول: كما أطلعناك علىٰ بعض الآيات الخاصَّة التي تدلُّك علىٰ قدرتنا علىٰ البعث، نهديك إلىٰ الآية الكبرىٰ العامة فافتكر بها، وهي كيفيَّة التكوين، كيف أنَّ الله سبحانه ينشئ عظام الحيوان والإنسان ثم يُنمِّيها ثم يكسوها لحماً، كما قال تعالىٰ: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤].

والقرآن يُكرِّر الاحتجاج بهذه الآية الكونية التي هي أصل النشأة، ويستدلُّ بها علىٰ إمكان الحشر، قال تعالىٰ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ أي: ظهر واتَّضح له ما ذكر، ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾[1] علماً يقيناً مُؤيَّداً بآياتِ الله في نفسي وفي الآفاق.

---

(١) لما كان سؤال المار علىٰ القرية ليس له نظير في عالم المادة، لم يكن إفهامه بطرق العلم النظرية، حتى أعلمه سبحانه ذلك بطريقة عملية في نفسه، ولما كان سؤال إبراهيم عليه السلام الآتي =

والتعبير بصيغة المضارع للإشعار بأنه إنما قال ما قال بناءً علىٰ الاستبعاد العادي، واستعظاماً للأمر، وإلا فإنَّ علمه بقدرة الله تعالىٰ التي لا يستعصي عليها أمر، علمٌ مستمرٌّ لم يتغيَّر ولم يتبدَّل.

ويظهر لي ـ علىٰ نهج القرآن في إجمال السؤال والدلالة عليه بتفصيل الجواب، والله أعلم ـ أنَّ السائل استطال مدَّة البرزخ من الأزمان الطويلة التي مرَّت علىٰ أمثال أهل هذه القرية، وتخيَّل صعوبة ذلك عليهم، ولا سيما أنَّ ما مرَّ عليهم قليلٌ من كثير ممَّا سيمرُّ عليهم، فبيَّن له سبحانه بالواقع أنَّ له سُنناً في كونه ونظامه تُقرِّب البعيد وتجعل المُدَدَ الطويلة قصيرة؛ إذ الأرواح المجرَّدة لا تتقيَّد بالزمان والمكان، والله أعلم، فعلم السائل علماً واقعياً قدرةَ الله سبحانه علىٰ ذلك ونظامَه في أمر البرزخ، وأنَّ السنن الماديَّة التي نعرفها مخالفةٌ لسنن ما وراء الطبيعة والعالم الثاني. والشبهة قد تعتري المؤمن فيسأل عنها ويستوضحها، وقد يطلب زيادةَ علم في الموضوع، وذلك لا مَعَرَّة فيه ولا إجرام.

قال صاحب «المنار»: وسأل الأستاذَ الإمامَ سائلٌ عن كيفيَّة هذا التكلُّم مع الله؟

---

= مما له نظير في عالم الطبيعة، أفهمه إياه بطريقة نظريَّة، وهي المقايسة بالطير، بطريقة قياس المجهول علىٰ المعلوم، وتكشيفه وإيضاحه به.

وفي القصتين إيماءٌ إلىٰ أنّ الخفاء في ناحية من نواحي الموضوع العلمي يقع حتىٰ للأنبياء والصدِّيقين، وبما أنه سبحانه وليُّهم، يُـخْرجهم من تلك الظلمة إلىٰ نور اليقين بالإيضاح والتبيين. والله أعلم.

ولذلك كان النبي ﷺ يسأل من جبريل، وربما يستمهله جبريل حتىٰ يسأل من الله عزَّ وجل فيجيبه، وكان ﷺ إذا سئل عن أمر لم يكن له فيه علم، أو فيه بعض خَفَاء، يتوقّف عن الجواب حتىٰ يأتي به الوحي من الله. (المؤلف).

فقال: إنَّ الله تعالىٰ لم يُبيِّنه، وهو مما لا يُدركه كلُّ سامع، فكانت الحكمة في عدم بيانه. وإنما سأل السائل، لأن الأستاذ جرىٰ علىٰ أنَّ الذي مرَّ علىٰ القرية صدِّيق، أما علىٰ القول بأنه كان نبياً فهذا التكليم كان من الوحي، ولا يَبعُدُ أن يكون ما في القصة لنبيٍّ قرِّرت به الحجَّة هكذا، كما وقع لإبراهيم عليه السلام، وقد يقع في نفوس الصِّدِّيقين من المعاني والأفكار الصحيحة ما لا يقع في نفوس غيرهم، فيعدّ من إلهام الله تعالىٰ إيَّاهم ذلك، كإلهام أم موسىٰ ما أُلهمت به، وقد يُعبَّر عنه بالوحي، ويحكىٰ عنه بمثل ما يحكىٰ عن التكليم(١)(٢).

ثم ذكر مثالاً آخر لولاية الله تعالىٰ للمؤمنين وإخراجه إيَّاهم من الظلمات إلىٰ النور، وهو كالذي قبله من آيات البعث أو شيء من مُلابساته.

وأما المثال الأول ـ وهو مُحاجَّة مَنْ آتاه الله تعالىٰ الـمُلكَ لإبراهيم عليه السلام ـ فهو من الآيات علىٰ وجود الله واختصاصه بالألوهيَّـة. والحكمةُ في ذِكرِ مثال واحد في إثبات الربوبيَّـة، ومثالَيْن في إثبات البعث: أنَّ منكري البعث أكثر من منكر الألوهية، لذلك ذكر مثالاً ثانياً لإثبات مُلابسات البعث، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ

---

(١) أقول: أما يحتمل أن يكون أسلوبُ المكالمة حكايةً لما دار في خاطره وما جرىٰ له وعليه، كما ذكرتُ مِثلَه في كلام الله مع الملائكة في شأن آدم، وفي كلام الله مع إبليس، وفي كلام الله الآتي مع إبراهيم عليه السلام، والعلم عند الله الحكيم العليم. (المؤلف).

قلت: هذا الاحتمال الذي يقرره المؤلف ـ غفر الله له ـ باطل، فكلام الله مع الملائكة ومع إبليس ليس حكاية لما دار في خواطرهم، كما سبق تقريره، وكذلك كلام الله تعالىٰ مع هذا الرجل في هذه القصة، وكلامه مع إبراهيم عليه السلام في القصة الآتية، فاللفظ صريحٌ في التكليم والمحاورة، وهو غير محتمل لحمله علىٰ حكاية ما يجول في الخواطر بحسب لغة العرب، نعم.. هو محتمل لأن يكون تكليماً مباشراً أو بواسطة، والقرائن تُعيِّن الثاني، فينبغي المصير إليه.

(٢) تفسير «المنار» (٣: ٤٤).

﴿تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وهذا معطوف علىٰ ما قبله، والتقدير: أَوَرأيتَ إذ قال إبراهيم... إلخ، وإنما قدَّم بين يدي الدعاء كلمةَ الاستعطاف، وهي ﴿رَبِّ﴾، مبالغةً في استدعاء الإجابة.

فلما قال إبراهيم ذلك ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؟ وهذه الهمزة للإثبات والتحقيق، يُشبهها قول جرير:

ألستُم خيرَ مَن ركبَ المطايا[1]

والمعنىٰ: أَوَلست قد آمنتَ وصدَّقتَ أني أُحيِّي الموتىٰ وأصنعُ ملابساتِ ذلك ومتعلقاته؟

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿بَلَىٰ﴾ قد أوحيتَ إليَّ فآمنتُ وصدَّقت، ﴿وَلَٰكِن﴾ تاقَتْ نفسي للخبر وزيادة العلم بعد الخبر، وللوقوف علىٰ كيفيَّة هذا السِّرّ؛ ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ بزيادة العِرفان بعد خبر الوحي وإدراك البرهان. فهو يتطلَّب علماً اطمئنانياً لا علماً ابتدائياً، وتفصيلاً بعد الإجمال.

وقال ابن عباس: لأرىٰ من آياتك وأعلَمَ أنك قد أحببتَني وأجبتَني لما طلبت[2].

قال الأستاذ الإمام: وفي قوله تعالىٰ لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ وهو أعلَمُ بإيمانه ويقينه، إرشادٌ إلىٰ ما ينبغي للإنسان أن يقف عنده ويكتفي به في هذا المقام،

---

(١) هو صدر بيت له عجزه:

وأندىٰ العالمين بطون راحِ

وهو في ديوانه ص٩٣.

وجرير: هو ابن عطية بن حذيفة الخَطَفي بن بدر الكلبي اليربوعي (٢٨ - ١١٠هـ)، من أشعر أهل عصره، وكان عفيفاً من أغزل الناس شعراً. «سير أعلام النبلاء» (٤: ٥٩٠ - ٥٩١)، و«الأعلام» للزركلي (٢: ١١٩).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢: ٥٠٩).

فلا يتعدَّاه إلىٰ ما ليس من شأنه، كأنه يقول: إنَّ الإيمان بهذا السرِّ الإلٰهي والتسليم فيه لخبر الوحي ودلائله وأمثاله المشابهة: هو منتهىٰ ما يُطلَبُ من البشر، فلو كان وراء الإيمان والتَّسليم مُطَّلَعٌ لناظر، لبيَّنه الله لك. وفي هذا الإرشاد لخليل الرحمن تأديبٌ للمؤمنين كافّة، ومنعٌ لهم من التفكّر في كيفية التكوين وأسراره، وإشغالِ نفوسهم بما استأثر الله تعالىٰ به، فلا يليق بهم البحث عنه.

وقد فهم بعض الناس من هذا السؤال: أن إبراهيم عليه السلام كان قلقاً مُضْطرباً في اعتقاده بالبعث. وما أبلدَ أذهانَهم وأبعدَ أفهامهم!

وقد ورد في «الصحيحين»: «نحن أحقُّ بالشك من إبراهيم»[1]، أي: إننا نقطع بعدم شكِّه كما نقطع بعدم شكِّنا، أو أشد قطعاً. وليس في الكلام ما يُشعِرُ بالشك، فإنه ما من أحد إلا هو يؤمن بأمور كثيرة إيماناً يقينياً، وهو لا يعرف كيفيَّتها، ويودُّ لو يعرفها. فهذا الراديو ينقل الكلام من الأماكن البعيدة، ويوقن كلُّ الناس أنه ينقل الصوت حقيقة، ويقلُّ فيهم العارفُ بكيفية نَقْله، أفيقال فيمن طلب بيان هذه الكيفية أنه شاكٌّ بالأمر؟ كلا، فإنَّ طلبَ المزيدِ في العلم، والرغبةَ في استكناه الحقائق، والتَّشوُّفَ إلىٰ الوقوف علىٰ أسرار الخليقة، مما فطر الله عليه الإنسان. وأكمَلُ الناس علماً وفهماً أشدُّهم لذلك طلباً، وأكثرُهم تتبُّعاً للوقوف علىٰ المجهولات وأسرار الكون. وقد كان طَلَبُ الخليل عليه السلام رؤيةَ كيفية إحياء الموتىٰ بعَيْنه من هذا القبيل، فهو طلبٌ للطمأنينة فيما تنزع إليه نفسه القدسيَّة من معرفة خفايا أسرار الربوبيَّة، لا طلبٌ للطمأنينة في أصل عقيدة الإيمان بالبعث، الذي عرفه بالوحي والبرهان، دون المشاهدة والعيان. هذا ما قاله صاحب «المنار» بتصرُّف[2].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١)، عن أبي هريرة.

(٢) تفسير «المنار» (٢: ٤٥-٤٦).

فلمـا قال إبراهيم عليه السلام ذلك ﴿قَالَ﴾ له تعالىٰ: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ وأكثرُ المفسِّرين علىٰ أنَّ ﴿صُرْهُنَّ﴾ بضم الصاد أو كَسْرِها؛ بمعنىٰ: أمِلْهُنَّ إليك، مِن قولهم: صاره يَصيرُه أو يَصُورُه؛ بمعنىٰ: أمالَه.

وقالوا: إنَّ إبراهيم عليه السلام لما طلب من ربه أن يُطلِعَه علىٰ كيفيَّة إحياء الموتىٰ، أمره تعالىٰ أن يأخذ أربعةً من الطير ويُميلَهن إليه؛ ليتأمَّل فيهنَّ ويعرف أشكالـهنّ وهيئاتهن؛ لئـلا يلتبس عليه بعدُ الإحياء، ثم يُقطِّـعُهنَّ أجزاء يُفرِّقها علىٰ عدة جبال. وقالوا: حذف من الكلام (وقَطِّعْهنَّ) لدلالة السياق عليها، ومثل ذلك من سُنَّـة إيجاز القرآن.

وقال بعضهم: ﴿صُرْهُنَّ﴾ بمعنىٰ: قطِّعهن، لا بمعنىٰ: أمِلْهُنّ، من قولهم: صاره يَصيرُه؛ إذا قطعه وفصله صوراً صوراً، يتعدَّىٰ بنفسه. ويكون قوله: ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلِّقاً بـ﴿خُذْ﴾، أو متعلِّقاً بمحذوف يكون حالاً من الضمير، أي: فصُرْهُنَّ مقرَّبةً مُمالةً إليك.

وقالوا: إنَّ إبراهيم عليه السلام قد فعل ذلك، ثم دَعَاهُنَّ، فأحياهنَّ الله وجِئنَ إليه أحياء كما كُنَّ. وخالفهم أبو مسلم المفسِّر الشهير، فقال: ليس في الكلام ما يدلُّ علىٰ أنه فعل ذلك، وما كلُّ أمر يُقصَد به الامتثال، فإنَّ من الخبر ما يأتي بصيغة الأمر، لا سيما إذا أريد زيادة البيان، كما إذا سألك سائل: كيف يُصنَع الحبر مثلاً؟ فتقول: خذ كذا وكذا، وافعل به كذا وكذا، يَكُنْ حبراً. تريد كيفيتَه، ولا تعني تكليفَه صُنعَ الحبر بالفعل.

قال: وفي القرآن كثيرٌ من الأمر الذي يُراد به الخبر، والكلام هاهنا مَثَل لإحياء الموتىٰ وعَوْد الأرواح إلىٰ الأجساد، علىٰ سبيل السهولة ودون اختلاف. ومعناه: خُذْ أربعةَ أنواع من الطير، فضُمَّها إليك وآنِسْها بك حتىٰ تأنس وتصير بحيث تجيبُ

دعوتك، فإنَّ الطيور من أشدِّ الحيوان استعداداً لذلك، بسائر أنواعها، أو بأكثرها، لا سيما أنواع خاصَّة منها، ثم اجْعَل كلَّ جزء منها علىٰ جبل، ثم ادْعُها، فإنها تُسْرع إليك عارفةً أماكنها، لا يمنعها تفرُّق أمكنتها وبُعدُها من ذلك. كذلك أمْرُ ربك إذا أراد إحياء الموتىٰ يدعوهم بكلمة التكوين: كونوا أحياءً، فيكونوا أحياءً، كما كان شأنه في بَدْء الخلق إذ قال للسماوات والأرض: ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا: أتينا طائعين. من «الرازي» بتصرُّف[1].

وقد ذكر ما أوردوه علىٰ أبي مسلم، وما أجاب به عنه، والمدارك التي جعلت أبا مسلم يميل لهذا الرأي، ويقول به، فارجع إليه[2].

---

(١) «تفسير الرازي» (٧: ٣٤).

(٢) قول أبي مسلم هذا فيه تكلُّف ظاهر، ويكفي في ردِّه أن النوع لا يُسمَّىٰ جزءاً لجنسه، وكذا الفَردُ لا يُسمّىٰ جزءاً لنوعه، فالجزء المذكور في قوله: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ لا بدَّ أن يكون قطعة من شيء لا تحيا بنفسها. وقد استشعر المؤلف قوة هذا الإيراد علىٰ قول أبي مسلم، فحاول أن يجيب عنه في كلامه الآتي، فانظره.

كذلك فإن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ يردُّ ما قاله أبو مسلم، وأقرَّه المُؤلِّفُ عليه.

وليعلم أن إبراهيم عليه السلام لم يشك في قدرة الله علىٰ إحياء الموتىٰ، وذلك أنه قرّر في الآيات التي قبلها إيمانه بهذه الحقيقة، حينما قال للنمرود: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، ولأن الشك يَبعُدُ وقوعه عمن رسخ الإيمان في قلبه، فكيف بمن بلغ رتبة النبوة، ودخل النار راضياً محافظة علىٰ دينه؟!

وليُعلم أن سؤال الله تعالىٰ آية من الآيات مشروع لآحاد الناس كما هو مشروع للأنبياء، سواء كان ذلك طلباً لزيادة الإيمان، أو لدعوة الناس للإسلام.

وقد وقع مثل هذا من غلام الأخدود، كما روىٰ قِصّتَه مسلم في «صحيحه» (٣٠٠٥)، وفيها: «.. فبينما هو كذلك إذ أتىٰ علىٰ دابة عظيمة، قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر =

أقول: وكلمة ﴿ٱدْعُهُنَّ﴾ أكثر ملائمةً لرأي أبي مسلم، وربما يَرُدّ في بادئ الرأي علىٰ أبي مسلم قولُه تعالىٰ: ﴿إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾، ولم يقل: واحداً.

والجواب البديهي أولاً: أنَّ عدد الأشياء يتجزَّأ، وأجزاؤه آحاد، وثانياً: أنه إنما عبَّر بهذا التعبير لأنَّ المراد به إبعادها عن مركزها مُتفرِّقة، بأيِّ صورة كانت، سواء كان ذلك بجَعْل كل اثنين منها علىٰ جبل، أو بجَعْل اثنين علىٰ جبل، وواحد علىٰ جبل، وآخر علىٰ جبل، أو بجَعْل كل واحد علىٰ جبل، لا فرق في ذلك. وقد قال سبحانه في تصنيف أهل النار: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤][1].

ويجوز أن يُراد بالأربعة: مطلق العدد؛ لأنه أكثر من أقل الجمع[2]، ويكون المعنىٰ: فَخُذ عدداً من الطير... إلخ، فيكون ذِكرُ الجزء واضحاً في الكلام.

---

= الساحر، فاقتل هذه الدابة، حتىٰ يمضي الناس، فرماها فقتلها، فمضىٰ الناس»، ووقع كذلك للطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه لـما أسلم قال للنبي ﷺ: إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلىٰ الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية، تكون لي عوناً فيما أدعوهم إليه، فقال: «اللهم اجعل له آية» قال: فخرجت إلىٰ قومي حتىٰ إذا كنت بثنية تطلعني علىٰ الحاضر، وقع نور بين عيني مثل المصباح، قال: فقلت: اللهم في غير وجهي، فإني أخشىٰ أن يظنوا أنها مثلة لفراقي دينهم، فتحولت في رأس سوطي. انظر «أسد الغابة» (٣: ٧٨). والله أعلم.

(١) السياق هنا يدلُّ علىٰ أن الجزء هو مجموعة من الأفراد، ولا يمكن حَمْلُه علىٰ الجزء الحقيقي، وهو بعضُ الفرد الواحد، فيتعين القول بذلك، بخلاف سياق قوله: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ فإن المعنىٰ الظاهر منه: هو بعضُ الفرد الواحد، لا الواحد من الأربعة، فلا ينبغي العدول عن هذا المعنىٰ الظاهر من غير قرينة.

(٢) هذا غير سائغ في لغة العرب، فإنها تستعمل ألفاظ الأعداد لعددها الحقيقي، إلا أعداداً بعينها استعملتها العرب في حقيقتها تارة، وفي معنىٰ التكثير تارة، كالسبعة والسبعين. والأصلُ حَملُ الكلام علىٰ حقيقته، إلا أن يدلَّ دليلٌ علىٰ صَرْفه إلىٰ المجاز.

وكذلك ربما يعثر الفِكر في قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾، فيظن أنَّ في طلب الرؤية دلالةً علىٰ أنه أراد أن يُريه كيفيَّة ذلك بالعيان. والجواب: أنَّ من سنن القرآن تصوير الأمر المتحقِّق بالظاهر المرئي، فيستعير له الرؤية، وقد جَرَىٰ هنا علىٰ هذه السنَّة، فذكر الرؤية وأراد الإفهام بوضوح وجلاء. أي: أفهِمْني ذلك إفهاماً جلياً، ومثل ذلك سائغ في عُرْف التَّخاطب.

ويؤيِّد رأيَ أبي مسلم أنَّ ما ذكروه من هذه العمليَّة لا تدلُّ علىٰ الكيفيَّة، وإنما تدل علىٰ الإيجاد، ويؤيِّده أيضاً ختامُ الكلام بهذه الفاصلة: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾، ولم يقل: (علىٰ كل شيء قدير). والمعنىٰ: إنه بعزَّته تعالىٰ غالبٌ علىٰ أمره، وبحكمته تعالىٰ جَعَل أمر الإعادة موافقاً لحكمة التكوين.

وقد ظهر لي من الآية علىٰ ضوء ما قاله أبو مسلم: أنَّ المراد منها البيانُ التمثيليُّ لا حكاية أمر واقع، وأنَّ طلب إبراهيم عليه السلام إنما كان عن كيفيَّة عَوْدة كلِّ روح إلىٰ جَسَدِها من دون اختلاف وارتباك، يُفهَمُ هذا من فحوىٰ الجواب علىٰ نهج القرآن في إيجاز السؤال، اعتماداً علىٰ تفصيل الجواب[1]، (كما جاء في الفقرة (١)

---

(١) إن سؤال إبراهيم وقع بـ«كيف؟»، فدلّ علىٰ الاستفهام عن حالِ شيء موجودٍ مُقرَّرٍ عند السائل والمسؤول، فكان السؤال عن هيئة الإحياء لا عن ذات الأحياء، وكأن سيدنا إبراهيم أراد أن يترقّىٰ في هذا المقام من علم اليقين إلىٰ عين اليقين، بدليل قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي ليزداد سكوناً بالمشاهدة المنضمة إلىٰ اعتقاد القلب، لأن تظاهر الأدلة أسكن للقلوب، ولذلك قال النبي ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ويرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلىٰ ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي» رواه البخاري (٣٣٧٢)، أي إذا كان الشك متطرقاً إلىٰ الأنبياء، لكنت أنا أحق به منهم، وقد علمتم أني لم أشك، فاعلموا أنه لم يشك، وإنما قال النبي ﷺ ذلك تواضعاً، وقبل أن يُعلم أنه أفضل الأنبياء. وقد ذكرنا لك =

من السادة الثامنة من المقدمة الثانية).

وعبارة: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ تتَّسع لمثل هذا المعنىٰ بحسب عُرْف التخاطب[١]، فيغلب علىٰ الظن أنه هو المراد، وإذا لم يكن هذا مُرتكز الجواب، فلا أقلَّ من أن يكون عنصراً فيه مهماً. والله أعلم.

وفي مادة هذا الجواب ودلالة تمثيله إيماءٌ إلىٰ أنَّ الأرواح لا يزال لها اتِّصالٌ وتآلف بأجسادها بعد الموت، مثل تآلف الطيور بأوكاره التي سكنتها مدَّة وبعدت عنها، فهي لا تجهل مواقعها وأعيانها مهما بعدت عنها وانقطعت الصِّلة بها، فمتىٰ ما أفلتت عادت إليها، كما نجد ذلك في كثير من أنواع الطيور، سيما المهاجرة منها.

فجعل سبحانه وتعالىٰ هذا الأمر في الطيور تمثيلاً وتنظيراً لعودة كلِّ روح إلىٰ جسدها بعد إعادته، من دون ارتباك، وأجاب به إبراهيم عمَّا سأله، توضيحاً للأمر وتمثيلاً له. والله أعلم.

ومما يخطر ببالي ـ والعلم عند الله ـ أنه يجوز أن تكون هذه المحاورةُ حكايةَ حالة نفسيَّة وخاطر مرَّ بفكر إبراهيم عليه السلام، فالتمس له حلاً، فهداه الله لهذا الجواب. كما خطر لي مثل هذا في مكالمة الله للملائكة في خلقة آدم، فعلَّقت عليه هناك[٢]. والله

---

= ذلك لتعلم حقيقة سؤال إبراهيم، قال القرطبي في «تفسيره» (٣: ٣٠٠): «والفكر في صورة الإحياء غير محظور، كما لنا نحن اليوم أن نفكر فيها، إذ هي فكر فيها عبر، فأراد الخليل أن يعاين، فيذهب فكره في صورة الإحياء».

(١) هذه دعوىٰ تفتقر إلىٰ دليل، ولو فتحنا هذا الباب لادعىٰ كل أحد أن آيات القرآن تتسع لمعانٍ يُورِدُها بحسب عرف التخاطب! والأصل: أنه لا يُصار إلىٰ مثل ذلك، إلا بقرينة دالةٍ عليه، تنسجم مع السياق.

(٢) وتقدَّم هناك نقدُه وبيانُ ضعفه، ولا ينقضي العجب من المؤلف رحمه الله كيف صار إلىٰ هذا الرأي في مواضع، مع ظهور ضعفه لمخالفته صريح اللفظ.

أعلم. وهذا مجرَّد رأيي في الموضوعين للمبالغة في التنزيه، فإن أصبتُ فالحمدُ لله، وإن أخطأت فأستغفر الله وأتوب إليه.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾.

ثم عاد سبحانه وتعالىٰ إلىٰ الترغيب في الإنفاق بصورة تمثيلية مجسَّمة، علىٰ سبيل القرآن في العودة إلىٰ الكلام عن الشيء الذي يريد أن يبحث عنه بحثاً مشبعاً، فينوِّع فيه المواعظ، (كما جاء في الفقرة (و) من المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية)، فعاد إليه بعد أن مهَّد له في القصص بإثبات البعث والجزاء، مبالغةً في الحثِّ عليه؛ لأنَّ ذلك يستدعي أن يُقدِّم الإنسان لآخرته ما ينال به السعادة ويدفع الشقاء، فحرَّضه سبحانه علىٰ الإنفاق، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي: لا ينحصر فَضْله، ولا يُحَدَّد عطاؤه، ولا يَضِيقُ عليه ما يتفضَّل به من الزيادة والتضعيف، ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ بمن يستحقُّ المضاعَفة، ويضع الأحكام في مواضعها، وإن لم تعلموا حكمة ذلك.

وهذا الـمَثَلُ من أبلغ الأمثال في التـرغيب للإنفاق، وأوضحِها بياناً في ذلك المعنىٰ. وفائدة الإنفاق تعود إلىٰ قوة الأمة وسعادتها وحفظها من العدوان، إذا أُنفق في سبيل تهذيبها وتأليفها وتقويتها، بنشر العلوم والمعارف والصناعة الراقية، وذلك يُنقِذُها من الجهل والذلِّ وسوء الحال وحطّة الفقر وفوضىٰ العطالة والبطالة ونتائجها السوداء، فتصبح عزيزةَ الجانب، وافرةَ الحرمة، قليلاً فيها الجهل والفقر والمرض، فيكون هذا الإنفاق كمثل أَبْرَكِ بذرٍ في أخصَبِ أرضٍ وحقل.

ثم بيَّن صفة الإنفاق الكامل علىٰ الفقراء، وما لصاحبه في الآخرة من عظيم الجزاء، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ أي: يوم يحزن المُمْسِكون عن الإنفاق في سبيل الله.

والمنُّ: هو أن يَتبَجَّحَ الـمُحْسن بإحسانه لمن أحسن إليه، ويذكرَه دائماً، ويُظهِرَ بذلك تَفَضُّلَه عليه. والأذىٰ: أن يَتطاولَ ويترفَّع دائماً علىٰ مَنْ أحسن إليه بسبب إنعامه عليه. وقيل: هو يشمل المنّ أيضاً، فهو أعمُّ منه. والإتيان بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لإظهار رتبة هذا المعطوف وعُلوِّ شأنه.

ثم أكَّد النَّهيَ عن المنِّ ببيان أنَّ القولَ الجميل يُرَدُّ به السائل أو يدعو به الناس للإنفاق في مشروع من المشاريع الخيريَّـة والمصالح العامَّـة، خيرٌ عند الله وأبقىٰ من صدقةٍ مَتْبوعةٍ بالمنِّ والأذىٰ؛ علىٰ نهج القرآن في تلوين الكلام عن الغرض الواحد بأساليبَ مُنوَّعة، زيادةً في تقريره وتحليله، فقال: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: أن تقولَ قولاً تؤيِّدُ به مصلحةً عامة، فتنفق من مالك، أو تردُّ به السائل رداً جميلاً تستوجب به مغفرة الله، ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ والمراد من هذا البيان: شدَّة تقبيح أمر المنّ والأذىٰ، لا تهوين أمر الصدقة، بتفضيل القول المعروف عليها.

وعطفُ (المغفرة) علىٰ (القول المعروف) من عطف المسبَّب علىٰ السبب. وقيل: ليس المراد بها مغفرة الله، وإنما المراد مغفرةَ المسؤول عمَّا صدر من السائل من إلحاح به أو من نسبة التقصير إليه.

ثم ختم الكلام بما يُلمح لحكمة الأمر بالإنفاق، مُدْمجاً في ذلك الحثَّ عليه، علىٰ نهج القرآن في السَّبْك، فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ أي: ولكنْ يأمر بالصدقة بينكم لتنظيم حالة الاجتماع، حسب السنن الكونية الحكيمة التي اقتضت تفضيل بعضكم علىٰ بعض في الرزق، وتعاونكم في شؤونه وسائر شؤون الحياة، ﴿حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ لا يُعجِّل بعقوبة مَنْ يستحقُّ العقاب، ممَّن لم يمتثلوا أوامره، ويتنكَّبون عن صراط الله العزيز الحكيم، ولكنه يُمْهِل ولا يُهْمِل. وفيه تقريعٌ للغنيِّ المُمْسِك، وبيانٌ لمنشأ صبره عليه سبحانه.

ثم تابع المعنىٰ في تقرير الموضوع وتمكينه في النفوس، بالتمثيل والأسلوب الخطابيِّ التقريريِّ، فمثَّل مثالاً للصدقة المَتْبوعة بالمنِّ والأذىٰ، يفيد أنه لا فائدة منها للمُنفق، ولا أجرَ لها، ولا ثوابَ عليها، واستَتْبع بطريقة التنظير نوعاً آخر من الإنفاق يشترك في هذه النتيجة، وهو الإنفاق المصحوب بالرياء، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ أي: لا تُحبطوا أجرَها بواحدٍ منهما، فتكونوا ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: فإنه لا يرجُو ثواباً ولا يخشىٰ عقاباً، فلا يُنفقُ إلا رياءً وسُمْعة.

﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ في نتيجة إنفاقه هذا ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ أي: كَمَثل حَجَر أملس عليه تراب، فأصابه مطر شديد أزاله عنه، فتركه ليس عليه شيءٌ من ذلك التراب، وقد كان منظرُ التراب حينما بدا به المطر يخدع بالخِصب والإنبات، ولكن ما لبث أن زال وانكشف الحال. وهذا من أبدع الأمثال؛ لعدم بقاء

الأثر، ونفيُ الاستفادة من الشيء يُظهِرُ أنه لا يستفيد من تلك الصَّدقة المقرونة بالمنِّ أجراً وثواباً.

ثم ذكر التصريح بعد التمثيل، علىٰ نهج القرآن في مثله، وذلك من أبلغ وجوه البلاغة، فقال: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ أي: لا ينتفعون بما أنفقوا، كالذي يأخذ شيئاً بيده فيفلت منه ولا يقدر علىٰ استرجاعه.

ثم علَّل مصدر ذلك العمل منهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ أي: مَضَتْ سُنَّته تعالىٰ في أنَّ الإيمان هو الذي يهدي قلبَ صاحبه إلىٰ الاستفادةِ من الخير وجَعْلِه بالصورة المثمرة، أما التَّمادي في الكفر والإعراض فيَحجُبُ القلبَ عن نور الحق ويُعمي البصيرة. وفيه تعريضٌ بأنَّ كلاً من الرياء والمنِّ والأذىٰ من خصائص الكفار، ولا بدَّ للمؤمنين أن يجتنبوها.

ومُحصَّل الآية: أنَّ المنَّ والأذىٰ هادمٌ للفائدة المقصودة من الصَّدقة، وهي تخفيفُ بؤس المحتاجين، وكشفُ أذىٰ الفقر عنهم، إذا كانت الصدقة للأفراد، أو تنشيط القائمين بخدمة الأمة ومساعدتهم، إذا كانت الصدقة تُجمَعُ في مصلحة عامة؛ وذلك لأنَّ المنَّ يُؤْذي الفرد والمجتمع، ويزيد في كسر نفوس البائسين، وكلُّ عمل لا يؤدِّي إلىٰ الغاية منه فهو حابط فاشل.

هذا وجه بطلانه وحبوطه في الدنيا، أما في الآخرة فلأن أثر هذه الأعمال في النفس إنما يكون إذا كانت لوجه الله، وتوجَّه القلب فيها إلىٰ الله، واستشعر عظمته وجلاله، وطلب منه الرحمة والغفران، فيعود ذلك إلىٰ إصلاح النفس، واستحقاق الفضل والإحسان في اليوم الآخر. أما المرائي المنَّان فإنه يتوجَّه إلىٰ مَنْ يُرائيه، ويطلب ثناءَهُ ورضاه، فلا يحصل علىٰ إصلاح الروح وتهذيب الأخلاق، لذلك مَثَّله سبحانه

بـ﴿صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾؛ لأنه لا ينتفع به في الدنيا؛ إذ المنُّ والرياءُ يجعلانه مبغوضاً عند من أحسن إليه وعند الناس أجمعين، ولا ينتفع به في الأُخرىٰ؛ إذ لم يكن لوجه الله، فلا أجر له عند الله في زُمْرة المخلصين، وذلك لأن الإيمان هو الذي يهدي صاحبه إلىٰ الإخلاص.

وبعد أن بيَّن سبحانه وتعالىٰ أنَّ ترك المنّ والأذىٰ شرطٌ لحصول الأجر علىٰ الإنفاق في سبيل الله، وأنَّ العدول عن الصَّدقة التي يتبعها الأذىٰ إلىٰ قول وعمل آخر يُكرَمُ به الفقير أو تُؤيَّد به المصلحة العامة، خيرٌ من نفس تلك الصَّدقة في الغاية التي شُرعت لها، وأقبل علىٰ المؤمنين فأدَّبهم بهذا الأدب العالي، ونهاهم نهياً صريحاً أن لا يُبْطلوا صَدَقاتِهم بالمنِّ والأذىٰ، وقارنَ بين الذي يفعل ذلك وبين الذي يُنفِقُ مالَه رياءً وسمعةً من المشركين، وضَرَبَ لهم المثل في فقدان أثر تلك الصَّدقة، والانتفاع بها أجراً وثواباً، بعد هذا كلِّه أتبع سنَّة القرآن في المقابلة بين الأصناف، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، فقابل المَثَلَ الذي ضربَه للمرائين في عدم الاستفادة من صدقتهم بضَرْبِ المثل للمُخلِصين في الإنفاق ومضاعفة ثمرته لهم، فقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بانطباعٍ من النفس وتثبيتٍ منها، ولا يكون ذلك إلا بتعويدها علىٰ البذل في مواطن الإحسان، المُنْبَعِث عن صادق الإيمان، فمَثَلُهم ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ فإن أشجار الرُّبىٰ تكون أرْبىٰ وأزْكىٰ، تنتفع بالمطر الخفيف وهو الطَّلّ، والغزير وهو الوابل.

لذلك قال تعالىٰ في إتمام الوصف: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: ثَمَرَها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي: مِثلَين، بمعنىٰ: أنها تُعطي ثمراً كثيراً بقدر مِثلَين من غيرها من الأشجار التي لم تكن علىٰ الربوات، ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ يكفيها ويُصْلح شأنها حُسْن موقعها بالنسبة للشمس والري، وجَوْدة تُربتها وكَرَم مَنْبتها.

ثم ختم الآية بقوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ حثاً على التمسُّك بما تقدَّم أمراً ونهياً، وتذكيراً بأنه لا يَخْفىٰ عليه المُخلِصُ من المُرائي، وتحذيراً من خفيِّ الرياء المحبط للأجر والثواب.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾.

ثم عاد فضَرَبَ مَثَلاً للمنَّان المُبْطِل لِصَدَقته والمُرائي المُبْطِل لعمله، في عدم الاستفادة منه في الآخرة، ضربَه بمن يفقد أعزَّ ما عنده في أحوج ما يكون إليه، وصدَّره بصيغة الإنكار، فقال: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، قال السيوطيّ في «الإتقان» ما مُلخَّصه: وإنما وَصَف الجنةَ بهذا الوصف الممتاز من الجنان، ليُعظم مُصابَ صاحبها بها[1].

ثم أكمل الوصف بقوله: ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: من كلِّ ما يكون في الجنان الفائقة من أنواع الثمار، وإنما ذكر هذا ليشتدَّ الأسف على إفسادها.

---

(١) «الإتقان» (٣: ٢٥٢).

ثم قال في وصف صاحبها: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ ليبيِّن شدَّة حاجته إليها، وعِظَمَ مُصابه فيها.

ثم أكمل الوصف بما يوجب زيادةَ تعظيم المصاب، فقال: ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾.

ثم ذكر استئصال الجنة ـ التي ليس لهذا المصاب بها غيرها ـ بالهلاك في أسرع وقت، حيث قال: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ والإعصار: ريحٌ عاصفة مستديرة كهيئة العمود. والمراد: أنَّ الـمُنفِقَ سيكون يوم القيامة عند شدَّة الحاجة إلىٰ ثواب نفقته، مِثلَ هذا الشيخ بما أصابه.

ثم ختم البيان مُنوِّهاً لشأنه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا البيان في التمثيل، ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ أي: في العواقب لتنالوا الرغائب، وتَتَجنَّبوا المصائب.

ثم بيَّن لنا سبحانه وتعالىٰ ما ينبغي مراعاتُه في الـمتصدَّق به؛ ليكمل الإرشاد، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ فأمرنا أن نتصدَّق بالجيِّد المستطاب. ثم ساوق الكلام بقوله: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فعبَّر بهذه الصِّلة تذكيراً بالمنَّة، وتزهيداً بما ينفق به، لأنه من الله، وهو الذي أعطاه. ثم أكمل الإرشاد بهذه المروءة العالية، فقال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾ أي: لا تَعمَدوا إلىٰ الرديء من أموالكم ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ وَ﴾ الحال ﴿لَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ أي: إذا أعطيتموه ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ وهذه الجملةُ الحالية فيها أبلغ تصوير لرداءة ذلك الشيء، وتتضمَّن التوبيخ والتقريع بأبلغ وَجْه.

ثم ختم الكلام بما يُلمح لحكمة تفاوت الأرزاق، والأمر بالإنفاق لتلافيه، ويُلمع إلىٰ أنَّ ذلك التفاوت ليس عن عجز في القدرة، ولكن لنظام اجتماعي اقتضته

الحكمة البالغة، فقال ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ أي: عن إنفاقكم، ولو شاء لأغنىٰ الناسَ أجمعين، ولكن ذلك مخالفٌ لتسخير بعضكم لبعض، فجعل في هذا التوجيه تنظيماً لأحوالكم الاجتماعية حسب السنن الإلهية، حيث جعل من مقتضيات تلك السنن أن يكون في الناس الغني والفقير، والعامل والأمير، وواجبٌ علىٰ الأغنياء أن ينفقوا علىٰ الفقراء تكميلاً لهذا النظام الحكيم، والله سبحانه ﴿حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ أي: في أفعاله التي ليس فيها نقص ولا إخلال، ولكنَّها الحقُّ والصوابُ والكمالُ. ويجوز أن يُراد بها صيغة الفاعل، فيكون المعنىٰ: هو حامدٌ لمن يقوم بالإنفاق علىٰ الوجه المبيَّن في السياق، فيكون حثاً عليه.

وفي أمرهم بأن يعلموا ذلك مع ظهور عِلمِهم به، توبيخٌ لهم علىٰ ما يصنعون، وإيذانٌ بأنَّ ذلك من نتيجة الجهل بسُنن الله الكونيَّة.

ثم عقّب ما تقدَّم من الأمر بالإنفاق، وقرَّره وحثَّ عليه، بهذا البيان التحذيري عن البخل، فقال: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ وهي البخل، فهو عند العرب من أفحش الفواحش، والمراد: الوسوسة بالحرص استعداداً لِـمَا يولِّده الزمن من الحاجات. وإنما عبَّر عن ذلك بالوعد لوقوعه في مقابلة وعد الله علىٰ طريقة المشاكَلَة، أي: يُخوِّفكم الفقر إذا أنفقتُم ويُغْريكم علىٰ البخل، ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ فإنه جَعَل الإنفاق كفَّارةً لكثير من الخطايا، وسبباً لنموِّ المال، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]. وفي حديث «الصحيحين»: «ما من يوم يُصبح فيه العباد، إلا مَلَكان ينزلان، يقول أحدهما: اللهمَّ أعطِ مُنفِقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهمَّ أعطِ مُمْسِكاً تَلَفاً»[1].

---

(١) رواه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم ختم الوعد بما يُقرِّره، فقال: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ لا ينحصر فَضْلُه، ولا يُحَدُّ عطاؤه، ولا يضيقُ عليه ما يتفضَّل به من الزيادة والكثرة، ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ يعلم كيف يضع فَضْلَه، وقد وضع هذه النُّظُمَ الاجتماعية عن علم وحكمة فاتَّبعوها، ولا تتَّبعوا سبيل الذين لا يعلمون.

قال في «المنار»: وبعد أن ذكر ما يعدُنا به جلَّ شأنه، وما يعدُ به الشيطانُ، ذكر ما نحن في أشدِّ الحاجة إليه للتمييز بين ما يقع في النفس من الإلهام الإلهي والوسواس الشيطاني[1]. وهو الحكمة والسَّداد في النظر، فقال: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وآلة الحكمة: هي العقل السليم الذي يُربَّىٰ علىٰ طبيعته، ولم يُفسِده صاحبُه، فيُدرك الأشياء علىٰ ما هي عليه صحَّةً أو فساداً، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ أي: أصحاب العقول الصحيحة السالمة من التحريف والإفساد. فنسأله تعالىٰ أن يجعلنا من أُولي الألباب، ويُؤْتينا الحكمةَ وفَصْل الخطاب.

ثم أكَّد سبحانه وتعالىٰ الترغيبَ بالإخلاص في النفقة، والترهيبَ من المزيِّفات لها، ببيان أنَّ عِلمَه محيط بدقائق ما نعمل فيها وما نقصد منها، وذلك لنختار لأنفسنا أفضلَ ما نُحبُّ أن يعلمه عنا، فقال: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ فلا تفعلوه إلا علىٰ الوجه الذي يريده الله سبحانه، وأضاف إلىٰ الإنفاق قضيَّةُ النذر؛ لأنه يأتي فيه ما يأتي في الإنفاق، وهو قسمان:

نَذْرُ قُربةٍ لله تعالىٰ، كأن ينذر صياماً، أو إنفاقاً في وجه بِرّ.

ونذرُ لجاج، كقوله: إنْ شفىٰ الله فلاناً فعليَّ كذا. وقد قال ﷺ في نذر اللَّجاج:

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٦٣).

«لا تنذروا، فإنَّ النذر لا يُغْني من القَدَر شيئاً، وإنما يُستَخرَجُ به من البخيل»[١]. وعن أنس رضي الله عنه قال: «رأىٰ النبيُّ ﷺ رجلاً يُهادَىٰ بين رجلين، فقال: «ما هذا؟» قالوا: نذر أن يمشي إلىٰ بيت الله، قال: «إنَّ الله غنيٌّ عن تعذيب هذا نفسَه، مُروه فليركب»[٢].

ثم توعَّد المخالفين لسُنن الله وتشريعه بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ أي: ينصرونهم يوم الجزاء، فيدفعون عنهم العذاب. وتتناول الجملة أولئك المشركين المرائين وغيرَهم من الضَّالِّين.

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

ولما بيَّن سبحانه وتعالىٰ أنَّ الرياء يَمْحَقُ ثواب الصَّدقة، ذكر أنَّ إظهارها وإبداءها ليس من الرياء في ذاته، إذا لم تُقرَن بتلك النيَّة السيئة، فقال: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ أي: فنِعْمَ خَصْلةً إبداؤها؛ لأنَّ فيه تشويقاً للأغنياء علىٰ البذل والعطاء، إذ

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦٦٠٨)، ومسلم (١٦٣٩)، عن ابن عمر.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (١٨٦٥)، ومسلم (١٦٤٢).

المنافسة فطريَّة في الإنسان، حتىٰ في الحصول علىٰ الأجر والثواب، ولأنَّ الصَّدَقة من شعائر الإسلام التي لو أُخْفيت لَتُوهِّمَ منعُها، ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لما في الإخفاء من البُعد عن مثار الرياء، والمحافظة علىٰ كرامة المعطىٰ له، فتكون بعيدةً عن مُزيِّفات الصَّدقات، فيقبلها الله منكم قَبولاً حَسَناً، ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

ثم خَتَم الآية بما يحمل علىٰ إخلاص النيَّة في حالة الإبداء، وعلىٰ الترغيب والتطمين عليها في حالة الإخفاء، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ أي: فلا تخفىٰ عليه نيَّاتكم في الإبداء، ولا أعمالكم الحسنة في الإخفاء، ولا يضيع منها شيء وإن قلَّ، فهي مُحصاة لكم.

وقال أكثر العلماء: إنَّ أفضليَّة السِّرِّ علىٰ العلانية إنما هي في صدقة التطوع، لا في الفريضة، فإنَّ إظهارها أفضل؛ لإظهار شعيرة من شعائر الدين، وقوَّةُ الدين بإظهار شعائره، ولما في ذلك من القدوة الحسنة، ولأنَّ احتمال الرياء بعيد في أداء الفرائض. بل قالوا: إنَّ الإظهار أفضل لمن يرجو اقتداءَ الناس به في صدقته، ولو كانت تطوُّعاً، ومثلُ هذا الحكم يجري في جميع الفرائض والتطوُّع.

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: «صدقةُ السِّرِّ في التطوُّع تَفضُلُ علىٰ علانيتها سبعين ضعفاً، وصدقةُ الفريضة علانيتُها أفضلُ من سرِّها بخمس وعشرين ضعفاً»[1]. وهذا الحكم في جميع الفرائض والتطوُّع.

وبعد أن أطلق سبحانه وتعالىٰ إيتاءَ الفقراء ومَصْرِفَ هذه الصدقات المُتَطَوَّع بها، ألْمَعَ إلىٰ أنَّ هذه الصَّدقات تُصْرَف للمؤمن والكافر منهم معاً، لا كالزَّكوات،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥: ٥٨٣).

فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، وهم الذين حافظوا علىٰ سلامة فِطَرِهم ونور بصائرهم. أي: إنَّ أمر الناس في الاهتداء مَنُوطٌ بما وضعه سبحانه من السُّنن الكونيَّة في تطوُّر العقول، ولم يَرْضَ سبحانه أن يكون الضلال مانعاً من العطف علىٰ صاحبه في الحقوق الإنسانية.

فقال الأستاذ الإمام: إنَّ الآية السابقة قد أطلقت إيتاءَ الفقراء وجَعَلته علىٰ عمومه الشامل للمؤمن والكافر معاً. وقد أرشد الله سبحانه المؤمنين في هذه الآية إلىٰ عدم التَّحرُّج من الإنفاق علىٰ المشركين[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «إنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يأمرنا أن لا نَتَصدَّق إلا علىٰ أهل الإسلام، فأمره سبحانه وتعالىٰ أن يتصدَّق علىٰ المؤمن والكافر، فنزلت هذه الآية»[٢]. وعنه أيضاً أنه قال: «كان أناسٌ من الأنصار لهم أنسباء وقرابة، وكانوا يتَّقون أن يَتَصدَّقوا عليهم، ويريدون أن يُسلِموا، فنزلت هذه الآية»[٣].

ثم ذكر فائدة هذا الإنفاق في الدنيا والآخرة، وبدأ ببيان فائدته الدنيوية فقال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ لأنَّ ذلك يكون حلاً للمشكلة الاجتماعيَّة التي يخشىٰ العالم عواقبَها، وهي تذمُّر الفقراء من الأغنياء، وتتضمَّن هذه الآية أيضاً الحكمة في تعميم الإنفاق علىٰ المؤمن والكافر الذي أشار إليه بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾.

ثم دفع وَجْه الشعورِ بتَحرُّج الإنفاق علىٰ الكافر، فقال: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾، فلا فَرْقَ بين أن يكون المُعْطىٰ له مؤمناً أو كافراً. وقيل: الآية خبرٌ بمعنىٰ النهي، أي: لا تنفقوا إلا بهذا القصد.

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٧٠).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢: ٥٣٧).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٥: ٣٨٨).

ثم ذكر الفائدة الأخرويَّة للإنفاق، فقال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ أي: بنقصٍ أبداً.

ثم رَغَّبَ في أخصِّ الأصناف التي يُنفَقُ عليها، فقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: للكسب والاستفادة من تجارةٍ أو زراعة مثلاً، أي: اجْعَلوا صدقاتِكم لهؤلاء.

وقد روي عن سعيد بن جبير: أنها نزلت في قوم أصابتهم الجراحاتُ في سبيل الله، فصاروا زَمْنىٰ، فجعل لهم في أموال المسلمين حقاً[1]. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها نزلت في أهل الصُّفَّة الذين هاجروا بدينهم وتركوا أموالهم، فحيلَ بينهم وبينها، فهم محصورون في سبيل الله، وعلىٰ حفظ القرآن وتحفيظه[2]. وكان حفظُ القرآن وتحفيظُه إذ ذاك أفضَلَ العبادات علىٰ الإطلاق.

وعلىٰ ضوء هذه الآية، ثاب المسلمون في العصور الأولىٰ للإنفاق علىٰ طلاب علوم الدين والقرآن، أثناء النهضة العلمية التي انتهت ببناء المدارس وتأثيثها بالكتب والحاجيات، وإعانة طلبة العلم والعلماء، بإجراء الرواتب والـمُخصَّصات، وأوقفوا لذلك الأوقاف الطائلة حتىٰ كانت تلك النهضة العلمية في العصور الأولىٰ الإسلامية غُرَّةً في جبين الدهر، وعَلَماً من أعلامه.

والقاعدة الأصولية: أنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكلُّ من اتَّصَفَ بمثل هذه الصفات من الفقراء، كان له حكم مَنْ نزلت فيهم، ويعدُّ من أخصِّ الأصناف التي رغَّبت الآية بالإنفاق عليهم.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥: ٥٨٨).

(٢) رواه أبو عبد الرحمن السُّلَمي في «الأربعين الصوفية» (١: ٣-٤).

ثم تـمَّم الوصف، فقال: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ وهذه أعلىٰ صفة في حشمة النفس وعُلُوِّها، وذلك لما هم عليه من المبالغة في التَّنزُّه عن الطمع فيما في أيدي الناس. ثم تابع المعنىٰ ببيان أنَّ حالهم هذا لا يخفىٰ علىٰ الألمعيِّ اللبيب، فقال: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾، وهو الأثر الذي لا يخفىٰ علىٰ الفَطِن، ثم مكَّن الوصف بقوله: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي: إلحاحاً. وفي الكلام نفيُ الشيء بإيجابه؛ إذ ظاهرُ الكلام توجُّه النفي إلىٰ القيد وهو الإلحاف، ولكن المراد نفيُ السؤال مطلقاً. وإنما قيَّد السؤال بهذا القيد لأن ذلك هو حال السائلين المعتاد، فليس لهذا القيد مفهومُ مخالفة.

ثم ذيَّل الكلام بهذه الجملة المرغِّبة في الإنفاق علىٰ الوَجْه الذي سبقت الهداية إليه، فقال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ أي: لا يخفىٰ عليه حُسْنُ النية وتحرِّي النفع.

ثم تابع الترغيبَ في الإنفاق علىٰ وجه التَّنويه بشأن الذين يُعمِّمون الأوقات والأحوال بالخير والصدقة، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وهذا التعبير يُشعِرُ بأن هذا الأجر عظيمٌ، ثم أردَفَه بهذا الوعد الكريم، فقال: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ أي: يومَ لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا مَنْ أتىٰ الله بقلب سليم.

وقد نوَّع سبحانه وتعالىٰ في هذا السِّياق الأساليب والتعابير في الحثِّ علىٰ الإنفاق والصَّدقات؛ ليجعله تمهيداً لمنع الربا وسدِّ ثغرته. وكلُّ ذلك يدلُّ علىٰ روح الإسلام وحبِّه للتعاون والضمان الاجتماعي، تحقيقاً للوحدة التي يبتغيها. وفيه إلماحٌ ضمنيٌّ إلىٰ الحثِّ علىٰ تحصيل المال من وجوهه الحقَّة؛ ليتأتَّىٰ ذلك الإنفاق المطلوب في وجوه البرِّ

والإحسان، فلا يجوز التزهيد بجَمْعِه، ولكن التزهيد في الإفراط بحبِّه والاقتصار علىٰ كَنْزه، والتَّباهي به، وكيف يُزهَّدُ في جَمْعِهِ وقد وُعِدَ مُنفِقُه بالأجر العظيم والثواب الجزيل؟!

وقد استمرَّ السلف الصالح في صدر الإسلام يفهمون هذه الآيات فهماً صحيحاً، ويدركون أغراضها وأهدافها، ويعملون بمقتضاها، فصانوا بلادهم وأنفسهم، وأيَّدوا الوحدة الإسلامية والتضامن بين أفراد الأمة، وقويت الروابط بينهم، فلم يحقد الفقراء علىٰ الأغنياء، ولم ينظر الأغنياء إلىٰ الفقراء نظر الـمُدِلِّ الفخور.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾.

وبعد أن نوَّه بشأن الإنفاق وبَذْل الصَّدقات بأساليب مُنوَّعة، وَرَغَّب في ذلك أعظم ترغيب، لما فيه من المنافع والروابط الاجتماعية، شَرَع في ذكر الربا لِـمَا بينه وبين الصَّدقة من التَّضادّ؛ إذ الربا استغلال لحاجة المحتاج، والصدقة معاونة له ومساعدة تدفع الحاجة إلىٰ الربا، علىٰ نهج القرآن في تعنيب الشيء بضدِّه، (كما جاء في الفقرة

(ب) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، لأنَّ الضدَّ يُظهِرُ شأنَه الضدُّ؛ لذلك تعرَّض له مبيِّناً الفرق بينه وبين المتصدِّق في حالة النفس والضمير والوجدان، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾[1].

---

(١) ألا يجوز أن يكون تشبيه حالة المرابي بحالة الممسوس؛ لأنَّ نفسيَّته مُضْطربة، فتكون تصرُّفاته وتقوُّلاته كذلك، لا يدري أيعطي الدَّين أو يباع الرهن، مع دموع العين، إلىٰ أمثال هذا من نزعات وهواجس مُقْلِقات؟!. (المؤلف).

قلت: ذكرتُ في تفسيري «المُعين» في معنىٰ هذه الآية ما نصُّه: «الذين يتعاملون بالربا أخذاً وإعطاء، فلا يُقْلعون عنه، ولا يتوبون إلىٰ بارئهم منه، ويَرَوْنَ مع ذلك أنَّهم لا يفعلون شيئاً منكراً، ويرفضون حكم الله في تحريمه، حالهم وهم يأكلون الربا ـ إذْ يسلب الإثراء بغير حقٍّ عاطفتَهم الإنسانيَّة، ويجعل أفكارَهم ونفوسَهُم مُضْطربةً دائمةَ التطلُّع لمضاعفة رؤوس أموالهم من جَهْد الآخرين، واستغلال ضروراتهم ـ كالمجنون ذي الحركات المُضْطربة، يمشي ويتعثَّر، ويصطدم بالأشياء، وتأتيه الخبْطات من كلِّ جانب، وهو لا يرىٰ الشخص المسؤول عن الضربات التي تتهاوىٰ عليه من كلِّ جهة، فكأنما يتخبَّطه شيطانٌ خبيث عديم الرحمة، خفيٌّ لا تراه أعين الناس؛ ذلك الذي نَزَل بهم من العذاب لرفضهم حكم الله في تحريم الربا، واعتراضهم عليه بقولهم: إنَّما البيعُ مثلُ الربا، فكما أن البيع يؤدِّي إلىٰ الربح وهو حلال، فكذلك الربا يؤدِّي إلىٰ الربح وهو حلال في نظرهم أيضاً، مع أنَّ الحقيقة تُثبت أن البيع ليس مثل الربا، فالربا ظلم واستغلال بغير حق، ووسيلة لمنع التعاطف والتعاون الاجتماعي عن طريق القرض الحسن، وهو كذلك ربح لا يُقابله جهد ولا ضمان خسارة، وربح البيع يُقابله ضمان الخسارة المُحتملة، فكيف يكون البيع مثل الربا؟! وأحلَّ الله لكم الأرباح في التجارة بالبيع والشراء، لما فيها من نفع للأفراد والجماعات، وحرَّم الربا الذي هو زيادة في المال لأجل تأخير الأجل، لما فيه من استغلال وضياع وهلاك.

فمن جاءَهُ نصحٌ مقرونٌ بما يُثير الرَّغبة والرهبة من ربِّه، فانتهىٰ عن أكل الربا، فلا يُؤَاخَذ علىٰ ما مضىٰ من ذنبه قبل نزول التحريم، وأمرُهُ إلىٰ الله، فيما يستقبل من زمانه، فإن استمرَّ علىٰ =

وهذا الكلام من عُرْف اللغة، ومقتبسٌ من مزاعم الـمُخَاطَبين الجارية بينهم مَـجْرىٰ الأمثال، كالعنقاء والسَّعالي والغول وأمثال ذلك، فهي من أساليب الكلام وخصائص التعابير، يُفهَمُ لها معانٍ مُتعارفةٌ بين الناس، وإن كان ما تَصْدُق عليه العبارة شيئاً وهمياً[1]، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. (كما جاء في الفقرة (ب) والفقرة (هـ) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة).

والمراد من القيام: العيش والكَوْن، أي: لا يكونون ولا يعيشون إلا كما يعيش المَمْسوس في اضْطراب العقل الناتج عن قلق النفس من سُوء المصير. والغرضُ من هذا الكلام: التَّنفيرُ من الربا والتبشيعُ لحال آكِلِه، وتشبيه المرابي في حاله وارتباكه وعيشه بالمتخبِّط المصْروع.

ثم علَّل هذا وبيَّن وَجْهَ ارتكابهم له بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ وهذا القول يجوز أن يكون بمعناه الحقيقي، ويجوز أن يكون المراد به الفعل، إذ التَّجوُّز بالقول عن الفعل من خصائص اللغة وأساليب القرآن.

---

= توبته فالله لا يضيع أجره، ومَنْ عاد إلىٰ أكل الربا بعد التحريم مُسْتَحلاً له، فأولئك البُعداء عن رحمة الله أصحاب النار الملازمون لها، المخالطون لألوان عذابها، هم فيها دائمو البقاء، لا يخرجون منها ولا يموتون فيها».

(١) الظاهر من كلام المؤلف رحمه الله أنه يريد: أنّ مسَّ الشيطان للإنسان وتخبُّطه بسبب ذلك هو من عُرْفِ اللغة، يُفهَمُ منها معانٍ مُتعارَفةٌ بين الناس، وهذا كلامٌ له وَجْهٌ من الاحتمال، وقال به بعضُ المُفسِّرين، والمُرادُ به نفيُ المسِّ البدني دون الوسوسة المُصرَّح بها في نصوص الكتاب والسنة، وقد تقدَّم بيانُ ذلك في المقدمة (١: ٦٩٠).

أما القولُ بأنّ الشيطان نفسَه أمرٌ وهميٌّ فهذا باطلٌ لا وَجْهَ له البتة، ولا يُفهَمُ من ظاهر عبارة المؤلف هنا، وإن كانَ هو يميلُ إلىٰ القول بأنه قوّة نزّاعة إلىٰ الشر في مواضع من هذا التفسير، وقد تقدَّم التعليقُ علىٰ ذلك في المقدمة (١: ٥٦١).

والمعنىٰ: أنهم جَعَلوا الربا عملاً تجارياً حلالاً مثل البيع، لا فرق بينهما ﴿وَ﴾ الحالُ قد ﴿أَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[1]، فأقام هذه الجملة مقام الدليل؛ لأنه سبحانه لا يُحلُّ إلا ما فيه النفع، ولا يُحرِّم إلا ما فيه الضَّرَر. فهذه الجملةُ تُلمعُ إلىٰ الفرق بين حالات البيع الشارحة للصدور وحالات الربا القابضة للنفوس، وتشير إلىٰ أنهما متباينان كلَّ التباين، وذلك لأنَّ التجارة مصلحة اجتماعية عمرانية عُظمىٰ، وعملية حيوية كبرىٰ. أما الربا ـ وهو أساس الرأسمالية الجائرة، واستغلال حاجة المحتاجين ـ فهو من أكبر المفاسد الاجتماعية وأضَرِّ الأضرار الاقتصادية، لذلك اختلف حكمُهما لدىٰ الحكيم العليم[2].

ومن أسباب تحريم الربا: كونه كسباً غير طبيعي يؤدِّي إلىٰ الاستغلال وتكديس الثروات، وكونه مخالفاً لمبدأ الإسلام في التعاون والتراحم، ووجوب سدِّ الأغنياء فقرَ الفقراء.

ثم أردَفَ الكلامَ بهذا الحكم، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأحكام بالقواعد

---

(١) الإسلام يقرِّر أنْ لا جزاء إلا علىٰ الجهد والعمل، ولا يجوز أن يكون مجرَّد المال وسيلةً لزيادة المال، ويضع قيداً منيعاً في طريق تضخُّم الثروات علىٰ حساب حاجة الأفراد للمال واضطرارهم لاستدانته بالربا، ويمنع أن ينال القاعدون الكسالىٰ جزاءً لا يستحقُّونه، بمجرَّد توظيف أموالهم، فيضمنون الربح وهم قاعدون، وتتضاعف ثرواتهم وتتضخَّم، وتُخِلُّ بالتوازن الاقتصادي والاجتماعي، علىٰ نحو ما هو مُشاهَد في العالم الرأسمالي المتعفِّن. وقد أدرك رسول الله ﷺ من الآية أنَّ الزيادة من غير عِوَض ولا مقابل هي السِّرُّ في تحريم الربا، فجاء عنه: أنَّ «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، مثلاً بمثل، وسواء بسواء، يداً بيد»، الحديث. (المؤلف).
والحديث رواه البخاري (٢١٧٦)، ومسلم (١٥٨٤)، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) قال اللورد كينس الأستاذ في جامعة كامبردج الإنكليزية: لا نُبالغ إذا قلنا: إنَّ جميع الآفات الاجتماعية ناتجة عن الربا. (المؤلف).

العامة التي تشملها وغيرها، فقال: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ أي: يُعفىٰ له عمَّا كان فَعَلَه منه قبل التحريم. والمراد به هنا: ما كان أخذه من الربا في الجاهلية. وقوله: ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه إيذانٌ إلىٰ وجوب تَحرِّي الظروف، فإنْ كان هناك أحوالٌ تستدعي الردَّ فالردُّ أفضل، والله أعلم. أو المعنىٰ: أنه يُجازيه بحُسْن الثواب إن كان انتهاؤه عن صِدقِ نيَّة وإخلاص.

ثم ذكر الحكم المقابل، وسبكه علىٰ الوعيد، فقال: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعد التَّحريم إلىٰ ما نُهي عنه، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾، فهذا جزاؤهم في الآخرة.

ولما ذكر سبحانه وتعالىٰ الربا بعد الصَّدقة للمقارنة بينهما، ذكر هنا الفرق بينهما ببيان أثرهما في الدنيا والأخرىٰ، فقال: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

قال الأستاذ الإمام[1]: وذلك بما يلاقي المرابي من عداوة الناس، وما يُصاب بنفسه وماله من أثر ذلك؛ لأنه يكون عدوَّ المحتاجين وبغيضَ المُعْوزين، وقد تُفْضي هذه العداوة والبغضاء إلىٰ كثير من الأضرار[2].

أما المتصدِّق فبعكس ذلك في الدنيا، وأما في الآخرة، فقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «مَنْ تصدَّق بعدل تمرة من كَسْب طيِّب ـ ولا يقبل الله إلا طيباً ـ فإنَّ الله يقبلها بيمينه، ثمَّ يُربِّيها لصاحبها كما يربِّي أحدكم فَلوَّه حتىٰ تكون مِثلَ الجبل»[3]، والحديث من باب التمثيل كما هو ظاهر، والمراد به: عِظَمُ الجزاء.

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) تفسير «المنار» (٣: ٨٤).

(٣) متفق عليه. رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤)، عن أبي هريرة، والفَلُوّ: المُهر الصغير. «النهاية في غريب الحديث» (٣: ٤٧٤).

ثم توعَّدهم بهذا التوعُّد العام على نهج القرآن، فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ أي: مُصِرٍّ على تحليل المحرَّمات كالـمُستَحِلِّ للربا. وفي صِيَغ المبالغة إلماعٌ إلى أنَّ آكِلَ الربا إنما يكون من الانهماك في الإثم المؤدِّي إلى الكفر.

ثم ذكر حال المؤمنين العاملين بما جاءهم عن الله من الأحكام، ومنها الزكواتُ والصدقاتُ، وبيَّن مصيرهم بطريقة المقابلة، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما جاء من عند الله، ومنها أمر الربا والصدقات، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الأعمال التي تصلح بها نفوسهم ممَّا جاء عن الله سبحانه حسب المخططات التي يرسمها، والأوضاع التي يرتضيها، فتجنَّبوا الربا، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدَّوها مُقامةً، وذلك بالإخلاص فيها لله، والصِّدقِ في التوجُّه إليه، والشعور بمناجاته بما اشتملت عليه من ذكر وآيات، ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ التي تُزكِّي النفس من الرذائل التي منها الحرص المؤدِّي إلى أمثال الربا، ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ أي: فلهم هذا الوعد الكريم من الله سبحانه.

وجملةُ الآية تعريضٌ بآكل الربا الذي يستغلُّ حاجةَ الفقير، وتمهيدٌ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾، فقد وصفهم في هذا التركيب بالإيمان وذكَّرهم بالتقوى تهيئةً لنفوسهم، ثم أمرهم بترك ما بقي من الربا، ناظراً في ذلك للمرابين منهم قبل التحريم، ثم وصل ذلك بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ لإثارة الشعور بالإيمان، والحثِّ على التمسُّك بما تقرَّر من البيان.

وقال الأستاذ الإمام[1]: أي: إن كان إيمانكم تاماً شاملاً لجميع ما جاء به محمد ﷺ من الأحكام، فذروا بقايا الربا[2].

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) تفسير «المنار» (٣: ٨٥).

ثمَّ توعَّدهم بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ أي: فإن لم تتركوا ما بقي من الربا، ﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: فاعلموا أنكم علىٰ حرب من الله ورسوله، بمعنىٰ: أنكم مُحاربون لهما. وهذا أروعُ تهديد في النهي عن أمر من أمور الأحكام، يُنْبِئ عن فظاعة شأن الربا وضرره الاجتماعي الوخيم، ولذلك أوصَدت الشريعةُ كلَّ الطرق المؤدية له، وسدَّت جميعَ الأبواب التي يُخْشىٰ منها الوصول إليه، سداً للذريعة، فأوصدت كلَّ نافذة وإن كانت مثل سَمِّ الخياط، وقد جاء أنَّ رسول الله ﷺ أمر عامِلَه علىٰ مكة أن يُؤذِنَ المرابين بحربٍ إن لم يَرْضَوا بحكم الله هذا[1].

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ أي: رجعتُم عن الربا امتثالاً لأمر الله، ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ غرماءكم بأخذ الزيادة، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ بنقص شيءٍ من رأس المال. وهذا أعدَلُ حكم في هذا النوع من الربا، وهو ما عُقِدَ قبل النهي والوعيد، ويُلمع إلىٰ أنَّ من واجب الغني أن يُقْرِضَ الفقير تجاه رهن يأتي بيانه.

ثم ذكر ما يجب أن يُفعَلَ مع الـمُعْسِر من الغُرماء، فقال: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أي: وإنْ وُجِدَ غريمٌ مُعْسِرٌ من غرمائكم فأمهِلوه إلىٰ وقت يَسَاره؛ لِيَتَمكَّنَ من الأداء، وقال ﷺ: «من أنظر مُعْسراً أو وَضَع له، أظلَّه الله يوم القيامة تحت ظل عرشه، يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه»[2].

ثم بالغ في ندبهم إلىٰ الإحسان إليه، فقال: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: وتصدُّقُكم علىٰ هذا المُعْسِر بوضع هذا الدَّين عنه وإبرائه منه خيرٌ لكم من إنظاره

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٦: ٢٣) عن ابن عباس من حديث طويل، وفيه: «إن رضوا وإلا فآذنهم بحرب».

(٢) رواه مسلم (٣٠٠٦)، عن أبي اليسر.

وإهماله. وهذا ترغيبٌ بالسماح للمَدين المُعْسِر؛ لِمَا فيه من التعاطف والتراحم ورضا الفقراء عن الأغنياء، وفي ذلك من أسباب هناء العيش في الأمة ما أشار بالتنويه عنه بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم والمعرفة.

وفي صورة هذا التعبير زيادةٌ في الحثِّ على التمسُّك بما سبقت الهداية إليه، سيَّما أمر المُعْسِر والتَّصدُّق عليه بوضع الدَّيْن عنه.

ثم ختم سبحانه وتعالىٰ آيات الربا بهذه الموعظة العامّة التي تُسهِّل على المؤمن إذا وعاها أن يسمح بأعزِّ الأشياء لديه، رجاء أن يلقىٰ الله تعالىٰ على أحسن حال، وذلك علىٰ نهج القرآن في ختام آيات الأحكام بالمواعظ والعبر. (كما جاء في بعض فقرات المادة الثالثة والخامسة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَاتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ وقالوا: هذه آخر آية نزلت، فختم القرآن كما ختم البحث بهذا الإنذار، للمبالغة في التحذير من ذلك اليوم الرهيب الذي يجعل الولدان شيباً، ليحمل علىٰ التمسُّك بهذا الشَّرع المُنجي من ذلك الهوْل المريع.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا

تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾.

ثم شرع في بيان كيفيَّة المعاملات في الـمُدَايَنة والـمُكَاتَبة، علىٰ مقتضىٰ السياق في سَرْد الأحكام وبيان أنواع البر وأصنافه، وعلىٰ أسلوب القرآن في تنويع المباحث، (كما جاء في بعض فقرات المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية)، ولأن الكلام السابق في المعاملات المالية؛ فقد بدأ بالترغيب في الصَّدقات والإنفاق في سبيل الله، وثنَّىٰ بالنَّهي عن الربا، ثم جاء بأحكام الدَّيْن والتجارة والرَّهْن، وألمع إلىٰ السَّلَم والقَرْض؛ ليكونَ منها وسيلةً للحصول علىٰ المال عِوَضاً عن الربا، ويجدَ الفقير مُتنفَّساً لسدِّ حاجته بالدَّين البريء تجاه رهن أو كتابة، فقد مهَّد للربا بالترغيب في الإنفاق، وأردفه بأحكام الدَّين والقَرْض؛ للإيذان بأنَّ الصَّدقات والمُداينات النزيهة يجب أن يَسُدَّا ثَغْرةَ الربا في الأنظمة الاجتماعية، ويُصْلِحا عَوَزَ الـمُعْوِزين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾.

قال الأستاذ الإمام: هذا أمرٌ عام للمتعاملين، وفيهم الأُميُّ الذي لا يكتب، لذلك احتيج إلىٰ قوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾، وقد ذكروا أنَّ العَدْلَ في الكاتب يستلزم العِلمَ بشروط المعاملات التي تحفظ الحقوقَ[1].

ثمَّ أوْصَىٰ هذا الكاتب أن لا يَتخلَّف إذا دُعي لذلك، فقال: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ فَليُراعِ منَّةَ الله عليه في ذلك التعليم، وَلْيَقُم بواجب شكرها بأن يفيد الناس بعلمه هذا.

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ١٠٠).

وفي هذه الجملة تذكيرٌ للناس بفضل الله عليهم في التعليم، علىٰ سُنَّة القرآن في مَزْج الأحكام بما يُغذِّي التوحيد، ويُنمِّي الاعترافَ بفضل الله وشكر نِعَمِه، وهو علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

ثم أكَّد المعنىٰ بالأمر بالكتابة بعد النهي عن الإباء عنها، فقال: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾، ثم بيَّن واجبَ مَنْ عليه الحقُّ في ذلك فقال: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ أي: وَلْيُلْقِ علىٰ الكاتب ما يكتبه، بأن يُبيِّن الحقَّ الذي عليه؛ ليكون إملالُه حُجَّة عليه، تُبيِّنها الكتابة وتحفظها. والإملال والإملاء: بمعنىٰ: واحد، وفيه إبدال الهمزة باللام.

ثم حذَّره من التَّلبيس والكتمان بقوله: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ بأن يُبيِّن الحقَّ الذي عليه كما هو، ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾، وإنما جمع في التَّحذير بين الاسم الجليل والنعت الجليل، تشديداً في العدل، ومبالغةً في التَّحذير من الغدر.

ثم بيَّن حكم القاصرين من المدينين، فقال: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا﴾ وهو ضعيف الرأي لا يُحْسِنُ التصرُّف بالمال، ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ وهو الصبيُّ، ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ كالألكن والأخرس، ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: مَنْ يتولَّىٰ أمورَه ويقومُ بها عنه.

ثم تابع الكلام، فأتمَّ البيان عن معاملة المداينة بالأمر بالاستشهاد وبيان حكمه، فقال: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟﴾ علىٰ ذلك ﴿شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ أي: رَجُلَين قد حَضَرا عَقْدَ المعاملة، أو يحضران الإقرارَ والإملال.

ومعنىٰ ﴿ٱسْتَشْهِدُوا﴾: اطلبوا منهما أن يشهَدا عند الحاجة. والسياق مع الصيغة التي هي للمبالغة والكمال، يدلَّان علىٰ أنَّ وصف الكمال الذي منه العدالة، مُعتَبَرٌ فيمن يُستَشهَد، كما اعتبر مثلُه في الكتاب والوليّ.

ثم قال صاحب «المنار»: وقوله: ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ ـ والخطاب للمؤمنين ـ يدلُّ علىٰ أنهم لا يستشهدون مَنْ لم يكن منهم. وكَوْنُ استشهاد غيرهم ليس مشروعاً لهم أو ليس جائزاً ـ عملاً بمفهوم الصفة ـ لا يعدُّ نصاً علىٰ أن شهادته إذا هو شهد لا تصح، أو لا تدل علىٰ شيء. ولكن العلماء اتفقوا علىٰ شروط في الشهادة الشرعيَّة، منها: الإسلام والعدالة، وذلك لهذه الآية، ولقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]، وجَعلوا قوله تعالىٰ في آية الوصيَّة: ﴿ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦] خاصّاً بمثل تلك الواقعة.

وقد حقَّق العلامة ابن القيم[١]: أنَّ البيِّنة في الشرع أعمُّ من الشهادة، في قوله ﷺ: «البيِّنة علىٰ من ادَّعىٰ، واليمين علىٰ من أنكر»[٢]، فكلُّ ما يتبيَّن به الحق بيِّنة، كالقرائن القطعيّة. ويمكن أن تدخل شهادة غير المسلم في البيِّنة بهذا المعنىٰ الذي استدلَّ عليه بالكتاب والسنة واللغة، إذا تبيَّن للحاكم بها الحق[٣].

ثم أتمَّ البيان عن حكم الاستشهاد، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا﴾ أي: مَنْ تستشهدونهما ﴿رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ أي: فليُسْتَشهَد رجلٌ وامرأتان ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ﴾ أي: دينَهم وعدالتَهم ﴿مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين شهدوا الأمر وحضروه. وإنما وَكَلَ الأمر فيه إلىٰ

---

(١) هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزُّرعي الدمشقي المشهور بابن قيّم الجوزيّة (٦٩١- ٧٥١هـ)، تتلمذ لابن تيمية، ونصر أقواله في كتبه، له تصانيف كثيرة، منها: «إعلام الموقعين»، و«زاد المعاد».

(٢) رواه الترمذي (١٣٤٢) عن ابن عباس، وقال: حسن صحيح، والعمل علىٰ هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم.

(٣) تفسير «المنار» (٣: ١٠٢)، وكلام ابن القيم في «الطرق الحكمية» ص١٣٥.

رضا الـمُسْتشهدين لقلَّة الثقة في تحمُّل بعض الشهداء ـ ولا سيما النساء ـ للشهادة وحفظه لها بالضبط والدقَّة.

ثم بيّن علَّة جَعْلِ المرأتين بمنزلةِ رجلٍ واحد بقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾، وذلك لقلَّة ضَبْط المرأة وعنايتها في مثل هذا النوع من أحوال الحياة، بخلاف الرجل، لذلك احتيج إلىٰ اثنتين لتُذكِّرَ كلٌّ منهما الأخرىٰ، وتُعينَها علىٰ مراجعة الفكرة في القصة، فتكون شهادتُهما مُتمِّمةً لشهادة رفيقتها، ولذا أعاد لفظ ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾ مظهراً، ولم يقل: «فتذكِّرها الأخرىٰ»، إذ ليس المعنىٰ: لئلا تنسىٰ واحدة فتذكرها الثانية، وإنما المراد أن تَتَراجعا في تذكُّر الواقع بينهما، قبل الحضور لأداء الشهادة.

ثم ذكر واجب الشهداء، فقال: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ أي: إلىٰ تحمُّل الشهادة. وقيل: إذا ما دُعُوا للشهادة أو أدائها.

ثم أكَّد وجوب الكتابة، فقال: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ أي: لا تَكْسَلوا من كتابة الدَّين أو الحق، سواء كان صغيراً أو كبيراً. وهذا دليل علىٰ أنَّ الكتابةَ واجبةٌ في المقدار الصغير والكبير.

ففي الآية إرشادٌ إلىٰ عدم التهاون بشيءٍ من الحقوق أن يترك بلا كتابة، وهي قاعدةٌ عُظْمَىٰ من القواعد الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أحرىٰ بإقامة العدل، ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾ أي: أعونُ علىٰ إقامة الشهادة علىٰ وجهها، وأقرب إلىٰ انتفاء ارتياب بعضكم من بعض؛ فإنَّ هذا الاحتياط في كتابة الحقوق والإشهاد عليها، وتقوىٰ الله، والعدل مع المتعاملين والكتَّاب والشهداء، يمنع كلَّ رِيْبة وكلَّ ما يترتَّب علىٰ الارتياب من المفاسد.

وقيل: المراد انتفاء الرَّيْب في جنس الدَّيْن وقَدْره وأجله ونَحْو ذلك.

وقال ابن جرير: المراد انتفاء الريب في الشهادة[١].

قال الأستاذ الإمام[٢]: وهذه مزيَّة ثالثة تُؤكِّد القول بالأخذ بها، والاعتماد عليها، وجَعْلها مُذكِّرة للشهود، والاحتجاج بها إذا استُوفيت شروطها. وفيه دليلٌ علىٰ أنَّ للشاهد أن يطلب وثيقة العقد، ليتذكَّر ما كان علىٰ وجهه الصحيح، ويشهد به[٣].

ثم استثنىٰ من ذلك قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ وذلك بأن يأخذ المشتري المبيعَ والبائعُ الثمنَ، فلا حَرَجَ في تَرْك كتابتها ولا إثم؛ إذْ لا يترتَّب عليه شيء من الارتياب الذي يجرُّ غالباً إلىٰ التَّنازع والتخاصم وما وراء ذلك من المفاسد.

ثم قال في «المنار»: وفي نفي الجُناح إشارة إلىٰ أنَّ كتابة ذلك أَوْلَىٰ، وهو إرشادٌ إلىٰ استحباب ضَبْط الإنسان لماله وإحصائه لِـمَا يرد عليه وما يصدر عنه، وذلك من الكمال المدني، ومن أسباب ارتقاء أمور المكسب. ولم يجعل هذا حتماً؛ لأنه ممَّا يشقُّ علىٰ غير المرتقين في المدنية.

وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ قيل: معناه: هذا التبايع المذكور هنا، وهو التجارة الحاضرة الخالية من الكتابة. وقيل: مطلقاً[٤]. ويجوز أن يراد المبايعات ممَّا عدا الأمور التجارية، كبيع العقارات والبيوت والـمُستَغلّات. وقد جعلت لها الحكومات دوائر خاصّة لتسجيل تلك البيوعات والإشهاد عليها، عملاً بهذه الآية.

---

(١) «تفسير الطبري» (٦: ٧٨).

(٢) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٣) تفسير «المنار» (٣: ١٠٥).

(٤) المصدر السابق (٣: ١٠٦).

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾، لفظ ﴿يُضَآرَّ﴾ يحتمل البناء للفاعل والبناء للمفعول.

والمعنىٰ علىٰ الأول: نَهْيُ الكاتب والشهيد أن يضرَّ أحدَ المتعاملين؛ بعدم الإجابة أو بالتحريف والتغيير ونحو ذلك.

والمعنىٰ علىٰ الثاني: نهيُ المتعاملين عن ضُرِّ الكاتب أو الشهيد؛ بأن يُدْعَيا إلىٰ ذلك وهما مشغولان بمُهِمٍّ لهما، فَيُكَلَّفان تَرْكَه. وعلىٰ هذا المعنىٰ: إذا قيل بأنها تُرشد إلىٰ إعطائهما أجرةَ ما يحمَّلان من الكلفة، لم يكن ببعيد، كما عليه الحكومات اليوم. وقد ذهب بعض الأصوليين إلىٰ جواز استعمال المشترك في معنييه، واللفظ في حقيقته ومجازه، وعلىٰ ذلك فيجوز أن يُراد هنا بـ﴿يُضَآرَّ﴾: البناء للفاعل والبناء للمفعول معاً؛ لأنه من قبيل المشترك.

ثم أردف النَّهيَ بالتسجيل بالفسق علىٰ المرتكب مبالغةً في التحذير، فقال: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا﴾ أي: ما نُهيتُم عنه من ضرار الكاتب والشهيد، ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ أي: خروجٌ عن حدود طاعة الله إلىٰ معصيته.

ثم ختم السياق بالموعظة العامة التي تُعين النفس علىٰ الامتثال في جميع الأعمال، علىٰ نهج القرآن في ختام الأحكام بالمواعظ، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ومن ذلك: أن تتمسَّكوا بما تقدَّم من الهُدىٰ والإرشاد.

ثم نوَّه بشأن ما سبق من التعاليم، وألمع إلىٰ أنها مَبْنيَّة علىٰ المصالح العامة والمنافع الاجتماعية، فقال: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: إنَّ أوامرَ الله سبحانه كلَّها إرشادٌ لكم، وفي هذه الأحكام قيام مصالحكم وحفظ أموالكم وسلامة رابطتكم من أن يعتريَها خَلَلٌ بالتخاصم والتنازع وما إلىٰ ذلك من المفاسد، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾

فإذا شَرَع لكم شيئاً من الأحكام، فإنما يشرعه عن علم يُحيط بأسباب دَرْءِ المفاسد وجَلْب المصالح.

ثم ذكر حالةً للرخصة عن الكتابة واستبدالها بالرهن، وذلك عند فقدان كاتب العدل، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾، فهذا بيانٌ ورخصةٌ لترك الكتابة إذا تعذَّرت أو لم تتيسَّر، كما يكون في حالة السفر، وحينئذ يقوم الرهن مقامها.

ثم أردف الكلام بهذا الحكم العام الذي يتناول الرهنَ والوديعةَ وما إلىٰ ذلك، وتوعَّدهم علىٰ خيانتها، فقال: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾، فأنذر سبحانه المُؤْتَمن عن الخيانة والغدر والإنكار، ولمَّح له بأنه وإن لم يكن عليه شَاهَدٌ ولا حُجَّة وليس له رَهْن، فإنَّ الله سبحانه هو الشاهدُ والرقيب والمحاسب. وجَمَع بين الاسم الجليل والنعت الجليل[1] مبالغةً في التحذير. ويجوز أن يكون معنىٰ الآية مزدوجاً من الحكم والإرشاد.

ثم عاد بالكلام علىٰ الشهادة، وتوعَّد أروَعَ توعُّد علىٰ كتمانها، فقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ وهذا نهيٌ عن كتمان الشهادة بعد النَّهي عن إباء تحمُّلها ـ الملحوظ علىٰ أحد الوجهَيْن في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ ـ وتأكيدٌ للنهي عن كتمان الشهادة بمثابة شهادة الزور، في الإثم والوعيد.

ثم ختم الآية أو السياق بالتحذير المتضمِّن لوعيد المخالفين، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾.

---

(١) أي: بين لفظ الجلالة والوصف بالربوبية. والصواب ـ والله أعلم ـ: والنعت الجميل، كما في «تفسير أبي السعود» (١: ٢٧٠)، و«روح البيان» لإسماعيل حقي البروسوي (١: ٤٤٠)، و«تفسير القاسمي» (٢: ٢٣٤).

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

ثم ختم السورة بهذه الآيات الباعثة على الإخلاص في الأعمال، وصِدْق الإيمان، والمبيِّنة لحقيقته، والمُؤْذنة بسهولة التكاليف؛ تهويناً لأمرها، والمُشْعِرَة بوَجْهِ الحكمة في مشروعيَّتها وتكليفنا بها، والمتضمِّنة إرشادنا لطلب العَفْو منه تعالىٰ فيما يصدر عنا لا عن قَصْد أو إصرار، ودعائنا إيَّاه أن يُخفِّف عنا ما كلَّف به الأممَ العاتية المتعنِّتة من التكاليف الشاقَّة إصلاحاً لها. وفيه إرشادٌ لنا أن لا نفعل فِعلَهم فيصيبَنا ما أصابهم.

وصدَّر ذلك ببيان قُدرة الله العظيمة؛ لإثارة الشعور بالحذر منه تعالىٰ، ومن مخالفة أحكامه، ومن سُوء النيَّة في الأعمال، فقال: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خَلْقاً ومُلْكاً، وفي هذه الآية من دليل القدرة والسلطان ما فيه تقريرٌ لما سبقها من الوعيد بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، وتمهيدٌ لما بعدها من مُحاسبته لِمَمْلوكيه، على وجه التحذير، على نهج القرآن في مثل ذلك.

وقد عبَّر بهذه الآية عن كمال القدرة، كما عبَّر عن إحاطة العلم بقوله: ﴿وَإِن

﴿تُبْدُوا مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[1]، وإنما أظهر اسم الجلالة في موضع الإضمار، تربيةً للمهابة. واكتفىٰ بـ«ما في النفس» عن العمل؛ لأنَّ العمل يكون مسبوقاً بالعزم، فيكون ما في النفس أعمَّ منه؛ لأنه إما أن ينفَّذ أو لا ينفَّذ، وكلاهما مَجْزيٌّ عليه؛ إذ القاصد يُجازىٰ علىٰ القصد وإن لم ينفِّذ، فإن نفَّذ جُوزي علىٰ القصْد وعلىٰ العمل معاً. وهذا وعيدٌ عام يتناول التحذير من كتمان الشهادة وعدم أدائها علىٰ وجهها.

---

(١) للعلماء في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ كلام كثير، وتحريره: أنَّ الذي يجري في النفس خمسة أصناف:

١ـ الهاجس: وهو ما يلقىٰ في النفس ولا يجول فيها.

٢ـ والخاطر: وهو ما يلقىٰ في النفس ويجول فيها.

٣ـ وحديث النفس: وهو تردُّد النفس بين فعل الخاطر وتركه.

٤ـ والهمّ: وهو توجُّه النفس نحو الفعل والميل إليه.

٥ـ والعزم: وهو التصميم علىٰ الفعل بعد توافر أسبابه.

فالأصناف الثلاثة الأولىٰ لا مُؤاخَذة فيها ولا مسؤولية عليه، حيث لا قدرة للإنسان علىٰ دفعها. أما الهمّ فإن كان بسيئة ولم يفعلها فلا مُؤاخَذة فيه أيضاً، وإن كان بحسنة ولم يفعلها كُتبت له حسنة؛ تكرُّماً من الله وفضلاً. وأما العزم فيتعلق به الجزاء ثواباً وعقاباً، فالعزمُ علىٰ الكفر كفر وإن لم يفعل، والعزم علىٰ المعصية معصية كذلك، يُعاقب عليه الإنسان، ولكن دون عقاب الفعل، إلا إذا ترك فعل المعصية باختياره وندم علىٰ عزمه، فإنَّ الله سبحانه يتلقَّاه بواسع رحمته ويكتبها له حسنة.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك في كتابه، فمن همَّ بحسنة فلم يفعلها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن همَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلىٰ سبعمئة ضعف، إلىٰ أضعاف كثيرة، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن عملها كتبت سيئة واحدة». متفق عليه. (المؤلف).

والحديث المذكور رواه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١)، عن ابن عباس.

فهذه الآية مُقرِّرةٌ للسابق مُمهِّدةٌ للاحق، وقاعدةٌ عامَّة في ذاتها، علىٰ نهج القرآن وأساليبه في مثل ذلك. ومفادها: أنَّ الله سبحانه محيطٌ علمُه بما في الضمائر والسرائر كما يَعلَم الظواهر، والإبداءُ والإخفاءُ سيَّان عنده تعالىٰ، يعلم خائنة الأعين وما تُـخْفي الصُّدور، ويُحاسب علىٰ ما ظهر وما خَفي، لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها.

وقد قال المحقِّقون ـ واختاره الأستاذ الإمام[1] ـ: أنه يُستثنىٰ من ذلك الخواطر السانحة، والوساوس العارضة، وحديث النفس الخاطف الذي لا يصل إلىٰ درجة القصد الثابت والعزم الراسخ، والذي يُقرَنُ حالاً بالعودة إلىٰ الحقِّ والإعراض عن الباطل، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فهذه الأمور لا تدخل في مفهوم الآية كما قال المحققون واختاره الأستاذ؛ لأنها غير ثابتة ولا مُستقرَّة في النفس.

وقوله: ﴿مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ يفيدُ الثبات والاستقرار، ولكنه إذا مضىٰ مع تلك الخواطر واسترسل فيها حتىٰ رَسَخت فيه وتمكَّنت منه تكون عملاً يُجازىٰ عليه؛ لأنه سايرها مختاراً، فأثَّرت في نفسه وطبعتها طبعاً خاصّاً. وهذا التأثير هو متعلّق الجزاء ومناطه كما سيأتي بيان ذلك قريباً[2].

وهاك مثلاً لما ذكرنا: الحسد يبعث في النفس خواطرَ إزالةِ نعمة المحسود، حتىٰ إنَّه إذا تمكَّن أن يفعل معه شيئاً من ذلك ولو بإغراء الغير عليه فعل، لتمكُّن الخاطرة من نفسه، وامتلاكها لـمَنَازع فِكرِه، فمثل هذه الخاطرة مما يُحاسب عليها ـ أبداها أو أخفاها ـ لأنه سبحانه يُحاسِب علىٰ خطرات النفوس الثابتة المصمَّم عليها، كما يُحاسَب

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) تفسير «المنار» (٣: ١١٤-١١٦).

علىٰ أعمال الجوارح الواقعة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

ومن المعلوم أنَّ الأعمال الاختياريَّة وبعضَ الخواطر للإنسان لها آثار في النفس تُزكِّيها أو تُدسِّيها، ومن سُنَّة الله في الإنسان أن يرتقيَ أو يَتسفَّلَ نفساً وفعلاً بهذه الأعمال والخواطر من الفضائل والرذائل، فيكونَ لها أثر في النفس، وهو متعلِّق الجزاء ومَناطُه، فيُحاسِبَ سبحانه وتعالىٰ عليها، ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي لم تصل أعمالُه أو خواطرُه المنكرة إلىٰ أن تكون مَلَكاتٍ له راسخة؛ لأنه يعقبها الندم والتوبة والعودة إلىٰ حظيرة الحق والصواب، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[1] وهو الذي تصل أعماله المنكرة إلىٰ حدِّ المَلَكات الراسخة؛ إذ لا يعقبها ندم ولا توبة.

وذلك لأنَّ مشيئة الله سبحانه لا تجري إلا بالحق والعدل، وفي سُنن مُطَّردة، فإنما

---

(١) هذه الجملة ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ يُعقب بها القرآن ملكيَّة السماوات والأرض أو يعقبها بالملكيَّة؛ لبيان أنَّ له سبحانه فيها التصرُّف المطلق والسلطان، وبيده التعذيب والغفران، وليس المراد أنه يُجري ذلك جزافاً واعتباطاً، كلا، لأن مشيئته تعالىٰ لا تجري إلا بالحقِّ والعدل الدقيق حسب القانون العام الذي أقرَّه سبحانه بمثل قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وقوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠]، فقد شاء سبحانه تعذيبَ مَنْ أفسد فطرته ودسَّاها بالعقيدة الخاطئة والأعمال السيئة، والغفرانَ لمن حافظ علىٰ سلامتها وزكّاها بالعقيدة الصحيحة والأعمال الصالحة، فلا يُجزَونَ إلا بما كانوا يعملون، ولا يظلمُ ربك أحداً. وعلىٰ هذا النظام تجري مشيئتُه سبحانه في تعذيبه وغفرانه، ولن تجدَ لسنة الله تبديلاً، فالآيةُ علىٰ حدِّ قولهم: المَلِكُ يَنصِبُ ويَعزِلُ من يشاء، ويرفع ويخفض مَن يشاء، فإنه يُقال هذا والمَلِكُ لا يفعلُ شيئاً منه إلا لأعمال تصدرُ عنهم تقتضي الأمر وتُؤدّي إليه. (المؤلف).

يشاء سبحانه تعذيبَ مَنْ يستحق التعذيب، وغفرانَ هَفَوات مَنْ يستحق الغفران؛ إذ قد سبقت مشيئته الأزليَّة أن يُعذِّب مَنْ أفسد فطرتَه ودسَّاها، وهو الكافر والعاصي، وأن يغفر هَفَوات من حافظ علىٰ سلامتها وزكَّاها، وهو المؤمن الطائع، وأن يكون للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ولا يُجْزون إلا بما كانوا يعملون، وجاءت بذلك الأنبياء والكتب المنزلة، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، والله أعلم.

فالآيةُ علىٰ حدِّ قولهم: الـمَلِكُ ينصبُ ويَعزِلُ مَنْ يشاء، ويرفع ويخفض من يشاء. فإنه يقال ذلك، والملك لا يفعل شيئاً منه إلا لأعمالٍ تصدر عنهم، تقتضي ذلك الأمر وتؤدي إليه، ولا يفعل ما يفعل إلا بالحكمة والنظر الصحيح.

قال الأستاذ الإمام[1] ما مختصره: وقد يظنُّ من لا يؤمن بالكتاب كلِّه أن في هذا سبيلاً للمروق من التكليف؛ لأنَّ أمر المغفرة والتعذيب موكول للمشيئة، والرجاء فيه أقرب، وهذا ضلالٌ عن فهم الكتاب بالمرة، فالآية إنذارٌ وتخويفٌ ليس فيها موضعٌ للقطع بمغفرة ذنبٍ ما، وإن كان صغيراً[2]. وإنما هو بيان لسلطان الله المطلق وقدرته البالغة.

أقول: ولكون الكلام للإنذار والتخويف أردَفَه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾؛ إذْ قدرتُه تعالىٰ موضعٌ للخوف والحذر، فنسأله العناية والتوفيق، والهداية لأَقْوَم طريق، وليس الأمر جُزافاً كما يزعم الجاهلون، فيقيمون علىٰ الذنوب، ويُصرُّون عليها، ويُمنُّون أنفسهم بالمغفرة، فذلك هو الضلال البعيد، فقد قال رسول الله ﷺ: «الكيِّس مَنْ دان نفسَه وعمل لِـمَا بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّىٰ علىٰ الله الأماني»[3].

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) تفسير «المنار» (٣: ١١٨).

(٣) رواه الترمذي (٢٤٥٩) عن شداد بن أوس، وقال: هذا حديث حسن.

وإنما الأمر مَنُوطٌ بأعمال وعقائد تُكيِّفان النفس بكيفيَّةٍ تُؤهِّلها لنعيم الآخرة أو شقائها. وقد ألمع إلىٰ ذلك سبحانه فيما أنزل علىٰ أنبيائه من الشرائع والتعاليم، والقانونُ الأساسي في ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، والجزاء مُرتَّب علىٰ العمل ترتيباً طبيعياً[١]، والله أعلم.

ثم قال في «المنار» ما مختصره: ولما ذكر في هذه السورة كثيراً من أحوال الكافرين والمرتابين ومُحاجَّتهم، ناسَبَ بعد هذا ختام السورة بالشهادة للمؤمنين مع النبيِّ ﷺ بالإيمان، وهم المهتدون تـمامَ الاهتداء، ولقَّنهم من الدعاء ما ستعلم حكمتَه، فقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، وإنما لم يذكر اليوم الآخر لاندراجه في الإيمان بكتبه.

والمعنىٰ: أنَّ كلاً منهم آمن بوجود الله ووحدانيَّته وتنزيهه وكمالِ صفاته وحكمته وسُنَّته في خلقه، وبوجود الملائكة الذين هم السُّفراء بين الله وبين الرسل من البشر، ينزلون بالوحي علىٰ قلوب الأنبياء، بتلك الكتب المنزلة ومحتوياتها[٢].

---

(١) يعني: أن العمل الصالح أو السيِّئ له أثر علىٰ النفس الإنسانية، وهذا الأثر يستتبع الجزاء ـ ثواباً أو عقاباً ـ بحكم قانون طبيعي، أي: توجيه طبيعة النفس بكيفيتها التي آلت إليها نتيجة عملها. وهذا مما لا يوافق عليه المؤلف؛ إذ لا دليل عليه أولاً، ثم إنه يُوقع في عدة إشكالات، منها رفع درجات بعض المؤمنين زيادة علىٰ ما ينالون بأعمالهم، والعفو عن بعض المذنبين، والشفاعة لبعض العاصين، بل لبعض أصحاب الكبائر كما ورد في الحديث: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» أخرجه الترمذي (٢٤٣٥) من حديث أنس، وقال: حسن صحيح غريب. فلو كان ترتُّبُ الثواب والعقاب علىٰ العمل تابعاً لقانون طبيعي لَـمَا جازت هذه الأمور ونحوها، وإنما الترتُّب شرعي، بمعنىٰ: أنه تابع لما حكم الله به في شريعته، وأخبر به علىٰ ألسنة رسله، وما دام كذلك فهو من أخبر أيضاً بالعفو والشفاعة ونحوهما، فلا إشكال.

(٢) تفسير «المنار» (٣: ١١٩).

فالمؤمنون بأولئك الرسل يؤمنون ويقولون: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾. وإنما لم يتعرَّض لنفي التفريق بين الكتب، لأنَّ نفيَ التفريق بين الرسل يلزم منه نفيَ التفريق بين الكتب. وهذا القولُ تخطئةٌ لأهل الكتاب الذين يؤمنون ببعضٍ ويكفرون ببعض.

أما المؤمنون فقد آمنوا بجميع رسله وكتبه، ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ثم قالوا: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾، وهذا الدعاء بالمغفرة اعترافٌ بالعجز عن الإيفاء بالسمع والطاعة علىٰ ما ينبغي، وإقرارٌ بما لا يخلو عنه البشر من التقصير، يقرِّر بمضمونه مضمونَ ما سبقت الهداية إليه في السورة، لأن طلب الغفران ينبعث عن الشعور بالحاجة إليه، نتيجةَ رسوخ ما تقرَّر في النفس من أثر ذلك الإرشاد السابق. ومثلُه قولُه: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ لأنه اعترافٌ بالرجوع إليه للحساب والجزاء.

ثم أعاد الكلام عمَّا سبقت الهداية إليه من التكاليف، فهوَّن أمْرَها علىٰ النفوس، وبيَّن أنها غير زائدة علىٰ ما في الوسع، وسَبَك ذلك علىٰ إظهار المنَّة ومُراعاة الحكمة فيها والمصلحة، فقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1] أي: من شأنه تعالىٰ وسُنَّته في شَرْع الدين أن لا يُكلِّفَ عباده ما لا يطيقون، ولا تَسَعُه قدرتهم.

ثم بيَّن وَجْهَ الحكمة في هذا التكليف، فقال: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[2]، ومفاد هذه الجملة في وجه حكمة التكليف: أنه لما كان الإنسان مطبوعاً

---

(١) الوسع: ما تتَّسع له القدرة ولا يَسْتغرقها، بخلاف الطاقة، فإنها آخر درجات القدرة. والآية تُؤْذن بأن الله سبحانه ـ بمقتضىٰ حكمته ورحمته ـ جَعَل التكاليف الإسلامية داخلَ حدود الطاقة البشريَّة، تتَّسع لها قدرتهم ولا تضيق عنها. (المؤلف).

(٢) في الآية تصريح بأنَّ الإنسان مُخيَّر في أعماله، مُطْلق التَّصرُّف بها، من غير جَبْر ولا قَصْر، وهناك =

علىٰ أنَّ لأعماله الاختياريَّة أثراً في نفسه، تُزَكِّيها أو تُدَسِّيها؛ كان الثوابُ والعقابُ أثراً طبيعياً[١] لها. لذلك كان من الحكمة أن يبعث الله سبحانه بالرسل لبيان الخطَّة المُنْجِيَة من الخطَّة المُرْدية، فكان ذلك هذا التَّكليف الذي ليس هو فوق وُسْع الإنسان وطاقته، وإنما هو ممَّا تتَّسع له القدرة، ولا يستغرقها، ويُلائمها.

واختار الأستاذ الإمام[٢] ما قاله الزمخشري في الآية، وهو أن الفرق بين «كسب» و«اكتسب» كالفرق بين «عمل» و«اعتمل»، فكلٌّ من «اعتمل» و«اكتسب» يفيد التكلُّف.

فالآية تدلُّ علىٰ أنَّ فطرة الإنسان مجبولةٌ علىٰ الخير، وأنه يتعوَّد الشَّرَّ بالاعتمال والتأسّي. والمعنىٰ: أنَّ لها ثوابَ ما كسبت من الخير، وعليها عقابَ ما اكتسبت من الشر.

وقد اختلف الناس من غير المسلمين في الإنسان: هل هو خيِّر بالطبع أو هو شريرٌ بالطبع؟ وإلىٰ أيِّ الأمرَيْن يكون أمْيَلَ بفطرته، مع صَرْف النظر عمَّا يتَّفق له في تربيته؟

ويقول الأستاذ الإمام: لا شكَّ أنَّ الميل إلىٰ الخير ممَّا أُودع في طبع الإنسان، وأما الـمَيْل إلىٰ الشر فإنه يَعرِضُ للنفس بأسباب ليست من طبيعتها، ولا من مقتضىٰ فطرتها[٣].

---

= برهان عقليٌّ جاهز بهذا الاختيار، وهو إجماع الأمم مع اختلاف مذاهبها ومآربها علىٰ فائدة التربية والتهذيب، وسعيها في ذلك بالفعل سعياً حثيثاً، فهو اعتراف بالإجماع علىٰ أن الإنسان مخيَّرٌ غير مجبور، وأنه ابنُ التربية والتهذيب. (المؤلف).

(١) تقدَّم قريباً التعليقُ علىٰ هذا المعنىٰ، ونَقْدُ كون الثواب والعقاب أثراً للعمل من جهة الطبيعة.

(٢) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٣) تفسير «المنار» (٣: ١٢١)، وانظر «الكشاف» (١: ٣٣٢).

أقول: ويكون ذلك نتيجة انحطاط الإنسان، وسوء تصرُّفه، وإفساده لطبيعته، بحطَّة التربية، وسوء الدراسة، وسَفَالة البيئة، ورداءة الخلطاء، وغير ذلك.

وهذا هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ – ١٠]، ومعنىٰ قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٤ – ٥].

وبعد أن بيَّن سبحانه شأنَ المؤمن في السمع والطاعة وطَلَبِ المغفرة، علَّمنا هذا الدعاء، فقال: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، وإنما أمرنا أن نستعفيَهُ من النسيان والخطأ؛ لِمَا فيهما من عدم العناية بالاحتياط، وفيه إيعازٌ وإيماءٌ إلىٰ ما ينبغي عَمَلُه من بذل الجهد في الاحتياط للأمر، والتحرِّي والتفكُّر والتذكُّر، وأخذِ الدين بقوَّةٍ وعَزْم، كي لا يكون هناك إهمال، ويكون الذنب جديراً بالمغفرة.

ثم تابع الدعاء بقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾، وفيه إشعار بما كان من بعض التشديد في شريعة مَنْ قبلنا، إصلاحاً لعنادهم، وبالتخفيف عنا. والإصر: العبء الثقيل. وهذا دعاءٌ في زمن التشريع؛ يُلمع بطبيعة هذه الشريعة، ويُبشِّر بأنَّ الله تعالىٰ لا يُكلِّفنا بما يشق، ويمتنُّ علينا بذلك.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ فيه استعفاء عن العقوبات التي لا تُطاق بعد الاستعفاء عمَّا يؤدِّي إليها من التكاليف الشاقَّة. وقيل: هو تكرار للأول، وتصويرٌ للأمر بصورة ما لا يستطاع مبالغةً فيه، أي: لا تُحمِّلنا ما يثقل علينا. وإنما كرَّر كلمة ﴿رَبَّنَا﴾ لإبراز مزيدِ الضَّراعة له تعالىٰ.

وهذه الآيات صِيَغُها دعاء، وحقائقُها بيانٌ للُطفِ الله سبحانه بنا فيما شَرَعه لنا، فهي وصفٌ لطبيعة شريعتنا التي جاءت في ثنايا هذا القرآن.

ثم ختم المضامين السابقة بما يُقرِّرها، علىٰ نهج القرآن في التقرير، فقال: ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآ﴾.

ثم أتىٰ بهذه الجملة الـمُعلِّلة لسابقها ولاحقها، فقال: ﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾، فقد لمح بها لقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وألمع إلىٰ أنه سبحانه يؤيِّد المؤمنين وينصرهم، ومهَّد بها لقوله: ﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ أي: المقاومين لنا والمعارضين لديننا. ووَجْهُ إتمام هذا السياق بالدعاء بالنصر علىٰ الكافرين: الإيماءُ إلىٰ وجوب مُدافَعةِ هؤلاء المعارضين لإقامة هذا الدين المبين، والسَّاعين في مَحْقِهِ ومَحْقِ مَنْ آمن به من المسلمين. والله أعلم.

وقد بدأ السورة بالإيمان، وختمها بالإلـماع إلىٰ أنه سببٌ للفوز، فإنَّ في هذه الفقرات الشريفة إشارةً إلىٰ أنَّ إعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله تعالىٰ ـ حسبما أمر في تضاعيف هذه السورة الكريمة ـ غايةُ مطالبهم.

قال في «المنار»: استحسن الأستاذ الإمام تفسير الجلال[1] النصر بالغلبة بالحُجَّة وبالسيف، وقال: إنَّ النصر بالحُجَّـة هو أعلىٰ النصر وأفضلُه، لأنه نصرٌ علىٰ الروح والعقل، والنَّصرُ بالسيف إنما هو نصرٌ علىٰ الجسد[2].

وقال في شأن هذا الدعاء كلِّه ما مثاله: إنَّ الله تعالىٰ ما علَّمنا هذا الدعاء لأجل أن نلوكَه بألسنتنا، ونُحرِّك به شِفَاهَنا فقط، كما يفعل أهل الأوراد والأحزاب[3]، بل

---

(١) يعني الإمام جلال الدين السيوطي المتوفىٰ سنة ٩١١هـ فقد بدأ الإمام جلال الدين المحلِّي تفسير القرآن من سورة الكهف إلىٰ آخره، ثم عاد إلىٰ الفاتحة، ولم يُتمَّه، فأكمله الإمام جلال الدين السيوطي، فسُمِّيَ «تفسير الجلالين».

(٢) تفسير «المنار» (٣: ١٢٦)، وكلام الجلال في «تفسير الجلالين» (١: ٦٤).

(٣) لو قال: كثير من أهل الأوراد والأحزاب؛ لكان أقرب إلىٰ الدقة، وأبعد من إطلاق القول جزافاً، =

علَّمنا إيَّاه لأجل أن ندعوَه به مخلصينَ له لاجئينَ إليه، بعد أن نأخذَ ما أنزله بقوة، والعمل به علىٰ قدر الطاقة، واستعمال ما يصل إليه كَسْبُنا من الوسائل والذرائع التي هي وسائل الاستجابة في الحقيقة. فمن دعاه بلسان مقالِهِ ولسان حالِهِ معاً فإنه يستجيبُ له بلا شك، ومن لم يعرف من الدعاء إلا حركة اللسان مع مخالفة الأحكام وتنكُّب السُّنن، فهو بدعائه كالساخر من ربِّه الذي لا يستحق إلا مَقْتَه وخِذلانَه، فإذا كان سبحانه قد بيَّن لنا سبب المغفرة والعفو، وهدانا إلىٰ طُرق الغَلَبة والنصر، فأعرضنا عن هدايته، وتنكَّبنا سُنَّته في خليقته، ثمَّ طلبنا منه ذلك بألسنتنا دون قلوبنا وجوارحنا، أفلا نكون نحن الجانين علىٰ أنفسنا؟

أقول: وقد جاء في الحديث، قال ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنَّ الله سبحانه لا يستجيب الدعاء من قلبٍ غافلٍ لاهٍ»(١).

وتوقُّف الدعاء علىٰ العمل يستلزم توقُّفه علىٰ العلم، فلا يكون الداعي داعياً حقيقةً كما يحبُّ الله ويرضىٰ، إلا إذا كان قد عرف ما يجبُ عليه من الشريعة وسنن الاجتماع، واتَّبعَه بقدر استطاعته، فإذا اتَّخذت الأمةُ الوسائلَ التي أُمِرَت بها، ودَعَت اللهَ تعالىٰ أن يُثبِّتها، ويُتمَّ لها ما ليس في وُسْعِها من أسباب النصر، فإنَّ الله تعالىٰ يستجيب لها، كما ورد في الحديث: «إنَّ هذه الأمة لا تُغْلب من قلَّة»(٢).

---

= والمؤلف رحمه الله يُنبِّه في مواضعَ من هذا التفسير إلىٰ أن القرآن يُراعي الدقة في أحكامه فيقول: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ٧]، ونحوها من الآيات، فكان ينبغي عليه هنا سلوك هذا المسلك الدقيق.

(١) رواه الترمذي (٣٤٧٩) عن أبي هريرة، وقال: حديث غريب.

(٢) رواه أحمد (٢٧١٨) عن ابن عباس بلفظ: «لن يُغلبَ قومٌ عن قِلَّة يبلغون أن يكونوا اثني عشَرَ ألفاً».

ومَنْ أهمل الوسائل، فطلب النصر مثلاً وهو غيرُ عامل بأسبابه، أو الشفاءَ وهو غير مُتمسِّك بقوانين الصحَّة، فأجدر به أن لا يُستجاب دعاؤه، إذْ لا تبديل لِسُنَن الله. والله أعلم.

فإن قيل: إنَّ قضاء الله سبحانه في الأمور أزليّ، والله سبحانه يقول: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٩]، فما فائدة الدعاء؟

فالجواب: إنَّ عِلْمَ الله سبحانه بما كان وما يكون أزليٌّ، لا يَعْزُب عنه مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السماء، ودعاءُ الناس سابقِهم ولاحقِهم معلومٌ لله من الأزل، وقد جعله سبحانه في قضائه وقَدَره علىٰ هذا الداعي من الأزل أيضاً؛ لأنه يعلمه سبحانه من الأزل.

وقد جاء في الحديث: «إنَّ الله سبحانه يأمر الـمَلَكَ أن يكتب للجنين رِزقَهُ وأجلَه وشقياً أو سعيداً»[1]، ومبنىٰ هذه الكتابة: علمُ الله الأزليّ فيما سيصدر عن هذا المولود في حياته من أعمال وأقوال تُؤدِّي إلىٰ مقدار الرِّزق والأجلِ، والسعادةِ والشقاءِ. والدعاءُ واحدٌ منها، يعلمُه سبحانه من الأزل، ولا يغيبُ عنه إلىٰ الأبد، فهو مَرْعيٌّ فيما قدَّره الله له وقَضَاه، والله أعلم.

فنسأله تعالىٰ التوفيق، والهداية إلىٰ أقوم طريق، وحَسْبُنا الله ونِعمَ الوكيل.

انتهىٰ الجزء الأول[2] بانتهاء سورة البقرة، ويبتدئ الجزء الثاني بابتداء سورة آل عمران.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٣٣٣)، ومسلم (٢٦٤٦)، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله وكَّل في الرحم مَلَكاً، فيقول: يا ربِّ نطفةٌ؟ يا ربِّ علقةٌ؟ يا ربِّ مضغةٌ؟ فإذا أراد أن يخلُقَها، قال: يا رب أذَكَر؟ يا ربِّ أُنثىٰ؟ يا ربِّ شقيٌّ أم سعيدٌ؟ فما الرزقُ؟ فما الأجلُ؟ فيُكتب كذلك في بطن أمِّه».

(٢) حسب تقسيم المؤلف رحمه الله تعالىٰ في الطبعة الأولىٰ لهذا الكتاب.




الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام علىٰ محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فهذا هو الجزء الثاني[١] من تفسير «أَوْلىٰ ما قيل في آيات التنزيل» لرشيد الخطيب الموصلي. ويبتدئ بسورة آل عمران، وهي مدنيَّة، وآيها مئتان، نزل القسم الأول بسبب الوفد النَّجْراني[٢]، وكان مؤلفاً من ستين شخصاً، علىٰ ما ذكرت الروايات. منهم أربعة عشر من أشرافهم، وثلاثة من كبار رجال دينهم، فاجتمعوا بالنبيِّ ﷺ في مسجده وعليهم الحِبَرَاتُ[٣]، وجرتْ بينهم مجالسُ مناظرات، كان أهمُّها مواضيع ولادة عيسىٰ عليه السلام وصلته بالله، ولكنهم لم يَرْعَوُوا عن عقيدتهم، فطلبهم إلىٰ المباهَلَة فلم يُجيبوا الطلب، وانصرفوا قائلين: ليكن كلٌّ منا علىٰ ما هو عليه، وقبلوا الجزية، وقد مهَّد لذكر ذلك الجدل ببيان توحيد الله وذكر صفاته، إيماءً لنفي الألوهية عن عيسىٰ، وبيان نبوَّته، بإنزال الإنجيل عليه، مثل إنزال الكتب علىٰ الرسل، فقال:

---

(١) حسب تقسيم المؤلف في الطبعة الأولىٰ.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٦: ١٥١- ١٥٢)، عن محمد بن جعفر.

(٣) الحِبَرَات: جمع حِبرَة؛ بُرْدٌ يمانٍ. «لسان العرب» (حبر).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٦﴾.

﴿الٓمٓ ۝١﴾[1] وقد تقدَّم الكلام عنها في سورة البقرة، فارجع إليه.

---

(١) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأنه مختص بأفعال الألوهية، ﴿ٱلۡحَيُّ﴾ بذاته لا سبيل عليه للفناء، فهو منزَّه عن ولد يخلفه، ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ أي: القائم علىٰ تدبير خلقه علىٰ أكمل نظام، فهو مُنزَّه عمَّن يعاونه، ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ وفيه أنَّ عيسىٰ رسول الله، ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ من الكتب السماويَّة، فهو حقٌّ كما هي حق، ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ * مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾، وجعل الإنجيل شريعةً لرسوله عيسىٰ كما كان التوراة شريعةً لموسىٰ. ثم أنَّب وتوعَّد من يكفر بذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ...﴾، ثم ألمع إلىٰ أنَّ شرائعه في هذه الكتب مطابقةٌ للحقِّ والواقع، جالبةٌ للنفع والخير، دافعةٌ للشرِّ والضر؛ لأنها مبنيَّة علىٰ علمه الواسع، في الكون والواقع، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ ...﴾، ثم ردَّ علىٰ منْ يدَّعي ألوهيَّة عيسىٰ لأنه خُلِقَ من غير أب، بما يضيف إلىٰ سَعَة علمه تعالىٰ بالأسباب سَعَةَ حكمته وقدرته، فلا عَجَب ولا عُجاب، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾، فلا عَجَب من أن يخلق عيسىٰ من [غير] أب، ثم أنتج ما بدأ به السورة من اختصاصه بالألوهية، عَوْداً علىٰ بدء، فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، ثم بيَّن تلاعب الضَّالِّين بتأويل متشابه آيات الكتاب، بما يوافق ضلالاتهم، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ ...﴾. (المؤلف).

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ ﴾ أي: الحيُّ بذاته، فهو سَرْمَديٌّ أبديٌّ لا حاجة له إلىٰ ولد يَخْلُفُه أو يعاونه سبحانه. ﴿ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ ﴾ وهي صفةُ مبالغةٍ من القيام بتدبير خلقه ورعاية شؤون كونه، دون أن يَؤُودَه ذلك، فلا حاجة لمعاونٍ وشريك، وهذا تقريرٌ لحقيقة التوحيد الذي هو أعظم قواعد الدِّين.

وقد مهَّد به لقوله: ﴿ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ إذ فيه ما يُحقِّق أنه من عند الله تعالىٰ، فلا يحتاج إلىٰ دليل من غيره علىٰ حقِّيته، وإنما دليله نفسه، فكلُّه حقٌّ وصدقٌ، حالَ كونه ﴿ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾ أي: لما تَقَدَّمه من الكتب المنزَّلة علىٰ الأنبياء. أي: من نفس طبيعتها ومحتوياتها، فهو حقّ كما هي حقّ، وصدْقٌ كما هي صِدْق، والنَّظير يُشابه النَّظير، والتعبير بما بين يدي الشيء عمَّا تقدَّمه هو من مَجَاز الكلام وخصائص اللغة.

ثم خصَّ بالذكر ـ علىٰ طريقة التَّنظير ـ بعضَ تلك الكتب المتقدِّمة، وما انْطَوَت عليه من الهداية أيضاً، فقال: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ ﴾ وعبَّر بالتَّنزيل للقرآن والإنزال لغيره؛ لأنه نزل مُنجَّماً، بخلافها. ثم قال: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ ﴾، وهو وصفٌ لجنس كتب الشريعة، لأنها تُفرِّق بين الحق والباطل، فهو من عطف الصفة علىٰ الموصوف، وعطف المُجْمَل علىٰ المفصَّل؛ لأنَّ هذا الوصف يعمُّ سائر الكتب السماويَّة. أي: إنَّ هذه الكتب المنزَّلة إنما أنزلها للفرق بين الحقِّ والباطل.

لذلك تَوَعَّد وندَّد بالمخالفين لها والعابثين بها، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ هذه التي أنزلها لهداية عباده وإرشادهم إلىٰ طرق السعادة في المعاش والمعاد، ﴿ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴾ بما يلقي الكفر في عقولهم من الأباطيل التي تُطفئ نورها، فلا تُبصر الحقَّ، فينجرُّون إلىٰ المفاسد التي تُدنِّس نفوسهم وتُدسّيها، فيستحقون العذاب، ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾ فهو بعزَّته يُنفِذُ سنَّته، فينتقم ممَّن خالفها، بسُلطانه الذي لا

يُعارَض، ونظامه الذي لا تَتَخَلَّف نتائجه إيجاباً وسلباً. والانتقام: من النقمة، وهي السطوة والعقوبة، لا بمعنىٰ التَّشفِّي بالعقوبة؛ لأنه مُحَال علىٰ الله تعالىٰ.

ثم ذكر ما يُؤْذن بأنَّ تلك الكتب هي الأنظمة التي يحتاجها البشر، وما يُشعر بوعيد المخالفين لها، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾، فهو يُنزِّل لعباده من التعاليم والشرائع ما يعلم أنَّ فيه صلاحهم إذا أقاموه. وكذلك يعلم حقيقة أمرهم في سرِّهم وجهرهم، لا يَخْفىٰ عليه أمرُ المؤمن الصَّادق، وأمر الكافر والمنافق.

ثم بَرْهَن علىٰ ذلك بدليل القدرة والإبداع، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الوعد والوعيد بدليل القدرة، ومهَّد به لما يأتي من الكلام عن أمر عيسىٰ عليه السلام، وخَلْقِهِ من دون أب، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾، يشير إلىٰ دقَّة تركيب الرَّحِم وبَدَاعةِ عمليَّته وإنتاجه، ويُومئ إلىٰ الردِّ علىٰ مَنْ يَسْتعظم ولادةَ عيسىٰ من غير أب، بأنَّ ما تعلمونه من أحوال الطبيعة وسُننها قليلٌ من كثير لا تعلمونه، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ثم بنىٰ علىٰ هذه القدرة البالغة تقريرَ التوحيد، ونفيَ الولد والشَّريك، مَخْضاً للنتيجة بعد البرهان، فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٦﴾ أي: فإنَّ مَنْ وضع تلك الأنظمة الدقيقة، والسُّنن الطبيعية، في الخلق والتكوين، عليمٌ حكيمٌ، وعزيزٌ حليمٌ، لا يغلب علىٰ ما قضىٰ به علمه، وتعلَّقت به إرادته، فهو واحد لا شريك له في إبداعه وتكوينه. وهو بهذه الأفعال وهذه الصِّفات التي لا يشاركه فيها أحد، يستحقُّ وحده أن يُعْبَدَ وَيُؤَلَّه. فهو الإلهُ الحقُّ، لا إله غيره، وسائرُ كتبه المنزلة مشحونة بالحكمة، والموعظة الحسنة، والتوجيه الصحيح.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾.

ثم شرع في إبطال شُبههم الناشئة عمَّا نطق به القرآن في نَعْت عيسىٰ عليه السلام، إثر بيان قدرته واختصاص الربوبيَّة به سبحانه وتعالىٰ. وذلك أنَّ هؤلاء المجادلين النَّجْرانيين قالوا: يا محمد، ألست تزعم أنَّ عيسىٰ كلمةُ الله ورُوحٌ منه؟ فقال: بلىٰ، فقالوا: حَسْبُنا؛ لأن العبارتين عندهم بمعنىٰ: ابن الله. فردَّ عليهم سبحانه بإيضاح شبهتهم، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[1]، أي: الأصل الكافي، والعُمدة الذي يُرجَعُ إليه فيه، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ...﴾.

قال الأستاذ الإمام: والآيةُ كلُّها ردٌّ لاستدلالهم ببعض آيات القرآن علىٰ تمييز عيسىٰ عن غيره من البشر؛ إذ وَرَد فيه أنه روحُ الله وكلمتُه. فهو يقول: إنَّ هذه الآيات هي مِن المتشابهات التي اشْتَبَهَ عليكم معناها، حتىٰ حاولتم جعلها ناقضةً للآيات المُحكَمة في توحيد الله وتنزيهه وبُنوَّة عيسىٰ.

أقول: والمتشابه عند المفسِّرين هو: ما يُوهم ظاهرُه معنىٰ لا يليق بجلال الله،

---

(١) أمُّ الشيء: أصله أو مرجعه، والمراد به هنا: الكلمة أو الجملة التي لا تحتمل إلا معنىٰ واحداً قطعياً. وهناك مفردات أو جمل تحتمل أكثر من معنىٰ، فإذا تعارض في الظاهر هذا الصنف مع الصنف الأول يجب حَمْله علىٰ الصنف الأول القطعي بالوجه الذي تزول منه المعارضة؛ لأنه يُعلَمُ بديهاً أنه هو مراد المتكلم بهذين الكلامين. (المؤلف).

ولا يتَّفق مع دلالة الـمُحْكَم في تنزيه الله عن صفات الحوادث. فإما أن يؤمن به المسلم علىٰ وجهٍ لا يتنافىٰ مع التنزيه، ويبقىٰ سرُّه محفوظاً، لا يعلمه إلا الله، وإما أن يَصرِفَه عن ظاهره إلىٰ معنىً مجازيّ حسب عرف التخاطب ومدلولات التراكيب.

وأما الذم فهو علىٰ مَنْ يتَّبع المتشابه ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تأويله إلىٰ مآربه، وهو حالُ أهل القصد الفاسد، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ حَسْبَما يشتهونه من التأويلات الزائفة، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إما لدقَّة مدلوله، وإما لبُعْد حقيقته عن مَدَاركنا. ومن ذلك معرفة ذاتيَّات الروح، وأحوال الآخرة، وصفات الله سبحانه، وإطلاق (كلمة الله) علىٰ عيسىٰ عليه السلام، ومكالمته للملائكة في شأن آدم، ومكالمته لإبليس[1]، وأمثال ذلك.

ومن الزَّيْغ ما يستغلُّه أهل البدع والأهواء من إجمال القرآن في بعض المواضيع، فيصرفونه لأهوائهم وبدعهم بالتحريف والتأويل. والمراد هنا: الردُّ علىٰ النَّجْرانيين في استغلالهم إطلاق القرآن: (كلمة الله) علىٰ عيسىٰ، وعندهم: كلمة الله؛ بمعنىٰ: ابن الله. والقرآن يريد بها كلمة التكوين في قوله تعالىٰ: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ومثل قوله تعالىٰ: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وليست الإضافة إلا إضافة المملوك إلىٰ المالك، والمخلوق إلىٰ الخالق. وإنما أطلق هذا الوصف علىٰ عيسىٰ كما أطلقه علىٰ آدم للإيذان بأنه فردٌ من أفراده، وإن لم يكن له أبٌ لم ينقص فيه شيء، ولكن هذا شأن الذين في قلوبهم مرضٌ في المتشابه، وهم في فِرَقِ الإسلام أيضاً كثيرون.

أما الراسخون في العلم فيعلمون من تلك الآيات ما لا يعلمه غيرهم، ويفهمون

---

(١) في كون هذين الأخيرين من المتشابه نظر، وقد تقدَّم التعليق علىٰ ذلك في سورة البقرة (١: ٦١).

من تلك الأحوال والصفات فهماً إجمالياً عن حقائقها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ فعبَّر بهذه العبارة عن علمهم الإجمالي فيها. والله أعلم.

ثم ختم هذا البحث بقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ أي: لا يعقل الحقَّ ويفقَهُ الحكمَ إلا أربابُ القلوب النَّيِّرة، والعقول الكبيرة المتفوِّقة، فهم الذي يُدركون أنَّ تلك المدلولات بعيدة المنال، لا تفي بتوضيحها لغةُ الإنسان، وما يُعلَمُ من عبارات البيان. فإذا عبَّر عنها هذا القرآن بعُلوِّ بيانه، واختيار كلماته، وبلاغة سَبْكه وتركيبه، اشْتَبَه الأمر علىٰ غير الراسخ، واستغلَّه المُغْرِض، وأدركه أولُو الألباب إدراكاً إجمالياً، كما ذكرنا[1]. والله أعلم.

ولما كان المتشابه مَزَلَّةَ أقدامٍ لغير أُولي العلم، ومَفْتنةً للزائغين من أرباب الفتنة، أرشدنا سبحانه وتعالىٰ إلىٰ التثبُّت فيه بهذا الدعاء، وجَعْله منهجاً لنا، فقال: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾، وفي قوله: ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾، إسنادُ الفعل إلىٰ الله، مجرَّداً عن أسباب الزيغ الكسبيَّة، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية)، وهذه الرحمة اللَّدُنِّية هي العناية الإلهيَّة والتوفيق، وهي من مواهب الله السَّنيَّة.

ثم أكمل الدعاء بهذا التَّسجيل المتضمِّن للوعد والوعيد، تقريراً للحاجة إلىٰ ما ذكر من طلب التثبيت، فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لينالوا ثوابك العظيم، أو عقابك الأليم، ثم ذكر في موضع التعليل والتقرير لهذا التسجيل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾، وإظهارُ الاسم الجليل مع الالتفات من الخطاب

---

(١) وعلينا أن نحمل المتشابه علىٰ النصوص المحكمة. (المؤلف).

إلىٰ الغيبة؛ لإبراز كمال التعظيم والإجلال، وتربية الخشية منه تعالىٰ في ذلك اليوم الرهيب، وللإشعار بعلَّة الحكم، فإنَّ الألوهيَّة منافيةٌ للإخْلاف.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾.

وبعد أن بيَّن الدينَ الحقَّ، وهو التوحيد والتنزيه، شَرَعَ في بيان حال مَنْ كَفَر وأعرض عنه، وسَبَكه علىٰ التهديد، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، فأومأ إلىٰ منشأ اغترارهم بالباطل، وهو اعتزازهم بأموالهم وأولادهم، واغترارهم بها. وفي صورة التركيب تلميحٌ إلىٰ اشتغالهم بها عن الحقِّ. وقد توعَّدهم عليه بقوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾ الوَقُودُ ـ بالفتح ـ: ما تُوقَدُ به النار من حَطَب ونحوه.

ثم ذكر سبحانه تمثيلاً وتنظيراً لهؤلاء الكافرين الذين استَغنَوا بما أُوتوا في الدُّنيا عن الحقِّ، فعارضوه وناهضوه حتىٰ بطش بهم، فقال: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ أي: علىٰ مُسْتَحقِّيه، إذ مَضَتْ سُنَّته بأن يكون العقاب أثراً طبيعياً تلقائياً للذنوب والسَّيِّئات، يَقْوىٰ بقوَّتها ويضعف بضعفها.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾.

وبعد التمهيد بهذا البيان صرَّح بالتهديد نصّاً، فقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: من نصارىٰ نَجْران واليهود ومشركي قريش المغرورين بحَوْلهم وقوَّتهم، المُعْتزِّين بأموالهم وأولادهم: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ أي: في الدنيا، ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: في الآخرة، ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ أي: بئس جهنَّم المُسْتَقر والمأوىٰ الذي مَهَّدوه لأنفسهم. والآياتُ الدالَّة علىٰ اغترار هؤلاء المشركين بالأموال والأولاد، واعتزازهم بهما، كثيرةٌ في القرآن، وكذلك كان نصارىٰ نَجْران.

ثمَّ أيَّد التَّهديد بالمَغْلوبيَّة لهؤلاء المَغْرورين والمُعْتزِّين بكَثْرة أموالهم وأعوانهم، مُسْتَشْهداً بوقعة بدر، علىٰ سُنَّة القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم﴾ أي: يرىٰ الكفار المؤمنين ﴿مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾، وذلك من ألطاف الله الخفيَّة. وإيثارُ صيغة الجمْع في ﴿يَرَوْنَهُم﴾ للدّلالة علىٰ شمول الرؤية لكلِّ واحد من آحاد الفئة. وصورة العبارة تدلُّ علىٰ القوة المعنويَّة للمسلمين، التي هي مصدر التأييد من الله، ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: ممَّن يستحقُّون التأييد ويتَّبعون سُنَنَ الله في ذلك النصر المبين.

ثم بالغ في التأكيد والتنبيه إلىٰ موضع العبرة فيه، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ أي: أصحاب العقول النَّيِّرة التي لم يُفْسِدْها صاحبها. والتعبيرُ بالأبصار عن العقول مَجَازٌ مرسل، علاقته السببيَّة؛ لأنَّ إدراك البصر يَنْبعث عنه إدراك العقل، وهو أبلغ من الحقيقة.

وهذه الآية تذكيرٌ بوقعة بدر، وما كان فيها من النصر المبين علىٰ كثرة الكافرين وقلَّة المؤمنين، ولم تُغْن أولئك المغرورين أموالُهم وأعوانُهم شيئاً.

وفي قوله: ﴿تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إشارةٌ إلىٰ مصدر القوة؛ لأنَّ القتال إذا

كان في سبيل حمايةِ الحقِّ مع اليقين بأنَّه الحقُّ، تَوَجَّهت النفس إليه بالتضحية، واثقةً بأنَّ وراء قوَّتها معونةَ الله وتأييده.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

ولـما ذكر حال هؤلاء المغرورين بالأموال والأولاد، وتوعَّدهم، ذكر مصدر افتتان الناس عموماً بمثل ذلك، وسَبَكه علىٰ التَّنديد، علىٰ نهج القرآن في ذكر القواعد العامَّـة إثر المسائل الخاصَّة تشملها وغيـرها، فقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ أي: النَّجيبة، إذ لا تُوضَع السِّمات إلا عليها، ﴿وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾.

قال الأستاذ الإمام: لم يكن الغرضُ تقبيحَ حبِّ هذه الأشياء، كيف وقد فطر الله الناس علىٰ حُبِّها، فإنَّ الله سبحانه ما فطر الناس علىٰ شيء قبيح. وإنما المراد أن لا يكون حبُّ هذه الأشياء سبباً للتفريط بما عند الله من الخير الباقي العظيم الذي لا يماثله شيء ولا يوازنه خير، لذلك قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾، والمتاع: الشيءُ الوقتي الذي لا يدوم، بل ينقضي بسرعة ومدَّة قصيرة. وقيل: إنَّ الآية نزلت بسبب اندهاش المسلمين من هيئة الوفد النجراني، إذ كان عليه حُلَلٌ من الحِبَرات الدِّيباجيَّة الموشَّاة بالوشي، فألمع سبحانه إلىٰ التَّزهيد بها والتهوين.

وبعد أن بيَّن شأن مُزَخْرَفات الدنيا بأنها مَتَاعٌ تافِهٌ قصير زائل، وقابلها بما عند الله تعالىٰ من حُسْن المآب، فصَّل ذلك المآب علىٰ صورة المُبَايَنة بينه وبين ذلك المتاع الزائل التافه، مُبيِّناً أنَّ خيرَ الآخرة عظيمٌ لا يُوازنُه ولا يُماثلُه نعيم، وهو باقٍ خالدٌ لا يَحُول ولا يَزُول، فقال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ أي: المتاع الذي تَقَدَّم ذكرُه من النساء والبنين وأبهة النَّجْرانيين.

وفي صورة التركيب وتصديره بالاستفهام توجيهُ النفوس وتشويقُها إلىٰ الجواب المذكور بقوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: مما يعهد في نساء الدنيا من الشوائب الماديَّة والمعنويَّة، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ وهو أكبر من تلك اللذات كلِّها، كما قال تعالىٰ في سورة التوبة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

ثم ختم الآية بما يحمل علىٰ التَّمسُّك بالأسباب المؤدِّية لذلك المآب، والتدقيق والإتقان في عملها، لتكون مُرْضيَةً لله تعالىٰ، ومُفْضِيَةً إلىٰ ذلك، فقال: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾، وفيه إشعارٌ بأنه ليس كلُّ من ادَّعىٰ التقوىٰ في نفسه أو بلسانه يكون مُتَّقياً لله تعالىٰ، وإنما المتَّقي مَنْ عمل ما يُرضيه، وأخْلَصَ النِّية فيه.

ثم وَصَف أهلَ التقوىٰ الحقيقية بشأنٍ من شؤونهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾﴾، فهم لتأثُّر قلوبهم بالتقوىٰ التي هي ثمرة الإيمان، تفيض ألسنتُهم بالاعتراف بهذا الإيمان، في مقام الابتهال والدعاء. وفيه إيذانٌ بمعونة السياق إلىٰ أنهم زاهدون في زخارف الحياة الدنيا؛ لأنَّ الإنسان كلَّما ارتفع بروحه وعقله وشعوره إلىٰ جانب الله سبحانه، ابتعدَ عن هذه الحياة الفانية، وأصبح ينظر إليها وهي تحته نظراً ضئيلاً حقيراً.

ثم تابع الوصف لهؤلاء المتَّقين، مُبيِّناً الصفات التي استحقُّوا بها تلك الدرجات، فقال: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾، والقنوت: يُطلق بإزاء معانٍ عدَّة، منها: السكوت، والدعاء، والطاعة، والتواضع، وإدامة الحج، وإدامة الغزو، والقيام في الصلاة.

والاستغفار المطلوب ما يُقرَنُ بالتوبة النصوح؛ فإنَّ المستغفر من الذنب وهو مُصرٌّ عليه كالمستهزئ بربه، ولا قيمة للَّفظ.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

وبعد أن بيَّن تعالىٰ جزاءَ المتَّقين، وبيَّن حالهم في إيمانهم، ومدح أصنافهم الكاملين في أوصافهم، بيَّن أصلَ الإيمان وأساسَه، رامزاً إلىٰ أنَّ دلائلَه ظاهرةٌ جليَّة، وشواهدَه عظيمةٌ عَلِيَّة، فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾، والشهادة بالشيء: الإخبار به عن علم بالمشَاهَدَة الحسيَّة، أو المعنويَّة، وهي الحُجَّة والدليل.

وشهادة الملائكة إنما تكون للأنبياء عندما يُوحَىٰ إليهم، وتكون مقرونةً بعلم ضروريّ هو عند الأنبياء أقوىٰ من جميع اليقينيات البديهيَّة.

وشهادةُ أُولي العلم تُقْرَنُ عادةً بالدلائل والحجج.

وأما شهادةُ الله فهي عبارة عن البراهين الكونيَّة الدالَّة علىٰ التوحيد والتنزيه، والآيات الدالة علىٰ صدق الرسل.

وفي كـلِّ شيءٍ لـه آيـةٌ تدلُّ علىٰ أنه واحـدُ[1]

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، تعالىٰ الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً.

ومُحصَّل الكلام: أنَّ الله سبحانه بيَّن وحدانيَّته، بنَصْب الدلائل الكونيَّة في الآفاق والأنفس، فإنَّ ما في هذا الكون من العظائم يُبَرْهِنُ علىٰ وَحدانيَّة خالقه واختصاصه بصفات الألوهيَّة واستحقاقه وحدَه لأن يُعبد. ثم أنزل الآياتِ الناطقةَ بذلك بواسطة الوحي من الملائكة، وبيَّن ذلك أُولو العلم بالدلائل الواضحة والحُجَج الدامغة.

أما القيام بالقسط فهو: العدل في الدين والشريعة، وفي الكون والطبيعة فجَعَل سُنَنَ الخليقة في الأكوان والإنسان قائمةً علىٰ أُسس العدل والإحكام في النظام والانتظام. فمن نظر في هذه السُّنن ونظامها المُحْكَم الدقيق، يتجلَّىٰ له عدلُ الله العامُّ في كلِّ شيء، وكذلك أحكامُه تعالىٰ في التشريعات ـ العبادات، والآداب، والمعاملات ـ مَبْنيَّةٌ علىٰ أساس العدل بين القوىٰ الرُّوحيَّة والبدنيَّة، وبين الناس بعضهم مع بعض.

ثـم قَـرَنَ هـذه الشـهادة بتسجيـل الـحكم، فـقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾، والتعرُّض لوَصْفي العزَّة والحكمة للإيذان بظهور أثرهما في آثاره تعالىٰ.

---

(١) سبق تخريجه والاختلاف في قائله ص٤٣.

ومُحصَّل الكلام: شهد الجميعُ بأنَّه الإله الواحد الذي أقام نظام الكون بالقسطاس العادل والتوازن المُحْكَم، وشرَعَ الأحكام علىٰ وَفْق مصالح العباد، بالحكمة والموعظة الحسنة، فسبحانه من إلهٍ عادلٍ عزيز حكيم.

ثم أردف إثبات التوحيد ببيان الدِّين الحقِّ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1]، لأنه نهجٌ من مناهج الحياة، موضوعٌ طبق القوانين الطبيعية التي سَنَّها الله للعباد، وهو يوفِّق بين الوجهتين الروحيَّة والماديَّة في الحياة الإنسانيَّة، ويَسْمُو بالنفس إلىٰ الذروة العليا من السمو، فلم يَدَع من صلة دينيَّة بين المرء وربِّه، غير الاعتقاد الصحيح في ذات الله، والعملِ الصالح خالصاً لوجهه الكريم. وهو يُسيِّر الإنسان في أنْبل السُّبل في هذه الحياة، يُخلِّقه بالأخلاق الفاضلة، ويحثُّه علىٰ العلم والمعرفة، وإدراك ما في هذا الكون من سنن كونيَّة وآيات ربَّانية، ويأمره باستثمار ما خَلق فيه من المواهب ذات الفوائد والمنافع، ويحمله علىٰ التمسُّك بالنظم الاجتماعية الصحيحة، ويُغْريه بالتضحية في سبيل الحق، فلا تجد مثل هذا في غيره من دين ولا نظام.

هذا إذا أُريدَ بلفظ «الإسلام» هنا المعنىٰ الاصطلاحيّ، أي: الدين المحمديّ الإسلاميّ. ويجوز أن يُراد به المعنىٰ المصْدَريّ، أي: الانقياد له تعالىٰ وحده. وهذا هو روحُ الشرائع السماويَّة الصحيحة كلِّها، قبل أن يعبثَ بها البشر ويُؤَوِّلَها ويُحرِّفَها.

وقد ذكر سبحانه خروجَ أهل الكتاب عن هذه المحَجَّة الواضحة التي جاءتهم

---

(١) دين الإسلام دين يدعمه العلم، ويُؤازره العقل، ويُسايره المنطق والوجدان، يحثُّ الناس علىٰ البحث والنظر والتدقيق، ويذمُّ التقليد الأعمىٰ، والاتِّباع من دون تفكير. والإسلام ـ بمعناه المصدري ـ: حاجة طبيعية من حوائج النفس الإنسانية، لا غنىٰ عنه لها، ولا تعويض؛ لأن الانقياد إلىٰ الله أمر ظاهر في الطبيعة والشريعة. (المؤلف).

بها أنبياؤهم، والسببَ الباعث لهم علىٰ ذلك، مُلْمِعاً إلىٰ أنَّ ما يتقوَّلونه ليس من أصل كتابهم، ولكنهم اخْتلقوه، فقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: إنما كان السبب في خروجهم عن هذا الطريق المستقيم، بعدما بَيَّنَتْهُ لهم أنبياؤهم، هو البغْيُ بين الرؤساء، وقَصْد التَّفوُّق والتفاضل في حطام الدنيا، فهو الذي حَمَلهم علىٰ هذا الاختلاف، حتىٰ اتَّخذ كلٌّ منهم لنفسه من هذا الدين مذهباً، وجَمَع عليه أتباعاً، لِيَتَفوَّق علىٰ غيره من الرؤساء، أو يمتاز.

ثم ختم البيان بما يدلُّ علىٰ التوعُّد، فقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالَّة علىٰ وَحْدة الدين ومَحجَّته، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ يوفِّي كلَّ كاسب أجرَه، وكلَّ مكتسبٍ جزاءَه، عقب عمله، بحسبه وقدره؛ لأنَّ سنَّته مَضَت بأن تكون النتائج آثارَ الأعمال، فهو يُوفِّي كلَّ عامل عمله بلا إبطاء. وكما يكون الجزاءُ سريعاً في الدنيا، كذلك يكون في الآخرة، فإنَّ أثر الأعمال يظهر للمرء عقب الموت، مُرتَّباً علىٰ أعماله، وهو أول قدم يضعه في باب عالم الآخرة. وقد مرَّ تفسير مِثل هذه الآية بأوسع من هذا في سورة البقرة[1].

ثم لقَّن سبحانه رسوله كيفيَّة المُحَاجَّة لأهل الكتاب تجاه دينهم هذا الذي اختلفوا فيه ـ ومنهم وفد نجران ـ، وبيَّن له المنهج الذي يجب أن ينهجه في دعواه لهم إلىٰ هذا الدين المبين الصحيح عند الله، كما تقدَّم النصّ عنه في الجملة السابقة، فقال: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ أي: جادلوك بعد أن جئتهم بالحق اليقين، وأقمت عليه البيِّنات والبراهين، ودمغت الباطل بالآيات والدلائل، ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ أي: أقبلتُ عليه بعبادتي، مُخْلِصاً له مُعْرِضاً عمَّا سواه أنا ومن اتَّبعني من المؤمنين.

---

(١) في الآية ٢٠٢ منها.

قال الأستاذ الإمام: كأنه يقول: إنَّ مَنْ يقصد إلىٰ الحِجَاج بعد تأييد الحقِّ وتفنيدِ الباطل، لا يقصد إلا إلىٰ المجادلة والمشاغبة لمحض العِناد والمشاكسة[1]. فأعرِضْ عنه وقل: أسلمتُ وجهيَ لله أنا ومن اتَّبعني.

ثم أمره أن يعيد عليهم الكرَّة، ويختم المُحَاجَّة بالاستفهام التقريريِّ الذي هو بمثابة الأمر، فقال: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ أي: الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب. ووضع الموصول موضع الضمير[2] لإفادة مضمون الوصفين، فإنَّ الأول يقتضي التقريع عن الإعراض عن الهدىٰ بعد إذ جاءهم، وهم أهل كتاب يمكِّنهم أن يميزوا الهدىٰ من الضلال، والثاني: يقتضي التجهيل الشنيع للمشركين علىٰ عدم الأخذ بتعاليمَ أتتهم وهم أحوجُ الناس إليها، لموضع أمِّيَّتهم وعدم علمهم. فأمره سبحانه أن يسألهم هذا السؤال المؤنِّب: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ أي: لَمَّا وَضَحت الحُجَّة أولاً؟!

وقال البيضاوي: نظير هذا الاستفهام: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[3] [المائدة: ٩١].

أقول: أي: للإيذان بأنَّ أمر الإلزام قد بلغ الغاية، وأنَّ الأعذار قد انقطعت.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ لِمَا فيه خيرهم، وفازوا بالحظِّ الأوفر، ونَجَوْا عن مَهَاوي الضلال، ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾ وأعرضوا عن الإسلام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ وقد أدَّيته، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ يُجازيهم بإجْرامهم وإعراضهم عن الصِّراط المستقيم.

ثم فصّل هذا التَّوعُّد الإجمالي بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الناطقةِ

---

(١) «تفسير المنار» (٣: ٢١٤).

(٢) أي: قال: وقل للذين أُوتوا الكتاب، مع تقدُّم ذكر «أهل الكتاب» في السياق، فكان الظاهر أن يقول: وقل لهم وللأميين.

(٣) «تفسير البيضاوي» (٢: ١٠).

بحقيقة الإسلام علىٰ الوَجْـهِ الذي مرَّ تفصيله، ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ والأول: يشمل المشركين وأهل الكتاب، والثاني: خاصٌّ بأهل الكتاب، ونسبةُ هذا الفعل إليهم باعتبار ما كان من سلفهم، وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن؛ لأنَّ الأمة ـ في تكافلها وجَرْي لاحقها علىٰ إثْر سابقها ـ واحدةٌ بالنوع كالشخص الواحد. والقيد الأخير: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ للمبالغة في التَّبشيع والتَّشنيع، لا لتخصيص الحكم، فلا مفهومَ مخالفةٍ له. ثم أتىٰ بهذه الجملة الصادقة عليهم وعلىٰ غيرهم، فقال: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وهم الحكماء والمصلحون وأتباعهم، الذين يرشدون الناس إلىٰ الصِّراط المستقيم، الذي ضلّوا عنه، ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ وما أبلغ الاستعارة التَّهكميَّة بهذه البشارة! فهي من بلاغة القرآن التي لا تُطَاول. وقيل: بل الكلام علىٰ الحقيقة؛ لأنَّ التبشير يشمل كل ما تتأثَّر له بشْرة الوجه من خير أو شر. والغرضُ من هذا البيان عن اليهود: تسليتُه ﷺ بأنَّ مَنْ هذا شأنُه مع الأنبياء والمصلحين، ليس غريباً إعراضُه عنك ومعاكستُه لك.

ثم بيَّن مصيرهم في الدارين، فقال: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ الدنيويَّة ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بفشلها ﴿وَ﴾ الأخرويَّة في ﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾، لأنَّ العمل الصالح إنما ينفع بحُسْن أثره في النفس، ولا يتمُّ ذلك إلا بسلامة العقيدة وصلاحها، ونفوسُ هؤلاء قد أوْغَلَ فيها الفساد، ففقدت الاستعداد لقَبول ذلك الأثر، فأسلمهم إلىٰ العذاب الأليم، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ وهذا تهديدٌ رهيب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۖ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم التفت إلىٰ خطاب الرسول يُعجِّبه بأعجب شأنٍ من شؤون أهل الكتاب في الدين لذلك العهد، مُلْمِعاً بعموم الآية إلىٰ التعريض بالوفد النَّجراني، وإعراضه عن الدعوة للدين الإسلامي، ومجادلته في ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ فقد كانوا يَتولَّونَ عن حكم التوراة إذا خالف أهواءهم، وكانوا ربما تحاكموا إلىٰ النَّبي ﷺ عازمينَ علىٰ قَبول حُكمه، حتىٰ إذا كان علىٰ غير ما أحبوا خالفوه، كما فعلوا يوم زنىٰ بعض أشرافهم وحكَّموه، فحكم بينهم بمثل حكم كتابهم، فتولَّوا وأعرضوا عن قَبول حُكمه؛ لأنهم إنما فزعوا إليه لِيُخَفِّف عنهم.

وهذا النقد مُوجَّه إلىٰ هذه المخاتلة دون نظر إلىٰ صحَّة كتابهم أو نسخه. وقوله: ﴿أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يشير إلىٰ أنهم نَسُوا حظاً مما ذكروا به.

ثم علَّل شأنهم هذا بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾، ومن ذلك: دعواهم أنَّ النبوة لا تتجاوز بني إسرائيل، وأنهم غير مُكلَّفين إلا بالتوراة، فبيَّن تعالىٰ أنَّ افتراءهم هذا هو الذي غرَّهم وجرَّأهم علىٰ مثل تلك الأعمال والأقوال؛ حيث يزعمون أنهم مهما عملوا لا جزاء عليهم عدا تلك الأيام التي عبدوا فيها العِجْلَ لا غير، ومن هذا الافتراء اعتمادُهم واتِّكالهم علىٰ اتِّصال نسبهم بالأنبياء.

وقد ردَّ عليهم سبحانه بما فيه توعُّدٌ لهم وتزييفٌ لمزاعمهم وغرورهم، وسَبَك ذلك علىٰ بيان القاعدة العامة في الجزاء وتقرُّرها، فقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۖ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: لا يُنقَصُ من جزائهم شيءٌ يستحقُّونه. وفيه تهويلٌ لما سيكون من أمرهم، واسْتعظامٌ لما أعدَّ لهم من

العذاب، وردٌّ لافتراءاتهم. وَوَجْه الردّ: أنَّ المرء مُرْتَهَنٌ بعمله خيراً أو شراً، ولا دخل لاتصال نسبه بالأنبياء[١] في شيء من ذلك، وسيرون هذه الحقيقة.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾.

ولما كانت هذه المعانداتُ والمشاكساتُ من المشركين وبني إسرائيل للنبيِّ ﷺ ناشئةً من خوفهم علىٰ مراكزهم ورياستهم أن تزول بظهوره، وكذلك تصلُّبُ النَّجرانيين في دينهم وإعراضُهم عن الإسلام ناشئٌ عن هذا الغرض أيضاً، وكان من نهج القرآن أن يعقب بدليل علىٰ النقد والوعيد، قال تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ أي: بمقتضىٰ الأسباب الصحيحة والسنن الكونية، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿تُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾، فما أصاب الإنسانَ من حسنةٍ فمن الله، وما أصابه من سيئةٍ فمن نفسه[٢]، فالخيرُ كلُّه من التَّمسُّك بسُننك، والشرُّ من مخالفتها بمقتضىٰ تقديرك؛ ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ فكلُّ أعمالك وتشريعاتك ناتجٌ عن نظام مُحكم جليل.

أما الأستاذ الإمام، فقد قال ما مُلخَّصه: إنَّ هذا الكلام تسليةٌ للنبيِّ ﷺ في مقام بيان عِناد هؤلاء المنكرين ومكابرة هؤلاء الجاحدين، وردٌّ عليهم؛ لأن منشأ ذلك إنما هو إنكار المشركين نبوَّته ﷺ بغْياً وحَسَداً، وإنكار أهل الكتاب نبوَّته لأنهم ينكرون أن

---

(١) وقد ألمع القرآن إلىٰ هذه الحقيقة في آخر سورة التحريم بامرأة نوح وامرأة لوط. (المؤلف).

(٢) أي: بسبب واستحقاق من نفسه، والحسنة والسيئة من الله سبحانه خلقاً وإيجاداً.

يكون نبيٌّ من غير بني إسرائيل، وأدمج فيه تذكيره بقدرته تعالىٰ علىٰ نصره وإعلاء كلمته ودينه، وقد عُهِدَ في غير موضع من القرآن مثل ذلك. والـمُلكُ يشمل النبوَّة أو هو لازمٌ من لوازمها، قال تعالىٰ: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤][1].

وقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ برهانٌ علىٰ ما قبله وتحقيقٌ له. وقد أردفه بما يُؤيِّد البرهان بالواقع علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي: يُدخل ما نقص من ساعات الليل في النهار، فيجعلها زائدة في ساعاته، ويُدخلُ ما نقص من ساعات النهار في الليل، فيجعلها زائدة في ساعاته. وهو عبارة عن التناوب بين قِصَر الليل والنهار وطولهما، الناشئ من النظام الشمسي البديع. وهو من الدلائل علىٰ قدرته سبحانه وتعالىٰ وحكمته.

ثم قال: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾، وذلك كالحيوان من موادِّه الملقّحة والعكس، والنبات من بذوره والعكس، وفي ذلك من الدليل علىٰ قدرته تعالىٰ ما يُرغم أنفَ المنكر الجاحد الجهول. ولا يَرِدُ ما يقوله العلماء من أن في النطفة والبيضة والبذرة حياةً، يريدون ما بها من قوة التوليد والإنْبات؛ لأنَّ هذه الحياة التي يطلقونها عليها اصطلاحية لأهل الفنِّ في عرفهم، دون العرف العام الذي يراعيه التنزيل.

ثم أيَّد الخاص بالعام علىٰ نهج القرآن، فقرَّر مضمون الآية السابقة، وهو: إعطاء الملك من يشاء، ونزعه ممن يشاء... إلخ، بقول: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ أي: إنه يرزق من يشاء بغير تضييق ولا تقتير. أو بمعنىٰ: أنه سبحانه لا يطلب منكم

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٢٢).

علىٰ ذلك الرزق جزاء، كما يطلب الأسيادُ من العبيد، فلا يُحاسبكم حسابَ الأسياد لعبيدهم علىٰ أرزاقهم، وطلب ما يقابلها من الخدمة والوفاء، أو بمعنىٰ: أنَّ ذلك لم يكن في حسبان المرزوق.

ولا يُعارض مِثلَ هذه الآية ما جاء في القرآن من أنَّ أمر الرزق منوطٌ بالسَّعي، ويتأتىٰ حَرْثُ الدنيا لمن سَعَىٰ له سعيه، لأنَّ ذلك هو الذي شاءه الله بسُنَّته الكونيَّة. فالآياتُ تشير إلىٰ أنَّ الله سبحانه يُعطي خيره في الملك والرزق لمن سَعَىٰ له سَعْيه المطلوب، ولا تعلُّق لذلك بالعقيدة والدِّين، وإنما هو بالسَّعي وتعاطي الأسباب، وحَرْثُ الآخرة يكون بالسعي بمقتضىٰ الدين الصحيح والعقيدة الصحيحة.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

ولما كان السياق في مجادلة الكافرين وتَصَلُّبهم في مقاومة الحق ودين الإسلام، أمر المؤمنين أن لا يتَّخذوا أولياء من المقاومين لهم منهم؛ لئلا يكون ذلك ذريعةً إلىٰ تجسُّسهم عليهم، ولا سيما إذا كان ذلك طلباً لحظوظ الدنيا، فقال: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك بأن تُقدَّم في تلك الولاية مصلحةُ الكافرين علىٰ مصلحة المؤمنين، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي: يكون بينه وبين الله

غاية البعد، بمعنىٰ: تنقطع صلة الإيمان بينه وبين الله، كما قال تعالىٰ في آية أخرىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ وهذا استثناء من أعمّ الأحوال، أي: تَرْكُ موالاة الكافرين علىٰ المؤمنين حَتْمٌ في كلِّ حال، إلا في حال الخوف من شيء تتَّقونه منهم، فلكم حينئذٍ أن تُوالوهم بقدر ما يتقىٰ به ذلك الشيء. وهذه الموالاة تكون صوريَّة؛ لأنها للمؤمنين لا عليهم.

قال الأستاذ الإمام: والظاهر أن الاستثناء منقطع، والمعنىٰ: ليس لكم أن توالوهم علىٰ المؤمنين، ولكن لكم أن تتقوا ضرَرَهم بموالاتهم. وإذا جازت موالاتُهم لاتِّقاء الضرر، فجوازُها لأجل منفعةِ المسلمين يكون أَوْلىٰ[1]. فالآية لا تدلُّ علىٰ أنه لا يجوز للمسلمين أن يتحالفوا ويتفقوا مع غيرهم، إذا كان الحلف والاتِّفاق لمصلحتهم. وقد حالف النبيُّ ﷺ خزاعة وهم علىٰ شركهم[2]. وقد فصَّلَتْ هذا الموقفَ سورةُ المُمتَحنة[3].

ثم توعَّد علىٰ مخالفة هذا النهي بصورة تحذير عام، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ فيُجازي كلًّا بعمله.

ثم أكمل تحذيره بما يحمل علىٰ شدَّة التجنُّب والإخلاص فيما ينهىٰ عنه سبحانه وتعالىٰ، وشدَّة الحيطة فيما يُبيحُ منه للمصلحة كالتُّقاة، وذكر ذلك بصورة بيان عام علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾، ففي هذه الآية تنظيمٌ للتقاة، وتحذيرٌ من

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٣٠).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣١)، عن المسور بن مخرمة.

(٣) في الآيتين ٨ و٩ منها.

أن يكون بها غير اتِّقاء الضرر أو أن تكون زائدة عن الحاجة، فإنَّ الله سبحانه يعلم ما تنطوي عليه النفوس وتختلج به القلوب. وقد سَبَك الآية علىٰ بيان دقَّة علمه وحكمته وسَعَة قدرته سبحانه وتعالىٰ، وجَعَله مُستَنَداً للتحذير وتأييداً له.

ثم تابع المعنىٰ في التَّحذير لذلك الـمُوالي، ببيان هَوْل اليوم الذي ينفذ فيه الوعيد، فقال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ فتنعم به وتفرح، ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ أي: حتىٰ يتأخَّر تنفيذُ الجزاء، لما ينالها من جرَّائه. وهذا أبلغُ تصوير لهول ذلك اليوم وشدَّة الحساب فيه.

ثم كرَّر التحذير هنا أيضاً، حثّاً علىٰ عمل الخير، وكفّاً عن عمل السوء، فقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ فقد أعاد هذه الجملة لهذه الغاية، وليقرن بها قوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ أي: ومن رأفته أنه يُمهِلُهم ويحذِّرهم ويُنذِرُهم كي لا يقعوا في الهاوية، ويندموا حيث لا ينفع الندم، وإنه أكثرَ التحذيرَ من عاقبة السُّوء لئلا تنسىٰ. ومن رأفته تعالىٰ: أنْ جعل الفطرةَ سليمةً ميَّالة بطبعها إلىٰ الخير، وتتألَّم مما يعرض لها من الشر، إذا لم يحرفها صاحبها ويفسد طبيعتها بصنعه، وأنْ جعل للإنسان أنواعاً من الـهداية يرجح بها الخير علىٰ الشر، كالعقل والدين، ومن رأفته أن جَعَل جزاء الخير مضاعفاً، وجَعَل أثر الشر في النفس قابلاً للمَحْوِ بالتوبة والندم والعمل الصالح، فكلُّ ذلك من رأفته تعالىٰ بالإنسان.

ثم عاد بالكلام إلىٰ محوره السابق مع الكافرين، فبعد أن دعاهم سبحانه وتعالىٰ إلىٰ الإيمان به والإيمان برسوله بأسلوب التهديد والوعيد، دعاهم إلىٰ ذلك أيضاً من طريق آخر نفسي إلزامي. وذلك أنَّ اليهود كانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، وأنَّ قريشاً كانت تقول عن أصنامها: إنما نعبدهم حُباً لله؛ لأنهم يُقرِّبوننا إليه زُلفىٰ. بل كلُّ

مَنْ يؤمن بوجود الله يدَّعي أنه يُحبُّ الله، وإن عارض شرائعه أو عبث بها، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لِمَا سلف ممَّن آمن وأصلح، ﴿رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ به يتولَّاه برحمته وإحسانه.

ثم أكَّد أنَّ سبب الحبِّ إنما هو الطاعة لله باتِّباع ما جاء به رسوله، وإنما أكَّده بالتكرار ليَقْرن به ضدَّه، وهو أن الإعراض عنه هو سبب الحرمان من ذلك الحب، علىٰ طريقة نهج القرآن في تقرير الشيء بسَلْب ضدِّه، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ بامتثال ما جاء به من الله، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن ذلك وأعرضوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ الذين تَصرِفُهم أهواؤهم عن النظر الصحيح في آيات الله وما أنزل علىٰ رسوله. فإن ادَّعوا أنهم يحبُّون الله فما قيمة الدعوىٰ يكذبها العمل؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

وبعد أن فنَّد مزاعمهم الباطلة في شأن عيسىٰ عليه السلام، وشنَّع عليهم فيها، وبيَّن مآربهم منها، وتوعَّدهم عليها، شرع في بيان أمر عيسىٰ علىٰ الوجه الصحيح، وأنه من جملة المُصْطَفَيْنَ الأخيار الذين اصْطَفاهم الله لرسالته إلىٰ البشر، وأوحىٰ إليهم بشريعته فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[1]، وعليه فلا وَجْه لإنكار اصْطفاء محمد ﷺ ليبلِّغ عنه تعالىٰ كما اصْطفىٰ أمثاله أولئك.

وآل عمران: عيسىٰ ومريم وأمها. وعمران: هو أبو مريم.

ثم ذكر ما رمز به إلىٰ علَّة ذلك الاصطفاء واشتراكهم فيه، فقال: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ أي: إنهم متساوون في الجدارة لذلك الاصْطفاء، يَنزِعُ كلَّ نبي في رَحِم أمه عِرْقٌ لنبي آخر من أجداده في السلسلة البشرية، والله أعلم.

ومعنىٰ اصطفائهم: أنه سبحانه وتعالىٰ جعلهم صفوةً للعالمين، بجَعْل النبوَّة والرسالة فيهم، فآدم أبو البشر ارتقىٰ هذه المرتبة بعد أن اجْتباه الله وتاب عليه وهدىٰ، وكان في ذُرِّيته من النبيِّين والمرسلين من شاء الله تعالىٰ. وأما نوح، فبعد أن نجَّاه الله ومن معه في الفُلْك جاء من ذُريَّته كثير من النَّبيين والمرسلين. وبعد هود فَشَتِ الوثنيةُ في البشر حتىٰ ظهر فيهم إبراهيم عليه السلام، وتتابع النبيُّون والمرسلون من أهله، وكان أرفعَهم قَدْراً آلُ عمران، قبل أن تُختَمَ النبوةُ بولد إسماعيل عليه السلام، حيث اصْطفىٰ محمداً ﷺ بعد ذلك.

وبعد أن ذكر اصْطفاء آل عمران، بيَّن كيفيَّةَ اصْطفائهم وصورةً منه، وقد مهَّد

---

(١) بعد أن ألمع عن زَيْغ أهل الكتاب ـ ومنهم النجرانيُّون ـ في مجادلتهم مع النبيِّ ﷺ في أمر عيسىٰ عليه السلام، وتأويلهم ما جاء في الآية من أنه كلمة الله وروح منه بما يلائم بدعتهم الشنيعة وضلالهم البعيد، حرَّر حقيقة أمره بأنه لا يعدو كونه عبداً لله مُصطفىٰ من ذريَّة المُصْطَفين الأخيار، وألمع إلىٰ أنه في أعجوبة ولادته لا يبعد عن ولادة يحيىٰ من أبوين عاقرين، ودون خلق آدم من غير أبوين، كما سيأتي في سياق هذا القصص وتفصيله. وفي قوله: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ ردٌّ علىٰ قول المسيحيين بأنَّ عيسىٰ مُنْبثق من الله، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً. ويجوز أن يكون هذا الوصف وصفاً لكلِّ آلٍ بانفراده. (المؤلف).

له بما جعله تذييلاً لما قبله، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، أو جَعَله تعليلاً لما تقدَّم من حُسْن الاصطفاء، وتمهيداً لما بعده من سماع الدعاء، فقال: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمن يطلب اصْطفَاءَه وقبوله، ﴿عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ بمَنْ يستحقُّ الاصْطفاء والقبول، كما كان ذلك، أو كما سمع ذلك.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ أي: مُخْلَصاً للعبادة والخدمة في بيت المقدس، ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ بما في الضمائر. فأنْجَزَ سبحانه لها الإجابة كما سيأتي.

قال الأستاذ الإمام: وَرَدَ ذكر عمران في هذه الآيات مرتين، فبعضهم يقول: إنهما واحد، وهو أبو مريم، ويستدلُّ علىٰ ذلك بورودهما في سياق واحد. وأكثرهم يقول: إنَّ الأول أبو موسىٰ عليه السلام، والثاني: أبو مريم عليها الرضوان، وبينهما ألفٌ وثمانمئة سنة تقريباً. وذكر تفصيل ذلك علىٰ ما هو معروف عند اليهود.

قال: والمسيحيون لا يعترفون بأنَّ أبا مريم يُدعىٰ عمران، ولا ضَيْر في ذلك؛ فإنه لا يلزم أن تكون كلُّ حقيقةٍ معروفةً عندهم، وليس لهم سَنَد لنسب المسيح يُحتجُّ به، فهو كسلسلة الطريق عند المتصوفة، يزعمون أنها متَّصلة بعليٍّ أو بالصدِّيق، وليس لهم في ذلك سَنَد يُحتجُّ به.

ثم قال في «المنار»: وأقول: إنَّ نسب المسيح في إنجيلَيْ «متَّىٰ» و«لوقا» مختلِف، ولو كُتب علىٰ علم لَـمَا وقع فيه الخلاف[1].

ثم قال تعالىٰ في إتمام البيان عنها: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾؛ تتحسَّر

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٣٨).

وتتحزَّن، ولكنه سبحانه نوَّه بشأن ما وضعت وعجَّل به، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ يريد أنها وضعت أنثىٰ جليلةَ القَـدْر ولا تدري. فدفع بهذه الجملة ما يُوهمه كلامُها المحكيُّ من الاستنقاص. والتعجيل بهذه الجملة قبل إتمام حكاية كلامها يُؤْذِنُ بالاهتمام بهذا التَّنويه والدفع، ويُعَجِّل بإدخال السرور عليها بَدَل الحزن والتَّحسُّر. وبعد هذا التعجيل، علىٰ نهج القرآن في فصل السياق، ودَرْج غيره فيه مما يُلابسه ويتعلَّق به ويقتضي تعجيله، أي: بعد التَّعجيل بالتنويه، تـمَّم كلامها المحكيَّ عنها، فقال: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: في هذا الأمر الذي أردتُ، وهو: خدمة بيت المقدس، ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ أي: أعصمها وذريَّتها بك منه. وفيه إيماءٌ إلىٰ أنها مُصَمِّمة علىٰ إنجاز نَذْرها وإن كانت أنثىٰ، فإن لم تكن جديرةً بالسِّدانة فلتكن من العابدات فيه.

وبعد هذه الجملة الدُّعائية، بيَّن سبحانه وتعالىٰ أنه قَبِلَ نَذْرَها واستجاب دعاءَها، حيث قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي: تقبَّل مريم من أمها، ورضيَ أن تكون مُحَرَّرةً للانقطاع لعبادته وخدمة بيته، ولم يكن يقبل قبلها إلا من الذكور. والصيغة تدلُّ علىٰ المبالغة، فهي أبلغ من صيغة: قَبِلَها، وزاده مبالغةً وصفُه بالحسن، كأنه قال: فقبلها ربُّها أكرمَ قَبولٍ حَسَنٍ، ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي: ربَّـاها في خيره ورزقه، وعنايته وتوفيقه، تربيةً حسنةً شاملةً للروح والجسد، ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي: جَعَله كافلاً لها وقائماً بتدبير شؤونها، وهو زوج خالتها.

ثم ذكر ما يدلُّ علىٰ عناية الله سبحانه بها، فقال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ أي: من دون حُسْبان من المرزوق، ولا توقُّع منه. أو المعنىٰ: أنه سبحانه

لا يطلب علىٰ رزقه جزاء، كما يطلب الأسياد من العبيد. وهذه الجملة الأخيرة: إما من كلامها، فيكون متمِّماً له، وإما من كلامه عزَّ وجل فيكون مستأنَفاً. وليس في الكلام ما يدلُّ علىٰ أن ذلك جرىٰ بخوارق العادات، بل يجوز أن يكون بتسخير الله الناس لها. والله أعلم[1].

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾.

ثم ذكر ما كان من تنبُّه شعور زكريا عليه السلام ورغبته بطلب الولد من الله تعالىٰ، عندما رأىٰ لُطْفَ الله تعالىٰ بمريم، وعنايته بها، ونجابتها في نفسها، وتقواها لله، فقال: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: عندما رأىٰ من حال مريم ما أعجبه ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ لو يكون له ولدٌ صالحٌ مثلها و﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾.

وقد أُوذِنَ أيضاً بسماع ندائه واستجابة دعائه، حيث قال تعالىٰ: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، والجمهور علىٰ أن المراد بالملائكة: جبريل مَلَكُ الوحي، وقالوا: إنَّ العرب تُخبر عن الواحد بلفظ الجمع، تُريد به الجنس المتحقِّق في الواحد. قال ابن جرير: يقال:

---

(١) بل جريان ذلك لمريم من خوارق العادات، وإلا فما وجه تعجُّب زكريا من ذلك، إذ تسخير الله الناس لها أمر عاديٌّ لا يدعو للاستغراب. ثم ما هو وجه دعاء زكريا بطلب الولد وقد بلغ من الكبر عتياً وزوجه عاقر إلا بعدما رأىٰ خوارق العادات التي جرت لمريم عليها السلام.

خرج فلان علىٰ بغال البريد[١]، وإنما ركب بغلاً واحداً، ويقال: فلان ركب السفن، وإنما ركب سفينة واحدة[٢].

وقال بعضهم: إنما المراد جماعة من الملائكة نادته ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ والظاهر أنَّ المراد: وهو قائم يدعُو بذلك الدعاء، إذ الصلاة بمعنىٰ الدعاء، فقالوا له: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ أي: بوَلَدٍ اسمُه يحيىٰ، ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بعيسىٰ عليه السلام الذي كان بكلمة: «كُنْ»، لا بالسُّنَّة العامة في توالد البشر، ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ أي: يحبس نفسه ويمنعها مما ينافي الفضل والكمال اللائق بها، ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ وهذا القَيْد لبيان الواقع مبالغةً في التمنُّن، أو المعنىٰ: من القوم الصَّالحين، وهم أهل بيته.

فلما سمع زكريا عليه السلام هذه البشارة، طَغَتْ عليه بمقتضىٰ الطبيعة البشرية مَوْجةٌ من شدَّة الحرص علىٰ تحقُّق مأربه في أمر محبوب، ظهرت تباشير الطمع فيه، فأخذ يُعدِّد ما هنالك من الموانع الطبيعيَّة ليسمع ما يُطَمئنُه عنها، و﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾؟ فَطَمَّنه سبحانه و﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ أي: لا يحُول دون مشيئته شيء. ففهم زكريا فهماً إجمالياً أنَّ هناك سُنناً طبيعيَّة أخرىٰ لا يعلمها، تقوم بصدِّ الموانع[٣]. والله أعلم.

فحينئذٍ ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ أي: علامةً تتقدَّم ذلك وتُؤْذِنُ به، ﴿قَالَ﴾ تعالىٰ: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ قيل: معناه: أن تترك ذلك مُخْتاراً

---

(١) في «تفسير الطبري»: البُرُد.

(٢) «تفسير الطبري» (٦: ٣٦٤).

(٣) بل فهم زكريا عليه السلام أن الأمر خارجٌ عن سنن الطبيعة خارقٌ للعادة. وفي إخباره بأن الأمر فعلٌ لله وربطِه بمشيئته سبحانه إشارةٌ إلىٰ إخراجه عن سنن الطبيعة.

بأمرٍ من الله تعالىٰ، للتفرّغ لعبادة الله. ويؤيده ظاهر قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ وإن كان الذكر يجوز أن يكون بالقلب. وقيل: بل المراد أن يعجز عن خطاب الناس بحَصْر مُؤَقَّت يَعْتري لسانه. ويُرجِّح هذا القولَ أنَّ الآية تكون بغير المعتاد. والله أعلم.

وقالوا في وجه السؤال الأول أقوالاً أخرىٰ، منها: اشتبه عليه الأمر أيُعْطَىٰ الولد من امرأته العجوز أم من امرأة أخرىٰ يتزوَّجها، فقال ما قال. ومنها: أنه إنما قال ذلك علىٰ سبيل الاستعظام لقدرة الله تعالىٰ، والتعجُّب الذي يحصل للإنسان عند ظهور آية عظيمة.

وقال الأستاذ الإمام في ملخَّص أسئلة زكريا عليه السلام: الصواب أنَّ زكريا عليه السلام أحبَّ بمقتضىٰ الطبيعة البشريَّة أن يتعيَّن لديه الزمن الذي ينال به تلك المنحة الإلهية ليطمئن قلبه ويبشِّر أهله، فسأل عن الكيفيَّة أولاً، ولما أُجيب بما أُجيب به، سأل ربَّه أن يخصَّه بعبادةٍ يتعجَّل بها شكره، ويكون إتمامُه إيَّاها آيةً وعلامةً علىٰ حصول المقصود، فأمره أن لا يُكلِّم الناس ثلاثة أيام، بل ينقطع للذكر والتسبيح مساء صباح مدَّة ثلاثة أيام، فإذا احتاج إلىٰ خطاب الناس أوْمأ إليهم إيماء[1].

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

ثم تابع المعنىٰ في بيان اصْطفاء آل عمران، بعد أن استطرد عمَّا كان من أمر زكريا،

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٤٦).

حينما رأىٰ حال مريم عليها السلام، فعاد إلىٰ إتمام البحث عنها، ليوصله بالكلام علىٰ عيسىٰ عليه السلام؛ إيذاناً بأنَّ ولادته من دون أب معجزةٌ لا تقلُّ عنها ولادةُ يحيىٰ من أم عجوز وأب قد بلغ من الكِبَرِ عِتيّاً، إذ كلتاهما أمر خارق للنواميس الطبيعيَّة المعروفة لنا[1]، ولكنَّ سننَ الله الكونيَّة لا تحصيها البحار مِدَاداً والأشجار أقلاماً.

وقد عطف علىٰ قوله السابق: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ بيانَ شخصية مريم، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾، والاصطفاء الأول: هو قَبولها مُحَرَّرةً لخدمة الله في بيته، مع أنَّ ذلك كان خاصاً بالرجال. أما التطهير: فقد قال الأستاذ الإمام: هو التطهير من كلِّ ما يُسْتَكرَهُ ويُسْتَنْقَص، كسَفَاسف[2] الأخلاق وذميم الصفات وغير ذلك. والاصْطفاء الثاني: هو أنْ جعلها تَلِدُ نبياً من غير أن يَمَسَّها رجل[3]. وهي كرامة عظيمة.

قال أبو السعود: ثم كرَّر النداء للإيذان بأنَّ المقصود بالخطاب ما يُرَاد بعده، وأنَّ ما قبله من تذكير النعم كان تمهيداً لذكره وترغيباً في العمل بموجبه، فقال: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[4].

---

(١) بل كلتاهما أمرٌ خارقٌ للنواميس الطبيعية المعروفة لنا والمجهولة، وفي سياق كل قصةٍ منهما ما يدل علىٰ ذلك، وتقدم في التعليق قريباً الإشارةُ إلىٰ أحدها من قصة زكريا ويحيىٰ عليهما السلام، أما قصة عيسىٰ فمن أظهر الأدلة فيها علىٰ أن الأمر خارقٌ للسنن الطبيعية بالكلية: تعليقُ الأمر عند استغرابه بـ«كن» وتشبيهه بخلق آدم، ولم يكن خلق آدم بناموس طبيعي.

(٢) في تفسير «المنار»: كسَفْساف.

(٣) تفسير «المنار» (٣: ٢٤٧).

(٤) «تفسير أبي السعود» (٢: ٣٥)، وتدل هذه الآية علىٰ أنَّ الصلاة ذات الركوع والسجود معروفة عند الأمم قبلنا في شرائعهم السماوية ومطلوبة منهم. والله أعلم. (المؤلف).

قال في «المنار»: وهذا الخطاب ليس بشرع خُصَّت به، وإنما هو إلهامٌ بمكانتها عند الله. وبما يجب عليها من الشكر بدوام القنوت والصلاة. والقنوت هنا: بمعنىٰ لزوم الطاعة مع الخضوع. والركوعُ مع الراكعين: صلاتها مع المصلِّين في المعبد. وقد كانت مُلازِمةً لمحرابه[1].

ثم أردف الكلام بما يعلِّق به القرآن علىٰ كثير من قصص الأنبياء، وهو البرهان بمضمون القصة علىٰ أنَّ هذا القرآن إنما هو من عند الله تعالىٰ؛ لأنه يتكلم عن أمور بعيدة عن النظر، خفيَّة علىٰ البشر، وعن التاريخ المجهول لأرباب الخبر، بمعنىٰ: أنَّ الإخبار عن مضمونها إخبار عن المغيَّبات التي لا تُعْرف إلا بالوحي.

وخلاصة الحُجَّة: إنك لم تكن في أزمنة وقوع هذه القصة، ولا تعلم شيئاً من التاريخ عنها، ولو تعلَّمته لجئتَ به تخليطاً علىٰ النحو الذي عند أهل الكتاب أو غيرهم من القصَّاصين، بخلاف ما قُصَّ عليك، فإنه هو الحق المبين. فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي قَصَصْناه عليك ـ يا محمد ـ من أخبار مريم وزكريا، إنما هو ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ في كفالتها ولم يتَّفقوا إلا بعد القرعة. وقد أدمج في هذا التعليق بيانَ تخاصُمِهم علىٰ كفالتها واقتراعهم في ذلك، علىٰ سُنَّة القرآن في السَّبْك والإدماج.

والأقلام: سهام يقترعون بها، وتُسمَّىٰ عند العرب القداح والأزلام أيضاً.

وقد نفىٰ مشاهدته لمجلس الخصام والاقتراع علىٰ طريقة التهكُّم بالمعارضين لنبوته ﷺ والمنكرين لها.

ويجوز أن يكون هذا الاستشهاد مبنياً علىٰ ما يعلمه قومه من أنه ﷺ أُمِّيّ، ونشأ

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٤٧).

بين قوم أُميين، فلم يَبْقَ له طريقٌ للعلم سوىٰ الوحي والمشاهَدَة، فإذا أنكروا الوحي لم يبق إلا المشاهدة التي نَفَاها علىٰ سبيل التهكُّم لاستحالتها. فهذا استدلال بطريقة السَّبْر والتقسيم من طرق الاستدلال، يستعمله القرآن كثيراً.

ومضمون الكلام: تصديقٌ لنبوَّته ﷺ، وأنَّ ما جاء به هو وحيٌ من عند الله.

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾.

ثم تابع البيان عن اصطفاء آل عمران، وشرع في خبر عيسىٰ بعد قصة أمه، وقصة زكريا عليهم السلام، فقال: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ أي: الذين أنعم الله عليهم وأصلح حالهم، وهم الأنبياء الذين تَعرِفُ مريمُ سيرتَهم.

والمراد من الملائكة: جبريل عليه السلام، لقوله تعالىٰ في سورة مريم: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]. والعرب تخبر عن الواحد بلفظ الجمع كما مرَّ بيانه.

وفي لفظ «الكلمة» وجوه، منها: أنَّ المراد كلمةُ التكوين، وذلك أنه لما كان أمر الخلق والتكوين وكيفيَّة صدروه عن الباري عزَّ وجل، مما يعلو عقولَ البشر، عبَّر عنه سبحانه بقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، فكلمة: «كُنْ» هي كلمة التكوين، وهي كلمة عامة في كلِّ شيء. وإنما أُطلقت علىٰ المسيح هاهنا

لأنَّ الأشياء تُنسب في العادة والعرف العام إلىٰ أسبابها، ولما فُقِدَ في تكوين المسيح وعلوق أمه به ما جعله الله سبباً للعلوق حسب الطبيعة العامة في البشر، أُضيف هذا التكوين إلىٰ كلمة الله؛ ذلك السبب العام، وأُطلِقَت الكلمة علىٰ نفس المكوَّن إيذاناً بذلك.

ومنها: أنه أطلق علىٰ المسيح «كلمة الله» للإشارة إلىٰ بشارةِ الله أمه به، والمعنىٰ: أنَّ الله يُبَشِّرُكِ ببشرىٰ من عنده هي ولدٌ لك اسمُه المسيح عيسىٰ ابنُ مريم، وجيهاً في الدنيا والآخرة.

ويجوز أن يُراد بالكلمة: السنة الكونيَّة من كلماته وسُنَنِهِ التي لا تَنفَدُ ولو كان البحر لها مِدَاداً. والله أعلم.

والمسيحُ: لقب الـمَلِكِ عندهم، لما مضت به تقاليدهم من مَسْح الكاهن كل مَنْ يتولىٰ الـمُلْكَ بالدهن المقدَّس. ولكن الظاهر من الآية: أنَّ كلمة «المسيح» عَلَمٌ ثانٍ لعيسىٰ. واللفظ إذا أُطلق عَلَماً لا يُراد فيه معناه اللغوي ولا يُراعَىٰ ذلك، وقد يُلمح به للمعنىٰ تلميحاً، فالله سبحانه يُلمِعُ إلىٰ أنَّ عيسىٰ أفضل من الملوك. والله أعلم.

والوجيه في الدنيا: من كانت له مكانة في القلوب واحترام في النفوس. والوجيه في الآخرة: من كان علىٰ منزلة رفيعة ومكان عليٍّ، يراه الناس فيهما، فيعلمون أنه مُقرَّب عند الله ويُبجِّلونه.

وأما قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾، فقد قال أبو مسلم: العطف للمقارنة، ومعناه: أنه لا فرق بين كلامه في المهد وكلامه كهلاً، وهي غايةٌ في المعجزة. وقيل: بل المراد أنه يكلِّم الناس في المهد، لإظهار طهارة أمه، وعند الكهولة بالوحي والنُّبوَّة. فهو تَنْويهٌ بالشأنَيْن. والكهولة: أكمل سنِّ الإنسان.

ثم حكىٰ ما كان من استغرابها من هذه البشارة بحسب العادة، واستكبارها لها،

بقوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾.

قال في «المنار»: اعلم أنَّ الكافرين بآيات الله ينكرون الحَمْل بعيسىٰ من غير أب، جموداً علىٰ العادات، وذهولاً عن كيفيَّة ابتداء خلق جميع المخلوقات، ألا يَرَوْن كل يوم من شؤون الكون ما لم يكن معتاداً من قبل، فمنه ما يعرفون له سبباً ويُعبِّرون عنه بالاكتشاف والاختراع، ومنه ما لا يعرفون له سبباً ويُعبِّرون عنه بفلتات الطبيعة. ومعنىٰ ذلك: أنها جاءت من غير طريق الأسباب المعروفة.

ويمكن تقريب هذه الآية الإلٰهية من السُّنن المعروفة بوجهين:

**أحدهما**: أنَّ الاعتقاد القويَّ الذي يستولي علىٰ القلب، ويستحوذ علىٰ المجموع العصبي، يُحدِثُ في عالم المادة من الآثار ما يكون علىٰ خلاف المعتاد، فكم من سليم اعتقد أنه مصابٌ بمرض كذا، وليس في بَدَنه شيء من جراثيم هذا المرض، فولَّد له اعتقاده ـ أو ساعد ـ تلك الجراثيم، وصار مريضاً. وكم من امرئ سُقي الماء القراح أو نحوه، فشربه معتقداً أنه سمٌّ ناقع، فمات مسموماً به. والحوادث في هذا الباب كثيرة أثبتتها التجارب.

وإذا اعتبرنا بها في أمر ولادة المسيح، نقول: إن مريم لما بُشِّرت بأنَّ الله تعالىٰ سيَهَبُ لها ولداً بمحض قدرته، وهي علىٰ ما هي من صحَّة الإيمان وقوة اليقين انفعل مزاجها بهذا الاعتقاد، انفعالاً فَعَلَ في الرحم فِعْلَ التلقيح، كما يفعل الاعتقاد القوي في مزاج السليم فيمرض أو يموت، وفي مزاج المريض فيبرأ، وكان نَفْخُ الروح الذي وَرَدَ في سورة أخرىٰ مُتمِّماً لهذا التأثير[1].

---

(١) في نقل المؤلف كلام رشيد رضا وإقراره، في تقريب حَمْل مريم عليها السلام، تكلّف بعيد، وإبطال لحقيقة المعجزة في حمل مريم وولادتها لعيسىٰ.

**الوجه الثاني**: أنّ الله سبحانه وتعالىٰ المُسَخِّر للأرواح المنبثَّة في الكائنات قد أرسل رُوحاً من عنده إلىٰ مريم، فتمثَّل لها بَشَراً سوياً، ونفخ فيها، فأحدثت نَفْخَتُه التلقيح، فحملت بعيسىٰ عليه السلام. والله أعلم. انتهىٰ بتصرف[1].

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه بعد أن أكمل المعترضة ما سيكون من أمر هذا الولد وعُلُوِّ شأنه، فقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جنسَ الكتب الإلـٰهيّة، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: العلمَ الصحيح والبصيرة الصادقة، ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ فذكرهما أولاً بالجنس، ثم نصَّ عليهما بالاسم، إظهاراً لشرفهما. علىٰ أنه يجوز أن يُراد بذكرهما: فِقهُ أحكامهما وأسرار مسائلهما، ﴿وَ﴾ يُرسِلُه ﴿رَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يُعلن لهم: ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: جئتكم مُحتجّاً علىٰ صِدْق رسالتي بمعجزة، وهي: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾ أي: أُسوِّي وأُصَوِّر لكم منه ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

قال الأستاذ الإمام: وغاية ما يُـفْهَم من الآية أنَّ الله تعالىٰ جعل فيه هذا السِّر، ولكن لم يقل: إنه خلق بالفعل، ولم يرد عن المعصوم أنَّ شيئاً من ذلك وقع. وقد جَرَت

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٥٣ - ٢٥٥).

سنَّة الله تعالىٰ أن تجريَ الآيات علىٰ أيدي الأنبياء عند طلب قومهم لها[١]. وكذلك يقال في قوله: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، فإنَّ قصارىٰ ما تدلُّ عليه العبارة أنه خُصَّ بذلك. وأما وقوع ذلك بالفعل فهو يتوقف علىٰ نقلٍ يُحتج به.

قال في «المنار» بعد هذا تعليقاً عليه: ولعلَّ آية سورة المائدة أدنىٰ إلىٰ الدلالة علىٰ الوقوع من هذه الآية، وهي: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]. فإنّ جَعْلَ ذلك متعلِّقَ النعمةِ يُؤْذِن بوقوعه[٢]، إلا أن يقال: إنَّ جَعْل هذه الآية مما يجري علىٰ يديه عند الطلب منه، نعمة عظمىٰ[٣].

أقول: وإنما خُصَّ بهذه المعجزة لأنَّ السنَّة الإلٰهيَّة مضت بأن تكون معجزةُ كل نبيٍّ من نوع ما اشتهر في زمنه وانتشر؛ ليعرف أهل العصر قيمتها وعظمتها، وكان الطبُّ في زمن عيسىٰ عليه السلام فاشياً دارجاً، وإبراء الأكمه من المستحيلات بحسب الفنِّ عندهم، ثم أتبعها بما هو أشدّ استحالة، وهو إحياء الموتىٰ بإذن الله، وحينئذ لم يبق في العقول شبهةُ استحالةٍ لخلق عيسىٰ من دون أب، لأنها ليست بأغرَبَ من إحياء الموتىٰ؛ لأنَّ الله سبحانه إذا كانت قدرته تُجري مِثلَ هذه المعجزة علىٰ يد بشر، فكيف يَعجِزُ سبحانه عن خلق عيسىٰ من دون أب؟!

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٥٦).

(٢) هذا استدلالٌ قوي، والجوابُ ـ الذي أورده احتمالاً بعده ـ جوابٌ ضعيف، فلا مناصَ من القول بوقوع ذلك فعلاً علىٰ يد عيسىٰ عليه السلام بإذن الله.

(٣) تفسير «المنار» (٣: ٢٥٦).

ثم تابع الكلام عن المعجزات، فقال: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي: أُنبئكم بالمغيَّبات عني من أحوالكم. ففيه ذكر الخاص وإرادة العام. والحكمةُ في ذكر هذا الخاص كونُه أمراً ظاهراً عندهم، لا يشكون فيه.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾ أي: إنَّ فيما ذكر لَحُجَّة لكم علىٰ صدق رسالتي ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: إن كنتم ممَّن يتأتَّىٰ منه الإيمان، أو هي للحثِّ علىٰ الإيمان.

ثم قال: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أي: إنه لم يأت ناسخاً للتوراة، بل مُصدِّقاً لها، عاملاً بها، ولكنه نسخ بعض أحكامها كما قال: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، فقد كان حُرِّم علىٰ بني إسرائيل بعضُ الطيِّبات بظلمهم، حتىٰ أحلّته الشريعة العيسوية.

ثم أجمل التفصيل السابق علىٰ سبيل التقرير والتأكيد، وليفرِّع عليه الأمرَ بالتقوىٰ، والحثَّ علىٰ التمسُّك بما جاء به، فقال: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ شاهدةٍ علىٰ صحَّة رسالتي، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ أي: فيما آمركم به وأنهاكم عنه.

ثم مَخَّضَ النتيجة، وهي أمرهم بعبادة الله وحده، لأنه هو المستحقُّ لذلك، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾.

ثم بيَّن أنَّ هذا هو الطريق الموصل إلىٰ الله، فقال: ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ أي: يَصِلُ صاحبُه إلىٰ سعادة الدارين.

وقال الأستاذ الإمام: إنما أعاد ذكر المجيء بالآية، للتفرقة والفصل بين ما قبلها وما بعدها[1].

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٥٧).

وقال البيضاوي: إنَّ الأُولىٰ لتمهيد الحُجَّة، والثانية لتقريبها إلىٰ الحكم، ولذلك رتَّب عليها بالفاء قولَه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: لـمّا جئتكم بالمعجزات الباهرات والآيات الظاهرات، فاتَّقوا الله في المخالفات، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه[1].

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

ثم انتقل من البشارة بعيسىٰ إلىٰ ذكر خبره مع قومه، وطَوَىٰ خبر ولادته ونشأته اكتفاءً بآيات البشارة الدالة عليها، ومثل هذا من ألوان إيجاز القرآن في بلاغته، فقال: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ وأنَّ تلك الآيات لم تُجْدِهِم نفعاً، توجَّه إلىٰ البحث عن أهل الاستعداد الذين ينصرونه، و﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: مخلصون لله منقادون إليه. وحواريُّ النبي: مَنْ ينصره ويُخلص له في النصر والمعُونة، وليس النصر خاصاً بالقتال، بل يشمل الدعوةَ إلىٰ الدِّين، والعملَ به. والإيمانُ الصحيحُ يَصْرف النفس في العمل بمقتضاه.

ثم تَضَرَّعوا إلىٰ الله تعالىٰ، مُخْلصين له النيَّة، طالبينَ منه المثوبة بقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: للرسول بتبليغ الدعوة، وعلىٰ قومه بما كان منهم من الكفر والجحود. فحذف معمولَ «الشاهدين» ليعمَّ المشهودَ لهم والمشهودَ عليهم.

---

(١) «تفسير البيضاوي» (٢: ١٨).

ثم حكىٰ ما كان من مكر الكافرين، ورَدِّ كيدهم في نحرهم، فقال: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾، والمكر في الأصل: التدبير الخفي. ويجوز أن يكون في الكلام مشاكلة بديعية، أي: مكر أولئك الذين أحسَّ عيسىٰ منهم الكفر فحاولوا قتله، وأبطل الله مكرهم فلم ينجحوا فيه. ولا يبعد أن يكون هذا التدبير الخفيُّ شبيهاً بتدبير أمر رسول الله ﷺ ليلة الهجرة حيث يقول: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾.

وبشَّره الله سبحانه وتعالىٰ بإنجائه من مكرهم، وجَعْلِ كَيْدِهم في نحرهم، وحكىٰ تفصيل ذلك بقوله: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾[1]، أي: مميتك موتاً طبيعياً لا أُسلِّط عليك من يقتلك، وأُطَهِّرك من سُوء

---

(١) الظاهر أنَّ المراد الوفاة الطبيعية المعروفة، وأما حديث الرفع والنزول في آخر الزمان، فحديثُ آحاد لا يثبت به أمر اعتقاديّ، إذ المطلوب في الاعتقادات الأدلة القطعيَّة المؤدية إلىٰ اليقين، وليس هذا منها. ويُحتمل أن يُؤوَّل نزوله وحكمه بشريعة القرآن، بغَلَبة روح رسالته وسرِّها، وهي الرحمة والمحبة والسلام، إذ هي روح تعاليم عيسىٰ عليه السلام، وموجودة في ثنايا القرآن، فيكون المراد بالحديث: الإيماء إلىٰ صلاح الزمان والأخذ بشريعة القرآن، علىٰ الوجه الصحيح، مدة من الزمن. وأما قتله للدجال؛ فالمراد: إزالة المبادئ الزائفة والعقائد الزائفة، =

جوارهم، وخُبْث صُحبتهم، ودَنَس معاشرتهم، أو بإنجائك مما كانوا يرومونه بك من الشَّرِّ، فلم ينالوا شيئاً مما كانوا يريدونه بالمكر والخديعة، كما أنقذ محمداً ﷺ من قريش بالاختفاء، ثم بالهجرة عندما هُمُّوا بقتله والتَّخلُّص منه. أما عيسىٰ عليه السلام فقد توفَّاه الله علىٰ إثر الهجرة والاختفاء. والله أعلم.

وقيل: المراد من التَّوفِّي معناه اللغوي، وهو: أَخْذُ الشيء كاملاً مُوَفًّىٰ. والمراد من رفعه إليه: إيصالُه إلىٰ مكانٍ لا يملك الحكم فيه عليه إلا الله، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩]، وهو يريد الشام والنجاة.

قال في «المنار»: والمعنىٰ المتبادر: إني مميتك وجَاعِلُك بعد الموت في مكان رفيع عندي. والله سبحانه يضيف إليه ما يكون فيه الأبرار من عالم الغيب قبل البعث وبعده. كما قال في الشهداء: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩][1].

---

= وإزالة الخرافات والقشور عن الشريعة وتعاليمها، تلك الخرافات التي جاءت من الدجَّالين ومن الضَّالين، لأنها تزول بتقرير الشريعة علىٰ الوجه الصحيح. والله أعلم.

هذا ملخص ما قاله صاحب «المنار» [٣: ٢٦١] نقلاً عن الأستاذ الإمام في هذا المقام، وعقب عليه بقوله: ولكن ظواهر الأحاديث الواردة في أمر النزول تأباه، ولأهل هذا التأويل أن يقولوا: إنَّ هذه الأحاديث قد نقلت بالمعنىٰ كأمثالها من هذا الصنف من الأحاديث، ينقل فيها الراوي ما فهمه، وانطبع في مخيَّلته وتصوراته. والله أعلم. (المؤلف).

قلت: أما كونُ الأحاديث في ذلك أخبارَ آحاد؛ فغير مُسلَّم، إذ قد بلغت مبلغ التواتر، وصُنِّف في بيان ذلك مصنفات، من أحسنها «التصريح بما تواتر من نزول المسيح» للكشميري، و«نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول عيسىٰ قبل الآخرة» للكوثري.

وأما التأويل المذكور فظاهرُ التكلُّف، شديدُ التعسُّف، واحتمالُ أن ينقل الراوي ما فهمه وانطبع في مخيلته فمسألة لها ضوابطها عند المحدثين، ولا يصحُّ إيرادها هكذا علىٰ عواهنها، لا سيما أن كثرة الأحاديث الواردة في المسألة تنفي هذا الاحتمال.

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٦٠).

أقول: ولا يبعد أن يُراد بالرفيق الأعلىٰ: مقرُّ أرواح الأنبياء. والغرض: تقرير الإماتة له عليه السلام.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: جاعل الذين اتَّبعوك ونَصَروك عندما عرضتَ عليهم الإيمان ودَعَوتَهم إليه، فوق الذين كفروا بك وقاوموك. أي: سأُفوّقهم عليهم في الروحيَّات، أو: والماديَّات أيضاً. وجَعلَ يوم القيامة نهايةً لتفوُّق أولئك المتَّبعين لشريعته من أنصاره، ليصلَه بالتفوُّق الثاني المعلوم، وهو تفوُّق الآخرة، وللمبالغة في ذلك.

وقد توعَّد المخالفين ووعد المتَّقين، فقال: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وهو الحقُّ الذي جئتَهُم به عن الله، فعارَضُوك فيه وخالفوك.

ثم فصَّل صورة الوعد والوعيد بهذا البيان العامّ، علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾، وقد عذَّب الله أولئك اليهود المعاصرين والمعارضين، عذَّبهم في الدنيا بتسليط الأُمم عليهم وإذلالها لهم، ولَعَذابُ الآخرة أَخزىٰ، وهم لا يُنْصَرون.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، ثم أومأ لعلَّة هذا الجزاء بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: لأنفسهم بالخروج عن سُنن الفطرة، والكفر بما جاء به الأنبياء من الله سبحانه لإصلاح النفوس وهدايتها لطرق الفلاح في الدارين.

ثم خلَّل السياق ببيان أنَّ ما جاء فيه عن قصَّة عيسىٰ عليه السلام هو الحق اليقين، وما خالفه مما يتقوَّلون فهو كذبٌ وبهتانٌ عظيم، وسَبَك الكلام علىٰ المضمون الذي يختم به أغلب القصص، وهو أنَّ الوجه الصحيح الذي صيغت عليه القصة

يُبرهِنُ علىٰ نبوَّته ﷺ، وعلىٰ أنَّ القرآن الذي جاء بها كذلك إنما هو من عند الله تعالىٰ، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ هو ﴿مِنَ ٱلْآيَٰتِ﴾ الدالة علىٰ نبوَّتك ﴿وَ﴾ من ﴿ٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ الذي يُبيِّن وجوه العبر في الأخبار، والحِكَم في الأحكام، فيهدي المؤمنين إلىٰ لُباب الدِّين وفقه الشريعة وأسرار الاجتماع البشري، وأمثال ذلك. ولامُ البعدِ في اسم الإشارة لشرف المُشار إليه.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

قال في «المنار» ما محصَّله: وبعد أن بيَّن سبحانه خَلْقَ عيسىٰ، ومجيئَه بالآيات، وما كان من أمر قومه في الإيمان والكفر به، كشف شبهة المفتونين بخَلْقه علىٰ غير السنة المعتادة، والمُحاجِّين فيه بغير علم ـ ومنهم وفد نجران ـ وردَّ علىٰ المنكرين لذلك، فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ أي: إنَّ شَبَهَ عيسىٰ في خلق الله إيَّاه علىٰ غير مثال سبق، وفي غير السنة الطبيعية المعتادة، كشأن آدم في خلقه علىٰ غير مثال سبق، وفي غير السنة الطبيعية المعتادة، حيث ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾[1]، أي: ثم كوَّنه تكويناً.

---

(١) بعد طول المناقشة مع الوفد النجراني، وانخذالهم في جميع شبههم، قالوا: هل رأيت إنساناً من غير أب، وعيسىٰ ليس له أب من البشر، فمن أبوه؟ فكانت هذه الآية جواباً لهم. ومؤداها: إن الذي خلق آدم من غير أم وأب، خلق عيسىٰ من دون أب، فليس ذلك سبباً لجعْله إلهاً أو ابناً للإله، وإلا لكان آدم أولىٰ بذلك. (المؤلف).

والمعنىٰ: ثم قال له كلمة التكوين، وهي: «كن»، فيكون.

وكلمة التكوين من صفة المشيئة، لا من صفة الكلام، وهي عبارة عن توجُّه الإرادة إلىٰ الشيء ووجودِه بها حالاً، فهي مجموع الكلمتين. وهل يعزُّ علىٰ صاحب هذه المشيئة أن يخلق عيسىٰ من غير أب؟

والعطف يتمُّ لبيان التكوين الآخر؛ لأنه يفيد تراخِيَه وتأخُّرَه عن الخلق الأول.

وهل كان في هذه المدَّة علىٰ صفة واحدة أم تقلَّب في أطوار مختلفة؟ الله أعلم بذلك[١]. والثاني أظهر لموافقته للسنَّة الكونيَّة، وهي التَّطوُّر والتَّدرُّج في الأشياء وتنشئتها.

ثم قال في «المنار» نقلاً عن الأستاذ الإمام: وفي هذا إرشادٌ إلىٰ أنَّ أمر الخِلْقة[٢] يشبه بعضه بعضاً، فكلُّه غريبٌ بالنسبة إلينا إذا تفكَّرنا في حقيقتها وعِلَلِها، ولا شيء منه بغريب عند الموجِد المبدِع. أما القوانين المعروفة في علم الخليقة، فهي قد استُخرجت ممَّا نعهده ونشاهده فقط، وليست قوانين قامت البراهين علىٰ استحالة ما عداها، كيف وإننا نرىٰ الشيءَ الكثير ممَّا يخالفها، ويُعبِّرون عنه بفلتات الطبيعة، وهو إنما خالف ما نعرفه لا ما يعلم الله تعالىٰ. وما يُدرينا أنَّ لكل هذه الشواذِّ والفلتات سُنناً مُطَّردة لم تظهر لنا، وكذلك شأن خَلْق عيسىٰ[٣]، فكونه علىٰ غير المعهود ليس مزيَّة تقتضي أن يكون إلهاً أو ابن إله. وإذا كان عيسىٰ قد خُلِقَ من بعض جنسه، فآدم قد خُلِقَ من غير

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٦٣).

(٢) في تفسير «المنار»: الخليقة.

(٣) قياس معجزة خَلْق عيسىٰ عليه السلام علىٰ شواذِّ العادات وفَلَتاتها أمرٌ في غاية النكارة، وكان الأولىٰ بالمؤلف ـ غفر الله له ـ أن لا يروِّج كلام محمد عبده، ويكتفي بكَوْن خَلْقِ عيسىٰ عليه السلام معجزة إلهية.

جنسه، فهو أولىٰ بالمزيَّة لو كانت، وبالإنكار إن صح. علىٰ أن ما نعرفه من الخِلْقة ليس لنا منه إلا الظاهر، نَصِفُهُ ونقول به وإن لم نعقله، وماذا نعقل من الرابطة بين حبَّة الحنطة ونبتِها واستوائِها علىٰ سوقها وتناسب أوراقها وغير ذلك؟[١]

وقال الجاحظ[٢] في رسالة «الرد علىٰ النصارىٰ»: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ في الأعجوبة التي تعجبون منها، وإنما هي في آدمَ أعجب. فإن كان المسيح قد خُلق من غير أب، فآدم قد خُلق من غير أم وأب؛ ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾، فأيُّ الأمرين أعجب؟ ولا عجب في سنن الله تعالىٰ. فإن كانت خِلْقة عيسىٰ من دون أب تستدعي أن يكون إلهاً أو ابن الإله، فخِلْقة آدم أوْلىٰ بذلك من خِلْقة عيسىٰ، كيف وإنَّ الأعجوبة في آدم عليه السلام أبدع، وتربيته أكرم، ومنقلبه أعلىٰ وأشرف، إذ كانت السماءُ دارَه، والجنّةُ منزلَه، والملائكةُ خدَّامَه[٣].

ثم ختم سبحانه البيان عن أمر عيسىٰ بقوله: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: إنَّ ما قَصَصناه عليك من نبأ عيسىٰ هو الحقُّ من ربك، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[٤] أي: في أمر عيسىٰ، القائلين فيه بغير علم. وهذا من خطاب الأمة في شخص النبي ﷺ، (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الخامسة).

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٦٤).

(٢) هو أبو عثمان، عمرو بن بحر بن محبوب البصري المعتزلي (١٦٣ - ٢٥٥هـ)، العلامة المتبحّر ذو الفنون وصاحب التصانيف. له: «الحيوان»، و«البيان والتبيُّن»، و«البخلاء». «سير أعلام النبلاء» (١١: ٥٢٦-٥٣٠)، و«الأعلام» للزركلي (٥: ٧٤).

(٣) «المختار في الرد علىٰ النصارىٰ» ص٨٣ مختصراً.

(٤) بعد أن وَضَحت الحقيقة لوفد نجران ولم يذعنوا للحُجَج والأدلَّة، بل تمادَوا في الخصومة واللجاج، أمره سبحانه بدعائهم لهذا الحق الإلهي الواضح، أو يعطوا الجزية، فرضوا بدفع الجزية، فأهل نجران هؤلاء هم أول من دفع الجزية من أهل الكتاب. (المؤلف).

وبعدما ذكر من وجوه الدلائل علىٰ فساد قول النصارىٰ في عيسىٰ، تزييفاً لجميع شُبههم علىٰ سبيل الاستقصاء، حتىٰ بَـلَغ الأمر إلىٰ الغاية القصوىٰ التي لم يَبْقَ معها مجالٌ للشك، تحدَّىٰ سبحانه وتعالىٰ الـمعاندين بطريقة نفسانية، وقال: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ﴾ أي: في شأن عيسىٰ وأمه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ﴾ عنه ﴿مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ القطعي في هذه الآيات البيِّنات، ولم يرتدعوا عمَّا هم عليه من الغيِّ والضلال، ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ يقال: ابتهل الرجل؛ إذا دَعَا وتضرَّع. ويقال: ابتهل القوم؛ إذا تلاعنوا. وتُسمَّىٰ هذه الآيةُ آيةَ المباهَلَة.

وقد ورد من عدَّة طرق أن النبي ﷺ دَعَا نصارىٰ نجران للمباهلة فأبوا[1].

وهذا الطلب يدلُّ علىٰ قوَّة يقين صاحبه وثقته بما يقول، أما كون النبي ﷺ والمؤمنين كانوا علىٰ يقين مما يعتقدون في عيسىٰ عليه السلام فحَسْبُنا في بيانه قوله تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾. فالحكمةُ في الدعوة إلىٰ المباهلة هي إظهارُ الثقة بالاعتقاد واليقين فيه، وتحدِّي المعارضين في ذلك.

وإنما قدَّم في الكلام أعزَّة أهله علىٰ نفسه مع أنَّ المباهلة مظانّ التلف، والرجل يفادي بنفسه دون أهله في الأخطار، للإيذان بقوة يقينه بأنه لن يُصيبهم في ذلك شائبةُ مكروه، وهذا هو السِّرُّ في تقديم جانبه عليه السلام علىٰ جانب المخاطبين؛ ليُشعرهم بذلك.

قال الأستاذ الإمام: وأكثر الروايات علىٰ أنَّ النبيَّ ﷺ اختار للمباهلة علياً

---

(١) أخرجه ابن المغازلي في «مناقب علي رضي الله عنه» (٣١٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. وسيأتي أيضاً ذكر المباهلة قريباً في كلام المؤلف.

وفاطمة ووَلَدَيْهما[١]، ويحملون كلمة «نِساءَنا» علىٰ فاطمة، وكلمة «أنفُسَنا» علىٰ علي فقط، ومصادر هذه الروايات الشيعةُ، ومقصدهم منها معروف. وقد اجتهدوا في ترويجها ما استطاعوا، حتىٰ راجَتْ علىٰ كثيرٍ من أهل السُّنَّة، ولكنَّ واضعيها لم يُحسنوا تطبيقها علىٰ الآية، فإن كلمة: «نِساءَنا» لا يقولها العربيُّ ويُريد بها بنته، لا سيما إذا كان له أزواج. وأبعدُ من ذلك أن يُراد بـ«أنفسنا» عليّ عليه الرضوان.

ثم إنَّ وفد نجران الذين قالوا: إنَّ الآية نزلت فيهم لم يكن معهم نساؤهم وأولادهم، فكلُّ ما يُفهَمُ من الآية أمرُ النبي ﷺ أن يَدعو المُحَاجِّين والمُجادِلين في عيسىٰ من أهل الكتاب إلىٰ الاجتماع رجالاً ونساءً وأطفالاً، ويجمع هو المؤمنين رجالاً ونساء وأطفالاً، ويبتهلون إلىٰ الله تعالىٰ بأن يلعن الكاذبَ فيما يقول عن عيسىٰ عليه السلام.

وهذا الطلب يدلُّ علىٰ قوة يقين صاحبه وثقته بما يقول، كما يدلُّ امتناعُ مَنْ دُعُوا إلىٰ ذلك من أهل الكتاب، سواء كانوا نصارىٰ نجران أو غيرَهم، علىٰ امترائهم في حِجَاجِهم ومُماراتهم فيما يقولون، وزلزالهم فيما يعتقدون، وكونهم علىٰ غير بيِّنة ولا يقين[٢].

وأخرج ابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالىٰ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ ...﴾، قال: فجاء بأبي بكر وولده، وبعمر وولده، وبعثمان وولده، وبعليّ وولده[٣]. انتهىٰ. وهذا يخالف رأي الشيعة وقولهم في آية المباهلة، ويؤيد الرد عليهم في ذلك.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣٦١٧)، عن الحسن.

(٢) تفسير «المنار» (٣: ٢٦٥).

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٩: ١٧٧).

ثم أجمل السياق بالتقرير، وبما نتج من إبطال ألوهيَّة عيسىٰ، والإلزام بالتوحيد، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الذي قَصَصْنَاه عليك ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ وما عَدَاه باطل، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لا شريك له ولا ولد، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ والتعرُّض لوَصْفَي العزَّة والحكمة هاهنا لأمرين: الأول: أنه سبحانه وتعالىٰ لا يُساويه مُسَاوٍ، فيكون له شريكاً في ألوهيته، أو ندّاً في ربوبيته. والثاني: أنه سبحانه قويٌّ عزيز. وإنما يُمهل الكافرين ويمدُّ لهم في الدنيا، لما تقتضيه حكمته سبحانه وتعالىٰ، فهو يُمهلهم ولا يُهملهم. ولذلك توعَّدهم بقوله:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: ولم يُجيبوا الدعوة إلىٰ المباهَلَـة، ولم يقبلوا عقيدة التوحيد الخالص؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: للنـفوس والعقول في إصرارهم علىٰ الباطل، حتىٰ عَمِيَت بصائرهم عن نور الحقِّ، واحتجبت بظلام الضلال. وإنما لم يقل: عليم بهم، ليكون الكلام تهديداً عاماً يشمل مدلول الضمير وغيره، وللإيماء إلىٰ أنَّ سبب التهديد هو هذا الفساد، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

ولما بيَّن سبحانه وتعالىٰ القَصَص الحق في شأن عيسىٰ والمُخْتَلفين فيه، وأقام الحُجَّة العقلية علىٰ المغالين فيه بجَعْله ربّاً وإلهاً، ثم ألزمهم بالامتناع عن المباهلة، لم يبق إلا أن

يأمر نبيَّه ﷺ بأن يدعوهم إلىٰ الحقِّ الواجب اتِّباعُه في الإيمان، دعوة المنتصر في حقه، القوي في برهانه، الحريص علىٰ خير خصمه وسعادته، وهو تقرير وحدانيَّة الألوهية، ووحدانيَّة الربوبيَّة، المتَّفق عليها بين الأنبياء، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: نعبد الله وحده مخلصينَ له الدين، لا نشرك به شيئاً.

وهذه الآية أساسُ الدِّين المتين، وأصله الأصيل، ولذلك كان النبي ﷺ يدعو بها أهل الكتاب إلىٰ الإسلام، كما ثبت في كتبه إلىٰ هِرَقل[١] والمقوقس[٢] وغيرهما ممَّن دعاهم إلىٰ الإسلام من الملوك والرؤساء من أهل الكتاب.

وبعد أن حاجَّ النصارىٰ فيما يقولونه في أمر عيسىٰ عليه السلام، حاجَّ اليهود والنصارىٰ معاً فيما يقولونه في إبراهيم عليه السلام[٣]، وهو ادِّعاء كلٍّ منهم أنَّ شريعته مطابقة لشريعة إبراهيم عليه السلام، وأنه منهم وعلىٰ ملَّتهم، فقال: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ فتدَّعي كلُّ ملة منكم أنه علىٰ دينها، ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أنَّ الكتاب المنزَّل يكون ديناً لمن بعده لا لمن قبله.

---

(١) رواه البخاري (٦)، عن ابن عباس.

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١: ٢٦٠).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٦: ٤٩٠)، عن ابن عباس: «اجتمعت نصارىٰ نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارىٰ: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً! فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾».

وبعد أن جهَّلهم أفْظَعَ التجهيل، قرَّعهم أشْنَعَ التقريع، فقال: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: اسْتَسَغْتُم واسْتَجَزْتُم المُحَاجَّة فيما تدَّعون العلم به، وهو شريعتكم، فتدَّعون أنَّ شريعة التوراة والإنجيل مخالفة لشريعة القرآن، ولا سيما في أمر عيسىٰ، فقامت عليكم الحُجَج، ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وهو: شريعة إبراهيم، فتدَّعون أنها عينُ شريعتكم، ومخالفةٌ لشريعة محمد عليهما السلام؟ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وكيف تدَّعون بشريعة إبراهيم وأنتم لا تعلمون عنها شيئاً؟

ويجوز أن يُراد ﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾: أمر عيسىٰ، فرغماً عن قربهم منه في الزمن ضلَّ الفريقان به ضلالاً بعيداً، فكيف يكون حالهم في أمر إبراهيم وقد مرَّت عليه الدُّهور الطوال؟!

فبيَّن سبحانه ما يعلم من أمر إبراهيم عليه السلام، فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً عن كلِّ ما كان عليه أهلُ عصره من الشرك والضلال، ﴿مُّسْلِمًا﴾ وَجْهَهُ إلىٰ الله تعالىٰ وحده، مُخْلِصاً له الدين والطاعة، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾[1] الذين يُسَمُّون أنفسَهم الحنفاء، ويدَّعون أنهم علىٰ ملة إبراهيم،

---

(١) تلمع هذه الآية ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا ...﴾ إلىٰ أنَّ طابع اليهودية والنصرانية إشراكٌ مُصْطنع، صنعته الأحبار بتحريفها وتأويلها، وأنَّ دين موسىٰ وعيسىٰ الإسلام لله وحده، كدين إبراهيم عليهم السلام. وأنَّ الدين واحد عند الله، دعا إليه أول رسول، كما دعا إليه آخر رسول، ظهر علىٰ لسان أولهم، وكمل علىٰ لسان آخرهم. وليس من المعقول أن يصدر للبشر من الحكيم العليم أديان مُتَباينة متناقضة، وهو سبحانه الذي أنبأ آدم عليه السلام بأنه سَيُوالي علىٰ البشر =

وهم قريش ومَنْ وافقهم من العرب. ففيه تعريضٌ بأنهم من المشركين، وردٌّ لادِّعائهم أنهم علىٰ ملَّته، وتعريضٌ لليهود والنصارىٰ كذلك.

وليس المراد بكونه مسلماً أنه كان علىٰ مثل ما جاء به محمد ﷺ من الشريعة بالتفصيل؛ لأنَّ شريعة محمد ﷺ جاءت من بعده أيضاً، وإنما المراد ما ذكرناه، وهو طبيعة الشرائع في التوحيد والتنزيه، والطاعة والانقياد.

ثم بيَّن أنَّ شريعة إبراهيم أقربُ إلىٰ شريعة محمد عليهما السلام، فأصحاب هذه الشريعة أحقُّ بادِّعائه لموافقتهم له في أكثر ما شرع لهم، فقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: الذين لا يتوجَّهون ولا يميلون إلىٰ غيره في كشف ضُرٍّ ولا طلب نفع مثل هؤلاء المشركين، فالمسلمون أَوْلىٰ بإبراهيم وأحقُّ من أولئك المجرمين الذين يزعمون الانتماءَ إليه. وهكذا الأمر في موسىٰ وعيسىٰ؛ لدخول شريعتهم في شريعة القرآن، فالشريعة السالمة تقرب من أختها، لا المحرَّفة.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ۖ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه أنَّ أهل الكتاب عدلوا عن الحق، وأعرضوا عن الحُجَّة، بيَّن أنهم فوق ذلك يَسْعَوْنَ في إضْلال مَنْ آمن بالرسول من ضُعفاء الإيمان، بإلقاء الشبهات، فقال: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ بضروب من إلقاء الشكِّ

---

= هدًىٰ ورشاداً، له من الخلود ما لنعم الله تعالىٰ من الخلود علىٰ العباد، وطبيعته بكلِّ أصنافه ووجدانه توحيدٌ لله وتنزيهٌ وطاعة وانقياد. (المؤلف).

في النفوس، ﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾ بذلك ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾، لأن الذي يُجادل عن الباطل يتمكَّن الباطل فيه إلىٰ حدٍّ بعيد، إذ باشتغالهم بطرق الإضلال وتحضير الشُّبه، يتمكَّن الضلال في نفوسهم. وفي هذا بيانٌ لطبيعة من طبائع الإنسان واستعداداته. ويجوز أن يكون المراد ما ينتج لهم عن ذلك من الضرر الدنيوي والأُخروي.

ونفيُ الشعور للإيذان بأنَّ ذلك من الأمور المحسوسة، ولكن لا حسَّ لهم.

ثم بيَّن سبحانه حقيقة ما هم فيه من الضلال، وسَبَكه علىٰ التقريع، فقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾، والشهادة تتضمَّن أكمل العلم. أي: تدركون هذه الآيات القوليَّة والفعليَّة معنىٰ وحساً[1].

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: تخلطون الحقَّ الذي جاء به الأنبياء، ونزلت به الكتب، وهي عبادة الله وحدَه، وعملُ البرِّ والخير، والبشارة بنبيٍّ من بني إسماعيل يعلِّم الناس الكتاب، لِـمَ تخلطون هذا بالباطل الذي ألحقه به أحبارُكم ورهبانُكم من التأويلات والآراء؟ وتجعلون ذلك ديناً يجب اتِّباعه وأنه من عند الله؟ ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ من الأحكام الإلهيَّة الصحيحة والبشارة بمحمد ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ حقيَّة ذلك؟ ما أفظع هذا التأنيب و أشدّه توبيخاً! لو كانوا يعلمون.

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

---

(١) ويجوز أن يُراد بالشهادة: العلم اليقيني مبالغةً فيه، وأن يُراد بالآيات: القوليَّة والكونيَّة. (المؤلف).

ثم ذكر سبحانه صُورةً من صُوَر تضليلهم وتآمرهم في ذلك، فقال: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي: عن إيمانهم بمحمد إلىٰ دينهم الأول. فأرادت هذه الطائفة أن تُضَلِّل بعض الناس بهذا الخداع، حتىٰ يقولوا: لولا أن ظَهَر لهم بطلان الإسلام لَـمَا رجعوا عنه بعد أن فهموه وعرفوا حقيقته، وهم أهل علم وكتاب. فقد تآمروا أن يَتَظاهروا مدَّة قصيرة بتصديق القرآن والإيمان به، حتىٰ إذا اطْمأنَّ لهم المسلمون أعلنوا شكوكَهم في بعض المسائل وأحدثوا بلبالاً[1] في ضعفاء المسلمين.

ثم أكمل حكاية قول هؤلاء الكائدين المضلِّلين، فقال: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، وفي تفسيرها أقوال:

**الأول**: قال صاحب «الكشاف»: المعنىٰ: لا تُظهروا إيمانكم بأن يمكن أن يُؤْتىٰ أحدٌ مِثلَ ما أوتيتم إلا لأهل دينكم، دون غيرهم، أي: أسرُّوا تصديقكم بأن المسلمين قد أُوتوا من شريعة الله مثل ما أُوتيتم، ولا تُفْشوا هذا إلا لأشياعكم وحدهم دون المسلمين، لئلا يزيدهم ثباتاً، ودون المشركين لئلا يدعوهم ذلك إلىٰ الإسلام. وكذلك لا تؤمنوا لغير أتباعكم أنَّ المسلمين يُحاجُّونكم يوم القيامة بالحق ويُغالبونكم عند الله تعالىٰ بالحُجَّة.

هذا ملخص ما قاله صاحب «الكشاف» في تفسير الآية، وهو مبنيٌّ علىٰ أنهم كانوا ينكرون جواز بعثة نبيٍّ من العرب بألسنتهم فقط، مكابرةً وعناداً للنبي ﷺ، لا حقاً واعتقاداً. وأنهم كانوا لا يُصرِّحون باعتقادهم المُسْتكنّ في نفوسهم إلا لمن آمنوا له من قومهم ووثقوا به، لما هم عليه من المكر والخديعة[2].

---

(١) البَلْبَال: الهمُّ ووسواسُ الصدر. «الصحاح» (بلل).

(٢) ينظر «الكشاف» (١: ٣٧٤).

وعلىٰ هذا البيان يكون قولُه تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ جملةً معترضةً بين الفعل ومفعوله، عجَّل بها التَّخْييبَ لعملهم هذا المنبعث عن تمسُّكهم بدينهم المحرَّف والدعاية له.

وقوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ مفعول لـ﴿تُؤْمِنُوٓاْ﴾. وقوله: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ معطوف علىٰ المفعول.

ثم ذيَّل الكلام بهاتين الجملتين، مُلقِّناً الردَّ عليهم لنبيِّه ﷺ، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: ممَّن يَسْتَحقُّه وتَقْتضي الحكمة إعطاءه، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي: لا ينحصر فَضْلُه في أمة أو فرد، ولا يُحَدُّ عطاؤه، ﴿عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ أي: يعلم أين يضعُ فَضْلَه، ويعلم حيث يجعل رسالته، فهو ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: ممَّن يكون أهلاً لها، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ أي: فلا يَقْتصر فَضْلُه علىٰ أمَّة دون أمَّة، أو نَسَب دون نَسَب، وإنما ذلك تابعٌ لمشيئة الله تعالىٰ، حسبما تقْتضيه الحكمة والمصلحة العامة[1]، لا لوساوس المغرورين.

**القول الثاني**: إنَّ معنىٰ الآية أنهم كانوا يَتَناهون عن تصديق من يقول ذلك ويَدَّعيه من غير أمَّتهم، كأنهم قالوا لأُمتهم: إذا قال لكم قائل: إنه يجوز أن يُؤْتىٰ غيرُكم النبوَّة مثل ما أُوتيتم، أو يُحاجُّوكم به عند ربكم، فكذِّبوه ولا تؤمنوا له.

ولما كانت هذه الدعوة تَتَضمَّن بظاهرها اختصاصَهم بفَضْل الله، وأن ليس أحدٌ ينال من الله ما نالوه؛ عجَّل عليهم بالرد بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾، ثم أكمل الرد بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ...﴾. وعلىٰ هذا المعنىٰ تكون الآية علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ في آخر سورة الحديد: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ [الحديد: ٢٩]. والله أعلم.

---

(١) تقدَّم التعليق علىٰ مثل هذه العبارة (٢: ٣٧٢).

**القول الثالث**: إنَّ معنىٰ الآية: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾: لا تُصدِّقوا إلا نبياً يُقرِّر شرائع التوراة، أما من جاء بتغيير شيء من أحكامها فلا تُصدِّقوه. وتكون حكاية كلام اليهود قد انتهت بقوله: ﴿دِينَكُمْ﴾، ويكون ما بعده من كلام الله رداً وتوبيخاً لهم، وتأنيباً علىٰ أمرهم هذا. والمعنىٰ: أتفعلون ما تفعلون كراهةَ أن يُوتىٰ أحد مثل ما أوتيتم، أو يُحاجُّوكم به عند ربكم، لمخالفة أحكامهم لأحكامكم؟ ثم ذيَّل الكلام بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ...﴾.

**القول الرابع**: إن الكلام ليس من تتمة مكائد الكائدين، ولكنه كلام مستأنف خاطب الله به المؤمنين إثر حكاية كيد الكائدين، فهو بمثابة إرشاد لهم بالتَّوقِّي من تلك المكائد، بأن لا يثقوا إلا بالمؤمنين، ولا يُخدَعوا بمكائد الكافرين. والمعنىٰ: لا تؤمنوا أيها المؤمنون إلا لمن تَبِعَ دينكم، ولا تُصدِّقوا بأن يؤتىٰ أحدٌ مِثلَ ما أُوتيتم من الدِّين، ولا تُصَدِّقوا بأن يكون لأحد حُجَّة عليكم عند ربكم؛ لأنَّ دينكم خيرُ الأديان، وأنَّ الهدىٰ هدىٰ الله، وأنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء... إلخ.

ويدلُّ علىٰ هذا المعنىٰ ما قاله الضحَّاك: إنَّ اليهود قالوا: إنا نُحاجُّ عند ربنا من خالفنا في ديننا، فبيَّن تعالىٰ أنهم هم المدحوضون والمغلوبون، وأنَّ المؤمنين هم الغالبون[1]. وتكون جملة: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ اعتراضية، عجَّل بها بيان عظمة الهداية التي خصَّهم الله بها. وجملتا التذييل تأييدٌ لها وتقريرٌ لمضمون ما قبلها.

---

(١) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان عن تفسير القرآن» (٣: ٩٣).

والضحّاك هو أبو القاسم ابن مزاحم البلخي الخراساني (...- ١٠٥هـ)، مفسِّر من أوعية العلم، وهو تابعي حدّث عن ابن عباس وأبي سعيد الخدري. وغيرهم. «سير أعلام النبلاء» (٤: ٥٩٨- ٦٠٠).

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

ثم بيَّن حالاً أخرىٰ من أحوال أهل الكتاب، تُمثِّلها طائفة أخرىٰ تخون الأمانة وتستحلُّ أكلَ أموال من ليس من الإسرائيليين، غروراً في الدين، وتأويلاً في الكتاب. حيث جعلوا نهيَه عن الخيانة في حقِّ بني إسرائيل فقط. وللاحتراس عن تَوهُّم أنَّ ذلك عامٌّ فيهم، صَدَّرَ الكلامَ ببيان الطائفة الأمينة منهم تكميلاً للبحث وتدقيقاً في الحق، علىٰ نهج القرآن في تحرِّي الصدق الدقيق، فقال: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾، ثم بيَّن مصدر ذلك فيهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾.

والظاهر أن الصنف الثاني من اليهود كلهم أو بعضهم. والله أعلم.

والمراد من الأميين: العرب. خصَّهم بالذكر لأنه يتكلَّم عن العلاقة بينهما، وإلا فهم يقولون: إن كل من ليس من شعب الله الخاصِّ، وليس من أهل دينه، فلا حقوقَ له، ولا حُرمة لماله، وليس علينا تَبِعةٌ ولا ذنب في أكله بالباطل. فردَّ الله سبحانه عليهم هذه المزاعم بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أنه ليس في التوراة إباحةُ خيانة الأميين، وأكل أموالهم بالباطل، وإنما هو التأويل الباطل.

قال في «المنار»: وفي خبر هؤلاء المحرِّفين والمؤولين من العبرة لنا ـ معشر المسلمين ـ ما فيه. فإن فينا من يقول الآن: إنه يجوز أكل أموال غير المسلمين في دار الحرب، ثم إنهم

يفسِّرون دار الحرب كما يشاؤون، وإنهم بهذا يُحلُّون الخيانة، وهي من كبائر المعاصي، فيتناولهم هذا الوعيد[١].

ثم أتبع سبحانه وتعالىٰ الكلام ببيان القاعدة العامة في النجاة، علىٰ نهج القرآن في تقرير قواعده وسُننه العامة، إثْر أحكامه الخاصة، أو إبطال المزاعم الضالَّة وبيان الحق بعد بيان الباطل، وقد صدَّر ذلك بتقرير الردِّ عليهم، فقال: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: عليكم سبيلٌ وإثمٌ كبير في ذلك، ولكن النَّاجي هو ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾ الذي عاهد الله به، أو عاهد الناس عليه، ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ الإخلاف والغدر، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ فيجعلهم محلَّ عنايته ورحمته في الدنيا والآخرة. وهذه الخصال لا تكون إلا في المؤمنين.

قال الأستاذ الإمام: إنَّ ورود الجواب بهذه العبارة أفادنا قاعدةً عامة من قواعد الدين، وهي أنَّ الوفاء بالعهود، واتِّقاء الإخلاف وسائر المعاصي والخطايا، هو الذي يُقَرِّب العبد من ربِّه، ويجعله أهلاً لمحبته، لا كونه من شعب كذا. وفيه تعريضٌ بأنَّ هؤلاء اليهود ليسوا من أهل التقوىٰ[٢].

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ جزاءَ أهل الغَدْر والإخْلاف بصُورة قاعدة عامة؛ تتناول اليهود الزاعمين أنْ ليس عليهم شيء إذا أخلفوا العهد مع الأميين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، وهذا القيد للتشنيع والإيماء إلىٰ أنَّ كل ثمن مهما بلغ من الكثرة، هو قليل بالنسبة إلىٰ ما عند الله، كيف لا، والأمر يؤدي إلىٰ هذا الجزاء الأليم، الذي فصَّله بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: لا نصيبَ لهم من نعيمها، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾. قال القفَّال:

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٨٠).

(٢) المصدر السابق (٣: ٢٨١).

هذه الكلمات يُرادُ بها شدَّة سَخَط الله عليهم، أي: يُعبِّر عن كرهه لهم سبحانه وغضبه عليهم، ﴿وَلَهُمْ﴾ فوق ذلك ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾. وبالجملة: إنَّ منطوق الآية يدلُّ علىٰ أنهم يعذَّبون بأنواع من عذاب الآخرة، وإن كنا لا نعلم كُنهَها بالتفصيل؛ لأنها فوق ما ندركه ونتصوره. والله أعلم.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

ثم بيَّن حال طائفة أخرىٰ من قبائح أهل الكتاب، ونوعاً آخر من كفرهم وإضلالهم، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾، فأكَّد الخبر بتعمُّدهم التحريف، وسجَّل عليهم الكذبَ الصريحَ، والتحريف المتقصّد. وهذا نقدٌ للأمة بعمل رؤسائها وأحبارها، واتِّباع الأتباع لهم في ذلك، وبيانٌ لما انطبعوا عليه من الضلال والتضليل.

قال الأستاذ الإمام ما حاصله: هذا اللَّيُّ هو: أن يعطي الناطق للَّفظِ معنًىٰ آخر غير المعنىٰ الذي يظهر منه. مثال ذلك: الألفاظ التي جاءت علىٰ لسان سيدنا عيسىٰ عليه السلام ككلمة «ابن الله»، وتسمية الله أباً له، وأباً للناس. فقد كان ذلك استعمالاً مجازياً في لغتهم، كما أُطلق لفظ «ابن الله» في كتب العهد القديم علىٰ إسرائيل وغيره،

فهو مجازٌ قطعاً ومعروف في الدارج عندهم، ولكن لواه بعضهم، فنقله إلىٰ الحقيقة، بالنسبة إلىٰ المسيح وحده[١].

أقول: فهم يقولون هذا ليطابق عقيدة الرومان الوثنيَّة في التثليث، وهي الإله الكبير، وابنه الوحيد، وزوجه. فالرومان أولُ مَنْ قال في المسيحية بهذا القول، وقرَّروه في مجامع الآستانة، ثم تبعهم سائر النصارىٰ فيه. وعليه، فهم يفسِّرون اللفظ بغير معناه المراد في الكتاب، يُوهمون الناس أن الكتاب جاء بذلك، ثم تبعهم فيه من بعدهم وثبتوا عليه.

فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ﴾ به ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾ بعد أن يُؤْتىٰ كل ذلك: ﴿كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهذا النَّفيُ للشأن، وهو أبلغ أنواع نفي الوقوع، أي: ذلك مما لا يمكن أن يقع. ثم بيَّن الواقع الذي يقوله ذلك النبي، فقال: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: ولكن يأمرهم النبيُّ الذي أُوتي الكتاب والحكم بأن يكونوا منسوبينَ إلىٰ الربِّ مباشرةً، ومواظبين علىٰ طاعته، نتيجةَ مدارستهم الكتاب المنزَّل من عند الله؛ إذ بعلم الكتاب علىٰ الوجه الصحيح، وتعليمه، والعمل به كذلك، يكون الإنسان ربّانياً، لا يعبد إلا الله، ولا ينحرف عن الحقِّ والصدق فيما جاء من الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾، و(لا) هذه هي التي يُجاء بها لتأكيد النفي السابق.

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٨٤) وهذا علىٰ تسليم أن تكون هذه الألفاظ التي نراها في كتبهم الآن لم تعبث بها يدُ التحريف والتبديل، والتحريف إنما ورد علىٰ المعاني فحَسْب، وهو رأيٌ يميلُ إليه المؤلف في مواضع من هذا التفسير، تبعاً للشيخ محمد عبده، لكن الصواب بخلافه، فالتحريف نال الألفاظ والمعاني جميعاً.

ثم أردف النفي بالإنكار، للمبالغة في تقرير الغرض، (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية في أساليب القرآن)، فقال: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ بمقتضىٰ الفطرة، وبما جاءكم به موسىٰ؟!

وقال الأستاذ الإمام: معناه: إنه ما كان للمسيح أن يأمر أهلَ الكتاب الذين بُعث فيهم بعبادته، بعد إذ كانوا مُوحِّدين بمقتضىٰ ما جاء به موسىٰ[1].

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

ثم أكَّد مضمون ما سبق من حال الأنبياء، ومن تقريع الناقضين لعهدهم، مع التضمُّن لإثبات نبوة محمد ﷺ، ووجوب اتِّباعه؛ لأنَّ شريعتهم قد نُسخت، أكَّد ذلك ضِمْنَ تقرير قاعدةٍ عامَّة في نسخ الشريعة المُحْدَثة اللاحقة للشريعة القديمة السابقة، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾[2].

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٨٧).

(٢) جاءت الشرائع السماوية من لدن آدم إلىٰ نزول القرآن متَّحدةَ العقائد وأصول الدين، مُتدرِّجةً في صور العبادات والأعمال، والثقافة والتهذيب، تحبو حبو النوع الإنساني في طريق الكمال، كما يتدرَّج الصبي في العلوم والأعمال، حتىٰ إذا بلغ أشدَّه واستوىٰ، ألقي عليه الأنواع العالية من العلوم والمعارف، وطُلب منه الأعمال التي لم تكن في مقدرته أيام صبوته، وهكذا كانت حال الشرائع من النوع الإنساني، من مَبْدئه البدائي في الثقافة إلىٰ أول تكامله في المعرفة، تحبُو =

اللام في ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾ لتوطئة تفصيل الميثاق؛ لأنَّ فيه معنىٰ القسم والاستحلاف، و(ما) التي دخلت عليها اللام، هي المتضمنة لمعنىٰ الشرط، والمعنىٰ: لمهما آتيتكم، أو لئن آتيتكم، واللام في ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ لام جواب القسم المفهوم من أخْذ الميثاق، وقد سدَّ هذا الجواب مَسَدَّ جواب الشرط حسب خصائص اللغة.

وقيل: ذكر النبيِّين وأراد الأممَ التي جاؤوا لتبليغها بالكتاب المنزَّل عليهم، وفيه ذلك الميثاق. والمعنىٰ: إنَّ الواجب علىٰ الأمم التي أُوتيت الكتاب، إذا جاءهم رسول مُصدِّق لما معهم ليكون من الله حقاً لا من موضوعات البشر، فيجب أن يؤمنوا به وينصروه. وقد وجب ذلك بميثاق الله علىٰ أنبيائهم، أو ميثاقه علىٰ أنفسهم علىٰ لسان أنبيائهم.

وتحرير المقال: إنَّ الله سبحانه ينسخ الشريعة السابقة بشريعة لاحقة تتضمَّن ما يصلح للبشر حسب رقيِّه النوعي، ذلك فيما عدا الأسس الثابتة التي لا تتبدَّل، وهي عقيدة التوحيد والبعث والحساب والنعيم والعذاب والطاعة والانقياد، فيجب علىٰ الأمة أن تدخلَ في الشريعة الجديدة الناسخة لشريعتها، وتتركَ المنسوخة التي كانت عليها. ويدخل في هذا العموم أمرُ أهل الكتاب مع محمد ﷺ. وهذا المعنىٰ هو الظاهر من الآية وعمومها.

---

= بحَبْوه، وترقَّىٰ برُقيِّه في مضمار التهذيب، حتىٰ وصل أول درجة الكمال، فكانت تنسخ الشريعة السابقة بالشريعة اللاحقة، وكانت كلُّها تَعِدُ بالشريعة الكاملة، وهي شريعة محمد ﷺ، وتأمر باتباعها إذا نزلت؛ لأنها شريعة عالميَّة عامة لجميع البشر، تنسخ كل ما تقدَّمها من الشرائع بحكم كمالها وشمولها لها، فعندما نزل القرآن العظيم بهذه الشريعة الكاملة، وَجَبَ علىٰ البشر كله أن يتَّبعها ويتمسَّك بها، وأن يتعلَّم لغتها العربية ليفهمها بها، ولتكون هي اللغة العالمية، يتفاهم بها البشر، كما أنَّ شريعتها الشريعة العالمية لسائر الناس، فكل بشر يجب عليه أن يتعلّم هذه اللغة إلىٰ جانب لغته القوميَّة؛ لأن ما لا يتمُّ الواجب إلا به واجب أيضاً. (المؤلف).

وقيل: إن الميثاق أُخِذَ علىٰ الأنبياء ليأخذوه علىٰ أُممهم بتصديق محمد ﷺ إذا بُعث، ويأمرهم بنصرته علىٰ أعدائه إن أدركوه. وهذا هو المرويُّ عن علي وابن عباس وقتادة، واختاره أبو علي الجبائي[1] وأبو مسلم. ويكون معنىٰ ﴿جَآءَكُمْ﴾: جاء أممكم وأتباعَكم، وهو من خطاب العين مراداً به الغير، (كما جاء في القاعدة الثالثة عشرة من المقدمة الخامسة)، وإنما خرج الكلام علىٰ النبيين؛ لأنَّ ما لزمهم لزم أممَهم، ويجوز أن يبقىٰ الكلام علىٰ حقيقته، ويكون للمبالغة في تقرير الحكم، وقد جاء عنه ﷺ: «لو كان موسىٰ حيّاً لما وسعه إلا أن يتَّبعني»[2].

ثم ﴿قَالَ﴾ تعالىٰ مُسجِّلاً علىٰ من أخذ عليهم الميثاق: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ أي: عهدي، سمّي به؛ لأنه يُؤْصَر، أي: يُشَدّ، ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا﴾ تعالىٰ: ﴿فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ أي: فَلْيشهد بعضكم علىٰ بعض، وأنا معكم شاهد عليكم جميعاً.

قال الأستاذ الإمام: إنَّ هذا الأمر بالشهادة دليل علىٰ ترجيح قول جعفر الصادق[3]: إنَّ العهد مأخوذ من الأنبياء علىٰ أممهم. والمعنىٰ: إنَّ الله تعالىٰ أمر الأنبياء بأن يشهدوا علىٰ أممهم بذلك، وهو سبحانه معهم شهيد.

---

(١) هو محمد بن عبد الوهاب البصريُّ (٢٣٥- ٣٠٣هـ)، شيخ المعتزلة، ورئيس علماء الكلام في عصره، صاحب التصانيف، له: «الأصول»، و«التعديل والتجويز»، و«الاجتهاد». «سير أعلام النبلاء» (١٤: ١٨٣- ١٨٤)، و«الأعلام» للزركلي (٦: ٢٥٦).

(٢) رواه أحمد (١٤٦٣١)، وأبو يعلىٰ (٢١٣٥)، عن جابر. وقال الحافظ في «الفتح» (١٣: ٥٢٥): وفي سنده مجالد بن سعيد، وهو ليّن.

(٣) هو أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط الهاشمي القرشي (٨٠- ١٤٨هـ)، سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، وكان من أجلّاء التابعين. «الأعلام» للزركلي (٢: ١٢٦).

وقال أيضاً: إنَّ العبارة ليست نصاً في أنَّ هذه المحاورة وقعت، وهذه الأقوال قِيلَت. والمختار: أنَّ المراد بها تقريرُ هذا المعنىٰ، وتوكيدُه علىٰ طريقة التمثيل[1]، والله أعلم.

ثم سجَّل عليهم سبحانه وتعالىٰ بقوله: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: الخارجون عن نُور الفطرة ونظام الدِّين الذي جاء عن المرسلين. ومحصَّل الكلام: إنكم ـ يا أهل الكتاب ـ مُلزمون باتِّباع محمد ﷺ، والتَّصديق بشريعته، بمقتضىٰ الميثاق الذي أُخذ علىٰ كلٍّ من موسىٰ وعيسىٰ؛ أنه إذا جاء نبيٌّ بعده، وصدق بما معه، يؤمن به وينصره، فإذا لم تفعلوا فأنتم ناقضون لعهد الله، ولستم من الدِّين الحقِّ في شيء.

وقال في «المنار»: أي: إنَّ من مقتضىٰ ذلك الميثاق أنَّ دين الله واحد، وأنَّ دعاته متَّفقون مُتَّحدون. فمن تولَّىٰ عن هذه الوحدة ولم يؤمن بالنبيِّ المتأخِّر ولم ينصرْه، فقد خرج عن ميثاق الله، وليس من دينه الحق في شيء.

ولما بيَّن سبحانه وتعالىٰ أنَّ دينه واحد، وأنَّ رسله متَّفقون فيه، قال في مُنكري نبوة محمد ﷺ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾، والمعنىٰ: أيتولون عن الإيمان بعد هذا البيان، فيبغون غير دين الله الذي هو الإسلام، ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ وهو ما يكون عند الشدائد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، وقال في آية أخرىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٩٠).

لكن المختارُ إجراءُ الكلام علىٰ ظاهره المتبادر منه؛ لعدم امتناع هذا الظاهر، وعدم ورود ما يصرف عنه.

﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وكذلك ما يكون عند الموت والإشراف علىٰ الآخرة، ولكن ذلك إسلام لا ينفع[١].

ويجوز أن يراد بـ﴿مَن﴾ العاقل وغيره، تغليباً للعاقل. فكلُّ مخلوق عُلْوي وسفليّ منقادٌ لله سبحانه فيما خُلِق له يؤدِّيه بطبيعته حقَّ أدائه علىٰ أحسن نظام، كما جاء في آخر سورة الأحزاب: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ...﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ثم ختم الآية بما فيه وعدٌ للمؤمنين ووعيدٌ للكافرين، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: فيجزيهم بما كانوا يعملون.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

وبعد أن ذكر تولِّيَ هؤلاء عن الإسلام المطلوب، أمرنا بالإقرار به والتصريح بما لزم ضمناً من وجوب الإيمان بكلِّ ما جاءت به الأنبياء، مُخاطباً الأمة في شخص النبي ﷺ، فقال: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾[٢]، وهذا هو الإسلام الذي كان عليه جميع

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٩١ - ٢٩٢).

(٢) ما أُنزل علىٰ إبراهيم هي الصحف، وكان أولاده وأحفاده إلىٰ زمن موسىٰ مكلَّفين بها. وقوله: ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ إجمال لما قبله. ويجوز أن يُراد بما أوتي موسىٰ وعيسىٰ، المعجزات. (المؤلف).

الأنبياء، ولذلك قفَّىٰ عليه بقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[١]، أي: للنعيم المقيم. وقد جاء عنه ﷺ: «لو كان موسىٰ حياً بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتَّبعني»[٢].

فالدينُ الإسلامي يَعُدُّ الدين السماوي بجملته ديناً واحداً، جاء في أزمان متفاوتة وأطوار مُتعدِّدة، والدين الإسلامي هو الطور الأخير والنهائي من أطوار هذا الدِّين الواحد، فهو يُصدِّق ما تقدَّمه ويُهيمِنُ عليه، ويعدُّ المؤمنين أمة واحدة مهما اختلفت أزمنتهم وأمكنتهم، وفي أيِّ طور من أطوار هذا الدين كانوا ودَرَجوا قبل أن يبدّل بطور لاحق ودين جديد.

وقد جاء عنه ﷺ: «مَثَلي ومَثَلُ الأنبياء قبلي كمثل رجل بنىٰ داراً، فأكملها وأحسنها إلا موضع لَبِنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجَّبون ويقولون: لولا موضعُ اللَّبِنَة، فأنا اللَّبِنَة، وأنا خاتم النبيين»[٣].

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ

---

(١) إن الدِّين كلَّه واحد عند الله سبحانه، وقد سار مع النوع البشري يحبو في الرقي مع حَبْو البشر في الرقي، ودعا إليه أوَّلُ رسول كما دعا إليه آخرُ رسول، ظهر علىٰ لسان أولهم آدم عليه السلام، وكمل علىٰ لسان آخِرهم محمد ﷺ، وهو التوحيد والابتعاد عن الشرك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]. ليس من المعقول أن يصدر للبشر من الحكيم العليم أديان متباينة متعارضة متناقضة، وهو الذي أنبأ آدم عليه السلام بأنه سيُوالي علىٰ البشر هدىٰ ورشاداً، له من الخلود ما لنعم الله تعالىٰ من الخلود علىٰ العباد، وطبيعته بكل وحداته توحيدٌ لله وتنزيهه، وطاعةٌ له وانقياد، واتحاد وتلاؤُمٌ بين الجماعات والأفراد. (المؤلف).

(٢) تقدَّم تخريجه قريباً ص٥٠١.

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦)، عن أبي هريرة.

ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ تبكيت المتولِّين عن الإسلام، وسَبكه علىٰ التهديد والوعيد، فقال: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: بعد أن آمنوا بكتبهم، ﴿وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: التي تَبيَّن بها الحقُّ من الباطل. وعن الحسن: أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ، رَأَوْا نعتَ محمَّد ﷺ في كتابهم وأقرُّوا وشهدوا أنه حقٌّ، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ...﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فلما بُعث من غيرهم، وجاءهم بالبيِّنات من ربِّهم، حسدوا العرب علىٰ ذلك، فأنكروه بعد إقرارهم.

وفي الآية إسنادُ نفيِ الفعل إلىٰ الله مع ذكر سَبَب المنع، وهو الكفر بعد الإيمان، والإنكار بعد الشهادة، والإعراض بعد مجيء البيِّنات، حيث إنَّ ذلك يحجب القلوب عن نور الحق ويُعمي البصائر. ومفاد الآية: استبعاد هدايتهم لِـمَا ذكر من السبب.

ثم أردف الاستبعاد بالتقرير، علىٰ نهج القرآن في أساليبه، فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: لأنفسهم بإطفاء نور العقل ومَحْقِ الاستعداد لمعرفة الحق، فهم لا يهتدون إلىٰ الصِّراط المستقيم الموصل إلىٰ سعادة الدارين. ووضع الوَصْف ـ وهو الظلم ـ مَوْضع الضمير؛ لبيان سبب الحرمان من الهداية بصورةِ قاعدةٍ تشملهم وغيرَهم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

وفي الكلام أيضاً إسنادُ نفي الفعل إلىٰ الله مع ذكر السبب، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية). والمعنىٰ: مَضَت سُنَّته تعالىٰ أنَّ مَنْ تَشَبَّع بالظلم والكفر حتىٰ أصبح له ديناً وخُلقاً، لا يمكنه أن يُقْلع عنه أبداً.

ومن مباحث اللفظ في الآية: أنَّ قوله: ﴿وَشَهِدُوٓاْ﴾ معطوف علىٰ ﴿إِيمَٰنِهِمۡ﴾؛ لما في المصدر من معنىٰ الفعل، كأنه قال: بعد أن آمنوا وشهدوا، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [الحديد: ١٨]، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ج) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية). والقول الثاني: إن الواو للحال بإضمار «قد»، أي: والحال قد شهدوا أنَّ الرسول حق.

ثم أتبع الكلام ببيان جزائهم ومصيرهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ٨٧﴾ أي: سخطهم.

ثم تابع البيان بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في جهنم، فالضمير يعود علىٰ المفهوم في الذهن، وهو في القرآن كثير، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة الحادية عشرة من المقدمة الثانية).

ثم أكمل البيان بقوله: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٨﴾ أي: لا يمهلون.

ثم استثنىٰ من ذلك مَنْ ذكرهم بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ أعمالَهم بما صار للإيمان الراسخ من السلطان علىٰ نفوسهم والتصريف لإرادتهم، أو أصلحوا نفوسَهم بالأعمال الصالحة التي تمدُّ الإيمان وتُغذِّيه، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٨٩﴾ فينالهم من مغفرته ما يُزَكِّي نفوسهم بمقتضىٰ سُنَّته، ويُصيبهم من رحمته ما يُؤَهِّلهم لدخول جنَّته.

قال الأستاذ الإمام: عطف الإصلاح علىٰ التوبة؛ لأنَّ التوبة التي لا أثر لها في العمل لا شأن لها ولا قيمة في نظر الدِّين. ولذلك جرىٰ القرآن علىٰ عطف العمل الصالح عليها عند ذكرها، أو وَصْفِها بالنَّصوح[١].

ثم ذكر مَنْ لا تُقبل توبتهم، وهو في حكم الاستثناء المنقطع من الاستثناء السابق للتائبين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ وشهادتِهم أنَّ الرسول حق، ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ بمقاومة الحقِّ والصدِّ عن سبيل الله، لأنَّ ازدياد الكفر إنما يكون بما يُنمِّي الكفر ويُقوِّيه من الأعمال التي يقاوم بها الإيمان، فأولئك ﴿لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾؛ لأنهم ـ لتمكُّن الكفر منهم ـ لا يتوبون إلا عند الإشراف علىٰ الهلاك أو عند الموت، فلم يعقب توبتَهم إصلاحٌ لأنفسهم.

وقال صاحب «الكشاف» والبيضاوي: المراد أنهم لم يتوبوا لتمكُّن الكفر منهم[٢]. وعبَّر بهذه العبارة تغليظاً في شأنهم، ولهذا ذيَّل الكلام بقوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ أي: المتمكِّنون في الضلال. وعلىٰ هذا، يكون مُحصَّل الكلام من قبيل نفي الشيء بإيجابه، ظاهرُه نفيُ القبول، وحقيقتُه نفيُ التوبة. أي: لن يكون لهم توبة فتُقبَل.

وقال القاضي والقفَّال وابن الأنباري[٣] في تفسير الآية: إنه تعالىٰ لما قدَّم ذكر من

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٣٠١).

(٢) «الكشاف» (١: ٣٨٢)، و«تفسير البيضاوي» (٢: ٢٧).

(٣) ابن الأنباري: هو أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد (٢٧١ - ٣٢٨هـ) الإمام الحافظ ذو الفنون من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة، قيل: كان يحفظ ثلاثمئة ألف شاهد في القرآن. له: «الزاهر»، و«الأضداد»، و«غريب الحديث». «سير أعلام النبلاء» (١٥: ٢٧٤-٢٧٩)، و«الأعلام» للزركلي (٦: ٣٣٤).

كفر، وبيَّن أنه أهلٌ للَّعنة إلا أن يتوب، ذكر في هذه الآية أنه لو كفر مرَّةً أخرىٰ بعد تلك التوبة، فإنَّ التوبة الأولىٰ تصير غيرَ مقبولة، حتىٰ كأنها لم تكن[١]. فالكلام عندهم متسلسل في طائفة واحدة.

ثم ذكر مصير هؤلاء الكفار الذين ماتوا علىٰ الكفر، ولكن بصورة حكم عام يشملهم وغيرَهم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾.

قال في «الكشاف»: هذا كلامٌ محمولٌ علىٰ المعنىٰ، كأنه قيل: فلَنْ تُقبَلَ من أحدهم فديةٌ ولو افتدىٰ بملء الأرض ذهباً[٢].

قال الأستاذ الإمام: الكلام في هذا الجزاء من التمثيل، والمراد: أنه لا طريق للافتداء[٣]. والذي أراه: أنه أتىٰ بهذا النظم لِيَتَشَخَّص عِظَمُ المقدار في الذهن، ثم أتىٰ بالحكم، ثم نصَّ علىٰ نوع الجزاء، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، ثم كنَّىٰ عن استدامة هذا العذاب وتمكينه بقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١﴾ يريد أنهم لم يفلتوا من ذلك العذاب ولم ينجوا منه أبداً، أعاذنا الله.

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾.

وبعد هذا البيان دعا إلىٰ الإيمان، علىٰ نهج القرآن، وخصَّ من فضائله: الإنفاق، تعريضاً بما عند اليهود من حرصٍ وشدّةِ بخل، وعَوْداً إلىٰ سياق أهل الكتاب، وتكميلاً لردِّهم في مشاغبات أمر القبلة، وجعل الكلام بصورة خطاب عامٍّ ليشمل المؤمنين،

---

(١) ذكر كلامهم الرازي في «تفسيره» (٨: ٢٨٦).

(٢) «الكشاف» (١: ٣٨٤).

(٣) تفسير «المنار» (٣: ٣٠٤).

علىٰ نهج القرآن في جعل الكلام تتمَّةً لما قبله، وتمهيداً لما بعده، وقاعدةً عامة بحسب نظمه وصيغته، فقال: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾[1] الذي يتنافس فيه المتنافسون ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي: من كرائم أموالكم وأحبها، ثم رغَّب في ذلك، فقال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ أي: فيُجازيكم بحسبه، جيداً كان أو رديئاً.

وأخرج أربابُ الصحاح: لما نزلت هذه الآية جاء أبو طلحة فقال: يا رسول الله، إنَّ أحبَّ أموالي إليَّ بَيْرُحَاء، فضعها ـ يا رسول الله ـ حيث أراك الله، فقال عليه السلام: «بَخٍ بَخٍ، ذلك مال رابح، وإني أرىٰ أن تجعلها في الأقربين»، فقسمها في أقاربه[2]. و«بيرحاء»: حائط نخل في المدينة مستقبلة المسجد فيها ماء طيب.

---

(١) أرىٰ في هذه الآية ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾ شبهاً بآية ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وعَوْداً إليها، فكما كانت تلك تعقيباً علىٰ ما جاء قبلها من مناقشة أهل الكتاب في أمر القبلة ورد شبههم ومشاغباتهم، مبيناً أن البر بما سرده من أحكام صالحة للبشر لا بمشاغباتهم في أمر القبلة وأمثالها، عقَّب هنا ما جاء في هذا السياق من مشاغباتهم ومخادعاتهم، ببيان أنَّ البر هو اتِّباع شرائع الله، وخص الإنفاق بالذكر؛ لأنه من أهم تعاليم الإسلام، فيكون بياناً عاماً لهم وللمسلمين، وتعريضاً بما عندهم من حرص وإعراض شديد عن الإنفاق. ثم أتبع ذلك بالردِّ عن شبهتهم بأنَّ محمداً يدَّعي أن شريعته كشريعة إبراهيم، ولم يحرِّم ما حرَّم الله علىٰ بني إسرائيل من بعض الأطعمة، وقرن ذلك بالعودة إلىٰ ما يشاغبون به من أمر القبلة، وردها عليهم كذلك؛ لتتقاربَ الآيتان. والله أعلم. والقرآن مثاني، يعود إلىٰ المواضيع المرَّة بعد المرَّة.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾ استدراكاً لدفع ما يتبادر إلىٰ الأذهان من قوله: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ [آل عمران: ٩١] من أن الإنفاق لا يفيد. فأبان أن الإنفاق عنصر مهم من عناصر البر للمؤمنين، ولن ينالوا البر حتىٰ ينفقوا من أحسن أموالهم وأعزِّها عليهم، وقد جاء هذا استطراداً في سياق الكلام. فهو بيان لما ينفع المؤمنين ويقبل منهم، ذكر إثر بيان ما لا ينفع الكافرين ولا يقبل منهم. والله تعالىٰ أعلم. (المؤلف).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨)، عن أنس.

وجاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها، فقال: هذه في سبيل الله، فحمل عليها رسول الله ﷺ أسامةَ ابنَه، فكأن زيداً وجد في نفسه، وقال: إنما أردتُ أن أتصدَّق به، فقال ﷺ: «أما إن الله قد قبلها منك»[١].

قال في «المنار»: وهذا من آيات سياسته ﷺ للقلوب، رأىٰ أنَّ زيداً وأبا طلحة قد خرجا بعاطفة الإيمان عن أحبِّ أموالهما إليهما، علىٰ تعلُّق القلوب بكرائم الأموال، فجَعَل ذلك في الأقْربين منهما؛ ليثبِّت قلبيهما، فلا يكون للشيطان سبيلٌ إلىٰ الوسوسة لهما بالندم أو الامتعاض إذا رأيا ذلك في أيدي الغرباء[٢].

وقال الأستاذ الإمام في وجه الربط للآية بسابقها، ما مُلَخَّصه: الخطاب في قوله تعالىٰ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ...﴾ أيضاً لأهل الكتاب، فلا يزال الكلام فيهم. ومن سُنَّة القرآن أن يقرن الكلام في الإيمان بذكر آثاره من الأعمال الصالحة، وأدلُّها عليه: بذلُ المال في سبيل الله. فلما حَاجَجَ أهل الكتاب في دعاويهم في الإيمان والنبوَّة وما إلىٰ ذلك، أيَّد المُحَاجَّة بأنهم مخالفون لميزان الإيمان الصحيح، وهو الإنفاق في سبيل الله من الأموال المحبوبة، مع الإخلاص وحُسْن النية. فهو يؤيِّد إلزامه إيَّاهم بقوله: يا أيها المدَّعون لتلك الدعاوىٰ، قد آثرتم شهوة المال علىٰ مَرْضَاة الله، وإذا أنفق أحدكم شيئاً فإنما ينفق من أردأ ما يملك، فكيف تدَّعون هذه الدعاوي التي لا مظهر لها في نفوسكم[٣]؟!

أقول: ويجوز أن يكون الكلام تشريعاً عاماً، يدخل فيه إلزام أهل الكتاب بمخالفة أحوالهم لهذا التشريع، جاء علىٰ نهج القرآن في تعقيب المعنىٰ الخاص بالمعنىٰ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٦: ٥٩٢)، عن أيوب مرسلاً.

(٢) تفسير «المنار» (٣: ٣٠٧).

(٣) المصدر السابق (٣: ٣٠٥- ٣٠٦).

العام الذي يشمله وغيره، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية)، فالكلامُ تشريعٌ بحسب الصيغة، وإلزامٌ لأهل الكتاب بحسب السياق، علىٰ نهج القرآن في مثله.

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

وبعد أن ألزم أهل الكتاب بما ألزمهم به في هذا الباب، أجاب عن شبهتين من شُبَههم، فيما يأتي فقال: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾، فهذه الآية جواب عن الشبهة الأولىٰ، وهي كما قال الأستاذ الإمام: قالوا: إذا كنتَ ـ يا محمد ـ علىٰ ملَّة إبراهيم والنبيين من بعده كما تدَّعي، فكيف تستحلُّ ما كان مُحرَّماً عليهم من الطعام، فلا ينبغي لك أن تدَّعي أنك مُصدِّق لهم، ومُوافق لهم في الدين، ولا أن تخصَّ إبراهيم بالذكر، وتقول: إنك أَوْلىٰ الناس به[1].

وتوضيح الرد: أنَّ كل الطعام كان حِلاً لبني إسرائيل، ولإبراهيم من قبلُ بالأَوْلىٰ، ثم حرَّم الله عليهم بعض الطيِّبات في التوراة عقوبةً لهم وتأديباً، كما قال تعالىٰ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]. فالمراد

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ٤).

بـ«إسرائيل»: شعبُ إسرائيل كما هو مستعمل عندهم، لا يعقوب نفسه، ومعنىٰ تحريم الشعب ذلك علىٰ نفسه: أنه ارتكب واجترح السيئات التي كانت سبب التحريم، كما صرَّحت به الآية، فكأنه يقول: إذا كان الأصل في الأطعمة الحِلّ، وكان تحريم ما حُرِّمَ علىٰ إسرائيل تأديباً علىٰ جرائمَ أصابوها، وكان النبيُّ وأمته لم يَجْترحوا تلك السيئات، فلِمَ تُحرِّمُ عليهم الطيبات.

ثم استند علىٰ التوراة في هذا الدفع، فقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ أي: فإنها تُـؤْذِنُ أنَّ التحريم كان عقوبةً لكم، لا لـخُبثٍ في هذه المحرَّمات. هذا ما أثبته الأستاذ الإمام في معنىٰ الآية.

أما صاحب «المنار» فيرىٰ في الآية غير هذا الرأي، حيث قال: والمتبادر عندي أنَّ المراد بما حرَّمه إسرائيل علىٰ نفسه: ما امتنعوا عن أكله وحرَّموه علىٰ أنفسهم بحكم العادة والتقليد، لا بحكم الله. كما يُعهَدُ مِثلُ ذلك في جميع الأمم، ومنه تحريم العرب للبحائر والسوائب وغير ذلك، مما حكاه القرآن عنهم[1].

أقول: وعلىٰ هذا الرأي يكون قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ متعلقاً بـ﴿حَرَّمَ﴾، وعلىٰ الرأي الأول يكون متعلقاً بقوله: ﴿حِلًّا﴾.

ثم ختم الآية بما فيه وعيد لهم، فقال: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ البيان، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: لأنفسهم، بدَفْعِها إلىٰ ما تستحقُّ عليه العذاب الأليم.

وبعد أن أمر ﷺ بإلزامهم بهذه الحجَّة الواضحة، أمره أن يدعوهم إلىٰ الحق، فقال: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ أي: فيما أنبأني به، ﴿فَٱتَّبِعُوا۟﴾ ما أدعوكم إليه ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ

(١) تفسير «المنار» (٤: ٥).

﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: الذين يبتغون الخير من غيره سبحانه. والحنيف: المائل. والمراد به: مَيْلُه عن سائر طرائق الكفر في عصره.

أما الشبهة الثانية، فهي ـ كما قال الأستاذ الإمام أيضاً ـ: أنهم قالوا: إنَّ الله وعدَ إبراهيم بأن تكون البركة في نَسْل ولده إسحاق، وجميع الأنبياء من ذريَّة إسحاق كانوا يعظِّمون بيت المقدس ويصلون إليه، فلو كنتَ علىٰ ما كانوا عليه لعظَّمتَ ما عظَّموا، ولما تحوَّلتَ عن بيت المقدس وعظَّمتَ مكاناً آخر اتَّخذته مُصَلًّىٰ وقبلة، وهو الكعبة، فخالفتَ الجميع[1]. فكان جواباً عن هذه الشبهة قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

وتقرير هذا الجواب: إنَّ البيت الذي نستقبله في صلاتنا هو أول بيت وُضع مَعْبداً للناس، بناه إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام لأجل العبادة خاصَّة، ثم بُني المسجدُ الأقصىٰ؛ بيتُ المقدس بعده بقرون[2]، بناه سليمان بن داود عليهما السلام سنة ألف وخمس قبل الميلاد، فصحَّ أن يكون النبيُّ ﷺ علىٰ ملَّة إبراهيم، ويتوجَّه بعبادته إلىٰ حيث يتوجَّه إبراهيم وولده إسماعيل.

ثم استشهد علىٰ ذلك بقوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: فيه دلائلُ وعلاماتٌ ظاهرة لا تَخْفىٰ علىٰ أنه بناهُ إبراهيم عليه السلام، منها: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾، أي: موضع قيامه فيه للصلاة والعبادة، تعرف ذلك العرب بالنقل المتواتر، وإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء الذين بقيت معالـمهم. فأيُّ دليل أبيَنُ من هذا، علىٰ كون

(١) تفسير «المنار» (٤: ٤).

(٢) بل بُني المسجد الأقصىٰ بعد المسجد الحرام بأربعين عاماً، كما ثبت في حديث أبي ذر عند البخاري (٣٣٦٦) و(٣٤٢٥)، ومسلم (٥٢٠). والذي صنعه سليمان عليه السلام هو تجديدُ بنائه.

مُستَقْبِل هذا البيت مُتّبعاً لإبراهيم، وإنَّ هذا البيت أوَّل بيت من بيوت العبادة الصحيحة المعروفة في ذلك العهد، وُضِعَ ليعبدَ الناسُ فيه ربَّهم؟

﴿وَ﴾ منها أن ﴿مَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ فهي آية بيِّنة علىٰ ذلك التبريك، لا يمتري فيها أحد. وذلك أن العرب كلَّها قد اتَّفقت علىٰ احترام هذا البيت وتعظيمه، لنسبته إلىٰ الله، حتىٰ إنَّ من دخله يأمن علىٰ نفسه، لا من الاعتداء عليه فقط، بل من أن يثأر منه أيضاً. مضىٰ علىٰ هذا عملُ الجاهلية علىٰ اختلافها في المنازع والأهواء، وكثرة ما بينها من الأحقاد والأضغان، وأقرَّه كذلك الإسلام.

﴿وَ﴾ منها أنه ﴿لِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، فهذا بيان آية ثالثة من آيات هذا البيت جاءت بصيغة الإيجاب والفرضيَّة، في ذكر مزاياه، ودلائل كونه أولَ بيوت العبادة المعروفة المباركة، وبيان ذلك للمعترضين من اليهود علىٰ استقباله في الصلاة.

فهذا الكلام يفيد بمقتضىٰ السياق معنىٰ خبرياً في إفادة المزايا التي تؤيد اتخاذ هذا البيت قِبلة، وبمقتضىٰ الصيغة معنىٰ إنشائياً، وهو وجوبُ الحج علىٰ المستطيع من هذه الأمة. أشار إلىٰ ذلك الأستاذ الإمام بقوله: هذه الجملة ـ وإن جاءت بصيغة الإيجاب ـ هي واردةٌ في معرض تعظيم البيت. وأيُّ تعظيم أكبر من افتراض حجِّ الناس إليه؟ وما زالوا يحجُّونه من عهد إبراهيم ﷺ إلىٰ عهد محمد ﷺ، ولم يمنع العربَ عن ذلك شركُها، وإنما كانوا يحجُّون عملاً بسُنَّة إبراهيم عليه السلام. وهذه آيةٌ متواترةٌ علىٰ نسبة هذا البيت إلىٰ إبراهيم عليه السلام. وبهذا وما سبقه يبطل اعتراض أهل الكتاب، وثبت أن النبي ﷺ علىٰ ملة إبراهيم دونهم. من «المنار» بتصرف[1].

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ٩).

وقال الإمام الرازي عند ذكر قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾: اعلم أنه تعالىٰ لما ذكر فضائل البيت ومناقبه؛ أردفه بذكر إيجاب الحج[١]. وفي قوله تعالىٰ: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ بيان لموقع الإيجاب ومحله، والاستطاعة تختلف باختلاف الأشخاص. وقد سُئل الإمام مالك رضي الله عنه عن هذه الآية، فقال: الناس في ذلك علىٰ طاقتهم ويُسْرهم وجَلَدهم[٢].

أقول: فالاستطاعة في الرجل: الجَلَدُ واليسر، وفي المرأة زيادةً علىٰ ذلك: وجود المحْرَم الذي يصاحبها، فإذا تحقَّقت الثلاثة وجب الحجُّ عليها.

ثم ختم الآية بوعيد هؤلاء المعارضين المعاندين، فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾[٣]، والمراد بهذا الكفر: جُحود كون هذا البيت أولَ بيتٍ وُضِعَ للناس في العبادة الصحيحة، وضعه إبراهيم عليه السلام، كما بيَّنته الآية، وعدم الإذعان لِـمَا فرض الله من حجِّه والتوجُّه إليه بالعبادة، وعدم التَّسليم بأنه أحقُّ بالقبلة من بيت المقدس. وإنما أتىٰ بهذا التهديد الليِّن؛ لأنه يشمل ضِعافَ الإيمان الذين تأثّروا بمُشَاغبات اليهود والمنافقين.

وقيل: المراد بالكفر: تَرْكُ الحج من المستطيع، والعبارة للتغليظ والتشديد؛ لأنَّ

---

(١) «تفسير الرازي» (٨: ٣٠٣).

(٢) «تفسير القرطبي» (٤: ١٤٨ - ١٤٩).

(٣) جعل ابن القيم الكفر نوعين: كفر عمل وكفر اعتقاد. والأول: مثل ترك الصلاة تهاوناً لا جحوداً، وكذلك سائر الفرائض، فهو كفر لا يُخرج صاحبَه من المِلَّة، ولا يبيح دمه، ولا تنفسخ منه زوجته. والثاني: أن يجحد شيئاً مما علم نصّاً أن رسول الله ﷺ جاء به من عند الله، فتلك ردَّة تبيح الدم، وتفسخ الزوجة، وتمنع الإرث. (المؤلف).
وانظر كلام ابن القيّم في «الصلاة وأحكام تاركها» (١: ٥٦ - ٥٧).

القرآن يتوسَّع بكلمة الكفر فيُطْلقها علىٰ الجاحدين، ويُطْلقها علىٰ مَنْ يُخالف مقاصد الدين.

وقد ألمع بإثبات مزايا هذا البيت، وأنه أول بيت وُضِعَ للناس، إلىٰ إثبات أنَّ تحويل القبلة من بيت المقدس إليه، هو نسخٌ للأمر بما فيه خيرٌ منه وأولىٰ.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

وبعد أن أقام سبحانه الحجَّة علىٰ أهل الكتاب، وبيَّن بطلان شبهاتهم علىٰ نبوَّة محمد ﷺ، وكونه علىٰ ملَّة إبراهيم عليه السلام، أمره أن يُبكِّتهم علىٰ كفرهم وضلالهم في ذلك، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في بيته، الدالَّةِ علىٰ كونه أولَ بيتٍ وُضِعَ لعبادته، وعلىٰ بناء إبراهيم له، وتعبُّده فيه قبل وجود بني إسرائيل وبيت المقدس. أو بآياته علىٰ صحَّة نبوة محمد وإحيائه لملَّة إبراهيم الذي تعترفون بنبوَّته وفضله، ومنها ما ذَكَر عن البيت، ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: مُطَّلع علىٰ عملكم هذا. وفيه تهديدٌ وتوعُّد لهم شديد.

ثم أمره بتوبيخهم علىٰ الإضلال والإغواء وصدِّ الناس عن سبيل الإيمان، وابتغائها عِوَجاً، إثر توبيخهم علىٰ الضلال والغَواية والكفر عن علم منهم، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ أي: لِمَ تَصْرفون عن الإيمان من أراد الإيمان بالله، وذلك بإلقاء الشبهات الباطلة، مكابرةً وكيداً للنبيِّ ﷺ، ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: قاصدين بهذا العمل أن تجعلوا سبيل الله هذه مُعوَجَّة، لا تصل إلىٰ السعادة، وذلك بعبثكم بها وتحريفكم لها، أو تجعلوا سبيل الله هذه معوجة في نظر من يُؤْمن لكم،

ويغتر بكيدكم، ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ أي: تعرفونها حقَّ المعرفة بأنها سبيل الله المستقيمة لا عِوَجَ فيها ولا نقيصة، عارفون بما ورد فيها من البشارات عن الأنبياء، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يتوعَّدهم ويُهدِّدهم على عملهم هذا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

وجَّه الخطاب إلى المؤمنين، تحذيراً لضعفاء الإيمان عن طاعة أهل الكتاب والافتتان بفتنتهم، إثر توبيخهم بالإغواء والإضلال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾[1]، وتعليق الرد بطاعة

---

(١) اليهود شعب خبيث قد تدرَّب من أقدم الأجيال على الدسائس بين الأمم، والعمل في الظلام، وتشكيل الجمعيات السرية، وإثارة الفتن بين الأقوام، وقد مهر في ذلك؛ لأنه لا يحب أيَّ جنس من أجناس البشر، وأيَّ ملة من مللهم، ويعتقد في نفسه أنه شعبُ الله الخاصُّ، وقد جعل الله بقية الشعوب عبيداً له، وأحلَّ له نفوسهم وأموالهم. وقد قرر الباحثون أن الأدوار التي قام بها الشعب اليهودي ـ ولا تزال هدفه ـ أدوار قاسية في الأمم، ومفسدة للديانات والإنسانية، يبثُّون بينهم الثورات والمبادئ الهدامة، والفتن الماحية للشعوب. ولما جاء الإسلام عادَوْهُ حسب مبدئهم وطبيعتهم، ولعبوا دوراً مهماً في المدينة، عمدوا إلى التشكيك في الدين الجديد، وإثارة الشبهات، وقد نزل في ذلك آيات البقرة، ومنها: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]. ولعبوا كذلك في محاولة إحياء العداوة بين الأوس والخزرج، وإثارة الأحقاد بينهم والضغائن، وقد نزل في ذلك آيات آل عمران، ومنها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾، ولولاها لنجحت دسيستهم فيهم. وقد لعب اليهود أدواراً مهمة في إفساد تعاليم الإسلام عند الباطنية والقرامطة والإسماعيلية وأمثالهم، واشتركوا في قتل عمر وعثمان رضي الله عنهما. (المؤلف).

فريق منهم ليس للتخصيص، وإنما هو لونٌ من ألوان بلاغة القرآن في المبالغة في التحذير والوقاية.

ثم أردف الكلام بما يزيدهم تثبيتاً، وصاغه بصورة إنكار وقوعهم في شرك المضلِّين، مع توفُّر الموانع عن الوقوع، استبعاداً لذلك ومبالغةً في الإنكار، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ يبيِّن لكم ما أنزل إليكم من آيات الله التي هي روح الهداية وحفاظ الإيمان. والآية تثبيتٌ في صورة استبعاد بعد استِتْباب الأسباب، وهدىٰ وإرشادٌ إلىٰ التمسُّك بما أرسل إليهم، أي: لا ينبغي لكم أن تلتفتوا إلىٰ شُبَهِ أهل الكتاب، بل يجب أن ترجعوا عند كلِّ شبهة تسمعونها منهم إلىٰ الرسول، حتىٰ يكشف لكم ما خفي عليكم.

ثم تابع التثبيت في صورة الترغيب بعد أن سبكه علىٰ الترهيب، فقال: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ وبكتابه ويتمسَّك به ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ لا يضلُّ فيه السالك، ولا يخشىٰ عليه من المهالك، فلا تروجُ عنده الشبهات، ولا تروق في عينه التُّرَّهات.

وقيل: إنَّ الآية نزلت عندما فَتَنَ شاس اليهودي بين الأوس والخزرج، بعد مَقدَم رسول الله ﷺ عليهم، وأثار بينهم عداوتهم القديمة، وأعادها عليهم جاهلية، فتنادوا للقتال، ثم ثابوا لرُشْدهم بعدما وعظهم الرسول ﷺ، وأدركوا أنهم مفتونون[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٦: ٥٥- ٥٦)، عن زيد بن أسلم. وقال الحافظ في «الإصابة» (١: ١٥٩): إسناده مرسل، وفيه راوٍ مبهم.

فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾.

وبعد أن حذَّر المؤمنين بأنواع من التحذير وختم ذلك ببيان أنَّ الهداية إنَّما تكون بالاعتصام، أَمَرَهم به وبالتمسُّك بالإسلام والتقوىٰ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أي: احذروه كلَّ الحذر، ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ بأن تُحافظوا علىٰ ما يأمركم به الإسلام، حتىٰ الموت. وجماعُ تقوىٰ الله حقَّ التقاة: أن يراه الله حيث أمره، وأن لا يراه حيث نهاه. وقد جاءت هذه الآية في مقابلة قوله تعالىٰ: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

ثم زاد علىٰ الأمر بالإسلام والتقوىٰ الأمرَ بالتكاتف والتعاضد، والاتفاق علىٰ الحقِّ المرسل لهم، وأن لا يتفرَّقوا عن سبيله، وأن يستعينوا علىٰ ذلك بتذكُّر ماضيهم وحاضرهم؛ ليدركوا فائدته العظمىٰ، وثمرته الجُلَّىٰ، فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾، فاستعار حبل الله للقرآن، كما جاء في الحديث: «حبلُ الله هو القرآن، فمن أخذ به أمن من السقوط»[1]، أي: فتمسَّكوا به، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ

(١) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٢: ١٣٤)، عن زيد بن أرقم مرفوعاً، ورواه ابن عبد البر في «التمهيد» (٢١: ٢٧٣) موقوفاً علىٰ ابن مسعود، بلفظ: «حبل الله هو القرآن».

عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً ﴾، فجاء الإسلام ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾، وقد جعل هذا كالدليل علىٰ أنَّ الاعتصام بالقرآن يؤدِّي للاتِّفاق والاتِّحاد والتآلف والتناصر، تلك الخصال التي ينتج عنها كل خير، ويندفع بها كل ضَيْر.

وبعد أن ذكر الثمرة الدنيويَّة له ذكر الثمرةَ الأخرويَّة، فقال: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ أي: كنتم كذلك بوثنيتكم وشرككم بالله وما يتبعه من الخرافات والمفاسد التي أطفأت نور الفطرة، وهبطت بالأرواح إلىٰ درْكٍ سافل، فاستعدَّت للشقاء في دار البقاء، فأنقذكم منه بهذا الإيمان والنور والعرفان الذي أنزله إليكم علىٰ لسان نبيكم ﷺ.

ثم نوَّه بشأن هذا السِّياق، وحَسَّس بمكانة ما جاء فيه من الهداية والإرشاد، فقال تعالىٰ: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ أي: مِثْلَ هذا البيان يبيِّن الله لكم آياته، ليُعِدَّكُم ويُؤَهِّلَكم للاهتداء إلىٰ ما فيه سعادة الدارين.

ومُحَصَّل الآيات: يُصوِّر لنا موقفَ دسٍّ وتضليل وإفساد وفتنة، وقفه اليهود من المسلمين والدعوة الإسلامية، واستهدفوا به إيجاد ثغرة في صفوف المسلمين، ويبدو من صيغة الآيات وقوة تحذيرها للمسلمين وتنديدها باليهود، أنه كاد أن يكون لهذا الموقف أثرٌ غيرُ محمود لولا أن تدارك الله المسلمين بتثبيته وهدايته، وأمرهم بالاعتصام والاتفاق، مُبيِّناً لهم الفائدة الجُلَّىٰ التي تعود عليهم من ذلك.

ثم رَسَم لهم خطَّة لحفظ ذلك الاتفاق والتعاضد، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأمر بما يشمله وغيره، وأمر المؤمنين أن يكون بينهم مَنْ يرشد ضعفاء الإيمان فيهم أن لا يتأثَّروا بغَواية المضللين التي تضمَّنها السياق، فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

وقد نقل صاحب «المنار» بعد هذا ما قاله الأستاذ الإمام أثناء تدريس هذه الآية، وملخَّصه: اختلف المفسرون في قوله تعالىٰ: ﴿مِّنكُمْ﴾؛ أمعناه: بعضكم؟ أم (مِن) بيانية؟ والمعنىٰ: ولتكونوا أمة. الظاهر الثاني، علىٰ حدِّ قولهم: ليكن لي منك صديق حميم. وذلك بحكم ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، و﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، و﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، إلىٰ غير ذلك من مضامين الآيات التي تدلُّ علىٰ مثل هذا المعنىٰ.

ثم إنَّ هذه الدعوة إلىٰ الخير والأمر والنهي لها مراتب:

فالمرتبة الأولىٰ: هي دعوة هذه الأمة وسائر الأمم إلىٰ الخير، وأن يشاركوهم فيما هم عليه من النور والهدىٰ.

والمرتبة الثانية: هي دعوة المسلمين بعضهم بعضاً إلىٰ الخير، وتآمرهم فيما بينهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر.

وله طريقان:

**أحدهما**: الدعوة العامة. قال: كهذا الدرس ببيان طُرُق الخير وحكمة الدِّين إلىٰ غير ذلك من المزايا التي حواها ديننا المبين، وإنما يقوم علىٰ هذه الطريق خواصُّ الأمة العارفون.

**والطريق الثاني**: الدعوة الجزئيَّة الخاصَّة، وهي ما يكون بين الأفراد بعضِهم مع بعض، ويستوي فيه العالِم والجاهِل، كالنهي عن الشر والتحذير منه، وأمثال ذلك من التواصي بالحق والتواصي بالصبر. وإن ما نحن فيه الآن من سوء الحال هو أثر التفريط في هذا الأمر مدَّة أزمان طوال.

وجملة القول: أنَّ الدعوةَ إلىٰ الخير والأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر فَرْضٌ

حَتْمٌ علىٰ كل مسلم[١]. وإني أسأل الله سبحانه أن يجعل تفسيري هذا دعاية إلىٰ سبيله خالصاً لوجهه الكريم.

ثم قال في «المنار»: وبعد أن أمر سبحانه وتعالىٰ بأن تكون منا أمةٌ تدعو إلىٰ الخير وتأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر، وبيَّن أنَّ أولئك هم المفلحون دون سواهم، لأنهم هم الذين يقيمون الدين ويحفظون سِياجَه، وبهم تتحقَّق الوحدة المقصودة منه؛ نهانا عن التفرق والاختلاف الذي يذهب بتلك الوحدة ويتعذَّر معه القيام بتلك الدعوة الصالحة، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ وهم أهل الكتاب تفرَّقوا في الدِّين وكانوا شِيَعاً، كل شيعة تذهب مذهباً يخالف مذهب الأخرىٰ، وصار كلٌّ ينصر مذهبه ويدعو إليه ويَخطِّئُ ما سواه حتىٰ تعادَوْا واقتتلوا. فهذه الآية مُتمِّمةٌ لقوله تعالىٰ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وامتدادٌ لها.

وقال الأستاذ الإمام: إنَّ هذه الآية كالدليل علىٰ أنه يجب أن تكون وجهة الأمة الداعية الآمرة الناهية واحدة؛ لأنَّ الذين سبقوهم لم يفلحوا لعدم وحدتهم[٢].

ثم ذكر جزاءهم في الآخرة، وسببه علىٰ التوعُّد، فقال: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٥ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، وفي بيان هذا الوصف لذلك اليوم صورة شنيعة من التوعُّد والتهديد لأولئك المتفرِّقين المختلفين من بعد ما جاءتهم البيِّنات، تدلُّ علىٰ شدَّة سخطه عليهم، والتوبيخ الشنيع لهم، وتوعدهم بإدخالهم في زمرة الذين تسودُّ وجوههم. كما أن فيه ترغيباً للمؤمنين ووعداً لهم بإدخالهم في زمرة الذين تبيضُّ وجوههم. وقيل: إنَّ بياض الوجوه وسوادَها هنا من باب الحقيقة، وقيل: من باب

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ٢٤- ٢٩).

(٢) المصدر السابق (٤: ٣٨- ٣٩).

الكناية، كما يقال فيمن لم يتدنَّس بمعاب: هو أبيض الوجه، وفي عكسه: هو أسود الوجه. أو أن ابيضاضَ الوجوه عبارةٌ عن المسرَّة، واسوادادَها عبارةٌ عن المساءة والغمِّ.

ثم فصَّل مصيرَ الفريقين، فقال ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيقال لهم: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾، ويجوز أن يكون المراد بيان الشأن، لا الحكاية عن قول يقع بالفعل[1].

وقد اختلف المفسرون في المراد من قوله: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، وذكروا وجوهاً نقلها الرازي حتىٰ قال: ومنها: أن المراد: أكفرتم بعدما ظهر لكم ما يُوجب الإيمان، وهو الدلائل التي نصبها الله تعالىٰ علىٰ التوحيد والنبوة. والدليلُ علىٰ صحَّة هذا التأويل قولُه تعالىٰ فيما قبل هذه الآيات: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠]، فذمَّهم علىٰ الكفر بعد وضوح الآيات وشهودها، وقال للمؤمنين: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾. ثم قال هاهنا: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، فكان ذلك محمولاً علىٰ ما ذكرناه حتىٰ تصير هذه الآية مقرِّرةً لما قبلها. ثم قال: وقيل: هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شِيَعاً[2].

وقال صاحب «المنار» ما ملخَّصه: الكفر في عُرْفِ القرآن ليس خاصاً بما يعدُّه الفقهاء والمتكلمون كفراً، وهو جَحْد المُجمَع عليه المعلوم من الدين بالضرورة، ولكن القرآن يَعُدُّ العمل الخارج عن مقاصد الدين الحقيقية كفراً، وقد عدَّ المتفرقين في الدين كفاراً ومشركين، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ

---

(١) والأول هو الظاهر، والثاني ضعيف.

(٢) «تفسير الرازي» (٨: ٣١٩).

﴿وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١ - ٣٢]، وقال عز وجل لنبيِّه ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقد فهم السلف الصالح من الكتاب والسنة أنَّ للإيمان شُعَباً كثيرة، والاعتصامُ بالوحدة وتركُ التفرُّق والاختلافِ[١] من أعظم شُعَبه[٢].

وبعد أن ذكر مصيرَ الذين اسودَّت وجوهُهم، ذكر مصيرَ الذين ابيضَّت وجوهُهم، فجَعَل اللفَّ والنشر علىٰ غير الترتيب؛ ليكون مطلع الكلام ومقطعه في بيان حال المؤمنين وجزائهم، فقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: في نعمه وإحسانه وجنَّته.

ثم ختم السياق بما يقرِّره وينوِّه بشأنه، فقال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: لا مجال للشك فيها والشبهات، ولا للاحتمال والتأويلات، فلا عذر لمن تفرَّق فيها واختلف، ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ فيما يأمرهم به وينهاهم عنه، وإنما يريد هدايتهم إلىٰ ما تكمل به فطرتُهم، ويتمُّ به نظامُ اجتماعهم. فإذا خرجوا عن أمره وحلَّ بهم البلاء، فإنما يكونون هم الظالمين لأنفسهم بخروجهم عن الصِّراط المستقيم، وتيههم في بَيْداء الضلال البعيد.

ثم أعقب الإرشاد والموعظة والوعد والوعيد بدليل قدرته وببيان عظمته وسلطانه؛ ليحملهم علىٰ التمسُّك بما تقدَّم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (ج) من المادة الخامسة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾ فيُجازي المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته.

---

(١) أي: فيما لا يجوز فيه الاختلاف، لأنه يكون حينئذ اختلافاً مذموماً.

(٢) تفسير «المنار» (٤: ٤٤).

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

ثم استأنف الكلام بما يثبِّت المؤمنين الخُلَّص علىٰ ما هم عليه من الاتفاق علىٰ الحق، والدعوة إلىٰ الخير، والاعتصام بالله، ويُثير النخوة فيهم، فلا يُغْوَىٰ ضعفاؤُهم بمشاغبة أهل الكتاب فيتفرَّقوا مثلهم، فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، وإنما قدَّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علىٰ الإيمان بالله مع أنه مقدَّم علىٰ كل الطاعات؛ لأنهما سياج الإيمان وحفاظُه.

وفي قوله: ﴿كُنتُمْ﴾ وجهان:

**أحدهما**: أنها تامَّة لا تدلُّ علىٰ المضي، وإنما هي لمجرد الثبوت. والمعنىٰ: وُجدتم خير أمة. كأنه قال: أنتم خير أمة في الوجود الآن، لأن جميع الأمم قد غلب عليها الفساد، فلا يُعرَفُ فيها المعروف، ولا يُنكَرُ فيها المنكر، وليست علىٰ الإيمان الصحيح الذي يمنع أهله عن الشرِّ، ويصرفهم إلىٰ الخير. وأنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله إيماناً صحيحاً، يظهر أثره في العمل. وعن بعض الصحابة: أن المعنىٰ: كنتم خير الناس للناس، حيث سعيتم بعد إيمانكم في إدخالهم الإسلام؛ ذلك الدين المنجي.

**الوجه الثاني**: أنها ناقصة. والمعنىٰ: كنتم في علم الله، أو كنتم في الأمم السابقة، كما في كتبها المبشِّرة بكم.

والأَوْجَهُ عندي: أنها علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، لا تدلُّ علىٰ المضيِّ، ولكنها لتحقيق مضمون ما تدخل عليه، (كما جاء في المادة الثانية من المقدمة الرابعة)، فهي هنا لتقرير أنهم خيرُ أمة أخرجت للناس.

وقال أبو مسلم: إن هذا القول يُقالُ لمن ابيضَّت وجوههم، والمعنىٰ: كنتم فيما سبق من أيام حياتكم خيرَ أمة أخرجت للناس، بهذه الصفات التي كنتم عليها، فكان لكم هذا الجزاء الحسن. فالكلام عنده تتمَّة للآيات السابقة، وفي مقام التعليل لها.

ثم نعىٰ علىٰ أهل الكتاب أنهم لم يؤمنوا هذا الإيمان المؤدِّي إلىٰ هذه النتائج، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد والدعوة إلىٰ الرشاد، وصفاً للدواء بعد بيان الداء، فقال: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾، وفي صورة العبارة إيماءٌ إلىٰ أنهم إنما آثروا البقاء علىٰ دينهم، حباً من الرؤساء بالرياسة، ولو آمنوا نالوا الرياسة في الدنيا مع الثواب العظيم في الآخرة.

ثم بيَّن أنَّ هذا الحكم علىٰ أهل الكتاب إنما هو علىٰ أكثر أفرادهم لا جميعهم، فقال: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

ثم بيَّن ضعف كَيْدِ الفاسقين منهم، تسليةً للمؤمنين، وتثبيتاً لهم، فقال: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ أي: إنهم لا يقدرون علىٰ إيقاع الضرر بكم، ولكن يؤذونكم بالمشاغبات الفاشلة، أو: إلا ضرراً خفيفاً، ليس له كبيرُ تأثيرٍ، ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ منهزمين، ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ عليكم ما داموا علىٰ حالتهم ودُمتم علىٰ حالتكم.

ثم سجَّل عليهم الجزاء الدنيوي، وسببه علىٰ التعليل لما قبله، فقال: ﴿ضُرِبَتْ

﴿عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ ووُجِدوا، ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: إلا بعهدٍ من الله وعهدٍ من الناس في الذمَّة والأمان. وعهدُ الله: حكمُه بوفاء العهود.

ثم أومأ إلىٰ الجزاء الأخروي، بقوله: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رجعوا مُسْتوجبين له. ثم عاد إلىٰ تكميل الجزاء الدنيوي، فقال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ وهي الهوان والصغار. ثم علَّل مجموع الجزاء بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مُسبَّبٌ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، وهذا القيد لزيادة التشنيع عليهم.

ثم ذكر منشأ هذا الأمر الشنيع فيهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مُسبَّبٌ ﴿بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾، أي: جرَّأهم علىٰ ذلك ما كانوا عليه من العصيان، وما كانوا عليه من الاستمرار علىٰ الاعتداء، فتدرَّجوا إلىٰ أكبر الموبقات، وهي الكفر وقتل الأنبياء، فصار هذا خلقاً للأمة وطبعاً لها، يتوارثه الأبناء عن الآباء بلا نكير، ولهذا نُسِبَ إلىٰ متأخريهم عَملُ متقدِّميهم. ويبدو أنَّ بعض المسلمين كانوا يخشون ما لليهود من قوة مال وسلاح وعُدد وحصون، وأنَّ هذه الخشية كانت مَنْفذاً ينفذ منها اليهود إليهم في الدسِّ والكيد، فهوَّن سبحانه وتعالىٰ شأنهم، ولفت نظر المسلمين إلىٰ واقع أمرهم من الذلة والمسكنة والجبن والصغار.

﴿لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ بيان أنَّ هذا الحكم علىٰ أهل الكتاب إنما هو باعتبار أكثريتهم، وأنَّ منهم مؤمنين، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالاستثناء لتحقق الواقع، فقال:

﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ أي: ليس أهل الكتاب كلُّهم علىٰ ما ذكر لهم من قبائح الأعمال، بل كان ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ علىٰ الوجه الصحيح، ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ أي: الذين صلحت نفوسُهم، فاستقامت أحوالُهم وحَسُنت أعمالهم، وهؤلاء هم الأقلُّون الذين لم يُحرِّفوا ولم يُبدِّلوا، والذين آمنوا بمحمد ﷺ إيماناً صحيحاً، وقاموا بعبادة الله حقَّ القيام، وبتطبيق شريعته علىٰ أحسن الوجوه، فأولئك من الصالحين.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ أي: فلن يضيع ثوابه، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ وما تنطوي عليه نفوسُهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

وبعد أن ذكر مصير مَنْ آمن بهذا القرآن من أهل الكتاب، عاد وذكر مصير مَنْ أصرَّ علىٰ الكفر منهم ومن غيرهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، قال الأستاذ الإمام: إنما ذكر الأموال والأولاد؛ لأن المغرور إنما يصدُّه عن اتِّباع الحق أو النظرِ في دليله الاستغناءُ بما هو فيه من النِّعم، وأعظمُها الأموال والأولاد. فالذي يرىٰ نفسه مستغنياً بمثل ذلك، قلَّما يوجِّه نظره إلىٰ طلب الحق، أو يُصْغي إلىٰ الداعي إليه[1].

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ٦٢).

ومعنىٰ الآية: لا تدفع عنهم قوتُهم العصبيَّة والماليَّة التي يعتزُّون بها، ما سينالهم من عذاب الله.

ثم سجَّل عليهم بقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾، فلا تنفعهم أموالهم حتىٰ يفتدوا بها، ولا ينتفعون بما كانوا أنفقوه منها.

ثم مثَّل حالهم في إنفاق أموالهم التي فتنتهم فشغلتهم عن الحق أو أغرتْهم بمقاومته، فقال: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: شدَّة بَرْد، ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾، وفي قوله: ﴿ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ إيماءٌ إلىٰ أنَّ الإنسان هو الذي يولِّدُ المصائبَ لنفسه بمعاكسته لسنن الله المادية والروحية، والشرائع كلها منطبقة علىٰ السنن، والله سبحانه لا يقبل عملاً فيه مثقالُ ذرة من شرك أو رياء، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ في عدم انتفاعهم بإنفاق أموالهم، ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ بإفسادهم لطبائعهم وإخراجها إلىٰ الكفر والضلال، فأصبحت لا تنفع منها الأعمال، وبإنفاق تلك الأموال في الطرق التي تؤدِّي إلىٰ الخيبة والخسران، بحسب سنن الله في نظام الاجتماع وتعاليم الدين، وقد أنفقوا أموالاً طائلة ونفوساً عزيزة في مقاومة هذا الدين، فخابوا وخسروا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ۖ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

ثم حذَّر المؤمنين من اعتمادهم علىٰ هؤلاء، وشرح لهم حالتهم وما يضمرونه لهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾، والبطانة ـ ومثلها الوليجة ـ: هو من يتَّحد بك وحدة حال، وتثق به، وتُطلعه علىٰ أسرارك، وتعتمد عليه في الرأي والمشورة. فحذَّر الله سبحانه المؤمنين أن يعتمدوا مثل هذا الاعتماد علىٰ غيرهم.

وعلَّل ذلك بقوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي: فساداً، بمعنىٰ: لا يُقَصِّرون في فشلكم، و﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ والعَنَت: الهلاك والتلف، أي: يتطلَّعون بشوق ولهف إلىٰ تلفكم وهلاككم، ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: بفلتات لسانهم، مع الحرص والمبالغة في ضبط أنفسهم، وإخفاء ما يكتمون من بُغْضِكم، كما قال: ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾، ثم ختم البيان بما يزيد في التحذير والانتباه، فقال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾، وفي هذا الكلام مبالغةٌ في التحذير.

ثم تابع الآيات في بيان حال المؤمنين وحالهم، فقال: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ وهذا بيانٌ لأثر الإسلام في المسلمين، حيث يحبُّون أشدَّ الناس عداوة لهم، فيتألَّمون عليهم إذا أصابتهم مصيبة أو بلاء. وذلك لأن الإسلام دينُ حبٍّ ورحمة وتساهل وتسامح.

ثم عطف ما يتضمَّن التعليل لتلك المحبة، فقال: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾. والمراد من الكتاب: جنسُه، بمعنىٰ: سائر ما أنزل من الكتب، كما يقال: كثر الدرهم في أيدي الناس. والمعنىٰ: إنكم تؤمنون بجميع ما أنزل من كتاب، سواء منه ما نَزَل عليكم وما نزل عليهم، فليس في نفوسكم ما يحملكم علىٰ بغضهم. فهذه الجملة من قبيل التعليل لما قبلها. وذهب بعضهم إلىٰ أنَّ جملة ﴿وَتُؤْمِنُونَ﴾ حالٌ من قوله: ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾، فتكون للمبالغة في التأنيب.

ثم ذكر نفاقَهم وخُبثَ نواياهم نحو المسلمين، فقال: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: إذا لَقُوا المؤمنين ألانُوا لهم القولَ، مُدَاهنةً لهم، وقالوا: آمنا وصدَّقنا بما جاء به محمد ﷺ، فإذا خَلَوا فيما بينهم أظهروا ما في نفوسهم من شدَّة الغيظ نحو المسلمين. فأمره أن يُوغِرَهم ويَغُمَّهم بقوله: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾، فإنَّ الإسلام لا يزداد إلا عزَّة.

ثم ختم الآية ببيان أنَّ الله سبحانه مُطَّلع علىٰ خفايا أمورهم، وما يضمرونه في أنفسهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ فلا يخفىٰ عليه أمركم وما تُضْمرون في أنفسكم.

ثم بيَّن حَسَدَهم وسوءَ طويَّتهم تجاههم، فقال: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ﴾ حالةٌ ﴿حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ﴾ حالةٌ ﴿سَيِّئَةٌ﴾ أي: شدَّة ﴿يَفْرَحُواْ بِهَا﴾، والتعبير بالمسِّ للحسنة إشعارٌ بأنهم يسوؤهم ما يصيب المسلمين من خير وإن قَلَّ.

ثم أرشدهم سبحانه وتعالىٰ إلىٰ ما إن تمسَّكوا به سَلِموا من كَيْدهم، فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: إنْ تتحمَّلوا منهم، وتتَّقوا وتتحذَّروا من دسائسهم، ومن ذلك أن لا تتَّخذوا منهم بطانة، لا يضرُّكم ما يُدبِّرونه لكم من المكايد. ثم زاد في طمأنتهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ والمُحيطُ بالشيء واقفٌ علىٰ دقائقه وغالبٌ علىٰ أمره.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

ثم استشهد علىٰ مضمون قوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ ...﴾ بوقعة بدر وما فيها من نصر المؤمنين علىٰ قلَّتهم وذلّتهم ـ كما سيأتي ـ وذلك بما اتقوا وصبروا، واستشهد بوقعة

أُحد وما فيها من التأديب والتنبيه إلىٰ عناية الله سبحانه بهم في أحوالهم، وولاية الله لهم، فلم يضرُّهم كيدهم مع همِّ الطائفتين من المسلمين بالفشل، ثم وقوع المصيبة بهم بعد ترك الرماة الصبر والتقوىٰ، عندما أوقفهم الرسول لحماية الجبل ـ كما ستأتي الإشارة إليه بعد ـ، فقال: ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد ﴿إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ سَحَرَ يوم السبت، سابع شوال من سنة ثلاث للهجرة، ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أي: تُوَطِّنهم وتُنزلهم أماكن ومواضع في الشِّعب من أُحُد لأجل القتال فيها، منها: موضع للرماة، وموضع للفرسان، وموضع للحماية، إلىٰ غير ذلك مما يقتضيه الفنُّ الحربيُّ المسمَّىٰ بتعبئة الجيش، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾[1] لم يَخْفَ عليه شيءٌ من أقوال المشيرين عليك بالخروج إلىٰ

---

(١) خرج رسول الله ﷺ يوم أحد بألف رجل، انخذل منهم عبد الله بن أُبي ومَنْ معه من المنافقين، وكانوا ثلاثمئة، وقالوا: لو نعلم قتالاً لاتَّبعناكم. ولما رجع هؤلاء خارت عزائم طائفتين من المؤمنين وهمَّتا أن تفشلا والله ثبَّتهما بما عندهما من إيمان صادق. ولقد نصر الله المؤمنين علىٰ المشركين في أول الأمر قبل أن يترك الرماة موقعهم، فلما رأوا هذا النصر، توهَّموا أن لا حاجة بحماية الموقع، ونزلوا لجمع الغنائم، إلا عشرة منهم، فأحاط بهم العدو لقلّتهم وأفناهم، ثم أحاط بجيش المسلمين من ورائهم، فوقعت الهزيمة فيه، وانقسموا حسب درجة إيمانهم ثلاث فرق: فرقةٌ استمرت في الهزيمة حتىٰ وصلت المدينة، وفرقةٌ وقفت حَيْرىٰ تقاتل وهم أكثر الصحابة، وفرقة ثبتت مع النبي ﷺ وهم بعض الصحابة. ثم تراجعت إليه الفرقة المبتعدة لما صَرَخ أحد المشركين بأنَّ محمداً قتل، وكان ﷺ في وجه العدو يقاتل وحده، حتىٰ قال المقداد بن الأسود: والله ما زلت قدمه شبراً واحداً عن وجه العدو، وتفيء إليه طائفة من أصحابه مرة وتفترق مرة أخرىٰ.

أقول: فقد جرىٰ هذا الفشل للمؤمنين أخيراً من جراء ترك المحافظين للثغر، ولم يصبروا ويتقوا الله والرسول، حيث أمرهم أن لا يتركوا الثغر أبداً ولو رأوا النصر. (المؤلف).

وانظر قصة الرماة وغزوة أحد في «تاريخ الطبري» (٢: ٤٩٩ - ٥١٣).

لقاء المشركين في أُحد، أو المشيرين عليك بانتظارهم في المدينة، وهو يعلم نيَّة كلِّ قائل منهم، إن كان مُخلِصاً في مَشُورته أو غير مُخلِص، كعبد الله بن أُبي ومَنْ معه.

قال ابن جرير: إنَّ الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ والمراد أصحابه[1]. يضرب لهم مثلاً أو مثلين علىٰ صدق وعده الذي تضمَّنه قوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، فهو يذكِّرهم بما كان يوم بدر إذْ نصرهم علىٰ قلَّتهم وذلَّتهم لأنهم صبروا واتقوا، وبما كان يوم أحد من حفظهم من كيد المنافقين أولاً، ثم ما كان من وقوع المصيبة بهم عند ترك الرماة الصبر والتقوىٰ. ومثلُ هذا الذنب لا يكون عقاباً قاصراً علىٰ مَن اقْتَرفَه، بل يكون عامّاً.

وقد تابع الكلام عن ذلك، فقال: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ أي: تتركا المُضيَّ للقتال افْتِتاناً بكيد المنافقين الذين رجعوا من العسكر. والهمُّ: حديث النفس بالشيء. والفشل: ضعفٌ مع جبن. والطائفتان: هما بنو سَلِمة وبنو حارثة من الأنصار، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: مُتولِّي أمورهما، لصدق إيمانهما، لذلك صرف الفشل عنهما وثبَّتهما، فلم تُجيبا داعي الضعف الذي ألمَّ بهما عند رجوع المنافقين الذين كانوا زهاء ثلث العسكر، بل تذكَّرتا ولاية الله للمؤمنين، فوثقتا به وتوكَّلتا عليه، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ بعد أن يأخذوا أُهبتهم وعُدَّتهم، إقامةً لسنن الله تعالىٰ في أكوانه. فالتوكلُ غذاءٌ روحي يدفع الخوف والقلق، ويستنزل توفيق الله تعالىٰ في التبصير علىٰ ما يلزم من العمل.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ

---

(١) «تفسير الطبري» (٧: ١٥٩).

ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾.

ولما كان سَبَبَ الهم بالفشل وسوسةُ الشيطان لهم بأنهم أصبحوا ضعفاء بعد أن رجع ثلث العسكر من المنافقين، وتركهم في قلَّة، ذكَّرهم بنجاحهم علىٰ قلتهم في وقعة بدر؛ لأنهم التزموا فيها جميعهم الصبر والتقوىٰ، ولم يحدث لهم ما يخالف ذلك، كما حَدَث للرماة في وقعة أُحُد، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ سابعَ عشرَ رمضان من السنة الثانية للهجرة نصراً مُؤَزَّراً، ﴿وَأَنتُمْ﴾ حينئذٍ ﴿أَذِلَّةٌ﴾ لقلَّتكم وكثرتهم عَدَداً وعُدَداً.

ثم ألمح إلىٰ أنَّ سبب ذلك النصر هو التقوىٰ، فأمرهم بها وقال مُعرِّضاً بواقعة أُحُد: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ أي: تقومون بواجب الشكر علىٰ فَوْزكم وظَفَرِكم، فَطَوىٰ السبب وذكر المسبَّب علىٰ نهج القرآن. أو: لعلكم تنالون ما تشكرون الله عليه من مثل النصر والظفر الذي نِلْتموه بتقواكم في واقعة بدر.

وقد ذكره فقال: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ للنصر، فحقَّق سبحانه وتعالىٰ وعد نبيِّه ﷺ لهم، ووعدهم بالزيادة عليه تَقْويةً لقلوبهم، وضمَّنه الوعد بفوزهم ولكن بشرطه، وهو الصبر والتقوىٰ، فقال: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ حيث إنكم في أشدِّ الضيق منهم، وعلىٰ أكمل الاستعداد لهم والتضحية، ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾؛ من: سَوَّمَ الخيل: أرسلها، وسَوَّم علىٰ القوم: أغار عليهم ففتك بهم.

فشرط سبحانه وتعالىٰ لهذا النصر: الصبر والتقوىٰ، ولم يُحقِّقوا هذا الشرط علىٰ أكمله يوم أُحُد، حيث خالف الرماةُ أمرَ رسول الله ﷺ، فلم يتحقَّق لهم المشروط.

وقد تضمَّنت الآية: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ ...﴾ شروطاً ثلاثة؛ مردُّها: الحصول علىٰ مَلَكَة الصبر، والسَّداد في تطبيق الفنِّ الحربي الذي عُبِّر عنه بالتقوىٰ، وهجوم العدو عليهم وهم علىٰ أُهْبة هذا الاستعداد والتضحية. والله أعلم.

قال في تفسير «المنار»: إمداد الملائكة للمؤمنين إنما هو بالإلهامات الصَّالحة التي تُثَبِّتُهم وتُقَوِّي عزيمتهم(١). وقال ابن جرير في قوله تعالىٰ: ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال: ١٢]: قَوُّوا عَزْمَهم وصحِّحوا نيَّاتهم(٢).

أقول: ولا يزال المشتغلون بالحروب يتحدَّثون عن أحوالهم النفسيَّة أثناء ذلك، وأنهم أحياناً رُغْم شدَّة الموقف وحراجته يشعرون بانشراح صدر وابتهاج، كأنهم في ساعة أُنس أو حفلة عرس، ويشعرون أحياناً مع رفاه الموقف وبساطته، برُعْب شديد وانقباض يضيق علىٰ الروح. ويعبِّر أرباب الفنِّ الحربيِّ عن مثل هذا بالقوة المعنويَّة.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ أنَّ الإمداد بالملائكة ليس هو ملاك أسباب النصر، وإنما هو من جملة الأسباب المعنوية، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ لِيَسْكُنَ به رَوْعُكم، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ التي طَرَقَها الخوفُ من كثرة عدوكم واستعداده، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لايمتنع عليه شيء في تنظيم الأمور، ﴿ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ الذي يُدبِّر الأمر علىٰ خير سَنَن.

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ٩٢)، وهذا نوعٌ من إمداد الملائكة للمؤمنين، وحَصْرُ الأمر فيه خطأ، فقد ثبت أن الملائكة قاتلت يوم بدر، وفي آية سورة الأنفال: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] دلالةٌ علىٰ ذلك مع ما ورد فيه أيضاً في أخبار السيرة.

(٢) «تفسير الطبري» (٣: ٤٢٨).

ثم ذكر سبحانه الغايةَ من هذا النصر، والحكمةَ من هذا القتال، فقال: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: بالقتل والأسر، كما كان في وقعة بدر، وكذلك في وقعة أحد أول الأمر، ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أي: بالقهر والهزيمة، كما في وقعة الأحزاب. والكبت: شدَّة الغيظ، أو وهنٌ يقع في القلب؛ يكبتهم ﴿فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ منقطعي الآمال.

وقال البيضاوي: ﴿أَوْ﴾ هنا للتنويع[1]. والمعنىٰ: أنه يقطع طائفة، ويكبت طائفة، ويتوب علىٰ طائفة، ويعذِّب طائفة. فيكون قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[2] جملةً معترضةً بين المعطوف عليه والمعطوف، وهو قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾، وقد عجَّل بها علىٰ نهج القرآن في تعجيل المهم، والمعنىٰ: أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذِّبهم في الآخرة والأولىٰ إن أصرُّوا علىٰ الكفر، ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ لأنفسهم بهذا الإصرار.

ويجوز أن يكون: ﴿أَوْ يَتُوبَ﴾ وما بعدها منصوبين بـ«أنْ» مضمرة معطوفين علىٰ الأمر بعد سبكهما بالمصدر. أي: ليس لك من أمرهم شيء أو توبتهم أو تعذيبهم. ويجوز أن يكون المعطوف عليه فعلاً منصوباً مقدَّراً، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

---

(١) «تفسير البيضاوي» (٢: ٣٧).

(٢) يجوز أن تكون هذه الجملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه، جاءت مُعجِّلاً بها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، ويجوز أن تكون مستأنفة، مهَّدَ بها لبيان حالةٍ لهم أخرىٰ. وعلىٰ كلّ، فالمراد بهذه الجملة بيان سلطان الله المطلق، وحِكَمِه الخفية، ردَّ بها علىٰ حرصه ﷺ علىٰ إيمانهم، وتمنّيه لو لم يكونوا بهذه المثابة، فالآية علىٰ حدِّ أمثالها من الآيات بهذا المعنىٰ. وعلىٰ الاستئناف يكون قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إما معطوفاً علىٰ فعل مُقدَّر منصوب، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وإمّا مسبوكاً بمصدر مع «أنْ» المُضمَرة ومعطوفاً علىٰ الأمر أو الضمير المُؤوَّل، والتقدير: ليس لك من أمرهم أو توبتهم أو تعذيبهم شيء، وإنما الأمر لله، أو: وإنما أمرهم لله. (المؤلف).

وعلىٰ هذين يكون قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ جملةً مستأنفة، للإيذان بأنَّ الأنبياء بُعثوا معلِّمين لا مُسيطرين ولا مُكرهين، فإذا جاهدوا فإنما يجاهدون دفاعاً عن الحقِّ بإذن من الله، لا إكراهاً عليه. والمعنىٰ: إنك عبد مأمور بإنذارهم وبجهادهم لا غير. وهذا بيانٌ لحدود الرسالة ومداها. والله أعلم.

ثم أكَّد سبحانه وتعالىٰ هذه الحقيقة التي بيَّنها في هذا التقسيم، مقدِّماً بيان قدرته وسلطانه علىٰ ذلك، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ومَنْ كان كذلك كان حقيقاً أن يكون له الأمر كلُّه في السماوات والأرض، يتصرَّف فيه حسب حِكَمِه الخفيَّة، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: الذي آثر أسباب المغفرة، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: الذي آثر أسباب التعذيب، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدىٰ.

وقد يظنُّ مَنْ لا خبرة له بتعابير القرآن العظيم ومراميه، أنَّ في مثل هذه الآية سبيلاً للمُروق من التكاليف الدينية؛ لأنَّ أمر المغفرة موكول للمشيئة، والرجاء فيه أقرب، وهذا ضلالٌ عن فهم مقاصد الكتاب العزيز. فإنَّ مشيئة المغفرة والتعذيب جاريةٌ علىٰ سنن حكيمة مُطَّردة قاطعة، فلا يشاء سبحانه إلا تعذيبَ مَنْ يستحقُّ التعذيب والشقاء، ورحمةَ مَنْ يستحق الرحمة والهناء. إذ قد سبقت مشيئته الأزليَّة أن يُعذِّب من أفسد فطرته ودسَّاها، وهو الكافر والعاصي، وأن يرحم من حافظ علىٰ سلامته وزكَّاها، وهو المؤمن الطائع، وأن يكون للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وجاءت بذلك الأنبياء، والكتب المنزلة، فلا شيء بعد الذرَّتين، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨]. فالصلةُ بين كلٍّ من هذين الأمرين صلةٌ طبيعية وسنةٌ كونية لا تتبدَّل، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]. وإنما تأتي مثل هذه الآية في سياق بيان سلطان الله القاهر، تحذيراً وإنذاراً. والله أعلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

قال الأستاذ الإمام ما مُلخَّصه: ولما كان من مُوادَّة بعض المؤمنين لليهود، واتِّخاذهم بطانةً، أنَّ منهم مَنْ رابىٰ كما يُرابون، وكان البعض الآخر مظنَّة أن يُرابي توسُّلاً لجَلْب المال بسهولة، استطرد إلىٰ ذكر حُكم الرِّبا في هذا السياق، ناهياً للمؤمنين عن عمل آخر من شرِّ أعمال اليهود، ومن يَقْتدي بهم من المشركين، وأشدِّها ضرراً، وهو أكلُ الربا أضعافاً مضاعفة[1].

وذكر الرازي نقلاً عن القفَّال في وجه رَبْط السياق ما معناه: ولما كان ما أنفقه المشركون في هذه الوقائع الحربية من الأموال إنما كان قد جمعوه ووفَّروه من طريقة الربا، وكانت أنظار المؤمنين مظنَّة أن تتأثَّر بذلك، فيحزّ في نفوسهم ويكبتها؛ أزاح عنهم هذا الهاجس[2]. وقد سَبَك الآية علىٰ التراحم والتوادِّ والتعاون وتعليم الإنسان أنه ليس كالحيوان الذي لا تعرف الرحمة إلىٰ قلبه سبيلاً، ذاكراً سبحانه النهي عن الربا وأضراره، بعد ذكر هذه الحوادث الحربية[3]، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ١٠١).

(٢) «تفسير الرازي» (٩: ٣٦٣).

(٣) يبيّن وجه الربط بين آية الربا هاهنا وبين ما قبلها من السياق، ما سبق في سورة البقرة، أن عقَّب مباحث القتال بآيات الإنفاق، ورغَّب فيه كثيراً سداً لنفقات الحروب واحتياجاتها المالية. أما هنا فقد عقَّب مبحث القتال بالنهي عن معاطاة الربا، دفعاً لما يَرِدُ علىٰ الخاطر من أنَّ المشركين إنما قدروا أن يجمعوا هذا الجمع الحاشد في وقعة أحد، لأنَّ المرابين أرباب الأموال الطائلة من قريش شاركوا مشاركة فعَّالة في نفقة هذا الجيش، وبذلك توفقوا. فألمعت الآية إلىٰ ضرر الربا =

﴿ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾[1]، وهذا القيد لا للاحتراز، بل لزيادة التوبيخ والتشنيع، فلا مفهومَ مخالفةٍ له.

وهذا النوع من الربا هو ربا النسيئة، وهو الذي كان شائعاً في الجاهلية. وهو كما قال الإمام أحمد: أن يكون له دَيْن فيقول له: أتقضي أم تُربي؟ فإن لم يَقْض زاده في المال فزادَهُ في الأجل.

وقال ابن القيِّم: وأما ربا الفَضْل فإنما حُرِّم لسدِّ الذريعة، وما حُرِّم لسدِّ الذريعة يُباح للمصلحة الراجحة ـ هذا ظنه ـ ثم أفاض القول في حِلِّ بيع الحلي المباح بأكثر من وزنه من جنسه، وحقَّق أن للصنعة قيمةً في نفسها، ولا تتم مصلحة الناس إلا به. من «المنار» بتصرف[2].

ثم ختم سبحانه وتعالىٰ هذا النهي، بما يحمل علىٰ الامتثال في الوجه الذي ذكره، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: في أهل الحاجة والبؤس فلا تُحمِّلوهم من الدَّيْن هذه الأثقال، التي ربما تخرب بيوتهم، ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠﴾ بالتراحم والتعاون المؤدِّيَيْنِ إلىٰ التآلف والتوادّ. وتلك هي السعادة والفلاح فوق ما هنالك من سعادة الآخرة ونعيمها.

---

= المضاعف بالأحوال الاجتماعية، ولا يسوغ التشريع الصحيح أن يدفع الضرر الاجتماعي بضرر اجتماعي آخر، ولكن ينفق علىٰ الحروب من الضرائب الشرعيَّة والنفقات الخيريَّة في سبيل الله التي رغَّب بها القرآن في غير هذا الموضع. والله أعلم. (المؤلف).

(١) يقرِّر الإسلام أن لا جزاء إلا علىٰ الجهد والعمل، ولا يجوز أن يكون مجرد المال وسيلة لزيادته، ويضع حاجزاً منيعاً في طريق تضخّم الثروات علىٰ حساب حاجة الأفراد للمال، واضطرارهم لاستدانته بالربا. ويمنع أن ينال القاعدون الكسالىٰ جزاء بمجرَّد توظيف أموالهم فيضمنون الربح، وهم قاعدون، وتتضاعف ثرواتهم وتتضخَّم وتخل بالتوازن الاقتصادي والاجتماعي، علىٰ نحو ما هو مشاهد في العالم الرأسمالي المتعفِّن. (المؤلف).

(٢) تفسير «المنار» (٤: ١٠٢).

ولذلك أردفها بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ بذلك أيضاً ﴿ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١﴾ فتحرَّزوا عن متابعتهم فيما يتعاطونه من الربا وغيره. ويروىٰ عن أبي حنيفة رحمه الله أنه يقول: هذه أخوَفُ آية في القرآن، فقد أوعد الله المؤمنين بالنار المعدَّة للكافرين إن لم يتَّقُوه في اجتناب محارمه.

ثم عقَّب الوعيد بالوعد؛ ترهيباً عن المخالفة، وترغيباً في الطاعة، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ في كلِّ ما أمركم به ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ الذي يبلِّغكم أوامره ونواهيه، ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ في الدنيا بصلاح حال مجتمعكم، وفي الآخرة بحُسن الجزاء علىٰ أعمالكم، فإنَّ الراحمين يرحمهم الرحمن، كما ورد في الحديث[1].

وإيراد (لعلّ) في الموضعين للإشعار بعزَّة منال الفلاح والنجاة.

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾.

ثم أكمل الترغيب بقوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ أي: بتلك الإطاعة وامتثال هذه الأوامر واجتناب هذه النواهي ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾، وإنما خصَّ العَرْضَ بالذكر، للمبالغة في تمثيل السَّعَة؛ لأنه إذا كان هذا عرضها فما ظنُّك

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، و«الترمذي» (١٩٢٤)، بلفظ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مَن الأرض يرحمكم مَن في السماء»، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

بطولها، أو أنَّ العرض معناه السَّعة مطلقاً. وإنما السماوات والأرض في هذا الفضاء كسفينة في بحر محيط، ولا يعلم سَعَة الفضاء وما يحويه إلا الله. ثم بالغ في الدعوة إلىٰ هذه الجنَّة التي اكتفىٰ بعظم سَعَتها عن عظم شأنها، مُسجِّلاً بقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

ثم فصَّل صفات أولئك المتقين، المؤدِّية إلىٰ دخول هذه الجنة، مُسْتوفياً في ذلك مبادئ الرُّشْد والصلاح، والفوز والفلاح، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: في حال الرَّخاء والسَّعة، وحالة الضيق والعُسْرة. وقد بدأ وَصْفَ المتقين بالإنفاق؛ ليقابله بربا المرابين في الآية السابقة، ويسدَّ به ثغرته، ويقيمه مقامه. فإن الربا استغلال الغنيِّ حاجة الـمُعْوِز، والصدقة إعانة له، فهما ضدَّان، ومن أساليب القرآن أن يُردف الشيء بضدِّه تقريراً له في النفوس، (كما جاء في المادة الرابعة من المقدمة الثانية).

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾[1]، وهو أشدُّ الغضب، ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بالتجافي عن ذنب مَنْ أذنب معهم، وتَرْكِ مُؤاخذته مع القدرة عليه. وفي هذا إيماءٌ إلىٰ حُسن موقع عفوه ﷺ عن الرماة الذين خالفوا أمره في وقعة أُحُد، وعمَّن مثَّل بحمزة رضي الله عنه، ثم أسلم، وإيماءٌ إلىٰ كظم المؤمنين غيظَهم عن الرماة بعد أن سبَّبوا لهم الاندحار وشدَّة الإضرار.

ثم غيَّر الأسلوب في سَرْد صفات المتقين، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ للإيماء إلىٰ أنَّ هذه الصفات محبوبة عند الله، وأنها من أجلِّ الإحسان الذي يُحبُّه الله، واتَّصف به هؤلاء المتقون.

---

(١) الغضب من الرذائل الخلقية التي لها أسوأ الأثر في الفرد والمجتمع، فهو يفقد الرُّشد والصواب، ويجعل صاحبه وحشاً ضارياً، لا يدري ما يفعل. والانفعال الذي يثيره الغضب ضارٌّ بصحة الإنسان كما أنه ضار بمصلحته. والحِلْم يُصلح الأمرين معاً. (المؤلف).

ثم أكمل بقية صفات هؤلاء المتقين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ وهي الفعلة الشديدة القبح، ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ وظُلمُ النفس يُطلق علىٰ كلِّ ذنب. وقيل: المراد بالفاحشة: الكبيرة، وبظلم النفس: الصغيرة. فإذا فعلوا ذلك ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بتذكُّر نهيه ووعيده وعظمته وجلاله ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ بأن يلجؤوا إلىٰ الله نادمين متألِّمين طالبين منه تعالىٰ أن يغفر لهم هذه الزلَّة. وفي الكلام إيماءٌ إلىٰ الرماة الذين خالفوا أمر النبيِّ ﷺ في وقعة أُحُد، فدار علىٰ المسلمين ما دار.

ثم علَّق علىٰ ذلك بما يشعر أنهم أصابوا الهدف في هذا الذكر والاستغفار، وسلكوا الطريق المستقيم، فقال: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؟

ثم قرَّر لهم صدق الاستغفار بسَلْبِ ضدِّه، وهو الإصرار، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ أنَّ الله قد نهىٰ عنه وتوعَّد عليه. والآية هادية إلىٰ أنَّ المتَّقين لا يُصرُّون علىٰ ذنب يرتكبونه صغيراً كان أو كبيراً، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

ثم أكَّد لهم الوعد بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ هذا الجزاء العظيم.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

ثم رجع إلىٰ تكميل قصة أُحُد، علىٰ نهج القرآن في الفصل بين آيات الموضوع الواحد، بما يقتضيه السياق من الاستطراد والتعليق، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية)، وسلك في بيان بقية القصة مسلك التشجيع والتأديب، مُسْتَقْصياً سائر مواقف الوقعة، مُبيِّناً لهم أغلاطهم، ومُحلِّلاً مشاكلها بطريق المنطق الوجداني الصحيح، وناقشهم فيما كان لبعضهم من أفكار وأعمال، فقال: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ أي: إنكم إذا رجعتم إلىٰ آثار الأمم الماضية وتاريخها، تجدون أنَّ عاقبة المكذِّبين الخذلان، وإن كانوا في أثناء الصِّراع قد يُحْرزون الغَلَبة، لتمسُّكهم بأسبابها الكونيَّة، وإهمال أهل الحقِّ لتلك الأسباب في الجملة. ويجوز أن يكون المراد التنبيهَ والتَّحسيسَ بسوء عاقبة مَنْ عارض تلك السُّنن ومَنْ أهملها، فكلاهما كانت عاقبته وخيمة، وخصَّ المكذبين بمقتضىٰ السياق.

وفي الآية إرشادٌ بوقائع التاريخ وتشجيعٌ وتأديب. وَوَجْهُ التشجيع بها: هو ما تضمَّنته من الوعد بأن عاقبة هؤلاء المشركين خذلانٌ مبين، كما كانت عاقبة أمثالهم من المكذبين. ومن هذا الوجه تكون هذه الآية كالمقدمة لما يأتي، من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

أما وجه التأديب: فهو الإرشاد الضمنيُّ إلىٰ أنَّ مشيئته تعالىٰ في أمور خلقه إنما تجري علىٰ سُنَن حكيمة، وطرائق قويمة، فَمَن سار علىٰ سنَّته الكونية في الحرب مثلاً ظفر بمشيئة الله، وإن كان ملحداً أو وثنياً. ومن تنكَّبها خسر، وإن كان صدِّيقاً نبيّاً. وعلىٰ هذا يتخرَّج انهزام المسلمين في وقعة أُحُد، فما من قائد يُخالفه جندُه، ويتركون حماية الثغر الذي يؤتَون من قِبَله، ويُخلُّون بين عدوهم وبين ظهورهم، والعدو مُشْرف عليهم، إلا كان جيشه عُرضةً للانكسار، إذا كَرَّ العدو عليه وقطع له خطَّ الرجعة، وإن كان القائد نبيّاً.

ثم افتتح الموضوع بحلقة وصل، ونوَّه بشأن السياق وما فيه من وعظ وإرشاد، بقوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾[1] أي: في أن سنن الله حاكمة علىٰ رسله وأنبيائه، كما هي حاكمة علىٰ سائر خلقه. لذلك قال عليٌّ رضي الله عنه لأصحابه: إنَّ هؤلاء قد انتصروا باجتماعهم علىٰ باطلهم، وخُذِلتُم بتفرُّقكم عن حقِّكم[2]. وفي هذا دَحْضٌ لشبهة المشركين والمنافقين، إذ قالوا: لو كان محمد رسولاً لَـمَا نيل منه.

قال الأستاذ الإمام: وإنَّ إرشاد الله إيَّانا إلىٰ أنَّ له في خلقه سنناً، يوجب علينا أن نجعل هذه السننَ عِلماً من العلوم المدوَّنة، لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة علىٰ أكمل وجه. فيجب علىٰ الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يُبيِّنون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العِلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وبيَّنها العلماءُ بالتفصيل عملاً بإرشاده. والعلمُ بسنن الله تعالىٰ من أهمِّ العلوم وأنفعها، والقرآنُ يُحيل عليه في مواضع كثيرة منه، وقد دلَّنا علىٰ مَأْخذه من أحوال الأمم[3]. فقد قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨] أي: فينالهم قسطهم من تلك السنن.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

---

(١) «هُدىٰ»: مرفوع بضمة مقدرة علىٰ الألف المحذوفة لفظاً لالتقائها مع التنوين. (المؤلف).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٨٤٠٩).

(٣) تفسير «المنار» (٤: ١١٤ - ١١٥).

ثم فرَّعَ علىٰ وجه التشجيع والتثبيت الموأ إليه في الآيات السابقة قولَه تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ أي: بصدق وعد الله بنصر مَنْ ينصره، وجعل العاقبة للمتَّقين المتَّبعين لسنَّته في نظام الاجتماع، وإن عَرَض لهم بعض الفشل عندما يقع منهم تنكُّبٌ عن بعض تلك السنن خطأ، يثوبون لرُشدهم، ولا يعودون لمثل ذلك.

ثم زاد في التهوين عليهم وتسليتهم عن اندحارهم، فقال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي: إن يكن السلاح قد عمل فيكم عَمَلَه يوم أحد، فقد أصاب المشركين أيضاً مِثلَ ما أصابكم في ذلك اليوم فضلاً عن يوم بدر، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ حسب طبائع الحرب وسُننها والتمسُّك أو الإهمال لقواعدها وأصولها، ليقومَ بذلك العدل ويستقرَّ النظام، ويعلم الناظر في السنن العامة أنه لا محاباةَ في هذه المداولة، بل من تمسَّك بتلك السنن نال نتائجها الحسنة، ومن انحرف عنها أصابه سوءُ هذا الانحراف. وما ذلك إلا ليتمَّ العدل والنظام، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وقد تقدَّم بيان مثل هذه العبارة في سورة البقرة، فارجع إليه. والمعنىٰ: ليظهر علمُه في ذلك، ويتبيَّن لكم مؤمنكم من غيره، ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ وفيه وجهان:

**أحدهما**: أنه من الشهادة في القتال، ويكون في صورة التعبير تنويهٌ عظيم بشأن الشهداء في سبيل الله.

**والثاني**: من الشهادة علىٰ الناس.

والأول هو الذي يسبق إلىٰ الذِّهن في هذا المقام، فيكون هو الظاهر. وإنما سُمِّي هؤلاء المقتولون شهداء؛ لأنهم يشاهدون بعد الموت من الملكوت ونعيمِه ما لا يكون لغيرهم.

وعندما بيَّن منزلة المؤمنين، قرنها بمصير الكافرين، فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ يكنّي بذلك عمَّا لهم من العذاب المهين في مقابلة نعيم المؤمنين. وللإشعار بهذه المقابلة عبَّر عن مصيرهم هذا بعدم المحبة، إيماءً لمحبة الله تعالىٰ للمؤمنين.

ثم عطف علىٰ كلمة ﴿يَتَّخِذَ﴾ وما قبلها قولَه: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾، وتمحيصُ الذَّهَب: إظهارُ زَيْفِه من نَضَاره، وكذلك كان الأمر في أُحد، تميَّز المؤمنون الصادقون من المنافقين، وتطهَّرت نفوس بعض ضعفاء المؤمنين من كدورتها، فصارت تِبْراً خالصاً، وعلموا أنَّ سُنن الله في خلقه لا تتبدَّل لمسلم ولا لغيره، وعلىٰ المسلم أن يكون أكثر تمسُّكاً بها، ثم يتوكَّل علىٰ الله، وعلموا أنَّ الأخطاء والأضرار التي تقع في العالم الإنساني، إنما هي بالميْل عن قانون الفطرة، والانحراف عن سُنن الله في خلقه وتكوينه، ولا يستثنىٰ من ذلك نبي ولا رسول، إذ ليس لسنن الله تبديل ولا تحويل.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

وبعد أن بيَّن لهم حكمة ما أصابهم، وأنه منطبق علىٰ سننه، وفي ذلك من الهداية والإرشاد والتَّسلية ما يُربِّي المؤمن علىٰ الصفات التي ينال بها الغَلَبَ والسيادة بالحق، ووعظهم بأنه ينبغي لهم أن لا يضعفوا ولا يحزنوا إذا انغلبوا أحياناً، أو اشتدَّت عليهم الدائرة، وبعد ذلك كلِّه بيَّن لهم أن سعادة الآخرة لا تُنال أيضاً إلا بالجهاد والصبر،

فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾، والجهاد هنا بمعناه اللغوي، وهو الدفاع عن الدِّين وأهلِه، وإعلاء كلمته بسائر أنواع الدفاع الذي منها الحرب لتسهيل نشر الدعوة، ومنها: ما ابتلي به المؤمن من مدافعة الباطل ونصرة الحق، ومنها: بثُّ الفكرة الصالحة في الناس ودعوتهم إلىٰ الخير ومقاومة المقاومين في ذلك. ﴿وَلَمَّا﴾ بمعنىٰ: لم، إلا أن فيه ضرباً من التوقع. ونفيُ العلم هنا بمعنىٰ نفي وقوع المعلوم، أي: أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم يقع منكم ذلك.

ومحصَّل الآية: إنه تعالىٰ يقول للمؤمنين: أجَرَيتُم علىٰ تلك السنن؟ أتدبَّرتم تلك الحِكَم؟ أم حَسِبتُم كما يحسب أهل الغرور أن تدخلوا الجنَّة من دون أن تقوموا بالجهاد في سبيل الجهاد حقَّ القيام، ومن دون أن تتمكَّن صفة الصبر في نفوسكم تمام التمكُّن، والجنة إنما تُنال بهما، ولا سبيل إلىٰ دخولها بدونهما، فقد قال أبو مسلم في ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾: إنه نهي وقع بحرف الاستفهام الذي يأتي للتبكيت. ومن عادة العرب أن تأتي بهذا الجنس من الاستفهام للتبكيت.

أقول: والآية تتضمَّن عتاباً لضعفاء الإيمان، ممتزجاً بالتشجيع والوعد الكريم بالجزاء في جنَّات النعيم.

ثم عاتب رجالاً غابوا عن بدر، فتمنَّوا يوماً مثله يلقون فيه العدو، فيفعلون أعظم مما فعل أهل بدر، فلمَّا كان يوم أُحُد ولَّىٰ منهم مَنْ ولَّىٰ، فقال: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾، ومعنىٰ تمنِّي الموت: تمنِّي الشهادة في سبيل الله، ومَنْ تمنَّىٰ شيئاً لا ينبغي أن يُحزنه لقاؤه، ومَنْ وَصَل فيما يعتقده إلىٰ حد اليقين لا يرىٰ في سبيله مشقَّة، مهما بلغ به الجهد في الحصول عليه. وإنما جعل الخطاب عاماً مع أن بعضهم ثبت في وقعة أحد ثَبَاتَ الجبال؛ ليكون الكلام تربيةً عامة.

فهذه الآية تُنبِّه كلَّ مؤمن إلىٰ اتِّقاء الغرور بحديث النفس والتمنِّي والتَّشهِّي، حتىٰ إذا جاء دَوْرُ الفعل، زال ذلك الشعور، وتَهْديه إلىٰ امتحان النفس بالعمل الشاق، حتىٰ يأمن الدعوة الخادعة. وعلىٰ هذه الطريقة لام المسلمين عموماً علىٰ ما وقع من بعضهم، إذ بلغهم إشاعة قتل النبي ﷺ في أحد، فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ بالموت أو القتل، ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ حتىٰ قال بعض ضعفاء المسلمين: لَيْت عبد الله بن أُبي يأخذ لنا من أبي سفيان أماناً. وقال قوم من المنافقين: لو كان نبياً لما قُتِل[1]. وهكذا انقلب ضعفاء الإيمان علىٰ أعقابهم، ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾، وقد وَعَدَ بأن ينصر نبيَّه ويعزَّ دينه، ولا يحولَ دون إنجاز وعده ارتدادُ بعض الضعفاء والمنافقين علىٰ أعقابهم، ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ له نعمةَ الإسلام بثباتهم وصدقهم، حيث لم تُزلزلهم تلك الإشاعات، حتىٰ قال أنس بن النضر رضي الله عنه: يا قوم، إن كان محمد قُتل فإن ربَّ محمد لم يُقْتل، فقاتلوا علىٰ ما قُتل عليه، اللهمَّ إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثمَّ شدَّ بسيفه ولا زال يقاتل حتىٰ قُتل، بعد أن فتك بهم[2].

وقد كان لهذه الآيات وما بعدها أجمَلُ العواقب في تهذيب نفوسهم فيما بعد، فكانت عزائمهم ماضية، وهممهم عالية، فلم يهنوا ولم يضعفوا ولم يستكينوا فيما حاولوه من جسيم الأمور، ولم يتزلزلوا في الحروب وغيرها عند فَقْدِ الرؤساء.

قال الأستاذ الإمام: إنَّ كلمة ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ من قبيل المثل، تضرب لمن رجع عن الشيء بعد الإقبال عليه. والآية تهديهم وإيَّانا إلىٰ أنَّ الرسول ليس مقصوداً

---

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (١: ٤٤٩).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣)، عن أنس بن مالك.

لذاته فيبقىٰ للناس، وإنما المقصود من إرساله ما أُرسِلَ به من الهداية، فيجب العمل بها من بعده كما وجب في عهده. وتُرشدنا وإيَّاهم إلىٰ أن لا نجعل المصائب الشخصية دليلاً علىٰ كون مَنْ تُصيبُه علىٰ باطل أو حق. فإنَّ من الجائز عقلاً والواقع فعلاً أن يُبتلىٰ صاحب الحق بالمصائب والرزايا، وأن يُبتلىٰ صاحب الباطل بالنعم والعطايا، كما أنَّ عكس ذلك جائز وواقع[١].

قال في «المنار»: أقول: وفي الآية من الهداية والإرشاد أيضاً أنه لا ينبغي أن يكون استمرار الحرب وعدمُه متعلِّقاً بوجود القائد، بحيث إذا قُتل ينهزم الجيش أو يستسلم للأعداء، بل يجب أن تكون الأعمالُ والمصالحُ العامة جاريةً علىٰ نظام ثابت لا يزلزله فَقْدُ الرؤساء. وهذا ما عليه نظام الحروب والحكومات في هذا العصر. وقد كان أكثر الناس في العصور القديمة تبعاً لرؤسائهم، يحيَون لحياتهم ويُخْذَلون بموتهم، حتىٰ إنهم يَرَوْنَ أنَّ وجود الجيش العظيم بعد فَقْدِ القائد كالعدم.

إنَّ الأمة التي تَقدُر هذه الهداية قَدْرَها، تُعِدُّ لكل عِلْم تحتاج إليه ولكلِّ عمل تقوم مصالحها به رجالاً كثيرين، فلا تفقد معلماً ولا مرشداً ولا حاكماً ولا قائداً ولا رئيساً ولا زعيماً، إلا ويوجد فيها مَنْ يقوم مقامه، ويؤدِّي لها من الخدمة ما كان يؤديه سَلَفُه، فهي لا تحصر الاستعداد لشيءٍ من الأشياء في فردٍ من الأفراد، ولا تقصر القيام بأمر من الأمور علىٰ نابغ واحد من النابغين، ولا يتجرأ فيها حاكم ولا زعيم علىٰ احتكار علم من العلوم، أو عمل من الأعمال، بل تتسابق فيها الهِمَمُ إلىٰ الاستعداد لكلِّ شيء يمكن أن يصل إليه كسبُ البشر، وينال منه العامل بقدر همَّته وسعيه وتأييد التوفيق له. فأين نحن معاشر المسلمين من هذه الهداية اليوم؟[٢]

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ١٣٣).

(٢) المصدر السابق (٤: ١٣٥-١٣٦).

ثم قال: وقد قال ابن القيم: إنَّ هذه الآية كانت مقدِّمةً وإرهاصاً، بين يدي وفاة رسول الله ﷺ[١].

أقول: ولا ينافي هذا طول المدَّة فيما بينها وبين الوفاة؛ لأنَّ توطين نفس الأمم علىٰ الشيء وإعدادَها له لا يكون إلا بزمن طويل، حتىٰ يستقرَّ في الأذهان، وتنطبعَ عليه النفوس.

قال الأستاذ الإمام: ثم وبَّخ من اندهش من خبر موته ﷺ، كأنهم بسبب زلزالهم وزعزعة عقائدهم قد جعلوا موته جناية منه، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ أي: مؤقَّتاً بوقت معلوم. ولفظ (كتاب) مصدر نائب عن فعله. قال: وفي الآية معنىٰ آخر، وهو أنه ما دام محيانا ومماتنا بيد الله، فلا محلَّ للجُبْن والخوف، ولا عذر في الوهن والضعف[٢].

وقال أبو السعود: ساق الكلام مساق التمثيل، بتصوير الموت بالنسبة إلىٰ النفوس بصورة الأفعال الاختيارية التي لا يتسنَّىٰ للفاعل إيقاعها والإقدام عليها بدون إذنه تعالىٰ، مبالغةً في تحقيق الموت، وأنه لا بدَّ واقع. وفيه من التَّحريض علىٰ القتال ما لا يخفىٰ[٣].

قال الأستاذ الإمام[٤]: ثم ردَّ استدلالَ مَن استدلَّ بما حلَّ بالمسلمين علىٰ أنَّ ما هم عليه غيرُ الحقِّ، مُبيِّناً هذه الحقيقة الثابتة التي لا تَتبدَّل، فقال: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ

---

(١) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٣: ٢٠١).

(٢) تفسير «المنار» (٤: ١٣٦).

(٣) «تفسير أبي السعود» (٢: ٩٤).

(٤) تفسير «المنار» (٤: ١٣٨).

﴿ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾[1]. وقد اكتفىٰ بفعل الإرادة عن تعاطي الأسباب، علىٰ نهج القرآن في إيجازه.

ومعنىٰ الآية ـ علىٰ ما قاله الأستاذ الإمام ـ: أنَّ لنَيْل ثواب الدنيا سُنناً، ولنَيْل ثواب الآخرة سُنناً، فمن سار علىٰ سنن واحدة منها وَصَل إليها. فإذا كان المشركون قد استظهروا علىٰ المسلمين هذه المرَّة، فلأنهم طلبوا بعملهم الدنيا وأخذوا له أُهبته، وقصَّر المسلمون في اتِّباع السنن في ذلك.

ولما كان في صورة العبارة تأنيبٌ للمسلمين، سيما من شغلتهم الغنائم وتركوا الثغر، خصَّ المخلصين الذين أبْلَوْا بلاءً حسناً بهذا الوعد الكريم، فقال: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾[2] نعمةَ الله عليهم بصَرْفِ ما أعطاهم الله من القوىٰ والقدَر فيما خُلقت

---

(١) في الآية إلماع إلىٰ أمرين: الأول: أنَّ لسعادتي الدنيا والآخرة أسباباً. والثاني: أن الحرب الحقّة من جملة تلك الأسباب. أما كونها سبباً لسعادة الدنيا، فلأنها تفضي إلىٰ التغلّب علىٰ المبطلين، ونشر الحق والصلاح والطمأنينة في العالمين. وأما كونها سبباً لسعادة الآخرة، فلأنَّ الله سبحانه وَعَدَ المحاربين بما تضمَّنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

ومعنىٰ الآية: ومن يرد ثواب الدنيا وسعىٰ له سعيه نؤْته منه، ومن يُرد ثواب الآخرة وسعىٰ له سعيه نؤته منه، فتكون الآية تقريراً للمعنىٰ السابق وتعليلاً للواقع. (المؤلف).

(٢) يجوز أن يكون المراد بالشاكرين: المتمسكين بالسنن المؤدية إلىٰ ثواب الدنيا والآخرة. والمراد من الجزاء: نيلهم لذلك الثواب المترتب علىٰ تلك الأسباب. والله أعلم. والشكر: هو العمل الصالح، قال تعالىٰ: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، ويمكننا أن نقول: هو تطبيق ما جاء في ثنايا هذا القرآن من أوامر ونواهٍ في السلوك والأخلاق والعبادات، فكلها منطبقة علىٰ السنن الكونية إيجاباً وسلباً، والإيجاب يؤدي إلىٰ الحسنات والسلب يؤدي إلىٰ السيئات، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]. والله أعلم. (المؤلف).

لأجله من طاعة الله، كأنس بن النضر وأمثاله الذين صبروا في هذه الواقعة، وثبتوا مع النبيِّ ﷺ، بحفظهم قوة إرادتهم، فكانوا السبب في انجلاء المشركين عن المسلمين.

قال صاحب «صفوة العرفان» مستمداً من مثل هذه الآية: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، قال ما محصَّله: إنَّ من أحكام الله العامة العدلَ الدقيق الشامل لجميع عباده، لا فرق بين مسلم وكافر، فمن عمل صالحة للدنيا، وكان مصيباً فيها، علىٰ الوجه الذي كوّنه ووصفه سبحانه وتعالىٰ في دساتيرها، وجدها فيها. ومن عمل صالحة للأخرىٰ، وكان مُصيباً فيها علىٰ الوجه الذي بيَّنه الله سبحانه في نظامها وأحكامها، انتهىٰ إليها، وتمتَّع بثوابها، وناله الخير. ومن تنكَّب عن ذلك أو أعرض أو أهمل، حُرِمَ منها وناله الشر، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨]، ولذلك ترىٰ من الناس من يكفر بالله، وهو متمتِّع بخير الدنيا مغمور في نعيمها، وترىٰ من هو مؤمن إيماناً قوياً، ولا يكاد يجد قُوت يومه. كلُّ ذلك أثرٌ من آثار العدل الإلهي، ومن تنظيم أوضاع الدارين تنظيماً طبيعياً ثابتاً عادلاً، فإن الأول وإن كفر في عقيدته فقد أحسن في إدارة أعماله، وإتقان أسلوبها، ووزنها بالقسطاس المستقيم، فأثابه الله تعالىٰ في الدنيا علىٰ قَدْر اجتهاده وتطبيق سننه فيها. وأما الثاني فإنه وإن آمن بالله حتىٰ وصل إلىٰ مرتبة الصدِّيقين، فقد أهمل إتقان أعماله الدنيوية ووزنها بالقسطاس المستقيم، فلا يَجْني من وراء ذلك إلا العدم الفاقة، وقد قال تعالىٰ: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

هذا العدل الإلهي سَارٍ بين الأمم في مجموعها، كما هو سارٍ بين الأشخاص علىٰ انفرادها، فإنَّ الأمة الكافرة إن جدَّت واجتهدت، ونهجت نهج النظام الصحيح في

أمورها الدنيوية ووزنتها بالقسطاس المستقيم، وَصَلت من الرِّفعة والسؤدد إلىٰ أعلىٰ مقام، بنسبة إتقانها للنظام الصحيح في سنن الطبيعة من هذا الكون، ولا يمنعها الله بسبب كفرها أن تسود علىٰ أمة مؤمنة إذا كانت لا تساويها في النظام والعمل بالدساتير الكونيَّة؛ لأنَّ الله سبحانه مُنزَّه عن المحاباة، قال تعالىٰ للمؤمنين: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

وبعد أن نبَّه سبحانه وتعالىٰ في الآيات السابقة ضعفاءَ المسلمين إلىٰ مواضع أخطائهم في هذه الوقعة حتىٰ أصابهم ما أصابهم؛ أتبعه بالبيان الآتي، تقريراً لذلك التنبيه، وزيادة في التثبيت والتأديب والإرشاد، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾، (كأين) بمعنىٰ: كم الخبرية، ومعناها: أنَّ ما دخلتْ عليه كثير، والرِّبيُّون: هم الربانيون، أي: المؤمنون، ومعنىٰ الكلام: إن كثيراً من الأنبياء قاتل معهم كثير من المؤمنين، ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ قال قتادة: فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما عجزوا وما تَضَعْضَعُوا لِقَتْلِ نبيهم. وقال ابن إسحاق: فما وَهَنوا لقتل النبيِّ وما ضَعُفوا عن عدِّوهم، وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله وعن دينهم، وذلك هو الصبر، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ علىٰ مقاساة الشدائد.

ثم ذكر لـهم مظهراً من مظاهر ذلك الصبر المقرون بالضراعة إلىٰ الله تعالىٰ، وإخلاص النية في طلب التثبيت والنصر منه تعالىٰ، فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾، فهذا القول يُنبئُ عن قوة إيمانهم، وصدق إرادتهم، ومَضَاء عزيمتهم.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بالنصر والظَّفَر والسيادة في الأرض، وما يتبع ذلك من العِزّة والكرامة وحسن الأُحدوثة وشرف الذِّكر، ﴿وَ﴾ آتاهم كذلك ﴿حُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بنَيْل رضوان الله وقُربه، والنعيم في دار كرامته، بما «لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر» كما ورد في الخبر[1]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ لأنهم يقيمون سنته، ويظهرون بأعمالهم حكمته. وحبُّ الله: كناية عن مضاعفة الإحسان إليهم.

وقد اتَّفق المفسرون في أن الآيات تأديبٌ للمؤمنين، وتوبيخ لمن فرَّط منهم ما فرط، لذلك تابع السياق، بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾.

قال الأستاذ الإمام ما حاصله: الخطاب لـمن سمع قول أولئك القائلين من المنافقين: ارجعوا إلىٰ إخوانكم ودينكم[2]. وذلك عندما غُلِبَ المسلمون، وأُشيعَ أنَّ محمَّداً قُتل. وقول بعض ضعفاء الإيمان: ليت ابن أُبيّ يطلب لنا الأمان من أبي سفيان.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ: أعددتُ لعبادِيَ الصالحين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمعتْ، ولا خطر علىٰ قلب بشر....».

(٢) تفسير «المنار» (٤: ١٤٤).

والمعنىٰ: إن طلبتم الأمان من المشركين وكان حالكم معهم حالَ المغلوب مع الغالب، يَتولَّوا عليكم وتكونوا معهم أذِلَّاء مقهورين حتىٰ يردُّوكم عن دينكم، ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ للدنيا والآخرة. فلا ينبغي لكم أن تفكروا في ولاية أبي سفيان وحزبه، ولا عبد الله بن أُبيّ وشيعته، إذا أصابكم مثل هذا الابتلاء، ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ بالتوفيق لأسباب النصر، فاطلبوا المعونة منه، بعد المحافظة علىٰ الأسباب.

ثم طمأنهم بأنَّ عاقبة النصر لهم، وسَبَبَ ذلك علىٰ بيان أنَّ هؤلاء المشركين ـ وإن غلبوكم لإخلالكم بسببٍ من أسباب النصر ـ فهم مغلوبون لا مَحَالة، لشركهم الذي أفسد قلوبهم وطبيعتهم، وجعلها عُرضة لوقوع الرُّعب، فقال: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾[1]، وهذا القيد لمزيد التبكيت والمبالغة في التجهيل. ومن لم يطمئن في دينه يكن مضطرب القلب، عُرضةً للتأثُّر بخطرات الوهم وكثرة الوساوس المؤدِّية إلىٰ الفشل والاندحار، بخلاف الإيمان الحقيقي الصادق.

---

(١) هذه سُنَّة الله في خلقه؛ كلُّ معاند للحق يتظاهر بالقوة والجلد وهو ممتلئ القلب خوفاً ورعباً. وكانت رهبة الكافرين من المؤمنين عظيمة جداً، إذ يرون أنفسهم أمام قوم يبتسمون للموت، ويقبلون عليه بعزيمة صادقة، إقبالهم علىٰ ما يرغبون. وقد ظلَّ أمر المؤمنين علىٰ ذلك فكانت تفرُّ أمامهم الجيوشُ الجرَّارة، وتخرُّ من رعبهم عروشُ الجبابرة، حتىٰ غيَّروا ما بأنفسهم، فغيَّرهم الله وهانوا، إلىٰ أن أصبحوا غثاء كغثاء السيل، يتداعىٰ عليهم المستعمرون تَدَاعي الأكَلَة علىٰ قصعتها، كما جاء في الحديث. ولا يزالون كذلك حتىٰ يُغيِّروا ما بأنفسهم ويعودوا إلىٰ ما كانوا عليه في صدر الإسلام. (المؤلف).

والحديث الذي يشير إليه المؤلف رواه أحمد (٢٢٣٩٧)، وأبو داود (٤٢٩٧) عن ثوبان رضي الله عنه.

وبعد أن ذكر جزاءهم في الدنيا بالفشل ذكر جزاءهم في الآخرة، فقال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ ومستقرُّهم هذه النار التي استحقُّوها بظلمهم وكفرهم بآيات الله ومُعَانَدة الحق ومقاومة أهله.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾.

ثم ذكَّرهم سبحانه وتعالىٰ أن النصر كان قد جاءهم في مبدأ هذه الوقعة، كما وعدهم الله، ولكنه فارقهم لما فرَّطوا بسبب من أسبابه، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ وهو: نصرُ المؤمنين حتىٰ في هذه الوقعة، ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أي: تقتلون المشركين قتلاً ذريعاً، مِن: أحسَّه، إذا أبطل حسَّه، وقوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بتأييده تعالىٰ، وكان ذلك في أول الوقعة قبل الفشل.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ أي: ضعفتم في الرأي والعمل، فلم تقووا علىٰ حبس أنفسكم عن الغنيمة، ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ فقال بعضكم: ما بقاؤنا هنا وقد انهزم المشركون؟ وقال الآخرون: لا نخالف الرسول. وهكذا تنازعتم ﴿وَعَصَيْتُم﴾ رسولَكم وقائدَكم، بترك أكثر الرماة للمكان الذي أقامهم فيه يحمون ظهورهم بنَضْح المشركين بالنَّبل. وكان ذلك الفشل ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من النصر والظفر، فكان ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ كالذين تركوا مكانهم وذهبوا وراء الغنيمة، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ كالذين ثبتوا من الرماة مع أميرهم عبد الله ابن جُبير، وهم نحو عشرة، والذين ثبتوا مع النبي ﷺ، وهم ثلاثون رجلاً.

أي: صدقكم وَعْدَه ونصركم علىٰ قلَّتكم وكثرة المشركين، واستمرَّ هذا النصر إلىٰ أن فشلتم وتنازعتم، وعَصَيْتم وانحرفتم عن سنن الله في أصول الحرب، ففقدتم شرط النصر، وهو تقوىٰ الله؛ لعصيانكم لرسوله الذي أمركم أن لا تنفكُّوا من هذا الثغر في الجبل، فعندئذ لم تبقوا مستحقِّين لهذه العناية، لمخالفتكم لسُننه في استحقاق النصر الذي وعد به أهل الثبات والصبر، فقد نصركم قبل تفريطكم بأسباب النصر.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ بعد التفريط؛ ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي: صَرَفكم عنهم بفشلكم ليمتحنكم، ويَميْز الصادق من غيره، والضعيف الإيمان والقوي الإيمان، ليعدّكم للنصر الكامل، والظفر الشامل في المستقبل.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ بعد ذلك التمحيص الذي مَحَا أثر الذنب من نفوسكم، حتىٰ ظهر أثرُ هذا العفو في وقعة حمراء الأسد، ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ فلا يَذَرُهم علىٰ ما هم عليه من ضعف يُلِمُّ ببعضهم، أو تقصير يهبط بنفوس غير الراسخين منهم، حتىٰ يَبْتليَ ما في قلوبهم، ويُمَحِّص ما في صدورهم، فيكونون من المُخْلِصين.

ولقد كانت غزوةُ أُحُد درساً نافعاً للمسلمين في حروبهم، وبهذا الاعتبار كانت نصراً في معناها، وإن كانت هزيمةً في صورتها واندحاراً.

ثم فصَّل صورةَ صَرْفِهم وانصرافهم، فقال: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ من ساحة الحرب، أي: تذهبون منهزمين، ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي: لا تلتفتون إلىٰ مَنْ وراءكم بنجْدة، لشدَّة دهشتكم، ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾: إليَّ عبادَ الله، إليَّ عبادَ الله، أنا رسولُ الله، من يكرُّ فله الجنة.

وبعد أن بيَّن حالتهم الفعليَّة، بيَّن حالتهم النفسيَّة، وقال: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ أي: فَجازاكم الله غماً، بسبب الغمِّ الذي أصاب الرسول من فشلكم وهزيمتكم. أو غماً مُتَّصلاً بغمّ، حيث نال العدوُّ منكم ونلتم من أنفسكم، إذ صِرتُم من الدهشة يَضْرِبُ بعضُكم بعضاً، وفاتتكم الغنيمة التي طمعتم فيها. وعلىٰ الأول تكون الباء للبدل، وعلىٰ الثاني للإلصاق.

وإنما أدَّبكم الله بهذا التأديب، تدريباً لكم، ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من غنيمة ﴿وَلَا﴾ علىٰ ﴿مَآ أَصَابَكُمْ﴾ من قروح أو مصيبة، أي: ليكون ذلك خُلقاً لكم، فإنَّ التربية إنما تكون بالعمل والتمرين الذي به يكمل الإيمان وترسخ الأخلاق. وهذا محصول آخرُ من محصولات الواقعة، وهو الهداية إلىٰ أنَّ الحياة الدنيا تكون سِجَالاً؛ يوماً لك ويوماً عليك، فعلىٰ الإنسان أن يُوَطِّد نفسه لذلك، ولا يظن أنَّ الخير لا شرَّ بعده، أو الشرَّ لا خيرَ بعده.

ومُلخّص المعنىٰ: لكي تتمرَّنوا علىٰ تجرُّع الغموم، وتَتَعوَّدوا علىٰ احتمال الشدائد. واستفاد المسلمون من هذه الغزوة أخلاقاً عاليةً، فأصبحوا أكثر طاعة للرسول الكريم، وأشدَّ تماسكاً اجتماعياً، فحققوا الانتصارات المتتالية، فطهَّروا الجزيرة من الرجس والأوثان.

وقال في «الكشاف»: ويجوز أن يكون الضمير في ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾ للرسول، أي: آساكم في الاغتمام، فكما غمَّكم ما نزل به من كسر الرَّباعية والشجَّة وغيرهما، غمَّه ما نزل بكم. يعني: فأثابكم غمّاً اغتمَّه لأجلكم، بسبب غمٍّ اغتَمَمتُموه لأجله، ولم يُثَرِّبكم علىٰ عصيانكم ومخالفتكم لأمره. وإنما فعل ذلك لِيُسَلِّيكم وينفِّس عنكم، لئلا تحزنوا علىٰ ما فاتكم من نصر الله، ولا علىٰ ما أصابكم من غَلَبة العدو[1].

ثم ذيَّل الكلام بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣﴾ أي: فلا تعتذروا عن أنفسكم ولا تخادعوها، فإنَّ الخبيرَ بأعمالكم المحيطَ بنفوسكم، لا يخفىٰ عليه من أمركم خافية، وإنما المعمول علىٰ علمه وخبرته، لا علىٰ أعذاركم.

وتلخيص الحادث: هو أنه لما دارت معركةُ أحد كان النصرُ في بدئها للمسلمين، وكادوا يكسبون المعركة، وقد كان فريقٌ من المسلمين قد أُمروا أن يكونوا في موقف دفاعيٍّ خاصٍّ، فلما رأوا النصر كاد يتم للمسلمين، اقترح بعضُهم تَرْكَ المكان واللحاق بالجيش لمشاركتهم بالغنائم خشية أن تُؤْخَذَ من دونهم، وخالف في ذلك البعض الآخر مفضِّلين التزام ما أمرهم به النبي ﷺ، من الوقوف في ذلك الموقف، ففارق المقترحون المكان، فجاءت فرقةٌ من العدو واحتَلَّت ذلك المكان، ثم قطعت خطَّ الرجعة علىٰ جيش المسلمين، فاختلَّ التدبير الحربي، ولم يلبث الموقف أن تغيَّر، وانقلبت الحرب علىٰ المسلمين، ودبَّ الذُّعر فيهم، وانهزموا صاعدين من المعركة مغمومين، ولكنَّ النبيَّ ﷺ ظلَّ ثابتاً في الميدان يدعُو الناس إليه، وقد استجاب له فريق من المُخْلصين وأمكن بذلك تلافي الموقف في الجملة.

وقد تابع البيان عن تفاصيل الوقعة، فقال: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً

---

(١) «الكشاف» (١: ٤٢٧ - ٤٢٨).

نُعَاسًا﴾[1]، أي: اطمئناناً في القلوب أعقبه نوم، ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ وهم أقوياء الإيمان بالله وبالنصر.

وقد اتَّفق المفسرون وأهل السيرة علىٰ أنَّ المؤمنين قد أصابهم يومَ أُحُد شيءٌ من الضعف والوهن، لما أصابهم من الفشل والعصيان، وقَتْل طائفة من كبارهم وشجعانهم، فكانوا بعد انتهاء الوقعة قسمين:

قسم منهم ذكروا ما أصابهم فعرفوا أنه كان بتقصير من بعضهم، وذكروا الله ووَعْدَه بنصر المؤمنين، فاستغفروا لذنوبهم، ووَثِقوا بوعد ربِّهم، وعلموا أنهم إن كان غُلبوا في هذه المرَّة، فإنَّ الله سينصرهم في غيرها، حيث إنَّهم لا يعودون إلىٰ مثل ما وقع منهم فيها من عصيان قائدهم ورسولهم، فأنزل الله عليهم النُّعاس أمنةً، فاستردُّوا ما فقدوا من القوة. هذا هو القسم الأعظم.

وأمَّا القسمُ الثاني، وهم طائفة ضعفاء الإيمان، يخالطهم المنافقون؛ فكانت تتقاذفهم الأفكار، وعجبوا مما وقع، كأنه مُنافٍ لحقيَّة الدِّين وصحَّته، لاعتقادهم أنَّ النصر وحقيَّة الدِّين متلازمان، وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾، فنُلام إنْ وَلّينا أو غُلبنا، إذ كان الله لا يريد أن ينصر محمداً. ولم ينتبهوا إلىٰ أنَّ الخير من الله والشر من الإنسان[2]، كما جاء في القرآن. فأمر سبحانه نبيَّه ﷺ أن يردَّ عليهم بما يُرشدهم إلىٰ أنَّ الأمور كلَّها ترجع إلىٰ الله فيما وضع لها من أنظمة وأسباب، فمن تعاطىٰ الأسباب

---

(١) يجوز أن يكون ﴿أَمَنَةً﴾ مصدراً مفعولاً به، و﴿نُعَاسًا﴾ بدلاً منه، أو أحدُهما مفعولاً والآخر حالاً منه، أو حالاً من المخاطبين مؤولاً بالمشتق. ويجوز أن يكون ﴿أَمَنَةً﴾ جمعاً كـ«بَرَرة»، فلا يحتاج إلىٰ التأويل. (المؤلف).

(٢) أي: منه كَسْباً وسبباً، وإن كان من الله تقديراً وإرادةً وخَلْقاً.

علىٰ الوجه الصحيح في الأمر الذي يريده ناله، وإلا فهو خائب لا محالة، وإن كان النبيَّ وأصحابَه، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ لا أمر النصر وحده، أي: إنَّ كل ما يجري فهو بحسب سُننه تعالىٰ في خَلقه ونظامه الذي ربط فيه الأسباب بالمسبَّبات، ومنه نصر مَنْ ينصره من المؤمنين، إلا أن سوءُ التصرُّف بتلك الأسباب، هو الذي يؤدِّي إلىٰ الضرر والفشل والخذلان.

ثم أتىٰ بهذه الجملة الحالية المبيِّنة لأمرهم، والمؤكِّدة لمضمون ما قبلها، والمتمِّمة له مع التفصيل والتَّحرير، فقال: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ أي: إن هذه خواطرُ وهواجسُ شَغَلتْ نفوسَهم، ولكن لا يُظْهرونها لك.

ثم أعاد البيان عن تلك الخواطر مرة أخرىٰ بصُورةٍ أوضح، وأجابهم عنها فقال: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي: لو كان أمرُ النصر والظفر في أيدينا ـ كما يَعِدُنا به محمد ـ لما وَقَع فينا القتل، أو لو أنه سمع مشُورتنا بعدم الخروج لما كان ما كان، وذلك لأنَّ المنافقين وضعاف الإيمان كانوا قد أشاروا عليه بأن يُحاصروا في المدينة، ولا يخرجوا لمقابلة جيش المشركين في أحد، فأخذوا يُقرِّرُون رأيهم ويستدلون عليه بما وقع لهم، غافلين عن تحديد الآجال. فأمر سبحانه نبيَّه ﷺ أن يُنبِّههم إلىٰ ما غفلوا عنه، ويُرشدهم إليه، فقال: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: لو كنتم وادعينَ في بيوتكم في سلْمٍ وأمان، لَخَرَجَ من بينكم مَن انتهت آجالهم إلىٰ حيث يقتلون، إذا علم الله أنَّ آجالهم ستنتهي بالقتل في هذا المكان. أي: فإنما كان ما كان لمجيء آجال مَن قُتِلَ منكم.

﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: ولأجل أن يمتحنَ الله نفوسَكم فيظهرَ لكم ما انطَوَتْ عليه من ضعف أو قوَّة في الإيمان،

ويُطهِّرها من الضعف حتىٰ تصل إلىٰ الدرجات العُلىٰ من الإيقان، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ فلا يَخْفىٰ عليه شيءٌ من أمركم، وإنما يمتحنكم ليُظْهِرَ أمرَكُم لأنفسكم فلا تنخدعوا بالشعور العارض لها، كما انخدع الذين تمنَّوا الموتَ من قبل أن يَلْقوه، فلمَّا لَقُوهُ ضعفوا.

فاشتمل الجواب علىٰ وجهين: الأول: أنَّ الآجال محدودة، فإذا دَنَا الأجل لا يمنع منه شيء أبداً. والثاني: التمحيص، وهو أن يتبيَّن للجماعة وزن قوتها، بانكشاف حال الضعفاء ومرضىٰ القلوب والمؤمنين حقاً، لأنَّ ذلك مما يخفىٰ أمره لديهم، حتىٰ تظهره الشدائدُ، وربما يخفىٰ الضعف حتىٰ علىٰ صاحبه.

ثم تابع البيان عن أحوال وقعة أُحُد بإعلان العفو عن المنهزمين ضمن توبيخهم وتأنيبهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ من أعمالٍ طَبَعَتْهم علىٰ الطمع أو حِرْصٍ خُلقي فيهم رغم صلاحهم وإخلاصهم في الدين، فإنهم ما زلُّوا وانحرفوا عن مكانهم وتركوها إلا مُترخِّصين في ذلك، إذ ظنُّوا أنه ليس للمشركين رجعةٌ من هزيمتهم، فلا يترتَّب علىٰ ذهابهم وراء الغنيمة ضَرَرٌ. وكان هذا الترخُّصُ والتأويلُ للنهي الصريح عن التَّحوُّل وتركِ المكان سبباً لكلِّ ما جرىٰ من المصائب.

ومعنىٰ (اسْتَزَلَّ): حَمَلهم علىٰ الزلَّة. وقيل في معنىٰ الآية: إنَّ الكلام يشمل الـمُصْعِدين والمنهزمين، ولا سيما التَّعبير بالتولِّي أيضاً، وأنَّ بعض ما كسبوا من قبل هو الذي أحدث الضعف في نفوسهم حتىٰ أَعْدَتْها إلىٰ ما وقع منها.

﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ لا يُعاجل بعقوبة المذنب، ليتوبَ ويُصلِحَ نفسَه ويغفر له.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

ثم قال في «المنار»: ولما بيَّن سبحانه وتعالىٰ للمؤمنين أنَّ هزيمةَ من تولَّىٰ منهم يوم أُحُد كانت بوساوس من الشيطان، اسْتَزَلَّهم بها فزلُّوا، أراد أن يُحذِّرهم من مثل تلك الوساوس التي أفسد الشيطان بها قلوب الكافرين[1].

وأقول: إنه عاد إلىٰ قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾، علىٰ نهج القرآن في العَوْدة إلىٰ المهمّ زيادةً في تقريره، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾، والمراد من الذين كفروا: المنافقون، كعبد الله بن أُبي وأصحابه. ومعنىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ قالوا في شأن إخوانهم إذا ضربوا في الأرض. والمراد: إخوانهم في النسب والقرابة، وقيل: بل هم الذين يبعثهم النبيُّ ﷺ في مهمَّة فيلقون حَتْفهم. ومعنىٰ: ﴿ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: سافروا. و﴿غُزًّى﴾ جمع غازٍ، وهو المقاتل في الحرب.

ومُلَخَّص الكلام: لا تكونوا كهولاء الذين قالوا فيمن ماتوا ما قالوا؛ لأنَّ لكلِّ نفس أجلاً لا تَتَعدَّاه، وهم إنما يقولون ذلك إثارةً لشجون أهل الشهداء، وتثبيطاً عن الجهاد في سبيل الله. فهذا إعادةُ بيانٍ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وزاد عليه بياناً بأنَّ مثل هذا الفكر والقول لا ينبغي أن يصدر من مؤمن، وإنما يصدر من الكفار.

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ١٥٩).

﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ يزيدهم ضعفاً، ويُورِّثهم فشلاً، ﴿وَٱللَّهُ﴾ هو الذي ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، فلا تجري الحياة والموت بغير أمر الله وفي أجله وسببه.

ثم ختم الآية بما فيه تحذير للمؤمنين أن يماثلوهم، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ فاعملوا ما يُرضي الله ولا تهابُوا الموت، ولا تجعلوا فيكم مَوْضعاً لوساوس الشيطان، وقد أُثر عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه قال عند موته: ما فِيَّ موضِعُ شِبْرٍ إلا وفيه ضَرْبَةُ سيف أو طعنةُ رمح، وها أنا أموت علىٰ فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعينُ الجبناء[1].

ثم لفت نظرهم إلىٰ ما في القتل والموت في سبيل الله من السعادة الأخرويَّة الدائمة، فقال: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ يعني: الكَفَرة وما يجمعونه من منافع الدنيا وطيِّباتها، لأنَّ حظوظ الدنيا لذَّة مؤقَّتة ضئيلة، بخلاف حظوظ الآخرة ولذَّاتها الدائمة الجليلة.

ثم قَرَنَ الترغيبَ بالترهيب، علىٰ نَهْج القرآن، فقال: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾. والمراد من الموت والقتل في هذه الفقرة: ما هو أعمُّ مما في الفقرة التي قبلها المختصَّةِ في سبيل الله والحرب. ولذلك قدَّم في الأولىٰ القتل علىٰ الموت لكثرته في الحروب. وقدَّم في الثانية الموت علىٰ القتل، لأنه أكثر ملائمة للحالة الطبيعية والواقع في غير الحروب.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾.

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (١٦: ٢٧٣)، وذكر في «الاستيعاب» لابن عبد البر (٢: ٤٣٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١: ٣٨٢): «العير». بدل «البعير».

ثم لفت الخطاب إلىٰ النبي ﷺ، مُنوِّهاً بعَفْوه عن خطئهم هذا ولطفه بهم، وسَبَك الكلام علىٰ إرشاده إلىٰ أن يديم معهم مِثلَ هذا اللطف والعفو عند الزلل، لأنه من أداة الرياسة، ومن مُوجبات الطاعة والائتلاف. وأمره أن يُشاورَهم في الأمر الذي يريده ويتداولَ به مع أُولي الشأن منهم، ليكونوا علىٰ بصيرةٍ فيه حتىٰ لا يخالفه مخالف، ثم يعزم عليهم بإنجازه، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وهي أنْ خَصَّك بمكارم الأخلاق ولِيْن الجانب والرفق واللطف، إلىٰ غير ذلك من عظائم الصِّفات التي أوْدَعَها اللهُ فيك، بنتيجة إنزال القرآن عليك وتَخَلُّقِكَ به، ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ وعَفَوْتَ عنهم وعاملتَهم بالرفق واللطف، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ ولم يأتلفوا بك ويسكنوا إليك.

ثم قرَّر القاعدةَ العامَّة في الإرشاد المُسْتَنْتَجَة من هذا البيان، فقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يَتعلَّق بحقوقك، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما يتعلَّق بحقوق الله، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[1] أي: لِيَقِفُوا علىٰ سِرِّ ما نُكلِّفهم به، أو: لا تُعْرِض عن مَشُورتهم بسبب أنهم أخطؤوا هذه المرَّة، ودَاوِمْ عليها في الأمر الذي يعرض لك في الحروب استظهاراً بآرائهم، وتطييباً لقلوبهم، وتبصيراً لهم.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ علىٰ أمر عَقِبَ هذه المشاورة واطمأنَّت به نفسك، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾

---

(١) للرسول ﷺ جانبان: جانب المبلِّغ عن ربِّه، وهذا لا رأي لأحد في منصوصه، ولا تَدخُلُ فيه المشاورة، بل يجب فيه الاتِّباع بمنصوصه. وجانب الإمامة والقيادة العامة للمسلمين في تنظيم شؤونهم، وطاعته في ذلك واجبة أيضاً، وقد أمره سبحانه في هذا الجانب أن يشاور أمته قبل أن يُصدر أمره في الموضوع، ثم ما يصدر عن أمر أو نهي يجب علىٰ المسلمين اتباعه أو اجتنابه.
وفي المشاورة والمداولة تكشيف لوجوه النظر للنتائج والعواقب، وحينئذٍ يتمسَّكون به عن بصيرة وعرفان، ولا يهملونه بتأويل وساوس وتوضيح شيطان، كما فعل هؤلاء الرماة، وهم يجهلون عواقب ما يفعلون. (المؤلف).

في إمْضَاء ذلك الأمر، فهو الذي يُرْشِدُك ويُصْلِحُ شأنَك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ عليه تعالىٰ بعد مُعَاطاة الأسباب، فيُرشدُهم ويُوفِّقهم إلىٰ ما فيه خَيْرُهم وصلاحُ شأنهم وترويجُ أمورهم.

والآية تُبيِّن أنَّ التوكُّلَ يكون بعد تَعَاطي الأسباب وأخذ الأُهْبة، فهو غذاءٌ روحيٌّ، يدفع القلقَ والخوف. وكذلك تُبيِّن ما يجب أن يكون عليه الرئيس من قُوَّةٍ في لين، وهذه هي صفة المؤمن الصادق الإيمان.

وخلاصة المعنىٰ: أنه قد كان من أصحابك في هذه الوقعة ما كان مما يُؤَاخَذون عليه، فلِنْتَ لهم وعاملتَهم بالحُسْنَىٰ بهذه الرحمة العظيمة التي خصَّك الله بها، وجَعَل القرآن مُمدّاً لها، بما هداك إليه من الآداب العالية، والحِكَم السامية التي هوَّنت عليك المصائب، وعَلَّمتك منافعها وحِكَمَها وحُسْن عواقبها للمُعْتبر بها، فلا تُؤاخِذْهُم إذا أخطؤوا، ودُمْ علىٰ المشاورة معهم، وواظب عليها وإن أخطؤوا الرأي فيها، فإنَّ الخير كلَّ الخير في تربيتهم علىٰ المشاورة، فإذا استخلصتَ لك رأياً وعَزَمْتَ بعد ذلك، فتوكَّل علىٰ الله وامْضِ في الأمر، فإنَّ الله تعالىٰ يُعينُك ويُصْلح شأنك.

وفي الآية إيماءٌ إلىٰ وجوب إمْضاء العزيمة متىٰ استكملت شروطها التي من أهمها المشورة. وسرُّ ذلك: أنَّ نقض العزائم خَوَرٌ في النفس وضَعْفٌ في الأخلاق، يجعل صاحبَه غيرَ موثوق به في قول أو فعل، لا سيما إذا كان رئيساً لحكومة أو قائدَ جيش. ومن ثَمَّ لم يُصْغ النبي ﷺ إلىٰ مَشُورة مَنْ رَجَع عن رأيه الأول، وهو الخروج إلىٰ أُحد حين لبس ﷺ لَأْمَتَهُ[1] وخرج؛ إذ رأىٰ أنَّ هذا شروع في العمل بعد أن أخَذَ الشورىٰ في الجملة. والرئيس إذا شَرَع في العمل تنفيذاً للشورىٰ وملخَّصِها، لا يجوز

(١) اللأْمَةُ: الدِّرع. «لسان العرب» (لأم).

أن ينقض عزيمتَه ويُبطِلَ عملَه، ولو كان يرىٰ أنَّ أهل الشورىٰ أخطؤوا الرأي والتدبير، كما حَدَث في مسألة أحد. ولا يزال أهل السياسة والحروب في البلاد ذات الحضارة والمدنيَّة يَجْرون علىٰ هذه القاعدة ويجعلونها دستوراً لأعمالهم، ونظريةً من نظريات الفن.

وعلىٰ كلٍّ، فالله سبحانه يريد أن تكون سياسة المسلمين قائمة علىٰ مبدأ الشورىٰ مهما كانت نتيجتها، وأن لا يَسْتبدَّ فردٌ أو أفرادٌ في أمرهم؛ لأنه إذا كانت الشورىٰ واجبة علىٰ رسول الله ﷺ الذي يمتاز بكماله العقليِّ والروحيِّ واتِّصاله بالوحي الإلهي، فهي علىٰ غيره أوجب.

أما طريقة هذه الشورىٰ فقد وكلها القرآن إلىٰ أهل الزمان، ويجوز أن تكون بصورة المجالس النيابية الآن، أو اللجان، والله أعلم.

﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

ثم استأنف الكلام لبيان وجوب التوكّل علىٰ الله بعد المشاورة والعزيمة المبنيَّة علىٰ أَخْذ الأُهبة والاستعداد بما يُستطاع من حَوْل وقوة، فقال: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ لسبب العمل بسننه وما يكون لكم من القوة والثبات بالاتِّكال علىٰ توفيقه ومعونته، ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ﴾ بما كسبت أيديكم من الفشل بسبب معاكسة الدساتير

الطبيعيَّة، كعصيان القائد في اتِّباع الخطَّة التي رسمها وشبه ذلك، ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ إذ مَنْ ذا الذي يقدر أن يُغيِّر سُنَنَ الله الكونيَّة، ويَجْري بها علىٰ خلاف مَجْراها الطبيعي.

ثم بيَّن شأن المؤمنين الصَّادقين، وأخْرَج البيان مَخْرج الأمر، فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾، وقد عُلم من فحوىٰ الآيات ومضامينها أنَّ التوكُّل إنما يكون مع الأخْذ بالأسباب، ومنها: الشورىٰ، لتقليب وجوه العمل واختيار أصلحها وأسدِّها. وأنَّ تركَ الأسباب بدعوىٰ التوكُّل إنما هو جَهْل بالشرع، أو فساد في العقل. فالتوكل محلُّه القلب، والعملُ بالأسباب محلُّه الأعضاءُ والجوارح.

وقد كان لهذه الآيات التي في هذا السياق تهذيبٌ عظيمٌ في نفوس الصحابة وتابعيهم، ظهر أثره في حروبهم وفتوحاتهم وأنواع إداراتهم وسياساتهم، حتىٰ كانت ولا تزال موضعاً للإعجاب في علوِّ الهمم ومضاء العزائم وجلائل الأعمال.

ثم تابع الكلام عن أحوال وقعة أُحُد، مُومِئاً إلىٰ ما أضمره الذين تركوا المركز الذي وضعهم النبيُّ ﷺ فيه، وسبكه علىٰ بيان حكم يتَّصل به من أحكام الحرب، وهو حكم أخْذِ شيء من الغنيمة قبل القسمة، ونزّل خواطرهم في أمر الغنيمة منزلة مَنْ يظنُّ ذلك بالنبيِّ ﷺ، وقرَّر ذلك بقاعدة عامة، علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ﴾.

الأصل في الغل: الأخذُ بخُفْية، كالسرقة، وغلب في السرقة من الغنيمة قبل القسمة. واستعملت الكلمة هنا بمعنىٰ أوسع علىٰ طريقة المبالغة في التعبير والتَّبشيع فيه. ولذلك استُعمِلَ نفيُ الشأن لأنه أبلغ في النفي. فقد روىٰ مقاتل وغيره: أنَّ الرماة قالوا حين تركوا المركز الذي وضعهم النبي ﷺ فيه: نخشىٰ أن يقول النبي ﷺ: مَنْ

أخذ شيئاً فهو له، وأن لا يقسم الغنائم. وقال لهم النبي ﷺ بطريقة المبالغة في الردِّ والتشنيع: أظننتُم أنّا نغلُّ ولا نقسم لكم[1].

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ليفتضح به، ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ في ثواب أو عقاب.

ثم رتَّب على ذكر هذا الجزاء العام هذا التَّنويعَ والتفريق، مُلْمِعاً بُعْدَ ما بين خُلُق الأنبياء وخُلق أمثال الغالّين، وأنهم بعيدون عن ذلك، لا سيما ذلك النبي الذي منَّ به على المؤمنين، فقال: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما يرضي الله ﴿كَمَنۢ﴾ أغضبه حتىٰ ﴿بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾ ذلك المأوىٰ الذي يأوي إليه، والمنتهىٰ الذي ينتهي إليه.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ لكلٍّ من هذين الصنفين درجات، فقال: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أن كلاً ممَّن يتَّبعون رِضْوانَ الله ومَن يَبُوءون بسَخَطه ذوو درجات متفاوتة، لأنها أثرٌ طبيعيٌّ لمقدار ارتقاء الأرواح أو تَدَنِّيها بالأعمال الصالحة أو السيئة، إذ قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسَّاها، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ فلا يُظلَمون شيئاً إنْ أحسنوا أو أساؤوا.

ثم أردف السياق المشتمل على شأن الرسول ﷺ معهم ورحمته بهم، ببيان منَّته تعالىٰ على الناس بإرسال هذا النبي الكريم المتَّصف بهذه الصفات العالية، والساهر على مصالحهم وتربيتهم وتخليصهم من العقائد الزائفة، وضمَّنه الرد على وهمهم، فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: عربياً من جنسهم، فذلك ممَّا يدعُو إلىٰ أن يَظنُّوا به خيراً، وإلىٰ أن يكونوا أول المؤمنين به، وإنْ أُرسل

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٩: ٤٠٢).

رحمةً عامّةً، وللناس كافّة، ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من العقائد الزائفة وما يتبعها من الأفكار الفاسدة، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: جنس الكتاب السماوي وما فيه من الحكمة، أو القرآن والسنَّة وما ينبعث عنهما من تعلّم أسرار الأحكام وفقهها، والمصلحة فيها، والطريق إلىٰ العمل بها، ومعرفة الحقائق ببراهينها، ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ يعبدون الأصنام، ويتَّبعون الأوهام، أُميِّين لا يقرؤون ولا يكتبون فيعرفوا حقيقة جهالتهم وبَشَاعة ضلالهم. فضَلالُهم أبْيَنُ من ضلال أهل الكتاب.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

وبعد تبرئة الرسول ﷺ وبيان ما بُعِثَ لأجله، عادَ الكلام إلىٰ كشف الشبهات التي عرضت للغزاة في واقعة أُحُد، والرد علىٰ المنافقين، وبيان ضلالهم في أقوالهم وأفعالهم، فقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ يومَ أُحُد بقتل سبعين منكم، ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ في ذلك اليوم أوَّل الأمر من قبل أن ترك الرماة مركزهم، حتىٰ قَتَلَ حمزة رضي الله عنه وحده نحوَ الثلاثين. ويوم بدر دوَّختموهم بقتلكم سبعين من المشركين وأَسْر سبعين، ولما أصابتكم مصيبة أُحُد ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾؟ تعجبون ممَّا حلَّ بكم، وأنتم مؤمنون، وفيكم رسول الله! لا تعجبوا، إنَّ ذلك إنما جاءكم من معاكستكم لِسُنَن

الكون في الأنظمة الحربيَّة. فوجود الرسول بينكم لا يحميكم مما تَقْتَضيه معاكسة هذه السنن الكونيَّة.

قال الأستاذ الإمام[1]: الكلام إنكارٌ لِتَعَجُّبهم، وبيانٌ لمنَّة الله تعالىٰ عليهم في واقعة أُحُد، فإنَّ خِذلانهم فيها لم يبلغ خِذلان المشركين في بدر، علىٰ قلَّة المسلمين. كأنه يقول: لماذا نسيتم فَضْلَ الله عليكم في بدر فلم تذكروه، وأخذتم تعجبون مما أصابكم في أحد؟ فالإمام يجعل الميقات بين بدر وأحد.

وبعد أن بيَّن لهم ذلك، أمر نبيَّه ﷺ أن يُقَرِّعهم بأنَّ ما نالهم إنما جاء من جهتهم، بمعاكستهم للدساتير الطبيعية والأنظمة الحربية، فقال: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: بتـرككم الموضع الذي وضعكم الرسول فيه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ لا يُعجزه تنفيذ سُننه بعقاب المسيء وإثابة المُحْسن، وإقامة العدل والنظام العام في الكائنات، بربط الأسباب بالمسبَّبات، فلا يشذّ عن ذلك مؤمنٌ ولا كافر، ولا بَرٌّ ولا فاجر.

ويجوز أن تكون هذه الفاصلةُ احتراساً عمَّا يَرِدُ من سوء الفهم، تفيد أنَّ إصابتهم بهذه المصيبة لم تكن عن عَجْز في قُدرة الله لنصرهم، فهو علىٰ كلِّ شيء قدير، ولكنّها جاريةٌ حَسَب سنن الله الكونيَّة، ولا تبديل في سنن الله ولا مُحاباة.

وقد أومأ إلىٰ هذا المعنىٰ بقوله الآتي: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بمقتضىٰ سننه الكونية.

وقال الأستاذ الإمام ما محصَّله: وبناء علىٰ كون وَجْهِ تعجُّبهم هو وجودَ الرسول ﷺ فيهم، أومأ إلىٰ أنَّ الرسول ﷺ لا ينفع أمةً قد خالفت السنن والطبائع، فلا تغترُّوا بوجودكم معه مع المخالفة لله وله، فهو لا يحميكم مـمَّا تقْتضيه سُننُ الله فيكم، فقال

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا عجزاً في القدرة ولا قهراً للإرادة، وإنما هو بإرادة الله الأزليَّة وقضائه السابق، بأن تكون السُّنن العامَّة في الأسباب والمسبَّبات مُطَّردة ـ لا يُستثنىٰ منها نبيٌّ ولا رسول[1] ـ فكلُّ جندي يخطئ الرأي، ويعصي القائد، ويخلِّي بين العدو وبين ظهره، يُصَاب بمثل ما أُصبتم، أو بما هو أشد منه[2]. فإنما كان ذلك لإجراء السنن العامة فيكم ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾، وقد تقدَّم الكلام علىٰ معنىٰ عِلْم الله في مثل هذه الآية من سورة البقرة، فارجع إليه. والمراد: ليظهر علمه في ذلك ويتبيَّن لكم مؤمنكم من غيره. وإنما لم يقل: المنافقين، كما قال: المؤمنين؛ لأنَّ النفاق لم يكن صفة ثابتة لهم كثبوت إيمان المؤمنين، فإن منهم من تاب بعد ذلك.

ثم ذكر صورةً من نفاقهم بطريقة عطف التفسير، فقال: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ عن وطنكم وأهليكم، ﴿قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا ٱتَّبَعْنَـٰكُمْ﴾ ولكننا نرىٰ أنَّ الأمر ينتهي بغير قتال. وهؤلاء عبد الله بن أُبي وأتباعه، ثلاثمئة رجل من المنافقين، انْعَزلوا عنه ﷺ قبل أن يَصِلُوا أُحداً وعادوا إلىٰ المدينة تَخْذيلاً للمسلمين، مُتَعلِّلين بقولهم: لو نعلمُ قتالاً لاتَّبعناكم[3]. ويجوز أن يكون مرادهم بهذا القول: لو نُحْسِنُ قتالاً لاتَّبعناكم. يَتَندَّرون ويستهزئون ويُرَاوِغُونَ بذلك، دَغَلاً وإغاظةً للمؤمنين، فَسَجَّل عليهم سبحانه بقوله: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾ وليسوا في

---

(١) بل ثبت استثناء الرسل والأنبياء من بعض الأسباب والسنن في عدة وقائع، فظهرت علىٰ أيديهم المعجزات، وخَرَقَ الله لهم العادات، لكن حكمة الله تعالىٰ في وقعة أُحُد اقتضت أن لا يخرق عادته، بل يجريها علىٰ ما هي عليه، تأنيباً وتأديباً.

(٢) تفسير «المنار» (٤: ١٨٥ - ١٨٦).

(٣) انظر: «سيرة ابن هشام» (٢: ٦٤).

الوسط وبين بين، لظهور صفته فيهم، وانطباق آيته عليهم، فهم ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ مراوغةً ونفاقاً، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ من الكيد للمسلمين، وإيقاع الفشل فيهم، وتخذيلهم، وتربُّص الدوائر بهم.

قال الأستاذ الإمام ما معناه: «إنما قال: هم أقرب إلىٰ الكفر، ولم يقل: إنهم كفار، إرشاداً لنا أن لا نتهجَّم علىٰ الكفر بالعلامات والقرائن، ولكن نقول به مع الاحتراس والتَّخمين»[1].

وبعد أن ذكر من نفاقهم تَقاعُدَهم عن نُصْرة رسول الله ﷺ، واحتجاجَهم لذلك بما فَضَح نفاقهم وما يُضْمرون من الكفر، ذَكَر من نفاقهم أيضاً ما هو أشنع من ذلك، وهو تَـثْبيطهم لغيرهم ودَعْواهم لضعفاء الإيمـان أن يقعدوا عن الحرب كما قعدوا، وتأنيبهم لـمن قتل منهم، بأنهم لو أطاعوهم في القعود ما قُتلوا، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ أي: في إخوانـهم ﴿وَقَعَدُوا۟﴾ عن الحرب: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ في القعود ﴿مَا قُتِلُوا۟﴾، وغرضُ المنافقين من هذا التأنيب: الدسُّ لإثارة شُجون أهل الشهداء في وقعة أحد، التي كان فيها آلام مُرَّة علىٰ المسلمين، فهم يهيّجون عليهم تلك الآلام ويُؤَجِّجونها بقولهم: لو أطاعونا وتخلَّفوا كما تخلَّفنا ما قُتِلوا. فدَحَض الله حُجَّتهم بقوله: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ أي: لو كان لكم رأيٌ صائب في دَرْء الموت عن غيركم، لَـدَرأتم به عن أنفسكم إذا جاء أجلكم، إن كنتم صادقين، أو: إن كنتم صادقين في دَعْواكم أنهم لو قعدوا ما قُتلوا.

ومُؤَدَّىٰ هذا الرد: أنَّ عدم قتلكم إنما كان لبُعْد أجلكم، وليس كل مَنْ يُحارب يموت، ولا كلُّ من لا يُحارب يَسلم من الموت. وكثير ممَّن لاقوا الحروب يَعجَبُ من

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ١٨٧).

كثرة الوقائع التي يَسلَمُ فيها المخاطرون ويهلك الحَذِرون، وإن كثيراً منهم يصابون إصابات قوية ولا يموتون، وإن كثيرين يخرجون من الـمَعْمَعَة سالمين، ولا يلبثون بعدها أن يموتوا حَتْفَ أنوفهم، كما يموت كثير من القاعدين عن القتال. فما كلُّ مقاتل يموت، ولا كلُّ قاعد عن الحرب يسلم.

ولقد روي عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه قال عندما حضرته الوفاة: لقد شهدت مئة زحف أو زهاءه، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربةٌ بسيف أو طعنةٌ برمح، وها أنا أموت علىٰ فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعينُ الجبناء[1].

والآية تُنْبِئُ عن خُبْث هؤلاء المنافقين، فإنهم لم يكتفوا في وقعة أُحُد بتَخَلُّفهم، بل حاولوا حَمْلَ غيرهم عليه من المخلصين الذين كانت تربطهم بهم روابط القُرْبىٰ والعصبيَّة، ولكنهم لم يسمعوا لهم. وفي صورة التعبير لمحةُ التَّحدِّي بطريقة التـندُّر والـهُزْء.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾.

---

(١) سلف تخريجه ص٥٦٤.

وبعد أن شنَّع عليهم نفاقَهم وتخلُّفَهم عن القتال، ذكر جلالة شأن مَنْ يُقْتل في سبيل الله، وأنهم يتمنَّون أن يلحق بهم إخوانهم لِـمَا هم فيه من الفضل العميم والنعيم المقيم، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾[1]، وفي هذا تأنيبٌ للمنافقين القائلين: لو أطاعونا ما قُتلوا. فيقول تعالىٰ: إنَّ من قُتلوا في سبيل الله ليسوا محزونين علىٰ قتلهم بل مسرورون، وليسوا بأموات ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ أي: في عالَم جليل غير هذا العالَم، ولكرامته وشرفه أضافه تعالىٰ إلىٰ نفسه. فهذه العنديَّة عنديَّةُ شرف وكرامة، لا مكان ومسافة.

فالآية ردٌّ آخر لقولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾، ومُحصَّلُه: أنَّ الشهادة لا يؤنَّب عليها من تَـصَدَّىٰ لها، لأنها ربحٌ عظيم، وليست بخسران كما تتوهَّمون. والمعتمد عند الأستاذ الإمام في هذه الحياة: أنها حياة غيبيَّة لا نبحث عن حقيقتها، ولا نزيد فيها علىٰ ما جاء به خبر الوحي شيئاً، ونُفوِّض الأمر فيها إلىٰ الله تعالىٰ، ولكن نعلم أنها تمتاز بها أرواح الشهداء علىٰ أرواح سائر الناس.

أقول: وقد جاء في الأثر[2] بطريقة التمثيل[3] عن تلك الحياة: أن أرواح الشهداء

---

(١) انظر: قصَّة ثابت بن قيس (٥: ٢١٦). (المؤلف).

يعني: في سورة الحج، آية ٧ وما بعدها. ورقم الجزء والصفحة المذكور إنما هو بحسب الطبعة الأولىٰ للكتاب.

(٢) رواه مسلم (١٨٨٧)، عن ابن مسعود مرفوعاً بلفظ: «... أرواحهم في جوف طير خُضْر، لها قناديلُ معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثمَّ تأوي إلىٰ تلك القناديل، فاطَّلع إليهم ربُّهم اطِّلاعة، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أيَّ شيء نشتهي؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يُسألوا، قالوا: يا رب، نريد أن تردَّ أرواحنا في أجسادنا حتىٰ نُقتلَ في سبيلك مرة أخرىٰ، فلما رأىٰ أنْ ليس لهم حاجةٌ تُركوا».

(٣) كان الأجدر بالمؤلف رحمه الله أن يبقىٰ سائراً علىٰ ما قرَّره قبل سطرين من تفويض المعنىٰ إلىٰ =

في أجواف طير خُضْر، تَرِدُ أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلىٰ قناديل من ذهب مُعلَّقة في ظل العرش. قالوا: وذلك لتنال لذة كاملة بواسطة الجسم، فوق اللذة الروحيَّة؛ لأنَّ الإحساس بواسطة الأجسام يكون أقوىٰ منه في الأرواح المجرَّدة. ولذلك يعيد سبحانه الجسم إلىٰ الروح يوم القيامة. والله أعلم. وكلُّ ما جاء في الأحاديث عن العالم الأخروي جاء بطريقة التَّمثيل[1]؛ لأنَّ التصريح لا يفي بذلك، ويمتنع عن الذهن إدراك الحقيقة، إذ لا مجانسة بينه وبين العالم الدنيوي، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يشبه ما في الآخرة ما في الدنيا إلا بالاسم[2].

ثم تابع البيان عنهم، فقال: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: مسرورين بما أعطاهم الله من فَضْله زيادةً علىٰ ذلك الرزق، ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ قال الأستاذ الإمام: إنما قال: ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾، للدلالة علىٰ أنهم وراءهم، ويَقْتفون أثَرَهُم، ويَحْذُونَ حَذْوَهُم قَدَماً بقَدَم. فهو قَيْدٌ فيه الخبرُ والحثُّ والترغيبُ والمدحُ والبشارة، وهو من البلاغة بالمكان الذي لا يُطَاوَل. والمعنىٰ: يتوقَّعون أن يبشَّروا في وقت قريب بقدومهم عليهم مقتولين في سبيل الله كما قُتلوا، مُسْتَحقِّين من الفَضْل

---

= الله تعالىٰ، فكما أن حياة الشهداء ثابتة من غير خوض منا في حقيقتها وكيفيتها، فكذلك ما ورد في هذا الأثر نُثبته من غير خوض في حقيقته، ولا نقول: إنه تمثيل.

(١) في هذا الإطلاق نظر، فإن أراد إجراء الألفاظ علىٰ معانيها المتبادرة منها، مع العلم بأن المعاني علىٰ وجه وكيفية غير التي هي عليه في الدنيا، فصحيح. وإن أراد أنها لا تُجرىٰ علىٰ هذه المعاني، وإنما هي تمثيل عن سعادة أو لذة أو قضاء شهوة أو نحو ذلك، فغير صحيح، ولعل تتمة كلام المؤلف تُشعِر بالمعنىٰ الأول الصحيح، والمعنىٰ الثاني هو مسلك الفلاسفة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١: ٣٩١- ٣٩٢) بلفظ: ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء.

الإلـهيِّ مثل ما أُوتوا[١]. واختار الزجَّاج[٢] وأبو مسلم: إنَّ الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم هم إخوانهم الذين لا يُحصِّلون فضيلة الشهادة، فلا ينالون مثل درجتهم[٣]، وقوله: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ بَـدَلُ اشتمال من ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم﴾، أي: يَسْتَبْشِرونَ بهم من حيث إنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ويجوز أن يكون المعنىٰ: يُسرُّون ويفرحون بحال الذين لم يلحقوا بهم من إخوانهم عندما علموا أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ثم تابع البيان عن أحوال الشهداء، فقال: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي: يتوقَّعون علىٰ الدوام تَجدُّد نِعَمِ الله عليهم وفَضْله، أو يُسرُّون ويفرحون بذلك. وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ ـ بفتح أنّ ـ عطفٌ علىٰ «فَضْل»، مُنْتَظِمٌ معه في سِلْكِ الْمُسْتَبْشَر به. والمعنىٰ: يَسْتَبْشرون بنعمة الله وفَضْله وكونه لا يضيع أجر المؤمنين. وقرأ الكسائي بكسر «إنّ»[٤]، فتكون الجملة تذييلاً مؤيِّداً لمعنىٰ ما قبلها.

والتعبير عنهم بالمؤمنين، للإيذانِ بسمُوِّ رتبة الإيمان، وكونه مناطاً لما نالوه.

ثم ذكر هؤلاء الذين لم يلحقوا بهم، فوصفهم بما فيه مزيد كرامة لهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾، وهم إخوان أولئك الشهداء الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم. دعاهم الرسول ﷺ إلىٰ اتِّباع أبي سفيان وجيشه في

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ١٩٣).

(٢) هو أبو اسحاق إبراهيم بن محمد بن السري، (٢٤١- ٣١١هـ) عالم بالنحو واللغة، بل كان نحويَّ زمانه، له: «معاني القرآن»، و«الاشتقاق»، و«الأمالي». «سير أعلام النبلاء» (١٤: ٣٦٠)، و«الأعلام» للزركلي (١: ٤٠).

(٣) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١: ٤٨٩).

(٤) «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص٢١٩).

حمراء الأسد، فاستجابوا لله وللرسول علىٰ ما بهم من القروح البالغة التي أصابتهم في أُحد، حتىٰ أنهكت قواهم[١].

ويجوز أن يكون قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ...﴾ مبتدأ أو بدلاً من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ خبر علىٰ الأول، و﴿مِّنْ﴾ للبيان، والمقصود من الجمع بين الوصفين: المدح والتعليل، لا التقييد؛ لأن المستجيبين كلَّهم محسنون ومُتَّقون. وهو استئناف علىٰ الثاني، و﴿مِّنْ﴾ للتبعيض؛ لأن من المؤمنين الصادقين من لم يخرج معه إلىٰ حمراء الأسد[٢]، لموانع في أنفسهم وأهليهم. فهم الذين لا يضيع الله أجرَهُم، ولكنهم لا يستحقون الأجر العظيم الذي استحقَّه الذين خرجوا معه وهم مُثْقَلون بالجراح، ومُرْهَقُون من الإعياء، إلىٰ استئناف قتال أضعافهم من الأقوياء.

ثم بيَّن سبحانه ناحيةً أخرىٰ من عِظَم نواحي تلك الاستجابة الصادقة، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾، وهذا الموصول بَدَلٌ من ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ...﴾.

والمعنىٰ: إنَّ المثبِّطين أخذوا يقولون: إنَّ قريشاً قد تجمَّعوا لقتالكم فلا تخرجوا إليهم، ﴿فَزَادَهُمْ﴾ قولُ المثبِّطين ﴿إِيمَٰنًا﴾ وثقةً بالله، ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾. وقد خذل الله المشركين، فعادوا إلىٰ مكة ولم يحاربوا.

ولما وصل المسلمون إلىٰ حمراء الأسد لم يجدوا أحداً، وكُفُوا شرَّ أعدائهم ﴿وَٱتَّبَعُوا۟

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (٢: ١٢٠).

(٢) سيأتي تخريجه قريباً ص٥٨٠.

﴿رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾، فإن كان قد أكرمهم بذلك في الدنيا، فقد يُعطيهم ما هو أعظم وأكرم في العُقْبىٰ. وفي هذا إيلامٌ للمُتَخلِّفين وإظهارٌ لخَطَل رأيهم حيث حَرَمُوا أنفسهم ممَّا فاز به هؤلاء.

وقال بعض المفسِّرين: إنَّ الذين قال لهم الناس: هم أهل بدر الصُّغرىٰ، لا أهل حمراء الأسد، وإنما هم الذين استجابوا لله. وكانت بدر الصُّغرىٰ سنة أربع للهجرة، أي: بعد أُحد بسنة، وعَدَهم فيها أبو سفيان، ولما حضرها المسلمون حسب الوعد لم يجدوا فيها أحداً من المشركين وكُفُوا شرَّ أعدائِهم، كما كان الحال في حمراء الأسد.

ثم أدَّب المؤمنين عموماً بأن لا يهتمُّوا بتخويف المبطِّئين، ولا يخافوا كثرة المشركين، فقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ﴾ الناسَ ﴿أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ المشركين، ويُهوِّل أمرهم في أعينها بوسوسته، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ وهذا الوصل لإثارة الشعور بالإيمان، حَمْلاً لهم علىٰ التَّمسُّك بهذا البيان. والمراد: تذكُّر قدرة الله العظيمة والاعتماد عليه. فـ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ولا يزال العالم إلىٰ اليوم يشاهد من الجيوش الإسلامية شجاعة فائقة، مع ما مُنِيَ به المسلمون من ضعف في العقيدة والإيمان، وجهل بكثير من شؤون دينهم.

وقد أرشدتنا الآية إلىٰ أنَّ في استطاعة الإنسان أن يقاومَ أسبابَ الخوف، ويُعوِّد نفسه الاستهانة بها، وذلك بالتربية والتَّمرُّن والتعوُّد علىٰ الإقدام.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ

لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾.

ثم التفت إلىٰ النبيِّ ﷺ، فخاطبه بما فيه، تسليةً له عمَّا سَاءَهُ من مُعَاوَدَة المشركين للقتال في حمراء الأسد[1]، علىٰ إثْر وقْعة أُحد، ومن مَشَاغَبة المنافقين وقولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾، فقال: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي: في نُصْرته، وهم اليهود والمنافقون يُسَارعون في نُصْرة المشركين ويشاغبون، ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ فعلَّق نفيَ الضَّرر به تعالىٰ، لتشريف النبيِّ والمؤمنين، وللإيذان بأنَّ مُضَارَّتهم بمنزلة مُضَارَّتِه سبحانه وتعالىٰ. وفيه مزيدُ مبالغة في التَّسلية وتلميحٌ إلىٰ العناية بهم.

ثم أردف الكلام بما يدلُّ علىٰ أنهم يضرُّون بذلك أنفسَهم، فقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: إنهم بصنيعهم هذا أصبحوا علىٰ حالة من فساد الفطرة تقتضي حرمانهم من نعيم الآخرة، بسنَّةِ الله وإرادته، ﴿وَلَهُمْ﴾ فوق ذلك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾.

ثم عقَّب هذا الحكمَ الخاصَّ بهؤلاء الكَفَرَة بحكمٍ عامٍّ يشمل الكفرة عموماً، للإيذان بأن هذا الفشل ليس خاصّاً بهؤلاء المسارعين، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾، يُعرِّض بابن أُبيّ وأصحابه المُخَذِّلين المشاغبين. وفي صورة التعبير بشرائهم الكفرَ بالإيمان تلميحٌ إلىٰ سخافة عقولهم، وإيماءٌ لعَمَىٰ بصيرتهم، فلا يخاف منهم ولا من مكايدهم وتدبيرهم، لأنَّها ناتجة عن عقل سخيفٍ وبصيرةٍ عمياء وجهالة جهلاء.

---

(١) انظر قصة حمراء الأسد في «السنن الكبرىٰ» للنسائي (١١٠١٧).

ثم عاد إلىٰ تهوين أمر غَلَبة الكفار للمسلمين في أُحد، علىٰ سُنَّة القرآن في العودة إلىٰ الشيء المرَّة بعد المرَّة؛ مبالغةً في تقريره، إذ كان من الأمور التي يراد تقريرها في النفوس، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾، ومحصَّل الآية: أنَّ الخير ليس في الإمهال للإنسان ليعمل بحسب استعداده وميوله ما يشاء، فإنَّ هذه سنة الله في جميع البشر، وإنما الخيرَ في الإمْلاء وطُول العمر، مع العمل الصالح.

قال في «المنار» نقلاً عن الأستاذ الإمام: بيَّن الله سبحانه لنا بمضمون هذه الآية سنة حكيمة من سننه في الاجتماع البشري، وهي أنَّ الإنسان يبلغ الخيرَ بعمله الحسن، ويقع في الضَّيْر بتقصيره في العمل الصالح، وتشميرِه في عمل السيئات. والعبرةُ بالخواتيم، فكأنه قال: إنَّ هذا الإملاء للكافرين ليس عنايةً من الله بهم، وإنما هو جَرْيٌ علىٰ سُننه في الخلق، وهي أن يكون ما يُصيب الإنسان من خيرٍ وشرٍّ هو ثمرة عمله. ومن مقتضىٰ هذه السنة العادلة: أن يكون الإملاء للكافر علَّة لغروره، وسبباً لاسترساله في فجوره، فيوقعه ذلك في الإثم الذي يترتَّب عليه العذاب المهين[1].

أقول: وعليك أن ترجع إلىٰ (القاعدة الثامنة عشرة من المقدمة الثانية) لتزداد وقوفاً علىٰ معنىٰ مثل هذه الآية؛ مما يوهم ظاهرُه أنَّ الله تعالىٰ يكيد للكافرين ليوقعهم في الضلال، وليس كذلك، وإنما هو تقرير لسنَّة الله الكونية، كما ذكره الإمام، وهي أنَّ مَنْ تمادىٰ في الضلال يسترسل به ولا تنفعه المواعظ.

وفي الآية من مواضع العبرة أنَّ من شأن الكافر أن يزدادَ كفراً بطول العمر،

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ٢٠٥).

والتَّمكُّن من العمل في ذلك. ويقابله المؤمن الدائب، كلما طال عمره كَثُرت حسناته وازدادت خَيْراته، كما جاء في الحديث[١].

ثم عاد إلىٰ بيان الحكمة في وقعة أحد، وأنها لتمحيص الخبيث من الطيِّب علىٰ نهج القرآن، حيث يعودُ في كل عطفة من عطفات البحث إلىٰ الشيء الذي يريد أن يبحث عنه بإشباع، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ لتعرفَ الجماعة ما فيها من دَخَل زائف، فتَتَّقي ضَرَرَه وتعرف وزن قوَّتها الحقيقية، ويعرفَ ضعيف الإيمان مَوْضعَ الضعف منه؛ لأنَّ ذلك مما يَخْفَىٰ علىٰ صاحبه، حتىٰ تظهره الشدائد.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ أي: لم يكن من شأنه تعالىٰ وسُنَّته في خلقه أن يُطلعكم علىٰ الغيب، حتىٰ يطلعكم علىٰ ما أراد من حِكَم أو ما فيكم من دخل؛ لأنَّ طبيعتكم لا تلائِم الاطِّلاع علىٰ الغيب، فلا تقدرون أن تتعرَّفوا دخائل النفوس إلا بهذه الطريقة. وفي هذه إشارةٌ إلىٰ أنَّ تلك الابتلاءات ممَّا تَقْتضيها الحكمة التي لا يُمكنكم أن تعلموها. فما كان الله لِيُطْلِعَكُم علىٰ الغيب، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فيُطْلعكم بواسطتهم علىٰ ما تحتاجون إليه من الغيب في أمور دينكم ودنياكم، فعليكم أن تتَّبعوا شريعةَ رسولكم وسُنَّته وتوجيهاته، فهي علىٰ مُقْتضىٰ ما غاب عنكم من الحِكَم التي لا تعلمونها، ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ فهم الذين يهدونكم للصراط المستقيم والدِّين القويم.

---

(١) روىٰ الترمذي في «سننه» (٢٣٣٠)، وأحمد في «مسنده» (٢٠٤١٥) عن أبي بكرة أن رجلًا قال: يا رسول الله، أيُّ الناس خيرٌ؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله»، قال: فأيُّ الناس شرٌ؟ قال: «من طال عمره وساء عمله». وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

ثم ختم الكلام ببيان أنَّ الإيمان بما جاء به الرسل والعمل بمقتضاه، فيه ـ فوق المصالح الدنيوية والحِكَم الربَّانية ـ السعادةُ الأخرويَّة والثوابُ العظيم، فقال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾.

ولما كانت واقعةُ أُحُد أشدَّ واقعة أحسَّ المسلمون فيها بألم القلب؛ لأنهم لم يكونوا يتوقَّعون مثل ذلك بعد رؤيتهم بوادر النصر في واقعة بدر، كانت عناية الله سبحانه وتعالىٰ ببيان فوائد المسلمين فيها عظيمة جداً كما رأيت.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾.

وبعد أن أنهىٰ الكلام عن واقعة أُحُد وما تخلَّلها من التعليق والتحليل للأغلاط والمشكلات والشُّبهات، تحقيقاً لإثبات أنَّ الصبر والتقوىٰ والتَّوقِّي من مخالفة السنن الكونية حافظةٌ من كلِّ كَيْد ومن كلِّ سوء، وبيَّن أنَّ ما أصابهم في أُحد إنما هو من عند أنفسهم، جاء من مخالفة السنة الحربية، وهي ترك الموضع الحربي الذي وضعهم فيه

رسول الله ﷺ، وألقىٰ التَّبِعَةَ عليهم، وحقَّق مصداق قوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

فبعد أن أشبع الكلام في هذه المناقشة، وأوقفهم علىٰ أغلاطهم، وحلَّ لهم مشكلاتهم وشُبهاتهم، ولم يَبْق لهم شيءٌ من ذلك، عَادَ إلىٰ بيان حال اليهود، وهو محور الكلام الأصلي، وابتدأ الكلام بهذا الحكم العام المتضمِّن للتعريض بضُعفاء الإيمان، وللتحريض علىٰ بذل المال في الجهاد، إثر التحريض علىٰ بذل النفس فيه، في الآيات المتقدِّمة، علىٰ نهج القرآن في مثله، ليكون حلقة وصْل، وسجَّل الوعيد الشديد لمن يبخل ببذل المال في سبيل الله، فقال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ من إنفاقه. ولا يخفىٰ ما في صلة الموصول من الزيادة في التأنيب والتقريع.

ثم نصَّ علىٰ ما فُهِمَ ضمناً من أنَّ ذلك البخل شرٌّ لهم، للمبالغة فيه، علىٰ نَهْج القرآن في مثل ذلك، وهو إرداف الشيء بضدِّه وإردافُ النفي والإثبات أو العكس تقريراً للمعنىٰ، فقال: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾.

ثم بيَّن بعض ذلك الشر بقوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، والتطويق: إما من الطاقة بمعنىٰ التكليف، أي: سيكلَّفون ذلك في الآخرة، فلا يجدون إليه سبيلاً. كقوله تعالىٰ: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢]، وإما من الطوق، أي: سيجعل ما بَخِلوا به طَوْقاً في أعناقهم، فلا يجدون عنه مَصْرفاً. وكلاهما بمعنىٰ: إنهم سيحملون تَبِعة ما بَخِلوا به.

ثم بيَّن سخافة نظرهم في البخل، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: إنَّ ما يتوارثه الناس من آثارهما، من مال وغيره، ماديّاتٍ أو معنوياتٍ، كلُّه لله، ويعود لله، فَمَا لَهم يبخلون عليه بما أعطاهم من فضْله، ولا ينفقونه في سبيله. أو المعنىٰ: إنه يرث

منهم ما يُـمْسكونه ولا ينفقونه في سبيله تعالىٰ عند هلاكهم، وتبقىٰ عليهم الحسْرة والندامة.

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾، فيَجْزي كلَّ عامل بما عمل.

ثم عاد إلىٰ سياق أهل الكتاب وأردف الكلام بذكر شناعة اليهود، فقال: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾، وذلك أنهم لما طُلب إليهم أن يبذلوا شيئاً من أموالهم وسمعوا قوله تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قالوا تهكُّماً بالقرآن، علىٰ وجْه الطعن والعيب والتعنُّت والتخطئة: أتزعم أنَّ الله يستقرض منا؟ وما استقرض منا إلا لفقره وغنانا! يتندَّرون بذلك. فتوعَّدهم سبحانه وتعالىٰ علىٰ ذلك أشدَّ وعيد، إضافةً علىٰ ما في الصيغة السابقة من التهديد، فقال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾.

ثم قَرَن بهذه الشَّنيعة شنيعةً أخرىٰ، للإيذان بأنهما في العِظَم سِيّان، وللتنبيه علىٰ أنَّ ذلك دَيْدَنُهم وخُلُقُهُم، فقال: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، فسَنُعاقبهم علىٰ ذلك أشدَّ العقاب، ﴿وَنَقُولُ﴾ لهم زيادةً في إيلامهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ فهي عاقبة أعمالكم التي ظلمتم بها أنفسكم، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ فلا يجعل المفسدين كالمصلحين، ولا يجعل المتَّقين كالفجار. وفيه إيماءٌ إلىٰ أنَّ عملهم هذا ليس من ذات طبيعتهم، ولكن من إفسادهم لها، فما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

وفي قوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ نسبةُ ما للسلف إلىٰ الخلف، إذ كانوا علىٰ دَيْدنهم وسلوكهم في الفساد، ومثل ذلك من خصائص اللغة ومناهج القرآن. ونظير هذه الآيات قوله في سورة المائدة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ...﴾ [المائدة: ٦٤]. فانظر إليه.

ثم ذكر مَسَاءَةً أخرىٰ من مساوئهم يَتَعنَّتون بها ويكذبون علىٰ الله، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ في الاعتذار عن عدم الإيمان بمحمد ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾[1]، قال الأستاذ الإمام: والأظهر أن يكون المعنىٰ: حتىٰ يفرض علينا تقريبَ قربان يُحرق بالنار. فقد كان من أحكام الشريعة عندهم أن يحرقوا بعض القرابين.

قال في «المنار»: والقرابين في بني إسرائيل علىٰ قسمين: دموي، وغير دموي. فالقرابين الدمويَّة تكون من الحيوانات الطاهرة، كالبقر والغنم والحمام. وغير الدموية هي: باكورة المواسم والخمرُ والزيتُ والدقيقُ. والقرابين عندهم أنواع، منها: المحرَّقات والتَّقَدُّمات، وذبائح الخطيئة، وذبائح الإثم، وكانوا يحرقون المحرَّقات بأيديهم[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: أتزعم أنه أُوحي إليك بكتاب، وقد عُهِدَ إلينا في التوراة ألا نؤمن لرسول حتىٰ يأتينا بقربان تأكله النار، ويكون لها دويٌّ خفيف تنزل من السماء، فإن جئتنا بهذا صدقناك[3].

وقد أمر الله نبيَّه ﷺ أن يَردَّ عليهم، فقال: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات الواضحات ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ أي: بإحراق القَرابين،

---

(١) يظهر لي ـ والله أعلم ـ أنَّ مرادهم: لا نؤمن لرسول إلا أن يأتينا بشريعة مثل شريعتنا، وذكروا أمر القربان؛ لأنه ميزة خاصَّة بشريعتهم. يفهم هذا من الجواب، علىٰ نهج القرآن؛ لأنَّ حاصله أنَّ زكريا ويحيىٰ جاءا بمثل شريعتكم، فلمَ قتلتموهما أو قتلتم يحيىٰ؟ يُثْبت بهذا دَيْدَنهم وسلوكهم في معاكسةِ الرسل مطلقاً، علىٰ أيِّ وجه كانوا، وبأيِّ شريعة جاؤوا، شريعتهم أو غير شريعتهم. (المؤلف).

(٢) تفسير «المنار» (٤: ٢١٩- ٢٢٠).

(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (٩: ٤٤٥).

﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ في زعمكم أنكم تؤمنون بمَنْ هذه صفتُه، أو أنكم لا تؤمنون بي، لأني لم آمر بإحراق القرابين، أو لم آتِ بهذه المعجزة، وأولئك قد فعلوا.

وإنما أسند القتل إلىٰ هؤلاء المُخَاطَبين الذين كانوا في زمن النبيِّ ﷺ، مع أنَّ ذلك وقع من أجدادهم في الأزمان الغابرة؛ لأنَّ الأمة تعتبر وحدةً واحدةً، فتُخاطب بما فعل أوائلها وأواخرها معاً، لأن سلوكها متقارب يتأثر جيل عن جيل.

ثم ذكر ما فيه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ عن تكذيبهم له، وعدم إيمانهم به، فقال: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾، ففي الآية زيادةُ تنبيه له عن طبائع الأمم وأحوال الاجتماع.

ثم أكَّد التسلية بما يتضمَّن الوعد له ﷺ بالمكافأة العظمىٰ، تجاه ما يناله من الأذىٰ في سبيل الدعوة، ويَتَضمَّن الوعيد والتَّجهيل لأولئك المكذِّبين المُشِيعِين لموته في وَقْعة أُحُد، وللقائلين: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾؛ خِذلاناً للمؤمنين وشماتةً بهم، ذكر ذلك عندما تهيّأ السياق للوعيد العام للكافرين والوعد للمؤمنين، فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ أي: ما مضىٰ منها فحُلْمٌ، وما بقي فأمانِيُّ وخيالاتٌ، فماذا علىٰ مَن استبدل بهذه الحياة الفانية حياة سعيدة خالدة إذا استشهد في سبيل الله.

قال الأستاذ الإمام: الحياة الدنيا: هي السُّفْلىٰ أو القُرْبىٰ، والمراد منها حياتنا هذه. أي: معيشتُنا الحاضرةُ التي نَتَمتَّع فيها باللذَّات الحسيَّة كالأكل والشرب، أو المعنويَّةِ كالجاه والمنصب والسيادة، وهي علىٰ كلِّ حال متاعُ الغرور، لأنَّ صاحبها مغرورٌ مخدوع،

فهو يتعب لما لا يستحقُّ التعب، ويشقىٰ لتوهُّم السعادة، ويَصرِفُه غرورُه بها عن تكميل نفسه بالمعارف والأخلاق التي ترقىٰ بروحه إلىٰ سعادة الآخرة[1].

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

وبعد أنْ سلّاهم عمَّا أصابهم يوم أُحد، وَوَطَّن نفوسهم، أخَذَ يُبصِّرهم بسنن الاجتماع ونُظُمه الثابتة التي لا تَتَغيَّر، وهي أنَّ النهضات لا تتمُّ في طرق مفروشة بالورود، ولكن بالصُّعوبات، فأبان لهم أنهم سيجدون بعدُ في أداء مهمتهم كثيراً من الشدَّة والأذىٰ، فقال: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ بفرض الصدقات والبذل في سبيل الله والجهاد، وبما سينال أموالهم وأنفسهم من جرَّاء ذلك من المُصَادَرَة لأملاكهم في مكة، ومن الجوائح[2] والآفات والمصائب، إذ كل ذلك أمرٌ لا بد منه في الانقلابات والنهضات الإصلاحية، وما يُلابسها من مقاومات.

﴿وَ﴾ كذلك ﴿لَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ بأقوالهم وأفعالهم، وذلك أمر لا محالة ممَّن يُدْعَون لِنَبْذ دينهم واتِّباع دين جديد وعادات جديدة.

﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟﴾ علىٰ ما ينالكم ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ الفشلَ بالتدبير الصحيح، ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ أي: من الأمور التي يجب العزم عليها والصبر في سبيل

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ٢٢٣- ٢٢٤).

(٢) جمع جائحة، وهي: الشدَّة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال من سَنَةٍ أو فتنة. «لسان العرب» (جوح).

نشر الدعوات. وقيل: المراد من التقوىٰ: معناها العرفي، وهو شاملٌ لما قبله، وهي: أن يمتثل ما هَدَىٰ الله إليه فعلاً وتركاً، فإنها من عَزْم الأمور.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

وبعد أن حكىٰ سبحانه عن اليهود شبهاً ومطاعنَ في نبوَّته ﷺ وأبطلها، أتىٰ بما يُؤْذن أنه كان يجب عليهم أن يكونوا أوَّل المؤمنين، إذ قد أُخِذَ عليهم العهدُ بذلك في التوراة، وسَبَك الكلام علىٰ ذكر حالة أهل الكتاب عموماً، من عدم امتثالهم لما أمرهم الله به وأخذ عليهم الميثاق، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ لا بالرفع ولا بالتأويل والتحريف. ولكنهم نَقَضُوا الميثاق ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فتلاعب سَلَفُهم بالدين لِنَيْل المناصب واستغلال الناس، فكانوا مَغْبونين في ذلك البيع؛ لأنهم استحقُّوا به العقاب الشديد. ومهما يكن الثمن في جانب ذلك فهو من متاع الدنيا، ومتاعُ الدنيا قليل. وقد جَرَت كلمة ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مَجْرىٰ المثل في ترك الشيء وعَدَم المبالاة به.

ثم بالغ في تهجين أمرهم هذا، وقال: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾، وما أشدَّ خسران مَنْ يبيع الصلاح العامَّ في الدنيا، والنعيمَ الدائم في الآخرة، بثمن بَخْس دراهمَ معدودة ومناصبَ مفقودة! وهذه الآية ـ وإن كانت لليهود والنصارىٰ ـ فإنَّ بعض مدلولها ينطبق اليوم علىٰ المسلمين، فإنهم مع حفظهم لكتابهم، وتلاوتهم له علىٰ الدوام، قد تركوا تبيينه للناس علىٰ الوجْه المفيد، وفَقَدوا هدايتَه، وعَمِيَتْ عليهم عِظَاتُه وحِكَمُه

وأسراره، واعترفوا بأنَّهم انحرفوا عنه، وصار القابض علىٰ دينه كالقابض علىٰ الجمْر.

ثم تابع المعنىٰ وذَكَر حالاً آخر من أحوال أهل الكتاب، مُتمِّماً للأول في تقرير مضمون ما سَبَق، عائداً بفحوىٰ الكلام إلىٰ محوره السابق عن وفد نجران الذين فرحوا بموقفهم تجاه مجادلة رسول الله، في تفسيرهم معنىٰ «كلمة الله» في حقِّ عيسىٰ، بما يلائم عقيدتهم، علىٰ نهج القرآن في العودة للتذكير بما سبق، وتوعَّدهم علىٰ ذلك، فقال: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا﴾ من التأويل والتحريف للكتاب، وقُدرتهم علىٰ الإقناع والتمويه في أنَّهم أئمة مُصْلحون، يجبُ أن يُقْتدىٰ بهم، ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ من خير وصلاح، فيقال عنهم: إنهم حَمَلة الكتاب وحُفَّاظه، ومُفسِّروه وعلماؤه، ومُبيِّنوه ومُسْتَنْبطو مقاصدِه، وهم علىٰ نقيض من ذلك، إذ حوَّلوه عن الهداية إلىٰ ما يوافق الأهواء من مآرب وضلال، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: بمَنْجَاة منه، أو بُعْد عنه، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾.

وعن علقمة بن أبي وقاص: أن مروان قال لبوَّابه: «اذهب يا رافع إلىٰ ابن عباس، فقل: لئن كان كلُّ امرئ فرح بما أتىٰ وأحبَّ أن يُحْمَدَ بما لم يفعل مُعَذَّباً، لَنُعَذَّبَنَّ أجمعون. فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه، إنما دَعَا النبي ﷺ يهود، فسألهم عن شيء فكتموه إيَّاه وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾». من البخاري[1].

أقول: أما يجوز أن تكون علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]. والله أعلم.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٥٦٨)، ومسلم (٢٧٧٨).

ولما كان من سنن القرآن وأساليبه في البيان: أن يختم كل حُكم أو عدَّة أحكام بذكر الله تعالىٰ والأمر بتقواه والتذكير بدلائل قدرته وألوهيته ووحدانيته، حَمْلاً للتمسُّك بتلك الأحكام، (كما جاء في المادة الخامسة من المقدمة الثانية)، عَـقَّبَ السياق السابق بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾.

وبعد أن أطال الكلام عن المُبْطلين وشُبهاتهم من أهل الكتاب وغيرهم وردِّها، وعن بيان الحقِّ الواضح في الدعوة إلىٰ الله وتوحيده وتنزيهه، ذكر المؤمنين أُولي الألباب واستفادتهم من أدلة الكون في التوصُّل إلىٰ التوحيد والتنزيه والإيمان الصحيح، والتجاءَهُم إلىٰ الله وإعراضَهُم عمَّا سواه، وقَبولَ الله سبحانه وتعالىٰ لهم واستجابةَ دعائهم، ووَعْدَهُ إياهم بالوعد الكريم. وعرَّض بهؤلاء المُعَارضين المشاغبين وبعَمَىٰ بصيرتهم عن آيات الله الكونيَّة الدالَّة علىٰ حقيَّة هذا الدين المبين، وعلىٰ اختصاص الله سبحانه بالألوهيَّة، واستحقاقه وَحْدَه بأن يُعْبَدَ ويُلجأ إليه. وذلك علىٰ نهج القرآن في المقابلة، (كما جاء في المادة الرابعة من المقدمة الثانية).

وقد جعل مفتتح الكلام متابعة دليل القدرة، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾[1]، والخَلْق: هو التقدير والترتيب الدالُّ علىٰ النظام، ولا شك أن في نظام السموات والأرض آيات عظيمة، أقلُّها التوازن في التقارب والتجاذب والتناسب علىٰ كثرتها وعظمتها. جلَّ مَنْ هذا صنعه، وهكذا تشريعه للعباد.

وهذه الآيات يختلف ظهور عظمتها للعقول، باختلاف دقَّة النظر وسَعَة المعرفة. فعلماء الهيئة والأرصاد يعرفون من نظام السماوات والأرض ما يُدهش العقل ويُحيِّر اللُّبَّ. وقد مرَّ بيان شيء منه في سورة البقرة في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] فارجع إليه. وأما سائر الناس فحسبهم هذه المناظر البديعة والأجرام الرفيعة وما فيها من آيات ظاهرة وآثار باهرة تنادي بعظمة المُبدِع الحكيم، واستحقاقه وحده أن يُعْبَد، إذْ لا يُشاركه في هذا الأمر العظيم شريكٌ ولا شبيهٌ ولا مثيلٌ. وهذا هو الباب الذي تدخل منه الروح، فتعرج في مراقي الكمال إلىٰ مستوىٰ تشعر فيه بعَظَمَة هذا الوجود ومَنْ أوجده، وأنه هو وحده المستحقّ للعبادة والتقديس، وهذا هو معنىٰ آية النور، والمراد منها: أنَّ هذا الكون بما فيه من دقائق يظهر عَظَمة الخالق وربوبيَّته واختصاصه بالألوهيَّة وحده دون من سواه.

---

(١) قيل لأعرابي: بم عرفت الله؟ فقال: البعرة تدل علىٰ البعير، وآثار الأقدام تدل علىٰ المسير، فسماء ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، ألا يدلان علىٰ الحكيم الخبير؟!

وقال العلامة هرشل الإنكليزي من أكبر علماء الفلك: كلَّما اتَّسع نطاقُ العلم ازدادت البراهين الواسعة القوية علىٰ وجود خالق أزلي لا حدَّ لقدرته ولا نهاية لعظمته. فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا علىٰ تشييد صرح العلم، وهو في الحقيقة صرحُ عَظَمةِ الخالق وحده. (المؤلف).

وقصة الأعرابي ذكرها الرازي في «تفسيره» (٣: ٣١٩).

ثم ذكر صفات أُولي الألباب هؤلاء، وما استفادوه من نظرهم في إبداع هذه السماوات ومبدعها، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾، والمراد من ذلك: الاعتماد علىٰ الله، والسؤال منه في سائر الأوضاع والشؤون والأحوال، وتذكُّر عظمته ونِعَمِه وفَضْله وحِكَمِه، حتىٰ ينتهي هذا التفكير إلىٰ العلم بأنَّ الله سبحانه لم يخلق هذه الأشياء الكونيَّة بهذا الإبداع والإتقان باطلاً وعبثاً، وإنما هو أمرٌ له ما وراءه من مصير وقرار، فإما الجنة أو النار، فيستجيرون من النار، كما حكىٰ ذلك عنهم سبحانه بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قائلين: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا﴾، ولكن لمقاصدَ نبيلةٍ وغايات جليلة، ينال المحسن منها أعظمَ نصيب، ويحلُّ بالمسيء ما يصيبه من عذاب السعير وآلام اللهيب، ﴿سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾.

ومحصَّل الكلام: أنهم ينظرون إلىٰ هَيْبة ذلك الربِّ العظيم الذي خَلَق تلك الأكوان الدالَّة علىٰ عِظَم قُدرته وجبروته، فيعلمون أنَّ من عارضه وعَصَاه، فلا مَلْجَأ له ولا مَهْرَب ولا استقرار، ﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾.

ثم ذكروا صورةَ إيمانهم وسرعةَ استجابتهم، وقَرَنوا ذلك بتتميم الدعاء لِنَيْل ثمرته التي وَعَدَ الله بها المؤمنين، فقالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ﴾ وهو الرسول ﷺ، دعانا ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾، وعدّىٰ الفعل بـ«علىٰ» لتضمُّنه معنىٰ الإنزال، علىٰ نهج القرآن في ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية).

ثم أكَّدوا ذلك الدعاء بقولهم: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: بإدخالنا النار التي يُخْزىٰ مَنْ دخلها. ففي الجملة مقابلةٌ لقوله: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾.

ثم ختموا الدعاء بهذا الثناء، فقالوا: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾، فسجَّلوا بهذا التَّسجيل طلباً للاستجابة ورجاءً لها، فسجَّل لهم سبحانه بقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ علَّة هذه المساواة بين الذكر والأنثىٰ، بقوله: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ الأمر الذي استحقُّوا به ما طلبوا من تكفير السيِّئات، فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، فاكتفىٰ من صفات الجنات بأبْرز صفاتها. ومثل هذا الاكتفاء من خصائص اللغة وأساليب القرآن. وكان ذلك الجزاء ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

ثم ختم الكلام بما فيه أكبر رجاء، وأعظم أمل، وأكرم وَعْد للمحسنين، فقال: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ فَضْلاً منه ورحمة، وإن كان قد رتَّبه علىٰ الأعمال والأسباب.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾.

ولما كان ضعفاء المؤمنين يَسْتبطئون وَعْدَ الله لهم، ويَرَوْنَ تَفَوُّق الكافرين في بعض أحوال الدنيا مُنغِّصاً لهم، ومُخْدشاً لنفسيَّتهم، بيَّن لهم تعالىٰ حَقَارة ما أُوتي الكَفَرة من حظوظ الدنيا، وسُوء مغبَّته عليهم، وعظمة ما أوتي المؤمنون من نعيم الآخرة وجزائها الأوفىٰ، مُخَاطباً في ذلك النبي ﷺ علىٰ طريقة خطاب الرئيس بما يُراد من

الاتباع، وضمَّنه الإيماء إلىٰ ضؤولة ما وقع من غَلَبة المشركين في أُحد، ووعيدهم فقال: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾ للمتاجر والمراعي والمزارع آمنين مُعْتزِّين، فذلك ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ زائل، ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾.

هذا المصير الذي قابله بمصير المؤمنين، فقال: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، والنُّزل: ما يُهيَّؤ للضيْف النازل معجَّلاً، وهذا هو النعيم الجسماني، ﴿وَمَا﴾ لهم فوق ذلك ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ من النَّعيم الروحاني برضوان الله الأكبر ﴿خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ من متاعِ الدنيا الذي يتقلَّب به الكفَّار.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

وبعد أن بيَّن حالَ المؤمنين وما أعدَّه لهم من الثواب، وحالَ الكافرين وما هيَّأه لهم من العقاب، ذكر فريقاً من أهل الكتاب يهتدون بهذا القرآن، وكانوا من قبل يهتدون بما عندهم من هَدْي الأنبياء، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالاستثناء تحقيقاً للحقِّ الدقيق، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، وهذه الآية في حكم الاستثناء مما سبق في الجملة علىٰ أهل الكتاب.

فسجَّل لهذا الصنف منهم بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، ثم علَّل هذا الوعد الكريم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ أي: يوفِّي كلَّ كاسب أجرَه بحسبه علىٰ إثر عمله، لأنَّ سنَّته مَضَتْ أن تكون النتائج آثار الأعمال

ومرتَّبة عليها، فهو يوفّي كلَّ عامل عمله بلا إبطاء، وكما يكون الجزاء سريعاً في الدنيا حيث تظهر نتائج الأعمال عند انتهائها، كذلك يكون في الآخرة، فإنَّ أثر الأعمال يظهر للمرء عَقِبَ الموت، وهو أول قدم يضعه في باب عالم الآخرة.

وقيل أيضاً في معنىٰ ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾: أنه يحاسب الخلق كلَّهم كنفس واحدة، بحيث يَتَمثَّل لهم كل عمل سبق منهم. وهذا الانكشاف السريع هو سُرعة الحساب، إذ يُدرك كلُّ واحد منهم ما عمل من خير أو شر، فيعلم ما له وما عليه، وما يستحقُّ علىٰ كل عمل منها من نعيم أو عقاب.

ثم ختم سبحانه وتعالىٰ السورة التي احتوت علىٰ مواقف المؤمنين مع المعارضين والمقاومين، بهذه الوصيَّة للمؤمنين، لأنها هي التي يَتحقَّق بها إيفاءُ الوعد بالنَّصر في الدنيا، وحُسْن الجزاء في الآخرة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ﴾ علىٰ ما يلحقكم من الأذىٰ، ﴿وَصَابِرُواْ﴾ الأعداء، أي: غالِبُوهُم بالصبر والثبات، والغلبةُ للصابرين، ﴿وَرَابِطُواْ﴾ الثغور كي لا تُؤْخَذوا منها علىٰ غِرَّة، كما وقع لكم في أُحد حين ترك الثغرَ حرَّاسُه.

والصبر عدَّة الحياة، لأنها كدح وجهاد، فإن لم يكن الإنسان معتاداً علىٰ الصبر خَارَتْ قُواه، وضَعُفَ عن مواصلة السَّيْر، وفشل في أموره. والمصابرة: المُغَالَبة في الصَّبر، لأن النجاح للغالب فيه، والتقوىٰ هو العنصر المهمُّ في الفلاح، لذلك قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ لأنَّ فيها اتِّقاء لمعاكسة سُنن الله.

ومُصَابَرَةُ الأعداء لا تكون إلا بالتفوُّق في العلوم والصناعات، ولا سيما الحربيَّة منها، فهي واجبةٌ علىٰ المسلمين في هذا العصر، بحكم الدلالة الضمنيَّة لهذه الآية وغيرها، لأنَّ ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب، كما قُرِّر في الأصول. والله أعلم.

وأما التقوىٰ، فقد قال الأستاذ الإمام: هي أن تَـقيَ نَـفْسَكَ من الله، أي: من غَضَبه وسَخَطه وعقوبته. ولا يمكن هذا إلا بعد معرفته ومعرفة ما يُرضيه وما يُسْخطه، ولا يَعرِفُ هذا إلا من فهم كتابَ الله تعالىٰ، وعَرَف سُنَّة نبيِّه ﷺ، وسيرةَ سلف الأمة الصالح، مُطالباً نفسه بالاهتداء بذلك كلِّه، فمَنْ أعـدَّ نفسه لذلك الفلاح فقد فاز بالسعادة الأبديَّة. جعلنا الله من الفائزين.

ومن سُنَّة القرآن: أن يذكر الصبر في كلِّ مقام يشقُّ علىٰ النفس، وقد ذكره في نيِّف وسبعين موضعاً منه، إذْ مما لا شك فيه أنَّ الأفراد والأمم إذا عرفت الغايةَ والوسيلة وعملت واستمرَّت وصابرت وصَبَرت، نالت بعون الله الغاية؛ لأنَّ ذلك من سُنن الله الطبيعيَّة، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولا يتمُّ الصبر في الحروب إلا مع العُدد القويَّـة، فاتِّخاذها وصُنْعها من أكبر الواجبات وأعظمِها شأناً، ونحن عن هذا غافلون.

❊ ❊ ❊

# فهرس محتويات المجلد الثاني


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| المقدمة | ٥-٨ |
| أثر هذا القرآن في المجتمع الذي يسود فيه | ٩-١٠ |
| تفسير سورة الفاتحة | ١١-١٨ |
| تفسير سورة البقرة | ١٩-٤٣٧ |
| تفسير سورة آل عمران | ٤٣٩-٥٩٧ |


❊ ❊ ❊